
شارلوت برونتي
فيليت
ترجمة
محمود فاضل الخفاجي
وجورج يوسف الشماسي
مكتبة النهضة بغداد

شارلوت برونتي



ترجمة

جورج يوسف الشماس و محمود فاضل الخفاجي

منشورات
مكتبة النهضة - بغداد

الفصـــــل الاول

ـ بلـدة بريتـــون ـ

عاشت عرابتي في بيت انيق كائن في بلدة بريتون القديمة وكانت عائلة زوجها تقطن هناك منذ اجيال بحيث حملت اسم مسقط رأسهـا ٠٠ بريتون او البريتونيين ولا دري ما اذا كان هذا قد حدث مصادفة ام لا لأن احد الاجداد القدامى كان شخصية تتسم بالاهمية اللازمة بحيث ترك اسمه عند جيرانه الى هذا المدى من الواقعية ٠

عندما كنت فتاة كنت اذهب الى بريتون مرتين في العـام الواحـد متمتعة بتينك الزيارتين ذلك ان الدار ونزلاءه كانت تروق لـدي بشكل خاص بغرفه الكبرى الهادئة والاثاث المرتب ترتيبا جيدا والنوافذ الوسيعة النيرة والشرفة الخارجية المطلة على الشارع العتيق الزي وديمومة الآحـاد والعطل ٠ وكان لهدوء الاجواء ونظافة رصيف الشارع وغير ذلك وقعهـا البهيج في قلبي ٠

ان طفلة في دار فيه قاطنون كبار السن كانت مثار تدليل واهتمام وكانت السيدة بريتون الارملة تملك ابنا واحدا فقط قبل ان اعرفها ٠٠ لقد كان زوجها طبيبا مات وهي لم تزل امرأة شـابة وسيمة ٠ ولم تكن صغيرة السن كما اتذكر ولكنها كانت مع ذلك لا تزال وسيمة فارعة الطول، ذات تكوين جسماني جميل ومع انها كانت سمراء بالنسبة للمرأة الانكليزية الا ان امارات الصحة كانت بادية على محيا وجهها وعلى خديهـا الاسمرين وتشع عيناها السوداوان المرحتان الرائعتان بأشعاع نوراني ٠

واعتبر الناس ان مما يوجـــب الاستغراب المؤسي الا تترك الوالدة سماتها وصفاتها الجسمانية وشكل بشرتها على الطفل الـذي كانت عيناه زرقاوين وفي ايام صباه حادتين وثاقبتين وكان لون شعره الطويل قد حير

الاصدقاء فلم يقووا على المجازفة بوصفه ما عدا عندما كانت الشمس تشع عليه فيسمونه بالشعر المذهب ·

لقد ورث خطوط ملامح وجه امه وشكل اسنانها الجميلة وقامتها او توقع حمل شكل قامتها اذ كان لا يزال طفلا لم يكتمل نموه بعد واذا اردنا الوصف بشكل افضل نقول ورث صحتها دونما نقص وحيويتها المنبثقة من نبرات صوتها وهي افضل من كنز لدى من يملكها · وفي خريف ذلك العام مكثت في بلدة بريتون وجاءت عرابتي شخصيا تطالب بي وتعتبرني واحدة من اقربائها لتثبت معها في ذلك الوقت اقامتي الدائمة ·وفي اعتقادي انها رات آنذاك الاحداث قادمة بشكل واضح دون ان استطيع الا بصعوبة ان احزر ظلها او خيالها غير ان الشك الضئيل كان كافيا لان يضفي علي كآبة لا تعرف الاستقرار ولكن أبهجني ان ابدل المنظر والمجتمع ·

ومرت الايام على طول مرورا رائقا وانا بجانب عرابتي ·· لم تكن تمر بسرعة مضطربة وانما كانت تمر برقراقــة ومنسابة كانسياب النهـر الفياض في السهل · واشبهت زياراتي لها واقامتي معها اقامة « الانسان المفعم بالامل » بجانب جدول بهيج على ضفتيـــــه تنتصب الاشجار الخضر والمروج التي تعج بها وتجملها الزنابق طيلة العـــام · ان سحر الاشياء المتنوعة لم يكن لها من مثيل وكذلك الاحداث المثيرة وكنت اتعشق الهدوء والسلم ولا اريد دائما التحريض او الاثارة بدليل انه ما ان يحـدث شيء كهذا الا واشعر انه من قبيل القلاقل المزعجة التي اتمنى سرعـة ازالتهـا والقضاء عليها ·

وفي ذات يوم استلمت السيدة « بريتون » رسالة سببت لها محتوياتها استغرابا وقلقا وظننت لاول وهلة ان الرسالة هــي من البيت فارتعشت وتوقعت عدم معرفة ما يتصل بي منها من مزعجات ولم يتبين احـد محتوى هذه الرسالة وبدا كما لو ان الغيمة قد توارت · وفي اليوم التالي عنــد عودتي من نزهة طويلة مشيا على القدمين توقعت وانا ادخـــل الى فراشي حدوث تبدل فجائي ، فعلاوة على سريري الموضوع في موقع منعزل عاينت سرير طفلة صغـيرة مكسو باللون الابيض ووجدت عـــلاوة على خزانتي الخشبية المزخرفة ذات الادراج خزانة صغـــيرة مصنوعة من خشب الورد ووقفت صامتةاحدق متفرسة بماث وجدتوافكر مليا بهـا واسائل نفسي عم تدل او ترمز اليه هذه العلاقات والنماذج · وكان جوابي على تساؤلي

هذا واضحا ٠٠ لابد ان ضيفا ثانيا قدم الينـــا فالسيدة بريتون غالبا ما تستقبل الزوار الآخرين ٠

ولدى نزولي لتناول الطعام ظهرت الايضاحات وقيـــل لي ان طفلة صغيرة ستراقفني عما قريب ، هي طفلة صديق وقريب كان مقربا عنـــد المرحوم الدكتور بريتون وتوفيت والدتها مؤخرا علما بأن السيدة بريتون كانت تريد اخذها قبل ذلك ومع ذلك لم تكن الخسارة فادحة كما ظهر لاول وهلة وقيل ان السيدة « هوم » كانت جميلة جدا ولكن في الوقت عينــه طائشة ومهملة غالبا ما كانت تهمل امر طفلتها فخيبت بذلك آمل زوجهـا بها وثبطت من همته وما ان حصل التفاهم بينهما على الزواج حتى تحقق الفراق في آخـر الامر بموافقة الطرفين ودون اية اجراءات رسميـة او قانونية ٠

وبعد هذا الحدث بمدة وجيزة اجهدت المرآة نفسها اكثر من الـلازم واصابها البرد الشديد ثم الحمى وتوفيت بعد مرض قصير الامد ، امـا زوجها الذي كان بطبيعته رجلا ذا مشاعر حساسة فقـــد صدمه الخبران المفاجئان جدا وهما اللذان لم يقو على التعبير عنهما ولم يصغ الى ما حاول الناس مؤاساته به وراح يستذكر القسوة المتناهية التي بـدرت منه ازاءها ويلوم قلة اصطباره وعدم تساهله في علاقاته معها الامر الذي جعله يؤمـن بانه هو الذي عجل بوفاتها ٠

وراح يطيل التفكير بذلك ليل نهار الى ان اثر ذلك اسوأ تاثير على حالاته النفسية والح الاطباء عليه بوجوب السفر كعلاج له ووعدت السيدة بريتون بتولي امر طفلته وقالت لي عرابتي اخيرا ان الطفلة لن تكون كأمها التي كانت تتصف بالغباء والتغنج وان مغازلة لعوبة من لدنها ــ وهي ما دأبت عليه ــ كانت قد جعلت الرجل الحساس اضعف من ان لا يتزوجها في حينه ٠

قالت العرابة ايضا ان المستر « هوم » كان مرهف الحس بطبيعتـــه علاوة على انه لم يكن جد عملي انما كان مولعا بالعلم امضى نصف عمره في تجاريبه المختبرية وهو امر لم يكن بوسع زوجته الشبيهة بالفراشة ان تفهمه او تتحمله واعترفت عرابتي قائلة « انا نفسي لم يكن يعجبني » واجابتني على سؤالي ان زوجها المرحوم كان يكرر القول بانه استمد نزعته العلمية من خاله الذي كان عالما فرنسيا انحدر من ارومة فرنسية واسكتلندية وله

الغرباء يعيشون الان في فرنسا يضع معظمهم كلمة « آل » امـام اسمائهم ويعتبرون انفسهم من ارومة النبلاء .

وفي الساعة التاسعة من تلك الليلة ارسل خـادم للقاء العربة التي كانت زائرتنا الصغيرة موجودة فيها وجلست انا والسيدة بريتون وحيدتين في غرفة الرسم منتظرتين قدومها وكان جون غراهام بريتون غائبا في زيارة لواحد من زملائه في المدرسة كان يعيش في الريف وكانت عرابتي تقـرأ جريدة مسائية وهي تنتظر وكنت امارس الخياطة في تلك الليلة الرطبة التي كان فيها المطر المدرار منهمرا تضرب قطراته زجاج النوافذ والرياح تعوي وتلعلع غضبى على غير هدى .

وكانت السيدة بريتون تكرر هذا القول بين الفينة والفينة « ياله من جو سيء على هذه الطفلة .. لكم اريدها في امان هنا » وقبل الساعة العاشرة بقليل انبأ جرس الباب عن مقدم « وارن » وما ان فتح الباب حتى هرعت في النزول الى الردهة حيث خزانة الثياب والتبعات المنزلية وقـد وقف خلفها خيال شخص يشبه الممرضة وتحت السلم وقف « وارن » وبين ذراعيه حزمة من شال .

وسألته هل هذه هي الطفلة ؟ فاجابني « نعم ايتها السيدة » .وكنت اروم فتح الشال لالقاء نظرة على وجهها ولكنها تحولت عني الى كتف «وارن» بسرعة ، وند صـوت ناعـم من فـم الطفـلة عندما فتح « وارن » باب غرفة الاستقبال قائلا « رجاء انزلني وارفع عني هذا الشال » .وبعد ان خلعت الطفلة بيدها الناعمة الدبوس ورفعت عنها بسرعة الغطاء الثخين حاولت برشاقة ان تطوي الشال ولكن الغطاء الفضفاض كان اثقل واكبر من ان تقوى تانك اليدان الصغيرتان والذراعان الصغيرتان على معالجتـه وتثبيته وبعد ان قالت .. « اعطيه لهريت فهـي التي ستسويه » حولت وجهها الى السيدة بريتون ورنت اليها باهتمام .

وقالت السيدة بريتون «تعالي الي ايتها العزيزة ..تعالي ودعيني ار ما اذا كنت قد اصبت بالبرد والرطوبة .. تعالي ادفئك قرب النار» وتقدمت الطفلة صوب السيدة بسرعة وبعـد ان تخلصت من غطائها بدت صغيرة ونظيفة وانيقة وخفيفة الوزن ونحيفة ذات قامة معتدلة وبعد ان جلست في حضن عرابتي الرحب ظهرت كما لو انها مجرد دمية رقبتها رقيقة كالشمع والذي يزيد في هـذا التشبيه ترتيب شعرهـا الفضي المعقوص وشكله .

وتحدثت السيدة بريتون معها بعبارات الشوق البسيطة وهي تمرر باناملها ـ حنانا ـ على يدي الطفلة وذراعيها وقدميها وجوبهت من قبل الطفلة في بادىء الامر بنظرة تائقة ثم بابتسامة سريعة ويمكن القول ان السيدة بريتون لم تكن بالامرأة الملاطنة حتى مع ولدها الذي كانت تعزه كثيرا جدا ونادرا ما كان مزاجها لطيفا انما كان الامر معكوسا ولكن ماان ابتسمت لها الطفلة الغريبة حتى قبلتها وسالتها عن اسمها فقالت « اسمي ميسي » واجابتها هل يوجد لك اسم اخر سوى « ميسي » فقالت ٠٠ انا ابي يناديني ٠٠ بولي ٠٠ وسالتها السيدة بريتون « هل ان بولي تريد العيش معي » فاجابتها « ليس دائما ٠٠ ابقى معك حتى وصول والدي الذي هو في الخارج » ٠

وهزت الطفلة راسها بشكل معبر قائلة « سيعود الى بولي او يرسل في طلبي اليس كذلك يا مدام ٠٠ هل تدرين انه سيفعل ذلك ؟ » واجابتها السيدة بريتون « اظن انه سيفعل ذلك » الا آن « هريت » ترى انه لن يفعل ذلك ولمدة طويلة في الاقل لانه مريض ٠٠ وترقرقت الدموع في عينيها وجرت يدها من يد بريتون وقامت بحركة همت بها ان تغادر حضنها في اول الامر غير ان الطفلة قالت للسيدة بريتون « ارجوك دعيني اذهب فبوسعي الجلوس على المقعد الصغير » ٠

وسمحت لها السيدة بريتون بالانفلات من ركبتها ورفعت مقعد القدمين وحملتها الى زاوية ظليلة وقعدت هي نفسها هنالك ٠ والمعروف عن السيدة انها وان كانت في الاغلب هي صاحبة الامر والنهي وحتى دكتاتورية في الشؤون الخطيرة الا انها كانت مع ذلك متساهلة في الشؤون الاعتيادية او التافهة فقد سمحت للطفلة ان تمضي في طريقها قائلة لها « لا تهتمي بذلك في الوقت الحاضر » ٠

غير انني لاحظت ذلك واهتممت به ٠٠ لاحظت بولي تضع مرفقها على ركبتها الصغيرة وراسها على يدها وتسحب منديلا جيبيا بحجم انج مربع او انجين من جيب ثياب دميتها وسمعتها تبكي ٠ ان الاطفال الآخرين يجهشون بالبكاء اذا كان هنالك ما يحزنهم او يؤلمهم دون استحياء ودون كبح ولكن تلك المخلوقة بكت ودلت شهقاتها اثناء البكاء على مدى جيشان عواطفها ، اما السيدة بريتون فلم تسمعها تبكي وانما سرعان ما وصل الي صوتها من زاوية البيت تطالبني بدق الجرس على هريت ودققت الجرس وجاءت

المرضة هريت حيث قالت لها سيدتها الصغرى ٠٠ « هريت ٠٠ اريد ان انام وعليك ان تعرفي اين هو فراشي » ٠

وافادت المرضة انها سبق ان سالت عن مكان فراشها وقالت لها الطفلة « اسالي عنه اذا كنت تريدين ان تنامي معي يا هريت » واجابتها المرضة هريت قائلة « كلا ٠٠ يا ميسي ٠٠ عليك ان تشاركي هذه السيدة الصغيرة غرفتها في النوم » واومات الي وهي تقول ذلك ٠ ولم تغادر ميسي مقعدها ولكنها اجالت عينيها في وبعد دقائق من امعان النظر في وجهي بصمت خرجت من زايتها وهي تقول للسيدة بريتون « ليلة سعيدة يامدام» واجتازتني بصمت فقلت لها « ليلتك سعيدة يا بولي » ٠

وقالت لي بولي ٠٠ « لا حاجة لان تقولي ذلك لاننا سننام في الغرفة ذاتها » ثم خرجت من غرفة الاستقبال وسمعت هريت وهي تقترح حملها الى الطابق الاعلى ٠

وجاء الجواب لا حاجة لذلك ٠٠ لا حاجة ٠٠لا حاجة وسمعت خطواتها على درجات السلم ٠ وعند ذهابي الى فراشي بعد مرور ساعة وجدتها يقظة لم تنم بعد وقد هيات وسادتيها لاسناد جسمها الصغير على هيئة الجلوس واستقرت يداها المتداخلتان الواحدة مع الاخرى على الغطاء الملائي بهدوء بعيدا عما يفعله الاطفال واعرضت عن التحدث معها برهة وجيزة ولكن قبل اطفاء الضوء طالبتها بأن تتمدد لتنام ٠

وكان جواب الطفلة « وداعا ٠٠ » وقلت لها « اخشى ان تبتردي يا ميسي » ولدى سماعها كلامي تناولت قطعة خفيفة من القماش الموضوع على الكرسي الذي كان بجانب السرير غطت به كتفيها وخليتها تفعل ما تشاء وبعد ان ارهفت سمعي برهة في الظلماء ادركت انها لا تزال تبكي ولكن بهدوء وحذر وكبح ٠

واستيقظت حين طلع الصبح على صوت قطرات ماء تسيل وصحت بها ٠٠٠ خذي حذرك ٠٠ فقد كانت قد نهضت من نومها وصعدت على الكرسي الذي يستعمل لسند القدمين وكان موضوعا بالقرب من المغسلة وبكثير من الصعوبة والمعاناة ارادت ان تملي الكور او الابريق لتصب من مائه في الحوض دون ان تقوى على رفعه وامالته وكان امرا ملفتا للنظر

ان يشاهدها المرء وهي تغتسل او ترتدي ثيابها وهي في سنها الطفولي وحرصها على ان لا تحدث ضوضاء ..

ويبدو انها لم تألف كثيرا انجاز شؤون الحمام والغسل وما الى ذلك، وكان يصعب عليها ايضا ما يتصل بالازرار والخيوط والكلاليب والعرى بيد انها استطاعت تذليلها بالمراقبة والمثابرة بحيث اخذت تطوي ثوبها الليلي بنفسها وتنعم اقمشة سريرها واجواخها وتمسدها تمسيدا بيديها الى حد النظافة التامة . وعاينتها وانا نصف يقظة وقد تراجعت الى الزاوية تخفيها ذيول الستارة البيضاء وظلت على صمتها ، ثم رفعت رأسي لارى ما الذي كانت تفعله فوجدتها راكعة وجبينها مائل على كلتا يديها وادركت انها كانت تصلي .

وطرقت ممرضتها الباب فجفلت ونهضت وخاطبتها من وراء الباب قائلة « ارتديت ثيابي يا هريت .. ارتديتها ولكنني لم انظف نفسي بعد ... دعيني انظف نفسي » . وقالت لها الممرضة « لماذا ارتديتها يا ميسي ؟ » واجابتها الطفلة « صه .. تكلمي بصوت واطيء يا هريت لئلا توقظين الفتاة النائمة » وكانت تعنيني بالذات دون ان تدري انني كنت يقظة وان عيني مغمضتان .

واجابتها الممرضة « هل تريدين ان اذهب » واجابتها « قلت لك مرارا انني اريدك ان تذهبي ولكن ليس قبل ان تشدي حزامي شدا محكما وتمشطي شعري ... رجاء » واجابتها الممرضة « حزامك مشدود شدا صحيحا .. ما ابدع جسمك وطولك » واجابتها الطفلة « ليس حزامي مشدودا على الشاكلة الصحيحة ارجوك تعالي وشديه مرة اخرى » وقالت لها الممرضة « انا ذاهبة واطلبي من هذه السيدة الصغيرة ان تشده لك » وقالت الطفلة .. « كلا .. ابدا .. » وقالت لها الممرضة « لماذا ؟. انها سيدة صغيرة وفي منتهى اللطف . آمل ان تتصرفي معها تصرفا لائقا وحسنا يا ميسي والا تبدي لها تبرمك منها او تعاليك عليها » . واجابتها الطفلة « قلت لك كلا .. كلا .. ابدا لا اريدها ان تلبسني ملابسي ».

وقالت الممرضة لها « شيء يدعو للضحك » وقالت لها الطفلة « لا ينبغي عليك يا هريت ان تدخلي المشط مباشرة في شعري ودفعة واحدة لان اسنان المشط ستلتوي » وقالت الممرضة « تتحدثين بلهجة ليس فيها رجاء فهل يليق هذا بك ؟ » واجابتها الطفلة « حسنا .. واين سأذهب الآن بعد ان ارتديت

ملابسي ؟ » •• واجابتها الممرضة ساخذك الى غرفـــة الافطار » فأجابتها الطفلة •• « تعالي اذن » •

وما ان انطلقنا خارج البـــاب حتى توقفت الطفلة قائلة « آه •• يا هريت •• كنت اتمنى ان يكون هذا الدار دار ابي فأنا لا اعرف هؤلاء الناس » وقالت لها الممرضة « كوني طفلة مؤدبة يا ميسي » واجابتهـــا الطفلة « انا مؤدبة ولكنني اشعر بألم في هذا المـــكان واومات الى مكان قلبها وراحت تئن مرددة كلمة « ابي ••• ابي •• ابي » •

ونهضت من فراشي ورحت اتفحص هذا المشهد وهـــو قريب مني وقالت هريت للطفلة « قولي للسيدة الصغيرة •• صباح الخـير » وقالت الطفلة لي « صباح الخير •• ثم لحقت بالممرضة هـريت من غرفتها » وحدث ان الممرضة غادرت الدار بصورة مؤقتة في ذلك اليـــوم لزيارة البعض من صديقاتها اللواتي كن يسكن بجوار الدار •

وعند نزولي وجدت بولينا في غرفة الافطار (اسمت الطفلة نفسها برلي علما بأن اسمها الكامل كان بولينا ماري) وقـــد جلست الى جانب السيدة بريتون وامامها كوز من الحليب وملأت قطعة من الخبز يدها التي كانت موضوعة على منضدة الملابس ولكن لم تكن تأكل •

وقالت السيدة بريتون لي « لا ادري كيف نرضي هـــذه المخلوقة الصغيرة فهي لم تتذوق طعاما ويبدو من ملامح وجهها وعينيها انها لم تنم وقلت لها « انني على ثقة من ان هذا سيسوى بمرور الوقت وبابداء جانب العطف عليها دائما » واجابتني السيدة بريتون « لو انها ابدت ميلا لاي شخص كان في هذا الدار لهان الامر ولسوي وضعها معنا ولكنها لم تبد مثل هذا حتى الآن » •

الفصـــل الثـــاني

ـ بولينـــا ـ

مرت بضعة ايام وظهر ان ليس هناك احتمال ان يكون لها ميـــل خاص لاي من اهل الدار رغم انها لم تكن بالشريرة ولا بالمكاره ولم يبد عليها قط انها غير مطيعة ٠ وانما كمن قلما سيفضي بها الامر الى السلوان بل حتى الى اقل من الطمانينة التي كانت تتظاهر بهـــا تظاهرا وكانت امكانية تحقيق ذلك امام مرآى الانسان نادرة ٠٠ كانت تستغرق بتفكيرها الكئيب وما كان بمقدور شخص اكبر منها سنا ان يكمل مهمتها العسيرة بصورة افضل مما كانت تفعله ٠

ولم يكن هنالك من وجوه ـ حتى وان كانت كالوجوه المتغضنـــة للمبعدين عن دورهم التي يتوقون اليها ـ تحمل امارات الحنين اليهـــا كالامارات التي كان يحملها محياها الطفولي ويبدو انها كانت تترعرع ولكن على هيئة غريبة وحيثما كنت افتح باب الغرفة كنت القاها جالسة في الزاوية وحيدة ورأسها في راحة يدها الصغيرة الناعمة ٠ أنا المدعوة لوسي سناو بريئة من تلك اللعنة فقد كانت ذات خيال هائم مترقد وكنت اتصور ان غرفتها تلك غير مسكونة بل مسحورة ٠

وفي الليالي المقمرة حين كنت استيقظ كنت اعاين وجهها الجميل الابيض وهي في لباس النوم راكعـــة في منتصف الفراش تصلي او كقديسة باكرة النضوج جاءت قبل اوانها ٠ ومن النادر ان اعرف ماذا كان يدور في رأسي من افكار في مثل تلك الحالات وكل ما استطيع ان اقوله ان ذهنيتها كانت اصح واكثر عقلانية مما يمكن ان يملكه اي فكر طفـــولي ٠

وقلما كنت اسمع كلمة من كلمات صلواتها لانها كانت صلاة خافتة كالهمس واحيانا لم تكن تهمس همسا قط وانما تند عن فيها بلا لفظ غير ان بعض عباراتها النادرة التي كانت تصل اذني كانت تحمل هـــذا العبء ٠٠٠ ابي ٠٠٠ ابي العزيز ٠٠ واحسست ان مثل هذه العبارات كانت ذات طبيعة احادية الفكرة تلفظ الاتجاه الاحادي المس الذي غالبا

ما يتعرض له الشخص الاتعس حظا باللعنات والاعذبة (جمع عذاب) ويا ليت شعري ما الذي سيؤول اليه هذا القلق والاضطراب لو استمر دون ان يوضع له حد ؟ انه طي الحدس والتخمين ... وظهر أن حدثا فجائيا قد طرأ .

في ظهيرة احد الايام حاولت السيدة بريتون ان تثنيها - باللطف- عن عادة جلوسها في زاوية الغرفة وحولتها الى مقعد بجانب الشباك ولتحويل وجهة اهتمامها الى وجهة اخرى طلبت منها ان تراقب المارة وتتفرج عليهم وتعد كم سيدة تكون قد مرت من الشارع ضمن وقت محدد . وقد جلست ميسي كسلى فاترة الهمة قلما تراقب أو تتفرج على من يمشي في الشارع ودون تعداد .

ولما كانت عيناي مسمرتين عليها فقد لاحظت من خلال قزحيتهما خطرا خارجيا مروعا . ان هذه الطبائع الخطرة المفاجئة التي تسمى بالحساسة تبدي وتظهر الكثير من المشاهد الغريبة امام اولئك الذين تصونهم طبائعهم الباردة عن ان يسهموا في تقلباتهم واوهامهم المزوية. وطافت النظرة المتفرسة وارتعشت ثم تألقت كتألق لهيب النار ، واستنار حاجبا الصغيرة المعتمان واستنارت ملامحها وتوارت السيماء الحزينة وحل محلها شوق مفاجيء وترقب انفعالي . وندت عن شفتيها الكلمتان التاليتان .. انه هو .. انه هو ..

وخرجت من الغرفة بسرعةالطير او بسرعة اي شيء يتصفبالسرعة ولا ادري كيف وجدت باب الدار مفتوحة .. ربما كان مفتوحا بشكل جزئي وربما كان الرجل الذي رأته « وارن » يمضي في طريقه فاطاعها ونفذ مطلبها الذي ربما اعتبر طائشا بما فيه الكفاية . لقد شاهدتها وانا - اراقبها من الشباك بهدوء - تمرق كالسهم وسط الشارع في ثوبها الاسود ومئزرها المزركش الصغير وتقطع نصفه .

وعندما هممت ان أنبيء السيدة بريتون بأن الطفلة جنت وان من الضروري ملاحقتها في الحال وجدت ان احدا امسك بها فاختفت عن ناظري بعد ذلك وظهر ان سيدا من بين المارة المدهوشين قام بهذه الفعلة الجيدة فقد لفها في معطفه الفضفاض وتقدم قبالها ليسلمها الى الدارالتي رآها خرجت منه . وظننت انه سيسلمها للخادم ثم يعود الا انه دخل الدار بها وبعد ان تلكأ هنيهة في ارضية البيت صعد بها الى الطابق الفوقاني .

وظهر من حسن استقبال السيدةبريتون لذلك السيد انه كانمعروفا لديها فقد عرفته ثم حيته وظهر انه كان مضطربا ومستغربا وانه فوجيء دون علم منه بذلك • حتى ان نظرتها وسلوكها دلتا على ما يشبه المجادلة والتأنيب وجوابا على ذلك وبدلا من الكلمات قال « ماكان لي بد من ذلك آيتها السيدة فقد احسست بأن من المستحيل اناغادرالبلد دونان اطمئن على مشاهدتها مستقرة وقالت له « ولكنك بذلك لن تجعلهـــا مستقرة » فأجاب « آمل الا يكون الامر كذلك » •

وسأل الرجل بولينا بعد ان جلست بلطف على الارض امامه « كيف حال والد بولي ؟ » واجابته بلهجة التساؤل وهي متكئة على ركبته ومتفرسة في وجهه « كيف حال والد بولي ؟» ولم يكن ذلك بالمشهد المليء بالضوضاء او بكثرة الكلام وكبرت فيها ذلك وانما كان مشهد الشعور المترع المليء ولان الكأس لم تصعد رغوته الى فوق ولم يطفح بشدة كان ذلك ادعى الى زيادة الالم والعذاب لدى المرء ففي كل المناسبات الملتهبة بالعنف والاتساع السائب يكون التحسس بالازدراء والسخرية مدعـاة لارتيـاح المشاهـد المرهـــق •

لقد كان المستر هوم ذا محيا صارم او بالاحرى رجلا عنيفا جبينـه ذو عقد ونمطا خديه بارزان وشكل وجهه يدل على انه لابد ان يكون مـن اسكتلندا ويشع الاحساس من عينيـه والعواطف من محيـــاه المنفعل الان وكانت لهجته الشمالية تنسجم اثناء الحديث مع اساريره ويستحيل بذلك توا من منظر المتكبر الى منظر رجل الدار وقد وضع يده على رأس الطفلة المرفوع اليه فقالت له الطفلة « قبل بولي •• » فقبلها ••

وكنت اود منهاانتجهش ببكاء هستيري ولو لمدةقليلةكي اتنفس الصعداء ويرتاح بالي الا انه لم يكن يصدر عنها سوى بعض من الضوضائية ويظهر انها كانت تحصل على ما تريده •• كل ماتريده ••وتحظى بنشوة القناعة ولم تكن تلك المخلوقة تشبه من آنجبها لا من حيث سيماء الوجه ولا مـن حيث المنظر عـدا ارث العنت والاجهاد •• لقد امتلأ ذهنها من ذهنـه كامتلاء الكأس من القنينة او من الابريق •

والذي لا جدال فيه ان المستر هوم كان يسيطر سيطرة رجولية عـلى نفسه وربما كان يشعر شعورا خفيا فيما يخص بعض القضايا ، وقال وهو

ينظر صوب طفلته ٠٠ « اذهبي الى غرفة الجلوس حيث تجدين فيها معطف بابا موضوعا على كرسي ٠٠ ضعي يدك في جيبه وستعثرين على منديل في الجيب المخصص لوضع المنديل فأجلبيه معك لي » واطاعته فذهبت وعادت بالمنديل برشاقة وفطنة وكان يكلم السيدة بريتون آنذاك فانتظرت والمنديل بيدها ٠

وكان مشهدا جميلا ان ينظر اليها المرء بقوامها الصغير وهيكلها الانيق المزخرف وهي جالسة على ركبته وبعد ان شاهدته الطفلة وهو يواصل السير دون ان يعلم بوجودها امسكت بيده فاتحة اصابعها دون مقاومة حيث دست المنديل بينها ثم ثنت الاصابع واحدة فواحدة عليها وظل كما لو انه لم يشاهدها ولم يتحسس بوجودها واستكانت اليه ومع ان احدا منهما لم ينظر الى الآخر ولم يكلمه طوال ساعة من الزمن فانني موقنة بأنهما كانا يستشعران الراحة والرضى بذلك ٠

واثناء شرب الشاي كان الناظر اليهما يهتم بدقائق الاشياء والسلوكيات ففي اول الامر كانت توجه اباها في وضع الكراسي ٠٠« ضع كرسي بابا هنا وضع كرسيي انا بجانبه وعلي ان اعطيك كوب الشاي بنفسي وجلست على مقعدها واومأت بيدها الى كرسي والدها في الطريق واخذته ثم حركت السكر ووضعت القشدة عليه بنفسها وقالت لابيها « كنت دائما افعل ذلك لك في الدار ولا احد يستطيع ان يفعل ذلك احسن مني حتى لو كنت انت بنفسك » ٠

وعندما دنا ميعاد تناول وجبة الطعام واصلت ملاحظاتها واهتمامها حتى وان بدا ان بعضها كان يتصف بالسخف فقد كانت ملاقط السكر اوسع مما تحمله احدى يديها بكثير لذلك اخذت تستعمل كلتا يديها لتدبير ذلك ٠ ان ثقل كوز القشدة الفضي وصحون الخبز والزبدة واقداح الشاي ذاتها ارهقت قواها الواهنة كما اوهنت قوتها الابداعية ومع ذلك ترفع هذا وتمسك بذاك وتسعى جاهدة لتجنب كسر اي شيء مما جاء ذكره واذا تحريت الصراحة ينبغي ان اقول انها كانت جسما منشغلا رغم صغره غير ان اباها ـ وما اعجب ذلك ـ كان يرضيه ويروق له ما تقوم به من مثل هذه المهمات ٠

وكان لا يألو جهدا في ان يقول للسيدة بريتون ان الطفلة كانت سلواه الخاصة ومصدر رضاه وان لا نظير لها على اوسع مدى وكانت السيدة

بريتون بغياب الطفلة تتعاطف مع نقاط ضعفه هذه وظهرت سلواه الثانية على المسرح في احدى الامسيات وكنت اعرف ان تلك الامسية خصصت لعودته وكنت على علم من ان السيدة بريتون كانت تنتظره طوال ذلك الوقت .

وكنا جالسين حول النار بعد تناول الشاي عندما انضم غراهام الى مجلسنا بل اقول عندما قطعه علينا فقد كان لمجيئه وقع صاخب ففي الوقت الذي كان فيه المستر غراهام كثير الحركة قدمت وجبات الطعام والشراب الخفيفة وكان قد التقى بالمستر هوم منذ زمن واصبح الواحد منهما يعرف الاخر ولكنه لم يكن قد عرف الطفلة الصغيرة لذلك ظل لا يأبه بها لمدةما.

وعندما انهى وجبة طعامه وبعد ان اجابت والدته على اسئلتهالكثيرة تحول من مقعده حول المنضدة الى الموقد وقبالته المستر هوم والى مقربة من مرفقه الطفلة .

وعندما اقول .. طفلة .. اكون قد استعملت عبارة غير مناسبة وغير واصفة .. عبارة توحي اية صورة ماخلا صورة الشخص الصغير الرزين المرتدي ثوب الصباحوصدريته البيضاء التي تناسب ايةدمية ذات حجم حسن موضوعة الان على كرسي عال بجانب مسند عليه علبة حفظ الدمى صنعت من الخشب الصقيل الابيض وفي يدها منديل تعالجحاشيته وتغرز فيه ابرة بصبر ومثابرة تبدو بيدها كما لو انها سيخ تغرز فيه نفسها بين الفينة والفينة وتميز قماشه القطني الابيض بصف منتظم من النقط الحمراء الدقيقة وعندما يفلت زمام السيخ من سيطرة يدها تأخذ في طعنه بهدوء طعنة اعمق من المعتاد وتواصل الاهتمام والانشغال بشكل نسوي صائب .

وكان غراهام في ذلك الوقت شابا ظريفا وسيما لا يمكن الوثوق به في السادسة عشر من سنه وعندما اقول لا يمكن الوثوق به فليس معنىذلك انه كان في الحقيقة يتسم بالغدر والخيانة تماما وانما لان الوصف راق لي فوجدت ان من الصائب ان اصف به الحالة السابقة (اللاسكونية) لنظراته الرائقة ووضعية شعره المتموج اللماع الخفيف اللون باللونين الاحمر والاسمر المتناسقين في تمازجهما ، والابتسامة المتكررة التي لاتدل على الفتون ولا على المكر وليس من باب التحسس السيء اذا قلنا انه كان في تلك الايام ولدا فاسدا غريب الاطوار والنزوات .

وقال غراهام لوالدته ـ بعد ما شاهد الطفلة الصغيرة امامه وهـــي ملازمة الصمت مشوارا من الزمن بعد ان غاب المستر هوم مؤقتا عن الغرفة وحرره غيابه من الخجل تصف الضحوك وهو كل ما كان قد تعلمه من خوفه وعدم ثقته بنفسه ـ « ... اماه ... امامي سيدة صغيرة في مجمعنـــا الحالي الذي لم اقدم اليه » .. واجابته امه « اتراك تعني ابنـــة المستر هوم ؟ » وقال لها ولدها « نعم ايتها السيدة ارى ان عباراتك خالية مـــن اقل قدر من الرسميات فهي اذن الآنسة هوم هذه التي لمحت اليها » .

وقالت له والدته « الآن يا غراهام اوصيك بالا تزعج اوتكايد هذه الطفلة ولا تشبع بها كبرياء نفسك المغرورة بأن تجعلها اضحوكة امـــام الآخرين » .

ولم يهتم غراهام بما قالته والدته بل تقدم الى الطفلة قائلا لها .. « الآنسة هوم .. هل تسبغين علي شرف تقديم نفسي اليك ما دام احـــد لم يقدم لك ولا لي مثل هذه الخدمة ؟ انا عبدك جـون غراهام بريتون » ونظرت الطفلة اليه وهو ينهض وينحني امامها بمهابة والقت بما كـــان لديها من مقصات صغيرة ونزلت باحتراس وحذر من مقعدها وبأدب جم لا مثيل له قالت له .. « كيف حالك ؟ » .

واجابها « لي الشرف بأن اكون في صحة جيدة ما خـــلا انني احس احيانا باجهاد عندما اقوم بسفرة مستعجلة . آمل ايتها السيدة ان اراك بصحة جيدة » واجابته بكلمات متلعثمة « .. انني بصحـــة جيـــدة » . وحاولت الان ان تستعيد مقعدها ولكنها وجدت انها لا يمكنها ان تفعـــل ذلك دون صعود او بذل جهد ومعنى ذلك التفريط بالليافة والذوق ناهيك عن الترفع التام عن العون في حضرة شاب مهذب غريب ولذلك استعاضت عن الكرسي العالي بمقعد واطيء سحب غراهام كرسيه على مقربة منـــه وقال لها « آمل ان تعتبري اقامتك الحالية في بيت والدتي مكانا مريحـــا لسكناك » واجابته بكلمات يسري فيها التلعثم « ليس بالضبط فأنا اروم الذهاب الى بيتي » وقال لها « انها رغبـــة طبيعية جديرة بالثناء ولكنني ساسعى جهدي للحيلولة دون ان تذهبي الى دارك وأرى انني قادر على ان استخرج من وجـــودك شيئا من تلك السلعـــة الثمينة التي يقال لهـــا .. التسلية .. وهي مالم تقدر السيدة « سناو » ولا والدتي ان توفرها لي » واجابته الطفلة « ساذهب مع والدي بسرعة ولن ابقى مدة اطول في بيت امـــك » .

وقال لها غراهام « ستبقين معي ٠٠ انا متاكـــد من ذلك ٠٠ فلدي فرس صغيرة جدا تركبينها وما لا عد له من الكتب المصورة افرجك عليها» وقالت له « اتراك ستعيش هنا في الوقت الحاضر » فاجابها « نعم الايروق لك ذلك ٠٠ هل تحبينني ؟ » فاجابته « كلا ٠٠ » وسالها « لماذا ؟ » فاجابته « ارى انك شاذ غريب الاطوار » فقال لها « هل ان وجهي يدلك على ذلك؟»

وقالت له مجيبة « وجهك وكل مافيه ٠٠لكشعر طويل احمر» وقال لها انه شعر مزيج من اللونين الاسمر والاحمر وهذا ما تصفه به والدتي او قولي ان لي شعرا ذهبيا كما تقول كل صديقاتها ولكـــن حتى بشعري الطويل الاسمر ــ وهنا حرك خصلة منه بنوع من الازدهاء وهـــو عارف تماما انه كذلك وفخور بخصله الشبيهة بشعر الاسد ــ حتى بشعري هـذا لا يمكن ان اكون اقل غرابة من مقام السيدة » ٠

وقالت له « اتسميني غريبة الاطوار ؟ » فاجابها « بالتاكيـد ٠٠ » وبعد برهة قالت له « اظن انني ينبغي ان اذهب لانام » وقال لهـــا « ان مخلوقة صغيرة مثلككان ينبغي انتكون في فراشها نائمة قبل الانبساعات عديدة ، بيد انك ربما بقيت حتى الان غير نائمة لكي تشاهديني » وقالت له « ليس الامر كما تتصور ابدا » فاجابها « انت تريدين ــ بالتاكيد ــ التمتع بلذة ملاقاتي وكنت تعرفين انني عائد الى البيت فانتظرتيني لـــكي تشاهديني » وقالت له « أنا انتظرت والدي لا انت ٠٠ » فاجابها « حسن جدا ايتها الانسة هوم ساكون المفضل لديك واتجراعلى القول بانك سرعان ما ستفضلينني على والدك فماذا تقولين ؟ » ٠

وكان جوابها انها ودعت السيدة بريتون وودعتني انا ايضا وبـدا عليها التردد فيما اذا كان ابتعاد غراهام عن الدار يحدو بها الى ان تودعه هو ايضا وما كان من غراهام سوى ان يمسك احدى يديها بيــده الواحدة ويرفعها باليد الاخرى فوق رأسه ووجدت نفسها في مرآة الموقد وقدرفعت الى ذلك العلو ٠ وكانت تلك الحركة الفجائية التي قام بها بتلك الحريـــة غير آبه باحترامها اكثر مما تقوى على تحمله فصاحت به متبرمة ومستاءة « عيب عليك يا غراهام ٠٠ انزلني وعندما وثبتت مرة اخرى على قدميها قالت له « ماذا كنت ستقول عني لو انني عاملتك مثل معاملتك الحالية لي ورفعتك بيدي انت الشخص القوي كما يرفع «وارن » بيده قطته الصغيرة » وبعد الذي قالته مضت الى فراشها ٠



الفصـــــل الثـــــالث

ـ التربـــــان ـ

لقد مكث المستر هوم يومين وخلال زيارته هذه لم يتسن له الخروج ، انما كان يجلس طيلة النهار بجانب الموقد صامتا احيانا واحيانا اخـــرى مجيبا على اسئلة السيدة بريتون ومحاورا اياها محاورات من النمط المناسب الخاص برجل ذي نفسية مريضة ولم يكن الحديث متجانسا جدا او ممعنافي التعاطف او في العقلانية ولكن كانت تتخلله لمسات الرقة الامومية التحنانية ولانها اكبر منه سنا فقد سمحت له بذلك ٠

وبالنسبة لبولينا كانت تلك الطفلة سعيدة صامتة ، منشغلة ، يقظة وكان ابوها غالبا ما يرفعها ويجلسها على ركبته وتبقى هكذا حتى تحس او تتصور بانه اخذ يتضايق ويخفي ذلك عنها ، وحينذاك تقـول لــه « ٠٠ بابا ٠٠ انزلني فانا اتعبتك بثقلي وتكون النتيجة انزال الثقل على السجادة او البساط او وقوفها قريبة من قدم والدها ثم يجيء دور لعبها في علبة المواد البيضاء والعمل بتطريز المنديل بالنقط القرمزية بغيـــة اعطائها كما كان يبدو لابيها كتذكار منها له ولهذا سعت لانهائها قبل ان يحين ميعاد رحيله وراحت تعمل بسرعة بحيث انها انجزت حوالى عشرين غرزة بنصف ساعة ٠

وبعودة غراهام الى بيت الامومة بعد امضائه الايام في المدرسة جاءت لنا احدى الامسيات بقدر كبير من الحيوية والنشاط والانتعاش وهي نوعية لم تقلل منها طبيعة المشاهد التي حدثت مابين غراهام والفتاة بولينا وساد سلوك متغطرس غير ودي فرضه غراهام على الطفلة عند اول امسية وصوله وكان جوابها الاعتيادي عندما يخاطبها « لا اريد اصطحابك فلـدي اشياء اخرى اعني وافكر بها لا شأن لك بها انه الشغل والعمل » وكان غراهام يحاول اغراءها لتركيز اهتمامها بفتح خزانته وعرض محتوياتها المتعددة الانواع من اعواد شمعية لماعة واوراق ملونة وسكاكين الاقلام او المطوايات الجميلة ونقوش بعضها ملون تلوينا زاهيا جمعها شيئا بعد شيء ٠

ولم تكن قد شاهدت من قبل هذه الاشياء المغرية كلها ولذلك كفت عن الاهتمام بعملها وراحت تسترق النظر اليها ثم القت بنظرات عديدة على

موجودات منضدته او رحلته الكتابية الغنية بالصور المبعثرة هنا وهناك، وتركز بصرها على صورة طفلة تلعب مع كلب صغير قصير القوائم وقالت بفرح « ما اجمل هذا الكلب » وتظاهر غراهام بانه لم يسمع هذه العبارة.

وسرعان ما اختلست نظرة من زاويتها قامت على اثرهـــا وتقدمت لتفحص الكنز عن كثب .. لقد كانت مناظرعيني الكلب الواسعتين واذنيه الطويلتين وقبعة الطفلة وريشها مما لا يمكن مقاومة مغرياتها وعلقت على ذلك تعليقا مناسبا بقولها « ما ابدع هذه الصورة » واجابهـــا غراهام « حسنا اليك بها فخذيها » وبدا عليها التردد لان رغبة التملك كانت قوية اما قبول الصورة فكان من قبيل المساومة على الكرامةوالترفع لذلك اجابت « كـــلا » ووضعتها في محلها وتحولت عنها .

وقال لها « اذن لا تريدين الصـــــورة يا بولي » واجابت « لا اريدها وشكرا » وقال لها « هل يحسن بي ان اعلمك بالذي سافعله بالصورة ان لم تقبليها مني ؟ » واستدارت نصف استدارة لتصغي «انني ساقطعها اربا اربا لتنوير الشمعة» واستعطفته « كلا لا تفعل ذلك » وقال لها «لابد ان افعل ذلك » واجابته « رجاء ... لا تفعل » واستبد بغراهام الغضب عند سماعه لهجة الرجاء واخرج المقصات من سلة اعمال والدته وقال « اليـــك ذلك » بلهجة التهديد ومرر المقص ابتداء من رأس فيدو وقص انف هاري وهي تصيح « لا . لا . لا » .

وقال لها « اذن تعالي الي .. تعالي بسرعة والا فعلتها » وترددت ثم تلكات ولكنها امتثلت اخيرا وقال لها وهي تقف امامه « والان .. هـــــل ستأخذينها ؟ » فاجابت « من فضلك ... » وقال لها ولكنني ساطالبك عنها بثمن واستفسرت منه « كم تريد عنها ؟ » فاجابها « اريد قبلة » واجابتــه « سلم لي في اول الامر الصورة » ونظرت بولي اليه ـ عندما قالت ذلك له ـ نظرة المرتابة ولكن غراهام سلمها الصورة ، الا انها أبت آن تعتبر نفسها مدينة وبحركة سريعة فرتصوب ابيها واحتمت بركبتــه ونهض غراهام بحنق يثير الضحك والسخرية وتبعها غير انها غطت وجهها تحت معطف ابيها قائلة له « بابا ... بابا ... ابعده عني » .

وقال غراهام « لن يبعدني احد عنك »واخرجت الطفلة يدها ووجهها لم يزل مخفيا لكي تبعده عنها وقال غراهام « اذن ساقبل يدك » ولكن يدها استحالت انذاك قبضة صغيرة دفعت له بها عملة نقدية من الفئة الرخيصة

...لا من القبلات غير ان غراهام الذي لم ينقصه ان يكون ماكرا كمكر تربه الصغيرة تراجع متظاهرا بالخيبة التامة ورمى بنفسه على الاريكة السريرية ووضع يده على المخدة واضطجع كمن مسه ألم • اما بولي التي وجدت ان لا صوت يصدر عنه فقد رنت الى عدوها باشتياق ورغبة بعد ان رفعت راسها عن ركبة ابيها وكان غراهام لا يزال يئن •

وهمست بولي باذن ابيها •• « ما الخبر ؟ ماذا دهاه ؟ » فاجابها « يحسن بك انت ان تساليه يا بولي » وتساءلت « هل يؤلمه شيء ؟ هذه انة ثانية وقال لها المستر هوم « يند عنه صوت كصوت الانين » ونادى غراهام امه بصوت ضعيف قائلا « ماما ابعثي لي بطبيب آه يا عيني » (صمت آخر لم تقطعه الا تأوهات غراهام) وقال في المرة الاخيرة « ربما سيصيبني العمى » •

ولم تقو مؤدبته علىتحمل اكثر منذلك واتجهت اليهمباشرةواصبحت الى جانبه وقالت له « دعني ارى عينك ، لم اكن اريد اصابتها وانما اردت ان المس فمك فقط بيدي ولا اظن ان صدي لك كان قويا » وكان جواب كلامها صمت من غراهام واستدركت قائلة « انا آسفة » ثم اعقب ذلك منها انفعال فتداع فبكاء ، وقالت السيدة بريتون « هل غراهام ازعج تلك الطفلة ؟ » واجابها المستر هوم « لا شيء في الامر سوى الهراء ياعزيزتي» اما غراهام فقد خطفهامرة اخرى وعلاها بيديهوراحت هي تعاقبه وتجرجر بخصل شعره الشبيهة بما للاسد ونعتته بشر الناس واسوأهم واكذبهم واكثرهم فظاظة وحماقة •

وفي صبيحة اليوم الذي ازمع فيه المسترهوم على الرحيل ، دار حديث بينه وبين ابنته في خلوة كائنة بقرب النافذة ، سمعت جزءا منه ، لقد سمعت بولي تقول لوالدها « الا استطيع اعداد ملابسي في صندوق لمرافقتك في سفرتك يا ابي ؟ » فهز رأسه بالرفض وقالت له « هل اكون مصدر ازعاج لك في ذلك ؟ » فأجابها « نعم ••• يا بولي » وقالت له « هل ان ذلك بسبب كوني صغيرة السن ؟ » فاجابها والدها قائلا : « لانك صغيرة وضعيفة ، الذين يسافرون يجب ان يكونوا كبارا اقوياء ولكن لا يجوز لك ان تحزني لذلك يافتاتي الصغيرة ، فذلك يفتت قلبي وبابا سرعان ما سيعود الى بولي » واجابته « احقا ما تقول يا والدي » لست احزن لذلك قط وبولي لا تريد ايلام والدها لان ذلك

يؤلمها هي اليس كذلك يا ابي ؟ اسفي البالغ لما قلته » ·

وقال لها والدها « اذن ينبغي على بولي ان تبتهج للسفر ولا ينبغي ان تبكي على الفراق ما دمنا سنلتقي مرة اخرى وتطلعي الى هــذا اللقاء « انعمي بالسعادة طيلة المدة فهل تعدينني بذلك ؟ واجابته بولي« ستحاول التوصل الى ذلك » وقال لها « املي في ان تفعلي ذلك »··وداعا·· حان وقت الرحيل وسألته « الان في هذه اللحظة ؟ » فاجابها « نعــم ··· في هذه اللحظة » ·

وحاولت اخفاء شفتين مرتجفتين كشفتي من يهــم بالبكاء وانتحب ابوها ولاحظت انها لم تفعل ذلك · وبعدان انزلها من حضنه صافح من كان موجودا هناك ثم فارقهم وعند غلق الباب الخارجي المشرف على الشارع هوت بولي على ركبتيها وامالت برأسها عــلى الكرسي وراحت تبكي ·· ابي ·· ابي ·· وتقول بصوت خافت متواصل « لماذا خذلتني ؟ لمــاذا تخليت عني ؟ » ·

وخلال فترة فراغ دامت بضع دقائق احسست انها تتألم وتتعذب ، « راحت تكابد ما تكابدو في تلك الفترة القصيرة من حياتها الطفولية ـ حيث ان بعض الذين هم في سنها لا يستشعرون العواطف ـ كانت عواطفها هي في جوهــر تكوينها ولو انها عاشت لاستبان لهــا المزيد من مثــل تلك اللحظــات ، وســاد سكون لم يتكلم فيه احد فالسيدة بريتون ـ لكونهــا اما ـ ذرفت دمعة او دمعتين وغراهام الذي كان يكتب رفع عينيه وعاينها طويلا وانا « لوسي سناو » كنت محتفظة بهدوئي » ·

وتركت المخلوقة الصغيرة دون ان يزعجها احد تفعل لنفسها مالا يقوى احد غيرها على فعله ، تناضل لكبح مشاعر لا سبيل الى كبحهــا ولا تحملها وسرعان ما استطاعت ـ الى درجة ما ـ كبتها وكانت في ذلك اليوم في حالة نفسية لا تستطيع تحمل التعزية او المواساة من احد وكذلك في اليوم الثاني وبعد ذلك اذعنت ·

وفي الامسية الثالثة بينما كانت جالسة على ارضية الحجرة مرهقة صامتة دخل غراهام ورفعها بلطف دون ان ينبس ببنت شفة ولم تقاومه انما على العكس استكانت في حضنه كما لو انها حزينة ومرهقة وعندما جلس اسندت رأسها اليه وبعد بضع دقائق استسلمت للنوم فحملهــا الى فراشها في الطابق الاعلى ولم استغرب في صبيحة اليوم التالي ان يكــون اول سؤال لها هو « اين المستر غراهام ؟ »

وحدث ان غراهام لم يحضر مائدة الافطار لانهماكه في اعدادبعض التمارين الكتابية لدرس الصباح ذاته وكان قد طلب من والدته انتبعث له بكوب من الشاي الى مكتبه الذي يدرس فيه في الغرفة وقد تطوعت بولي لحمله اليه بعد ان ظهر ان والدته انشغلت بامر ما وهي تنتظر شخصا ما فعهدت بالكوب اليها وهي وان كانت في وضع قلق فقد كانت تتصف بالاهتمام والعناية ولان غرفة دراسة غراهام كانت مقابل غرفة الافطار والبابان يتواجهان في الممر ، فآن عيني لاحقتاها وهي تقوم بمهمتها تلك ·

وتوقفت برهة عند عتبة الغرفة وسألته « ماذا تفعل ؟ » فاجابها اكتب واجباتي » وسألته « لماذا لا تأتي لتتناول فطورك مع امك » ؟ فاجابها « انا منشغل جدا » وسألته « هل تريد اي فطور ؟ » فأجابها « طبعا اريد » وقالت له « اذن اليك الفطور » ثم وضعت كوب الشاي على البساط كما يضع السجان طاسة ما لسجين في غرفته وقالت وهي تهم بالعودة «ماذا تريد علاوة على كوب الشاي وماذا تريد ان تأكله ؟؟ » فاجابها « اي شيء حسن اجلبي لي شيئا يكون بديعا بصورة خاصة كان تكون امراة صغيرة تتصف بالشفقة والرحمة » ·

وعادت الى السيدة بريتون وقالت لها « ارسلي لولدك شيئا جيدا » فأجابتها السيدة « انت اختاري له ذلك يا بولي فماذا يريد ولدي ؟ » وانتقت قسما من كل شيء مفضل على المائدة وسرعان ما عادت ببعض المربى التي لم تكن موجودة بعد ان اسرت للسيدة بريتون همسا انه يريد شيئامنها علما بان السيدة بريتون لم تكن ترفض اي من الاثنين ·

وقد سمعت بعيد ذلك ان غراهام اوصل بولي الى السماء امتداحا ووعدها بانه عندما سيحصل على دار له في المستقبل فانه سيعينها طباخة فيه اذا اظهرت عبقرية طباخية · وعندما وجدت انها لم تعد ذهبت لارى اين هي فوجدتهما يتناولان فطورهما وجها لوجه وكانت هي على مقربة منه تشاركه الطعام وتقبل منه المربى التي كانت ترفض في السابق لمسها كياسة لئلا يبدو انها تتناول منها اكثر مما يتناول هو منها وكانت تقدر حق التقدير وتفهم حق الفهم مثل هذه الاشياء الحسية الملزمة لقواعد الذوق السليم ومثل هذه الامور الغرائزية الكيسة ·

ان صلة التعارف التي تاصلت بمثل هذهه الصورة لم يكن من السهولة بمكان فصم عراها او حلها انما على المعكوس من ذلك ظهر ان

الزمن والظروف عزتها ومتنتها دون ان توهنها ولما كان الاثنان مختلفين عمرا وجنسا واتجاها وفي غير ذلك وجدا الكثير مما يمكن ان يقوله احدهما للاخر وبالنسبة لبولينا لاحظت ان شخصيتها الصغيرة لم تظهر ازدهارا بشكل صحيح مع بريتون الصغير الشاب . وباستقرارها في الدار وتآلفها معه واعتيادها اياه برهنت على انها على انسجام ووئام كاف مع السيدة بريتون .

وكانت تجلس على المقعد المقابل للسيدة بريتون او على قدمها النهار بطوله تتعلم منها كل ما كانت تعمله من واجبات بيتية كالخياطة او رسم الصور بريشة الرسم على اللوح الاردوازي ولم تحاول بعداضرام نار أصالتها او اظهار اية ومضة من ومضات خصائصهاالسابقة من طبيعة او سجية . وقد كففت عن مراقبتها لانها بمثل تلك الظروف المستجدة لم تكن تثير الاهتمام ولكن كلما كان غراهام يطرق الباب عند حلول المساء كان يحدث تبدل .. كانت في الحال تصل الى بيت السلم ويكون ترحيبها به عادة تأنيبا او تهديدا كأن تقول له « انك لم تنظف حذائيك تنظيفا جيدا على الممسحة وساخبر والدتك بذلك » . ويقول لها « هل انت هناك ايتها الفضولية الصغيرة ؟ » .

وتقول له « نعم ... وانت عاجز عن الوصول الي فانا اعلى منك» ثم حاولت اختلاس النظر اليه من بين قضبان عمود الدرابزين فعجزت عن ذلك وسمعت صوته يصيح بها ..« بولي .. » واجابته « ماذا يا ولدي العزيز » (مقلدة تعابير والدته عند التحدث معه) وقال لها « انني على وشك الاغماء من الاجهاد والتعب المفرط » وقال وهو يميل باتجاه حائط الممر وهو في حالة اعياء « الدكتور ديغبي مدير المدرسة اثقلني بكثرة الواجبات فانزلي وساعديني في حمل الكتب » .

وقالت له « آه .. ما اخبثك واكثرك مكرا » واجابها « ابدا يابولي انها مجرد حقيقة لا اكثر ولا اقل فانا ضعيف وواهن كعود نبات السمار الاجوف فانزلي الي » وقالت له « ان عينيك كعيني القطة تماما وانك على وشك الوثوب » واجابها « الوثوب ؟ لا شيء من هذا القبيل وليس بمقدوري ذلك فانزلي » واجابته « ربما سانزل ان وعدت بعدم لمسي او خطفي او الدوران بي في الهواء » واجابها وهو غاطس وسط الكرسي « لا اقوى على ذلك » وقالت له « اذن ضع الكتب على اولى درجات السلم وابتعد مسافة ثلاث ياردات » .

وبعد ان فعل ذلك نزلت بحذر واحتراس دون ان ترفع ناظريها عن غراهام المتعب الواهن وبطبيعة الحال كان دنوها منه كالتيـار الكهربائي الذي يوصله بحياة جديدة وافرة النشاط والحيوية ومن المؤكد ان لعبـة المرح الصاخب كانت تنجز بينهما ، كانت احيانا تغضب واحيانا اخـرى تسمح له بذلك دون شكوى او تذمر وكنت اسمعها تقول له اثناء صعودها معه الى الطابق الاعلى ٠٠ » والان يا ولدي العزيز تعال لاحتساء كوبك من الشاي وانا موقنة بانك لابد ان تكون بحاجة الى شيء ما ٠

لقد كان منظرا يثير الضحك تماما ان يشاهدها المرء وهي جالسـة بجانب غراهام ففي غيابه تبقى على ما هي عليه من شخصية ، اما معـه فتصبح من اكثر الناس فضولا ومن اكثر الناس اسرافا في تقديم الخدمة وارضاء المقابل ، وكنت غالبا ما اتمنى ان تهتم بشؤونها لتصل الى هدوء النفس ولكن الامر لم يجر كذلك لانها كانت تنسى نفسها فيه وما كان احد مثلها ينتظره بفارغ الصبر وما كان احد مثلها يبـدي جانب الاهتمام والعناية العظيمة به ٠

كان في نظرها كالامبراطور التركي وكانت بحضوره تجمع امامه مختلف انواع الاطعمة والمآكل وعندما كان المرء يتصور ان كل شيء امامه جاهز لارضائه وفي متناول يديه كانت تهتدي الى شيء اخر هو بحاجة اليه وتسر في اذني السيدة بريتون قائلة « ايتها السيدة ربما كـان وليدك بحاجة الى قطعة من الكيك ٠٠ الكيك الحلو ٠٠ فهناك تجدين هذا الكيك (وتشير الى خزانة حفظ المأكولات) ومع ان السيدة بريتون لا يكـون صوابا برأيها تناول الكيك الحلو مع الشاي الا انها كانت تلح عليها بطلبه له « قطعة صغيرة واحدة له فقط » وعند ذهابه الى المدرسة لا تكون فتيات مثلها او كمثل الآنسة سناو بحاجة الى رعاية الا انه كان يريد ذلك دائما ٠

نعم كان غراهام يريد ذلك تماما وكان دائما يحصل على مـا يريده وعندما كانت تقوم بخدمة له ويحظى بما يريد كان يشاركها الغنيمة التي حصل عليها بسببها ولكنها لم تكن تسمح له بان يقدم لها شيئا مما يحصل عليه واذا الح عليها لاخذه كان ذلك معناه ازعاجها واشعارها بالكدر طيلة المساء وكل كما كانت ترومه هو الوقوف بجانب ركبته واستثمار حديثـه وملاحظاته تلك كانت المكافأة التي تهتم وتعنى بأمرها وليس مشاركتـه قطعة الكيك ٠

وباستعداد غريب استطاعت ان تكيف نفسها مع كل الاشياء التي تثير اهتمامه وربما ظن ان ليس للطفلة ذهنية خاصة بها او حياة خاصة بها وانما من الضروري ان تحيا وتتحرك وان يكون كيانها في كيان اخر والان بعد ان اخذ والدها منها اخذت تستكين لغراهام وبدا كما لو انها تشعر بنفس مشاعره وتتواجد بنفس تواجده وكيانه ٠

لقد تعلمت اسماء كل التلاميذ المتواجدين معه في المدرسة بلمح البصر وبالسرعة الممكنة وحفظت عن ظهر قلب خصائصهم وسلوكياتهم استقاء من فيه وكان يكفي وصف واحد لاي فرد منهم ولم تكن قط تنسى الهويات او تخلط فيما بينها وكانت تتحدث معه طيلة الامسية عن اشخاص لم ترهم عيناها ويبدو بالتمام انها تلم كليا بهيئاتهم وسيماواتهم واخلاقهم وتصرفاتهم وكانت تعرف ان البعض منهم يسخرون من معاون مدير المدرسة الذي كان يكره الشاب بريتون وكانت له بعض الخصوصيات والميزات التي تلتقفها بلحظة واحدة من المواقف التمثيلية لغراهام التي كان يكررها لتسلية نفسه وهو امر لم يكن يروق للسيدة بريتون والدته فتنهاه عن ذلك ٠

وقلما تشاجر الاثنان ولكن في ذات مرة حصلت بينهما قطيعة تلقت احاسيسها من جرائها صدمة عنيفة ذلك ان غراهام كان يرافقه في عيد ميلاده البعض من زملائه واترابه بنفس العمر لكي يتناولوا طعامهم معه واهتمت بولينا كثيرا بمقدمهم بعد ان سمعت الكثير عنهم من غراهام وبعد العشاء بقي الشباب الصغار وحدهم في غرفة الطعام وكانوا فرحين جدا يصدر عنم ضجيج صاخب ٠

وبالصدفة مررت بالقرب من مكان تجمعهم فوجدت بولينا جالسة وحيدة في ادنى درج للسلم وعيناها مثبتتان على الواح النوافذ الزجاجية الصقيلة لغرفة الطعام ، حيث كان يشع الضوء المنعكس من مصباح الردهة ووجدت جبينها مقطبا ينبيء بتامل قلق وفكر مضطرب وسالتها « مابك يابولي وبم تفكرين » فاجابتني « بلا شيء خاص وكل ما اتمناه ان يكون هذا الباب من الزجاج الشفاف الصقيل لارى ما الذي يجري وراءه فالاولاد فرحون ومبتهجون على ما يبدو واريد الذهاب اليهم وان اكون الى جانب غراهام لانظر على ما يفعله اصدقاؤه » وقلتلها « وما المانع من ذهابك اليهم ؟ » فاجابتني « اشعر بخوف وما قولك لو انني جربت ؟ هل اطرق الباب واطلب السماح لي بالدخول » ربما فكرت وفي حينه لم يمنعوها عن ان تكون رفيقة لهم في جلستهم ولذلك شجعتها على القيام بهذه المحاولة ،

وتوجهت بولي الى الباب وطرقته طرقا خفيفا بحيث لا يكـاد يسمع وفي الطرقة الثانية فتح الباب وظهر رأس غراهام مخاطبا اياها بروحية عالية، وتبرم « ما الذي تريدينه ايتها القردة الصغيرة ؟ » فاجابته « اريد المجيء اليك » واجابها « احقا تريدين ذلك»هلجئت لازعاجي ؟!اليكعني واذهبي (الى ماما او الى السيدة سنـاو) واطلبي منهما ان يضعـاك في فراشـك لتنامي » ثم توارى ذو الشعر الاسمر المحمر والوجه المتورد المتوهج بعدان اوصد الباب بشكل قاطع ، اما هي فقد اسقط في يدها وصدمت .

وقالت لي وهي شبهمذعورة « لماذا كلمني بهذه اللهجة ؟ انه لم يكلمني كذلك سابقا ، فما الذي بدر مني تجاهه يا ترى ؟ » واجبتهـــا « لا شيء يا بولي لكن غراهام مشغول مع اصدقائه » واجابتني « وهو يحبهم اكثر مني واشاح بوجهه عني في حضورهم » وخطرت لي فكرة الهائها وتسليتها وتحسين المناسبة عن طريق ايراد بعض القواعـــد الفلسفية التي احتفظ ببعض مجموعاتها الجيدة القابلة للتطبيق .

وقد اوقفتني بوضع اصابعها فياذنيها لدى اولى الكلمات التيصدرت عني ثم تمددت على نسيج من القماش مقابل الالواح الحجرية ولم يستطع وارن او الطباخ رفعها او زحزحتها عنمكانها وتركت تنام هناك ـ والحالة تلك ـ الى ان نهضت من تلقاء ذاتهـــا وبرغبتها هي ، ونسى غراهـام ما صنعه معها في تلك الامسية فدنا منها وبادرها الكلام عندما ذهبزملاؤه ولكنها افلتت منه وكان في عينيها لمعان الانفعال والتأثر وذهبت دون ان تودعه ودون ان تنظر الى وجهه وفي اليوم التالي عاملها بلا اكتراث وبعدم المبالاة فاستحالت كقطعة من المرمر .

وفي اليوم التالي اخذ يكايدها ويغيظها ليعرف السبب ولكن شفتيها ظلتا منغلقتين فلم تكلمه قط ، وبالطبع لم يشعر بغضب حقيقي من جانبه لعدموجودتكافؤمنجميع الوجوهوحاولاسترضاءها وملاطفتهاوالتملقاليها . لماذا كانت غاضبة منه ؟ وما الذي فعله ضدها ؟ وسرعان ما اجابته دموعها وراح يلاطفها حتى استعاد صداقته معها ، وظهر انها كانت الواحدة التي لا تنسى ولا تضيع عندها مثل هذه الاحداث ، ولاحظت انها بعد تلكالخيبة لم تكن تنشده او تتبعه او تلمسه او تستعطفه بشيء وقلت لها ذات مرةان احملي كتابا او اي شيء لغراهام عندما يكون منكفئا على نفسه في غرفة الدراسة واجابتني باعتزاز « الاحرى لي ان انتظر ، حتى يخرج من غرفته لانني لا اريده ان يتجشم عناء فتح الباب لي » .

وكان للشاب بريتون فرس قزم اصغر من الحجم المعتـاد يمتطيها في اغلب الاحيان وكانت دائما تلحظ من النافذة ذهابه وايابه عليها وتتوق وتطمح الى السماح لها بركوبها حول ساحة الدار وكان من العسير عليهـا ان تطلب ذلك . وفي ذات يوم نزلت الى ساحة الدار لتراه يترجل عنهـا وعندما كانت متكئة على البوابة ومضت امام عينيها الفكرة التي طالماتاقت الى تحقيقها وهي السماح لها بامتطاء ظهرها .

ولما لاحظها غراهامقال لها بقلة اكتراث « تعالي يا بولي نخبالحصان خبة واحدة وظننت انها احتسبته عديم الاكتراث بها تماما ولذلك قالـت له .. « كلا شكرا » ثم تحولت واشاحتبوجهها عنه بمنتهى البرود واجابها « الافضل لك ان تقبلي مني هذا العرض فلابد انك ستحبين ذلك وكـان جوابها « لا تظن انني القى بالا لامر تافه كهذا » فاجابها « ليس هـذا صحيحا الم تقولي انت للوسي سناو انك تهوين امتطاء ظهـر الفرس ؟ » واجابته « ان لوسي سناو ثرثارة » ونطقت هذه الكلمات لثغا ثم اتجهـت نحو الدار .

وسرعان ما لحق بها غراهام فدخل الدار واتجه صوب امه وقال لها: امي اظن ان هذه المخلوقة تبدلت تماما فاضحت كمجموعة من الأطـوار الغريبة وانا بدونهالا حوللي ولاقوةفقد كانت تسر فؤادي باكثرمماتسريه انت او لوسي سناو» .. كان لبولي عادة التحدث معي ومحاورتي عندما نكون وحيدين في الغرفة ليلا وفي تلك الليلة قالت لي « ايتها الانسةسناو هل تستطيعين معرفة اي يوم من ايام الاسبوع احب فيه غراهام اكثر مـن سائر ايام الاسبوع ؟ » .

وقلت لها « وكيف لي ان اعرف مثل هذا الامر الغريب ؟ فهل هنالك يوم من بين ايام الاسبوع السبعة يكون فيها غراهام عـلى شاكلة تخالف شاكلات ايام السنة الاخرى ؟ » واجابتني « الا تلاحظي انه امر مؤكـد كوني الاحظه على اروع ما يكون في يوم الاحد ، حيث يكون معنا اليـوم بطوله وحيث يكون هادئا وفي مسائه يكون عطوفا !؟ » .

ولم تكن هذه الملاحظة منها عديمة السبب او الاساس ذلك ان ذهاب غراهام يوم الاحد الى الكنيسة يجعله وديعا وهادئا وفي المساء يتصفعموما بهدوء كهدوء السماء الصافية ، فيبدو رائعا مستمتعا دفء الموقد وهو في حالة التمدد ثم ينادي بولي لتجالسه ولم يكن غراهام بالولد الهادىءالشبيه

بالاولاد الآخرين ويكمن كل ابتهاجه في العمل فقط فهناك فترات للتأمل والتفكير وكان يشعر بلذة القراءة ايضا ولم يكن انتقاؤه الكتب التي يريد قراءتها انتقاء اعتباطيا او على غير هدى او تمييز فهناك ومضات التفضيل الخاصة المميزة وحتى التذوق الغريزي عند الاختيار وفي الحقيقة انه كان نادرا ما يعلق على ما يقرأه ، بيد انني وجدته يجلس ويمعن التفكير في أي من الكتب التي كان يطالعها ٠

وكانت بولي بجانبه جاثية على وثار صغير يدور بينهما حديث مهموس يمكن سماعه رغم محاولة كبته واستطعت اختطاف فحواه وخلاصته بين حين وآخر وفي الحقيقة ان تأثيرا افضل من تأثير الايام الاخرى وارق جدا حدا بغراهام الى ان يتصرف تصرفا غير فظ في مثل تلك الاوقات، وقد سمعته يسألها « هل تعلمت آية من تراتيل هذا الاسبوع يابولي ؟» فاجابته «تعلمت ترتيلة جديدة بديعة مكونة من اربعة مقاطع شعرية فهل تريدني ان ارددها » وقال لها « رتلي ترتيلا حسنا دون ان تسرعي في الاداء » ٠

وادت بولي الترتيلة ورددتها نصف ترديدة بصوت غنائي طفولي خافت وكان غراهام يقاطعها معترضا على طريقة الاداء ويعطيها درسا في التلاوة وتلتقط بولي الدرس بسرعة وتظهر ذكاء في التقليد والمحاكاة ثم انها كانت تستشعر اللذة عندما كانت تسر غراهام وترضيه وبرهنت على انها تلميذة بارعة وكانت تتلو بعد الترتيل بعض الجمل من فصل من الانجيل وتقرآها دون حاجة الى التصحيح هنا لان الطفلة بولي كانت تقرأ اي فصل سهل التلاوة قراءة جيدة جد ا٠

وعندما يكون الموضوع سهل الفهم لديها وتبدي اهتمامها به يكون تعبيرها وتشديدها على الكلمات امرا يثير الاهتمام كرمي يوسف في البئر ومناداة الباري صموئيل ليكون نبيا على قومه واسقاط دانيال في عرين الاسد فمثل هذه الجمل كانت جملا مفضلة لديها تستثير مشاعرها وشفتيها، فمثلا كانت تعلق التعليق التالي بشفاه مرتجفة٠٠ « مسكين هو يعقوب كم كان يحب ولده يوسف وزادت مرة على ذلك مخاطبة غراهام « كحبي لك ياغراهام فاذا مت (وفتحت صفحات الكتاب وتحرت عن العبارة وقرآتها) ٠٠ « فانني سارفض كل تسلية وتعزية وساذهب الى قبري حزنا عليك » ٠

بهذه العبارات كانت تحتضن غراهام بذراعيها الصغيرتين ساحبة

شعر رأسه ذا الخصل العديدة اليها واتذكر ان مثل هذا العمـــل صدمني واعتبرته طيشا غريبا منها يستثير شعورا قد يتحسس به المرء عند رؤيته حيوانا خطرا بطبيعته اضحى نصف اليف بالطريقة المبدئية الفنية وهــذا الحيوان يلاطف ويدلل بشكل جد طائش وفي ظني انها جازفت التعرض لخيبة يصعب تحملها قد تكون وطأتها عليها اشد من اللطمة ومثل هــذه التظاهرات امكن تحملها وتقبلها سلبـــا ، وفي بعض الاحيان كان يظهر نوعا من الاعجاب المرضي البادي على تولعها الجدي يستثير ابتسامة رقيقة في ناظريها وفي احدى المرات قال لها ... انت تحبينني كمـــا لو كنت شقيقتي الصغرى يا بولي اليس كذلك ؟ . واجابته « انا اهواك .. اهواك كثيـــرا » .

ولم يسمح لي منذ مدة طويلة بلذة دراسة مثل هــذه الوضعيات او الحالات ، ولم يمر على مكوثها في بريتون شهرين حتى جاءت رسالة مـن المستر هوم بين فيها انه الان مستقر بين اقرباء والدته في البر الاصلي لان انكلترا ذاتها اضحت كلها مكروهة لديه ولم تكن له اية رغبة او فكرة في العودة اليها وربما لمدة اعوام وانه يريد من ابنته ان تنضم اليه في الحال .

وقالت السيدة بريتون عند قراءة الرسالة « ترى ... كيف ستتلقى بولي هذا النبأ واخذت على عاتقي ان اوصل اليها هذا النبأ ، وكانت بولي قد عادت الى قاعة الاستقبال حيث الهدوء والزخرفة وكانت تميـل الى ان تكون وحيدة فوجدتها جالسة كجارية من جواري السلطان ، نصف مختفية بين الاغطية الفضفاضة للنافذة المجاورة ، وكنت تبدو فرحة وسعيدة بكل ما كانت تحتاج اليه من اللوازم المتواجدة هناك من علبـة مـواد الشغل المصنوعة من الخشب الابيض وقطعة او قطعتين مـن القماش وشريط او شريطين لاستخدامها كقبعات للدمية التي كـــانت ممددة بلباسها الليلي ولقبعتها في مهدها ، وكانت بولي تهز المهـد لتنام دميتها وكانت عيناهـا في الوقت ذاته منشغلتين بكتاب مصور مفتوح على صدرها .

وقالت لي بصوت خافت كما لو انه هامس « انه كتاب ايتها الآنسة سناو ـ بعنوان « كانداس » ملكة الحبشة فكانداس الان نائمة وسأحدثك عنها ولكن علينا ان نتحدث بصوت خافت كي لا نوقظها وهذا الكتاب قدمه لي غراهام يتحدث عن البلدان القصية التي تبعد عـن انكلترا بمسافات

شاسعة ولا يمكن لاي مسافر ان يبلغها مالم يركب البحار ويقطع الوف الاميال منها » ٠

واستطردت تقول لي « ان اناسا متوحشين يقطنون تلك البلدان وفي الحقيقة انه يندر لاي منهم ان يرتدي البسة الا نادرا لجوهم الحار جدا، ومضت تقول « واليك صورا اغرب من ذلك فهناك سور الصين العظيم «هنا سيدة صينية وقدمها اصغر من قدمي وهنـا حصان تتري وحشي حرون والاغرب من كل هذه ٠٠٠ ارض الثلج والجليد التي لا توجـد بينها الحقول الخضر ولا الغابات ولا الحدائق » ٠

وواصلت حديثها قائلة لي « في هذه المناطق الثلجية وجدوا عظام الفيلة المنقرضة المسماة « بالماموث » ولا توجد الان مثل هذه الحيوانات ولا تعرفين عنها اي شيء بيد انني اقول لك ـ وهو ما قاله لي غراهام ـ ان الواحد من هذه المخلوقات هو حيوان جبار من جنس انجن بعلو هـذه الغرفة وبطول ردهة هذا البيت ، ويرى غراهام انه لم يكن حيوانا شرسا اكلا للحوم ، فلو انني التقيت بواحد منها لما قتلني او افترسني مالم اقف معترضة طريقه وفي هذه الحـالة يدوس علي بين الشجيرات كما لو انني دست على جرادة في حقل من القش والتبن دون ان ادري بذلك » وقالت ذلك ثم بدا على وجهها شرود الذهن ٠

وقاطعتها بسؤال هو « هل يعجبك السفـر يا بولي ؟ » فاجابتني بتصبر وحذر « ليس الان ، ربما قمت بسفرة بعد عشرين عامـا حتى اصبح امرأة بطول السيدة بريتون وقد اسافر مع غراهام ، حيث ينوي الذهاب الى سويسرة لتسلق جبل « مونت بلانك » وفي مرة اخرى قـد نسافر الى جنوب امريكا لنبلغ قمة جبل كيمبورا وهو اعلى جبال الاندس الكائنة في جنوب امريكا » ٠

وسألتها « وما قولك في السفر مع والدك لو كـان هنا ؟ » ولم تعط جوابها الا بعد برهة من التوقف وهو ما كان يظهر احدى تقلبات الامزجة المعهودة فيها ٠٠ وقالت لي مجيبة « ما جـدوى التحدث بهـذه الطريقة السخيفة ؟ وما الذي يخصك من والدي ؟ كنت على وشك ان اصبح سعيدة دون ان افكر فيه كثيرا فتعود المياه الى مجاريها » وقد لاحظت شفتيهـا ترتجفان واظهرت استعدادي السريع لابين لها امر رسالة والدها العزيز

وما طلبه من بولي وهربت من وجوب الالتحاق به في الحال وبعد ان بحت لها بذلك سالتها « بولي ٠٠٠؟ الست سعيدة بهذا النبأ ؟ » الا انهـــا لم تجبني بل رمت بكتابها من يدها وكفت عن هز مهـــد دميتها ثم حدقت وتفرست في وجهي وبانتفيعينيها آمارات الرزانة والاهتمام والجدية٠

وسالتها «الا تريدين الذهاب لملاقاة والدك ؟ » وقالت لي اخـيرا بتلك الطريقة المحددة الواضحة التي كانت تستخدمها عادة في حديثهـا معي والتي كانت تختلف تماما عن الطريقة التي كانت تكلم بهـا السيدة بريتون وتختلف تماما ايضا عن الطريقة التي كانت تخص بها غراهام ٠٠ « طبعا اريد ذلك ٠٠ » ووددت التحقق والتأكد اكثر مما كان في خاطرها ولكن بلا جدوى اذ لم تحر جوابا بل اسرعت الى السيدة بريتون تسائلها فاكدت لها ما قلته لها ٠

ان وطأة ما سمعته وخطورته وثقله جعلها في حالة جدية جدا طيلة ذلك اليوم وعند حلول المساء ولحظة وصول غراهام الى البيت منالمدرسة وجدتها الى جانبي تهيىء شريط الشعر حول عنقي فقـد اخطأت ووضعت المشط بين ثنايا شعري وعندما كانت منشغلة معي هكذا دخـل غراهام وهمست في اذني قائلة ٠٠ « قولي له ٠٠٠ الوداع ٠٠٠ قولي له انني ذاهبـة » ٠

وفي اثناء احتساء الشـاي تحدثت عـن الخبر وصادف ان غراهام كان انذاك منهمكا كل الانهماك في موضـوع الشهادة المدرسية والجائزة المدرسية التي كان قد اسهم في المباراة الخاصة بها وكررت خبر رسالـة المستر هوم مرتين وقبل ان يركز اهتمامه بالخبر تركيزا صحيحا ظل يمعن التفكير به ثم قال لوالدته « بولي تسافر ؟ واسفاه ايتها الفارة الهادئـة الصغيرة العزيزة ساتألم لفراقها وينبغي يا امي ان تعود الينا مرةاخرى » ثم اسرع في احتساء كوبه من الشاي وتناول شمعة وهيا منضدة صغـيرة واعد كتبه وانكب على الدراسة ٠

اما فارته الصغيرة فقد انسلت لتكون الى جانبـه واضطجعت على السجادة عند قدميه ووجهها مقابل قاع الغرفة وهي صامته بلا حـراك وبقيت على حالتها تلك ومكانها ذاك حتى حان موعد النوم في فراشها ، وفي احدى المرات شاهدت غراهام يدفعها بقدمه القلقة وهو سادر لايشعر

بتقربها منه فارتدت عنه قاب انج او انجين وبعد دقيقة واحدة جرت احدى يديها من تحت وجهها بعد ان استشعرت ضغطه عليها واخذت تداعب بها مداعبة ناعمة القدم الغافلة ، وعندما نادتها المرضة نهضت طيعة وقالت لنا جميعا « ليلتكم سعيدة » وهي تكبت ما تكبت ٠

ولا اقول انني خشيت الذهاب للنوم ولكن بعد مرور ساعة توقعت توقعا قلقا انني ان ذهبت الى فراشي لانام فسأجد نوم الطفلة نوما قلقا وسرعان ما وجدت ان الذي توقعته كان صحيحا حيث وجدتها باردة يقظة كالطير الابيض المخفض جناحاه خارج فراشها وصعب علي وهي في تلك الحالة ان ابادرها الحديث اذ لم يتسن معالجتها كما يعالج الاطفال الا انها مع ذلك هي التي بادرتني الكلام اذ بعد ان اوصدت باب الغرفة ووضعت الشمعة على المزينة (منضدة التزيين) التفتت الي قائلة « لا اقوى على النوم ٠٠ لا اقوى ٠٠ وعلى هذا لست قادرة على آن احيا » ٠

وسألتها ما بها وما الذي يؤلمها فاجابت بلغة تستثير الشفقة وتثير الشجن « بؤس مروع » وقلت لها « هل استدعي لك السيدة بريتون ؟ » فاجابني بقلة صبر « هذا سخف محض » ، وفي الحقيقة انني كنت ادري انها لو سمعت خطوات السيدة بريتون دانية منها لاستكانت في فراشها ولازمت فيه الهدوء كما يلازم الجرذي السكون تحت الشرشف او البطانية في حين انها تجود امامي بكل ما في سريرتها من خواطر وافكار دون ان تبوح امام عرابتي باية خاطرة او فكرة عن دخيلة نفسها او سريرتها لانها لم تحتسب نفسها امامي سوى فتاة صغيرة غريبة طيعة سهلة الانقياد نوعاما لقد تفحصتها فوجدت خدها احمر قرمزيا وعينها الموسعة بدا عليها اثر القلق والاحمرار والالم الدفين وفي مثل هذه الحالة كان جليا لدي ان تركها كذلك حتى الصباح امر لا يصح بتاتا اذ انني كنت دارية بحالتها كل الدراية ٠

وسألتها « هل تريدين ان تقولي لغراهام « ليلتك سعيدة » انه لم يدخل الى غرفته بعد ، وفي الحال مدت الي ذراعيها لارفعها وبعد ان لففتها بشال حملتها الى غرفة الاستقبال حيث شاهدنا غراهام يخرج منها وقلت له « لا تستطيع النوم دون رؤويتك والتحدث اليك مرة اخرى ، انها لا تستسيغ فكرة مغادرتك والتخلي عنك » وقال بعد ان اخذها مني بلطف

وقبل خدها الساخن وشفتيها الملتهبتين « لقد افسدتها بتدليلي اياها » ٠

« يا بولي ٠٠٠ هل تهتمـين بي الان اكثر من اهتمامك بوالدك ؟ » واجابته همسا « انا اهتم بك دون ان تهتم انت بي » ٠

وبعد ان طمنها على انه ليس كما اتتصور وقبلها ثانيـة اعادها لي فحملتها وابعدتها عن المكان ولكن مع كل الاسف لم تهدأ سورة حزنها وقلت لها ـ لكي تصغي الي ـ « يا بولينا لا ينبغي عليك ان تحزني لان غراهام لا يهتم بك قدر اهتمامك به فان الامر ينبغي ان يكون كذلك » وتساءلت عيناها المرفوعتان للنظر الي « ولماذا ؟ » فاجبتها « لانه ولد وانت فتاة وهو في السادسة عشرة من عمره وانت في السادسة فقط ومن طبيعتـه القوة والمرح اما طبيعتك فمغايرة وقالت لي « ولكنني احبه كثيرا فلماذا لا يحبني ولو قليلا » وقلت لها « انه يحبك بل انه هائم بك فانت المفضلة لديه » وقالت » احقا انه يفضلني على الآخرين؟ » فأجبتها « بلى ٠٠ يحبك اكثر من اية طفلة صغيرة اعرفها » ٠

وهدهدها وطيب خاطرها هذا التطمين وابتسمت وسط لجة آلامهـا واستطردت كلامي معها قائلة « لا عليك ان تغتاظي وتحزني ولا تنتظـري منه الكثير جدا والا ظنك مزعجة فينتهي امره معك الى الأبد » ورددت صدى هذه الكلمات بنعومة ولطف « الى الابد ؟ اذن سأكون معـــه على ما يرام وساحاول ان احسن وضعي معه يالوسي سناو » وهنا مددتها على فراشهـا وسألتني وانا انزع ثيابي « هل سيغفر لي ويسامحني في هـــذه المرة ، فطمنتها بانه سيغفر لها ويسامحها وانه لم ينفر منهـا قط وان عليها ان تكون حذرة في المستقبل ٠

وقالت لي ٠٠٠ « لا يوجد مستقبل ٠٠٠ فانا مسافرة فهل يقدر لي يا ترى ان اشاهده مرة اخرى بعد ان اغادر انكلترا ؟ » وتحدثت اليها بما يطمئنها ويشجعها ٠ واخذ ضوء الشمعة يخفت ومضت نصف ساعة اخرى ظننت بعدها انها نائمة ولكن الشبح الصغير او الصورة الصغيرة اخـــذت تتململ في فراشها وصدر عنها صوت ضئيل يسألني « هل تحبين غراهام ايتها الآنسة سناو » فقلت له ٠٠ « نعم ٠٠ احبه نوعا مـــا » وقالت لي متسائلة « قليلا فقط الست تحبينه بالقدر الذي احبه انا ؟ » ٠

واجبتها « لا اظن ذلك ٠٠ كلا ٠٠ لا احبه بالقدر الذي تحبينه انت»

وقالت لي مرة اخرى « الا تحبينه كثيرا ؟ » فاجبتها « قلت لك لا احبه الا قليلا فما فائدة الاهتمام به الى هـذا القـدر الذي تتصورينه فاغلاطه واخطاؤه لا تعد ولا تحصى » وقالت لي « اصحيح ما تقولينه ؟ » فقلت لها « كل الاولاد هم على هذه الشاكلة » وقالت لي « هل ان اخطاء الاولاداكثر من اخطاء البنات ؟ » فقلت لها « محتمل جدا ٠٠ يقـول حكماء الناس وعقلاؤهم ان من الحماقة بمكان ان نتصور ان هناك شخصا متكاملا وفيما يخص الحب او البغض ينبغي ان نكون اصدقاء للجميع ولا نتعبد شخصاما تعبـدا » ٠

وسالتني « هل انت حكيمة وعاقلة ؟ » فاجبتها نني اسعى لان اكون كذلك ورجوتها ان تنام واجابتني « لا اقوى على النـوم ، الست تشعرين بالالم في هذا المكان ؟ » (واومأت بأصبعها على صدرها الصغير)وقلت لها يتوجب عليك ان تفارقي غراهام فان بيتك ليس هنا »وقلت لها « حقا يابولي ينبغي عليك الا تستشعري المزيد من الالم ما دمت ذاهبـة لملاقاة والدك والانضمام اليه فهل نسيتيه ؟ الا تريدين ان تكوني مرافقته الصغرى ؟ »

واعقب سؤالي هذا صمت كصمت الاموات وقلت لها بلهجة الاستحثاث « آيتها الطفلة تمددي ونامي » واجابتني « فراشي بارد ولا اطيق تسخينه» ولاحظتها وهي ترتجف فقلت لها « تعالي الي ايتها الصغيرة» واناالاصدق كثيرا بانها تفعل ذلك لانهاكانت مخلوقة صغيرة ذات نزوات متقلبة غريبة الاطوار ولا سيما معي واخيرا جاءت في الحـال كشبح ضئيـل منزلقة على البساط فاخذتها واذا بها مبتردة ومصابة بقشعريرة ٠٠٠

وقمت بتسخينها وهي بين ذراعي ترتعد بعصبية فلاطفتها واسترضيتها بحيث اطمأنت وهدأت الى ان اغمض النوم جفونها وقلت لنفسي « ما اغرب هذه الطفلة » وانا احدق بمحياها النائم على ضوء القمر واخذت امسـح بحذر ولطف جفونها المتلألئة وخديها المبتلين بمنديل ، وظللت افكر كيف ستدبر امورها في هذاالعالم وكيف ستكافح في هذه الحياة ، وكيف ستصمد امام الصدمات ومظاهر القنوط والاذلال والمآسي التي تقول الكتب ويقول عقلي معها ـ انها متهيئة لافتراس اية فريسة ؟ » ثم سافرت في اليـوم التالي وهي ترتجف كورقة من اوراق الشجر حين آذن الرحيل غير انهـا كانت تمارس سيطرتها على نفسها ٠



الفصـــــل الرابـــــع

ـ الأنسـة مارشـمونت ـ

عند تركي بلدة بريتون وهو ما حققته بعد رحيل بولينا ببضعــة اسابيع دار في خلدي انني لن اعود مرة اخرى لزيارتها قط ، ولن اطرق شوارعها القديمة الهادئة ولجأت الى داري بنفسي بعد ان تغيبت عنه ستة اشهر وكان المفروض ان اكون مبتهجة ومسرورة بعودتي الى احضان افراد عائلتي، ان الحدس اللطيف لا يضير ولذلك يبقى صدوقا وفي امــان لا يناقضــه مناقض وبدلا من ان اقول لا سأسمح للقارىء بان يصفني وصفا دقيقــا ويتتبع اثري طيلة الاعوام الثمانية المتتالية ٠

حيث كان هنالك المركب البرك ذو الصواري الثلاثة هاجعا في سباته وسط جو هادىء في ميناء عاكس كزجاجة وكان مدير الدفة يبذل جهـدا قويا من على ظهر ذلك المركب وعينـــاه شاخصتان الى السماء تضرعا ثم مغمضتان في تلاوة طويلة وهناك العديد من النسوة والبنات قدمن ارواحهن بما يشبه هذه الطريقة فلم لا اكون كالبقايا من امثالهن ٠

تصوروني اذن ساكنة متشمسة سعيدة وممددة على ظهر المركب ورأسي مسند الى وسادة تدفئني اشعة الشمس المشرقة وتهزهزني النسائم الهابة بلطف ومع ذلك لا يمكن ان أخفي حقيقة انني سقطت في ذلك اليوم على جانب المركب بعد ان كنت واقفة على قدمي وان ذلك اليوم شهد في آخـر الامر تحطمه واشرافه على الغرق واتذكر جيدا البرد والخطر والكفاح في سبيل البقــاء ٠

والى هذه لساعة بعد ان عانيت من ذلك الكابوس لا ازال اتذكر لجة الامواج وملوحتها في حلقي وبلعومي وضغطها الجليدي عـلى رئتي حتى انني تذكرت وجود زوبعة لا لمدة ساعة واحدة او لمدة يوم واحد ذلك ان لا الشمس ولا النجوم طلعت خلال العديد من الايام بنهاراتها ولياليها وكنــا قد استخدمنا ايادينا لمعالجة خطورة وضعية المركب فقد خيم علينا خطــر العاصفة الهابة ولم يبق لنا أي أمل في ان ينقذنا احد ، وخلاصة القول ان

المركب غرق والملاحين ابيدوا غرقا ٠

وبقدر ما تحضرني الذاكرة لم اشك لاحد من تلك القلاقل والمزعجات المخيفة والى من الشكوى ؟ للسيدة بريتون التي لم تقع عيناي عليها منذ مدة طويلة ؟٠ان المعوقات التي سببها الآخرون وقفت في طريق لقائنا وقطعته زد على ذلك ان الزمن جاء بتبدلات ايضا فالثروة الكبيرة والممتلكات العظيمة التي جعلتها وصية عليها لصالح ولدها والتي استثمرت بالدرجة الكبرى في بعض مشاريع رأس المال المشترك قد ذابت ذوبانا ما خــلا قسما من المبلغ الاصلي الذي استخدمه غراهام ـ كما تناولت الاشاعات ـ في ايجاد مهنة له وتخلى هو ووالدته عن بلدة بريتون ورحلا عنها الى لندن ٠

وعلى هذا لم تبق لدي امكانية حصول فرصة للاعتماد على الآخرين ولم يبق سوى الاعتماد على النفس ولم اكن ادري انني اقوى على الاعتماد على النفس او انني ذات طبيعة فاعلة انما فرضت علي فرضا هاتان الظاهرتان من قبل مستجدات الظروف كما تفرض عادة على الوف من الناس ٠وعندما بعثت في طلبي الآنسة مارشمونت جارتنا لبيت الطلب على امــل ان تنيط بي بعض المهمات التي استطيع انجازها ٠

لقد كانت الآنسة مارشمونت ثرية تعيش في بيت انيق الا انها كانت كسيحة بفعل مرض الروماتيزم الذي تأصل في قدميها ويديها منذ عشرين عاما وكانت تسكن الطابق الاعلى من البيت الفخم وكانت غرفة استقبالها قريبة من غرفة نومها وغالبا ما كنت اسمع عنها وعن خصائصها ومميزاتها ومنها غرابة الاطوار والى ذلك الوقت لم يسبق لي ان رأيتها قط ٠

وقد وجدتها بعد الاتصال بها امرأة متغضنة الوجه ذات شعر اشيب وقرتها الوحدة وجهم وجهها طول امـــد المرض ومعاناته وكانت سريعــة الغضب والانفعال ايضا وربما قاسية ايضا بكثرة مطاليبها وكان يظهر ان السيدة التي سترافقها تريد تزويجها وعندما سمعت بأنني يتيمة ارسلت في طلبي على امل المشاركة في اعداد مكان الشخص الذي يريد ان يتزوجها وقدمت لي هذا الاقتراح بعد تناولنا الشاي سوية وحيدتين بجانب الموقد٠

وقالت لي بصراحة « لن تكون حياة سهلة لانني بحاجة الى مزيد من اهتمامك وتكونين جد مقيدة وربما يكون هذا مغايرا وعلى النقيض مــن التواجد الذي الفتيه مؤخرا ويتراءى لي انك تقوين على تحمل ذلك رغم

كل شيء » ورحت افكر وقلت في نفسي ٠٠ طبعا ينبغي ان يكون الامر على شاكلة يمكن تحملها وجادلت نفسي بنفسي وقلت ربما بقدر مجهول لن يكون ذلك ممكنا ٠

واذا عشت هنا في هذه الغرفة المجاورة لغرفة المريضة كساهرة على معاناتها وفي بعض الاحيان تتلاعب بي اهواؤها ونزعاتها فما الـــذي سيبقى من شبابي بعد ان ولى قسط غير قليل منه دونما رجعة خاصة وانه لن يعرف السعادة في مثل هذا الوضع واحسست ان قلبي يغور في لحظة ثم يعود الى ما كان عليه ومـــع انني اجبرت نفسي على تفهـــم الشرور وادراكها بدا لي ــ مع ذلك ــ انني اكثر واقعيـــة من ان اكـــون مثاليـــة وبالتالي من ان ابالغ فيها ٠ وكنت على شك مما اذا كان لدي القـــوة الكافية لانجاز مهمة العناية بهذه المريضة ٠

وقالت لي « اراني متحيرة الان لانك مخلوقة متعبة ومرهقة كمـــا يبدو لي » وهكذا كنت عندما شاهدت نفسي في المـــرآة الموجودة داخل ملابس الحزن التي ارتديها ٠٠ محيـــا باهـــت اللون يتضاءل تدريجيا وعينان مجوفتان من الضنى ولم افكر بحقيقة اللون الشاحب لانه عامل خارجي كما اعتقد ذلك لانني كنت لا ازال اشعر بدفق الحياة في عروقي وسألتني المريضة « ماذا يدور في فكرك اكثر من هذا ؟ هل هناك شيء في خاطرك ؟ » وقلت لها « لا شيء واضح حتى الآن ولكنني قد اجد شيئاما » وقالت لي « اذن انت تتصورين وتتخيلين ٠٠ ربما انت على حـق وعليك ان تجربي طريقتك واسلوبك وحينئذ ان وجدنا ان ذلك أمر غـير مجـد فعليك ان تجربي طريقتي واسلوبي انا ٠ وان عرضي الذي وضعتـــه مفتوحا امامك ينبغي ان يبقى مفتوحا لمدة ثلاثـة اشهر لـــكي تتخيري خلالها » ٠

وقلت لها « هذا لطف منك » وعبرت لها عن امتناني عنـد مداولتي الحديث معها واذا بأعراض مرضها وبرحائه يداهمها واخذت اسعفها وأمد يد العون لها وقمت بكل ما هو ضروري لمعالجتها وفق توصياتها لي وما ان مر بعض الوقت الا وزال منها ما كانت تشكو منه وبذلك تعزز نوع مـن اواصر الود بيننا وادركت من تلقاء نفسي كيفية تحملها هجمة المرض ذلك انها كانت امرأة قوية وحازمة وصبورة ٠٠٠ (صبورة على الالم الجسماني وربما سريعة الهياج من اثر الآكلة او ما يسمونه بالقرحة الدماغية) ٠

واكتشفت المريضة من مشاعري الودية المسعفة لها ان بوسعها التاثير على مشاعري واثارة عطفي عليها فأرسلت في اليوم التالي في طلبي وطالبتني بمرافقتها الى غرفتها لمدة خمسة او ستة ايام متتالية وان تعارفنا شخصيا ولد الاخطاء والشذوذ وفتح في الوقت عينه امامي كوة سيرتها واخلاقها التي تعودت على احترامها ٠

ومع انها كانت صارمة وقاسية وحتى نكدة المزاج في بعض الاحيان الا انني كنت اطيل معها التصبر وانتظرها لاجلس الى جانبها فيما بعد بذلك الهدوء الذي كان يباركنا لاسيما بعد ان ادركنا كلانا ان اخلاقنا ووجودنا وصلتنا تسر من نخدمهم ونسترضيهم وحتى عندما كانت توبخني بشدة بين حين واخر فأن توبيخها هذا كان من النوع الذي يتحاشى اذلال المقابل ومن النوع الذي لا يستشعر المرء لسعته او وخزته ٠ كان توبيخها اشبه بتوبيخ الام الغضوب لابنتها وليس كالسيدة الفظة القاسية التي توبخ توبيخا قاسيا رسميا من هي ادنى منها مرتبة وفي الحقيقة انه لا يوجد في طبيعتها ما يحدو بها الى ان تندفع وتهاجم بحقد وغيظ وان كانت في بعض الاحيان تفعل ذلك ٠

يزاد على ذلك ان عرق التعقل يسري دمه في عواطفها ومشاعرها ولا يفوتها منطقها وتعقلها حتى في حالة الانفعال الشديد ٠

وسرعان ما شرع حسن الارتباط الودي المتنامي يجسم فكرة وجوب البقاء معها كمرافقة في ضوء جديد تمام الجدة ووافقت على البقاء معها في غرفتها اسبوعا ثانيا واضحى عالمي غرفتين مجاورتين واضحت العجوز الكسيحة سيدتي وصديقتي وكل شيء لدي ٠ واجبي خدمتها ٠٠ وآلامها الامي ٠٠ ومعاناتها معاناتي ٠٠ وارتياحها ارتياحي واملي ٠٠ وغضبها عتابي ٠٠ وتحيتها المفعمة بالارتياح مني مكافاتي ٠٠

ونسيت ان هنالك حقولا وخمائل وغابات وانهارا وبحارا وجوا دائم التبدل خارج النوافذ المشبكة الملأى بالابخرة المعتمة لغرفة المرض ٠ وكنت انا ذاتي قانعة بنسيانها وكل ما هو في قرارة نفسي ودخيلتها انتهى محددا بمصيري وقدري وبالتطبع والتعود والانضباط بقسمتي ونصيبي ولم اعد اطالب بالخروج في نزهات ماشية وسط الهواء العليل وشهيتي لم تعد بحاجة الى اكثر من موائد الوان الاطعمة الصغيرة المهيئة المريضة ٠

وعلاوة على ذلك قدمت لي اصالة اخلاقها لدراستها ورسوخية

فضائلها واضيف على ذلك ٠٠ قوة عواطفها واحاسيسها لكي تثير عجبي واندهاشي ٠ وكان لديها كل هذه الاشياء وانا نفسي تشبثت بكل هذه الاشياء التي كنت على استعداد لان ازحف بها لمدة عشرين عاما لو ان عسرها وحياة تحملها امتدت بها الى حوالى هذه المدة ٠

ولكن قرارا آخر قد دون ويبدو ان علي ان اتحرك للعمل وآنخس بمهماز واساق سوقا والسع لسعا واجبر على بذل المجهود والطاقة وان القدر اليسير المتبقي لي من شعوري الانساني الذي كنت اعتبره لؤلؤة ثمينة ينبغي ان يذوب بين اناملي وان اتلاشى كما تنحل حبة البرد ثم تنفقيء وتتلاشى،وانواجبي الصغير الذي تبنيته واخترته ينبغي ان يختطف من ضميري القانع بسهولة واردت ان اتوصل الى تفاهم مع قدري ومصيري للتخلص من بعض المكابدات والعذابات والاستكانة لكل حياة الفاقة والحرمان وشتات الالام ولا يمكن هدهدة القدر بهذه السهولة ولا يمكن للعناية الالهية او الحيطة الآدمية ان توافق على مظاهر الكسل والتواني الزائلة المتسمة بسمات الجبن ٠

وفي ليلة من ليالي شهر شباط الذي اتذكره جيدا وصل صوت الى مقربة من دار الآنسة مارشمونت سمعه كل نزيل في البيت ولكن ربما لم يترجمه او يفسره الا واحد منهم بعد شتاء هادىء ثارت بعده الزوابع في الربيع ووضعت الآنسة مارشمونت في الفراش وجلست بجانب الموقد امارس الخياطة وكانت الرياح تتناوح على النوافذ وطال نواحها يوما كاملا ولكن في تضاعيف ساعات الليل تغيرت نبراتها واشتد هبوبها المخترق وراحت تشق اجواز الفضاء شقا متساوقا فتصم الآذان ثم راحت كما لو انها تتوجع في الشكوى فتؤلم الاعصاب لترتعش لدى كل عصفة

وقلت في نفسي ٠٠ صهايتها النفس وايها الفكر المضطرب والقيت ما بيدي من اعمال الخياطة وبذلت جهدا عقيما وانا اصيخ السمع لبكاء ينشد التقصي والاستكشاف ، لقد سبق لي ان سمعت مثل هذا البكاء او الصراخ وفرضت علي الملاحظة الاجبارية الاضطرارية فكرة ماهيته وكنهه ولقد علمتني الاحداث ثلاث مرات في حياتي هذه العلامات والنبرات الغريبة في العاصفة وسبب هذا الرجاء القلق والبكاء الآخذ في الخفوت مما يدل على حالة آتية لجو لا يبشر بخير للحياة ٠

ان الامراض المعدية ـ في اعتقادي ـ كانت غالبا ما يعلن عنها بلهاث الريح الشرقية ونواحها ومقلقاتها وعويلها وخطر لي موضوع

«ا لبانشي » (البانشي) شبح في الاساطير الاسكتلندية والارلندية ينذر عويله بوجود ميت في الدار) وتخيلت ايضا ملاحظتي ولـــكن تخيلاتي وملاحظاتي لم يكن فيها القدر الكافي من الفلسفة ليتبين ما اذا هنالك اية صلة بين الظروف التي غالبا ما تنذر بوجود فعالية بركانيـــة في بعض نواحي العالم القصية او انهارتثور امواجها بغتة فتغمر ضفافها اوتيارات عالية غريبة تسير بعنف وغضب على سواحل البحار الواطئــة • وخلت في نفسي ان عالمنا يبدو في مثل هـــــذه الحالات ممزقا تسوده الفوضى وان الضعيفة الواهنة فينا تذبل وتذوى بلهاثها وتنفسها المختل النظام اوتهرب من حرارة البراكين التي تقذف ابخرتها على الآخرين •

وكنت اصغي وانا ارتعد وارهف سمعي لاجـــد الآنسة مارشمونت نائمة • وفي حوالى منتصف الليل همدت العاصفة همود المـوت واخـذت النار الهامدة تتوهج توهجا زاهيا وشعرت بتغير في حركة الهواء فقداشتد هبوبه ونظرت الى الخارج ووجدت مابين النجوم دلائل قوية عن قرب حلول حالة تجمد وحولت نظري عن الجو واول ماشاهدته عيناي من الاشياء هو وجود الآنسة مارشمونت في فراشها وهي مستيقظة ورفعت رأسهـا عـــن الوسادة وهـــي ترنو الي باهتمام بالـــغ وبادرتني السؤال « هـــل الليلة جميلة ؟ » وقلت لها « نعم » وقالت « ظننت ذلك •• ففي مثل جو كهـذا اشعر بقوة وبصحة جيدة ••• ارفعيني •• انني اشعر الآن كما لو انني شابة •• متفتحة القلب جذابة خالية من الهموم •• وماذا لـو ان تذمري وشكاتي قريبة التحـــول ووشيكة التبـــدل فانا الآن في طريقي الى التمتـــع بصحة جيدة وان تحققت ستكون معجزة » •

واسريت لنفسي ••• هذه الايام ليست ايام العجائب واستغربت من كونها تتحدث على هذه الشاكلة • ومضت مستطردة في حديثها معي عـــن ماضيها وبدا لي انهاتستعرض احداثهومشاهده وشخوصه بازدهاء فريدلا مثيل له وقالت لي « احب الذكريات في هذه الليلة واعتبرها افضل صديقة لي لانها تمدني الآن ببهجة نفسية في اعماقي وتعيد لقلبي حياة جميـــلة دافئة الحقائق وليس مجرد الافكار الجوفاء واذا كان الـــذي اعتبرته في وقت ما حقائق طالما تصورت انها اضمحلت وتلاشت وامتزجت بقالبالموت فان لدي الآن الساعات والافكار والآمال الخاصة بشبابي وانني الآن ايضا اجدد حبي لحياتي ، حبي الاوحد وعواطفي ومشاعري الوحيدة » •

« واذا كنت لا اعتبر نفسي امرأة صالحـــة بشكل خاص او انيسة

بالطيبة فلي مع ذلك مشاعري القوية المكثفة ولهـــذه المشاعر والعواطف اهدافها التي هي بحدذاتها عزيزة على فؤادي مثلما هي عزيزة على قلوب الكثير من النساء والرجال الذين قد يفسدون ذكراها وانا في الوقت الذي احببت من احبني شعرت بسريان اللذة في كياني وياله من عام لا ازال اذكره ولا ازال اتذكر مباهجه على قلبي وياله من فصل ربيع حي وياله من فصل صيف دافيء بهيج وياله من نور قمر رائق يفضض امسيات الخريف ويالها من قوة الامل والرجاء تحت المياه التي يكتنفها الجليد والحقول الشيباء بالصقيع في فصل الشتاء من العام ذاته » ٠

« نعم في ذلك العام عاش قلبي مع قلب فرانك ٠٠ اواهـــ يا نبيلي فرانك ٠٠ ايها الامين يا فرانكي الصالح الجميل الذي كان اعز على فؤادي من نفسي بكثير ٠ لقد كان مستواه القياسي اعلى مني بكثير ومن كل الوجود وهذا ما اراه الآن في مخيلتي واقول ٠٠ اذا كانت هنالك بعض النسوة قاسين مثلما قاسيت بعد ان خسرته فان القليلات منهن تمتعن بمثل مامتعني حبه ٠ لقد كان حبا من نوع افضل بكثير من الحب الاعتيادي » ٠

« وليس لي من ريب به فقد كان حبا مشرفا ساميا محفوظا في السريرة يسر فؤاد من وهب اليه ودعوني اسـائل الآن في هـــذه اللحظة بالـــذات ـ وخاطري صاف بشكل غريب ـ دعوني اسائل ٠٠ لماذا اخذ مني ؟ ولاية جريمة ارتكبتها بعد ١٢ شهرا من السعادة العظمى لكيما اعاني بعدهـــا احزان ثلاثين عاما ؟؟ » استطردت تقول بعد لحظة توقــف « لا آرى ٠٠٠ لا ارى سببا لذلك ٠ ومع ذلك استطيع ان اقول في هذه الساعة بصدق مالم استطع قوله في السابق ٠٠ الهي ٠٠ ارادتك ستتحقق ٠ وفي هذه اللحظة اراني موقنة ومؤمنة بان الموت سيعيدني الى فرانك وهو مالم اؤمن به قط قبل هذا الوقت » ٠

وسألتها بصوت خافت « هل هو ميت الآن ؟ » واجابتني ٠٠« يافتاتي العزيزة في عيد من اعياد الميلاد السعيدة كنت اتوقع قبـــل ان ابدل ثيابي واتزوق ان يأتي الي حبيبي لكي نتزوج في الحال في تلك الليلة ٠وجلست انتظر مرة اخرى في تلك اللحظة وانا اعاين الشفق الثلجي من النافـــذة التي لم اكن قد اسدلت ستارتها لانني كنت اريد معاينة قدومه ممتطيـــا صهوة جواده في الارض الثلجية ٠

وكنت ارى واستشعر ضوء النـــار اللطيف يدفئني ويداعب ملابسي الحريرية ويريني بشكل متقطع محيا حبيبي الشـــاب في انعكاسة الزجاج

وكنت اشاهد قمر ليلة الشتاء الساكن يتهادى بتمامه وصفائه وبرودته على مجموعة الشجيرات السوداء بلون الحبر وعلى تربة ارضنا الفضية وكنت انتظر بفارغ الصبر في نبضي وفي قلبي بـــلا ريب ثم ماتت الشرارات وانطفأت في النار ومع ذلك كانت كتلة نيرة ولماعة فالقمر في الاعالي كان من الممكن رؤيته من خلال شبكية النافذة وكانت الساعة تقـــارب العاشرة ونادرا ما كان يظهر في السماء قبل هذه الساعة ما عدا مرة او مرتين تأخر طلوعه مدة طويلة نوعا ما .

واستطردت تقول « وقلت في نفسي .. هل سيخيب ظني فيه ولو مرة واحدة ؟.. كلا .. لن يفعل ذلك ولو لمرة واحدة والآن انتظر قدومه.. وبسرعة .. ليعوض عن الوقت المضــاع .. فرانك .. ايهـــا الفارس الجسور .. ورحت اصغي بابتهاج واشتياق لخبب حصانه الداني ..انني سالومك على ذلك يافرانك وساقول لك انك وضعت عنقي في وضع حـــرج وخطر واي شيء لك هو لي ايضا بكل معنى الكلمة وبكل معنى الاحساس».

« لقد وقعت عيني عليه .. ذلك هو .. وانهمرت الدموع من عيني عندما اخطأت عيناي فيما شاهدته واكتنفني الارتباك والحيرة فقد وجدت الحصان وسمعت وقع حوافره وشاهدت كتلة كبيرة وسمعت جلبة وصراخا فهل كان هذا فرسا ؟ ام كان شيئا كجرافة ثقيلة تمر مرا غريبا في الظلماء؟ هل هي مرجة ياترى ؟ وكيف لي ان اعـــين ذلك الشيء على ضـــوء القمر ؟ وكيف لي ان اتحدث عن الشعور الذي احسست به في قرارة روحي ؟.

ولم أر بدا من الخروج والركض لمعرفة الحقيقة واذا بي اشاهـــد حيوانا كبيرا الحجم . انه حقا حصان فرانك الاسود وهـــو واقف يرتعش وينفث البخار من فمه ويصهل امـــام الباب وهنـــاك شخص يمسك به وفي ظني انه كان فرانك وسألت ما الخبر فأجابني خادمي بصوت محذر « ادخلي الدار ايتها السيدة » واستدعى خادما آخر سرعان ماجاء على عجل من المطبخ كما لو ان غريزته دفعته الى ذلك وصاح به « ياروث خذ السيدة الى داخل الدار في الحال » بيد انني كنت راكعة على الثلج الى جانب شيء ممدد هناك شاهدت انه يسحب على طول الطريق ويسمع انينه ثم تسمع تأوهاته عـــلى صدري بعد ان رفعته وسحبته صوبي » .

« ولم يكن ميتا ولا فاقد الوعي تماما وقلت احملوه ورفضت اوامر ابعادي عنه وكنت رابطة الجأش لا اكتفي بأن اكــون سيدة نفسي وانما سيدة الآخرين ايضا وبدأوا يعاملونني كمعاملة الطفل كما يفعلون دائمـا مع كل شخص يصاب بصدمة كهذه ولم اسمح لاحد ان يدنو مني عدا الطبيب الجراح وعندما قام بما يجب ان يقوم به توليت بنفسي امر فرانك المشرف على الموت وكانت قد بقيت له بقية قوة يعانقني بها ويلف ذراعيه حول عنقي ويلفظ اسمي ويسمعني وانا اصلي بسكوت تام حوله وتحسس بوجودي وانا اواسيه بحنو وتلهف وقال لي « ماريا ٠٠ انا امــوت في الفردوس ٠٠ » وأنهى انفاسه الاخيرة بكلمات مخلصة وجهها لي وعندما طـر فجـر اول صبيحة ايام عيد الميلاد كان حبيبي فرانك في حضرة الخالق » ٠

واستطردت تقول « هذا ما حدث قبل ثلاثين عاما ومنـذ ذلك الوقت وانا اعاني ما اعاني واشك في انني استفدت من مصائبي كلهـا ٠ وان الطبائع اللطيفة الانيسة تطهر نفسها وترتقي الى مصاف الاتقياء الورعين والطبائع الشريرة المتسمة بالعنف والشدة تتدنى الى درك الشياطين ٠ اما انا فقد ظللت على بليتي وانانيتي » ٠

ولما كنت اعرف ان الآنسة مارشمونت تقدم الصدقات كثيرا الى مـن هم بحاجة اليها قلت لها « لقد احسنت صنعـا » وقالت « انـا لم امسـك احساني لمن هو مبتلى او مريض وماذا بذلك ؟» لم يكلفني الامر جهدا او ندما عند مساعدتي من هو بحاجة الى مساعدتي ولكنني اظن اعتبارا مـن هذا اليوم انني سأدخل في مجال ذهني افضل وهو ان اهيىء نفسي للاتصال بفرانك وانت ترين انني منهمكة بالتفكير به اكثر مما افكر باقدس الاقداس وعلي ان اقول لك انني رغم كل ما داهمني من المصائب والويلات من جراء ذلك لم اجدف ولن اجدف على الخالق وارى ان فرصة خلاصي ضعيفة فماقولك يالوسي بصدد كل هذا ؟٠٠ كوني بمثابة كاهني واعلميني بما ترينه »

وظنت انني قد اجبتها عندما قلت لها «هذه القضية لا اقوى على الاجابة عليها وليس عندي كلمات عنها ٠٠ » وقالت لي « حسنا يا ابنتي ٠٠ علينا ان نعترف برحمة الله ولكن ليس كل شيء مفهوما لدينا دائما ٠ ان علينـا ان نقبل بقدرنا وقسمتنا مهما كانت وعلينا ان نحاول اسعاد الآخرين كلما استوجب علينا ذلك ٠ حسنا ٠٠ اذن سأبدأ منذ يوم غد ان اسعدك وسأحاول ان افعل معك شيئا يسرك ويرضيك يا لوسي ٠٠ شيئا ينفعك عند موتي »٠

واستطردت تقول لي « ان رأسي الآن يؤلمني بعـد ان تكلمت كثيـرا

ولا ازال سعيدة حتى الآن • اذهبي الى الفراش فالساعة دقت الاثنتين فكم قد جلست معي ؟ والاحرى كم قد جلست انا معك ؟ ان انانيني تقتضي ان ابقيك اكثر معي ولكن اذهبي الآن ولا تقلقي علي اكثر مما قلقت وارى ان علي ان آخذ قسطي الجيد من الراحة » •

وبدا من حركتها انها تتهيأ للنوم فرجعت انا ايضـــا الى السرير في حجرة صغيرة داخل غرفتها وانقضى الليل بهدوء وبدا لي ان يوم دينونتها قد دنا وبلا ألم• وفي الصباح شوهدت ميتةلا حراك فيها وكان الجو باردا والهدوء يسود كلمكان في الدار والكل صامتونكما لو انهلا مقلقيقلقهم• لقد كانت طبيعتها المهتاجة السابقة وتبدل مزاجها تمهيدا لنـــوبة مرض ولنهاية مهيئة • وكانت ضربة واحدة كافية لتقطع خيط حياة طالما تأكلها القلق وابتلتها البلوى •

الفصـــل الخامس

ـ تقليب صفحـة جـديدة ـ

بعد ان توفيت سيدتي اصبحتوحيدة مرة اخرىوكان علي ان اتحرى عن مأوى جديد لي آوي اليه وفي ذلك الوقت ربما اصبت بصدمة عصبية بسيطة وتراءى لي ان صحتي لم تكن على ما يرام فقد كنت نحيفة منالسهاد والارق مجوفة العينين كحاضنة اطفال اثناء غياب ذويهم ، جد مجهدة مناثر الانفعالات او كشريدة اثقلتها الديون ٠

وفي الحقيقة انني لم اكن بمثلهذا الفقر ومع انالمرحومة مارشمونت لم يكن لديها متسع من الوقت لاعانتي كما وعدتني في الليلة الاخيرة قبل وفاتها الا ان اجوري دفعها لي بعد جنازتها ابن عمها من الدرجة الثالثـة توارثها وهو رجل جشع بخيل ذو انف معقوف وصدغين ضيقين وكان في السابق في حالة بؤس تام على النقيض تماما من قريبته السخية مما اثر تأثيرا سيئا على ذكراها التي يحمدها ويذكرها بالخير كل فقير ومحتاجحتى بعد وفاتها ٠

وبالنسبة للمالك القميء الرديء الصحة ونفسيته المضارعة لصحته السيئة كنت بالقياس الى الآخرين احتل مركزا محسودا ولهذا اعلمني في الاسبوع المقبل ان علي ان اغادر محلي الحالي ٠ وبعد ورطتي هذه ذهبت كاخر فرصة وحيدة متاحة لي لمشاهـدة خادمـة عجوز من عائلتنا لاخـذ مشورتها حول قضيتي وكانت في السابق مرضعة لي اما الآن ففي وظيفة مدبرة شؤون بناية ضخمة لا تبتعد كثيرا عن دار المرحومة مارشمونت ٠

وقد قصدتها لامضي بضع ساعات معها وظهـــر عليها الارتياح من لقائي ولكن لم تدر كيف تسدي النصح الي وكيـف ترشدني الى التصرف الصحيحوظل كلماحولي كظلام دامس وتركتها عندالفجر تقريبا وامامي مشية ميلين وكانت ليلة صامتة وباردة جدا ورغـم عزلتي وفقري وحيرتي فان قلبي الذي كانت تغذيه قوةالشباب الذي لم يتم عد ٢٣ صيفا حتىذلك

الوقت كان يواصل نبضه ناشطا وليس واهنا · نعم كنت واثقة ان قلبي لم يكن واهنا والا كنت ارتعشت وتعثرت من الاعياء خـــلال تلك المشيـــة الوحيدة عبر الحقول الهادئة ·

ولم يكن في طريقي قرى او دور خاصة بالمزارعين او اكواخ وكان من المفروض ان اخاف في ليلة غير مقمرة ولم اهتد الى الطريق الا بواسطـــة النجوم الهادية فبواسطتها عرفت طريقي وسط الظلماء وكان المفروض ان اخاف اكثر بوجود اللا مألوف الـــــذي يضيء في الشمال المسمى بالسر العجيب المثير للمشاعر وهو الشفق القطبي الشمالي او ما يسمى بالاضواء الشمالية التي تظهر على شاكلة الاضواء الملونة ويشاهدها من يمشي مـــن الناس ليلا في المناطق المرتفعة ·

ويظهر ان هناك قوة جديدة جاء بها هـــذا السر العجيب ومضيت في طريقي بشجاعة والنسيم العليل يهب في وجهي وخطرت لي فكرة جريئـــة تقبلها خاطري القـــوي ··· اتركي هـــذه البرية المقفرة واسلكي المـــكان البعيد عنه وسألت نفسي ·· « اين يقع هذا المكان ؟ » ··

وما كان علي ان انتظر بعيدا جدا لارى الابرشية الكائنة في وسط انكلترا الثري وشاهدت بالقرب مني مالم اشاهده بأم عيني من قبـــل ·· شاهدت لندن ذاتها ·

وفي اليوم التالي عدت الى القصر او البنايـــة الفخمة وطلبت ملاقاة مديرته او المعنية بشؤونه وبسطت لها خطتي · وكانت السيـــــدة بارين امرأة حكيمة ورزينة ومع انها ملمة بالعالم وعارفة عنه اكثر مني بقليـــل فانها لم تنتقدني ولم تستخف بمشاعري · وفي الحقيقة انني كنت املك طبيعة رصينة خاصة بي كانت قبل الآن مفيدة لي وبمثابة قناع او قلنسوة تغطي راسي وعنقي وقد نلت عن طريق رعايتها لي حصانة بل حتى رضى واستحسان اوصلتني الى حقائق لو انني توصلت اليها في ظرف او جـــو انفعالي غير مستقر او ان سواي توصل اليها في مثل هذا الجو لقيل له انه حالم او خيالي بعيد عن الواقع ·

وكانت مديرة القصر تعاني بعض الصعوبات من جراء اعدادها قشور البرتقال لصنع مربى « المرملاد » منها حين نزل طفل من الشباك قفزا الى داخل غرفتنا وكان طفلا جميلا اخذ يرقص امامي ويضاحكني ذلك اننـــا لم نكن غرباء عن بعضنا بعضا فأمه الامراة الشابة المتزوجة ابنـــة صاحب

الدار لم تكن غريبة عني ايضا ووضعت الطفل على ركبتي ٠ ان وضعي الاجتماعي ووضع والدة الطفل الاجتماعي كانا يختلفان فاننا كنا تلميذتين زميلتين في مدرسة واحدة كنت انا في العاشرة من عمري وكانت هي شابة في السادسة عشر من عمرها وتذكرتها ذات الوجه الوسيم ولكنها كانت كسولة وفي صف ادنى من صفي ٠

وحين كنت اظهر اعجابي بعيني الطفل الجميلتين الداكنتين دخلت والدته الشابة السيدة «لي» وما كان اجملها واوسمها وماكان ارق سريرتها وطويتها واوسم محياها رغم قلة ذكائها ، ان حياة الزوجية والامومة قد بدلت الكثير مما كان فيها مثلما بدلت الاخريات ممن شاهدت في حياتي وان كن اقل منها وعدا وفضلا ٠

وقد نسيتني السيدة اذ انني كنت قد تبدلت انا ايضا عن ذي قبل وفي رأيي انني لم اتبدل نحو الاحسن ولم احاول ان اذكرها بي ولماذا افعل ذلك ؟ انها جاءت من اجل اخذ طفلها لترافقها ووراءها المربية وهي تحمل طفلا صغيرا آخر ولم اذكر الحادث الا لان السيدة « لي » كانت تتكلم اللغة الفرنسية الرطينة من النوع الرديء وبنبرة ضعيفة لا سبيل الى تقويمها مما ذكرني مرة اخرى ـ وانا مكرهة ـ بأوقات تلمذتنا وقد ظهر ان الممرضة اجنبية من اصل فرنسي وكان الطفل ايضا يهذر في الفرنسية كما لو انه يزقزق كالعصفور ٠

قالت السيدة « باريت » ان هذه السيدة الشابة جاءت بالمربية تلك من دار التربية الاجنبية قبل عامين الى الوطن بتذكرة سياحية ذهابا وايابا وعوملت كمربية اطفال منذ ذلك الوقت واقتصر عملها على المشي مع الطفل والتكلم باللغة الفرنسية مع المستر شارس ٠٠ واستطردت السيدة باريت في كلامها قائلة « انه توجد كثيرات من النسوة الانكليزيات لدى العوائل الاجنبية ووضعهن كوضع هذه المربية الفرنسية » ٠

لقد اختزنت هذه القطعة من المعلومات العريضة غير المقصودة في ذهني لان ربات البيوت الحريصات كثيرا يخزن على ما يظهر مثل هذه القط[illegible] التذكارية التافهة لان اذهانهن العالمة بالغيب تتوقع انها ستستفيد منها يوما ما ٠ وقبل ان اغادر صديقتي القديمة سلمت لي عنوان خان او نزل صغير قديم محترم كائن في المدينة قالت ان اعمامي كانوا يرتادونه عادة في الايام الخوالي ٠

وعند ذهابي الى لندن لاقيت مخاطر اقل ومجهودا اقل ممـــا يتصور القارىء وفي الحقيقة ان المسافة لم تزد عن خمسين ميلا وكان لدي مايكفيني لتوصيلي الى هدفي والى البقاء فيه بضعـة ايام واعادتي الى مكاني ان لم اجد ضالتي فيه او ما يغريني على المكوث هناك واعتبرت ذلك بمثابة عطلة قصيرة تستخدم للقيام باعمال شاقة وليس للقيام بمغامرة حياة او موت . ولا يوجد ما يشبه اتخاذ كل ما نقوم به من افعال من اجل التوصل الى تقدير معتدل يبقي الفكر والجسم في حالة اطمئنان وهدوء في حـين ان النزوات الطنانة المفخفخة تــؤدي بكليهما (اي بالجسم والفكر) الى حـالة حمى مرضيــة .

وكانت الخمسون ميلا آنذاك سفرة يوم واحد لانني اتكلم عن زمن ولى ومضى . ان شعري الذي استطاع ان يصمد حتى اللحظة الاخـيرة امـام مجمدات الزمن يكمن اخيرا الان تحت غطاء راسي بلون ابيض كطبقة الثلج الكامنة تحت طبقة ثلجية اخرى وعندما قاربت الساعة التاسعة من ليلة شهر شباط الندية وصلت لندن ولعل القارىء لا يظن بأنني نسخة موسعة مـن الانطباعات الشعرية اذ ليس لي لا من الوقت ولا من المزاج ما يحدو بي الى اعتبر نفسي كذلك .

لقد وصلت متاخرة في مساء داكن ممطر رطب الى حد الازعاج بعد ان قطعت الفيافي والقفار التي امتحنت ابعادها الشاسعة الغريبة امتحانا عسيرا كل ماكان لدي من الفكر الصافي ورباطة الجاش ومن قوة وسلطان وهبتني اياها الطبيعة بعد ان حرمتني منها المؤسسات التعليمية المتألقـة المظاهر . وعند نزولي من عربة النقل الكبيرة بدا لي ان كلام اصحاب المركبات التي يجرها حصان واحد وغيرهم من الذين ينتظرون حوالينا غريب كما لو انه لغة اجنبية فما سبق لي ان سمعت ان اللغة الانكليزية تحرف بتلك الطريقة والشاكلة .. وعلى كل سعيت لفهمها وفهم الآخرين لكيما يتم وصولي بسلام الى الخان او النزل مع مالدي من صندوق الثياب بنفس عنوانه الذي احمله معي ويا ما اصعبها من سفرة مغمة ومحيرة ففي لندن ولاول مرة وفي خـان ولاول مرة حاولت ان اعمل مضطرة وانا تعبة من السفرة التي شوشتها علي ظلمة الليل المدلهمة ورجفة برودتها التي كانت تسـري في اعضائي وانا محرومة من كل من قد يرشدني الى ذلك .. ومع ذلك قمت بما يجب علي القيام به على الرغم مني .

وبحكم الفطرة السليمة وثقت بالآخرين علما بأن الفطرة السليمة

والحس البديهي العام كان متحجرا وفي حالة ذهول وارتباك ككل قواي الاخرى ولولا الضرورات القصوى لما استطعت ان احقق ثقتي بالآخرين ولم آلم الحمالة لانها كانت نفسها مخدوعة تماما وقد طلبت من النادلة غرفة لي وهذه اتصلت ـ بكل خوف ـ بالمهجعية اي بالمرأة المسؤولة عن غرف النوم والانكى من ذلك انها كانت تخشى كل الخشية السيدة الشابة عندما ظهرت امامها وفي ذهني ان تلك المهجعية اي المرأة المسؤولة ذاتها كانت نموذجا لجمال بنات المدينة ورشاقتهن فقد كان خصرها النحيل وقبعتها وملابسها مما تستدعي الاثارة بالعجب من كيفية صنعها وفي كلامها نبرة اظهرت سلاسة بلسانها واناقتها ورقتها الطبيعية الخالية من التكلف والتصنع٠٠ انها تفوقني فملابسها المهندمة الانيقة كانت تزدهي بها علي وتسخر بكل سهولة من زيي الريفي الواضح الخالي من الزخرفة وقلت لنفسي « لا جدوى من ذلك » ثم تغيير المشهد وتغيرت ظروفه وقلت « اذن سيكون وضعي جيدا » ٠

وحافظت على سلوكي الهادىء جدا مع تلك الفتاة المتعجرفة المتعالية ثم مع النادل ذي المعطف الاسود وربطة العنق البيضاء الذي كان اشبه بالقسيس وسرعان ما اصبحن لطيفات معي وفي اعتقادي انهن ظنن انني كنت نادلة ولكن اعتقادهن زال بسرعة ورحن يتصرفن معي على حالة شك متارجحات بين الرعاية وبين التأدب ٠

واصبحت في وضع جيد اشاركهن تناول المرطبات ورحت ادفيء نفسي بنار الموقد ثم اعتكفت في غرفتي تمام الاعتكاف وحدث انني كنت جالسة بجانب الفراش ثم مددت نفسي وذراعي على الوسادة واذا بضغط صدر رهيب يداهمني ومثل امامي في الحال وضعي كما لو انه شبح شاذ موحش ومكئب وخال من اي امل لي ٠ وساءلت نفسي ٠٠ ما الذي افعله ههنا وحيدة في مدينة عظيمة كلندن ؟ وما عساي ان افعله غدا ؟٠٠ وما هي توقعاتي وطموحاتي في الحياة ؟ واية صديقات لي على الارض ؟ ومن اين اتيت والى اين سأذهب ؟ وما عساي ان افعله ؟ ٠

وبللت بدموعي المنهمرة وسادتي وذراعي وشعري واعقبتها فترة فاصلة مظلمة من اسوا الافكار الموجعة ، بيد انني لم آسف من الخطوة المتخذة من قبلي ولم ارغب في التراجع عنها واقنعتني الفكرة الغامضة القوية وهي ان التقدم الى الامام هو افضل من التقهقر وان بوسعي التقدم،

وانه اذا كان الطريق ضيقا وصعبا فانه لابد ان ينفسح وينفتح ولابد ان هذا الشعور سيتغلب على المشاعر الاخرى ·

وقلت في نفسي انني في آخر الامر لابد ان استقر واطمئن واقوى على الصلاة واعود الى الخياطة والتطريز وكنت قبل برهة قد اطفأت شمعتي واشرفت على الاستسلام لسنة النوم لولا ان صوتا عميقا جبارا دوى باستمرار في الليل البهيم وفي اول الامر لم استطع ان اتبين كنهه ولكنه بعد ان دوى عشرين مرة ، قلت في نفسي بعد الدوي الثاني عشر للناقوس المهتز « لابد انني بالقرب من كاتدرائية القديس بولس في لندن » ·

الفصـــل السادس

ـ لنـــدن ـ

صادف اليوم التالي الاول من شهر اذار وعنــــدما استيقظت نهضت وفتحت ستارتي لارى الشمس مشرقة تجاهد وسط الضباب ومن فوق راسي اعالي الدور التي تكتنفها الغيوم٠وقدعاينت قبةكاتدرائية القديس بولس الداكنة الازرقاق يجللها الوقار ويعلوها الصليب المثبت وبينما كنت اعاين تحركت نفسي من داخلهــا وهزت روحي جناحيها المقيدين دائما فاضحيا كنصف طليقين ٠٠

وداهمني شعور مفاجيء احسست بموجبــه بانني تلك التي لم تعش عيشة صحيحة اخذت تتذوقطعم الحياة وفي الصباح تنامت روحي وتعاظمت بمثل ما تعاظمتبه النبتة المتسلقة ذاتالاثمار اللحمية التي وهبها اللهللنبي يونس لكي يحتمي بها من حرارة الشمس وقلت في نفسي « حسنا فعلت بمجيئي وشرعت ارتدي ملابسي بسرعة واهتمام حقـــا ٠٠ انني احب حيوية هذه المدينة العظيمة ونشاطها وهو ما اشعر به من حولي وانهلجبان ذلك الذي يعيش طوال حياته فيالقرى الصغيرة يتخلى عما لديه منمواهب من اجل صدأ الغموض والظلمة الآكل القاتل ٠

وبعد ان ارتديت ثيـــابي نزلت وانا بمنجاة من وعثاء السفـــر وانهاكاتها وكنت مرتبة ونشيطة ومنتعشة وعندما جــاء النادل بنطوري حاولتأن ابادره الكلام برزانة وبمرح وتبادلنا اطراف الحديث مدة عشر دقائق تقريبا بحيث اصبح الواحد منا يعرف الآخر بشكل متبادل الفائدة فقد كان كهلا ذا شعر رمادي اللون وعلى ما عرفت عنه انه امضى عشرين عاما من عمره في هذه المهنة ٠

وتأكدت بعد ان قالَ ذلك انه لابد ان يعــرف عمي شارلس وعمي ويلموت اللذين كانا يزوران هذا الخان قبل خمسة عشر عاما لماما وذكرت اسميهما امامه فتذكرهما جيدا وتحدث عنهما باحترام وبعــد ان تعززت صلتي به اضحى وضعي واضحا امام ناظريه وعلى قدم المساواة وقال لي

انك كعمك شارلس وفي رآيي انه كان صادقا فيما قاله عنه لان المستر باريت اعتاد على ان يتحدث صدقا وحل محل سلوكيته السابقة المتشككة لطف وكياسة واحترام وعليه لم اتردد بعد ذلك عن ان اجيب على سؤاله الحساس بجواب مهذب ٠

كان الشارع الذي تشرف عليه نافذة غرفة الجلوس الصغيرة التي نزلت فيها ضيقا وهادئا للغاية ولم ار فيه وساخة والقليلون الذين كانوا يرتادونه او يمرون به يشبهون سكان المدن الصغيرة من القرويين فلا شيء هناك مما يستلفت النظر من غرابة وشعرت شعورا اكيدا بان علي ان اقوم بمغامرة اخرى بمفردي ٠

وبعد ان تناولت فطوري خرجت يساكن قلبي الفرح والابتهاج ومجرد المشي في شارع من شوارع لندن هو المغامرة بعينها ووجدتني امشي في شارع « باترنوستر راو » اي الصلاة الربانية القريب من الكاتدرائية المارة الذكر وهو شارع مشهور كلاسيكيا بمكتباته وكتبه ودخلت احدى مكتباته لصاحبها جونس واشتريت كتيبا نفيسا ما كان بوسعي ان اجده في مكان آخر وفكرت في ان ابعث به يوما ما للسيدة باريت وكان السيد جونس صاحب المكتبة الذي يبسته جديته في مهنته جالسا وراء منضدته وبدا لي كما لو انه احد الرجال العظام وكنت انذاك اسعد مخلوقة ٠

وكانت العيشة التي عشتها في ذلك الصباح عيشة استثنائية فقد وجدتني امام كاتدرائية القديس بولص فدخلت ثم اعتليت قبتها واشرفت على لندن التي تكشفت امامي من ذلك العلو بنهرها وجسورها وكنائسها وشاهدت ويستمنستر الاثرية وهي المنطقة التي يقع فيها قصر ويستمنستر ودور البرلمان وهي اثرية لانها اقدم اقسام لندن كما شاهدت حدائق المعبد الاخضر المتصلة بالهيكل والشمس ترميها باشعتها ومن فوقها السماء الزرقاء البهيجة لباكورة فصل الربيع وبينها وبينه تجمعات غير كثيفة من الضباب٠

وبعد ان نزلت رحت آتيه تحملني قدماي الى اي شيء تتيحه لي الفرصة وانا في حالة انتشاء دائمة من التحرر والبهجة ووصلت ــ ولا ادري كيف؟ ــ الى قلب حياة المدينة ووجدت لندن وشعرت بها في آخر الامر ثم وصلت الى شارع « ستراند » ثم طريق كورنهيل العام المشهور بكونه السوق الذي

يباع فيه القمح والذرة وامتزجت بالحياة الزاخرة هناك وتجرأت لخوض اخطار العبور مما منحني الشعور بالبهجـــة الحقيقية التي ربما اتسمت باللاعقلانية •

ومنذ تلك الايام شاهدت منطقة « الويست ايند » الجزء الغربي مـــن لندن ومتنزهاتها والساحات الجميلة ولكنني احببت « الستي » اكثر من غيرها بكثير لما فيها من مصالح وفورات النشاط الانتاجي وضجيج وصخب واصوات ممتزجة بعضها مع البعض من هنا وهناك فالستي تكسب عيشهـــا والويست ايند لا هم لها الا التمتع بمسراتها ففي الويست ايند قد يدخل قلبك السرور اما في الستي فأنت في حالة تيقظ واستثارة •

واخيرا اصابني الضعف ودوار الراس وداهمني الجوع فعدت ادراجي في الساعة الثانية الى النزل القديم المعتم الهادىء وتناولت طعامي مـــن صحنين احدهما يحمل اللحم والآخر يحمل الخضروات بشهيـــة وهي اشهى من مائدة الطعام المختلط الذي كانت تعـده طباخـــة المرحومـــة العطوفة مارشمونت وتبعث به عادة الينا ونأكله بنصف الشهية المعتادة ونحن نتداول الاحاديث بيننا ولما كنت تعبة تمددت على ثلاثة من الكراسي لمدة ساعة ولم يكن في الغرفة اريكة او مقعد ذو ذراعـــين للنـــــوم واستيقظت من نومي واستسلمت للافكار والتأملات مدى ساعتين •

وكانت حالتي الذهنية وكل ما يرافقها من ظروف تستدعيني لاختيار خط عمل جديد يتصف بالعزيمة والجرأة وربما بالاستماتة وما كنت اخشى من شيء آخر • فالتقزز من الماضي الموحش منعني من ان اعود اليه ثانية وما الذي ساعانيه اكثر من معاناة الماضي لو انني فشلت فيما اعتزمت ان اقوم به فاذا قدر لي ان اموت بعيدا عن داري ـ وان كنـــت لا املك دارا في الواقع في انكلترا آنذاك ـ فمن ذا سيبكيني ويسكب علي الدموع ؟•

وقد اتعذب واعاني الذي اعانيه وامارس المعاناة فعلا اما في الموت فلا عذاب ولا معاناة فتلك المظاهر المخيفة التي كابدتها قبل هـــذا كانت تنظر الى فكرة الموت نظرة الهدوء ورباطة الجأش وبتهيئي ـ والحالة تلك ـ لكل النتائج تكونت لي فكـــرة •• ففي تلك الامسية تلقيت من صديقي النادل معلومات عن سير البواخر صوب ميناء « بومارتن » الخيالي الساحر

ووجدت ان ليس لي ان اضيع الوقت بعد الآن وعلي ان استأجر مضجعا في الباخرة وانتظر مجيء صبيحة اليوم التالي قبل الصعود الى ظهر الباخرة على ان لا اتأخر عن الموعد كثيرا ٠

ونصحني النادل بأن اسرع في الذهاب الى الباخرة دون ابطاء فوافقت وبعد ان دفعت قائمة المكوث لتلك الايام في الخان وشكرت صديقي على ما اسداه لي من خدمات عرفت الأن كم كانت دفعتي سخية بنسبها علما بانها في نظره دون المستوى المطلوب بكثير ولذلك عندما وضع ثمن القائمة في جيبه ابتسم ابتسامة باهتة نمت عن رأيه في العطاء ثم انطلق ليأتي لي بعربة اجرة وقدمني للسائق ايضا مع توصياته لي للاهتمام بي وايصالي الى رصيف المرفأ الا ان هذا لم يف بوعده للنادل بل على العكس والضد من ذلك لم يوصلني الى المجذفين بل قدمني لهم كما لو انني قطعة لحم مشوية وانزلني من العربة وسط حشد من المجذفين ٠

وتلك كانت ازمة مقلقة فالليلة كانت شديدة الظلام وساق الحوذي عربته حالما قبض اجرته وشرع المجذفون في مساعدتي وسمعتهم يقسمون من اجلي واثاروا مشاعري الفلسفية اكثر مما اثارها الليل البهيم او العزلة او غرابة المشهد ومد احدهم يده على صندوق ملابسي وحاجياتي فنظرت اليه بهدوء ولكن عندما مد احدهم يده علي رفعت صوتي محتجة ودفعت يده عني ودخلت الزورق حالاوطلبت بشكل صارم وضع صندوقي بجانبي وقلت لهم ٠٠ ضعوه هنا ٠٠ ففعلوا في الحال علما منهم ان صاحب الزورق الذي اخترته اصبح حليفي ثم جذفوا بي الزورق صوب المكان المطلوب ٠

وكان النهر اسوداللونكالحبر السائل والاضواء تومضعلى صفحاته من اكوام مدورات البناية والبواخر تتهادى على صدره وراح الجاذفون يجذفون بي بمحاذاة عدد من البواخر واستطعت على ضوء الفانوس ان اقرأ اسماءها المدونة بالاصباغ الكبيرة الاحجام والاحرف الكبيرة المدونة على الارض المظلمة وقرأت اسماءها التالية ٠٠ المحيط ٠٠ العنقاء ٠٠ الدولفين واحدا بعد الآخر ولكن باخرتي كانت ازهى واجمل ٠

وراحت تمخر بنا عباب المياه السوداء السريعة الجريان وفكرت بالاسطقس « والفارون » الذي يأخذ بعض الارواح الانعزالية الى ارض

الاموات (الاسطقس والغارون من الاساطير اليونانية القديمة فالاسطقس نهر يحيط بارض الاموات والغارون هم المعبرون عبر النهر الذين يأخذون ارواح الموتى عبر نهري الاسطقس والاشيرون الى ارض الاموات)وسالت نفسي وانا وسط المشهد الغريب والريح القارصة تهب في وجهي وغيوم منتصف الليل تسقط قطرات مطرها على رأسي الجذافان الفظـان اللذان كانا يرافقاني يتلفظان باقسامهما المخبـولة التي تصم اذني ٠٠ ما اذا كنت تعيسة او خائفة وكان الجواب لا هذا ولا ذاك ٠

وغالبا ما صادفت في حياتي ظروفا سالمة نسبيا وقلت ٠٠ « يبدو لي انني مفعمة بالحيوية وحذرة بدلا من ان اكون مفعمة بالكـآبة والخوف ولا اقوى على ان اقول كيف حدث هذا »٠ وقال الجذاف الاشيب المفعـم بالحيوية بغضب ٠٠ « ها اننا قد وصلنا» وعلى التو طالبني بستة شلنات وقلت له « لقد طلبت الكثير » ونزل من السفينة وحلف بأنه لن ينزلني الى البر مالم ادفع له هذا المبلغ ٠

وكـان احـد خدم السفينة الذي ينظـر الى جـانب الباخرة يبتسم منتظرا نتيجة الاخذ والرد بيني وبين الجذاف ولكي اخيب ظنـه دفعت المبلغ ولمدة ثلاث مرات كنت ادفع كرونات بدلا من شلنات وكنت اعـزي نفسي قائلة « انه ثمن التجربة » ٠ وعنـد صعودي الى الباخرة قال لي الخادم بابتهاج « لقد خدعوك » فأجبته ببرود « انني عـلى علم بذلك » ونزلت الى اسفل الباخرة ٠

ووجدت في كابينة السيدات امرأة بدينة وجميلة ومبهرجة وسألتها عن المكان المخصص لنومي ونظرت الي شزرا وتمتمت بعبارة مفادها ان من الغريب ان يصل مسافر في مثل هذا الوقت ويبدو ان مظهرها كان يدل على انها غير مهذبة ووجهها ٠٠ ياله من وجه وسيم ينم عن غطرسة صاحبته وانانيتها ٠ وكان جوابي لها « اما الآن وقد صعدت على متن الباخرة فلابد لي ان امكث فيها وارجو الا اكون قد ازعجتك اذا طلبت منك تعيين مكان منـامي ٠

وامتثلت ولكن عن مضض وبتقطيب الجبين ٠ وما كان مني سوى ان ارفع قلنسوتي النسائية وانظم اموري وما يخصني من الاشياء ثم تمددت في فراشي ومررت ببعض الصعوبات ولكنني احرزت نوعـا من الانتصار ومرة اخرى كان يلجأ ذهني الشديد العاجز غير المستقر الى التمتع براحـة

قصيرة الامد ولما لم يبق لدي عمل منذ وصول الجذاف القوي الى المرفا ولم يبق لدي ما اتطلع اليه ولانني كنت برمة منهوكة القوى استلمت لما يشبه نصف الغفوة •

وكانت القهرمانة او المضيفة تتحدث طيلة ساعات الليل •• ولم يكن كلامها موجها الي وانما الى المضيف او الخادم الشاب او الى ولدها او تتحدث مع صورتها ذاتها وكان المضيف يدخل الى الكابينة ويخرج منهـا بصورة مستمرة وراحوا يتنافسون ويتخاصمون عشرين مرة في الليلة تقريبـا واعترفت لابيها بأنها كتبت رسالة الى ذويها وقرأت فقرات منها امامـه بصوت عال ولم تعر اهتماما لوجودي وربمـا ظنتني نائمـة لان بعض الفقرات من الرسالة انطوت على اسرار عائلية واشارت الى الفتاة الصغيرة المسماة شارلوت التي كانت على وشك ارتكاب عمل رومانتيكي رديء •

وكان احتجاج هذه السيدة الكبيرة السن صاخبا على هـذه العمليـة الجنسية البغيضة وضحك الولد المولع بأنجاز واجبأته الوظيفية الخدمية من رسالة امه واخذ يسخر منها في حين انها اخذت تدافع عنهـا وتهاجـم ولدها بعنف وكان الاثنان غريبين في تصرفاتهما فهي في التاسعةوالثلاثين او الاربعين من عمرها وهو ممتليء الجسم وبصحة جيدة ويترعرع كفتاة في العشرين من عمرها • وبدت المـرآة بعنفهـا وصياحها الصاخب وهزتها رابتدانها كما لو ان ذهنيتها تنم عن الصفاقة والحماقة وكما لو ان جسمها باق لن يموت وفي رأيي انها فيطفولتها ربما عاشت في مراكز عامة وانها في شبابها ربما عملت بوظيفة نادلة في حانة •

واثناء الصباح تحول حديثها الى موضوع جديد يخص عائلة راتسن وهي افراد عائلة من المسافرين معروفين لديها وقالت فيمعرض تقديرها للربح الكبير الذي يردها منهم ان الذي يأتي لها منهم يعتبر كما لو انه كنز صغير كلما عبر افراد العائلة بواسطة الباخرة • وعند الفجر حصل هـرج ومرج وصخب وعند شروق الشمس دخل المسافرون الباخرة بالمرح الصاخب وكانت هذه المضيفة تستقبل افراد عائلة واتسن بالنشاط الصاخب ايضـا وكانت تغدق عليهم الاماديح والتشريفات وهم افراد اثنان منهـم ذكور واثنان من الاناث •

وعلاوة على افراد العائلة هؤلاء كانت هناك مسافرة وهي سيدة شابة يحرسها سيد محترم واهن الهمة على ما يظهر من سيمائه وهاتان المجموعتان

كانتا متضادتين ومتباينتين ، فعائلة واتسن تتكون من اناس اغنيـاء دون ريب يملكون ثروة موثوقا بها والمرآتان شابتان واحداهما جميلة ومليحة القوام وكلتاهما ترتديان ملابس انيقة غالية الثمن وتبدوان مبتهجتين الا انهما مضحكتان بسيرتيهما المنافيتين للظروف ٠

وفي قلنسوتي تينك الامرآتين زهور بديعة الالوان وبـدا معطفاهما الفضفاضان وملابسهما المخملية الحريرية مناسبــة للنزهـات والحفلات الراقصة اكثر مما هي مناسبة للنزهات النهرية امـا الرجلان فمن منزلة ادنى بسيطان وبدينان وسوقيان وسرعان مـا عرفت ان الاكبر والابسط والاسمن والاعرض هو الزوج وربما العريس وكانت الاصغر كثيرا عروسه وهي فتاة جميلة ٠

وكان عجبي كبيرا لهذا الاكتشاف والاعمق من ذلك ادراكي وتحسسي بأنه بدلا من ان تكون العروس تعيسة جدا كانت تبدو جد مبتهجة بشكـل طائش ومستهتر وتصورت ان ضحكتها ينبغي ان تكون مجرد نوبة من نوبات اليأس والقنوط ، وحتى عندما كانت هذه الفكرة تمر مرورا في خاطري وانا واقفة ومكتئبة بكل هدوء ووحدانية على جانب الباخرة جاءت تتهادى بخطاها صوبي وبكل غرابة وبيدها كرسي صغير مخصص للجلوس وهـي تبتسم ابتسامة محيرة ومجفلة رغم انها تبدي طقما كامـلا من الاسنان ، وقدمت لي الكرسي فأبيت اخذه ـ طبعا ـ بكل ما املك من كياسة وتادب وكانت ترقص بعيدا عني دون اكتراث بأحد وبرشاقة ومرح الامر الـذي نم على انها ذات طبع طيب بسيط وسريرة جيدة ولكن السؤال الذي كـان يحيرني هو ٠٠٠ ترى ؟؟٠ ما الذي جعلها تتزوج ذلك الشخص الذي كـان اشبه ما يكون ببرميل نفط منه الى رجل ؟

وكانت المسافرة الاخرى برفقة الرجل فتاة وسيمة رائعـة الجمال وملابسها البسيطة المطبوعة بالرسوم وقلنسوتها القشية غـير المزركشة وشالها الكبير الذي ترتديه برشاقة كلها شكلت لباسا نسويا مبسطا غـير مزركش ومع ذلك بدا عليها كما لو انها البسة كافية لا ينقصها شيء وقبل ان يغادرها السيد لاحظت انه يرمق المسافرين كلهم بنظرات فاحصة كمـا لو انه يريد التاكد ممن ستكون وديعته وموضوع رعايتـه وتحولت عيناه المستاءة جدا من السيدات المزوقات بأوراد زاهية ووقعت علي وبعد ذلك تكلم مع من لا ادري ما اذا كانت ابنته او ابنة اخيه او ابنة اخته او ما الى ذلك

وهذه ايضا نظرت صوبي وبإتجاهي واذا بها تمط بشفتها الصغيرة الحلوة معلة خفيفة وربما كنت انا المقصودة بذلك او كان ردائي الصباحي البيتي الحدادي هو الذي استثار اشارتها او حركتها الاستخفافية او كان كلاهما في معظم الاحتمال . وهنا رن الجرس وقبلها والدها (وهنا عرفت فقط انه والدها) ثم عاد الى البر وتحرك الزورق بالمسافرين .

ويقول الاجانب ان الفتيات الانكليزيات فقط يمكن الوثوق بهن عندما يسافرن وحدهن وهم مندهشون اندهاشا كبيرا من الثقة التي يستشعرها الآباء والامهات الانكليز ببناتهن ويسميهن البعض مثلا بالآنسة « الشاب » ويعتبرهن الآخرون بالضحيات المذعنات لنظام تعليمي او لاهوتي فيتمردن بشكل خليع على مراقبة الوالدين الصحيحة .

ولست ادري ما اذا كانت هذه السيدة الشابة بالذات من النوع الذي كان يمكن تركها آمنة بلا مراقبة وبالاحرى ما كنت ادري آنذاك ولكن سرعان ما ظهر ان جلال الانفراد او الانعزال لا يتوافق وذوقها وكانت تخطو جيئة وذهوبا مرة او مرتين على ظهر المركب وراحت ترنو بمقلتيها وسط جو كريه من الازدراء الى الملابس الحريرية والمخملية والصور المرسومة على الملابس واذا بها تتقدم نحوي في آخر الامر وتبادرني الحديث بالسؤال التالي :

« هل انت مولعة بالسفرات البحرية ؟ » واوضحت لها ان ولعي بالسفرة البحرية بالنسبة للاوانس الشابات يعتبر غير ملائم وغير صحيح وغير لائق ويخضع لامتحان تجريبي اذ انني لم اقم قبل هذا بسفرة بحرية كهذه وصاحت « الله ... الله ... ما ابلغ ما تقولين انني احسدك على ابداعك وان أولى انطباعاتي عنك هي – كما علمت الآن – مريحة للغاية اما انا فقد قمت بسفرات كثيرة بحيث انني نسيت امر السفرة الاولى .. انا في الحقيقة متعبة من السفرات ومن كل ما يتصل بالسفرات » .

ولم اتمالك نفسي من الابتسام لما قالته وسألتني على اساس اختباري صريح سرني اكثر مما سرني حديثها الآخر « لماذا تضحكين مني » ؟ فأجبتها « لانك اكثر حيوية وشبابية من ان تتبرمي بأي شيء ؟ » وقالت لي بشيء من الكبرياء الغاضب « انني في السابعة عشر من عمري » وقلت لها « انت تبدين في السادسة عشر من عمرك لا اكثر وهل تحبين السفر وحدك ؟ »

وقالت لي بعدم اكتراث « لا اهتم بأي شيء كهذا ‥ فقــد عبرت القنال عشر مرات وحيدة ، بيد انني اسعى لكي لا تطول سفرتي وانا وحيدة واسعى ايضا للتحري دائما عن صديقات » .

وقلت لها وانا اومىء الى مجموعة عائلة واتسن الذين كانوا يضحكون آنذاك ويحدثون ضجيجا كبيرا على سطح المركب « أيصعب عليك ان تجدي صديقات كثيرات في هذه السفرة ؟» وقالت لي « ليس مثل هؤلاء البغيضين من الرجال والنساء الذين يتحرون المناطق الارخص في الباخرة ‥ واسألك هل انت ذاهبة لدخول مدرسة ؟ ... قلت لها ‥ كلا ‥ » وسألتني « اذن اين وجهتك ؟ اين انت ذاهبة ؟ » قلت لها « ليست لي اية فكرة عن الموضوع وكل ما اعلمه انني لن اتعــدى مينـــاء بومارين » ورنت الى بمقلتيها واستطردت في حديثها السريع التالي بلا اكتراث :

« انا ذاهبة الى المدرسة ... ولكم دخلت مدارس اجنبية في حياتي ولكنني لا ازال في جهل مطبق فانا لا اعرف شيئا ‥ صدقيني لا اعــرف شيئا في العالم عدا اللعب والرقص اللذين اجيدهما بشكل رائع . طبعــا انا اعرف اللغتــين الفرنسية والالمانية ولــكنني لا اقرأهما جيــدا ‥ اتعلمين ؟ ‥ أرادوا مني ان اترجم لهم صفحة من كتاب الماني سهل الى اللغة الانكليزية ولم آقو على ذلك واسقط في يــد ابي وانجرح شعوره وقال « يبدو ان عرابي المسيو دي باسومبيير الذي يدفع كل قوائم المدارس التي ارتادها قد بدد نقوده كلها تبديدا فذهبت هباء » .

واستطردت تقول « وفي قضايا الاعلام والتاريخ والجغرافيا والحساب وغيرها لا زلت كطفلة وكتابتي باللغة الانكليزية رديئة جدا وكذلك أنا في نفظي وقواعد اللغة ‥ وقد كنت ذات مرة في بون (‥ ايتهــا العزيزة بون ‥ ايتها الساحرة بون ‥) لقد كان فيها الــكثير من التلميذات الجميلات المهندمات وكل فتاة جميلة كان لها في المدرسة من يعجب بها من التلاميذ الذين يعرفون ساعات خروجنا للنزهات وغالبــا ما يلاحقوننا ويمرون من امامنا في المتنزه ويقولون لنا عادة « سكونسر ماشين »ومعناها بالالمانية « الفتيات الجميلات » ‥ آه ‥ ما كان اسعدني في بون ‥ » .

وسألتها « واين تذهبين الآن ؟ » فأجابت « انا ذاهبة الى (جوسي) » .
والان قد استبدلت الآنسة جنيفرا فانشاوي ـ وهذا هو اسم هذه الشابــة الشخصي ـ استبدلت هذه الكلمة (جوسي) بنسيان مؤقت للاسم الحقيقي

وتلك كانت عادتها · ان كلمة جوسي ·· توردها لدى كل مطلع فيحديثها وهي البديل الملائم عن كل كلمة مفقودة في اية لغة ·· يجري التكلم بهـا وغالبا ما تفعل الفتيات الفرنسيات ذلك ومنها جاءت العـادة وعلمت ان كلمة جوسي ·· في هـذا الصدد تعني ·· فيليت ·· العاصمة الكبرى لمملكة ·· لاباسيكور ·· العظمى (كلمتا فيليت ·· لاباسيكور هي كلمتان خياليتان استخدمتهما شارلوت برونتي عن كلمتي ·· بروكسل وبلجيكامن شرح المؤلفة في آخر مؤلفها) ·

وسالتها « هل تحبين فيليت ؟ » فأجابتني « اجل ·· اعرفها معرفـة تامة ·· ان اهاليها من الحمقى والمبتذلين تماما غير ان بعضهم من العوائل الانكليزية الطيبة » وسالتها « هل انت تلميذة في احـدى المـدارس ؟ » فأجابتني « بلى ·· » وسالتها « هل هي جيدة ؟ » واجابتني « كـلا انهـا مدرسة بغيضة ··· ولكنني لا اكون فيها ايام الاحاد وانا لا اهتم بالمعلمات او البروفيسورات ولا بالتلاميذ والى الشيطان بالدروس » وتوقفت قائلة « لماذا تضحكين علي مرة اخرى ؟ » واجبتها « لست اضحك عليك وانمـا اضحك على افكاري وآرائي الخاصة فقط » ·

ودون الانتظار الى استماع بقية كلماتي الجوابية سالتني « وما هي افكارك ·· قولي لي اين انت ذاهبة ؟ » واجبتها « اذهب الى حيث يقودني قدري ومصيري وضالتي هي نشدان الربح حيثما يتسنى ايجاده » وقالت بانبهار عجيب « الربح ··؟ هل انت فقيرة اذن ؟ » واجبتها « انا فقـيرة كفقر الاشغال نفسها ·· »

(وبعد برهة سكون) قالت بعجب « ما اسوأ ذلك ·· انا اعرف ماذا يعني الفقر لصاحبه ·· ان اهل بيتنا فقراء بما فيه الكفاية · بابا وماما والجميع ·· بابا يسمى بالكابتن فانشاوي وهو ضابط يتقاضى نصـف راتبه لانه ليس محسوبا على الخدمة الفعلية ولكنه عرضـة لاستدعائه في حالة نشوب الحرب وهو منحدر من اسرة رفيعة والبعض من اقاربنا اناس عظام وعمنا وراعينا دي باسومبيير القاطن في فرنسـا هـو الاوحد الـذي يساعدنا وهو الذي ثقفنا نحن البنات الخمسة والاخوة الثلاثة وعما قريب سنتزوج ولو ازواجا اكبر منا سنا وندفع النقود لذلك ·· بابا وماما هما اللذان يدبران ذلك ، اختي اوغستا متزوجة الآن من رجل يبدو انه اكبر سنا من ابي وهي جميلة جدا وليست على شاكلتي انما هي سمراء وزوجها

المستر ديفيس اصابته الحمى الصفراء في الهند فهو اصفر بلون الجنيه الانكليزي ثم اصبح غنيا وتركب شقيقتي اوغستا الآن مركبتها الفخمة ولها مؤسستها التجارية ونعتقد بأنها احسنت صنعا بزواجها منه وهذا طبعا افضل من السعي « لكسب العيش » كما تقولين ٠٠ والشيء بالشيء يذكر ٠٠ هل انت ذكية ؟ »

وقلت لها « كلا ٠٠ لست كذلك اطلاقا ٠٠ » وسألتني « هل تمثلين على المسرح ؟ هل تغنين ؟ هل تتكلمين من اللغات ثلاث او رباع ؟ » واجبتها « كلا ٠٠ ابدا ٠٠ » وقالت لي « لا ازال على ظني بانك ذكية » (واعقب ذلك توقف قصير وتثاؤب) ثم سألتني « هل اصابك دوار البحر ؟ »واجبتها « وهل اصابك انت » وقالت لي مجيبة « نعم كثيرا وكثيرا جدا فحالما يقع نظري على البحر يبدأ تحسسي بالدوار وانزل الى تحت ولا اكترث بماتقوله المضيفة البدينة القبيحة ولحسن الحظ اعرف كيف اجعل الناس يعملون ما اشاء » ثم نزلت بعد انتهاء حديثها هذا الى داخل الباخرة ٠

وسرعان ما لحق بها بقية المسافرين والمسافرات ٠ وعندما حل وقت الظهيرة ظللت انا على ظهر السفينة وعندما اتذكر الحالة المطمئنة وحتى اقول الحالة السعيدة التي امضيت بها تلك الساعات وعندما اتذكر ايضا المصادفة التي كنت فيها وخصائصها المتعبة ـ وربما قال البعض الميئوس منها ـ آشعر بمثل ما شعر بهالشاعر ريشارد ـ لوفليس (١٦١٨ـ١٦٥٨) في هذين البيتين الشعريين :

« الحيطان الحجرية لا تصنع سجنا

ولا القضبان الحديدية تصنع قفصا »

وعلى هذا لا نعتبر المخاطر والمستقبل غير المضمون والعزلة شرورا جائرة ما دام الجسم صحيا وما دامت المواهب والقدرات الشخصية قيد الاستخدام وما دامت الحرية تعير لنا جناحيها والامل يقودنا بنجومه ٠ ولم اقع طريحة الفراش من المرض الا بعد مرور مدة طويلة من مرورنا بـ « ماركيت » وما اعمق اللذة التي احسست بها من نسائم البحر وما اروع واقدس البهجة التي استشعرتها من امواج القنال الجياشة ومن طيور البحر الحالة فوق لججه ومن اشرعة السفن البيضاء المومضة فوق بعده

المنبسط الداكن ومن جوه الهادىء الذي تكتنفه الغيوم المتدلية على كـــل شيء •

وخلت كحالمة في اليقظة انني شاهدت قارة اوربا كما لو انهـا ارض الاحلام المترامية بعيدا بعيدا •• تتمدد عليها اشعـــة الشمس جاعلة من الساحل الطويل صفا واحدا من الذهب ، ان اصغر زخرف لمجاميع المـــدن العنقودية وابراج الثلوج المتألقـــة المومضة والايك العميق المتكاثـف والمرتفعات المسننة والمراعي الممهدة ومياه الجداول المنسابة التي تزخرف مناظر الخلفية الملتمعة التماعة المعدن • ان كل ذلك ينشر امتداده جـــو مهيب ملون باللون الازرق الداكن المتشامخ بالامنية الفخمة المنعم بسحة السحر والفتنة الذي مد من الشمال الى الجنوب قوسا الهي الحنية ، قوسا مليئا بالامل •

واشتد بي المرض فترنحت وتداعيت ساقطة عـلى ارض الكابينة ، وصادف اثناء ذلك وجود الآنســة فانشاوي عـلى مقـربة مني ويؤسفني ان اقول انها عذبتني بأنانيتها المطلقة طوال وقت همومنا المتبادلة فلا شيء يزيد على تسرعها ونفاذ صبرها واضطرابها وان افراد عائلة واتسن الذين كانوا هم ايضا مرضى جدا وتخصهم المضيفة بخدمتها بتحيز مخجل ومعيب كانوا من الرواقيين بالنسبة لها •

لقد لاحظت مرارا في اشخاص شبيهين بجنيفرا فانشاوي مظاهــر الطبع العديم الاكتراث ونوعية الوسامة الجميلة وقلة الصبر على التحمل او المعاناة فيغضبون لمحنتهم ويصبحون مشاكسين كما يشاكس الدب الصغير في جو عاصف • والرجل الذي يتخذ مثل هذه الفتاة زوجة لـه ينبغي ان يكون مستعدا لان يؤمن لوجودها ضوء الشمس الساطع دائما ثم سرعـان ما يستاء من شكاستها المزعجة وقد طلبت منها بنوع من التأنيب ان تمسك لسانها ولا تتهور او تتسرع في الفاظها وهذا التأنيب افادها ولاحظت انها اخذت تحبني الى ابعد حد بعد ذلك •

وعندما جن الليل وادلهم اهتاج البحر واخذت امواجه القوية السائبة تضرب جانب الباخرة وكـان من الغريب التأمــل بتلك الامواج وبذلك الالهام الذي لفنا ومع ذلك تشق الباخرة طريقهـا شـقا سـويا في ذلك الطريق المائي غير السوي الذي يبـــدو وكأنه ليس بطريق رغم الضجيج وتلاطم اللجج والرياح الهوجاء •

وبدأت تتساقط قطع الاثاث حولنا وتوجب علينا ان نعيدها الى اماكنها وزاد مرض المسافرين عن ذي قبل وكانت الآنسة فانشاوي تئن وتصيح ٠٠ انني سأموت ٠٠ وقالت لها الخادمة المضيفة ٠٠ « لن تموتي يا عزيزتي عما قريب ستصل الى الميناء »وعندما انتصف الليل تقريبا انتهت السفرة وشعرت بالاسى والاسف ، نعم شعرت بذلك فوقت الراحة الذي كان مخصصا لي قد ولى عني وبدأت مصاعبي ٠٠ مصاعبي الشديدة ٠٠ وعندما صعدت على ظهر المركب بدا لي كما لو ان الرياح الباردة وتقطيبة الليل البهيم تعنفني لوقاحتي في ان اكون حيث كنت ٠

والتقتني اضواء البلدة المينائية الومضة حول المرفأ الاجنبي كما لو انها عيون لاعداد لها تحدق بي وجاء الاصدقاء للترحيب بافراد عائلة واتسن واحاطت عائلة برمتها بهم الامر الذي ازعج الآنسة فانشاوي اما انا ٠٠ وحدي انا ٠٠ التي لم تجرأ ولو للحظة واحدة على الركون الى المقارنة بين المراكز الاجتماعية فقد ساءلت نفسي اين ينبغي ان اتجه ؟ واين اذهب ؟ ينبغي علي ان اذهب الى مكان ما فالضرورة لن تكون منمقة ولا مفاضلة ولا مزخرفة ٠

وعندما سلمت للخادمة المضيفة اجرتها وهي عملة نقدية ربما لم تكن تحلم ان تستلمها من امثالي بحيث قلب ميزان تقديراتها قلت لها « تلطفي معي وارشديني الى نزل هادىء ومحترم امضي به ليلتي هذه ٠» ولم تكتف بارشادي الى نزل فقط انما استدعت احد الخدم وحثته على الاهتمام بأمري وليس بصندوق حاجياتي الذي كان قد ارسل الى دائرة الكمرك ٠

ومشيت وراء الرجل في زقاق فقير التمهيد لا يضيئه سوى ضوء القمر المتقطع واوصلني الى النزل واعطيته ستة بنسات رفض اخذها لقلتها على ما اظن واستبدلتها بشلن ورفض ايضا استلامه وتفوه بكلمات فظة على ما اتصور وبلغة غير معروفة او مفهومة لدي واذا بنادل يقدم الينا في ذلك الممر الذي اضاءته ادارة النزل بمصباح وقال لي بلغة انكليزية ضعيفة ان العملة النقدية عملة اجنبية وهي غير مقبولة هنا ٠

وسوينا هذه القضية الصغيرة بأن اعطيته جنيها انكليزيا ذهبا ليحوله الى عملات نقدية واخذ مني ما ارضاه وطلبت غرفة منام ولم استطع تناول العشاء لان مفعول تأثير دوار البحر كان لا يزال في احشائي وكنت ثائرة

الاعصاب من المرض والرجفة مستحوذة على جميع اجزاء كياني • وكم كان سروري عظيما عندما اغلق باب حجرة النوم الصغيرة جدا علي وعلى تعبي وانهاكي وكان علي مرة اخرى ان ارتاح وان كانت غيوم الشك على وشك ان تتكاثف من حولي غدا كالايام الاخرى • وكانت قضية الاجهاد اكثر آنية وخطر الفقر المدقع اقرب الي من حبل الوريد والنزاع من اجل الوجـود آنكى واقسى وامر •

الفصـــل الســـابع

ـ فيليبـــــت ـ

نهضت في صبيحة اليوم التالي مفعمة بالحيوية والنشاط ومعنوياتي متجددة وضعفي الجسماني لم توهنه كثيرالمحاكمة العقلية ولذلك كانت ذهنيتي صافيةويقظة .ومماان انهيتارتداءملابسيحتىطرقعليالبابواجبت الطارقة ان ٠٠ ادخلي ٠٠ وكنت اظن انها المهجعية اي الخادمـة المسؤولة عن غرف النوم ولكني فوجئت بدخول رجل تبدو عليـه الفظاظة قال لي ما يلي :ـ

« اعطني مفاتيحك ايتها الآنسة » وسالته « لماذا ؟ » فاجابني بفارغ الصبر « اعطني اياها » وبعد ان اخذها مني على شاكلة نصف انتزاعة او نصف اختطاف قال لي مضيفا « هلم معي وتناولي فطورك سريعا » ولحسن الحظ ظهر ان النتيجة كانت حسنة وانني كنت محظوظة وكان الرجل على ما يظهر من دائرة الكمرك ٠ اما اين اتناول فطوري فما كنت ادري انما ظللت امشي معه بنوع من التردد ثم شرعت بنزول الدرج ولاحظت الآن ما لم الحظه طوال ســـاعات تضجري وتعبي الشديدين في الليلة الماضية لاحظت ان ذلك النزل لم يكن نزلا وانما كان ـ فيالحقيقةـ فندقا ضخما وفخما وبينما كنت اهبط ببطء سلم الدرجات الطويل واقف عند كـــل درجة من ذلك السلم (اذ لم تكن بي رغبة في النزول بسرعـة) شخصت ببصري الى السقف العالي للفندق الذي تحيط به حيطـان مصبوغة والى النوافذ الواسعة التي تملأ البناية بالانوار والاضواء والى المرمر المعرق الذي ادوس عليه (لان درجات السلم كانت كلها من المرمر وان كانت غير منظفة تنظيفا صحيحا وغير مفروشة بالسجاد وعـــلى النقيض من ابعـاد الغرفة الصغيرة التي خصصت لي) وبعد ان لاحظت منتهى تواضع مافيها من لوازم استرسلت في التفكير بحالتي النفسية من الوجهة الفلسفية ٠

ولكم دهشت من ذكاء النوادل القائمين على خدمة الزبائن في الفندق ومن ذكاء المهجعيات في توفير ما يؤمن راحتهم من ماكل ومشـرب ومبيت وكيف يمكن لخدم الخانات والفنادق الصغيرة وخدم البواخر في كل مكان ان يقرروا بنظرة واحدة بانني ـ على سبيل المثال ـ انسانة لا اهميـة اجتماعية لها ولا تملك من المال شيئا ؟ ويظهر انهـم عرفوا ذلك فقد لاحظت مع ذلك جيدا انهم سرعان ما رمقوني باعين الاعتبـار والاحترام وبانت لي اهمية وقيمة مثلهم سواء بسواء وبـدت الحقيقة غريبة وذات اهمية لها وزنها ولم احاول ان اخفي ما تشف عنه نفسي وما يشـير الى حقيقتها ولكنني سعيت لكي ابقي روحيتي عالية بفعل وطاتها وضغطها·

وبعد ان تزلت اخيرا الى البهو الكبير المليء بالـكوى المنورة تنويرا كاملااخذت طريقي الى ما ظهرنوعاما بأنها غرفة البن اوالقهوة ولا يمكن ان انكر انني ارتجفت عنددخولها بعض الشيء اذ شعرت بالشك والازدراء والتعاسة وتمنيت لو ان السماء اخبرتني ما اذا كنت قد قمت بعمل صائب او خاطىء وايقنت انها النهاية ولكن ما كان بوسعي ان افعل شيئا وبعـد ان تصرفت بهدوء تصرف الجبري المؤمن بالقضاء والقدر جلست على مائدة صغيرة وجاء لي احد النوادل بفطوري وتناولت الوجبة بذهنية غير مؤهلة ابدا لهضم الطعام ·

وكان هناك الكثيرون ممن يتناولون فطورهم على موائد اخرى متواجدة في الغرفة والذي اسعدني انني لم اجد بين هؤلاء المتناولين فطورهم اية امرأة لان الجميع كانوا رجالا ولم يبد على اي منهم انه لاحظني اقوم باي عمل غريب وكان بينهم اثنان يختلسان النظر الي بين القينة والقينـة ولكن آيا منهما لم يكن ينظر نظرة تطفلية او فضوليـة ولكن ربما لمح احدهما بانني امرأة انكليزية ·

لقد انتهى امد تناولي فطوري وعلي ان اتحرك مرة اخرى فالى اين اذهب او اتجه ؟ وهتف بي صوت داخلي « اذهبي الى فيليت » وليس مـن ريب في انني تذكرت تلك الجملة القصيرة التالية التي تفوهت بها امامي الآنسة فانشاوي عشوائيا ودون اكتراث عندما ودعتني :

« اتمنى لو انك جئت معي لتعريفك بالسيدة (بيـك) فلها بعض الاطفال وهي تتحرى عن مربية انكليزية تعنى بهم وقد تحرت عن ذلـك قبل شهرين · » وسألت نفسي من هي المدام (بيك) او السيدة (بيك) ؟

وأين تقيم يا ترى ؟ لست ادري .. ومر السؤال الذي كنت قد وجهته اليها دون ان يسمع لان الآنسة فانشاوي هرعت مع صديقاتها وتركت السؤال بلا جواب .

وافترضت ان (فيليت) هو محل اقامتها .. والى (فيليت) ينبغي ان اذهب والمسافة بيني وبينها اربعون ميلا وعرفت ان املي ضعيف في مسعاي وانا في خضم الفوضى النفسانية واهية كخيط العنكبوت تماما ولكنني سألت عن الوسائل التي يمكن ان توصلني الى (فيليت) وفي اخر الامر حصلت على مقعد في المركبة العامة المسماة (بالديليجنس) وسافرت في ظل فكرة اختمرت في نفسي . ويا قارئي العزيز قبل ان تحكم على حماقة هذه الفكرة ارجع القهقرى الى النقطة التي باشرت بها وتمعن في الصحراء التي خلفتها ورائي ولاحظ انني لم يداخلني الخوف الا بمقدار ضئيل . لقد كانت لعبتي هي اللعبة التي لا يمكن ان يخسرها اللاعب ، اللعبة التي يحتمل ان يربحها .

ولا اعرف بان لي مزاجا فنيا بيد ان لي ـ مع ذلك ـ شيئا من مقدرة الفنان في الاستفادة كل الاستفادة من المتعة ولكن على شرط ان تناسب ذوقي . كنت في ذلك اليوم مستمتعة رغم سفرنا البطيء ورغم البرد وسقوط المطر . وكان الطريق الذي نسلكه في سفرنا ـ وبنوع ما ـ مقفرا ومنبسطا لا اشجار فيه ولكن على جانب هذا الطريق كانت القنوات الموحلة تزحف كزحف الافاعي الخضر نصف الخدرانة واشجار الصفصاف المقطوعة الارؤس كانت تحاذي الحقول المنبسطة المحروثة المرتبة كسرير حديقة المطبخ .

وكانت السماء ايضا رمادية بشكل رتيب والجو راكدا ورطبا ورغم كل هذه المؤثرات المضعفة المخمدة ظل خيالي يتبرعم بنشاط وظل قلبي يستدفيء وينعم بأشعة الشمس .

وهذه المشاعر ـ مع كل ذلك ـ ظل يخزنها على احسن مايكون الخزن الوعي المتواصل بالقلق، الكامن انتظارا للمتعة كمون النمر وجثومه في الغابة، وان تنفس هذا الحيوان المفترس هو في سمعي دائما وقلبه الشرس اللاهث قريب من قلبي ولم يشره احد في عرينه انما اشعر به واعلم انه ينتظر شروق الشمس ليقفز من كمينه على فريسته بنهم .

وكان املي ان نصل الى فيليت قبل حلول الظلام لاكون بمنجى من

الارتباك الاعمق الذي يبدو بشكل غامض على انـه يرمي بظلاله فوق اول وصول الى بلدة مجهولة • ولكن بعد تقدمنا البطيء وطـول توقفاتنا فـي الطريق وبعد ما شاهدناه من تجمع الضباب بكثافة ومن انهمار الغيث ومن حلول الظلام الذي خيم على الجميع وصلنا الى المدينـة بعـد ان اضحت ضواحيها في متناول ابصارنا •

واعلم اننا مررنا ببوابة خارجية يرابط فيها الجنود وهذا مالاحظته على ضوء المصباح وبعد ان خلفنا وراءنا (جوسي) الموحلة اخذت دواليب مركبتنا تقعقع على رصيف ارض صوانية غير مستوية وغريبة ووقفت عند مكتب ترجل عنده المسافرون • وان اول واجب لي كان التفتيش عن صندوق امتعتي وهو صندوق وان كان صغيرا الا انه كان مهما عندي وبعدان ادركت ان من الافضل لي الا ازعج نفسي بحثا عن امتعتي وان انتظر بهدوء تسليم الصناديق الى ان تقع عيناي على صندوقي وبعد ان طالبت وحظيت به وقفت على حدة •

وتركز ناظري على ذلك القسم من المركبة التي وجـدت بها حقيبة سفري الصغيرة سالمة في مكانها والآن تراكمت فوقها اكوام مـن الحقائب والصناديق الاضافية وشاهدت رفعها الواحدة بعد الاخـرى وانزالها من المركبة واستلامها من قبل اصحابها وكنت متأكدة من ان حقيبتي ينبغي ان تظهر الآن ولكنها لم تظهر وكنت قد ربطت بها بطاقة اعـلام وقطعة من الشريط الاخضر حتى يتسنى لي معرفتها حال وقوع نظري عليها ولكن لم تظهر اية قطعة من الشريط الاخضر رغم تحريك كل صندوق وكل صفيحة قصدير وكل رزمة من رزم الورق الاسمر ورفعت كل اغلفة الاقمشة الزيتية ورأيت رؤيا اليقين ان لا وجـود لاية مظـلة او عباءة او علبة القبعات والياقـات •

واين يا ترى ذهبت حقيبة سفري وبداخلها بعض قطع الملابس التي ارتديها وبعض من كتب الجيب ومـا بقي لي من فضلة نقود قدرها ١٥ باونا ؟ •• انني اطرح هذا السؤال الآن ولكنني ما كنت اقوى على طرحـه في ذلك الوقت او ان انبس ببنت شفة حول الموضوع بأي حال من الاحوال ذلك انني لم اكن اتكلم اللغة الفرنسية ، واللغـة الفرنسية وحدهـا كانت سائدة هناك دون سواها فالعالم كله من حولي كان يهذر وينطق بكلام غير مفهوم من قبلي •

وماذا كان بوسعي ان افعله ؟ لقد دنوت من قاطع التذاكر ووضعت يدي على كتفه وأومأت الى صندوق ملابسي ثم الى سقف المركبة وحاولت ان اكون سؤالا بالتعبير والايماء مستخدمة كلتا عيني ولكن دون جدوى اذ لم يفهمني انما امسك بصندوق الملابس الذي اشرت اليه وكان على وشك ان يرفعه الى المركبة . وجاءني صوت باللغة الانكليزية الجيدة ثم كرره باللغة الفرنسية ومفاده « دعي هذا ولا تلمسيه .. ماذا انت فاعلة ؟ هذا الصندوق صندوقي .. »

وما ان سمعت لغة الآباء والاجداد لغة الوطن حتى دخل السرور الى قلبي والتفت الى الغريب وناشدته دون انالاحظ وانا في خضم كآبتي اي شخص هو وقلت له « سيدي اتوسل اليك ان تسأل هذا الرجل عما فعل بصندوقي » ودون ان اعرف في تلك اللحظة حقيقة الوجه الذي رفعت عيني اليه وثبتها عليه شعرت من اساريره انه كان نصف مستغرب من مناشدتي اياه ونصف مرتاب من حكمة التدخل في هذا الموضوع وقلت له « اسأله وانا سأفعل جهدي من اجل فائدتك » ولا أدري ما اذا كان قدابتسم الا انه قال لي بتبرة الرجل النبيل « الجنتلمان » ما اعتبرته لا فظا ولا مخيفا « اي نوع من الصناديق كان صندوقك الذي تتكلمين عنه ؟ » .

لقد وصفته له واوردت في وصفي الشريط الاخضر واتصل بقاطع التذاكر وعلمت من زوبعة اللغة الفرنسية التي دار حديثهما فيها انه كان ينتقد قاطع التذاكر بعنف وهما يسيران على طول المركبة ثم عاد الي وقال لي « ان هذا الشخص يؤكد ان المركبة كانت محملة اكثر من طاقتها بلوازم المسافرين واعترف بأنه رفع الصندوق العائد اليك وخلفه وراءه في (بومارين) مع الرزم الاخرى ووعد بشحنه الى صاحبته غدا او بعد غد وستجدينه سالما في هذا المكتب » .

وقلت له وقلبيفي انخفاض « اشكرك على ما فعلته من اجلي »وسألت نفسي والآن ماذا سأفعل ؟ ربما لاحظ هذا الجنتلمان الانكليزي في وجهي ان شجاعتي تخونني وسألني بشيء من العطف « هل لديك اصدقاء في هذه المدينة ؟ » فقلت له « كلا .. ولا ادري اين اذهب » وسادت برهةمنالصمت وعندماتحول وجههبانبشكلواضح تحت ضوء المصباح المعلق فوقرأسه .. لقد كان شابا متميزا وجميل الصورة وربما كان واحدا من اللوردات على ما ظننت .

وربما ان الطبيعة هيأته لكي يكون اقرب الى الامراء وكان وجهه مريحا جدا وظهر انه عالي الشان ولكن بدون عجرفة او كبرياء • وكنت على وشك الرحيل وانا اتحاشى بكل ما في شعوري من عمق ان اطالبه باسداء العون لي ولاسيما من رجل مثيله ولكنه اوقفني متسائلا « هل كانت كل نقودك في الصندوق الذي بحثت عنه ؟ » ولكم كنت ممتنة لان اجيبه بكل صدق وصراحة « كلا •• فادي في جزداني ما يكفيني وقدره عشرون فرنكا تبقيني ساكنة في نزل هادىء الى يوم بعد غد غير انني غريبة في (فيليت) ولا اعرف شوارعها ونزلها » وقال لي « استطيع ان اعطيك عنوان مثل هذا النزل الذي تنشدينه وليس بعيدا عن المكان وبتوجيهي تستطيعين الوصول اليه بسهولة » •

ومزق ورقة من دفتر ملاحظاته وكتب بضع كلمات سلمها لي وتحققت من عطفه وقلت في نفسي ان موضوع التشكيك به او بنصيحته هو كموضوع التشكك بالانجيل فالطيبة كانت تنضح من محياه والشرف من عينيه البراقتين وواصل كلامه معي قائلا •• « ان اقصر طريق يوصلك هو متابعة الشارع العريض المشجر وقطع المتنزه وعبوره ولان الوقت متاخر والظلام مدلهم بالنسبة لامرأة تمر من المتنزه وهي وحيدة فانني سارافقك واوصلك الى النزل » •

وتحرك ومشى وانا اتابعه في الظلماء وسط رذاذ المطر وكان الشارع آنذاك مهجورا من السابلة وقطرات المطر تتساقط من الاشجار والمتنزه اسود كمنتصف الليل في ثنائي الظلام •• الاشجار والضباب •• وما كان بوسعي وسط هذه الحلوكة ان اشاهد وجه دليلي وانما كنت اتابع خطواته فقط وما داخلني او خامرني اي خوف اذ كنت مؤمنة بانني استطيع تتبع خطوات هذا الشخص السليم السريرة وسط الليل المتواصل الى آخر الدنيا •

وقال لي « عند اجتيازك هذا المتنزه اقصدي هذا الشارع العريض واجتازيه حتى تصلي الى درجات السلم حيث يوجد مصباحان يبينان لك الطريق والمكان الذي انت فيه وعليك ان تهبطي من درجات السلم حيث يقع تحتها شارع ضيق وهناك يتكلمون الانكليزية وتنجلي مصاعبك وتكونين بامان •• استودعك الله » • وقلت له « الوداع يا سيدي • تقبل اخلص شكري » ثم افترقنا •

ان تذكر محياه التي تحمـــل في اعتقادي نـورا عطوفا على من لا اسدقاء لهم ورنين صوته في اذني ‥ صوته الـــذي ينطـق بالشهامة والفروسية بطبيعته امـام المحتاجين والضعفاء وشبابه وصفاء سريرته . ان كل هذه سببت نوعا من الانعاش لفؤادي لمدة طويلة • حقا لقد كـان واحدا من الجنتلمانية الانكليز الاقحاح •

ومضيت مسرعة في طريقي عبر الشارع البديع والساحة البديعـة ومن حولها اضخم الدور وبينهاشكل ضخم مكون من اكثر منركيزة ضخمه قد تكون قصرا او كنيسة • وحالما مررت بمدخل المبنى او الرواق اقبـل رجلان بشاربيهما الضخمين على حين غرة من وراء الاعمدة وهما يدخنان السيجار ومظهرهما يدل على انهما من الجنتلمانية ولـــكن يا للمسدنين انهما كانا من عامة الناس روحيا يتكلمان باستخفاف ووقاحة •

وعند مروري من امامهما بسرعة اخذا يلاحقاني طول الطريق واخيرا التقيت بحارس وشكوتهماااليه فمنعهما منملاحقتي ولكنني بوضعي المحرج تهت وضللتطريقي فالسلم الذيكانينبغيعلي ان امر به قبلهذا الوقت بكثير حيرني وبهر انفاسي وراحت نبضات قلبي تـــدق دقا عنيفا وانا في هياج نفساني محتوم ومـــا كنت ادري اين اولي وجهـي واين ادير طرفي وكان من المخيف لي ان اقاوم ذينك الملتحيين المغفلـــين المزدريين بالناس والمتحرشين بامثالي ومع ذلك كان علي ان اعـــود من حيث اتيت تفتيشا عن السلم •

واخيرا وصلت الى مسلسلة من درجات السلالم القديمة المتصلةببعضها وقلت لابد ان تكون هذه هي الدرجات المقصودة ونزلت منها ووجدت فعلا ان الشارع الذي يؤدي اليها كان ضيقا ولكن لم يكن فيـــه اي نزل ورحت اهيم على وجهي في شارع هادىء جدا ونظيف نوعا ما وممهدتمهيدا جيدا ووجدت ضوءا فوق باب بناية كبيرةهي اعلى من البنايات الاخرىالمجاورة لها بمقدار طابق وقلت ربما كان هذا هو النزل اخـيرا وسارعت خطاي واحسست بقدمي ترتجفان الآن مـــن تحتي وبأنني كنت منهوكة القوى جدا • وظهر ان ذلك لم يكن بالنزل وان لوحة نحاسيـــة كانت تزخرف رواق العربات الكبيرة بما كتب عليها من العبارات التالية : ــ المدرســة الداخلية للسيدات الشابات وتحتها اسم (المدام بيك) •

وانطلقت افكر وبلحظة واحدة توامضت مئات الافكار بذهني ومع ذلك لم اقرر شيئا اذ لم يكن لدي الوقت الكافي لذلك وقالت لي العناية الالهية « هو ذا نزلك قفي هنا » ومسكني القدر بيده القوية وسيطر على ارادتي واشرف على اعمالي وادارها فقرعت جرس الباب وعندما كنت انتظر لم افكر بشيء معين انما انحصر بصري على حجارة لشارع حيث يضيء مصباح الباب ولاحظت اشكالها وتألق الندى على جوانبها ثم قرعت الجرس مرة ثانية ففتح لي الباب اخيرا ووقفت خادمة وعلى رأسها قبعة انيقة قبالتي ٠

وسألت الخادمة « هل لي في مقابلة المدام (بيك) ؟ وفي اعتقادي انني لو كنت اتكلم اللغة الفرنسية لما سمحت لي بالدخول ولكنني تكلمت معها باللغة الانكليزية فأستنتجت من ذلك انني معلمة اجنبية جاءت بمهمة لها علاقة بالمدرسة ومع ان الساعة كانت متأخرة فانها سمحت لي بالدخول دون ان تنبس بكلمة معارضة ودون ان تتردد لحظة واحدة ٠

وفي اللحظة اللاحقة جلست في صالون بارد ومضاء وفيه موقد مطفأ وزخارف مطلية ومموهة بالذهب وارض الصالون مصقولة وقد دقت الساعة الرقاصية الموضوعة في طية من الجدار ٠ وانقضت نصف ساعة وانا دقات نبضي في ازدياد وكنت اتناوب الشعور بالبرد والشعور بالحرارة تارة اخرى وجلست وعيناي شاخصتان على الباب الذي كان موصدا وكبيرا وابيض اللون مموها قالبه بالذهب ومطليا به وراقبت انفتاح مصراع الباب او تحركه ولكن كل شيء كان هادئا وساكنا والابواب البيضاء مغلقة لا صوت يسمع منها قط ٠ وعلى حين غرة سمعت صوتا على مقربة مني لم اتوقعه لانني كنت متأكدة من انني وحيدة ولم يكن بالقرب مني شبح ولا ما يشبه الطيف وانما وجدت امرأة قميئة وبدينة ذات منظر امومي ترتدي شالا كبير الحجم وثوبا يحجب جسمها كله وغطاء للرأس نظيفا ومزركشا ٠

وقلت لها «انني انكليزية» وفي الحال وبدون سابق انذار او تمهيد اخذنا نتجاذب اطراف الحديث الاستثنائي الملفت للنظر ٠ وكانت هي المدام (بيك) التي كانت قد دخلت من الباب الصغير الواقع خلفي ولم اسمع صوت دخولها او دنوها مني لانها كانت تلبس حذائين لا صوت فيهما اثناء المشي وكانت قد نسيت لغة الجزيرة الانكليزية وراحت تتكلم بسرعة بلهجتها الجديدة وكنت اجيبها بلغة الجزيرة البريطانية ٠

ولم تقو على فهم لهجتي الا جزئيا اما انا فلم افهمها قط وكنا نرفع من صوتينا لاسماع الواحدة الاخرى ولكن دون جدوى لانني لم اسمع طريقة لهجتها الانكليزيةولم اتخيل وجودمثيلتها ولذلك لمنتقدمالا تقدما ضئيلا في محاورتنا وكانت قد دقت الجرس لتطلب العون وجاءت كبيرة الخدم التي كانت قد تخرجت في مدرسة الراهبات في ارلندة واعتبرت مؤهلة وكفوءة باللغة الانكليزية ٠

وتكلمت معها لكي تترجم للمدام (بيك) كيف انني خرجت من بلدي وتغربت من اجل زيادة خبرتي وكسب عيشي وكيف انني على استعداد للقيام بأي عمل مفيد شريطة الا يكون فيه اي خطأ او ما يعيب وكيف انني استطيع ان اقوم بوظيفة مربية اطفال او خادمة عند سيدةولا ارفضحتى القيام بالاعمال المنزلية التي تتناسب وقوتي الجسمانية وسمعت المدام (بيك) ذلك ، وبعد ان تفحصت محياها ادركت ان ما قلته قد اهتمت به اهتماما جيدا ٠ وكان جوابها عن طريق المترجمة « ان النسوة الانكليزيات فقط هن اللواتي يقمن بهذه النوعية من الاشياء فما اشجعهن حقا ٠٠ » ٠

وشرعت تسأل عن اسمي وعمري ثم جلست ترنو الي لا عطفا ولا اهتماما جيدا ٠وكان جوابها عن طريقالمترجمة «ان النسوة الانكليزيات اثناء المقابلة وعرفت انها ليست بالمرأة التي يقودها ولو قاب انج من مشاعرها فقد كانت تطيل النظرالي بشكلرزين ومحترس وتتشاور بنفسها مع رأيها في الاشياء وحكمها عليها وتتفحص ما جاء في اقوالي واستعداداتي ثم رن صوت الجرس ٠

وقالت وهي تنهض من مقعدها عن طريق المترجمة انها تريدني ان اذهب واعود غدا الا ان ذلك لم يكن يروق لي اذ لم يكن بوسعي مواجهة اخطار ظلمة الليل والشارع وخاطبتهاشخصيا دونالمترجمة بقوة وسيطرة على الذات « تأكدي واطمئني ايتها السيدة انك اذا ضمنت خدماتي لكفي الحال فان مصالحك ستكون مضمونة ومأمونة لا ينالها اي ضير وستجدينني تلك التي تريد العطاء بجهدها وعملها مقابل الاجرة التي ستدفعينها لي ومن الافضل ان امكث هنا هذه الليلة اذ ليس لدي معارف في (فيليت) وليس عندي لغة البلد ولا استطيع ايجاد مسكن او ملجأ لي » ٠

وقالت لي « هذا صحيح ٠٠ ولكن تستطيعين ان تعيني مرجعا لك

للاتصال بك » وقلت لها « ليس هذا بوسعي » وتساءلت عن امتعتي فقلت لها انها في الطريق الي واستغرقت في التفكير • وفي تلك اللحظة سمعت خطوات رجل قادم من الردهة وهو مسرع صوب الباب الخارجي وصاحت المدام (بيك) بعد ان سمعت صوت الخطوات •• « من الخارج من البيت الآن ؟ » واجاب المعلم « الخارج هو المسيو بول فقد جاء عصرا لتدريس قراءة الصف الاول » وقالت « نادوه ليعود فأنا بحاجة ماسة اليه » •

وركض المدرس الى باب الصالون واستدعى المسيو بول ودخل رجل بعويناته وهو قصير مقطب وغريب الوجه وبادأته المدام (بيك) قائلة « يا ابن عمي اريد ان استشيرك بأمر وانا اعرف خبرتك في علم الفراسة •• استخدمها الآن • اقرأ ملامح هذه الفتاة •• » وركز الرجل القصير عن وجهي عويناته • ودلت مطة شفتيه العازمة وتجميعة حاجبيه على انه فهمني جيدا وانه اذا كان هنالك حجاب يحجب حقيقة وجهي فانه لا يعيقه عن الاستشفاف بنظرة واحدة •

واعلن المتنبيء القميء قائلا « لقد قرأته » وسئل « هل هو مرضي ام لا ؟ » فقال « بين بين •• » وسئل « هل يمكن للمرء ان يثق بها » وقال لابنة عمه المدام (بيك) « هل انت تبحثين معها امرا هاما؟ » فاجابته « تريد مني تشغيلها لدي كمربية اطفال او خادمة وتتحدث عن امر هو صحيح تماما ولكن لا تعطي عنوان مرجعها » وسألها « اذن هي غريبة ؟ » فاجابته « هي انكليزية على ما يبدو عليها » •

وسألها « هل تتكلم اللغة الفرنسية ؟ » فأجابته « كلا •• » وقال « اذن يستطيع المرء ان يتحدث بصراحة وهي موجودة » فقالت له « دون شك •• » ونظر الى ابنة عمه نظرة هادئة وسألها « هل انت بحاجة الى خدماتها ؟ » فقالت « نعم •• وانت تعلم انني برمة بالمدام (سفيني) ومستاءة منها » واستمر في التفحص والدراسة وعندما جاء قرار الحكم في آخر الامر كان غامضا كسابقه « شغليها اذا ما ظلت الطيبة متسيدة في طبيعتها وان اعمالها هي التي ستكون بمثابة الجزاء لها واذا كان شرا يا ابنة عمي فأن حقيقة ذلك ستكون مجزية ايضا •• » •

وعندما انتهى ذلك الرجل الغامض من تنبئه فيما يخص مصيري غادر قائلا « مساؤكم خير » وشغلتني المدام في تلك الليلة ذاتها وببركة الله تخلصت من وجوب التسكع مرة اخرى في الشارع الموحش المزعج المعادي» •

الفصــــل الثـامن

ـ المــدام (بيــك) ـ

بعد ان توليت وظيفة رئيسة الخدم قادوني الى ممر طويل ضيــق يؤدي الى مطبخ اجنبي جدنظيف وجد غريب • ويبدو انه لم يحتو على وسائل الطبخ ولم يكن فيه موقد او وجاق ولم اكن ادري ان الفرن الاسود الكبير الذي كان يشغل زاوية واحدة كان البديل الكافي عن كل هذه الاشياء وفي الحقيقة ان الاعتزاز بالنفس لم تهدأ همساته في فؤادي بعد ولكن مــع ذلك كنت اشعر بالراحة النفسية اذ بدلا من ان اترك في المطبخ كما كنت اظن دلوني الى غرفة داخلية صغيرة اسميت (بالكابينة) حيث كانت تحضر لي عشائي هناك طباخة ترتدي سترة (جاكيتة) وتنورة قصــيرة وفي رجليها حذاءان عديما الصوت •

ومما كان يؤتى لي به لحوم لا ادري من اين هي وعليهـا صلصـة وتوابل وحوامض غريبة طيبة المذاق وقطع البطاطس المعطرة المخلوطـة بالخل والسكر على ما اظن وقطع من الخبز المغشى بالزبد ومربى الكمثرى ولما كنت جائعة اكلت منها شاعرة بالامتنان • بعــــد صلاة المساء جاءت المدام بنفسها لتلقي نظرة اخـرى وطلبت مني الصعود معهـا الى الطابق الاعلى من الدار عبر اغرب مسلسل من حجرات النوم الصغيرة التي سمعت بعدئذ انها كانت في وقت ما صومعات للراهبات وان البناية قديمة جدا وكانت كنيسة صغيرة وغرفة طويلة واطئة مظلمة حيث تمثال المسيح على الصليب شاحب اللون حيال الحائط وحيث شمعتان كبيرتان تزيلان الظلا امام المصلين في الامسيات •

وارشدتني السيدة (بيك) الى غرفة سكن في البناية حيث ثلاثـــة اطفال ينامون في ثلاثة افرشة صغيرة للنوم وان الوجاق الحار صير جــو الغرفة مقبضا للصدر من شدة الحرارة ، ولاصلاح الوضع طيبت برائحـة قوية اكثر من كونها زكية وهو عطر غريب متوقع في مثل تلك الظروف

كانه دخان مخلوط بعطر كحولي كرائحة الويسكي .

وعلاوة على وجود منضدة تضيء عليها بقايا شمعة آيلة للذوبان من شق في احد جوانبها المشتعلة داخل قاعدتها شاهدت امرأة فظة مخشوشنة ترتدي ثوبا حريريا مخططا فضفاضا ومبهرجا وعليها مئزر يلتف بقوة حول جسمها وكانت جالسة على كرسي ومستغرقة بنوم عميق . ولاكمال الصورة وعدم التشكيك بالامور كانت هنالك قنينة وقدح زجاجي فارغ على مقربة منها .

وامعنت المدام التفكير في تلك الصورة المثيرة للانتباه بهدوء تام ولم تبتسم ولم تقطب وجهها ولم يظهر عليها اثر الغيظ او التقزز ولم يبدل الاستغراب سحنة وجهها الجدية حتى انها لم توقظ الامرأة من نومها وبكل هدوء اومأت الى فراش رابع قالت لي انه لي ثم اطفأت الشمعة واستبدلت ضوءها بالمصباح الليلي وانسلت الى باب داخلي تركته مفتوحا جزئيا وكان المدخل الى غرفتها الخاصة وهي شقة سكنية مؤثثة خير تأثيث يمكن القاء نظرة عليها من الفتحة .

وكانت صلواتي في تلك الليلة تقديم الشكر لله وكان من الصعب علي ان اعتقد بأن ٤٨ ساعة فقط مضت على تركي لندن لكي احظى بعدها بما كنت لا اتصور ان احظى به دون اية رعاية عدا الرعاية التي كانت تحمي الطير المسافر المتمثلة بآثار الغيوم المشكوك فيها (الطير المسافر ربما قصدت به حمامة من شمال امريكا كانت ذات مقدرة على الطيران السريع الى مسافات بعيدة قد اصطيدت منها الكميات الكبيرة بحيث آل الامر بها الى الابادة) .

وكان نومي ضعيفا وفي الليل الهامد استيقظت على حين غرة وكان كل ما في البيت ساكنا ولاحظت شبحا ابيض يتحرك في الغرفة .. المدام في لباسها الليلي وهي تتحرك ولا نأمة في حركتها تلك وقد زارت الطفلات الثلاثة في افرشتهن الثلاثة ودنت مني فتظاهرت بالنوم اما هي فقد ظلت ترمقني متفحصة اياي مدة لا بأس بطولها وجرت تمثيلية ايمائية غريبة واستطيع القول انها ظلت طوال خمسة عشر دقيقة جالسة على حافة سريري تتفرس في وجهي ثم تقربت مني اكثر وقربت وجهها من وجهي ورفعت قلنسوتي رفعا خفيفا (في وقت شارلوت برونتي اعتاد النساء والرجال على ابقاء قلنسواتهم وقلنسواتهن على رؤوسهم ورؤوسهن اثناء النوم) .

وبدرت منها حركة قامت بها لكيما تدقق النظر في شعري وتفحصت يدي الممتدة على اغطية الفراش وبعد ذلك عادت الى الكرسي الذي وضعت عليه ملابسي القريب من الفراش وبعد ان سمعت حركة لمستها ورفعها عني فتحت عيني بحذر واحتراس لانني كنت اروم معرفة الى اي مدى تسوقها رغبتها تلك وكانت نهاية البحث جيدة فقد اكتشفت بالحدس سبب كل ما ارادت التوصل اليه وهو الرغبة في ان تكون مما ارتديه من لباس وكساء حكما فيما يتصل بالالبسة ومركزها الاجتماعي والمورد والنظافة والاناقة وما الى ذلك .

ولم تكن النهاية سيئة غير ان الوسائل والموارد لم تكن جيدة ولم يكن لها مبررات ففي ثوبي جيب قلبته واحصت النقود الموجودة في جزداني وفتحت دفتر مذكراتي الصغير الحجم واخذت تقرأ ما دونت فيه ببرود واستخرجت من بين اوراقه خصلة صغيرة مطوية من شعرات المرحومة مارشمونت الرمادية وعثرت على ثلاثة مفاتيح احدها لصندوق ملابسي والآخر لدرج منضدتي والثالث لعلبة ادوات الشغل .

وقد اهتمت اهتماما خاصا بهذه فانسحبت الى غرفتها الخاصة لمدة وجيزة ونهضت بهدوء من فراشي وتابعتها بناظري . ولم تعد الي تلك المفاتيح والمفكرة الا بعد ان اخذت نسخا منها بالشمع في غرفة التزيين الخاصة بها وكل ذلك اعادته بنظام تام وباحتشام الى مكانه الخاص واعيد وضع ملابسي الى ما كان عليه بمنتهى الاهتمام والعناية ويا ترى الى أي مدى أوصلتها استنتاجاتها عن ذلك التفحص وهل كانت النتيجة مرضية ام لا ؟ انه سؤال عابث لان وجه المدام وان بدا جامدا متحجرا فانه كان انسانيا وكما قلت في السابق اموميا في الصالون ولذلك لم يكن لسؤالي مردود .

وبعد ان انجزت المدام مهمتها شعرت من وضع عينيها ان الذي قامت به انما كان واجبا يقتضيها القيام به فقد نهضت من نومها بهدوء وكالظل ولم يصدر عنها صوت ومضت نحو غرفتها وعند الباب التفتت ونظراتها مصوبة على بطلة القنينة التي كانت تغط في نومها وشخيرها العالي واعتقد ان السيدة سفيني مشتقة من كلمة (سويني) ويبدو انها كانت قد قدمت نفسها للمدام (بيك) عندما ارادت ان تتوظف لديها لظروف قاهرة قالت لها انها سيدة انكليزية ومواطنة من قسم ميدلسيكس في لندن

وانها تتكلم اللغة الانكليزية بلهجة ابناء العاصمة الانكليزية الخالصة . ان المدام (بيك) التي كانت تعتمد على وسائلها المعصومة عن الخطـــا للتوصل الى الحقيقة كانت لها الشجاعة الاستثنائية الفريدة في الاستخدام الارتجالي كما ظهر حاليا من قضية استخدامي الخاصة .

ولذلك كانت قد عينت السيدة سويني كمربية اطفال لثلاثة مـــن اطفالها ـ واريد ولو بصعوبة ـ ان اوضح للقاريء ان هذه السيدة كانت في الحقيقة مواطنة ارلندية ولا اقوى على تثبيت مركزهـــا الاجتماعي فالسيدة تدعى ـ وتريد ان تؤكد ـ بادعائها انها ربت ابنا وبنتا لماركيز وفي ظني انها كانت مربية طفيلية عالة او مرضعة لاطفال سواها اوغسالة لدى احدى العوائل الارلندية .

وكانت تتكلم لغة خليطة ملآى بالملونات اللغوية المتصنعة التي يتكلم بها احقر احياء لندن وبهذه الوسيلة او تلك استطاعت ان تقتني لهـــا ـ ولا تزال بحوزتها حتى الآن ـ خزانة ملابس مشكوك في فخامتها نوعاما كالبدلات الحريرية الضيقة الغالية الثمن دون ان يكون مهما لديها انهـــا على قدها ام لا او بحجوم هي غير الحجوم المأخوذ بها حاليـــا في الارتداء . قلنسوات بتحزيمات شريطيـــة حقيقية ، الشيء الرئيسي في الاختراع والسحر الذي اكسبها هيبة لـــدى الاسرة وفي المنزل وتحكما في المدرسين والخادمات وما دامت اكتافها العريضة ترتدي مثل تلك الالبسة الانيقـــة الفخمة فان المدام المتنفذة كالمدام (بيك) ذاتها قالت ذات مرة « لولا هذا الشال الصوفي الهندي الكشميري لما ظلت باقية في هذه الدار يومين وبفضل ما ترتديه وليس بسواه استطاعت ان تبقى الشهر بطوله .

ولكن عندما علمت السيدة سويني انني جئت لاحل محلها استشاطت غيظا وثارت ثورة عارمة على المدام (بيك) ثم جاءت الي وحملت علي بكل مالديها من قوة ودون انفعال تحملت المدام (بيك) وطأة كل ذلك حتى انني استحييت وقلت ليس هناك من مبرر لسكونها سوى مبرر رباطـــة الجأش وكظم الغيظ وتغيبت المدام بيك عن الغرفة برهة من الزمن وبعـــد مرور عشر دقائق جاء وكيل الشرطة وتوسطنا واخرج السيدة سويني ولم تتأثر المدام بيك بذلك ولم يتغضن لها حاجب من ذلك المنظر ولم تنبس شفتاها باية كلمة تنم عن الانفعال .

وقضية الطرد الصغـــيرة السريعة هذه سويت قبـــل تناول الفطور

باستدعاء الشرطة وطرد المتمردة ونظفت افرشة الاطفال وطهرت وفتحت النوافذ وازيل كل اثر من آثار السيدة سويني من شارع فوسيت وحدث كل هذا بين لحظة خروجها كآلهة الفجر من غرفتها واللحظة التي جلست خلالها بكل هدوء ليصب لها اول كوب من القهوة ·

وعند حلول وقت الظهر استدعيت لتبديل ملابس المدام (بيك)حيث ظهر ان وظيفتي تتراوح بين مربية الاطفال وبين خادمة السيدة بيك ولفت الدار بشال ثوبها اللفاف وبخفيها اللذين لا يصدران الصوت لطرد السحر عنه وساءلت نفسي كيف تؤمن سـيدة البيت الكريمة خريجـة المدرسـة الانكليزية بمثل هذه العادة ان طريقة تسوية شعرهـا حـيرتني فالكثير من شعر رآسها ذو لون اسمر محمر يشوبه اللون الرمادي ·

وعندما لاحظت حيرتي قالت لي « ألم تكوني بنت البيت في بلدك ؟ » واخذت المشط من يدي وابعدتني لا بسرعة ولا بعدم احترام واخذت تسوي شعرها بنفسها · وعند قيامي بتنظيف اماكن التزيين الاخرى اصدرت لي نصف الارشاد واعانتني نصف المعونة بدون انفعـال وبدون تبرم او قلة صبر علما بأن تلك المرة كانت الاولى والاخـيرة لتسوية شعرها وتمشيطه وكانت تستدعي لذلك فيما بعد امرأة البواب ·

وعندما كانت المدام (بيك) تقوم بأرتداء افخم البستها كانت تبدو قصيرة القامة وقوية البدن ومع ذلك لم تزل جميلة بطريقتها المتميزة بفضل تناسب اجزاء جسمها فمظهرها العام جميل وبشرتها ناعمة والـدم يكاد يطفر من محياها ، وعيناها زرقاوان صافيتان وثوبها الحريري الداكـن على قدها ، ومنظرها حلو يبدو عليها نوع من البرجوازية لانها في الاصل برجوازية ولا ادري نوعية التناسق الـذي يلقي بظله العام على مجمل شخصيتها بيد ان قسمات وجهها العام كانت متباينة ايضا ولم تكن ملامحها وسماتها كالتي تشاهد عادة بالتوافق مع الهيكل العام لمثل هذه النعومـة والتناسق المتمازجتين · لقد كان شكلها ينم عن الصرامة وجبينها عاليـا وضيقا يعبر عن القدرة وعن بعض من السجية الانسانية · وان عينهـا المتفحصة المسالمة تجهل النار المضطرمة في القلب او الرقة السارية فيه · وكان فمها ينم عن قوة تحمل واذا كان كالحا نوعا ما فالشفتان رقيقتان عن الحساسية والعبقرية بكل ما فيهما من شفقـة وطيش وشعرت بعض الشيء بأن المدام تشبه تمام الشبه (مينوس) (مينوس : ملك اسطوري

لجزيرة كريت القديمة شهر بكونه واضعا للقوانين وحاكما عادلا وان كان يصور في بعض اجزاء قصته بانه كان مستبدا وقاسيا) .

وفي آخر الامر وجدت انها كانت كشخص آخر في التنورة ايضا وكان اسمها (موديستا ماريا بياك) وكانت امرأة محسنة الى كثيرين من الناس في حياتها ولم تكن هنالك سيدة ادمث خلقا منها . وقيل لي انها لم تحتج على السيدة سويني ولم تعارضها رغم شكاسة خلاقها واهمالها العام ومع ذلك اضطرت السيدة سويني ان تغادر حين اصبح الوضع يتطلب ذلك وقيل لي ان المدرسين والمعلمين رغم انهم لم يرتكبوا خطأ كانوا يذهبون ويحل الآخرون محلهم ولا من احد يعرف السبب .

لقد كانت المؤسسة مدرسة داخلية ومدرسة خارجية وعدد تلاميذ المدرسة الخارجية او النهارية مائة والمدرسة الداخلية ضعف هذا العدد، ويبدو ان كانت للمدام (بيك) سلطات ادارية عليا تتحكم بالجميع وهم اربعة معلمين وثمانية اساتذة وستة خدم وثلاثة من التلاميذ ومن المؤكد ان المدام كانت تمتلك نظامها الخاص لادارة هذا الجهاز وتنظيمه وكان جهازا رائعا جدا وجد القارىء نموذجا منه في تلك القضية الصغيرة قضية تقليب جيبي وقراءة مفكرتي الخاصة للاطلاع على كلمتي السر الخاصتين بها المثيرتين لانتباهها وهما المراقبة ... والتجسس .

ولم تزل المدام ملمة بماهية الاخلاص والامانة وتهواها شريطة الا تثير شكوكها الخرقاء او تقف حجر عثرة في سبيل رغبتها او مصلحتها وكانت تكن احتراما لانكلترا وللانكليز ولا تريد مربية لاطفالها الا من الانكليز لو كان ذلك في مقدورها . وغالبا ما كانت تأتي الى غرفتي بعد ان تدبر المكائد والمكائد المقابلة وبعد اعمال التجسس واستلام تقارير المتجسسين كل يوم والاحظ على محياها آثار الاجهاد والارهاق والملل وتجلس وتصغي لصلوات الاطفال المتلوة امامي باللغة الانكليزية .

وكلما كنت اضعهم في فراشهم كانت تتحدث معي واستطعت ان اتلقف بعض الكلمات الفرنسية اجيبها بها عن انكلترا وحول النسوة الانكليزيات واسباب ذكائهن المفرط وعن امانتهن الحقة واخلاصهن موضع الثقة وحسن احساسهن وادراكهن وآرائهن الصائبة وكانت على علم من ان ابقاء الفتيات تحت الكبت والتقييد الناجم عن سوء التشكيك بهن وابقائهن في جهل مطبق وتحت رقابة لا تتيح لها لحظة ولاتترك لها زاوية

للتصرف الحسن ليس بالطريقة المثلى التي تخلق منهن في المستقبل نسوة مخلصات ومحتشمات واكدت بان نتائج مدمرة ستنجم اذا ما اتبعت طريقة اخرى مع الاطفال القاطنين بعيدا عن الجزيرة • لقد اعتاد هؤلاء الاطفال على نظام المراقبة والتقييد بحيث ان ترك حبلهم على غاربهم يساء فهمه ويؤدي الى نتائج وخيمة وقالت انها برمة ومتضجرة بالوسائل التي تستخدمها معهم والتي يتوجب عليها استخدامها • وبعد الانتهاء من حديثها حول هذا الموضوع بخيلاء وسمو جنحت الى الصمت وراحت تتحرى ارجاء المدرسة كالشبح تراقب وتتجسس في كل مكان وتنظر من خلال ثقوب مفاتيح الابواب كلها مصغية الى كل حركة او نامة •

وخلاصة القول ان الذي ارتأيته هو ان ما قالته المدام عن نظامها لم يكن بالكلام المستهجن وان عدالتها كانت افضل من كل ترتيباتها المتخذة للتكوين الجسماني للتلاميذ فاذهانهم لم تكن مرهقة والدروس موزعة بشكل يسهل مهمة الدارسين فهنالك حرية التمتع والاستئناس واستعدادات مسبقة للتمارين الرياضية التي تخلق للتلميذات ابدانا صحية • الاكل كان وافرا وجيدا ولم يكن بين التلميذات من هن شاحبات الوجوه او ذوات اجسام سقيمة في كل المدرسة ولم تنكر عليهن اية عطلة من عطلهن وخصصت لهن مزيدا من الاوقات للنوم واللبس والغسل والاكل وكان اسلوبها في كل هذه الامور سهلا وليبراليا ومحمودا وعقلانيا وحذت حذوها الكثيرات من مديرات المدارس الانكليزيات الصارمات وغيرن من سلوكهن في مدارسهن وفي رأيي ان الكثيرات من سواها سيفعلن نفس ما فعلته لو سمح الآباء والامهات الانكليز لهن بذلك •

ولان المدام (بيك) حكمت بالاسلوب التجسسي كانت لها مجموعة من الجاسوسات وكانت تدرك كل الادراك نوعية الاجهزة التي تستخدمها لذلك وفي الوقت الذي كانت فيه لا تتردد عن معالجة امر اقذرهن عن مناسبة قذرة كانت تطرح وتنبذ هذه النوعية عنها نبذ قشرة البرتقالة بعد اعتصارها فقد علمت عن شدة حساسيتها عند التحري عن معدن نقي لاستعمالات نقية • وعندما تعثر على اداة لا يمكن ان تصدأ فانها تهيء لها جائزة ثمينة تحفظها لها كملابس حريرية او قطنية ـ صوفية والويل كل الويل لذلك الشخص ـ رجلا كان او امراة ـ يعتمد عليها قاب انج واحد بعيدا عن نقطة الاهتمام للتاثير عليها وكل ما كان يهمها هو ان تكون

جديرة بالثقة ٠

ان الاهتمام عند المدام (بيك) كان بمثابة المفتاح العمومي لطبيعتها وسريرتها والنابض الرئيسي لكل دوافعها وحوافزها وبمثابة بداية حياتها ونهايتها لقد وجدت كيف ان البعض كان يسترحمها ويطلب الغوث منهـا وابتسمت بنصف عطف ونصف سخرية لاولئك المسترحمين والمستغيثين فلا احد استطاع ان يحصل منها على ما يريد بمثل هذه الطريقة او يحملهاعلى تغيير رأيها بمثل هذه الوسيلة ٠

انما الامر على المعكوس تماما فكل محاولة من اي احد للتأثير علىقلبها او عاطفتها معناها اثارة كراهيتها له واعتباره عدوا لها في قرارة نفسها فقد اتضح ان لا قلب لها لهذه الوسيلة فذلك يذكرها بعهد ضعفها وعجزها ومحروميتها ولم يكن الفرق بين الحسنة وبين الرحمة مثالا ينطبق على اية امرأة مثلما كان ينطبق عليها هي ٠ ومع انها كانت مجردة عن العطففقد كان لديها ما يكفي من النزعة لفعل الخير على ان يكون عقلانيا ٠

وقد تبدي استعداها المطلق لتعطي لاناس لم ترهم قط وتعطي لمؤسسة اكثر مما تعطي لفرد وتعطي لمؤسسات فقيرة من جزدانها ولكنها تغلقهبوجه الفقير المستعصي وتساهم مساهمة متفتحـــة من تقــديم العون للمشاريع الانسانية النزعة اما الاسىالفردي فلا شان لها بهولكن لها شانفيمساعدة المجتمع ككل وليس هنالك من معاناة خاصة مركزة على قلب بائس تستطيع اختراق قلبها واثارة عطفها ٠

واقول مرة اخرى ان المدام امرأة عظيمة جدا وقديرة جدا ٠ ان تلك المدرسة لم تعطها من الصلاحيات الا مجالا ضيقا وكان ينبغي انتحرك الامة كلها وكان ينبغي ان تكون زعيمة المجلس التشريعي الصاخب حيث ما كان بوسع احد ان يثنيها بأي حال من الاحوال عما تروم تحقيقه من اصلاحات ولا ان يكدر اعصابها ويرهقها نفسيا او يفقدها صبرها او يحتال عليهـا او يبلغ شاو ذكائها ومهارتها ففي شخصها الوحيد كـان من الممكن القيام براجبات ومهمات الوزير الاول او مفتش الشرطـة العـام ٠٠ حكمة ٠٠ انعـدام الامـــانة ٠٠ ســرية ٠٠ مكــر وخداع ٠٠ رصــد حركـات وغموض ٠٠ انعدام الحس٠٠ حدة الذهن ٠٠ لياقة تامة ٠٠ وماذا يراد اكثر من ذلك لمفتش شرطة عام ؟

ولا يظنني القاريء اللبيب انني جمعت كل هذه المعلومات المكثفـة

لفائـدته في غضون شهر او حتى في غضون ستة اشهر .. كلا .. فالذي شاهدته في اول الامر هو حركة ناشطة في مؤسسة تعليمية مزدهرة فههنا بناية كبيرة ملأى بالفتيات المفعمات صحة وحيوية، الكثيرات منهن ظريفات يرتدين الثياب الانيقة ويحصلن على التعليم بطريقة جد سهلة دون ما جهد او مشقة زائدة عن الحد ودون تبديد اوجه النشاط ودون احراز تقدم سريع جدا باي شيء ، انما كان كل شيء يؤخذ بتوئـدة وعلى مهـل دون ملاقاة مصاعب .

وفي هذه المدرسة هيئة مدرسين واساتذة يجهدون في مهماتهم لان لبة العمل الحقيقية كانت في ايديهم بغيـة الاخـــذ بايدي التلميذات وكانت مهماتهم منظمة على شاكلة تحدو بهم الى ان يتساوقوا الواحد بعد الآخر في العمل المتلاحق تلاحقا سريعا . وخلاصة القول انها كانت مدرسة اجنبيـة تتناقض في حياتها وحركتها ونوعيتها تناقضا تاما مـع كـــل المؤسسات التعليمية الانكليزية المضارعة لها في النوعية .

وراء بناية المدرسة حديقة كبيرة تعيش الطالبات في عرائهـا بـين شجيرات الاوراد واشجار الفاكهة وتحت عناقيد الكرمة المدلاة يقـع سرير المدام المتنقل تجلس عليه في اوقات الظهيرة في فصل الصيف وتستدعي تلميذات الصفوف واحدا بعد الآخـــر بالتناوب ليجلسن حولها وليقمن باعمال الخياطة او ليقرأن . ويتناوب المدرسون والاساتذة في الذهـاب والاياب لالقاء المحاضرات القصيرة المفيدة عـــلاوة على الدروس وتدون التلميذات ملاحظاتهن او لا يدونها على امـل ان يستنسخنا من رفيقاتهن فيما بعد اذا كن غير راغبات او مستعجلات .

وعلاوة على العطلة الشهرية النظامية (يوم النزهة) وايام الاعياد الكاثوليكية توجد عطل تتعاقب على طول السنة وفي بعض الاحيان يخرجن في بعض اصباح الصيف الرائعة او في امسياته في نزهات ماشية طويلة المسافة في الضواحي يستمتعن فيها باكل قطع الكيـك اللذيذة واحتساء الخمر الابيض والحليب الطازج وتناول الخبز الاسمر او ارغفـة الخبز المغشاة بالزبدة او شرب القهوة . وكل هذا كان يبدو بهيجا جدا والمدام نفسها كانت تظهر طيبتها وكان المدرسون يظهرون كما لو انهم على ما يرام وفي الحقيقة هم اسـوأ من الظاهر ، وكانت الطالبات تمـلأن الاجـواء ضجيجا مفعمات بالبهجة والانشراح .

هكذا بدأ الوضع عبر سحر المسافة ولكن جاء ظرف ذابت فيه المسافة بالنسبة لي حين استدعيت من برج المراقبة الخاص بي انا المربية حيث اقوم فيه باعمال المراقبة وانا مضطرة الى الاتصال بهذا العالم الصغير عالم «شارع فوسيت» وكنت ذات يوم جالسة في الطابق الاعلى اتسمع لدروس الاطفال باللغة الانكليزية وفي الوقت ذاته اقلب ثوبا من الحرير امام المدام (بيك) حين تمشي الهوينا صوب الغرفة بجبينها المقطب بالتأملات المجهدة التي تطفح على وجهها في بعض الاحيان وتظهر عليها حالة نفسية رائعة نوعا ما وقد القت بنفسها على المقعد قبالتي لا تنبس ببنت شفة لمدة بضع دقائق •

وكانت ديزيري اكبر طفلاتها الثلاثة تقرأ لي مقالا قصيرا عن السيدة باربو (ناظمة اشعار وكاتبة قطع نثرية بضمنها دراسات عن الطبيعة وان اسلوبها الاخلاقي القوي اوجد لها شعبية واسعة النطاق خلال معظم القرن التاسع عشر بين معلمي صغار الاطفال) وكنت اوجهها للترجمة الفورية من الانكليزية الى الفرنسية عن طريق التاكد من انها تفهم ما قرأته •

وكانت المدام تصغي الى تدريسي وفي الحال ودون سابق تقدمة او تمهيد قالت لي بلهجة الشخص الذي يتهم سواه « ايتها الآنسة •• كنت مربية أطفال في انكلترا ؟ اليس كذلك ؟ » فاجبتها بابتسامة « كلا يا مدام اخطاك الظن •• » وقالت لي « هل هذه اذن اول محاولة تدريسية مع اطفالي ؟•• » وطمأنتها بأن هذه هي المحاولة الاولى •

وصمتت مرة اخرى وبعد ان رفعت وجهي الى اعلى بعد ان اخذت دبوسا من الوسادة شاهدت نفسي هدفا لدراسة المدام التفريسية فقد سلطت عينيها علي وركزت تفكيرها في كما لو انها تقلبني تقليبا فاحصا وتدرس موضوع كفاءتي لشيء ما وكانت قبل هذا قد تفحصت كل ما لدي واعتقد انها الممت بمعظم احوالي • ولكن منذ ذلك اليوم حاولت مدى اسبوعين ان تجرب معي اساليب اختبارية جديدة •

فمثلا كانت تصغي الي من وراء باب تربية الاطفال عندما اكون مجتمعة معهن وتتابعني سرا عندما اخرج معهن من مسافة لا اراها كان تكون مختبئة ـ ضمن مدى السماع ـ وراء شجرة او متنزه او وراء شارع عريض تكتنفه الاشجار وقد لاحظت مثل هذه العمليات التمهيدية الدقيقة ثم قامت بحركة اخرى ففي صبيحة احد الايام قدمت الي على حين غرة وبخطى سريعة وقالت لي « انني في ورطة نوعا ما فالمستر ولسن مدرس

للغة الانكليزية لم يأت حتى هذه الساعة واخشى ان يكون مريضا والتلميذات ينتظرن في الصف ولا يوجد من يدرسهن فهل لديك مانع في تدريسهن في هذه المرة فقط كان تعطيهن تمرينا قصيرا في الاملاء حتى لا يستشعرن بانهن فقدن درسا لهن بالانكليزية ؟ » •

وسالتها « هل اقوم بذلك في داخل الصف يا مدام ؟ » فاجابت «نعم في الصف الفرع الثاني منه» وقلت لها « في الصف حيث يوجد ستون طالبة كما اعلم •• انني في طبيعتي الخجولة الهيابة لابد لي ان انكمش انكماشة البزاقة في قوقعتها وبينت لها عجزي وعدم وجود سابق تمرين لي في مثل ذلك كي اتهرب • ولو كان الامر متروكا لي فقط لكنت جعلت هذه الفرصة تفلت على وجه التآكيد وقلت لنفسي :

« لو لم يكن في الامر مغامرة او عدم استثارة لحوافز الطموح العملي لكنت قادرة على تدريس الاطفال كتب القراءة والصلوات عشرين عاما وصنع الالبسة الحريرية وبدلات الاطفال وليست هذه القناعة الحسنة بالتي تشرف هذا الهروب فعملي لا يتسم بأي سحر او فتنة بالنسبة لذوقي ولا يثير اهتماماتي انما يبدو لي عملا عظيما اذا خلا من اية مقلقات للبال واذا خلا من اية محنة صميمية وان عدم وجود معاناة قاسية هو الذي يقرب الوصول الى السعادة ويبدو ان لي حياتين اثنتين حياة الفكر وحياة الواقع واذا غذيت حياة الفكر بما يكفيها من رومانتيكية متعة الخيالات الذوقية والفنية فان فوائد حياة الواقع وامتيازاتها تصبح مقصورة على الخبز اليومي وساعات العمل وسقف المأوى والمسكن » •

وقالت لي المدام وانا منهمكة اكثر من الاول في اقتطاع مئزر الطفلة « تعالي واتركي ذلك العمل •• » فاجبتها « ولكن فيفين بحاجة لي » فقالت لي « دعي فيفين تحتاج اليك فيما بعد لانني بحاجة اليك الآن » وبما ان المدام كانت بحاجة الي حقيقة ومصممة على ذلك بسبب استيائها من مدرس اللغة الانكليزية لمثالبه في الترقيم وفي وضع النقط وفي عدم المحافظة على الدوام وعدم اهتمامه بنظام التعليم علما بانها لا ينقصها الحزم والنشاط العملي فانها بدون مزيد من الضجيج جعلتني اترك الابرة والكشتبان فاخذتني من يدي ونزلت بي الى الطابق الاسفل •

وعندما وصلنا البهو المربع الكبير الكائن بين دار السكنى وبين المدرسة الداخلية توقفت بي برهة وحررت يدي من يدها وتفرست في

وجهي فشعرت بخجل شديد والرعـــدة تتمشى في جسمي من الراس الى اخمص القدمين واعتقد انني بكيت ٠ وفي الحقيقــة ان الصعوبات التي جابهتها لم تكن صعوبات خيالية كلهـــا فبعضها كانت صعوبات حقيقية لا ريب فيها نظرا لافتقاري الى البراعة والى وجوب السيطرة على الوسط الذي يطلب مني تدريسه ٠ وفي الحقيقة انني كنت قــــد درست اللغة الفرنسية دراسة وافية منذ وصولي الى (فيليت) متعلمة تمارينها نهارا ونظرياتها وفنونها في اوقات فراغي حتى الساعات المتاخرة مـــن الليل مادام نظام الدار كان يسمح بابلاغ الشمعة ومع ذلك ما كنت متاكـــدة وواثقة من طاقتي على التعبير الشفهي الصحيح ٠

وسالتني المدام بيك وهي عابسة مقطبة الجبين « قولي لي ٠٠ هــل تشعرين حقا بانك لست اهلا لهذه المهمة ؟ » وكان ينبغي ان اقول « نعم » واعود فاتعفن طيلة حياتي ولكنني عندما صوبت نظري الى وجه المـدام وجدته اتخذ شكلا جعلني افكر مرتين قبل ان اقرر واعطي الجواب ٠وفي ذلك الوقت لم تكن سحنتها سحنة امراة انما سحنة رجل وهناك قــوة ذات نوع خاص طفت وشاعت على كل آثاره ومسحاته وتلك القوة لم تكن من نوعية قوتي والعواطف التي اثرتها ما كانت عطفا ولا تجانسا ولا خضوعا ووقفت فلا انا راضية ولا مقهورة وبدا لي كما لو ان هنالك تحديا مابين قوتين متعارضتين وسرعان ما شعرت بكل عــار استحيائي وعـــدم ثقتي بنفسي وبكل جبن تلكئي وتواني عن ان اطمح واحلق عاليا ٠

وسالتني وهي تومىء بيدها اولا الى البـــاب الصغير المؤدي الى دار السكنى ثم الى المدخل الثنائي للصفوف او غرف الدراسة « هــل تريدين الذهاب الى الخلف أم الى الامام ؟ » فاجبتها « الى الامام » وتابعت كلامها قائلة لي ــ وانا في حالة الفوران اواصل النظرة الحادة التي استقيتمن مبغوضيتها القوة والعزم ــ « هل تستطيعين ان تواجهي الصفوف ام انك لا تزالين في الانفعال الشديد ؟ » وقالت ذلك وهي تتحدث من خياشيمها بهيئة الساخرة لان الهياج العصبي لم يكن بالشيء الكثير على المداموا جبتها وانا اشير الى اللوح الحجري « لست اكثر هياجا من هذه الصخرة او اكثر هياجا منك » قلت ذلك وقارعتها النظرة بالنظرة ٠

وقالت لي « هذا صحيح ولكن هـــؤلاء التلميذات الفتيات اللواتي تريدين مواجهتهن لسن كالفتيات الانكليزيات الهادئات المحتشمات انمـا

هن قليلات الحس خشنات الطبع ومتمردات نوعا ما » واجبتها « اعلم ايضا انني وان كنت قد درست اللغة الفرنسية منذ ان جئت هنا فانا لا ازال اتكلمها بكثير من التردد ولا املك من دقتها ما يمكنني من ان املك ناصيتها وساقع في اخطاء وتخبطات مفضوحة تعرضني الى سخرية اجهلهن ومع ذلك لا ازال ارغب في تقديم الدرس » وقالت « انهن دائما يرفضن المدرسين الخائفين » وقلت لها « واعرف ذلك ايضا يا مدام وسمعت كيف انهن ثرن على الآنسة تيريز واضطهدنها وهي المعلمة الانكليزية الفقيرة التي ليس لديها صديقة كانت المدام قد استخدمتها ثم نبذتها باستهتار واستخفاف علما بأن تاريخها المثير للشفقة ليس غريبا عني » ٠

وقالت المدام ببرود « هذا صحيح ٠٠ فالآنسة تيريز لم تستطع السيطرة عليهن او اسلاس قيادهن اكثر من خادمة في مطبخ كانت ضعيفة ومترددة ولم يكن لها براعة او لياقة او ذكاء او حسن تصرف حتى ولا كرامة ولهذا لم تكن تصلح معلمة لاولئك الفتيات بتاتا » ولم احر جوابا انما دلفت صوب غرفة الصف المغلقة ٠ وقالت المدام « لن تتوقعي انعون مني او من اي شخص آخر لان هذا يعطي الدليل على ضعفك وعدم تاهلك لهذه الوظيفة امام التلميذات » ٠

وفتحت الباب وخليتها تمر بأدب ومشيت في اثرها وكانت هنالك ثلاثة صفوف كبيرة الحجم وان الصفوف المخصصة للفرع الثاني الذي كان علي ان اظهر فيه كان اعظمها عددا ومساحة وعناصره اكثر شغبا واصعب ادارة من الفرعين الآخرين ٠ وبعد ايام عرفت الارضية او الخلفية بشكل احسن وكنت افكر احيانا ماذا كانت هذه المقارنة تصح وهي ان الفرع الاول الهادىء الانيس المهذب بالنسبة للفرع الثاني المتمرد الجامح المستعرض لقواه هو كمجلس اللوردات بالنسبة لمجلس النواب ٠ (مجلس النواب يظهر فيه الصخب لان الاجراءات تتم فيه في حين ان مجلس اللوردات يكون اهدأ) ٠

واعلمتني اول نظرة ان اكثرية التلميذات كن اكثر من فتيات ٠٠ كن كنسوة شابات وعلمت ان بعضهن ينتمين الى الاسر العريقة ومن المؤكد ان لا واحدة منهن كانت تجهل وضعي في منزل المدام وحالما علوت المنصة الواطئة وخطوت الخطوة الاولى على ارضيتها حيث كرسي المعلم ومنضدته وقع نظري على صف من العيون والحواجب المهددة بمجيء جو عاصف ٠٠

عيون محملقة ملأى بنور الوقاحـــة والغطرسة وحواجب متصلبة تصلب المرمر تدل على انعدام الحياء ٠

ان انثى الفارة التي لا تعيش في الجزيرة البريطانية ذاتها مخلوق يختلف اختلافا تاما عن انثى الجزيرة وان كانت بنفس الســـن ونفس الطبقة ولم يسبق لي ان شاهدت مثـل تلكم العيون وتلكم الحواجب في انكلترا وقدمتني المدام بيك بعبارة واحدة باردة ثم توارت عن الغرفـة تاركة اياي وحيدة في ابهتي وبهائي ٠ ولن انسى ابد الدهر الدرس الاول ذياك ولن انسى ايضا تيار الحياة الخفي وخصوصيته اللتين تفتحتا امامي من جرائه وبدأت في الحقيقة اعاني الفرق الشاسع ما بين الفتاة الشابة المانية الشاعرة وما بين فتاة كمثل تلك الفتيات ٠

ويبدو لي ان الفتيات الثـلاثة المسميات بالحسناوات الجالسات في الخط الاول من رحلات الصف كن قد صممن على وجوب عدم قيام الخادمة الصغيرة باعطائهن الدرس باللغة الانكليزية ٠ وانهن كن على علم من انهن افلحن في طرد المعلمين البغيضين غير المرغوب فيهم ومن ان المدام بيـــك ستقف جانبا بأي مدرس او مدرسة تنعدم فيها شخصيته او شعبيته داخل المدرسة وانها لن تسعى لارجاع موظف مهيض الجنـاح الى وظيفتـه لان الذي لا يكافح او يبدي من البراعة ما يشق بها طريقه يسقط ويزول، وعندما تذرن الى الآنسة سناو بشرن انفسهن بالنجاح السهل مقدما ٠

وبادرت المعركة الآنسة بلانش فرجيني بمسلسل من الهمسات ومن الضحكات نصف المكبوتة واستحالت هذه توا لغطا وهمهمة ترافقها ضحكات قسيرةتناولتها رحلات الصفالبعيدة ورددت صداها باصوات اعلى٠وهذه الثورة المنسمية لستين ضدواحدة اصبحت ثقيلةالوطاة تماما علمابأن لغتي الفرنسية محدودة امارسها بأكراه قاس ٠

ولو اتيح لي التكلم بلغتي الخاصةلكنت اجد من يصغي الي واحسست انني وان كنت ابدو مخلوقة فقيرة ــ وكنت بالفعل مثل هذه المخلوقة من وجوه عديدة ــ الا ان الطبيعة وهبتني صـــوتا مسموعا ان رفع عقـيرته الانفعال او عمقتـــه العواطف ٠ هـــذا من جهة اما من الجهـــة الاخـــرى ففي الوقت الذي لا امتلك طلاقة لغوية في الفرنسية انما الجزء اليسـير منها للظروف الاعتيادية فقط ولكن مع ذلك في حالة حافزة كالتي نشأت الآن من الجمهور المتمرد كنت استطيع في انكلترا ان اقذف ببعض الالفاظ

الجاهزة يصم اعمالهن بوصمة العار لان مثل هذه الاعمال تستحق الوصم مع بعض السخرية والازدراء المشوبة بالاحتقار المرير بزعيمات الفتنة المثيرة للاضطرابات والتساهل واللين مع الاضعف والاقل خداعا من الاخريات ..

ويبدو لي ان على المرء ان يمتلك نواصي ذلك التطبيع المتوحش ويوصله الى حضيرة الترييض في الاقل وكل ما كنت اقوى على صنعه هو ان اتقدم صوب الانسة بلانش (المادموزيل دي ميلكي) البارونة الشابة وهي اكبر الطالبات سنا واطولهن واجملهن واسوأهن ووقفت امام رحلتها وانتزعت من يدها دفتر التمرين ثم اعتليت مرة اخرى المنصة وقرأت عمدا انشاءها الذي كان سخيفا جدا . وامام المدرسة كلها مزقت الصفحة المشطوبة من قبلي مزقتين .

واثار هذا العمل الاهتمام واوقف الضجيج ولكن احدى الفتيات الجالسة في مؤخرة الرحلات واصلت اثارة الاضطراب بقوة متواصلة ونظرت اليها باهتمام فقد كانت ذات وجه شاحب وشعر اسود كظلمة الليل وحاجبين عريضين وسمات محددة واضحة وعينين سوداوين متمردتين وشريرتين . ولاحظت انها كانت تجلس على مقربة من الباب الصغير الذي يؤدي الى حجرة صغيرة تحفظ فيها الكتب .

وكانت واقفة لمواصلة الصخب والصياح بقوى طليقة اكثر وقست قوامها وقدرت قوتها وبدت امامي طويلة القامة نحيلة وقوية ولكن اذا كان النزاع قصيرا والهجوم مناجئا ففي فكري انني اقوى على تدبير الامر . وتقدمت على ارض الغرفة ورنوت ببرود وعدم اكتراث ورباطة جاش ودفعت الباب دفعا خفيفا فوجدته مفتوحا جزئيا وانعطفت صوبها بسرعة وصرامة وفي المرة الاخرى احتلت التلميذة الحجرة الصغيرة واغلق عليها الباب ووضعت مفتاحه في جيبي .

وكانت واقفة لمواصلة الصخب والصياح بقوى طليقة اكثر وقست الاصل ذات اخلاق تخشاها وتكرهها كل رفيقاتها ولذلك ارتحن لما حل بها وساد الصمت والسكون بين جميع التلميذات ثم تحولت الابتسامة ـ لا الضحكة ـ من رحلة الى رحلة وكنت في ذلك الوقت عائدة الى المنصة مظفرة وطلبت منهن بلهجة تأدب ان يلازمن السكون وشرعت آملي عليهن كما لو ان أي شيء لم يحدث .

وراحت اقلام التلميذات تمشي على صفحات الورق بسلام ومر ماتبقى من الدرس بنظام ومثابرة · وعند خروجي من الصف قالت لي المدام(بيك) وانا في حـالة اعيـاء وتهيـج نوعا ما « مرحى ·· مرحى ·· ما احسن ما صنعت ·· » ذلك انها كانت تصغي وتختلس النظر من ثقب الباب طيلة الوقت · ومنذ ذلك اليوم لم اعد مربية اطفال وتحولت الى معلمة اللغـة الانكليزية وزادت المدام راتبي ولكنها مقابل ذلك حصلت مني على ثلاثـة اضعاف العمل الذي كان يقـوم به المستر ولسن مقابل ما يوازي نصف راتبـه ·

الفصـــل التاســع

ـ ايـزيــدور ـ

اصبح وقتي الآن رحيبا مليئا بما هو مريح واصبح لي من الفراغ ما يكفي فقط لتدريس الآخرين ولدراستي الشخصية دون زيادة وكنت انعم بوقتي هذا وشعرت بأنني اكتسب معرفة وفهما ولم اعد بعد فريسة جامدة للتقولب والصدوء انما رحت اصقل مواهبي ومقدراتي واشحذها الى الحد اللازم بالعمل وترامت امامي التجاريب على نطاق غير ضيق « ففيليت » مدينة عالمية وفي هذه المدرسة فتيات من مختلف الدول الاوربية ومن مختلف الاوساط الاجتماعية للحياة • والمساواة معمول بها اكثر من (لاباسيكور) واذا كانت على غير نطاق جمهوري فانها فعليا وجوهريا تكاد تكون بهذا النطاق •

وعلى رحلات مؤسسة المدام بيك التعليمية تجلس الكونتيسة والتلميذة البورجوازية جنبا الى جنب وليس بمقدور المرء ان يقرر دائما بالمؤشرات الخارجية من منهن هي من ارومة النبلاء ومن منهن من ارومة عامة الناس عدا كون تلميذات عامة الناس اوضح سريرة واكثر صراحة ـ في آلاغلب ـ واجرأ واشجع ، واللواتي هن من ارومة النبلاء يحملن المركب المتوازن للوقاحة والخداع وفي عروقهن يجري ـ في الاغلب ـ الدم الفرنسي الممزوج « بالخلط الرباعي في الجسم الانسيابي » الذي كان يقول رجال الطب الاقدمون انه يسبب الكسل المتوارث ويؤسفني ان اقول ان تاثير هذا السائل يظهر في زلقات اللسان عند التملق والمداهنة بطريقة اخف ولكنها مشوبة بعدم الاخلاص •

واذا اردنا انصاف كل الاطراف فينبغي ان اقول ان اخلص وانزه (اللاباسيكوريين) لهم نفاقاتهم واكاذيبهم ايضا واذا كانت من النوع الذي لا يريد خداع احد وحيثما كان الكذب ضروريا للمناسبات التي يمرون بها فانهم يلجأون اليه وبسهولة معدومة من الاكتراث ومعدومة من تبكيت الضمير

وتعنيفه وليس هنالك من روح في مؤسسة المدام بيك اعتبارا من مساعدة الطاهية او غسالة الاطباق والصحون الى المديرة ذاتها تستحي من ان تكذب فهن على ظن بان ذلك يعني شيئا٠ان التلفيق قد لا يكون فضيلة ولكنه مما يمكن الصفح عنه واغتفاره وهو ما يشكل موضوعا لـــكل اعتراف شهري تعترف به الفتاة او المرأة امام الكاهن ٠

وفي الوقت الذي كنت نصف عليمة بمثل هذه الاشياء فقط وغــير دارية بنتائجها فانني مضيت في دربي الجديد بنجاح باهــر وبعــد تقديم بضعة دروس صعبة في اول الامر وسط شعور من التخوف وانا على حافة بركان معنوي يقمقع من تحت قدمي ويبعث بشرارات دخان وابخرة تلفح عيني اذا بالروح البركانية الثائرة تخمد وتهمد على ما كان يبدو وعـــلى ما كان يتعلق امره بي، ذلك ان ذهنيتي عولت على ان تحرز النجاح تعويلا عظيما وما عدت أطيق تحمل الوقوع في الارتباك لمجرد وجود حالة عصيان متعمد وجائر متسم بالنفور وبانعدام النظام فقط في اول محاولة لي بذلتها من اجل التقدم في الحياة ٠

وكنت اتمدد ساعات طوالا من الليل في فراش مسهدة لااقوى على النوم مفكرة بافضل ماعساني ان افعله من اجل السيطرة على اولئـك المتمردات المتعجرفات العنيدات سيطرة دائمة وفي المقام الاول وجدت ان من الممكن توقع مساعدة ما من المدام بيك لان خطتها القويمة كانت ترمي الى تكوين شعبية او تآلف لا ينفصم عــراه مــع التلميذات باية كلفة من العدالة او الارتياح تصيب المعلمات غير انه ظهر بان نشدان المعلمة عونها في اية ازمة من ازمات العصيان وعدم الاطاعة يساوي لديها طردها من الوظيفة ٠

ان المدام في محاولاتها الاتصال مع التلميذات تنتقي لنفسها ما هو اروح لها ٠٠ الود والتشاور اما استخدام الحزم المناسب فكان عندها امرا غير مناسب وغير مألوف ولذلك ينبغي من الآن فصاعدا ان انظر الى نفسي فقط ولا اطلب العون منها ٠

اولا : كان من الواضح ان ذاك الحشد البهيمي الخنزيري ينبغي الا يؤخذ بالقوة وانما بالملاحظة والمسايرة والمداراة والاعتماد على الصبر في ذلك فمزاج التعامل باللطف كان يؤثر فيهن تأثيرا ايجابيا وان ومضة من ومضات التمازج معهن وان كانت نادرة يكون لها وقعها الطيب في نفوسهن ولكن ما كان في الامكان ان يتحملن المعاملة الروحية القاسيــة المتواصلة

وارهاقهن بالمطاليب وبوطأتها الثقيلة على عقولهن وذاكراتهن فقدكان ذلك مرفوضا رفضا باتا عندهن ٠

وفي الوقت الذي تتقبل فيه الفتاة الانكليزية الراغبة في التعليم من نفس معدل الاقتدار ، تتقبل الموضوع او البحث وتلتزم بمهمة التفهم والرغبة في التفوق تقابلها الاوربية من (لاباسيكورين) بالضحك في وجهها وتعيد الواجب الدراسي رميا مع عبارة « سيدي ٠٠ او سيدتي ٠٠» هذا صعب ولا اريد ان انجزه وانه يثير تضجري وتبرمي » ٠

ان المعلمة التي تفهم شغلها تتولاه ، في الحال دون تردد او نقاش او اعتراض وتتقدم حتى باهتمام مبالغ فيه لتخفيف حدة اية صعوبة وتنزيلها الى مستوى فهم التلميذات واعادتها لهن معدلة ليستشعرن اللسعة وربما الجفول من جرائها نوعا ما ولن يحملن الحقد من هذا الهجوم شريطة الا تكون السخرية مزعجة من جرائها نوعاً ما بل ودية وانهن يتقبلنها بنوعيتها الخفيفة الواضحة بحيث ان الواحدة التي تخطىء او تريد الفرار ستفهم عجزها وجهلها وكسلها ٠ انهن قد يتمردن على اضافة ثلاثة اسطر على درس ما ولكن لم الاحظ ان احداهن تمردت على جرح يصيب كبرياءها واحترامها لنفسها فمثل هذا تعودن وتدربن على سحقه ٠

وشيئا فشيئا حصلت على طلاقة لغوية وعلى حرية التعبير عن نفسي بلغتهن وعلى استخدام مصطلحاتهن بالشكل الذي يناسب قضيتهن بحيث ان اكبر الفتيات التلميذات سنا واذكاهن اخذن يملن الي بطريقتهن الخاصة ولاحظت ان الامور تحسنت نسبيا وبالتدريج ورحن يضعن على رحلتي في كل صباح باقات من الورد واخذت اختار البعض منهن واتمشى معهن في نزهات اثناء ساعات الاستجمام ٠

واسأل الآن هل نسي القارىء الآنسة جنفيفرا فانشاوي؟ارجو السماح لي بتقديم هذه السيدة الشابة كتلميذة ذات شأن في مدرسة المدام بيك لانها كانت كذلك فعلا فعند وصولها الى منطقة « اوسيت » بعد استقراري الفجائي فيها بيومين او ثلاثة ايام واجهتني باستغراب ضئيل وربما جرت الدماء التركية في عروقها اذ لم تتواجد اية دوقة تبذها كمالا وصدقا في عدم اكتراثها وفي رباطة جاشها ٠لقدكان الاندهال السريع الزوال هو كل ما تعرفه عن الاحساس بالعجب ٠ ومعظم قواها الطبيعية الاخرى كانت على غرار احوالها المهملة الاخرى ٠٠ ما تريده ومالاتريده ٠٠ ما تحبه وما

تكرهه لم تكن سوى نسيج عنكبوتي او ما يسمى بمخاط الشيطان الا انها كانت تمتلك شيئا عنها له قوته ومتانته الكافيتان وذلك هو ٠٠ انانيتها٠

لم تكن بالمغرورة او المتكبرة وكانت مثلي سرعان ما اتخذتني لهـــا صديقة ومؤتمنة على اسرارها وازعجتني بالوف من الشكاوي التافهة عـــن مشاجراتها في المدرسة وشؤونها الاقتصادية المنزلية وما كانت لا تستطيبه من المآكل وتحدثت عن الناس الذين كانوا حواليها وعن المعلمين والطالبات وقالت انهن حقيرون وجديرون بالازدراء لانهم اجانب ٠ وبرمت بكراهيتها لاسماك الجمعة المملحة ٠ والبيض الملون ٠ كما برمت بطعنها في الصابون والخبز والقهوة وتحملتها ببعض الصبر فـــي اول الامر ولكـــن الغضب استبد بي في آخر الامر بعد طول التكرارات المملة من قبلها واعدت اليها صوابها وكان ينبغي ان افعل ذلك منذ الاول بدلا من ان اظل على مجاملتي اياهـــا ٠

ولطالما تحملت مطاليبها في العمـــل ٠ وكانت خزانة ملابسها تحـــوي ملابس خرجية جيدةولكن كان لديها انواع من الملابس الاخرى لا تتصف بالجودة وكانت من النوع الواجب تصليحه بين مدة واخرى وكانت تكره تشغيل الابرة ولذلك كانت تأتي الي بها كالجوارب والبنطلونات وغير ذلك تأتي الي بهـــا بالاكوام لتصليحها ومـــن شـــأن ذلـــك ان يتعبني ويحملني مالاطاقة لي به وفي آخر الامر قلت لها ان عليها ان تصلح ثيابها بنفسها واخذت تبكي واتهمتني بانني لا اريد ان اواصل صداقتها ولكنني تشبثت بقراري وجعلت هستيريتها تمر كما تريد ٠

وبصرف النظر عن كل هذه النقاط الضعيفة المتواجدة فيها وغيرها وغيرها مما لا مجال لذكره اقول بلا مبالغة انها كانت جميلة وساحرةالمنظر وما كان اجملها حقا حين جاءتني في صبيحة يوم الاحد المشمس وهـــي ترتدي البسة انيقة وظريفة المحيا ترتدي ثـــوبا من الحـــرير الليلكي الارجوازي الفاتح وما اجمل شعرها المقصوص الجميل المســـدل على كتفيها البيضاويين ٠ وكانت في كل عطلة يـــوم الاحـــد تذهب الى صديقاتها القاطنات في المدينة ٠ ومن بين اصدقائها واحد جعلتني افهم انه اكثـــر من صديق وبلمحاتها وايماءاتها ونظراتها الخاطفة اعلمتني بحقيقة امره وظهر من نظراتها المرحة المستبشرة في الحال انه حبيبها والمعجب بهـــا اعجابا شديدا ٠ كان تحت امرتها وسيطرتها واسمت خطيبها (ايزيدور)

ولمحت على ان هذا الاسم لم يكن اسمه الحقيقي وانها اختارته له مسرورة (لتعميده) وانه نفسه لم يكن (جميلا جدا) ٠

وفي ذات مرة عندما كانت تتباهى بمحبة ايزيدور المنيفة سألتها ما اذا كانت تحبه لقاء حبه هذا لها فقالت لي « انه وسيم ويحبني الى حد الذهول وهذا ما يهيج قلبي ويكفيني »وبعد ان وجدت انها لم تذهب بالامر الى ابعد من اذواقها المتقلبة جدا توقعت بانني يوما ما سأتولى طرح الاسئلة الجدية عليها لارى ما اذا كان هذا الجنتلمان كأولياء امرها ولا سيما كممها الذي يبدو انها تعتمد عليه في امورها وقد ظهر من جوابها ا٠ الشاب « ايزيدور » ليس له مال كثير ٠

وسألتها « هل تشجعينه ؟ » فاجابت « احيانا اشجعه كل التشجيع » وقلت لها « وبدون ان تتأكدي من ان يسمح لك بالتزوج منه ؟ » فاجابتني « آه ٠٠ ما أدراك انا لا اريد الزواج منه فانا اصغر من ان اكون جاهزة للزواج » وقلت لها « ولكن اذا كان يحبك الى هذا الحد البعيد كما تقولين ثم تأتي النتيجة حرمانه من التزوج بك افلا يستحيل بائساشقيا ؟ » واجابت « طبعا فان ذلك يسحق قلبه غما وحزنا وستكون صدمة وخيبة امل لي ان لم يصل الامر به الى هذا الحد » ٠

وقلت لها « الا تتصورين ان هذا (الايزيدور) مجنون ؟ »واجابتني « بلى ٠٠ انه مجنون ومفتون بي ٠٠ ولكنه عاقل وحكيم في الامورالاخرى ويقال ان السيدة (كولموندلي) تعتبره ذكيا جدا وانه سيشق طريقه في الحياة بمواهبه وكل ما اعرفه هو انه يتحسر شوقا في حضوري وان بوسعي ان اديره باصبعي الصغير هذا » ٠ ولرغبتي في التوصل الى فكرة محدودة اكثر عن هذا العاشق الولهان المسيو (ايزيدور) الذي يبدو وضعه امامي غير مضمون طلبت منها ان تبين اوصافه الشخصية ٠

ولم تقو على وصفه اذ لم تكن لديها الكلمات ولا مقدرة وضعها جنبا الى جنب تنضيدا لجعل العبارات منقوشة ونابضة بالحياة اكثر ويظهر انها لم تتعمق في استجلاء نظراته او التبدلات التي تظهر على محياه ولا تعرف عنه سوى انه اثار اهتماما واستقر في مخيلتها بحيث لا تعرف عنه سوى انه ظريف وجميل المنظر ٠

وضقت بالامر ذراعا وفتر اهتمامي في الاصغاء اليها باستثناء امر واحد ذلك هو ان كل التلميحات التي لمحت بها وكل التفاصيل التي

اعطيتها برهنت لتفكيري غير الواعي ان ولاء ايزيدور لها قوبل من لدنها بما يلزمه من التقدير والاحترام والكياسة ولذلك قلت لها بكل وضوح ان ذلك يعني انه مناسب لها تماما ولمحت لهابوضوح مماثل بأن انطباعي عنفها هو انها مغناجة تختال عليه زهوا وغرورا لا غير وضحكت لما قلتـه واخذت ترقص فرحا كما لو انني كلت لها بذلك الاماديح ٠

لقد كان سعي الآنسة جنيفرا الدراسي افضل من كونه اسميا بقليل وهناك ثلاثة اشياء مارستهاممارسة جدية هي الموسيقى والغناء والرقص مضـافا اليهـا تطريزهـا بالمنـاديل الكمبريكية ذات الاقمشة القطنية او الكتانية البيضاء الناعمة ومثل هـذه المناديل كانت تشتريها وتقتنيها اذا اذا ما كانت جاهزة الصنع اما الاشياء التافهة في نظرها كدروس التاريخ والجغرافيا وقواعد اللغة والحساب فلم تكن تنجزها او تحمـل الآخريات على ان ينجزنها لها ومعظم اوقاتها كـانت تمضيهـا بالزيارات في دور صويحباتها ومعارفها ٠

وكان يروق لجنيفرا هذا النوع من الحياة وتستحبه ومن وسائلهـا التي ترتاح لها ارتداء متنوعات الالبسة الفاخرة ولكن لم يكن لها دائما المال الذي يكفي لشرائها وتركزت كل افكارها على هذه القضية الصعبـة وانهكت روحيتها كل الانهماك بوسائل التوصل الى ايجاد الحل لها وكان امرا عجيبا ان يلحظها المرء وهي تعمل ذهنيتها الكسولة في هذا الصـدد ويلحظ جرآتها الجمة وشعورها المحفز بما تراه ضروريا لها ورغبتهـا العارمة في الظهور والتألق ٠

وكانت تطلب من السيدة كولموندلي بجراة وليس بطريقة الخجـل المشوب بالتردد ، اقول كانت تطلب بجرأة على الشاكلة التالية٠٠« عزيزتي السيدة (ك) ليس لي ما يليق بان البسه في حفلتك التي ستقيمينها فـي الاسبوع القادم ٠ ولذلك عليـك ان تعطيني الملابس القطنية الرقيقـة والنطاق الازرق زرقة السماء ٠ وكانت السيدة (ك) العزيزة تقبـل في اول الامر ولكن عندمازادت الطلبات غير المرفوضة اضطرت ــ ككل صديقات الآنسة جنيفرا الآخريات ــ الى ان ترفض ٠

وبعد مدة لم اعداسمع المزيد عن هدايا السيدة (كولموندلي) بيد ان الزيارات كانت تترى والملابس الضرورية تنهال عليها علاوة عـلى الاشياء الاخرى كالقفازات وباقات الورود وحتى الحلى الصغيرة التي ليست غالية

وهذه لم تكن على ذوقها وكانت على طرفي النقيض مع عاداتها وحتى مع طبيعتها . وجرت العادة على حفظها في اماكن غير منظورة مدة من الزمن ولكن في احدى الامسيات عندما كانت تنوي الذهاب الى حفلة كبرى مطلوب فيها بذل الاهتمام الخاص والظهور بالاناقة جاءت الي ودخلت غرفتي لتظهر امامي بكل ما فيها من روعة وسناء .

وتجلى جمالها امامي وكذلك شبابها ونعومة بشرتها ولدانة هيكلها الانكليزي غير الموجود سحره في قائمة الانثيات الساحرات خارج الجزيرة. لقد كانت ملابسها جديدة وكاملة وبنظرة واحدة علمت انها لا تفتقر قط الى التفصيلات والتصميمات التي تكلف الكثير وتعطي للجوهر العام جو الاكتمال الذوقي . ورنوت اليها من الراس الى اخمص القدمين وادارت الي ظهرها لكي استعرضها من كل جوانبها واطرافها وكانت على افضل ما هي عليه من الظرف وعيناها الزرقاوان تومضان ومضات البهجة والانشراح وكانت على وشك ان تمنحني قبلة بملابسها المدرسية تعبيرا عن عمق محبتها وفرحها وقلت لها فلنستقر لنعرف ما الذي نريده ونكتشف معنى جمالنا واريد منك ان تعرضي نفسك امامي لتقص يتسم بمزيد من الثقة والاهتمام » .

وقالت لي بتساؤل « هل افعل ذلك ؟ » وقلت لها « افعلي وهناك مختلف الطرق لذلك .. حقا انني لا افهمك » وسالتني « ولكن كيف ابدو ؟ » واجبتها « تبدين جميلة الملبس » وتراءى لها ان المديح ليس ساخنا كما يجب وشرعت تثير اهتمامي بمختلف نقاط الزخرف الموجود في ملابسها وقالت لي .. « انظري الى طقم مجوهراتي هذا .. انظري الى الدبوس الزيني (البروش) .. انظري الى اقراطي .. انظري الى سواري .. ليس في المدرسة من تلميذة تمتلك مثل هذه الطقوم .. حتى المدام نفسها .

واجبتها « .. انني اراها كلها » (وبعد برهة من التوقف) سالتها « هل المسيو دي باسومبيير هو الذي اعطاك هذه الجواهر ؟ » واجابتني « عمي لا يعرف شيئا عن مثل هذه الامور » وسالتها « هل هي هدايا من السيدة كولمونديلي ؟ » واجابتني « حقا ليست كذلك فالسيدة كولموندلي مخلوقة وضيعة وشحيحة وهي لا تعطيني اي شيء الآن » .

ولم اشأ ان اطرح عليها اسئلة اخرى واشحت بوجهي عنها على نحو

مفاجيء وقالت لي هذه الكلمات التي كثيرا ما كانت توجهها لي عندما تختلف فيما بيننا والآن ايتها العكازة القديمة يا (ديوجينوس) القديم ما بك الآن ؟ » واجبتها « اليك عني ·· لا اجد مسرة في النظر اليك او الى طقم مجوهراتك » ·

وبدا عليها هنيهة انها اخذت على حين غرة وسرعان ما قالت لي « وماذا الآن ايتها الام الحكيمة لم اشتر هذه الملابس بالدين ولا الجواهر ولا القفازات ولا باقات الورود · صحيح ان ملابسي لم ادفع عنها بعدلان عمي باسومبيير هو الذي سيدفع القائمة وهولايلاحظ مفردات المواد وانما ينظر الى مجموع المبلغ ويدفعه · انه غني بالدرجة التي لا يهمه ان ينظر الى بعض الجنيهات زادت ام نقصت » ·

واجبتها « الا تغربين عن وجهي ؟ انني اريد ايصاد الباب ؟ ·· يا جنيفرا ·· قد يقول لك الناس انك مليحة ووسيمة في ملابسك الفاخرة ولكن في نظري لا تبدين جميلة ابدا كما بدوت امامي وانت ترتدين بدلة الجنهام من النسيج القطني المخطط وقلنسوتك القشية البسيطة اللامزخرفة في اول لقاء بيننا ·· اتذكرين ؟ » · وكان جوابها الغضوب « ليس للناس الآخرين مالديك من اذواق متزمتة ثم اقول لك ان ليس لك حق في توبيخي ؟ » ·

وقلت لها « بالتاكيد لدي بعض الحق وانت اي حق لك اذن في المجيء الى غرفتي للتبختر والتبجح في ريشك المستعار لست آكن اي احترام لريشك ايتها الآنسة فانشاوي ولا لهذه العين الطاووسية التي تسمينها طقم مجوهرات · ما احلى انك لو اشتريتها باموالك الخاصة التي حتى لو صح انها لك لكان الواجب عليك أن تدخريها في الظروف الحالية ·

وجاءت البوابة وقالت ان هناك من يريد الآنسة فانشاوي وخرجت من غرفتي وقضية طقم المجوهرات التي هي شبه سر لم تحل الا بعد مرور يومين او ثلاثة عندما جاءت لتعترف امامي طواعية وقالت لي « لا ينبغي عليك ان تعبسي بوجهي · في وضعي الذي آنافس فيه من انافس وفي وضع تتجمع فيه الديون على والدي وعمي باسومبيير اؤكد لك بأن لم يبق شيء لم يسدد لقاء ما اشتريته باستثناء بعض الملابس التي بقيت لدي اما سواها فقد سويت وسددت تماما » ·

وقلت لها « ههنا يكمن السر اذ انا على معرفة يقينية من ان السيدة

كولموندلي لم تعطيك اياها وان مـــا تملكين مقصور على بضعة شلنات
بلهجة خصوصية تنم عن الملاطفة والتملق ولان عبوسي لم يكـن يريحها
بلهجة خصوصية تنم عن الملاطفـة والتملق ولان عبوسي لم يكن يريحهـا
كانت تريد مني ان اظل في حالة اصغاء وحديث حتى وان كنت احـدث
مشجب تعليق الملابس او اي شيء لآ وجود له وقالت لي « اصغ الي ايتها
الخبيرة المتذمرة ساخبرك عن كل شيء وستجدين كيف ان الامور ســارت
سيرا صحيحا وكيف عولجت معالجة صحيحة » ٠

واستطردت قائلة « في المقام الاول ينبغي علي ان اسـافر ووالدي
قال انه يريدني ان اشاهد العالم الخارجي وقال لعمي انني وان كنـت
مخلوقة جميلة الصورة فانني قد تربيت في جو مدرسي واعتمدت اكـل
الخبز والزبدة منها وان رغبته الشخصية هي ان اتخلص من وضعي الحالي
بالتعرف على المجتمع الحالي قبل ان ابدأ ظهوري في المحـلات العامة في
انكلترا ٠٠ حسنا اذا كان علي ان اسافر الى الخارج فعلي اذن ان البس
البسة فاخرة ٠٠

ومضت في كلامهـا قائلة « السـيدة كولموندلي زايلهـــا الانصاف
واستحالت خسيسة ولا تعطيني بعد الآن اي شيء ومن الصعب جـدا ان
نتحمل قيام عمي بدفع اقيام كل الاشياء التي احتاجها وهذا ما لاتستطيعين
نكرانه وهو ما يتوافق ويتناسب مع مواعظك ٠ واذا كان هنالك شخص
سمعني (بالصدفة ٠٠ اؤكد لك ٠٠ بالصدفة) سمعني اشـكو للسيدة
كولموندلي ظروفي السيئة الموجعة وحراجة وضعي من جراء حلية اوحليتين
هناك شخص بدلا من ان يبخل في منح هدية لشخص آخـــر شعر بمنتهى
البهجة حين اتيحت له فرصة تقديمما يعتبره تافهاوقليل القيمة ولوشاهدت
ذلك الشاب الغر كيف استحال وجهه عندما تطرق الى الموضوع وكيف تردد
واحمر خداه خجلا وارتعش خوف ان ترد رغبته من قبلي في ان يقدم العون
الـلازم ٠

وقلت لها « هذا ما يفي بالغرض ايتها الآنسة فانشاوي اتصورانني
عرفت بان المحسن هو ايزيدور وانك منه حصلت على طقـــم المجوهرات
الثمين وانه هو الذي يدفع عن باقات الاوراد وعـن القفازات » وقالت
« انت تتحدثين وتعبرين عن نفسك بشكل لا اوافق عليه ولا يدري المرء
كيف يجيب والذي اريد آن اقوله انني آتيـح لايزيدور في بعض الاحيان

فرصة التمتع بشرف التعبير عن ولائه بما يقدمه لي .

وقلت لها .. ههنا نتوصل الى اتفاق وغاية واحدة والآن يا جنيفرا دعينا نقل الحقيقة الواضحة الصرفة فانا لا افهم فهما جيدا هذه الامور بيد انني على يقين من انك ترتكبين الاخطاء .. الاخطاء الخطيرة وربما تشعرين الآن شعورا مؤكدا بانك قادرة على التزوج من المسيو ايزيدور فوالدك وعمك عبرا عن موافقتهما وانت نفسـك تحبينـه حبـا جما اليس كذلك ؟.

وقالت لي « ابدا .. انا ماكنته ولكنه ليس ملكي »وقلتلها «اعذريني على ان اعتقد بان هذه اللغة ليست سوى سخف وعبث في الحب وليس فيك اية سيماء من العظمة انما انت لا تقومين بشيء سوى استثمار طبيعةالرجل الطيبة وماله اما موقفك منه شخصيا فهو موقف عـدم الاكتراث المطلق . اقول لك هل انك حقا تحبين المسيو ايزيدور فوق ما تفكرين ام عليك ان تعترفي بالحقيقة ؟.

فاجابتني .. كلا .. لقد رقصت معضابط شاب فيليلة ما واحببته الف مرة اكثر مما احببت ايزيدور وغالبا ما اعجب من نفسي ان اكون بهذا البرود تجاهه علما بان كل شخص يقول انه ظريف ووسيم وتعجب بجماله السيدات واراه بطريقة او اخرى متبرما بي فهـل لك ان تحللي هذا الموضوع وتبدين رأيك به ؟ » قالت ذلك وبدا عليها انها تجهد نفسها في التامل والتذكر .

في هذا شجعتها قائلة لها « نعم .. عليك ان تحاولي الوقوف على فكرة واضحة عن حالتك الذهنية التي تبدو لي انها في محنة كبرى وانها مشوشة ومختلطة ككيس الفضلات » وسرعان ما قالت لي « انها لكذلـك يوميا فالرجل رومانتيكي ومخلص للغاية ويتوقع مني كل شيء اكثر من انني اجده ملائما ، وفي رأيه انني كاملة ومثالية ومزودة بكـل انواع الصفات الخالصة الاصيلة والفضائل الجمة المتواصلةكالتي ليست موجودة لدي ولا اريد ان تكون موجودة » .

وليس في وسع المرء سوى ان يحـاول ـ بحضوره ـ ان يبرر رايه الصالح وينهكه لكي يكون جذابا ويتكلم بما هو معقول ذلك انه يرى رايا حقيقيا بانني ذات حس وادراك . انني صريحة معك اكثر من اللازم ايتها السيدة المتمرسة الخبيرة . انتايتها العزيزة الكثيرة الانفعالوالتذمر التي

لا تركز الا على اوطا ما بي من نقائص، وتعرف عني بانني المتغنجة الجاهلة العابثة في التغزل المتقابة في الحب الحمقاء الانانية وكل الاشياء (الحلوة) الاخرى التي اعرف انا وتعرفين انت انها جزء من اخلاقي وخصائصي » •

وقلت لها « ان ذلك كله شيء حسن » وبذلت جهدا مستميتا لاحافظ على هذه الرزانة والصرامة التي يحيق بها خطر الاهتزاز بهذه الصراحة الغريبة الاطوار البادية منها الا ان ذلك لا يبدل او يغير من القضية التعيسة قضية قبول الهدايا وقلت لها « اجمعيها يا جنيفرا ككل فتاة مخلصة صالحة واعيديها له » واجابتني بجرأة وعنف «كلا ٠٠لن افعل ذلك حقا » وقلت لها « اذن انت تخادعين السيد ايزيدور ومن المعقول انك بقبولك هداياه تكونين قد ادخلت في روعه انه سياخذ منك في يوم ما الذي يوازي ويضارع هداياه » •

وقالت مقاطعة اياي « لن افعل ذلك فقد اخذ ما يوازيها ويساويها الآن بتلذذه في مشاهدتي وانا مرتدية ومستخدمة اياها وهذا حسبه مني • انه ليس سوى بورجوازي » وهذه العبارة بتعاليها او خيلائها الطائش اشفتني من ضعفي الوقتي الذي حدا بي الى ان اخفف معها لهجتي ومظهري ومضت في كلامها الصاخب المثرثر قائلة لي :

« ان همي الحالي هو تمتيع شبابي وليس تقييد نفسي بالوعود او العهود لهذا الرجل او ذاك وعندما وجدت ايزيدور لاول مرة اعتقدت بانه سيكون عونا لي بتمتيع شبابي وفي يقيني انه راض بكوني فتاة لطيفة وجميلة وباننا نتلاقى ونفترق ونرفرف بجناحينا كفراشتين بذلك ٠٠ انظري وتاملي ٠٠ لقد وجدته احيانا رزينا كالقاضي وعميق المشاعر ومفكرا ٠٠ ياللسخرية ٠٠ انا لا يروق لذوقي المفكرون وعميقو الانوار والعاطفيون من الرجال •

الكولونيل الفريد دي هامال يروق لي اكثرمنه بكثير٠٠اعطني رجالا انيقين ومتشردين وسيمين • لتعش اللذة والمسرات وليسقط الحب الجدي وليسقط التملك الصارم المتزمت احب الضابط « عقيدي » الجميل ولن اهتم بمنافسه ولن اكون زوجة لاحد افراد الطبقة الوسطى ٠٠ قط »ورنت الي بنظراتها بعد ذلك الحديث منتظرة جوابا مني على هذه الخطبة المسهبة بيد انني لم اجبها • وعبرت عن مرادي بايماءة مفادها ان من الضرورة بمكان ان تكون شقتي بمنجى من وجود مثل هذه الفتاة وما كان منها سوى ان تتوارى بعيدة عني وهي تضحك •



الفصـــــل العاشــــر

ـ الدكتــور جــون ـ

كانت المدام بيك من اكثر الشخصيات الثابتـة عـلى مبدئها تتذرع بالصبر مع كل الناس ولا تبدي الرقة مع اي قسم من اقسامه • وطفلاتها حملنها على الانحراف حتى عن نزعتها الرواقية المتسمة بالهدوء وعـدم الانفعال وكانت قلقة بصدد عائلتها مهتمة بمصالحها وسعادتها الجسمانية ولم يكن لها قط اية رغبة في اخذ طفلاتها في حضنها او في طبع قبلاتها على خدودهن او ملامستهن بفيها حنانا او لجمعهن في عنـــاق مذواق او ابداء الملاحظات العطوفة والكلمات المحببة اليهن •

لقد لاحظتها في بعض الاحيان وهي جالســة في الحديقة تحدج بنظراتها صغارها على مبعدة في ساحة الحديقة مع مربيتهن (ترينيت) وعلى سحنتها امارات الاهتمام والاحتراس وغالبا ما كانت تبوح لي همـا يقلقها من امور مستقبلهن واحيانا عندما كانت اصغر طفلاتها التيكانت تلعب كثيرا رغم ضعفها ونعومتها تلحظ امها من بعيد وشاهدتها تفلتعن مراقبة مربيتها وتدرج بخطى قصيرة قلقة وتتجه ـ وكلها شوق وضحك ـ صوب امها راكضة للامساك بركبتها وفي هذه الحالة اخرجت المداماحدى يديها بهدوء للحيلولة دون اصطدامها بشكل مثير من جـراء اندفاعهـا المفاجيء قائلة لها « حذار يا طفلتي » •

وتقول ذلك وهي غير مكترثة كثيرا وتسمح لها بالوقوف الى جانبها بضع لحظات ثم دون ان تبتسم لها او تقبلها او تحببها بالفاظ او مقاطع تنهض وتعيدها الى المربية اما سلوكها وتصرفها مع طفلتها الكبرى فقـد تميز بطريقة اخرى تماما وكانت هذه الطفـــلة شريرة وتقول عنها •• «ما ابغضوازعج ديزيريه هذه الافعى الصغيرة » •هذهكانت تعابيرهاعنها سواء في المدرسة او في المطبخ وتتحدث المـــدام بافتخار عن قابليتهـا ومميزاتها التي من بينها فن الاستفزاز الذييجنمنهجنون الخدم والمربية

فهي تتسلل الى محلاتهم الواقعة تحت سطح المنزل مباشرة وتفتح دروجهم وجاروراتهم وصناديقهم وتمزق ـ بتعمد المدللة واستهتارها ـ قلنسواتهم وتتلف افضل شالات الخادمات •

وتنتهز هذه الطفلة اللعوب فرصتها للوصول الى الخزانة او (البوفيه) التي تحفظ فيها الاقداح وغير ذلك وتحطم ما هو محفوظ فيها من الاقداح او مواد الخزف الصيني وتنهب ما فيها من معلبات وتشرب الخمر الحلو وتكسر الجرار والقناني وتحاول بعد ذلك ـ لدفع اللوم والقصاص عنها ـ ان تتهم الطباخة او خادمة المطبخ وعندما تشاهد المدام ذلك او يقدم لها التقرير بذلك لا تتفوه الا بالجملة التالية وبكل برودة دم « تحتاج ديزيريه الى مراقبة تامة » •

وفي اعتقادي انها لم تلفت نظرها ولو مرة واحدة ـ باخلاص ـ الى اخطائها او توضح لها شرور مثل تلك العادات وما ينجم عنها من نتائج وفي نظرها ان الدواء الشافي لمثل هذه الاخطاء هو مراقبتها وقد ابعدت في بعض المرات عن اماكن الخادمات وبدلا من ان تكب تقوم بازعاج امها ونهب ما لديها من محتويات او العبث بها وبكل ما يعود لها في طاوله عمل بدراجها او بغرفة حفظ الكتب او غيرها وكانت هذه الطفله تسطو عليها بضراوتها وتختبيء •

وكانت المدام ترى ذلك وتتظاهر بانها لم تره ، ولم تكن لها روحية تجابه الضنئة بشرورها وعندما تختفي مادة ما وتتطلب قيمتها ضرورة التعويض عنها تقول المدام لها بالترجي « انت اخذتيها لتلعبي بها والان اعيديها » غير ان ديزيريه لا تنطلي عليها هذه الخدعة وتنكر كونها مست البروش (الدبوس الزيني) او الحلقة او المقص وراحت الوالدة تراقبها وتلازمها باستمرار او تتعقبها الى الاماكن التي تخفي فيها مسروقاتها كثقب في حائط الحديقة او في اي مكان آخر او ثقب في زاوية مظلمة او في حجرة تحت السقف او في مرحاض خارجي •

وعندما يحدث هذا اي عندما تخفي الطفلة ما تأخذه خلسة من المواد او الاشياء تقوم المدام التي تكتشف مكان الاخفاء بارسال طفلتها مع مربيتها الى الخارج لتسرق السارقة وبرهنت ديزيريه انها الطفلة البارة لوالدتها الذكية الماكرة فهي لا تغير شكل سحنتها او اسلوبها وعادتها من

اجل ان تفشي سر اية علاقة او دلالة ـ مهما صغرت ـ لاكتشاف اماكـــن ما يضيع من المواد ٠

وقيل ان طفلتها الثانية (فيفين) كانت تشبه والدهـا المتوفي ٠ ان الوالدة وان كانت قد وهبتها هيكلها وشكلهاالصحي الا ان عينيهاالزرقاوين وخديها الاسيلين ردت لها كيانها المعنوي لقـــد كانت روحا بسيطة جذلة مرحة مشبوبة العاطفة دافئة المزاج وكانت مخلوقة ناشطة ايضا تتخبط في مشيتها على شاكلة يوقعها احيأنا بالمخاطر والمصاعب ففي احد الايامسمعت المدام صوت سقوطها من اعلى الى اسفل مجموعة متواصلة من درجـات سلم حجري عال واسرعت فالتقطتها وقالت بهدوء «لقد انكسر عظم منعظامها» ٠

وظننا لاول وهلة ان الامر لم يكن كذلك ولكن ظهر انه صحيح فيما بعد لان احد ذراعيها الصغيرين بقي معلقا بلا حـــراك وصاحت علي ان ارسلي احدا ليجلب لنا عربة نقل في الحال وانطلقت هي بسرعة فيعربه نقل صغيرة وببرود وضبط نفس يستثيران العجبلتأتي بالطبيب الجراح ٠ ويدا انها لم تجد عائلة الطبيب في البيت ولم يهمها الامر بل جاءت بمـن اعتبرته في رأيها بديلا عن الطبيب الجراح فجاءت به معها بينما كنت في ذلك الوقت قد قصصت ردن الطفلة عن ذراعها ونزعت ثيابهـا واودعتها الفراش ٠

ونحن المجتمعات في الغرفة الصغيرة الدافئة ـ واقصـــد بنحـن انا والمربية والطباخة والبوابة ـ لم ننظر بامعان الى الطبيب الجديد عنـــد دخوله الى الغرفة فقد كنت انا شخصيا منشغلة بتهدئة فيفين وهدهدتها لان صراخها المخيف ـ برئتيها القويتين ـ كـــان يشـق الآفاق ٠ وتضاعفت الصراخات بعد ان دنا القادم الجديد من فراشها وعندما رفعهـا اختلط بكاؤها المؤثر بالكلمات الانكليزية الركيكة اسـوة بشقيقتيها « لا اريدك انت ٠٠ اريد الدكتور بيلول » ٠

واجابها البديل بلغة انكليزية لا شائبةفيها « الدكتور بيلول صديقي الحميم وهو مشغول في مكان يبعد عنا ثلاثة فراسخ وجئت انا عوضا عنه ولهذا اذا سكتقليلا فسنقوم بما يشفيك من آلامك وسرعان ما سنضمدذراعك الصغير التعيس هذا ليعود كما كان قبل سقوطك ٠ وبعد هذا مباشرة طلب منا ان نأتي له بالماء المحلى بالسكر وسقاها منه قدر ملعقة شاي ٠

وكانت هذه الطفلة الصغيرة اكولة وتستطيب الاشياء الحلوة والكل يستطيع ان يأسر فؤادها بما يقدمهلها من طعام او شراب ووعدها باعطائها

المزيد بعد انتهاء العملية ثم شرع في الحال بالعمل وساعدناه بما كان يطلبه من الطباخة القوية الجسم والذراعين ان تاتي غير انها فرت هي والبوابة والمربية في الحال اما انا فكان بودي الا امسك بذلك الجزء من ذراعها الذي يؤلمها كثيرا ولكن لم يكن لي من بد وامتدت يدي لتعمل ما قاله الطبيب وساعدتني المدام بيك وامسكت بذراعها بقوة وبدون اكتراث اما انا فقد ارتعشت يدي واشاح الدكتور بوجهه عني واتجه الى المدام بيك قائلا لها « هذا افضل » وابدى حكمة في اختياره لان رواقيتي مصطنعة وغير صحيحة اما رواقية المدام فكانت لا اضطرارية ولا تصنعا وقال الطبيب لها « شكرا جزيلا يا مدام ·· ان هدوءنا ورباطة جأشنا تجيء في وقتها المناسب وتسري الف عملية هروب للمشاعر غير الموضوعة في محلها » ·

وسره ما وجده منها من حزم راسخ وسرت هي من مديحه ويبدو ان مظهره العام وصوته وطلعته واسلوب حديثه وسلوكه احدثت في المدام انطباعات انفعالية لصالحه · وفي الحقيقة ان المرء لو نظر اليه جيدا لاسيما على ضوء المصباح المقرب من وجهه ـ لان الوقت كان غسقا اي في اول ظلمة الليل ـ لتراءت له صحة كل ذلك مالم تكن المدام اقل من امراة ·

وهذا الطبيب الشاب لم يكن له مظهر عام فقوامه مهيب وطويل في تلك الغرفة الصغيرة وبين تلك المجموعة من النسوة اللواتي كأنهن من آرومة هولندية · كانت صورته الجانبية او مظهره الجانبي رائقا ورائعا ومعبرا وربما كانت عيناه ترنوان ويتحول رنوهما من وجه الى وجه بسرعة متناهية وبتكرار مفعم بالحيوية وبهيئة تثير المسرة وكذلك كان فمه · اما ذقنه فكان كاملا مشقوقا من الوسط ·

اما ابتسامته فليس بوسع المرء ان يقرر سراعا ان يعطيها الوصف الذي يناسبها ويستحقها ففيها شيء يثير البهجة في الفؤاد ويبعث القوى الصاخبة في كل نقطة من نقاط الذهنية الضعيفة ويخلف كل ما من شانه ان يبعث الضحكة السارة واحبت (فيفين) نفسها ابتسامته ـ المشكوك فيها ـ معها واستحلت لطافته واعتبرته مريحا معها وان كان قد آذاها في عمليته حتى انها مدت يدها لتودعه وربت على يدها الصغيرة بلطف ثم نزل هو والمدام الى الطابق الارضي وكانت المدام تحادثه بروحية مفعمة

بالحيوية والنشاط وبفصاحة ولسان ذرب وهو يصغي اليها بلطف كيس يمازجه مكر لا شعوري يصعب علي وصفه ٠

ولاحظت انه وان كان يتكلم الفرنسية بشكل جيد فان انكليزيته كانت افضل في التكلم وكان له ايضا مظهره الانكليزي العام وعينه وشكله ولاحظت ايضا انه بينما كان يمر من امامي للخروج من الغرفة محولا وجهه باتجاهي لحظة واحدة لا للتحدث معي وانما للتحدث مع المدام وعند وقوفه تاملت في وجهه بالضرورة وحضرتني ذكرى كانت قد اعتملت في مخيلتي ومنذ لحظة سماعي صوته اكتملت هذه الذكرى فعرفت بعدها انه نفس السيد (الجنتلمان) الذي حادثته وحادثني عند المكتب وساعدني في موضوع صندوقي الضائع واصبح دليلي في الليلة الظلماء النديه في المتنزه الذي كنا نمر فيه كلانا واصغيت الى خطواته عند مروره في المجاز للخروج الى الشارع واذا بها نفس الخطوات التي كنت اتابعها تحت الاشجار التي كانت تقطر اغصانها بقطرات المطر المنهمر ٠

ويستنتج من ذلك ان زيارة ذياك الطبيب الجراح الشاب لشارع (فوسيت) ستكون الاخيرة لان الدكتور بيلول سيصل في اليوم التالي ولم يكن من سبب لان يمثله مؤقتا هذا البديل ولكن الاقدار كتبت حكمها بالنقيض ٠ لقد استدعى الدكتور بيلول لمعاينة شخص مريض كبير السن مصاب بمرض الوسواس في بلدة بوكين ـ مويسي الجامعية الاثرية فوصف له علاج تبديل الجو والسفر وطلب من الدكتور بيلول مرافقة المريض الخواف في سفره بضعة اسابيع ولذلك ترتب على الطبيب الجديد ان يواصل حضوره الى شارع (فوسيت) ٠

وغالبا ما كنت اشاهده عندما ياتي وكانت المدام لا ترتضي ابقاء الطفلة المريضة عند (ترينيت) لانها لا تطمئن اليها كذلك ولذلك طلبت مني امضاء معظم وقتي في العناية بالطفلة مربية لها واظن ان الطبيب كان ماهرا لان فيفين شفيت بسرعة بعنايته وحتى نقاهة الطفلة وتماثلها للشفاء لم تفض الى استبعاد الطبيب فقد ظهر ان القدر والمدام بيك حليفان قرر كلاهما وجوب ابقاء صلة التعارف المقصودة المتعمدة ما بين الطبيب وبين ردهة الدار ومدخله والسلم الخاص وغرف الطابق الاعلى قائمة دون ان تنفصم ٠

وما ان شفيت فيفين على يديه حتى وقعت ديزيريه مريضة طريحة

الفراش وهذه الطفلة الممسوسة كانت تمتلك عبقرية التظاهر وبما انها كانت مفتونة باهتمامات الغرفة المريضة وتدليلاتها فقــد ادركت بان التظاهر بمرضها سيكون امرا ملائما لذوقها وسرعان ما قصدت فراشهــا وقامت بدورها التظاهري بشكل جيد وقامت والدتها بالتظاهر بشكـــل افضل وقد اعتبرت المدام القضية كلها كما انها اليـوم المطلوب وراحت تتعامل فيه في جو مدهش من الجـــدية والايمان الصالح الباعث ع ل الطمانينــة ٠

والذي فاجاني واثار استغرابي هو ان الدكتور جون الذي افهمت فيفين انه اسمه واخذنا منها عـــادة مخاطبته باسمه الى ان اضحت عادة لدينا علما بانه لم يعرف باسم آخر في منطقة (فوسيت) ورضي ضمنــا بالسير وراء اساليب المــدام والوقوع في مصيدة مناوراتها وظهرت عليه لبرهة ما دلائل الشك المضحك والقى نظرة او نظرتين سريعتين على الطفلة ووالدتها ثم انغمس في فترة التشاور الذاتي وقرر في آخــر الامر ان يلعب دوره في المسرحية الهزلية عن طيبة خاطر ٠

كانت ديزيريه تأكل بشراهة وتطفر مرحا طـول النهار وتلعب في فراشها ليلا فتقذف خيم الجراحة بالملاءات والبطانيات وتتكيء بين المساند والوسادات تسلي نفسها برمي احذيتها عــلى المربيـــة وتكشر تكشيرات ازدرائية امام اختيها وتكاد تطير (بالشورت) القصير الذي ترتديه بصحة ليست جديرة بهـــا وبروحيتها التجاوزية الشريرة ولا تئن وتتوجع في فراشها الا عندما تزورها والدتها او طبيبها في النهار وكانت المــدام منشرحة النفس من ان تكون طفلتها في الفراش بعيدة عن الاذى والتوجع غير انني استغربت من ان الدكتور لم يكل ولم يمل من انجاز مهمته كطبيب رغم علمه بحقيقة الامر ٠

وفي كل يوم وبحجة اعطاء التوصيات فقط كان يقـــوم بزيارات شكلية فتلقاه المدام دائما بنفس الحماسة والود وبنفس الاشراقة امامــه وبنفس جو الاهتمام الزائف بالطفلة من قبل لدكتور جون الذي كـــان يكتب لها وصفات طبية لا ضير من تناولها ويرنو الى والدتها بعين الغـــزل العميقة الغور والمدام تتلقف نظراته الشاملة دون ان تمتعض منها بل قل بروحية جد مرتاحة منها ٠

ولما كان الدكتور الشاب دمثا مطواعا فما من احـد كـان يكن لـه الاحتقار وهذا الجزء الدمث المطواع لم يكن يبديه ـ على ما كان يبدو ـ من اجل ان يتملق لمن يستخدمه . وفي الوقت الذي كان يحب فنه ووظيفته في المدرسة الداخلية ويتردد بشكل غريب في مساكن شارع (فوسيت) كان مستقلا وعديم الاهتمام بمركبته ومع ذلك كـان في الاغلب مشغول البال لمراعاة حقوق الآخرين ومشاعرهم وكثير التفكير في الاهتمام بهم .

وربما لم يكن من شأني مراقبته لمعرفة سـرية طريقته في المشي والوقوف والجلوس او التقصي عن اصله او ارومته او هـدفه ولكنني بوضعي ذاك ما كان بوسعي ان اعمل غير ذلك وقـد كشف نفسه امـام ملاحظاتي وبينما كان في اغلب الاحيان ينتظر مجيء المدام كان يستغرق في التفكير او يبتسم او يراقب او يصغي كالرجل الذي يعتبر نفسه وحيدا وفي مثل هذه الحالة اكون حرة وطليقة في استجلاء محياه وحركاته واعجب من ماهية معنى ذلك الاهتمام الخاص والاتصال الخاص المزيجين بالشك والاستغراب تتحكم بها ـ بشكل لا يمكن توضيحه ـ رقية موجهة تشده الى هذه البناية نصف الدينية وفي اعتقادي انه لم يعرف ان لدي عينين في رأسي ووراءهما دماغ مفكر .

ولم ينتبه الى هذا قط ولكن في يوم ما عندما كان جالسا تحت اشعة الشمس المحرقة لاحظت لون شعره وشاربيه وبشرته ولا ادري الى هـذا اليوم كيف رنوت اليه فقوة المفاجأة وقوة الايمان جعلتـاني انسى نفسي ولم يعد الي رشدي الا بعد ان شاهدت ان هذه الملاحظة قد اكتشف امرها وكيحت وان المدام اعتقلت حركتي بمرآة بيضوية شفافة مثبتة الى جانب فراغ النافذة تتجسس بها سرا على الاشخاص الذين يمشون في الحديقة .

انه وان كان ذا طبيعة تتسم بالتفاؤل والمـرح فانه لم يكن عديم الحساسية او خاليا من النزعة العصبية او مضطربا من نظرة متقصيـة مباشرة وعندما فاجأني على تلك الحالة التفت الي وقال بلهجة وان كانت مؤدية الا انها تضمنت ما يكفي من اليبوسة التي آبدت ظلا من الانزعاج والتبرم وسمة من سمات الملامة والتوبيخ الضمني .. « ان الآنسة لاتدعني وشأني فلست بالتافه الذي يتصور ان حسناتي هي التي تلفت انتباهها ولهذا لابد ان هنالك خللا او عيبا في فهل لي ان اتجرأ واسألك ماهو؟» .

وشعرت بالخزي كما يتصور القاريء ولكن ليس الى حد الارتباك الذي لا يمكن ان يصلح شأنه وكنت على علم من ان الذي بدر مني لم يكن بسبب عاطفة الاعجاب الغافل او بسبب روحية الفضول الذي لا مبرر له مما أدى الى توجيه الملامة والتأنيب لي وكان بوسعي ان ازكي نفسي بنفس اللحظة ولكنني لم افعل ذلك ولم آحر جوابا ٠

ولم اكن في وضع يساعدني على التكلم معه وايذائه لـكي يضرب اخماسا باسداس ويتهمني بشتى الاتهامات ولذلك استأنفت انشغالي بشيء أسقطه من يدي وابقيت رأسي منحنيا عليه اثناء هنيهات وقوفه الباقية وهناك مزاج مستبقى في الذهن يهدأ ويستكين ولا ينزعج من جراء سوء الفهم أو سوء التفسير ٠ ونستأنس في بعض الاماكن التي لا نعرف بهـا حق المعرفة بمجرد ان يتجاهلنا الآخرون تمام التجاهل ٠ واي رجل نزيه ويمتبن مصادفة لص المنازل ولا يستشعر الوخز الخفيف بـدلا من الغيظ والحيرة عند ارتكاب الخطأ ؟ ٠

الفصـــل الحـــادي عشـــر

ـ حجـرة البـوابة الخصوصية الصغـيرة

كان الفصل صيفا والمناخ حارا جدا حين اصابت جورجيت اصفـر طفلات المدام (بيك) حمى وكانت (ديزيريه) التي ابلت من امراضها فجأة قد ارسلت (فيفين) الى الريف برفقة المربية (ماماں) وقاية مـــن العدوى وكانت الحاجة تمس الآن وبشكل حقيقي الى العون الطبي وكانت المدام التي تجاهلت عودة الدكتور بيلول الى داره قبل اسبوع قـد ناشدت منافسه الانكليزي لمواصلة زياراته لان واحدا او اثنين من متقاعديها كانا يشعران باوجاع الرأس فضلا عن الحاجة الماسة اليـه للعناية بجورجيت المريضة .

ومرت في خاطري فكرة وجوب استدعاء الدكتور بيلول ثمان المديرة الحذرة المحترسة ذاتها لا تستطيع المجازفة باحضار شـــاب وسيم امـــام التلميذات ومع انها شديدة الحذر فانها تتسم ايضا بروح المغامرة الجريئة فهي فعلا قدمت الدكتور جون الى فرع ادارة مبنى المدرسة وعينته بحضور التلميذة الجميلة المتعجرفـة (بلانش دي ميلكي) وصديقتهـا التلميذة المتغنجة المزهوة بنفسها (انجليك) ٠

وعبر الدكتور جون عن امتنانه من هذه المبادرة الدالة على الثقـــة من قبل المديرة واذا كانت حرية الاختيار تبرر هذه الخطوة وان الدكتور نفسه بررها تبريرا حسنا فان وجـــودا كوجوده في منطقة دير ورهبنة وكرسي الاعتراف ما كان ليمكن المرور بـــه مر الكرام او الافـلات من عواقبه في مدرسة الفتيات المعروفة بالقيل والقال وبنشر الاشاعات ولهذا سرت الاشاعات وحدث همس في المطبخ وتلقفت المدينة الاشاعة وشـرع آباء وامهات التلميذات يكتبون الرسائل ويقومون بزيارات احتجاجية ٠

ولو كانت المدام ضعيفه لانتهى امرها بالضياع وحاولت دزينة من البيوتات التربوية المثقفة العمل على القضاء عليها ولانها لم تكن ضعيفة عجزت عن ذلك والتقت هي باولياء التلميذات الجزعين وهي جذلة طلقة المحيا كيسة في محادثتهم فما من امرأة ضاهتها في صراحتها وبساطتها التي كانت تحصل بها في مختلف المناسبات على ما تريد وبمنتهى النجاح وعلى عكس الفشل الذي يصيب من يستخدم اسلوب الخشونة في التعامل او اسلوب الاستنتاجات والحجج والبراهين الجدية وكانت تقول وهي تفرك راحتي يديها الصغيرتين البيضاوتين السمينتين بعضهما ببعض « هذا المسكين الدكتور جون ·· هذا الشاب العزيز الذي يعتبر افضل مخلوق في العالم » · وراحت تتحدث لهم عن سبب استخدامه للعناية بطفلاتها اللواتي تعلقن به بحيث يملأن الغرفة صياحا واحتجاجا اذا ما اردنا استدعاء طبيب آخر وقالت « ما دمنا نثق بانفسنا فعلينا ايضا ان نثق بالآخرين وأومات الى ان التلميذتين بلانش وانجليك كانتا تتشكيان من مرض الشقيقة فكتب لهما الدكتور جون وصفة طبية ناجحة ·

واغلقت افواه الآباء والامهات واستطاعت التلميذتان بلانش وانجليك ان ينهيا قلقهما واضطرابهما بامتداحهما الدكتور جون وايصاله الى عنان السماء بتلك الاحاديث واقتدت بقية التلميذات بهما وقلن جميعا انهن عندما يمرضن لا يستدعين سوى هذا الدكتور دون غيره وضحكت المدام وضحك اولياء امورهن ايضا والمعروف ان اولياء الامور عند (اللاباسيكوريين) يحبون اولادهم حبا جما ويدللونهم كل التدليل وقانون معظم العوائل هو رغبة الاطفال ولذلك فالمدام الآن كانت موضوع اعجاب لانها عملت في هذا الصدد بروحية الانحياز الى رغبة الاطفال وخرجت بنجاح باهر واحبها الناس جميعا واعتبروها افضل مديرة ·

والى هذا اليوم لم افهم كل الفهم سبب مجازفتها بمصلحتها من اجل الدكتور جون ولكنني كنت اعرف طبعا ماذا كان يقوله الناس فالمؤسسة كلها والطالبات والمدرسون والخدم كانوا يؤكدون على انها تروم الزواج منه قريبا ولهذا سوي الموضوع بينهما ويبدو ان فارق العمر لم يشكل عقبة في طريقهما وفي نظرهما وتوصلا الى ان يكون الامر كذلك ·

وينبغي الاعتراف بأن المظاهر كانت دائما تشجع هذه الفكرة وتوافق

عليها فالمدام جنحت الى استعادة خدماته ناسية امر الشخص الذي كان تحت رعايتها وهو الدكتور بيلول ورتبت له زيارات شخصية لها كانت تستبشر بها وتحس بالراحة والبهجة وتبدي له جانب العطف والميل في سلوكها تجاهه ثم انها اخذت تهتم اهتماما بالغا بأمر ما ترتديه من ملابس فثوب الفضال الذي ترتديه النسوة عند النوم او في الصباح او عند العمل داخل البيت والقلنسوة والشال الليليان لم تعد تستعملهما وكان الدكتور جون يجدها في اول زياراته دائما في ضفائرها السمراء المحمرة وفي ثوب حريري بالحجم الفعلي والجزمة النصفية بدلا من الخفين اي ان الزينة كاملة تماما ونموذجية وموزنقة كالوردة النضرة وقلما ظننت ان القصد من ذلك كان ابعد من ان تظهر امام رجل ظريف وجميل كما لو انها امرأة غير بسيطة والحقيقة انها لم تكن بالبسيطة قط ·

كانت المدام تبهج القلب حتى بدون تزويق وبدون اناقة المظهر وكانت تشرح القلب حتى بدون عمر الشباب ونعمه البهية ولم يكن المرء يشبع من النظر اليها ، لم تكن بالرتيبة المملة ولا بالخالية من النكهة ولا بالشاحبة الوجه ولا بالمطفأة اللمعان فشعرها الذي لم يبهت لونه وعيناها بلمعانهما الازرق المعتدل وخدها بازدهاره وتفتحه الشبيه بازدهار الثمرة وتفتحها ، وكل هذا الذي وصف فيها كان يسر القلب باعتدال وباستمرار ·

ترى ؟ هل ان المدام الذي كانت تراودها رؤى انتقاء الدكتور جون زوجا لها قد اخذته الى دارها المجهز باحسن الاثاث وعرضت عليه مدخراتها وتوفيراتها التي تشكل ثروة لا بأس بها تجعله مرتاح البال طيلة حياته ؟ وهل ان الدكتور جون خامرته الشكوك بمثل هذه الرؤى · لقد التقيته خارجا من عندها وعلى شفتيه نصف ابتسامة انزعاج وفي عينيه نظرات الغرور الرجولية مشوبة بدغدغة التيه المبهجة .

ان الدكتور جون رغم كل مظاهره الحلوة الجميلة وطبيعته الدمثة الطيبة لم يكن بالرجل الكامل وربما كان عاجزا جدا في تشجيعه الخبيث لاهداف لا يريد تحقيقها وانجاحها ·· ترى ؟؟ هل انه لا يريد لها النجاح فعلا ؟ الناس يقولون انه ليس له مال وانه بمعيشته يعتمد على مهنته فقط ورغم ان المدام تفوقه سنا بأربعة عشر عاما فانها كانت من فرع النسوة اللواتي لا يشخن ولا يذوين ولذلك كانا في ميزان متكافيء وربما كان

هو غير عاشق ولكن كم من الناس يعشقون ؟ وكم منهم يتزوجون في هذا العالم لانهم يعشقون ؟ ورحنا ننتظر النتيجة ٠

اما لماذا انتظرنا فلست ادري كما لم ادر ما الذي كان ينتظر ويترقب ؟ والذي ادريه ان خصوصية سلوكه وتوقعه واحتراسه واهتمامه ونظرته وتلهفه لم تزل ولم تتناقص بل في الواقع زادت ولم يكن يرتاح ضمن دائرة قدرتي على التمييز والاستنباط وفي ظني انه اخذ يطوف ويتجول وراءها اكثر فاكثر ٠

وفي صبيحة احد الايام هاجم جورجيت المرض واشتد عليها شيئا فشيئا واخذت تبكي دون ان تكف عن البكاء وربما ان احدى جرعات الدواء الموصوفة لها لم تلائمها وخشيت ان يتكرر تناولها هذه الجرعة ولذلك انتظرت بفارغ الصبر قدوم الدكتور جونلاخذ رآيه في الموضوع، ورن جرس الباب ودخل هو نفسه وتاكدت من ذلك لدى سماعي صوته مخاطبا البوابة وكان من عادته التوجه مباشرة الى غرفة المربية قافزا كل ثلاث درجات سوية ويطلع بصورة مفاجئة امامنا ٠

ومرت خمس دقائق ثمعشر ولماسمع عنهشيئا او اراه ترى٠٠؟ماالذي كان يفعله طيلة هذه الدقائق العشرة ؟ ربما انهينتظر في المشى التحتاني وكانت جورجيت الصغيرة تواصل بكاءها المشجي وتناشدني بعباراتها المالوفة اللائغة المتكررة ٠٠ « انا مريضة جدا » الى ان لم يقو قلبي على تحمل الالم فاسرعت في النزول للتاكد من سبب عدم مجيئه الينا كماكان يفعل كل مرة عند صعوده ٠

ووجدت ان الممر خال لا احد فيه وقلت في نفسي « عجبا هل توارى ؟ هل هو في غرفة المدام الخاصة ؟ ذلك مستحيل لانني غادرتها وهي ترتدي ثيابها قبل وقت قصير » وارهفت اذني لاسمع ٠٠ لم يكن هناك سوى ثلاث طالبات يقمن بمهماتهن في ثلاث غرف متقاربة وهي غرفة الطعام وغرفة الرسم الكبرى وغرفة الرسم الصغرى ولم يكن بينهما وبين الممر سوى كابينة البوابة اي حجرتها الصغيرة المتصلة بالصالونات المتخذة مخدعا للسيدة لجلوسها وارتداء ملابسها (بودوار) وعلى مبعدة منها محل ادوات موسيقية في شبه كنيسة صغيرة وهناك صف كامل يحوي دزينة او اكثر من الطالبات اللواتي يفخذن درسا في الغناء وسمعت

اصواتهن وهن يغنين غناء مستقى من اغـــاني البندقية والقطعة باسم (باركارول) وما الذي سمعته عدا ذلك الغناء ؟ سمعت اشياء كثيرة على وجه التاكيد ٠

نعم ٠٠ سمعت ثلاث ضحكات استهتارية في الكابينة الصغيرة المارة الذكر القريبة من الباب الذي كنت اقف وراءه وهو تقريبا مفتوح وسمعت صوت رجل يتكلم ـ بلهجة ناعمة عميقة ومناشدة ـ بضع كلمات لم اسمع منها بوضوح سوى كلمات القسم والمناشدة التالية « ٠. بالله عليك ٠٠ اتوسل اليك ٠٠ » وبعد برهة من السكوت خرج الدكتور جون بغتة وعيناه تلتمعان كذا الالتماع لا بالزهو ولابالانشراح وخداه الانكليزيان الجميلان ممتقعان وهو بحالة ارتباك وعذاب وقلق وعـلى جبينه كـل معاني الرقة والحساسية ٠

وكان الباب المفتوح بمثابة حجاب يحجبني عن الانظار اما انا فقد كنت في طريقه تماما دون ان يدري وفي اعتقادي انه مر دون ان يراني ٠ ان شعوره بالخزي والغيظ العنيف جعل نفسه تنقبض او بالاحرى ينبغي ان اقول ان شعوره ببعض الاسى او ببعض الظلم جعـــله كذلك ولا اظن تماما ان كبرياءه قد اوذي بمثل ما اوذيت، عواطفـــه بقوة وقسوة عـلى ما كان يبدو لي ٠

ويا ترى من ذا الذي عذبه ؟ ومن كانت في البيت آنذاك واستطاعت بسلطانها ان تستحوذ عليه ذلك الاستحواذ وتخيبه تلك الخيبة ؟؟ المدام؟؟ ان المدام كانت في غرفتها عـلى ما اعتقـد وان الغرفة التي خرج منهـا الدكتور جون كانت مخصصة لاستخدامات البوابة دون غيرها واسمهـا (روزين ماتو) عاملة فرنسية شابة مرحة ورشيقة متقلبة الاهواء انيقة في ملبسها ومزهوة بنفسها ومرتزقة بجشع ٠ ولم يكن من المؤكد انهـــا هي المسؤولة عما اصابه من اذى وعذاب وهو ما طفح على وجهه حين مر من امامي ٠

وبينما كنت اتأمل سمعت صوتها الصافي الحاد نوعا ما يجلجل في اغنية فرنسية مرحة ترتعش داخل الباب الذي لم يزل مفتوحا فتحا جزئيا وتشككت بمشاعري فنظرت الى الداخل واذا بها هي نفسها جالسة عـلى المنضدة بلباس انيق من القماش القطني الوردي الرقيق وقلنسوة صغيرة

باللون الاشقر ولم يكن في الغرفة من الاحياء سواها باستثناء سمكة بلون الذهب موضوعة في كرة من زجاج وبعض الازهار داخل القدور واشعة الشمس التي كانت تحتل بعض ارجاء الغرفة . ولـــدي الآن مشكلة .. ينبغي ان اصعد الى الطابق الاعلى لاسأل عن الدواء .

وجدت الدكتور جون جالسا عـــلى كرسي بجانب فراشـ الطفلة جورجيت وقد وقفت المدام قباله . وفحصت المريضة الصغيرة وهدىء المها ووجدتها ممددة في سريرها عند دخولي وكانت المدام بيك تعلق على صحة الطبيب الخاصة وقالت انها لاحظت تبدلا في نظراته لا تدري انه حقيقي ام خيالي وعزت التبدل الى اعماله الشاقة المجهدة ونصحته بالراحة وتبديل الجـــو .

واصغى الدكتور اليها بطلاقة المحيا ممزوجة بضحكة عدم الاكتراث قائلا لها « انك اكثر من مربية » وان صحته على ما يرام وناشدتني المدام كالمستغيثة بي وتابع الدكتور جون حركتها بنظرة عجلى متوانية ومضجرة كما لو انه يريد ان يعبر لها بها عن استغرابه من ان تؤميء الى جهة تافهة جدا . وسألتني المدام « ما رأيك يا آنسة لوسي اليس الدكتور جون اكثر نحافة واصفرارا عن ذي قبل ؟ » .

ونادرا ما كنت اتكلم بحضرة الدكتور جون بسوى الكلمات الاحادية المقطع لانه كان الشخص الذي كنت أروم دوما ان ابقى امامه محايدة لانه كان يعتبرني من سقط المتاع اما الآن فقد اصبحت لي اجازة للجواب في عبارات كاملة تعمدت ان اجعلها ذات اثر ولذلك اجبت على السؤال قائلة « يبدو مريضا في هذه اللحظة ولكن ربما كان سبب مرضه امرا وقتيا ».

وربما اصاب الدكتور جون ارتباك او حيرة اذ لا ادري كيف كـــان وقع كلماتي هذه عليه ولم اعاين وجهه على اثرها لاعرف الوقع وبدات جورجيت تسألني بلغتها الانكليزية الضعيفة ما اذا كان بوسعي ان اعطيها قدحا من الماء الممزوج بالسكر واجبتها باللغة الانكليزية وتصورت انـــه لاول مرة يلاحظ انني اتكلم لغته وقبل الآن كـــان يتصورني اجنبيـــة ويناديني بكلمـــة (مودموزيل) ويعطيني باللغـــة الفرنسية التوجيهات الضرورية الخاصة بمعالجة الطفلة وظهر عليـــه انه كـــان على وشك ان يبدي ملاحظة ولكنه فضل السكوت دون ان ادري لماذا .

وشرعت المدام تسدي له النصح اما هو فقد هز راسه ضاحكا ونهض ودعا لها بصباح سعيد بكل ادب في جو يحيط بشخص يعرفان مزيدا من الاصغاء من قبله هو مضيعة للوقت وافساد للحال . وعند ذهابه تهالكت المدام على المقعد الذي كان جالسا عليه واسندت حنكها على يدها وكل ماكان قد طفح على وجهها من امارات النشاط والحيوية والمودة توارى تماما وحلت محلها امارات التحجر والصرامة والعذاب الذاتي والكآبة .

وتحسرت مرة واحدة تحسرا عميقا ورن جرس قوي لدوام المدرسة الصباحي فنهضت المدام وعند مرورها بالمزينة التي عليها مرآة نظرت الى صورتها ووجدت شعرة بيضاء طويلة مترامية على طول خصلات شعرها البندقية اللون وقطعتها بيد مرتعشة . وفي ضوء النهار الصيفي وان كان يبدو وجهها محافظا على لونه الا انه مع ذلك فقد حيوية الشباب تقريبا ثم اين الخط الكفافي المحيطي ؟..

آه ايتها المدام رغم حكمتك عرفت معنى الضعف . لم يسبق لي قط قبل الآن ان اشفقت على المدام ولكم رق قلبي لها عندما عادت من المرآة ووجهها مكفهر وكأنما عصفت بها مصيبة او داهية دهياء وذلك القنوط الشيطاني حياها تحية رهيبة ولكنها رفضت الالفة . ولكن (روزين).. ماذا اقول عن روزين ؟.. ان حيرتي بامرها كانت تفوق الوصف وقد انتهزت خمس فرص للمرور من امام كابينتها او غرفتها الصغيرة في ذلك اليوم بغية التأمل في سحرها وفي حقيقة تأثيرها .

لقد كانت رائعة الجمال وشابة ترتدي البسة من صنع جيد . وان كل النقاط الفائقة الجودة كانت ادلة كافية تعتمد وتركن اليها الذهنية الفلسفية لمعرفة مدى ما تحدثه من عذاب وذهول في شاب كالدكتور جون وكنت اتمنى لو ان لديه اختا او اما تسدي له النصح وترشده الى الطريق القويم ثم رجعت عن هذا التمني قبل ان اكشف سخفه وحماقته في الوقت المناسب وقلت في نفسي اليس هناك من ينصح المدام بصدد طبيبها الشاب وما جدوى ذلك ؟

واعتقد بان المدام ربما اسدت النصح الى نفسها باية طريقة سخيفة او مضحكة.. صحيح اذا قلنا ان ليس لديها مشاعر قوية للتغلب عليها ولا

مشاعر رقيقة وواهنة تتالم من جرائها وصحيح ايضا ان لديها مهنة مهمة جدا او مصلحة حقيقية تملأفراغ وقتها وتستطيع ان تحول مجرى تفكيرها وتجزي اهتمامها وصحيح بشكل خاص انها تمتلك عقلية جيدة وحســـا مرهفا جيدا لم تمتلك مثلهما اية امرأة وأي رجل وبفضل هذه الفوائد والمنافع المجتمعة لديها كانت تتصرف بحكمة ·· مرحى أيتها المدام ·· مرحى مرة اخرى ·· لانــك كالبطــل (ابوليون) ناضلت وخضت حربا ضروسا وانتصرت ·

الفصل الثاني عشر

ـ الرسالة الغرامية ـ

وراء الدار الواقعة في شارع (فوسيت) حديقة كبيرة تقع في قلب المدينة وكل ما اذكره عنها الى يومنا هذا انها حديقة بهيجة غير ان الوقت كالمسافة يضفي على بعض المشاهد تاثيرا مريحا حيث تحيط تلك الحديقة حجارة وحائط اجرد وحجارة رصيف ساخنة وما انفس ما كانت تبدو فيها احدى الشجيرات وما احلى قطعة مزروعة ومسيجة من الارض في تلك الحديقة .

وهناك تقليد متوارث عن ان دار الدام بيك كان في الايام الخوالي ديرا او رهبنة ولا ادري مدى الاعوام التي انصرمت عليه ولكن المفهوم انها بلغت بعض القرون قبل ان تتسع المدينة وتنتشر في ذلك المكان الفسيح وعندما كان هذا المكان ارضا محروثة وطريقا طويلا مشجرا منعزلا يحتضن بناية دينية سرت اشاعات مفادها ان شيئا ما قد حدث في ذلك الموقع اثار رعبا وان هنالك قصة شبح متوارثة غامضة عن وجود راهبة بيضاء وسوداء تظهر في بعض ليالي السنة وانها شوهدت بجوار الموقع .

وقصة الشبح يعود تاريخها الى بعض اجيال انصرمت اذ توجد هنالك بيوت تحيق بكل ارجاء المنطقة وآثار قديمة من بقايا الدير على شاكلة اشجار قديمة هائلةالحجم للفاكهة موقوفة للكنيسةومن بينها شجرة الشيخ الجليل متو صالح (الذي عاش ٩٦٩ عاما كما جاء في الكتاب المقدس العهدين القديم والجديد) وهذه عاشت لتثمر الاجاص علما بأن هذه الشجرة قد تيبست وذوت عدا بعض اغصانها التي لم تزل في الربيع تثمر الحلوى الثلجية وهي الحلوى التي تعد من بياض البيض والسكر ولب الفاكهة وفي الخريف تنتج العسل .

وانت اذا حفرت الارض المطحلبة بين الجذور الظاهرة تصفيا

ستلاحظها دبقة ملسنر صلبة وسوداء اللون • وتقول الاسطورة غير المؤكدة وغير المعتمدة رغم انتشارها في كل مكان ان ذلك كان مدخلا نقبو او سرداب متوغل عميقا تحت تلك الارض التي ينمو الحشيش على سطحها وتتفتح الازهار وتحفظ عظام فتاة في جدث لارض رهبنة تعود لموحشات العصور الوسطى وكانت هذه الفتاة قد قبرت فيها وهي حية لخطيئة ارتكبتها عندما نكثت بقسمها او وعدها وكان الناس يرتعدون خوفا من ظلها • وعبر عصور طويلة تحول هيكلها فيها الى غبار وتحول ثوبها الاسود وحجابها الابيض وعيناها الجزعتان الخائفتان الى سخرية الظلال وضوء القمر كلما تموج داخل الريح الليلية عبر ايك الحديقة وآجامها •

كان لتلك الحديقة القديمة العهد ـ بمعزل عن نفاياتها الرومانتيكية ـ حقائقها السحرية ففي كل صباح من اصباح فصل الصيف كنت انهض مبكرة للتمتع بسحرها انا وحدي وفي كل امسية من امسياته كنت اتهادى وامشي بطيئا على موعد لقاء مع القمر الطالع واتذوق لذة قبلة مع نسيم المساء او اتخيل ـ دون ان استشعر ـ بلة الندى النازل المنحدر على العشب المخضوضر وكانت المجازات ملأى بالحصباء البيضاوية اللون وروائح النباتات وعبيرها العذب تملأ ارجاء اشجار الفواكه المتعنقدة وتتجمع حول جذورها التي تعج بنباتات الكثوث والحامول الضارة المرتعشة من وهن الشيخوخة وهناك سرير كبير يعلوه ويغطيه ظل شجرة الاقاقيا وهناك كوخ صغير تلتمس فيه الراحة بين اشجار الكروم الممتدة على طول حائط عال وعادي اللون تجمع محاليقها في عقدة او انشوطة جمالية تعلق عناقيدها بغزارة رائعة حول موضع مفضل تتلاقى معها نباتات الياسمين والليلاب وتجمعها في اتحاد وثيق العرى •

ومن الطبيعي ـ ان تصبح الحديقة في رابعة النهار حيث يسود مدرسة المدام بيك الكبيرة آنذاك هرج ومرج من جراء تجمع طالبات المدرستين الداخلية والخارجية وانتشارهن وتنافسهن مع طلاب الكلية المجاورة في الحركات الرياضية كالشهيق والزفير مكانا لا يمكن انتجاعه قط ولكن عند غروب الشمس واخذ التحية في المدرسة وذهاب الطالبات الخارجيات الى بيوتهن والطالبات الداخليات الى ملاذهن في داخل المدرسة يستطاب الذهاب الى الحديقة وارتياد مماشيها الهادئة التي تكتنفها

الاشجار وسماع جلجلة اجراس كنيسة القديس يوحنا المعمدان ورنينها الحلو الماجد .

كنت امشي هكذا في احدى الامسيات وشعرت بأنني اسيرة الشفق عند ميلان الشمس الى الغروب واسيرة الهدوء المتعمق باستمرار والبرودة اللطيفة البهيجة وانفاس عبير اريج الاوراد لتي لا تقوى الآن اشعة الشمس على اختراقها . ووجدت على ضوء شباك كنيسة صغيرة ان جمهور المصلين تجمعوا هناك لتقديم فروض صلوات القداس .

وبعد لحظة من الزمن بقيت انا وعزلتي الهامسة وقمر الصيف . انذل هادىء الآن تمام الهدوء وبعد حوالى ربع ساعة اخرى لن تشعر بان وجودك غائب فحرارة النهار وضوضاؤه قد اتعبتك فتمتع الآن بهذه الدقائق الثمينة . لقد كانت ظهور البيوت المبنية في الحديقة الخالية من النوافذ ولاسيما احد الجوانب بتمامه مطوقا بمؤخره خط طويل من المباني العائدة للمدرسة الداخلية التابعة للكلية المجاورة .

وكانت هذه المؤخرة مكونة كلها من الحجارة العديمة المتعة العديمة التنوع باستثناء بعض الكوى البسيطة العالية المفتوحة من غرف نوم الخادمات ونافذة بأبية من الطابق الاسفل قيل انها بنيت لتبين انها غرفة الاستاذ ومكتبه الدراسي ومع انهذا كان ممشىمتوازيا مع الحائطالعالي لذلك الجانب من الحديقة الا انه كان محرما على التلميذات دخوله بحيث سمي (بالطريق المحرم دخوله) وكل تلميذة تحدثها نفسها في ان تخرق هذا النظام كانت تعرض نفسها لعقوبة صارمة بموجب اوامر المدام بيك وكان بوسع المدرسين ان يرتادوا المكان بلا عقوبة ولان الممشى كان ضيقا والشجيرات المهملة تنمو هناك بحيث تكاثفت اغصانها كل التكاثف من جميع الجوانب فان كل تقدم متمعج من فوق سقف الاغصان والاوراقالتي لا تقوى اشعة الشمس على اختراقها كان محالا الا في حالة عدم وجود شجرة الفبيراءباثمارها المربعة الاشكالبحيث ان هذا الممشى لم يكن بالوسع دخوله الا فيما ندر حتى في ضوء النهار اما بعد ظلمة الليل فقد كان بمناى عن الجميع .

ومنذ الاول راودتني رغبة مغرية لان اجعل من نفسي مستثناة عن تلك القاعدة ، قاعدة تجنب ذلك المكان واستمالتني عتمة الممشى . لقوكنت

في السابق اخشى ان ابقى وحيدة في اي مكان ولكن شيئا فشيئا الفني الناس والفوا عاداتي والوان خصوصياتي المتأصلة في سجيتي وان كانت ـ بالتاكيد ـ لا تثير اهتمامات الآخرين بغرابتها ولا تؤذي الاخرين وانما كانت جزءا من اعماق نفسي التي ولدت فيها لا يمكن ان تنفصم عراها عن شخصيتي ·· بعد ذلك اصبحت بالتدريج من سالكات هذا الممشى الضيق وجعلت من نفسي بستانية بعض الازهار التي لا لون بديع لها تنمو بين شجيرات متلاصقة ومتكاثفة ·

وطهرت الارض من بقايا اوراق فصول الخريف السابقة ومن المقاعد الغصنية الريفية البسيطةالموجودة في النهاية القصوى وطلبت من الطباخة (فوتون) سطلة مياه وفرشة الاشجار الخفيفة ونظفت ذلك المقعد وعاينتني المدام وانا اشتغل وابتسمت ابتسامة الاستحسان ولا ادري ما اذا كانت ابتسامتها خالصة ام لا الا انها بدت لي خالصة على ما كان يظهر من قولها هذا « انظروا ما احسنها ترتيبا وذوقا هذه الآنسة لوسي· انك مولعة بهذا الطريق ايتها الآنسة ·· اليس كذلك ؟ ·· » وقلت لها « نعم لانه هادىء وظليل » وصاحت قائلة « ما اطيبك واطيب سريرتك وطبيعتك ؟ » ·

وراحت توصيني برفق ان اواصل مثل هذا العمل قدر امكاني قائلة لي انني ما دمت غير مكلفة بمراقبة الطالبات والاشراف عليهن فلا لزوم لي للسير معهن وملازمتهن وان علي استدعاء طفلاتها ليتكلمن اللغة الانكليزية معي ههنا · وفي تلك الليلة كنت جالسة على المقعد الخفي المصنوع من الفطريات والمواد العضوية اتسمع الى الاصوات القادمة من جوانب المدينة القصية · وثبت ان الضوضاء لم تات من الاماكن القصية وانما من المدرسة الكائنة في وسط المدينة التي لا تبعد عن هذه الحديقة سوى مسافة خمس دقائق قامت عليها ابنية فخمة لا تزيد على العشرة قصور والى مقربة منها شوارع واسعة مضاءة اضاءة نيرة وتعج في مثل ذلك الوقت بالحياة فالعربات تسير فيها متجهة صوب اماكن الحفلات الراقصة او الى دار الاوبرا ·

ان نفس الساعة التي دق فيها ناقوس الغروب لرهبنتنا واطفأ كل قنديل واسدل كل ستارة حيال السرير دق للمدينة المبتهجة داعيا الناس

للتمتع بمسرات الاحتفالات ولم افكر بمثل هذا التناقض ذلك ان ليس في طبيعتي من غرائز المرح والابتهاج سوى القليل فحفلات الرقص والاوبرا لم اشاهدها في حياتي قط وان كنت في الاغلب قد سمعت بها وصفا حتى انني هويت مشاهدتها ولم تكن هذه الهواية هواية واحدة تريد المشاطرة في البهجة بمجرد انها تصل اليها او هواية واحدة تشعر بانها تستطيع ان تتالق في بعض مجالات التألق البعيدة بمجرد وصولها شاقة طريقها الى هناك ولم تكن بي رغبة او شوق للوصول ولا جوع للتذوق انما مجرد رغبة هادئة للتفرج على شيء جديد ٠

كان القمر طالعا في السماء ولم يكن بدرا كاملا وانما هلالا حديث الهل وجدته من بين فراغات الغصون المتمالية فوق رأسي ولم يكن لا هو ولا النجوم المرتبة وراءه بالغرباء عني اسوة بالكل الذي كان غريبا عني بتفاصيله ذلك ان لطفولتي عهدا به وبالنجوم ولطالما عاينت تلك العلامه الذهبية داخل الكرة المظلمة في قوسها المنحني المائل الى الخلف حيث اللازوردي وازرقاق السماء الصافية ٠

ايه ٠٠٠ يا طفولتي ٠٠ ان لدي مشاعر كامنة ٠٠٠ هامدة ٠٠٠ ماحييت٠٠ضئيلة وقليلة لو تكلمت ، باردة لو نظرت ٠ وعندما افكر في ايامي الماضية استطيع ان اشعر بالحاضر انه افضل من ان يكون رواقيا واستطيع ان افكر ٠٠ بمستقبل كمستقبلي ٠٠ انه ميت واستطيع ان اشعر بالجمدة او الاغماء التخشبي والنشوة الميتة واراني اقيد نزوة طبيعتي بالجهد الجهيد في ذلك الوقت اتذكر تمام التذكر ما يستجد من بعض ظواهر الجو فمثلا كنت اخاف مثل هذه الظواهر لانها كانت توقظ الكائن الذي كنت اهدهده دائما وتستثير صراخ المتوسل وهو ما كنت عاجزة عن تلبيته ٠

وفي احدىالليالي هبتعاصفة رعديةوكان اعصار برقورعدومطرحركنا ونحن في افرشتنا ونهض المصلون من نومهم مذعورين وصلوا لقديسهم اما انا فقد استحوذت علي العاصفة استحواذا وطغى علي طغيانها فنهضت بصعوبة انشد الحياة ورتديت ملابسي وزحفت خارج النافذة البابية القريبة من فراشي وجلست على افريزها واسندت قدمي على سقف اوطا بناية مجاورة ٠

كان الجو رطبا وموحشا ومخيفا وكان الظلام دامسا وتجمعت الطالبات داخل المبنى المهجعي واحتقن بالقنديل الليلي ،احتقن به مذعورات ومرعوبات يصلين باصوات عالية ولم استطع الدخول اذ كانت عندي بهجة البقاء مع الساعة الجامحة الهائجة السوداء الملأى بهدير الرعود المجلجلة القاصفة مما لا يمكن مقاومتها ولا يمكن ان تفي وصفها أية لغة وهبت للانسان ٠٠ لقد كان بهاء مخيفا للغاية ٠٠ مشاهدة الغيوم وهي تنشق وتتفتت اربا اربا بصواعق بيضاء عمياء ، وظللت مدة طويلة هكذا اشعر بالالم وبعد ٢٤ ساعة لم ادر من الذي اخرجني من موضعي ذاك وقادني مرة الى فوق ومرة الى امام لاجد نفسي فيما بعد في فراشي ولتملاني حلاوة الليل الندية بالامل •

لقد سمعت في اليوم التالي صوتا يخرج من بين السكون المطبق اركام حجارة الحديقة التي كانت تشرف على الممشى والاشجار والحائط العالي ومن ناحية نافذة بابية ـ علما بأن الشبابيك هناك كانت نوافذ بابية تنفتح على المفاصل ٠٠ لقد سمعت صرير الباب ٠ وقبل ان يتاح لي الوقت للمعاينة لمعرفة من اي مكان صدر الصرير اهتزت شجرة من فوق رأسي كما لو ان قذيفة اصابتها ووقع شيء ما بالقرب من قدمي ٠

وكانت ساعة كنيسة القديس يوحنا المعمدان تدق التاسعة بعدان انجلى النهار ولكن لم يكن الجو مظلما بفضل نور الهلال الضعيف ، بيد ان الحمرة العميقة لتلك النقطة الكائنة في السماء حيث آخر نور الشمس الغاربة وحيث الفسحة البلورية للفراغ الوسيع ادامت شفق الصيف وحتى عندما كنت امشي في الظلام كنت اقوى ـ عند دنوي من فتحة ما ـ ان اقرا طباعة من نمط صغير •

وكان من السهولة بمكان انذاك ان اعاين ان القذيفة كانت صندوقا ٠٠ صندوقا صغيرا من العاج الابيض الملون وقد انفتح غطاؤه الراخي بيدي ووجدت في داخله الوانا بنفسجية تغطيها تغطية كثيفة قطعة مطوية طيا جيدا من الورق القرنفلي اللون ومذكرة وعنوان الفستان الرمادي وكنت انا بالفعل ارتدي فستانا فرنسيا رمادي اللون ٠

حسنا ٠٠٠ هل هذه رسالة غرامية ؟ هل هو شيء سمعت به والى الآن لم انل شرف رؤيته واستعماله ؟ هل هو هذا النوع من البضاعة التي

امسك بها الآن ما بين اصبعي وابهامي ؟ قلما حلمت به ولو للحظة واحدة؟ هل هي ملتمسة شاكية ام معجبة ؟٠ انافكاري وظنوني لم تصل الى حقيقة الامر ٠ كل المعلمات يحلمن بعاشق او محب ولكنها كانت طبعا من نوع الساذجات اللواتي سرعان ما يصدقن ويؤمن بازواج لهن في المستقبل ٠ المستقبل ٠

وكل من الطالبات بسن تزيد على الاربعة عشر عاما يعرفن ان للواحدة منهن عريسا مستقبليا مأمولا به وهناك ثلاث طالبات كأن والدا كل منهن قد اعتبرها مخطوبة منذ صغرها لعروسها الصغير ولكن فيما يخص عالم المشاعر والامال التي تفتحها مثل هذه الاحتمالات والنظرات العامة فليس لظنوني وتأملات وافتراضاتي ما يبرر لها التطفل ٠

واذا حدث لبعض المعلمات الآخريات ان ذهبن الى المدينة او تنزهن في الجادة التي تكتنفها الاشجار من الجهتين او حضرن قداسا فمن المؤكد انهن يلتقين ببعض افراد الجنس الآخر ويطمنهن ذكاؤهن ونظراتهن بان لديهن قوة الضرب وبان لديهن جاذبياتهن ولا اقول ان تجاربي انطبقت مع تجاربهن في هذا الصدد او ضارعتهافقد سبق لي ان ذهبت الى الكنيسة وتنزهت كثيرا في مناطق النزهة وانا جد موقنة ان لا احد اهتم بي او مال الي ٠

ولا توجد فتاة او امرأة في كل شارع (فوسيت) لم تدع يوما انها حدجت بنظرة اعجاب شعاعية من عيني طبيبنا الشاب في هذه المرة او تلك وبكل تواضع اراني مضطرة لان استثني نفسي من بينهن ٠ وبقدر ما يتعلق الامر بي كانت عينا الدكتور جون بريئتين وساكنتين سكون السماء الزرقاء ٠

وحدث انني سمعت الآخرين يتكلمون واندهشت من بهائهن واطمئنانهن ورضاهن الذاتي ولم احتمل مؤونة النظر الى الطريق الذي يسلكنه دون غيره ٠٠ اذن لم تكن هذه هي الرسالة الغرامية بل كانت على العكس مما كنت اظن حين فتحتها بهدوء واليكم ترجمتي لها من الفرنسية الى الانكليزية : وهذا عنوانها :

ملكة احلامي ٠٠

اهدي اليك الوف والوف التشكرات لعهدنا الذي حفظتيه ووعدنا

الذي وفيت به حيث بالكاد صدقت بأنه يتحقـق · اعتقـــد انك ـ في الحقيقة ـ في موضع التندر ثم يبدو انك تظنين ان هذا العمل تحف به الاخطار وان الظرف غير مناسب والمشى منعزل تماما ، وغالبا ما قلت ان ذلك التنين الطبيب الانكليزي يلازمك ويتردد عليك (وليعذرني القارىء في اعتدالي في ترجمة هذه الرسالة وحجبي لبعض ما جاء فيها من لغتها الاصليـة) ·

وجاء في هذه الرسالة الثمينة المتدفقة بالعواطف « انت تدرين ان الصغير غوستاف نقل الى غرفة المدرس بسبب مرضه ،تلك الغرفة المفضلة التي تشرف نافذتها الشبكية على مكانكم الشبيه بالسجن وانا عمه افضل الاعمام في العالم سمح لي بزيارته · لقـد كنت ارتعش ايما ارتعاش وانا ادنو من الشباك وانظر منه الى جنة عدنك ·· جنة عدن لي وصحراء قاحلة بالنسبة لك ولكم خشيت ان الاحظ مكان التنين الفارغة او الاحظه هو بالذات ·

لقد كان قلبي ينبض بالفرح عندما لمحتك من خلال فتحات الغصون التي كنت احسدها لانها اقرب اليك مني · لقد لمحتك في الحال ولمحت ومضات قبعتك القشية الجميلة وتموجات ورفرفة فستانك الرمادي وهو الفستان الذي اميزه من بين الوف الفساتين · بالله عليك يا ملاكي لماذا لم تنظري فوقك وقسوت في انكارك علي شعاعة من اشعة تينك العينين الفاتنتين الجديرتين بالعبادة · ان نظرة واحدة كانت كافية لتنعش روحي انني اكتب اليك هذا في عجالة محمومة في وقت يفحص الطبيب غوستاف الصغير وانتهزت الفرصة فاودعت هذه الرسالة في علبة الجواهر الصغيرة مع باقة من احلى الاوراد المتفتحة وان كانت دونك حـــلاوة يا حوريتي يا ·· كل سحري ·· »

المخلص لك الذي تعرفينه معرفة جيدة

وكان تعليقي على هــذه الرسالة « وددت لو انني عرفته » وهـــذه الرغبة في معرفته تشير اشارة الى الشخص المخاطب في هـــذه الوثيقة المختارة اكثر من الشخص الكاتب ذاته وربمـــا كانت من خطيب احـــدى الطالبات المخطوبات وفي هذه الحالة لا يوجد اي ضير أو أي اذى مرتكب

او مقصود اذا استثنينا بعض ما جاء فيها من شذوذيات · ان لعدة فتيات اخوة واولاد اعمام في الكلية المجاورة ولكن ذكر القبعة القشية والفستان الرمادي هو دليل محير جدا ذلك ان القبعة القشية متداولة بين التلميذات تقي رؤوس الفتيات وتشمل العشرات منهن ومن بينهن انا نفسي اما الفستان الرمادي فمن الصعب ان يقدم دليلا اكبر من دليل القبعة والمدام بيك ذاتها ترتدي فستانا رماديا في هذه الساعة بالذات وهناك مدرسة اخرى وثلاث من الطالبات في المدرسة الداخلية يرتدين الفساتين الرمادية بنفس درجة اللون ومن نفس النسيج القماشي الذي ارتديه انا نفسي فهو من نوع اللبس اليومي الرائج كموضة ذلك الوقت ·

وعندما اخذت اتامل ادركت ان علي ان ادخل لان الاضواء المتحركة داخل المهجع بينت بان الصلوات انتهت وان التلميذات آوين الى فراشهن وبعد ان انصرمت نصف ساعة اخرى اغلقت جميع الابواب وانطفأت كل الاضواء وبقي باب الغرفة الامامي مفتوحا لكي تدخل الى البيت الساخن برودة ليلة الصيف·ومن كابينة البوابة القريبة شع ضوء المصباح مظهرا المجاز الطويل الذي فيه بابان لغرفـــة الاستقبال بمصراعيهما في احدى جانبيه وباب الشارع الكبير الذي يغلق المجاز الضيق المقابل للطريق ·

ورن الجرس توا رنينا سريعا ولكن لا عاليـــا ، رن رنينا حـذرا وسمع نوع من همس المعدن المنذر فوثبت (روزين) وثبة سريعة مفاجئة وخرجت من كابينتها سراعا لتفتح الباب وقد وقف معهـــا الرجل الذي سمحت له بالدخول مدى دقيقتين ليحدثها وبدا ان هنالكمعارضة وتأخيرا وكانت (روزين) قد ذهبت وبيدها المصباح الى باب الحديقة ووقفت على الدرج رافعة مصباحها لتتأكد مما هــو حولهـا وصاحت بضحكة مغناجة « ما هذا ؟ لا يوجد احد ؟ يالها من فضيحة ! » وسمعت صوتا متوسـلا اعرفه حق المعرفة قائلا لها « دعيني امر مدى خمس دقائق فقط ·· »·

وبان في الدار بعد ذلك شبح مالوف طـويل القامـة ممتليء الجسم نعرفه نحن قاطني شارع (فوسيت) واخذ يمشي بخطوات سريعـــة بين الافرشة والممرات ومن الطبيعي ان الذي فعله انتهاك لحرمـة البيوت · رجل يتسلل الى ذلك المكان في تلك الساعة غير أنه كـان يعرف ان لـديه امتيازا وان الليل الصدوق يأتمنه واخذ يتلوى ويتمعج بـين المجازات

والماشي موزعا نظراته الى هذا الجانب وذاك بحيث تاه بين الشجيرات واخذ يدوس على الاوراد ويكسر الاغصان بحثا عما يريده ودخل في آخر الامر « الممشى المحرم » ٠

وهناك التقيته كشبح من الاشباح وقلت له « لقد عثرنا عليه يا دكتور » ولم يسال عن الذي عثر عليه لانه ادرك بعينه الفاحصة بسرعة انه كان في يدي وقال لي وهو ينظر الي كما لو انني في الحقيقة وحش مخيف « لا تفشي سرها وتخونيها » وقلت له « هل في سيمائي شكل خيانة ؟ » ٠٠ ثم انني لا استطيع ان اخون من لا علم لي به ٠ اقرآ الملاحظة وسترى ان الذي تريد الكشف عنه غامض » ٠

وقال لي « ربما قراتيها » وقلت لنفسي وأنا لا ازال غير مصدقة بانه هو الذي كتبها اذ ليس هذا اسلوبه ثم انني كنت حمقاء حين تصورت ان هنالك نوعا من الصعوبة في تسميتي بتلك الاسماء ٠ لقد لاحظت ان نظراته كانت تبرئه وزاد انفعاله كلما كان يقرا وندت عن شفتيه الكلمات التالية « هذا اكثر مما يمكن احتماله ٠ انه ينم عن القسوة والاذلال » وفي رايي – بعد ان نظرت الى محياه والانفعال الذي يسري عليه – ان ذلك كان قسوة عليه فعلا سواء كان هو الملوم ام لا ويبدو ان هنالك شخصا اخر هو الذي ينبغي ان تقع اللائمة عليه ٠

وسألني « ما الذي ستفعلينه بهذا ؟ هل ستعلمين المدام بيك بما وجدتيه وتسببين فتنة وفضيحة وتعكرين صفو الجو ؟ ٠٠ » وفي رأيي ان علي ان اخبر عن ذلك مضيفة بأن في اعتقادي ان لا فتنة او فضيحة ستنجم عن ذلك لاسيما وان المدام اكثر حكمة وفطنة من ان تثير ضجة حول قضية كهذه تتعلق بمؤسستها التعليمية ذاتها ٠

وظل يخفض بصره وينظر الى الارض مفكرا ٠٠ لقد كان اكثر خيلاء واكثر جدارة بالاحترام من ان يستعطفني في موضوع يتطلب واجبي ان اخبر عنه واردت ان اقوم بالعمل الصحيح دون ان اغمه او اؤذيه وفي ذلك الوقت تماما اخذت (روزين) تنظر من الباب المفتوح دون ان ترانا اما انا فكنت اراها بوضوح من بين الاشجار ٠٠ ارى ماكانت ترتديه من فستان رمادي كفستاني ٠

وهذا الظرف لو اخذته مع مجموع الاعمال والاحداث الاخرى السابقة لتراءى لي انه مهما كانت القضية مدعاة للاسف ومثيرة للشجن فانها قضية ليس لي اي التزام مهما كان لاشغل نفسي بها ولهذا قلت للدكتور جون ٠٠ « اذا استطعت تطميني بأن لا تلميذة من تلميذات المدام بيك متورطة في هذه القضية اكون سعيدة جدا في ان ابقى بعيدة عن كل تدخل فيها فخذ علبة الجواهر هذه مع باقة الورد والرسالة الغرامية ، اما انا فقد نسيت القضية كلها تماما » ٠

وقال همسا ويده ممسكة بالذي سلمته له ويومىء باصبعه من بين الاشجار ٠٠ « انظري الى تلك الجهة » ونظرت ووجدت المدام في شالها وفي ملابسها الملتفة على جسمها وفي خفيها وهي تنزل الدرجات بهوادة وتتسلل وتختلس النظر كالقطة حول الحديقة وفي دقيقتين كادت تصل الى المكان الذي كان فيه الدكتور جون واقفا الى جانبي ٠ واذا كانت المدام كالقطة فانه كان كالفهد في خفة الحركة متى شاء ٠

وكان يراقبها وعند تحولها الى زاوية قطع الحديقة بقفزتين لاصوت فيهما وبعد ظهورها مرة اخرى كان قد غاب عن البصر واعانته روزين في جعل الباب حاجزا في الحال بينه وبين من تهم باصطياده وكان بوسعي ان اختفي ولكنني فضلت ملاقاة المدام ملاقاة صريحة٠ومع انني غالبا ماكنت معتادة على تمضية وقت غروب الشمس في الحديقة الا انني حتى ذلك الوقت لم اتأخر كثيرا ٠

وبعد ان تأكدت ان المدام قد اخطأته جاءت تفتش عني عازمة على الانقضاض على المهمل لواجبه على حين غرة وتوقعت منها ان تلومني ولكن لا ٠٠ لم تفعل ذلك لانها كانت ملأى بالطيبة ولم يبد منها اي اعتراض او اي استغراب وبيراعتها تلك التي لا اعتقد بأن هنالك من يبذها فيها ظهر منها ان لديها ذوقا شعريا فقد هتفت وهي تنظر الى النجوم بعد ان اختفى القمر وراء البرج العريض لكنيسة يوحنا المعمدان ٠٠ ما اجمل هذه الليلة ٠٠ وما اروعها وما ارق نسيمها ٠٠ » ٠

وبدلا من ان تطلب مني الانصراف الى غرفتي اخذتني معها في بعض دورات وانعطافات داخل المشى الرئيس الذي تحيط به الاشجار من الجانبين وعند دخولنا اتكأت بدماثة وبعذوبة المعاشرة على كتفي لتقوى

بذلك على صعود الدرجات وعند دنو لحظة الافتراق قربت خدها من شفتي وقالت لي بعطف « ليلتك سعيدة وارجو لك نوما هـــادئا » ووجدتني ابتسم وانا في فراشي مستيقظة ابتسم لحماستها واستمتاعها ودماثة خلقها بالنسبة للشخص الذي تعرفه وهي علامة اكيدة بأن ريبة ما او شكا مـــا يختمر بنشاط في دماغها فمن فتحة الملاحظات او ذروتها ومن فجوة غصن شجرة او نافذة مفتوحة كانت تلاحظ دون ريب من نظرة بعيدة او قريبة مضللة او مرشدة كل ما يدور من اعمال في اعماق الليل ·

ولما كانت خبيرة في فن المراقبة كـــان امرا شبه مستحيل ان ترمي عليبة جواهر في حديقتها او ان يقوم متطفل بالسير في ممشاها ليجدهـــا دون ان تدرك ـ من جراء غصن متحرك او ظل سار او وقع اقدام غـــير اعتيادي وغير مألوف او هفيـــف الريح الهادىء علما بأن الدكتور جـــون وان تكلم معي بصوت واطيء فان همهمـــة صـــوته عمت ارض المؤسسة الرهبانية كلها فقد ادركت المدام او انها شكت باحـــداث جنسية جرت بشكل استثنائي في ارض مؤسستها اما كيف جرت تلك الاشياء فانها لم تشاهدها بأم عينيها ولم تقو في ذلك الوقت على اكتشافها ولكنها كانت تعتقد بوجود خيوط مؤامرة ملتاثة كانت تتوق الى حل عقدتها ·

الفصـل الثـالث عشـر

ـ عطسـة مشـؤومة في غـير مكانهـا ـ

بعد مرور ٢٤ ساعة على المشهد الصغير الذي مر ذكره في الفصل الماضي كنت احيانا ابتسم ـ ولا اضحك ـ عند ذكراي للمدام ، ان بلدة (فيليت) يسودها مناخ متبدل غير رطب ككل بلدة انكليزية وقد اعقب غروب الشمس الرائق ريح ليلية عالية الهبوب واضحى اليوم التالي كله وسط زوبعة جافة مظلمة غامت بها السماء دون ان تمطر وامتلأت الشوارع بالرمل والتراب واندفعت دوامتها سريعـا من الشوارع العريضة التي تكتنفها الاشجار ٠

ولا ادري كيف ان الجو المحبب لدي اغراني نفسـه بامضاء تلك الامسية المخصصة للدراسة والاستجمام بنفس الاماكن التي امضيت بهـا وقتي يوم امس وهي الممشى والمجاز الضيق المشجر وايك الحديثة التـي استثارت في اهتماما جديدا سارا وبهيجا ٠ ان عزلتها اضحت لدي الآن قيمة وثمينة وهدوئها غير مستقر وغير آمن ٠ ان تلك النافذة البابية التي امطرت رسائل غرامية وحلى افسدت المكان المنعزل الـذي كان ذات مرة عزيزا على القلب ٠

وفي مكان آخر اخذت عيـون الاوراد ترى ما ترى واخذت عجـر النباتات وعقدها وسيقان الاشجار تصغي وتنصت بآذان التجسس وهناك بعض النباتات التي كان الدكتور جون قد داسها بقدميـه دون ان يدري حين كان يقوم بحملة تفتيش وبتقدم سريع يتسم بقلة الاكتراث وعندما ما اردت تقويمها وسقيها وانعاشها بعد الذي اصابها من دوس قدميه الذي وجد له اثرا ايضا في مسكبة المزهر وهذه رغم الريح الهابة بقوة كنـت اجد لحظة فراغ لازيل عنها آثار الاقدام في الصباح المبكر جدا قبل ان تكتشف امري عيون الرقيبات ٠ وبنوع حزين من القناعة جلست على مرحلتي في حين جلست التلميذات لمراجعة دروسهن المسائية اما المدرسات الاخريات فقد تناولن اعمالهن الخياطية التطريزية (شغل الابرة) ٠

لقد كان مشهد الدراسة المسائية استذكاريا او مراجعة في شقة بنائية اصغر من اي صف من صنوف الدراسة الثلاثة بكثير حيث لا يسمح قط بدخول هذا المكان الا للتلميذات الداخليات وعددهن عشرون فقط وهناك مصباحان مدليان من السقف الذي وضعت تحته منضدتان وهذان المصباحان لا ينيران الا عند الغسق وانارتهما اشارة تعني وجوب وضع الكتب المدرسية جانبا وابداء التصرف المهيب واحلال الصمت العام محل كل شيء وبعدها المباشرة بالقراءات ذات المسحة الدينية المستهدفة تعذيب الجسد والفكر تعذيبا كليا واذلال الرشد اذلالا مفيدا ومثل هذه الجرعة مخصصة للفطرة السليمة والبديهة التي تقوى كل تلميذة على هضمها في وقت فراغها ثم الازدهار والتنامي بالقوة التي تقتدرعليها بشكل افضل.

والكتاب المقرر في هذا الخصوص لا يتبدل وعند الانتهاءمنه يراجع مرة اخرى . لقد كان كتابا جليلا مهيبا قديما كالتلال ورماديا كبهو البلدة ورواقها . كان يحوي اقاصيص القديسين الاسطورية واقاصيص اضطهادات روما لهم . وعند انتهاء الدراسة جاءت روزين لانارةالمصابيح فانطلقت خارج الغرفة بسرعة ثم تباطأت في مشيتي منتهزة تلك الفرصة المؤاتية بعد انقطاع الضجة وسيادة السكون وخروج الطالبات من الصف بعدان حفظن كتبهن تلك .

وعندما تواريت ، دخلت وسط الظلماء اذ لم يكن من الجائز آنذاك اشعال الشموع اما المدرسة التي انهت التدريس الاستذكاري فلم يرق لها الا القاعة المظلمة والصف والفراش كملجأ لها . وفي الشتاء كنت اقصد الصفوف الطويلة وامشي بسرعة فيها ذهابا وايابا لادفيء نفسي وكنت محظوظة في حالة سطوع القمر وظهور النجوم فقط علما بأنها ما ان تظهر حتى تعود الى ايماضاتها الخافتة او تخبو اضواؤها كليا . وفي فصل الصيف لم يكن الجو مظلما تماما وكنت اصعد الى الطابق الاعلى الى مكان مهجعي الطويل وافتح النافذة البابية وكانت تلك الغرفة تضيئها خمس نوافذ بابية كل منها بحجم الباب الكبير واملت رأسي شاخصة ببصري صوب المدينة الكائنة وراء الحديقة واصغيت الى موسيقى الفرقة من المتنزه او ساحة القصر متاملة تاملاتي الخاصة وعائشة عيشتي الخاصة في عالمي الظلي الخاص الهاديء .

وفي تلك الامسية صعدت السلم ودنوت من المهجع وفتحت بهدوء الباب المبقى موصدا دائما وهو ككل الابواب الاخرى في الدار يدور بلا ضجيج او صوت على مفاصله المدهونة دهنا جيدا وقبل ان انظر شعرت بأن الحياة كانت في الغرفة الكبرى الفارغة على الاكثر المجردة من اية حركة او نفس او نامة • ولم تكن العزلة في الدار وانما كانت هنالك مجموعة من افرشة (الملائكة) البيضاء بلغة الشعر تبدو للعيان جمعاء لدى اول نظرة • وكل الافرشة كانت فارغة فما من نائمة من النومات على اية منها •

وسمعت صوت ساحبة او جارورة تفتح بحذر ويصل الى اذني صوت انفتاحها الضعيف قليلا صوب احد الجانبين ووقع ناظري على مجال فارغ لا تعيقه الستائر المسدلة والآن كنت قد توليت فراشي الخاص والى جانبه مزينتي الخاصة وعليها علبة مواد الشغل المغلقة وتحتها الجارورات المسدودة • وعاينت حيال هذه المزينة جسما نسويا بدينا وقصيرا واموميا بشالها المحتشم وقلنسوتها الليلية النظيفة للغاية وهي منهمكة في العمل ويبدو عليها أنها تقوم لي بخدمة لطيفة هي ترتيب قطعة الاثاث وراحت تفتح غطاء علبة الشغل والجاورة الفوقانية ثم اعقبها فتح الجارورات الآخريات الواحدة بعد الاخرى ولم تترك شيئا من محتوياتها الا ورفعته وحلته لترى كل ما في داخله فما من ورقة الا وجدت ما فيها من كتابة وما من صندوق صغير الا وفتحته •

وما اجمل مابدا منها من دهاء وبراعة وعناية عند قيامها بالتفتيشات تلك وكان عملها فيها كالنجمة الحقيقية التي « لا تسرع ولا ترتاح »ولا انكر انني راقبتها ببهجة خفية ولو كنت رجلا لعاينت المدام نور العطف والاستحسان في عيني فقد كانت نظيفة ومرتبة وبارعة فيكل الذي قامت به فبعض الناس دأبوا في حركاتهم على استثارة الروح في سماجاتهم وحماقاتهم الطليقة من القيود اما حركاتها هي فقد كانت مريحة في تواليفها وتركيباتها الحسنة •

ووقفت في سروالي النومي التحتاني القصير مفتونة وكان من الضروري واللزام علي ان اسعى وابذل مجهودا لازالة هذا السحر وكان ينبغي تحاشي التقهقر اذ يمكن للمفتشة ان تلتفت الى الخلف وتمسك بي

ونصطدم انا وهي توا وتنقشع الاقنعة عن الاوجــــه وتنظر العينان في العينين ونكف عن التعاون سوية كما هوشأننا الآن ونفترق في هذه الحياة الى الابد وما جدوى ركوب المخاطر ؟؟ انا ما كنت غضبى عليها ولم تكن بي اي رغبة في تركها اذ آن من الصعبجدا ايجاد صاحبة عمل اخرى يكون نيرها اخف حملا في رقبتي من نيرها هي ٠

وفي الحقيقة انني كنت اهوى المدام لرشدهـــا وعقلانيتها واينما احول نظري الى مركزها الاداري او نظامها المدرسي اجد ان لا ضرر منها وربما شغلتني معها الى الحد الذي ارضاها بالاكتفاء ولا شيء في ذلــك ما دمت سالمة من التجسس سلامة الشحاذ من اللصوص وعــــدت وفررت نازلة من السلالم بسرعة لا صوت فيها كسرعة العنكبوت في بيته ثماتجهت عن طريق عمود الدرابزين ٠

وكم ضحكت عندما وصلت غرفة المدرسة وادركت الآنبالتأكيد انها التقت بالدكتور جونفي الحديقةوادركت ما كان يدور فيخلدها وداعبت مشاعري ودغدغتها بوخزة خفيفة معرفتي بالطبيعة المريبة التي ضللتها مبادراتها الخاصة وعندما انقطع ضحكي باغتني هجوم من مشاعر الحنق اعقبته مرارة في حلقي ولم يسبق لي ان انتابني اضطراب نفسي بمثــل تلك الغرابة وذلك التناقض واحسست برغبــة شــديدة في البكاء طوال ساعة تلك الامسية كما انتابت قلبي نوبات متباينــــة ومتناقضة من الم وضحك وحسرة وانهمرت من عيني الدموع الساخنة لا لان المدام اساءت الثقة بي بل لاسباب اخــــرى اذ انني لا ابالي قلامة ظفر بسوء ثقتها بي وفلت رباطة جاشي وسكينة سريرتي افكار مقلقــة ومتناقضــة وبعد ان زايلتني الاضطرابات في اليوم التالي عدت كما كنت ٠٠ لوسي سناو ٠

وعند زيارتي لجارورتي وجدتها موصدة كلهـــا أتم الايصاد وأدق تفتيش ما كان ليفضي الى اكتشاف تبدل او اي تشويش في اماكن الاشياء فملابسي اعادت طيها كما تركتها ووجدت رزمة الهدايا البنفسجية التي اهداها لي برفق احد الغرباء الذي لم ابادله حتى كلمة واحدة كما كانت مكوية ومعطرة ومحفوظة بين افضــل ملابسي دون ان تجعـــد او تغضن كوشاحي الحريري وقميصي المخرم واطواقي ولو انها غضنت او جعدتاي شيء منها لوجدت منتهى الصعوبة في ان اسامحها ولكنني لما وجدت ان كل

شيء محفوظ بشكل جيد ، قلت لنفسي « عفا الله عما سلف » فانا لم اصب بأذى فعلام احمل لها الحقد والضغينة ؟

ولكن هناك شيء حيرني تماما رحت افتش في ذهني عن مفتاح لحل هذا اللغز بشكل مثابر كمثابرة المدام حين راحت تنشد دليلا يهديها الى ما تريد التوصل اليه عندما فتشت جوارير مائدة تبرجي او تزييني ولو لم يكن الدكتور جون عنصرا مساعدالرمي عليبة الجواهر تلك فيالحديقة فكيف تسنى له ان يعرف انها ملقية في الحديقة وظهر بتلك السرعة في المكان التي رميت فيه ليفتش عنها ؟ وكانت رغبة الاهتداء الى حقيقة هذه النقطة من القوة في ذهني بحيث رحت افكر في امر الفكر الجريء التالي ·· « لماذا اراني لا انتهز الفرصة التي قد تسنح لي لاسأل الدكتور جون عن توضيح هذه المصادفة ؟ »

وما دام الدكتور غائبا لازمني الاعتقاد حقا بان لدي من الجراة ما استطيع ان اختبره في هذا الموضوع · وكانت الطفلة جورجيت في دور النقاهة تتماثل آنذاك للشفاء ولذلك ندرت زيارات طبيبها وفي الحقيقة كان يريد الكف عن زياراته تماما لولا ان المدام اصرت على ان تستبقيه تحت الاستدعاء الى ان تبل الطفلة من مرضها ·

لقد جاءت الى غرفة نوم الطفلة في احدى الامسيات بعد ان كنت اصغي الى كلمات صلاتها المشوبة باللثغة والتكسر الطفولي ووضعتها في فراشها وعندما امسكت باحدى يديها الصغيرتين قالت لي « ان الطفلة لا تزال عليلة نوعا ما » وبعد ذلك استطردت قائلة لي وهي ترمقني بنظرة هي اسرع من نظرات عينيها الاعتياديتين « الم يعاينها الدكتور جون مؤخرا ؟ لم يعاينها اليس كذلك ؟ » ·

وبالطبع كانت هي ادرى بما في الدار من اي شخص آخر واضافت تقول « انا خارجة لاركب عربة الاجرة لقضاء مهمة قصيرة ازور فيها الدكتور جون لاعلمه عن الطفلة وبودي لو عاينها في هذه الامسية لان خديها حمراوان من الحمى ونبضها سريع فاستقبليه انت لانني سأكون خارج الدار » وظهر ان الطفلة قد تحسنت صحتها وان سخونة خديها ناجمة عن سخونة شهر تموز ومثلما انها لم تكن قط بحاجة الى استدعاء

قسيس لمسحها بالزيت فانها لم تكن بحاجـة الى استدعاء طبيب قط ثم ان المدام لا تعطيها وصفة دواء في المساء الا فيما ندر وتلك كانت اول مرة فضلت فيها ان تبتعد عن الدار بعد مجيء الدكتور جون للمعالجة ٠

وفي رأيي ان الامر كله كان يشير الى وجود خطة وهذا ما اكتشفته دون ابداء ادنى قلق وضحكت ضحكة جذلى قائلة لها « يا مدام ان مواهبك البارعة على طريق خاطيء » وابتعدت عني بعد ان ارتدت افخـر ملابسها والتفت بشالها الغالي الثمن وقبعتها الربيعية الخضراء وعجبت لما قـد نوي فعله ٠٠ هل هي ذاهبة حقا لترى الدكتور جون ام لا وهـل تراه سياتي ؟ ربما يكون مشغولا ٠

واوصتني المدام الا اترك جورجيت تنام حتى يأتي الطبيب ولذلك كان لدي الوقت الكافي لاروي لها قصص دور الحضانة للعناية بالاطفال واقوم لغتها البسيطة من اجل فائدتها والحقيقة انني اخـذت اميل الى جورجيت فقد كانت طفلة حساسة وكـان احتضاني اياها او وضعها في حضني او حملها بين ذراعي من الامور الممتعـة لي وطلبت مني في ذلك اليوم ان اضع رأسي على مخدة سرير نومها حتى انها لفت عنقي بذراعيها الصغيرتين ٠ ان معانقتها لي وحركتها الطفولية عندما وضعت خدها بقوة على خدي جعلاني اصرخ بألم عـذب ولانني كنت لا اشعر بشفقة من اية جهة حوالي في تلك الدار فقد وجدت في تلك القطرة الصغيرة النقية مـن ذلك الينبوع الصغير النقي احساسا لذيذا جدا يخترق اعمق اعماق قلبي ويبعث بلمعان دفقه الى عيني ٠

ومرت نصف ساعة او ساعة وتمتمت جورجيت بكلمات فيها لثغـة فهمت منها آنها وسنى تريد ان تنام وكنت انا ايضـا ناعسة علي انانام خلال عشر دقائق رغم وصية الام ورغم وجود الدواء للطفلة خلال عشـر دقائق فقط ان لم تأت الوالدة او لـم يات الطبيب ٠ واصغت بسمعي الى قرعة جرس الباب ثم صوت الخطوات التي خلفت وراءها درجـات السلم بشكل يدعو الى العجب ٠

واذا بروزين تقدم الطبيب جون بشاكلة حرة لنا ولم يكن هذا من مهماتها او ميزاتها الشخصية وانما هي خاصية امتازت بهـا (فيليت) عموما وبقيت لتصغي الى ما يقوله الطبيب ولو كانت المدام موجودة لعادت

توا الى حجرتها في الدهليز اما بالنسبة لوجودي انا وغيري من المعلمات او التلميذات فانهـا لم تكترث قيد انملة وظلت واقفة برشاقة واناقة وحيوية وقد وضعت احدى يديها في جيب مئزرها الـذي ترتديه عادة العاملات الفرنسيات والاخرى في الجيب الآخر منه وهي ترمق الدكتـور بعين غير هيابة ولا خجلة كما لو انه لم يكن رجـلا حيا بل مجرد صورة من الصور .

وقالت وهي تومىء الى جورجيت وتدغدغ ذقنها الصغير دغدغة قوية « هل بقي اثر من مرض هذه القردة ؟ » واجابها الطبيب وهو يكتب بقلمه الرصاص وبسرعة وصفة طبية لا ضير من تناولها « لم يبق الكثير » وقالت روزين وهي تقترب منه اكثر « هذا حسن » .. والصندوق هـل عثرت عليه ؟ » فاجابها « نعم وجـدته .. » وواصلت روزين سؤالهـا بحرية وبكلمات كنت انا التي اروم توجيهها اليه لولا قلة حيلتي وقلة شجاعتي وما اقدر بعض الناس على اختصار الطريق للوصول الى ما يريدونه بينما الآخرون يرون ان دون الوصول اليه خرط القتاد .

واجابها الدكتور جون قائلا باختصار وبلا اية غطرسة وقد بدا عليه انه يفهم روزين ويفهم سلوك العاملة الفرنسية « ربما كـان سرا خاصا بي » وقالت له دون ان تظهر عليها امارة الخجل « لا يهم ان السيدالطبيب يعرف ان الصندوق قد القي به منذ ان جاء يتحرى عليه فكيف عرف ذلك؟ فابها « كنت اريد الذهاب لفحص مريض صغير في المعهد المجاور ووجدته مرميا في مكان قريب من نافذة غرفته ولذلك رحت والتقطته » .

ما ابسط ذلك التوضيح .. فقد اشارت الملاحظـة الى طبيب كـان يفحص غوستاف وتابعت روزين الاجابة قائلة له « اذن لا يوجد شيءوراء هذا الامر أفلا سر ولا شان من شؤون الحب مثـلا ؟ » واجابها الدكتور « لا اكثر مما هو موجود في يدي » ثم ابرز لها راحة يده وقالت له روزين « يا للاسف .. كلهذا ويقدم الآراء والاستنتاجات »وكانجواب الدكتور المقتضب « في الحقيقة انك تحملت كل هذا للاشيء وللا سبب » .

ومطت روزين شفتيها استياء وضحك الطبيب من تلك الهيئة التي طافت على وجهها وفمها وعندما ضحك بدت في عينيه امارات المحيا الطلق

ثم دس يده في جيبه وسألها« كممرة فتحت الباب لي خلال الشهر الماضي؟»
واجابته روزين بسرعة « يبدو ان الدكتور قد عدها » وقال لها « ما كان
بوسعي ان افعل افضل مما فعلت انذاك » ٠

ولكنني وجدته وقد أعطى لها قطعة من الذهب اخذتها منه وهـــي
تتفحصها وتدقق النظر فيها ثم راحت تثب بسرعة عندما اخذ جرس الباب
يقرع مــرة كل خمس دقائق وهرعت الخادمات لتفتيش الغرف ٠ ان على
القارىء او القارئة او يظن الظنون القاسية بروزين فعلى وجه التعميم لم
تكن بالفتاة الرديئة ولم تكن تعتقد ان هنالك امرا اذا او متسما بالعــار
في تناول ما تصل اليه يداها او اية وقاحة في ان تزقزق كالعصفور امام
افضل رجل (جنتلمان) في العالم المسيحي ٠

لقد تعلمت شيئا من المشهد الذي وصفناه آنفا علاوة على ماهو ذو
صلة بالصندوق العاجي فاللوم لانسحاق فؤاد الدكتور لا يقــع على ذات
الرداء الارجواني او الرمادي ولا عــلى المئزر المهــدب الجيبين فمــن هي
الجانية اذن ؟٠٠ ولماذا ولاي سبب ؟ وماهو التوضيح الصحيح لذلك كله ؟
ان بعض النقاط قــد اتضحت ولكن كم من النقاط الاخــرى بقيت غامضة
ومعتمة عتمة الليل ؟٠٠

وقلت لنفسي « على كل حال ليس هذا الامر مما يخصك ؟ وعنــدما
اشحت بوجهي عن الوجه الذي كنت ارنو اليـــه ـ دون وعي مني ـ رنوا
استفهاميا ووجهته الى جانب الشباك رحت اتفــرج على مـــا يشرف على
الحديقة وكان الدكتور جون في ذلك الوقت ينزع ببطء قفازيه وينظــر
الى الطفلة المريضة وهي تغمض عينيها وقــد انفتحت شفتاهــا الورديتان
استقبالا للموسم القادم ٠

وانتظرت حتى يغادر الطبيب وينحني برأسه انحناءة سريعة ويتلفظ
بعبارة « ليلة سعيدة » وبينما كان يتناول قبعته كانت عيناي مثبتتين على
المنازل الطويلة الابنية المحيطة بالحديقة ثم استقرت على النافذة المشبكــة
الوحيدة وهي مفتوحة فتحا احتراسيا وبانت من فتحتها يد تلوح بمنديل
ابيض ، ولا ادري ما اذا كانت الاشارة قد تلقت الجواب من ناحية اخرى

غير مرئية من بنايتنا ٠ وفي الحال سقط من النافـذة الشبكية شيء ما ابيض اللون وخفيف الوزن يحمل شيئا ما بطبيعة الحال ٠

وناديت الدكتور جون لا اراديا وقلت له ٠٠ « انظر الى هناك ؟ » وسالني بلهجة قوية وهو يسرع الى الشباك « اين ؟ وما هو هذا الشيء ؟» وكان جوابي له «عملوها مرة اخرى ٠٠فهناك منديل ملوح وشيء يسقط » واومات الى النافذة الشبكية التي اغلقت الآن وبدت كما لو انها خالية لا احد من ورائها وقال لي بلهجة سريعة « اذهبي في الحـال والتقطيه وأت لي به فلا احد سيراك اما انا فقد يشاهدونني » ٠

ويممت نحو الذي سقط وبعد بحث قصير الامد وجدت ورقة مطوية ساقطة على اوطأ غصن الشجيرة واخذته مباشرة للدكتور جـون وفي هـذه المرة لا اظن ان روزين ذاتها قد شاهدتني وما ان سلمتها لـه حتى مزق الورقة اربا اربا دون قراءتها وقال لي الدكتور جون وهـو ينظر الي « اعلمي انها ليست غلطتها قط ٠٠ وسألته اي خطأ ؟ ومن هو هـذا ؟؟ » وقال لي « الا تعرفين حتى الآن اذن ؟ » ٠٠ فقلت له « كلا ٠٠ ابدا ٠٠ » وقال لي « الا تستطيعين التكهن ؟ »فقلت له « لا استطيع ٠٠ » ٠

وقال لي « لو كنت اعرفك بشكل احسن لكنت جازفت بايلائك ثقتي بنوع ما وبذلك ائتمنك حارسة على اكثر الناس فضيلة وبراءة وان كانت قليلة التجربة نوعا ما » وقلت له « تريد مني ان اكون كالقهرمانة » وقال لي بذهنية شاردة في التفكير « نعم ٠٠ لو كنت تعرفين ايـة احابيل او اشراك ينصبون لها » وراح لاول مرة يتفرس في وجهي متلمسا ـ بلاريب ـ اي تعبير ينم عن اللطف والعطف لكي يتسنى له ان يأتمنني على مخلوقـة سماوية تتآمر عليها قوى الظلام ٠ ولم اشعر باي نداء باطني يدفعني الى التعهد للقيام بمراقبة المخلوقات السماوية ولكنني عندما تذكرت موقفه معي في المكتب شعرت بأن له دينا في عنقي يتوجب علي ايفاؤه ولو انني ساعدته فليس من واجبي او مهمتي ان اعرف باي طريقة سيتم ذلك وبشيء من التردد والاحجام لمحت له بأنني راغبة في ان ابذل ما في وسعي للاهتمام بشخص يهتم به هو شخصيا ٠

وقال لي « لست مهتما باكثر من كوني متفرجا مع شاهد متواضع يكون مثار الاعجاب . حدث انني تعرفت مع شخص لا يسوى شيئا أغار من البيت المقابل لهذا البيت مرتين على حرمة هذا المكان والتقيت ايضا في المجتمع بالشخص الذي تستهدفه هذه المحاولات الدنيئة ، ففي الحقيقة انها مخلوقة بريئة لا وقاحة لها بعيدة عن كل ما يريب وكان بودي أن احافظ عليها واحرسها من كل اذى لو كان ذلك بمقدوري فأنا شخصيا لا استطيع ان افعل شيئا ولا استطيع الدنو منها » ثم توقف عن الحديث .

وقلت له « حسنا .. انا راغبة في مساعدتك ولكن قل لي كيف اقوى على ذلك » ولما كنت منشغلة هرعت لاخراج قائمة الموجودين في المؤسسة بحثا عن ماسته ، عن جوهرته الغالية الثمن .. ربما كانت المدام فهي الوحيدة من بيننا تمتلك فن التفوق والسيطرة ولكنه ذكر في ملاحظته انها قليلة التجربة بعيدة عن الشبهات وما الى ذلك وليس الدكتور جون بالذي يريد ان يشغل نفسه بها وان كانت مصدر هواه وموضع اهتمامه وما انا بالتي اروم معارضته أو الوقوف بوجهه فيما يريده . وقد يكون ذلك منه نزوة او قد يكون ملاكه ملاكا .

وقلت لنفسي وانا اضحك ضحكة خافتة « ما عليك سوى ان تراقبي المنطقة التي يتجه اهتمامك بها »وركزت تفكيري على وصيفة المدام بيك او احدى تلميذاتها وللدكتور جون نمط رائع من الاعصاب فقد شعر غريزيا في الحال انه لم يكتشف اكثر من هذه الذهنية مناعة وانني انما كنت اضحك على ذقنه واتسلى به وينصف ابتسامة تحول عني واخذ قبعته وهم بالانصراف فخفق قلبي ذعرا لذلك وقلت له باهتمام زائد :

« سأفعل ذلك .. ساساعدك وسأفعل ما تريده مني وسأراقب ملاكك الطاهر وسأهتم بها ان انت قلت لي من هي هذه الطاهرة » وقال لي باهتمام وبصوت منخفض جدا « ستعرفين من هي هذه الطاهرة الصالحة الرائعة الجمال بلا مثيل فما من منزل فيه اثنتان مثلها .. ذلك مستحيل» واومات له قائلة ... « طبعا .. » .

وهنا صدرت عن مزلاج غرفة المدام المؤدية الى دار التمريض قرقعة مفاجئة كما لو ان اليد التي امسكت به قد تشنجت نوعا ما وسمع صوت

انفجار عطسة لم تقاوم الكبت ومثل هذه الامور الفها كل منا من المدام٠٠
المرأة الرائعة وكانت المدام آنذاك تقوم بواجبها المدرسي ثم عادت الى المنزل
بهدوء تسرق درجات السلم تلصصا على اطراف اصابعها وتختلسها اختلاسا
وكانت آنذاك في غرفتها ٠

ولو لم تأتها العطسة القهرية لسمعت كل ما كان يدور بيننا من
حديث ولكن العطسة المشؤومة اجفلت الدكتور جون فوقف مشدوها وفي
هذه اللحظة دخلت المدام على حذر رابطة الجأش في افضل ما بداخلها
من روحية الهدوء والسكينة وحاولت ان تدخل في روعنا انها وصلت الآن
فقط محاولة التستر على كونها كانت تتجسس من ثقب المفتاح مدى عشر
دقائق تقريبا واصطنعت عطسة اخرى وزعمت انها ابتردت بعد ان عصف
الهواء البارد برأسها ثم تقدمت متظاهرة بانها تريد اعادة النظر في
الاوراق المدرسية وهنا رن جرس آوان الصلاة فتركتها مع الدكتور
وغادرت الغرفة ٠



الفصل الرابع عشر

ـ مهرجان في الهواء الطلق ـ

حالما تحسنت صحة جورجيت ارسلتها المدام الى الريف وانتابني الحزن عليها فقد احببتها وان فقدانها ـ ولو بشكل مؤقت ـ جعلني في حالة أسوأ من ذي قبل وشعرت بأن علي الا اشكو فانا اعيش في دار ملأى بمظاهر الاجهاد والمشقة وعلي أن اجمع لي صديقات وصاحبات في حين انني اهوى حياة العزلة وكانت كل صديقة من صديقاتي تبدي لي بشكل خاص جانب الود ٠

وجربت كل اولئك الصديقات فوجدت احداهن امرأة مخلصة ولكن افق تفكيرها ضيق ومشاعرها متبلدة وتتسم بالانانيةووجدت الثالثة وهي باريسية مصفاة ظاهريا ولكن قلبها مسخم لا مبدأ لها ولا عقيدة ولا ود وقد احتلت القمة الخارجية من الكياسة في خصالها تلك انها رديئة من الداخل ولها رغبة عارمة بالهدايا وهناك معلمة ثالثة تضارعها في هذه السريرة وتتضارعان ايضا في خلة اخرى هي البخل والجشع وحب المال وتجميعه اي حب المال لمجرد كونه مالا وليس لسبب آخر فمنظر قطعة من الذهب يخرج من عينيها تلألئا ٠

وقد صعدت بي ذات مرة ـ تعبيرا عن احترامها الزائد ومحض ودها لي ـ الى الطابق الاعلى من دارها وفتحت بابا سريا وارتني كومة من العملات النقدية الكبيرة الحجم تقدر بخمسة عشر جنيها انكليزيا وهي تحب تلك الكومة كما تحب الطيور بيوضها وتلك كانت مدخراتها ثم تروح تحدثني عنها بخرف متواصل ينم عن التوله بها ومن الغريب ان يوقف المرء مثل هذه المرأة البالغة من عمرها ٢٥ عاما عند حدها في تصرفها هذا ٠

ومن الجهة الاخرى كانت الباريسية مبذرة ومسرفة ومتهتكة وهذه النوعية الاخيرة لم تظهر لي رأسها الافعوي الا مرة واحدة حين كانت

تتلصص علي باحتراس وحذر تامين فقد بدت لي كاحدى الزواحف ولــو جاءت الي وصارحتني بشجاعة لكان من السهل علي ان اصارحها بمواقفي من الناحية الفلسفية وعذرتها عما كانت تسعى اليه ضدي بلسانها الشائك ولكنها جفت وتيبست داخل اوراق شجر روايتها الطويلة الرديئة وعندما قارعت ما بدا لي جليا من حماقتها واحقادها المرتدة عليها اخذت تجتويني وتكرهني منذ ذلك اليوم ٠

وهذه الباريسية كانت دائما مدينة للناس الآخرين فراتبها مقسم بين ديون الملابس والعطور والمجملات والحلويات والتوابل ومالها من ابيقورية تتميز بالبرودة والقسوة في كل الاشياء وانني اراهـــا الآن نحيفة الجسم شاحبة الوجه نظامية السمات باسنان كاملة وشفتين كانهما خيطان وذقـن كبير بارز وعينين مفتوحتين فتحا تاما ولكنهما جامدتان وناكرتان للجميل تشيع بهما الرغبة الجنسية ٠ لقد كانت تكره العمل وتحبما تسميه باللذ وهي موسومة بالتفاهة والقسوة والغباء ٠

وكانت المدام بيك تفهم حقيقة هذه المرأة تمام الفهـــم فقد حدثتني ذات يوم عنها بمزيج غريب من عدم الاكتراث والاستهجان ولـما استفهمت منها عن سبب ابقائها في المؤسسة اجابت بوضوح « لان ذلك يناسب مصلحتي» واشارت الى حقيقة سبق ان لاحظتها وهي ان الآنسة بيير تمتلك شهادة وميزة فريدة تقريبا هي قدرتها على المحافظة على النظام بـــين التلميذات غــير المنضبطات وتتميز ايضا بسلطة صارمة هي من تصميم نفسيتها وكيانهـا وتبقى تلميذاتها في وضع لا ضوضاء فيــه ولا عنـف ولا انفعال كالهواء الجليدي الذي يعلو الجدول الهادر ٠

ولم تكن ذات نفع فيما يخص اغناء الآخرين بالمعرفة أما فيما يخص الرقابة الصارمة والمحافظة على الانظمة والقواعد المدرسية فانها كانت لا تثمن واعترفت المدام بيك بوضوح بانها كانت تدري كل الدراية بان لم تكن لديها اية مباديء وربما لم يكن لديهـا اخـلاق واضافت على ذلك من الناحية الفلسفية ان سلوكها في المدرسة كان على ما يرام دائما حتى انهـا كانت تحتفظ بكرامتها نوعا ما وهذا ما كانت تعتبره المدام امرا ضروريا فلا التلميذات ولا اولياء امورهن كانوا ينشدون منها اكثر من هذا وبالتالي

انا ايضا ما اردت شيئا منها اكثر من هذا ·

ان تلك المدرسة كانت بمثابة عالم صغير غريب تسوده الفوضى والمرح العابث وتبذل فيه المساعي المضنية لاخفاء العبودية والسلاسل بالزهور ·

وفي حوالى وقت فصل الصيف البهي كان منزل المدام بيك يتحول الى مكان يشيع به المرح واشعة الشمس المستقرة كانت من المظاهر السائدة في الجو وكانت الغيوم ترحل من مسافة بعيدة الى ما وراء البحر ثم تتوقف ـ بلا ريب ـ حول اجواء جزر كانكلترا ارض الغيوم الحبيبة ثم تنسحب كليا من القارة الجافة وكنا نقضي اوقاتنا اليومية في الحديقة بدلا من ان نقضيها تحت السقف وقد صفت المقاعد الدراسية للتلمذات تحت الغصون الملتفة « للشجر الكبير » ويجري تناول وجبات الطعام في الحديقة وكانت العطلة الدراسية شهرين في فصل الخريف فقط وقبل ذلك كان يجري احتفال كبير هام باسم « مهرجان المدام » ·

وهذا المهرجان يجري أصلا تحت اشراف الآنسة بيير والمفروض ان تقف المدام بعيدا عن الاشراف دون ان تهتم بما يسير فيه على شرفها ولم تكن تدري او تتوقع ان اكتتابها يجري يجمع فيه المال سنويا من المدرسة كلها لشراء هدية جميلة وثمينة لها ولباقة القارىء تتوصل الى مشاورة سرية قصيرة الامد تجري لهذا الغرض في غرفة المدام الخاصة ·

وسالتها ملازمتها الباريسية « ماذا ستريدين مني هدية في هذه السنة ؟ » وتجيب المديرة بلطف وعذوبة « آه ·· لا اريد شيئا رعي الطفلات الفقيرات يحتفظن بفرانكاتهن لانفسهن » · وهنا تمط بيير بشفتيها دلالة على عدم الرضى فهي تعلم مافي سريرة المدام ولم تكن لها الاحترام قط بيد انها اعادت السؤال اليها ببرود مرة اخرى قائلة « قولي بسرعة ·· ما الذي تريدينه مني هدية نقدمها اليك ؟ هل تريدينها من الجواهر او الخزف الصيني او الخردوات او السلع الصغيرة او من الفضة ؟ » وجاء جوابها ·· « حسنا ·· لتكن الهدية ملعقتين او ثلاثا من الفضة ايضا » وكانت النتيجة علبة رائعة تحتوي على هدية بقيمة ٣٠٠ فرنك ·

ان منهاج اجراءات يوم المهرجان يتضمن تقديم الهدية وتناول وجبة الطعـام الخفيفـة في الحديقة وفعاليـات دراماتيكية تقوم بها المدرسات والطالبات تمثيليا ثم رقص ثم طعام العشاء وكما اتذكر بدا لي المهرجان بهيا ورائعا وكانت بيير تفهم وتجيد هذه الاشياء وتقوم بتنفيذها باقتدار وكانت الفعالية المسرحية اهم ما في مواد البرامج بعد ان يجري التدريب عليها قبل ذلك بشهرين كما ان اختيار الممثلات ايضا كان يتطلب الفهـم والدراية والعناية ٠

ثم جاء دور الدروس في القاء الخطابات ومجهودات عدد لا يحصى من التحضيرات (والبروفات) ٠ ولم تكن بيير بالقادرة على تسيير كل هـــذه الامور بمفردها فقـــد استدعيت الآخريات مديرات ومنجزات الفعاليات باشراف الاستاذ بول عمانوئيل البروفسور في الآداب ، ولم يكن من واجبي الحضور لاعطاء الدروس التاريخية لهذا البروفسور ولكنني غالبا ماكنت اشاهده في القاعة المربعة الشكل الكائنة بين المنطقة السكنية من المؤسسة وبين دار الدراسة ، وسمعته ايضا يلقي محاضراته عنـد حلول الامسيات الدافئة بالقرب من الابواب المفتوحة وكـــان اسمه يتردد في كل مكـــان وتسمعه كل الآذان ٠

وكانت الآنسة جنيفرا فانشاوي التي اختيرت لتلعب دورا بارزا في المسرحية قد عهدت الي بجزء كبـــير من اوقات فراغها لتنميق محاوراتها المسرحية بتلميحات متكررة لاقواله وافعاله وكانت تحترمه احترام خائفة منه وتتظاهر بانها فزعة ومذعورة بشكل هستيري لوقع خطواته او لسماع صوته فهو بقصر قامته وتعبيسه لابد ان يكون مخيفا وصارما وحتى انا كدت اخشى هيئته وكان مزعجا برأسه الاسود وجبينـه العريض الشاحب وخـده النحيف وثقـب منخره المرتعش ونظرته العامـة الشاملة ومشيته السريعـة ٠

وقيل عنه انه كان يعامل المقصرين بحفظ ما يلقنهم به معاملة صارمة او للذين يقدمون اللهجة الباردة بدلا من اللهجة الحامية او عندما يكون القاؤهم ضعيفا ويصرخ بوجوههم بصوت مدو كصوت البرق ٠ وعندمـا كان يتضح له اخيرا ان الامر فاشل ومن العبث المواصلة فيه كان يلغـي البرامج في الحال ٠٠ وكان الى ذلك الوقت قد علمهن المأساة الكبرى فما

كان منه سوى ان مزق اوراقها اربا اربا وجاء في اليوم التالي بقطعة تافهة مضحكة من مؤلفاته .

وكانت الآنسة بيير تتصدر دائما دروس البروفيسور عما نوئيل وقيل لي ان شفافية سلوكها واهتمامها البائن ومهارتها وجمالها اثر على ذلك الجنتلمان تأثيرا حسنا لقد كان لديها ـ في الحقيقة ـ فن الابهاج ابهاج اي شخص تريد ابهاجه لوقت ما ولكن ذلك الشعور لا يدوم عندها ففي ساعة من الزمن يتلاشى كل شيء ويجف كقطرة الندى عند بزوغ الشمس ويتبدد ويتوارى كمخاط الشيطان .

ان اليوم الذي سبق مهرجان المدام كان كميد اكثر مما كان كمهرجان فقد كرس وخصص لتنظيف غرف الدراسة الثلاثة وتنظيمها وتزيينها وزخرفتها وفي داخل الابواب ساد مرح صاخب للغاية فلا الطوابق العليا ولا التحتانية اتاحت لاي فرد ان يستمتع بالهدوء او يضع موضعا لقدميه وبالنسبة لي لجأت الى الحديقة وظللت طيلة ذلك اليوم اغدو واروح او اجلس وحيدة متمتعة بدفء الشمس ومتخذة ملجئا بين الاشجار برفقة افكاري وتأملاتي الخاصة .

واتذكر جيدا انني لم اتبادل الحديث عن ذلك سوى بجملتين مع شخص لا لكوني اهوى العزلة فقد كنت مسرورة بهدوئي وسكينتي وبالنسبة للمشاهد كان يكفيه ان يمر بين الغرف مرة او مرتين ويلاحظ مدى ما حصل فيها من تغييرات والذي حل بالبيوت الزراعية الزجاجية وبحجرة المسرح الذي تستبدل وترتدى فيها الثياب وفق ما هو مطلوب وبكيفية اقامة منصة المسرح الصغير وكيف يدير عمانوئيل والآنسة بيير العمل وكيف كانت التلميذات وبينهن جنيفرا فانشاوي يعملن مسرورات بقيادته .

وحل اليوم العظيم وبزغت الشمس والقت باشعتها الدافئة على الملأ وظهرت السماء صافية الاديم بلا غيوم مستبقية حرارتها حتى المساء وكانت كل النوافذ والابواب مفتوحة مما اعطى شعورا بالمرح والسرور بحرية الصيف وانطلاقته ونزلت المعلمات والتلميذات لتناول الفطور في لباس الروب دي‌شامبر يحملن الاوراق الخاصة بهن وينشدن المرح والسرور ويسعين اليه .

واصبحت المهاجع مشهدا للغسل واستبدال الثياب الذوقية وبالنسبة لي تراءى الامر كما لو انه لغز فكيف يجزن لانفسهن ان يمضين كثيرا من الوقت وينتجن الاقل فالعملية تبدو معقدة ومطولة ومغلقة والنتيجة بسيطة ، اقمشة موصلين البتولية القطنية الشفافة الرقيقة الزرقاوات الالوان وازواج من القفازات النفيسة البيضاوات الالوان من جلد الجدي القشي اللون الذي يرتدى في المهرجانات والاعياد ، ولهذا كله تمضي المعلمات والتلميذات ثلاث ساعات من اوقاتهن ٠

ان تلك الملابس وان كانت بسيطة الا انها كانت مرتبة وكاملة من حيث الزي ومناسبة القد والجدة ، ترتديها الفتيات باناقة وذوق وتوليف وان كانت ضيقة بالنسبة للاجسام الميادة التي تتميز بجمال خاص اما الوضع العام فقد كان جديرا بالثناء حقا ٠ وعند امعاني النظر بذلك الجمهور المرتدي البسة شفافة ثلجية البياض وجدتني مجرد نقطة ظلية في حقل الانوار ٠٠

ولم اجد في نفسي الشجاعة لكي ارتدي رداءا شفافا ابيض اللون علما بأن كان علي ان ارتدي شيئا خفيفا فالجو والغرف سادها الحر الشديد ولا يمكن ارتداء الالبسة الثخينة ولهذا كنت قد تحريت في ١٢ حانوتا الى ان عثرت في احدها على قماش يشبه الكريب الرقيق بلون ارجوازي قان٠

وابدعت الخياطة قدر امكانها رغم انه كان عريضا وناتئا ولم تفد معه الا العناية في الشكل والزي واحسنت صنعاً في ذلك اذ لم آكن املك زهرة او حجارة كريمة او جوهرة لتجسيمه وتلطيفه ٠ واصبحنا غافلات عن هذه النواقص من جراء الروتين النمطي للعمل اليومي الشاق الا انهن كن يفرضن علينا فرضا تنويعاتهن البغيضة في تلك المناسبات الحلوة التي تتطلب ابراز الجمال البراق وعلى كل حال شعرت حتى بتلك الملابس انني في منزلي اتمتع بقسطي من الراحة وهي ميزة ما كنت لاتمتع بها لولا انني في غير حضرة المدام بيك التي كانت تشجعني لآن ملابسها هي ايضا كانت بسيطة بساطة ثيابي والفرق بين كلينا انها كانت تمتلك سوارا ودبوسا زينيا مرصعا بالذهب المتوهج والحجارة الكريمة ، وحدث اننا — بالصدفة — التقينا على درجات السلم وعبرت — بايمائة منها — عن استحسانها وابتسمت ابتسامة الثناء علي لا لكونها ظنت بانني جميلة

المحيا وهو امر لا يحتمل ان يلفت انتباهها او اهتمامها انما اعتبرتني واحدة ترتدي الالبسة المحتشمة وهو الشيء الذي كان يثير اهتمامها •

والجدير بالملاحظة انها توقفت لحظة ووضعت يدها المقفزة على كتفي وفي يدها الاخرى منديل مطرز ومعطر وأسرت في اذني بتهكمات على بعض المدرسات اللواتي كانت قبل مدة وجيزة توجه لهن الاماديح وقالت لا اسخف من نساء ناضجات يحلمن كما لو انهن فتيات في السن الخامسةعشرة من اعمارهن كالامرأة بيير فهي تشبه الامرأة الكبيرة السن ومع ذلك تتغنج كتغنج الفتيات الشابات •

وبعد ان ارتديت ثيابي قبل سواي بما يقارب الساعتين شعرت بارتياح في توجهي - لا صوب الحديقة التي كانت الخادمات فيها منهمكات ومنشغلات في تهيئة الموائد الطويلة وتنضيد المقاعد ونشر الاغطية استعدادا لمقارنة النصوص - انما صوب غرفة الدراسة التي كانت انذاك فارغة وهادئة وباردة ونظيفة ، وحيطانها مصبوغة مؤخرا وارضيتها منظفة من جديد وشبه يابسة حيث الزهور المجموعة تزين وتحلي داخليات المزهريات وحيث الاقمشة والاستار الجوخية الجميلة الجديدة التي تغطي النوافذ الكبرى •

ومن هناك قصدت الصف الاول الواقع في غرفة اصغر وانظف من الآخريات واخذت من خزانة الكتب الزجاجية التي كان مفتاحها عندي مجلدا اثار في عنوانه رغبة لقراءته وجلست اقرأ وكان الباب الزجاجي لذلك الصف او غرفة الدراسة المفتوح على مصراعيه يؤدي بك الى تعريشة اغصان متعانقة ومتشابكة كبيرة الفسحة حيث تداعب اغصان اشجار الاقاقيا سيقانها في امتداداتها لملاقاة شجيرة الاوراد المزدهية عند عتبة الباب •

وفي هذه الشجيرة تعمل اسراب النحل وتطنطن في مهماتها طنطنة البهجة والسعادة وشعرت في القراءة ان استمرارية الطنطنة وبقاء ظل العريشة والدفء والهدوء الوحداني الذي آلت اليه اخذت تسرق مني الصفحات لتي اقرأها وتسرق النور من عيني وتغريني بالتوجه الى حلم اليقظة الكائن في عمق وادي أرض الاحلام • انذاك ايقظني اقوى صوت لجرس باب الشارع فاعادني الى وعيي بعد شرود ذهني •

والآن دق الجرس وجرت العادة ان يـدق طيلة الصباح متبها العمال والخدم والحلاقين والخياطين الى وجـــوب الذهـاب الى اعمالهم وهنـاك توقعات في ان يظل يرن حتى الى ما بعد الظهر اذ ان هنالك ما يقرب من مائة شخص يفدون من خارج المدينـة بالعربات الـكبيرة او بعربات الاجـرة الصغيرة او حتى الى المساء حيث الآباء والامهـات والاصدقاء يتجمعون في ساحة المسرحية او التمثيلية فصوت الجرس المتواصل بقوة معناه وجـــود شيء هام وهذا الجرس المتواصل كان له معناه الخاص عندي فقـد طارد حلمي واجفل كتابي الموضوع على ركبتي فسقط على الارض ٠

وكنت على وشك ان انحني لالتقاطه واذا بي اسمع عبر الردهة وعلى الممر الكائن بـين القسم الاول والثاني الاكبر من غرفـة الدراسة صوت خطوات سريعة ونظامية ومقصودة ولم يكن البـاب الموصـد للصف الاول الذي كنت جالسة فيه يكون عقبة فقد انفتح واذا بمعطف فضفاض وقبعة يونانية تملآن الفراغ وبعينين جائلتين جولانا تصوبان الي تصويبا متالقا واذا بصوت يخرج من فيــه قائلا ٠٠٠ آه ٠٠٠ انني أعرفها انها المراة الانكليزية وا أسفاه ومهما يبدو عليها من الاحترام فانها ستخرجني مـن ورطتي هذه والا فانني ساعرف السبب ٠

ثم قال بلهجة مؤدبةجدا ــ واظن انه لميلحظ سماعي كلماتهالسابقة غير المؤدبة ــ قال برطانة انكليزية لم اعهدها من احد من قبل « ينبغي ان تمثلي على المسرح وانا جالسهناك » وقلت له « ماذا تعني ؟٠ ماذاتريدني ان افعل ايها السيد بول عمانوئيل ؟ واجابني وهو في حـالة من الانفعال الشديد « ينبغي ان تمثلي ولا اريد منـك ان ترفضي او تقطبي جبينـك استياءا او تظهري جانب التزمت فقد قرات ما في جمجمتك منذ اول يـوم مجيئك الى هنا وانا متحسس بمقدرتك التمثيلية ويجب ان تفعلي ذلك ٠

وقلت له « يا مسيو بول كيف افعل ذلك ومـاذا تعني ؟ » واستطرد قائلا ولكن الآن باللغة الفرنسية ــ ٠٠ لا يوجد وقت لتضيعــه وينبغي ان نضرب عرض الحائط بكل ترداداتنا واعذارنا وانتحالاتنا فيجب عليكان تساهمي » قلت له « في المسرحية الفودفيلية ٠؟؟٠ » فقال « وفي المسرحية الفودفيلية ٠ انت قلتيها ٠٠ » واخذت الهث من الرعب الذي اصابني من

جراء ذلك قلت له ، ماذا يعني الرجل القميء ؟ وقال لي ٠٠« اصغي الي، القرار بذلك سيصدر وبوسعك حينئذ ان تجيبي بلا او بنعم وتقديري لك ابدا سيكون على ضوء هذا الجواب » ٠

وتوهج خداه باشارة نادرا ما يمكن قمعها في طبيعة دائمة التبرم يمازجها بصيص حاد من نظراته٠وان هذه الطبيعة الحمقاء المثيرة للغثيان المترددة المتجهمة وغير المستسلمة قد ترد سريعاً بعنف وحقد وعناد ولهذا كان السكوت والانتباه خير بلسم لي وخير ما يمكن ان الوذ بهما فلم افعل شيئا اكثر من ان اصغي اليه وهو يقول :

« ان كل شيء على وشك ان يفشل فلويزا فاندركيلكوف قد تمرضت هذا ما تقوله والدتها السخيفة اما انا فاشعر شعورا مؤكدا انها تستطيع ان تمثل لو شاءت فالذي ينقصها هو حسن النية والشعور الودي فقد عهد اليها بدور ملائم ـ عرفت ام لم تعرفي ـ وبدون هذا الدور تتوقف المسرحية ولا يقتضي لاجادته سوى بضع ساعات من التعلم والحفظ ولا توجد في هذه المدرسة فتاة تصيخ السمع لصوت المنطق والعقل وتقبل باناطة هذا الدور بها ٠

وفي الواقع ليس الدور مثيرا ولا لطيفا ولا محبوبا ولكن يسميه بعزة النفس الذميمة وتلك النوعية الدينية التي تستثمر النساء كثيرا هي التي تمنعهن من القيام به وفي رأيي ان النسوة البريطانيات هن اما افضل مما له صلة بالجنس واما اسوأ ثم قال وهو يحرق الارم غيظا وحنقا « الله يعلم انني اكرههن كما اكره الطاعون ٠ واراني الوذ الآن بامرأة انكليزية لتنقذني منهن وتزيل حراجتي فما هو جوابك ؟؟ نعم ؟ ام لا؟»٠

وهاجمت خاطري الوف الاعتراضات اللغة لاجنبية والوقت المحدود والعرض امام الجمهور٠ والنزعة المرتدة والقابلية المضطربة وعزة النفس (تلك النوعية الذميمة) وشعرت بالرعشة وهممت ان اقول « ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ لا » لكل ما جاء في كلماته ولكنني عندما نظرت الى المسيو بول ووقعت عيني على نظرته الحيرى المرتبكة المتفحصة وما احسست فيها من المناشدة والتوسل وراء كل تهديداته لم اجد الا كلمة « نعم » تخرج من بين شفتي ولاحظت خلال وهلات ان محياه المتجهم قد بدا عليه الارتياح وزايله التجهم

وشاعت عليه ارتعاشة الرضى وسرعان ما مـال وانحنى مرة اخرى ومضى في حديثه التالي :

« اليك المخطوطة المسرحية وهوذا دورك ·· اقرئي وانا اقرأ » ولم يبد ملاحظات وفي بعض المقاطع كان يعبس ويقطب جبينه ويـدق الارض برجله ثم اعطاني درسا وقلدته تقليدا تاما لقد كانت قطعة لا يرتضيبها احد · دور رجل متأنق في ملبسه ولكنه غبي ومن غير الممكن ان يضع المرء فيه من قلبه او روحه فكرهته فالمسرحية شيء تافه وعابث تدور اساسا على مجهود متنافسين اثنين تحاول البنت اعلاء كفتها على الرجل باساليب التغنج فالعاشق كان اسمه (اورس) وهو رجل شهم وبسيط يعمل على سجيتـه وجوهره خام والعاشقـة اسمهـا (بترفلاي) ثرثارة وخائنـة وكنت في التمثيلية انا الثرثارة والخائنة ·

وبذلت جهد امكاني وكانت المحصلة رديئة كما اعلم مما اثار ثائرة المسيو بول ناخذ يرغي ويزبد وحاولت ان اعمل اكثر مما في وسعي واظن انه اثنى علي نوعا ما واقتنع بما بدر مني من فاعليات وكان يصرخ ·· صحيح ·· صحيح وعندما تعالت الاصوات من الحديقة ورفرفت الاردية البيضاء من بين الاشجار قال لي « تعالي ينبغي ان نتراجع ونكون وحدنا لنتمها ·· تعالي معي » وبدون ان يترك لي مجال التشاور في هذا الامر الى اعلى ثم الى سلمين اعلى او ثلاثة ويبدو انذلكالرجل القميءكان يعرف
الى اعلى ثم الى سلمين اعلى او ثلاثة ويبدوان ذلك الرجل القمي كان يعرف
غريزيا كل مكان في المؤسسة ولم اجد نفسي في آخر المطاف الا داخل مكان تحت سطح المنزل ولا يوجد فيه احد سواي اغلق علي بابه والمفتاح الذي كان فيه اخذه معه وتوارى ·

ولم يكن ذلك المكان مريحا وفي ظني انه لم يكن يدري بانه كذلكوالا لما كان اغلق علي بابه في ذلك الجـو الصيفي الذي تعادل حرارته حرارة القـارة الافريقية اما في الشتاء فقـــد كان باردا دائما برودة جـزيرة غريلاند وكانت تملؤه الصناديق والاكوام المبعثرة هنـا وهنـاك وتتدلى الملابس العتيقة من حيطانه ويشكل نسيـج العنكبوت سقفه غـير المكنوس اطلاقا والمعروف عنه جيدا ان الفئران كانت تقطنه مع الخنافس السوداء والصراصير وهناك شائعات تدور منذ زمن عنه تفيد بان راهبة الحديقـة

الشبح شوهدت فيه ذات مرة وهناك ظلمة جزئية تحجب احد اطرافه ولزيادة لغزها وتعميقها ركبت على طرفيها ستارة قديمة خمرية اللون تؤدي بالذي يريد الدخول اليها الى طوق قاتم اللون من المعاطف الشتوية يتدلى كل منها من دبوسه او وتده كما يتدلى المجرم المشنوق من مشنقته . وقيل ان من بين تلك المعاطف ومن وراء الستارة تلك كانت الراهبة تخرج .

وما كنت أومن بالشائعات هذه ولم اقلق فهمي بها ولكنني وجدت جرذيا ضخما قاتم اللون له ذنب طويل يخرج من فجوة قذرة من ذلك الجدار ثم ان نظري وقع على عدد كبير من الخنافس السوداء تملأ الارض وهذه الاشياء اقلقتني واثارتني بشكل مقزز اكثر مما اضجرني الغبار والملابس القذرة وحرارة المكان الخانقة وهذه المزعجات جعلت وضعي لا يطاق لولا انني وجدت الوسيلة اللازمة لادخال الهواء النقي من الجو الخارجي عن طريق فتحة في ذلك المكان .

ذلك انني ازحت صندوقا كبيرا فارغا ووضعت عليه صندوقا اصغر بعد ان انزلت الاتربة والاغبرة عنهما وجمعت ملابسي وهي افضلها كما يتذكر القارىء وبعد اتخاذ الحيطة مما كان حولي بكل عناية واهتمام هلوت اصناف ذلك العرش المرتجل وبعد ان جلست عليها شرعت في اكمال مهمتي وتعلمت كيف اراقب مراقبة دقيقة تلك الخنافس السوداء والصراصير اكثر مما كنت اراقب الفئران وجلست في حالة من الفزع القاتل .

وكان انطباعي باديء ذي بدء ان اقوم بما يعتبر مستحيلا القيام به وعولت على ان ابذل جهدي وان اتجنب الفشل وسرعان ما وجدت ان قسما من ذلك المكان الضيق لم يكن سوى مكان معد للاستذكار بضع ساعات وشرعت ادرس وادرس همسا في اول الامر ثم بصوت عال بعد ذلك بعيدا عن الآدميين وقمت بتمثيل دوري امام حجرة الهوام والحشرات بعد ان دخلت فراغها طيشا وخطا بروحية الازدراء وانعدام الصبر وقد انتقمت من ذلك الرجل (السمين) بجعله (اسمن) قدر استطاعتي » .

ومرت الظهيرة في ذلك التمرين وبدأ النهار يدب صوب المساء وانا التي لم اتذوق الاكل منذ الفطور اشتد بي الجوع واخذت افكر بالجمع الذي يتناول انذاك وجبات الطعام الخفيفة في الحديقة الكائنة تحتي بمسافة بعيدة ووجدت في مدخل الردهة سلة مـلآى بالفطائر والكيك التي تعلوها القشدة ولا الذ منها بين كل ما هو موجود في المطبخ من المآكل وان فطيرة او قطعة مربعة من الكيك كافية لي تماما ٠

وبازدياد شهيتي لتلك اللذائذ وجدت ان من الصعب علي نوعا ما ان اصل الى المكان لان الموقع الذي صمت وسجنت فيه كان بعيدا عن الباب الخارجي المقابل للشارع وبعيدا عن الردهة وكان الجرس الملح في رنينه يسمع من هنا خافتا وضعيفا وكذلك اصوات الدواليب المتمرجحة دون انقطاع الآن على ارضية الشارع المرصوفة وعرفت بان الدار والحديقة مزدحمتان وتعجان بالناس وان كل ما هو بهي وسار هو تحتي وسرعان ما حلت ظلمة الغسق واخذت الخنافس تتوارى عن الانظار ٠

وكنت اخشى ان تأتي خلسة وتصل الى عرشي غير المنظور وبدون ان تثير شكركي تغزو القسم المتدلي من ثيابي وبالخوف وفراغ الصبر اخذت استذكر كلمات دروسي في التمثيلية ، لا لشيء الا لقتل الوقت وقبيل انتهائي طرق سمعي صوت المفتاح يدور داخل القفل بعد طول الغياب وهو صوت لا يمكن سوى ن ارحب به ووقع نظري على المسيو بول من خلال ظلام الغسق لان النور المتبقي من النهار التمع ليظهر اسوداد شعر رأسه المقصوص وعاجية جبينه الاصفر وما ان فتح الباب ووقف على عتبة المكان والباب مفتوح حتى صاح « مرحى ٠٠٠ مرحى لقد سمعته كله وهو جيد جدا ٠٠ اعيديه على مسمعي رجاء » ٠

وترددت لحظة واذا به يقول بلهجة صارمة « اعيديه ولا داعي للهياج والهرج والمرج ودعي الخجل جانبا » واعدت القسم فقرأته من جديد ولكن لا كما قرأته وانا وحيدة وقال وهو نصف مستاء « جيد انها تجيده لايجوز ان يكون المرء ذا حساسية في مثل هذه الاحوال » واضاف يقول « لديك الآن عشرون دقيقة لكي تستحضري وتهيئي نفسك ٠٠ طاب مساؤك » وهم بالذهاب فصحت به بشجاعة « يا مسيو » فقال لي ما بك ايتها الآنسة ؟

فقلت له انني جائعة جدا فقال ٠٠ « ماذا ؟ انت جائعة ؟ وماذا عن وجبة الطعام ؟ » فقلت له « كفاك الى هذا الحد فانا لم اجد الطعام ابدا » واجاب « هذا صحيح ولك الحق » ٠

وبلحظة واحدة تنازلت عن عرشي واخليت ذلك المكان الكائن تحت سطح المنزل ونزلت الى المطبخ ذاته وكان الطباخ قد امر باعـداد الطعام ودعيت الى تناول الطعام وكم كان فرحي عظيما عندما اقتصر طعامي على القهوة والكيك وكنت لا احب الخمر والحلويات ولم ادر كيف عرف انني مولعة بالفطيرة المقشدة والكيك المقشد لانه ذهب وجـاء لي بقطعـة من مكان ما واكلت وشربت بشهية تامة ولم ابق من الكيـك والفطيرة شيئا » ولاحظ المسيو بول اكلي واخذ يضطرني الى تناول اكثر من طاقتي ٠

واستحسن رفضي اكل المزيد بعد ان عرف انني تناولت ما يكفيني وكان قد اعد لي رغيفا من الخبز رشه بالزبدة وابدى اسفه لانني لااقوى على تناوله ثم قال لي ٠٠٠ « والآن يا آنسة هل لديك الشجاعة والقـوة للظهور امام المشاهدات والمشاهدين ؟ » وقلت له اظن انني قادرة مع العلم بانني في قرارة نفسي كنت في حيرة وارتباك من امري لا اقوى على تصوير مشاعري ولكن هذا الرجل كان من النوع الذي لايمكن ان يعارضه احـد مالم يكن لديه القوة المهيمنة الكافية لسحقه في الحال ٠

ومد لي يده وقال «تعالي٠٠اذن» وناولته يدي وسار معي بخطى سريعة اضطررت الى الركض للحاق به والسير بجانبه وتوقف لحظة في الساحة المضاءة بمصابيح كبيرة وكانت ابوابها مفتوحة على مصاريعها وكذلـك ابواب الحديقة والذي زخرف وجمل تلـك المداخل اشجار البرتقال في احواضها المعدنية المائية والازهار الطويلة السيقان في مقدورها البائنة بوضوح في كل جوانب ذلك المكان الفسيح وكانت جموع السيدات والسادة واقفة أو متمشية بين الاوراد والازاهير ٠

وكان المشهد من خلال المجاز الضيق الوسيع لغرف الدراسة يعج باعداد كبيرة من الناس المتموجين بكثرتهم يتمتعون بوقتهم وكل المنظر يعج ايضا بأوراد ملونة وشفافة وهناك اجهزة تنوير تحترق من فـوق الرؤوس وعلى مبعدة ما مسرح وستارة خضراء مهيبة الشكل وصف من اضواء

مقدمة خشبة المسرح وقال لي المرافق ٠٠ « اليس هذا يوما بديعا ؟ » وكان علي ان اقول له « انه كذلك » ولكن الكلمات علقت في بلعومي لان قلبي كان متصاعد الوجيب واكتشف المسيو بول امري وحدجني بتقطيبة غاضبة من وجهه دغدغ فيها آلامي وقلت له « سابذل جهدي واتمنى ان ينتهي الموضوع » ثم سألته « هل سنمشي وسط هذا الجمهور ؟ » واجاب « طبعا ولكنني ساعالج الموضوع بشكل افضل سنمر من وسط هذه الحديقة » ٠

وبلحظة كنا في العراء خارج الابواب وانعشني نوعا ما الليل البارد الهادىء وفي تلك الليلة لم يطلع القمر ، ولكن انعكاسات الاضواءمن‌عدد كبير من الشبابيك النيرة اضاءت المساحة اضاءة رائعة حتى انها كانت تضيء الازقة فالسماء كانت بلا غيوم وكانت جليلة ومهيبة بارتعاشات نيرانها الحية فما احلى ليالي الجزيرة الرئيسة وما آمنها ارقها وانعشها عندما تخلو من ضباب البحر ومن رطوبته القارصة البرودة وتلك الليلة كانت عديمة الضباب كالظهيرة ومنعشة كالصباح ٠

وبعد ان عبرنا الساحة والحديقة وصلنا الباب الزجاجي للصف الاول وكان مفتوحا ككل الابواب الاخرى في تلك الليلة ومررنا ثم دخلنا غرفة صغيرة تقسم الصف الاول عن المسرح الكبير وهذه الغرفة حيرتني اذ كانت زاخرة بالاضواء وأصمت اذني من شدة ضجيجها وامضتني فقد كانت شديدة الحرارة خانقة ومزدحمة وصاح المسيو بول ٠٠ « سكوت هل هنا فوضى ؟! » وخيم السكوت وبكلمات قليلة وايماءات عديدة اخرج نصف الموجودات واجبر الباقيات على الاصفاف بانتظام ٠

واللواتي غادرن كن يرتدين الملابس النسوية التي ترتدى بمناسبات خاصة من ستر وتنورات وملابس اخرى (كوستم) لانهن كن الممثلات وكانت الفرقة تسمى بالفرقة الخضراء المخصصة للممثلين والممثلات ٠ وقدمني المسيو بول لهن ورمتني كلهن بتحديق مربك وكبتت بعضهن ضحكاتهن فقد كان ذلك بالنسبة لهن امرا مفاجئا اذ لم يتوقعن ان امرأة انكليزية ستظهر في مسرحية وحدجتني جنيفرا فانشاوي التي كانت‌ترتدي ملابس جميلة وفاخرة بنظرات عينيها المفتحتين المدورتين تدوير الخرزة ٠ لقد كانت تشعر بالجرأة التامة دونما خوف أو خجل وفرحة بانها ستظهر

وتشتهر امام المئات ولذلك فان دخولي كان يبدو بمثابة طعنة لها فادهشها وسط خضم فرحتها وكانت تهم بالصياح ولكن المسيو بول اوقفها وردعها كما عمل على وقف الباقيات عن الحركة وردعهن ٠

وبعد ان استعرض المسيو بول جمع الممثلات وانتقدهن التفت الي وقال لي « انت ايضا ينبغي ان ترتدي ملابس التمثيل وعلقت زيلي بيير على ذلك وهي تندفع الى امام قائلة« ترتدين كرجل» واضافت على ذلك بشكل رسمي « انا التي سألبسها لك بنفسي » ٠ ان ارتداء ثياب الرجل امر لا يروق لي ولا يناسبني فقد رضيت ان آخذ اسم الرجل ودوره اما بالنسبة لابسه فلا ٠٠ سأحتفظ بملابسي مهما كلف الامر وقد يهاجمني المسيو بول وقد تثور ثائرته ولكنني سأحتفظ بملابسي وصارحتهن بصوت عازم من حيث النية والقصد وان كان واطئا وربما متقلب النبرة ٠

ولم يهاجمني او تثور ثائرته في الحال كما كان ظني انما وقف صامتا ولم يحر جوابا ولكن زيلي تطفلت وعارضت مرة اخرى قائلة « انها سترتكب غلطة كبيرة تنم عن الغرور ٠٠ اليك بالثياب ٠٠ هذه هي كاملة وان كانت بنوع ما كبيرة عليك ولكنني ساعالج هذاالامر » تعالي يا حبيبتي المسترجلة ويا صديقتي الانكليزية الجميلة ٠ واذ قالت ذلك بلهجة السخرية ــ لانني لم اكن جميلة ــ اخذت يدي لكي تسحبني الى الخارج وعاينت المسيو بول واقفا على الحياد دون ان يبتدر شيئا حيال هذا كله ٠

وتابعت بيير تصرفاتها وكلماتها قائلة لي «عليك الا تعارضي (وكنت اعارض فعلا) لان معارضتك ستفسد كل شيء وتقضي على مرح الجميع ومتعتهم وتضحي بكل شيء ارضاء لما ترتدينه انت وهذا امر سيء لن يرتضيه او يوافق عليه المسيو بول » ٠

قالت ذلك ورنت اليه وراقبت نظراتها ورنوت انا اليه ايضا منتظرة ما سيكون جوابه فلاحظت انه رنا اليها ثم الي وقال بلهجة واطئة « لحظة واحدة من فضلكن » وتقدم فاوقف بيير التي كانت لا تزال تبذل مجهوداتها لكي تجرني خلفها وانتظر الجميع قرار المسيو بول الذي لم تظهر امارات الغضب على وجهه ولا امارات التبرم كما تراءى لي ولذلك تشجعت ٠

وسالني المسيو بول وهو يومىء الى الالبسة الرجالية « انت لا تريدين هذه الثياب ؟ » وقلت له « لا اعارض على قسم منها ولكنني لا اريدها كلها» وقال لي « كيف اذن ؟ كيف تقبلين قسما منهـــا وتذهبين الى المسرح وانت مرتدية ثياب النسوة ؟ انه شأن الهواة صحيـــح ان المسرحية مضحكة وانا استطيع ان اقدم شيئا ايضاحيا واظهرك بانك من الجنس الانبل » ٠

وقلت له « انا راضية ايها السيد ولكنني انا التي ارتب هذه الملابس بطريقتي الخاصة ولا اريد من احد ان يكون وسيطا وهذه الاشياء لايمكن فرضها علي فرضا دعوني ارتديها انا بنفسي » وبدون ان يتكلم المسيـــو بول بشيء اخذ الملابس من بيير واعطاها لي وسمح لي بالذهاب الى غرفة تبديل الملابس ٠ وفي وحدتي هذه عاد الي الهدوء ورحت للعمل رابطـــة الجاش وقد استعدت كسوتي النسوية دون تراجع واقتنيت ثوبا رجاليـــا وربطة العنق وسترة ذات ابعاد صغيرة وهذه كلها كانت ملابس اخذناها من شقيق احدى التلميذات ٠

وقمت بترتيب شعري وارخائه وحله بعيدا عن جدائله وقربت مـــن طول شعري الخلفي ومشطت القسم الامامي منه واملته الى الجانب الواحد واخذت قبعتي وقفازي بيدي وخرجت وكـــان المسيو بـــول في انتظاري والفتيات الممثلات ايضا ونظـــر الي بارتياح ولـــكن بيير اخذت تستهزيء ايضا بطريقتها الافعوانية ولما كنت متبرمة من اثر الانفعال لم أر بدا من ان التفت اليها واقول لها « لو لم تكوني سيدة وانا نبيلة الاخلاق لدعوتك للحساب في الخارج » ٠

وقال المسيو بول « بعد المسرحية ٠٠ بعد المسرحية ٠٠ لي مسدسان ساعطي لكل منكما واحـــدا ونسوي النزاع بينكما بموجب العادة وسيكون هذا اول حرب افتتاح قديمة بين فرنسا وبين انكلترا ٠ وفي ذلك الوقت حان موعد المسرحية فرتبنا المسيو بول امامه والقى محاضرة مختصرة علينا كما يحاضر الجنرال امام جنوده قبل قيامهم بالهجوم ٠ ولا ادري ماذا قال لنا المسيو بول سوى انه طلب من كل منا ان تؤدي واجبها خـــارج حدود تفاهتها الشخصية والله يعلم انني ادركت ماذا عناه من عبارته هذه ولمـــن كانـــت موجهـــة ٠ ورن الجرس ودخلت انا واثنتان معـــي الى المسرح ورن الجرس مرة اخرى وترتب علي ان اتفوه ببعض الكلمات الاولى ٠

وهمس المسيو في اذني قائلا : لا تنظري الى الجمهور ولا تفكري بوجوده وتصوري نفسك في العلية الحجرة التي تقع تحت السطح تمثلين للجرذان « وانصرف عني ورفعت الستارة واخذت بالتقلص والتغضن والانكماش امام السقف وبهرتنا الاضواء البراقة اللماعة والغرفةالطويلة والجمهور المبتهج وكانها اندفعت وانفجرت امامنا على حين غرة · واتجه ذهني الى الخنافس السوداء والصناديق القديمة والمناضد التي اكلتها الحشرات ·

وقلت كلماتي بشكل رديء ولكنني قلتها على اي حال فالخطاب الاول كان الاصعب وظهرت لي الحقيقة التالية وهي انني لم يكن ما اخشاه هو الجمهور بقدر ما كنت اخشى صوتي ذاته فالاجانب او الغرباء لم اعبأ بهم ولم افكر فيهم وعندما استعاد لساني حريته في النطق وعاد صوتي الى سابق طبقته ووجد نبرته الحقيقية لم افكر باي شيء سوى الشخصية التي امثلها وبسوى المسيو بول الذي كان يصغي ويراقب ويلقن من الموقع الجانبي للمسرح ·

وشيئا فشيئا استشعرت بالقوة تجيئني فالجدول يتطلب التدفق الداخلي المفاجيء واصبحت رابطة الجأش اراقب والاحظحركات زميلاتي الممثلات التي ادى البعض منهن ادوارهن بشكل جيد جدا ولاسيما جنيفرا فانشاوي التي لعبت دور المغناج بين خطيبين كل منهما يريدها لنفسه وابدعت فيه · ولاحظت انها لمرة او مرتين اشارت الي بولع شديد ــ انا الشاب المتألق ــ وفضلتني بهما على الآخر تفضيلا واضحا ·

ومثل تلك النظرات المغناجهوجهتها صوب المستمعين وصوب الجمهور الذي كان يهتف لها اما بالنسبة لي انا التي اعرفها حق المعرفة فان نظراتها في الواقع كانت تدل على انها ليست موجهةالي وانماالى شخص آخر وتابعت اتجاهات عينيها وابتساماتها وايماءاتها وقبل مدة اكتشفت انها تريد ان تلفت اهتمام شخص آخر بها افردته من بين المشاهدين ·· هدف جميل ومميز اطول من القاعدين المتفرجين الآخرين واكثرهم تأكيدا بانه سيقابل الممثلات · لقد جلس هادئا وان كان قاصدا واذا به الشكل المعروف لدى الجميع شكل الدكتور جون ·

لقد كان المشهد مثيراً نوعا ما وكان في نظرة الدكتور جون لغة مدروسة ومع انني لم استطع الاهتداء الى ما كان يقوله فانه شجعني واستنبطت منه تاريخا وزججت برأيي في القسم الذي مثلته وادخلتـه في موضوع توددي لجنيفرا وتوسلي اليها وفي (اورس) العاشق المخلص وجدت الدكتور جون .. اترانى اشفق عليه كما كان شأني في السابق ؟ كلا .. لن افعل ذلك فانني سأقسي قلبي واحجره وسأنافسه وأبذه في المنافسة لقد عرفت عن نفسي انني كثيرة التألق واذا اصبح هو منبوذا فذلك سيسرني والآن انا عارفة بانني مثلت لـكي اصمم على الفوز والتغلب وجـاءت جنيفـرا بالدرجة الثانية مـن بعدي وبدلنـا بيننا نصف تبديـل طبيعـة الادوار وموهناها من الرأس الى اخمص القدم .

وقال لنا المسيو بول في فترات الراحة بـين الادوار ما الذي يدور بينكما وراح يلومنا لوما خفيفا « ربما كان اداؤكما افضل من النسخـة الاصلية ولكنه على كل حال غير صحيح اي خارج عن النص الاصلي اماانا فلست ادري ما كان يدور في نفسي والـذي كنت ادريه انني كنت اروم التفوق على (اورس) اي على الدكتور جون وكانت جنيفرا محبـة ودودة فكيف يمكن الا اكون فارسا شهما كفرسان القرون الوسطى ولذلك غيرت روحية الدور بطيش وتهور اذ لم يكن بوسعي ان اقوم باداء دوري بدون قلب وبدون اهتمام اطلاقا وكان ينبغي اداء الدور فاديته برغبة تامة .

والذي شعرت به تلك الليلة والذي عملته ايضا فيهـا لا يمكن ان اشعر به واعمله مرة اخرى الا اذا رفع بانتشاء الى السموات السبعة ، لقد قبلت تمثيل الدور ببرود وتردد وخوف من اجل ان ادخل البهجة الى قلبي وفي اليوم التالي عندما ظننت ان الامر انتهى اظهرت عدم رضاي من هذه الانجازات التمثيلية . ومع انني اجبرت المسيو بـول ـ وانا مسرورة ـ جربت قوتي الخاصة مرة واحدة واتخذت قرارا حاسما بعـدم الانجرار الى شيء مماثل .

لقد اظهر ميلي الشديد للتعبير الدراماتيكي جزءا من طبيعتي وهي ان الاعتزاز بمقدرتي المكتشفة حديثا وممارستها وقد تفتح أمامي عالم بهيج ولكن لن يجدي ذلك أمام من يلقي بنظرته الى الحياة . ان علي ان

ادخر هذه القوة وأبقي على هذا الشوق وفعلت ذلك وربطتها بمشبك قرار لا يقوى الزمن او اية من المغريات على ان تطال اليها ·

وما ان انتهت المسرحية حتى طرأ تغيير على المسيو بول المستبد السريع الغضب بعد ان ولت ساعة مسؤوليته الادارية فتخلى عن تزمته وسلطته حتى انه جلس بيننا مرحا لطيفا واجتماعيا وصافحنا جميعا وشكرنا واحدة فواحدة على انفراد وابدى عزمه على ان يأخذنا واحدة فواحدة الى حفلات الرقص وعندما جاء دوري قلت له انني لا ارقص ولو لم اتسلل وابتعد عن طريقه لاضطرني الى القيام بدوره الثاني ولكنني مثلت ما يكفي لامسية واحدة وآن اوان الرجوع الى نفسي والى حياتي الاعتيادية · ان ملابسي الكميتية اللون كان لها منظرها البهي تحت السترة على المسرح ولكنها لا تصلح لرقصة الفالز او لرقصة (الكادريل) التي كان لها شعبية في ذلك الوقت حين يرقصها اربعة ازواج ·

وقد انسحبت الى خلوة في مكان منعزل هادىء ارى الجميع ولا يراني احد وكنت اشاهد المرقص واتحسس ببهائه ومسراته وكانه يمر من امامي كمشهد من المشاهد وكانت جنيفرا فانشاوي ايضا هي الفاتنة ذات الجمال الساحر في المرقص فقد كانت اجملهن وابهاهن اختيرت لافتتاح المرقص وكان منظرها جيدا ورقصت رقصا فاتنا وكانت تبتسم ابتساماتها الحلوة ومثل تلك المشاهد والمناظر تثير لديها البهجة والسعادة فهي اصلا بنت المسرات فالعمل والمعاناة يجدانها كسولة فاترة الهمة ومكتئبة واهنة ومتذمرة في حين ان المسرات تنشر جناحيها كالفراشة وتظهرها كالذهب الخالي من الشوائب وكالنقاط اللماعة وتجعلها كالجوهرة المتوهجة والوردة المتفتحة انها تقطب لكل اوقات تناول الطعام وشرب المشروبات ولا تتناول سوى القشدات والمثلجات والبوظات وتحوم حول الحلويات حومان الطائر المدندن على معجون العسل · وكأن الخمر الحلو المذاق همها الاوحد والكيك الحلو خبزها اليومي فجنيفرا عاشت عيشتها الكاملة في غرفة الرقص اما في اماكن اخرى غير مثل هذه الاماكن فان حالتها تكون فاترة وكئيبة ·

ولا تظن ايها القارىء انها تتالق وتزدهر هكذا من اجل زميلها المسيو بول او انها ابدت كل ما لديها من فتنة وجمال في تلك الليلة لتبهر بها

زملاءها فقط او العائلات المتواجدة التي ملأت ارجاء الساحة وقاعة الرقص في ظروف تافهة ومحددة وحوافز باردة ومضجرة. وما كانت جنيفر التتنازل بالرقص مستطيلا واحدا في رقصة الكادريل (التي فيها مستطيلات) والا فالسأم والشكاسة يحلان محل الحيوية والمرح وطلاقة المحيا ذلك انها كانت تدري بوجود خميرة منشطة بين الجمهور المبتهـــج في المهرجان ولولا ذلك ما تناولت تابلا منحها النشاط والحيوية فهناك اسباب وحوافز لابرازاحسن ما فيها من مفاتن .

في قاعة الرقص لم يكن موجودا اي متفرج ذكر دون ان يكون متزوجا او ابا ـ باستثناء المسيو بول ـ الذي كان (الجنتلمان) والمخلوق الوحيد الذي يقود طالبة الى المرقص وهـــذه المهمة انفرد بها واوليت له بشكـل استثنائي اولا لوجود عادة قديمة بصفته احد اقرباء المدام بيك الـــذي توليه ثقتها المطلقة وثانيا لانه استأثر بكل شيء بطريقتـه الخاصة دائمـا وكان يفعل ما يروق له فعله وثالثا ولانه كان عنيـــدا ومتصلبا ومتحيزا وسريع الغضب ومهما كان من امره فقـد أولي روح الشرف ومنح الثقـة لايجاد نظام اعدل وانقى متسم بالامن التام وبان مثل هذا النظام بقيادته لن يناله الضر او الاذى .

هناك الكثير من الفتيات لم يكن نقيات السرائر ابدا الا انهن مع ذلك لم يجرأن على خيانـة ردائتهـن وفظاظتهن الطبيعية بحضور المسيو بول او يضحكن بوجهه اثناء القائه خطابا عنيفا او يعلين ويرفعن اصواتهن ولـو قليلا في وقت يكون هو منشغلا بازمة وقد يحلو له ان يرقص مع احداهن والويل لمن يريد التدخل او اخراجه من جادته حينذاك .

هناك من يسمح لهم بالدخول كمتفرجين بعـــد مزيد من التوسلات وبالتأثيرات والتقيدات وبممارسة خاصة وصعبة من طبيعة المدام بيـــك الطيبة التي تمضي طيلة اوقات كـل مساء بمراقبة شخصية لـكل ارجـاء الساحة القصية الباردة الموحشة المظلمـة وهنـــاك مجموعة من الشبان البائسين المحرومين اولاد امهـــات الطالبات اللواتي شقيقاتهم طالبات في المدرسة . ان المدام كانت تمضي طيـلة المساء معهم تحـن اليهم حنو الام ولكنها نظامية معهم وكالتنين قوة وحولهم نطاق من الحراسة. ويتوسلون بها ان تسمح لهم بالمرور لمراقصة احدى الطالبات اومراقصة تلك الشقراء

او ذات الشعر الفاحم المتطاير تلك ويكون جوابها ٠٠صه٠٠ لازم السكوت لن تمر الا على جثتي ولن ترقص الا بمراقبة من راهبة الحديقة ٠ وتمشي هنا وهناك بابهة وجلال بين صفهم كبونابرت صغير ببدلتها الحريرية ذات الالوان ٠

كانت المدام على علم ببعض ما هو موجود في العالم وعلى الملم بالقدر الكثير من الطبائع والسرائر البشرية ولا اظن ان هنالك مديرة اخرى في (فيليت) تقبل بوجود شبان داخل حيطان مؤسستها ولكن المدام بيك ادركت انها بسماحها بذلك بمناسبة كمثل هذه المناسبة تكون قد قاومت الضربة بضربة اشد ونالت بذلك نصرا كبيرا وفي المقام الاول اشرك اولياء الطالبات بهذه الحقيقة التي لم تحصل الا بوساطتهم وثانيا ان سماحها بدخول الافاعي ذات الاجراس بما تتصف به من سحر وخطورة يفضي الى ابراز المدام بيك في الوضع الاقوى وهو كونها مراقبة من الصنف الاول وثالثا يكون لوجودهم مقومات المتعة على اوسع نطاقها وأبهاها ٠

وكانت الطالبات تدرك ذلك وتشاهده وان وجود مثل تلك التفاحات الذهبية ذات البهاء اللامع من الشباب على مبعدة منهن ينعش روحياتهن ويلهبنها على شاكلة لا يتسنى لاي ظرف آخر الهابها ويسري مرح الاطفال الى الوالدين وتموج الحياة بمرحها حول قاعة الرقص تموجا سريعا زدعلى ذلك انهم يتمتعون ـ وان كانوا تحت الرقابة والتقييدات ـ فالمدام لاتريد ان يشعر هؤلاء بالكآبة وبذلك يلاقي مهرجان المدام بيك تجاحا منقطع النظير في كل سنة لا عهد لاي مهرجان آخر به في البلاد ٠

لقد لاحظت ان الدكتور جون كان يسمح له في اول الامر بأن يتمشى بحرية بين الصفوف ولكن كانت تحيط به رقابة شريفة وقوية تحترم شبابه وجماله ولكن ما ان يدق الجرس حتى تقبل المدام اليه مهرولة ضاحكة قائلة له « تعالى ٠٠ ايها الذئب ٠٠ تعالى ٠٠ انت ترتدي لباس الخروف وعليك الخروج من الحظيرة مع ذلك ٠٠ تعالى ٠٠ لدي عشرون من معرض الوحوش في اساحة فانضم ايهم » ويقول لها الدكتور جون « ولكن ليس قبل ان تسمحي لي برقصة واحدة مع طالبة اختارها بنفسي » وتحدجه المدام بنظرة غضوبة قائلة « أو لديك الجرأة والوقاحة لتطلب مني ذلك ؟

انه جنون محض وامر لا اخلاقي فاخرج من هنـا ٠٠ اخـرج ٠٠ وتسوقه امامها حتى توصله الى مكان الآخرين وتلحقه بهم ٠

وعلى ما ظننت تبرمت جنيفرا بالرقص وتضجرت منه وعند رجوعي قصدتني والقت بنفسها على المقعد الطويل وقعدت بجانبي وبتظاهرةعرفت كيف اتخلص منها منذ السابق لفت ذراعها حول عنقي وبكت بكاء هستيريا وتعالى نشيجها وهي تقول « لوسي سناو ٠٠ لوسي سناو ٠٠ » وقلتبلهجة جافة « وما الذي ألم بك في عالمك هذا ؟ » وقالت لي « كيـف ابدو الان ؟ كيف ابدو في هذا الليل ؟ » وقلت لها ببرود وجفاء « منظرك اعتيادي » ٠
وقالت لي « أيتها المخلوقة الساخرة ٠٠ لم يصدف ان كلمتيني ابـدا باية كلمة لطيفة ولكنني بالرغم منك وبالرغم من كل الحاسدين الآخرين اعـرف انني جميلة واشعر بجمالي واراه بعيني في مرايا كبـيرة الحجم في غرفة تغيير الملابس حيث ارى فيها قوامي وشكلي من رأسي الى اخمسقدمي فهل لك ان تأتي معي الآن ونقف كلتينا امامها ؟ » وقلت لها انا موافقـة ايتها الآنسة فانشاوي فانت مغرورة الى الحد الاكبر من الغرور » ٠

وكانت غرفة تبديل الملابس قريبة جدا فدخلناها وقد وضعت ذراعها على ذراعي واخذتني الى المرآة وبدون ان اقاوم او اصيح او ابدي ملاحظة وقفت وسمحت لها بان تتمتع بحبها لذاتها وبغلبتها وانا راغبة في معرفة الى اي حد تستطيع ان تبتلع من كبريائهـا واعجابها بنفسهـا ولـو كان بمقدورها لاتخمت نفسها بها وكنت ايضا اريد ان اعرف ما اذا كانيغزو قلبها اي احترام او اعتبار للآخريات وما اذا كانت على استعداد للحد من عبث اعجابها الشديد بنفسها ٠

ثم حولتني عن المرآة بعد ان نظرت الى نفسها والى نفسي من كـل الجوانب وابتسمت وحركت عقائصهاواعادت لمس نطاقها ونشرت فستانها واخيرا سحبت ذراعها من عـلى ذراعي وانحنت باحترام ساخـر وقالت : « لا اريد ان اكون انت وان اعطوني مملكة » وكانت ملاحظتها اكثرسذاجة وبساطة من ان تثير غضبي واكتفيت بان قلت لها « حسنا جدا » وسالتني وماذا تعطين لقاء ان تكوني مثلي؟»فاجبتها « ستة بنسات على غرابتهاليست بالقليلة ٠٠ انك لست سوى مخلوقة مسكينة مثيرة للشفقة » ٠

وقالت لي « انـت لا ترين هذا الرأي فيقرارة نفسك » وقلت لها « في قلبي ليس لك شكل يحل في مكان انما احيأنا اقلبك في ذهني تقليبا فقط » وقالت بلهجة معنفة « ولكن عايني فقط الاختلاف الكائن بين وضعينا ثم شاهدي مدى سعادتي ومدى بؤسك انت » وقلت لها « استطردي في كلامك فانا اصغي اليك » وقالت لي ما يلي:

« بالدرجة الاولى انا ابنة عائلة نبيلة ومع ان ابي ليس غنيا فلدي امل في الفوز بأرث عمي ثم انني في السادسة عشرة مـن عمري وهو ابدع عمر ممكن ٠ ولي ثقافة مكتسبة من الجزيرة الاصلية ومع انني لا اتهجى اللفظات فلدي مآثر واعمال بارعة كثيرة جدا فانا جميلة ولا يمكنـك ان تنكري ذلك ولدي الكثير من المعجبين بجمالي اختارهم كمـا يحلو لي ففي هذه الليلة بالذات سبيت قلبي اثنين من الســادة الجنتلمانية وفي فكري وخيالي ان نظرة الموشك على الموت من جراء اعجابه وتعلقه بي هي التي تعزز معنويتي واهوى ايصالهما الى حالة من اصفرار الوجه وهما يتبادلان النظرات الحادة من أجلي ويرنوان الي بنظرات الشغف الموهنة ٠٠ هذا انا ٠٠ انا السعيدة ٠٠ أما انت فلست سوى فتاة تعيسة »واستطردتتقول:

« في افتراضي وظني انك لست ابنة احــد فقد كان لديك اطفال صغار عندما جئت لاول مرة الى « فيليت » وليس لك اقارب ولا يمكن ان تسمي نفسك شابة وانت في الثالثة والعشرين مـن عمرك ٠ وليست لك كياسة او اشكال جمالية وليس لكجمال اما بالنسبة لما تزعمينهمن وجود المعجبين بك وانت جاهلة حقيقة امرهم وليس لك حتى حــق التكلم في الموضوع ٠٠ انـك تجلسين صماء بكماء عندما تقــدم المدرسات ارقامـا ومعلومات وفي اعتقادي انك لم تحبي احداً ولن تحبي احدا أو تعشقياحدا بمعنى العشق الصحيح لانك لا تتحسسين به وهذا حسن لانك وان كنـت على وشك ان يتحطم فؤادك فانت لم تحطمي قلب احــد اليس هذا كله صحيحا ؟ »

ورحت اجيبهـا قائـلة لها « ان القســم الاكبر مما قلتــه عنـك صحيح ٠٠ ربما يكون بك نوع من الطيبة يا جنيفـرا ـ اذا اردنا التكلم بامانة ـ ان تلك الحية الرقطاء زيلي بيير لا يمكن ان تتكلم على الشاكلة التي تكلمت فيها ٠ ومهما كان حظي سيئا ايتها الآنسة فانشاوي كما جاء في أقوالك فانني اربأ بنفسي ان اشتريك بستة بنسات روحا وجسدا » ٠

وقالت لي « هذا كله تقولينــه عني لانني لست ذكية او هـــذا كل ما تظنينه بي ؟؟· لا احد في العالم يهتم بالذكاء سواك » وقلت لها « ارى الامر على عكس ما تقولين ·· أنك في رأيي ذكية ·· بطريقتك ورشيقة حقا ولكنك تكلمت عن سحق القلوب تلك المتعة العظيمة التي لم يتسن لي ان اجربهــا بجــدارة ·· صلي على ارواح اولئك الذين حــدا بــك غرورك وخيلاؤك الى ان تظني بانهم انتحروا من اجلك هذه الليلة » ·

وقربت شفتيها مـــن اذني وهمست « ايزيدور والفريد دي هامال كلاهما هنا » وقلت لها « احقا ما تقولين هل لي بان اراهما ؟ » وقالت لي « هنا مخلوق عزيز على قلبي ·· يظهر ان فضولك قد ثار اخيرا ·· اتبعيني وساريهما لك » ومضت بفخر واعتزاز امامي ثم قالت لي « لا تتصوري انك ستشاهدينهما جيدا من بين المقاعد » وحولت نظرها الى الجهـــة الاخرى وقالت لي ان المدام تبقيهما بعيدا جدا عن هـــذا المكان فلنعبر الحديقة وندخل من جانب الممر ونقاربهما من الخلف · سيمنفوننا ان وجدونا ولكن لا تهتمي بذلك » ·

وفي اول الامر لم اهتم فمشينا في الحديقة · ووصلنا الى الممر عن طريق مدخل خاص هادىء حتى وصلنا الساحة وبعد ان خلفنـــا كليتنا ظلينا في الممر وصلنا الى مكان قريب نستطيع منه ان نشاهــد فريق الشباب واظن انني شخصت دي هامال حتى دون ان تشير اليه من وصفها السابق فقـــد كان ذا انف مستقيم وسيماء جميلة فهو غندور حسن التألق وكانت قسمات وجهه صغيرة جدا ويداه ورجلاه قصيرة وكان جميلا وغضا وانيقا كالدمية ولباسه جميل وشعر رأســه ممشط على أحسن ما يكون التمشيط وكذلك كان حذاؤه وقفازاه وربطته جميلة وكان شابا ساحرا بحق وحقيق وقلت لجنيفرا بصوت عال انه شخص محبوب وهنأتها على ذوقها ·

وسالتها ما هو رأيها فيما صنعه دي هامال باجزاء فؤاده المسحوق هل حفظها في قنينة عطر فواح ام احتفظ بها في عطر الزهور ؟ ولاحظت ايضا باستحسان ممزوج بالطرب العميق ان يدي الكولونيل لم تكن اكبر من يدي الآنسة فانشاوي تقريبا وقلت لها ان هذا قد يكون امرا مناسبا لانه يستطيع ان يستخدم قفازيها فيلبس يديه بهما اذا اقتضت الضرورة ومن عقصات شعره قلت لها أنني مشغوفة بها وكذلك بحاجبيه اليونانيين وتكوينة راســه

الكلاسيكية الفاتنة واعترفت بانني لاامتلك اللغة التي تفي حق هذا الجمال المكتمل ٠

وقالت لي جنيفرا المتغطرسة القاسية « وماذا لو كان عشيقك ؟ » فأجبتها « انها سعادة متناهية بحق السماء لو ان الامر كان كذلك » « وقلت لها » لاتكوني قاسية وعديمة الانسانية ايتها الانسة فانشاوي ٠ ان زوجك بمثل هذه الافكار في رأسي هو كمن يرى لقايين الطريد المسكين منظر الفردوس « وقالت لي » اتحبينه اذن ؟ ٠٠ فقلت لها « حبي الحلوى ولحم الخنزير والفاكهة المسكرة المجففة والمربيات وزهور المستنبتات الزجاجية » ٠

وامتدحت جنيفرا ذوقي لأنها تحب حبا جما كل هذه الأمور وقلت لها « الان ماذا عن ايزيدور ؟» اعترف انني اردت ان اعرف المزيد عن منافس دي هامال ولكن جنيفرا كانت مشغولة البال بهامال وقالت لي « الفريد سمح له بالمجيء الى هنا هذه الليلة عن طريق نفوذ عمته المدام لابارون دي دورلود والآن بعد ان شاهدته الا تعرفين لماذا انا بمثل هذه الحيوية والنشاط طيلة هذا المساء ومثلت بصورة جيدة ورقصت رقصاتي الحلوة تلك ولماذا الآن انا سعيدة سعادةالملكة ؟ الهي ٠٠ الهي ٠٠ماأروع مشاهدته وما اسعدني اذ أصوب نظراتي اليه ثم الى الآخر تلك النظرات التي جننتهما بها » ٠

وسألتها ٠٠ « وماذا عن الآخر ؟٠٠ اريني الآخر ٠٠ ايزيدور ؟ » فقالت لي « لا اريد ٠ » وسألتها « لماذا ؟ » فاجابت « انا خجلى منه » وسألتها ٠٠ لماذا ؟٠٠ فاجابت همسا « لانه٠٠ لانه ٠٠يمتلك لحية باللون البرتقالي الاحمر » قلتلها « كل سرما بين اثنين شائع لا تهتمي اريني اياه وانا اتعهد امامك بان لن يغمى علي ٠ ونظرت الى ما حولها وفي ذلك الوقت تماما سمعنا صوتا انكليزيا يتكلم وراءها وورائي قائلا « انكما واقفتان في مكان خطر من لعبة الداما وعليكماان تخرجا من هذا الممر »٠

وقلت له وانا ملتفتة اليه « لا يوجد هنا لعبة الداما ايها الدكتور جون » وتابع الدكتور كلامه وهو يلاحق جنيفرا بمنتهى الود والحنان قائلا « انها تبترد بسهولة فهي رقيقة وينبغي الاهتمام بها افلا تفتشين

لها عن شال ترتديه ؟٠٠وقالت الآنسة جنيفرا بعجرفة وكبرياء٠٠«اسمح لي ان اقدر ذلك بنفسي ٠ انا لا اريد شالا » وقال لهـا الدكتور « ان ملابسك شفافة وكنت ترقصين وجسمك ساخن » وردت عليه بسرعةقائلة « انت دائما تلقي المواعظ ودائما تنصح وتدلل الناس » ٠

ولم يجب الدكتور جون على ما كان المتوقع وبدا عليـه بوضوح ان اذى اصاب قلبه بدا ذلك في عينيه اللتين شاع فيهما الحزن والالم وتحول عنا قليلا وصبر نفسه ولما كنت اعلم اين يوجد الكثير من الشالات اسرعت وجلبت واحدا منها ٠ ولو كان لدي القوةعلى تلبيسه اياها للبسته ولكنني مع ذلك نشرته نشرا جيدا حول فستانها القطني الرقيق مغطية به عنقهـا وذراعيها تغطية جيدة وباهتمام زائـد وسالتها بهمس عنيف نوعا مـا « هل ذلك ايزيدور ؟ » ٠

ودفعت شفتيها الى اعلى وابتسمت واومأت برأسها دلالة الموافقـة وكررت عليها السؤال ذاته « هل ذلك ايزيدور ؟ » واجابت انه هـو ٠٠ فما اخشنه بالنسبة للكولونيل الكونت ثم اردفت قائلة « يا الهي كيـف يلحينه ؟ » وذهب عنا الدكتور جون ورددت صدى كلماتها ٠٠ الكولونيل ٠٠ الكونت ٠٠ اللعبة ٠٠ القراقوز ٠٠ القـزم ٠٠ المخلوق المسكين المركب النقص » ٠

وقلت لها « امن الممكن ان رجلا نبيلا (جنتلمان) رائعا كالصورة وكانطيف يقدم لك يده الكريمة وقلبه الشهم ويعـدك بان يحافظ عـلى شخصك الرديء النـوع وذهنيتـك البائسـة في اوقات الشدة والزعازع ومتاعب الحياة وانت تتعالين عليه وتستخفين به وتلسعينه وتعذبينه ٠؟ الديك السلطة لتفعلي به ذلك ؟ ومن ذا الذي اعطاك هذه السلطة ؟واين هي ؟ هل هي كامنة كلها في جمالك وفي ردائـك القرنفلي الابيض وفي هيكلك وبشرتك وشعرك الاصفر ؟ وهل هـذا الذي تفعلينه به يجعله يرمي بروحه على قدميك او يحني عنقه تحت نيرك ؟ وهل تظنين بانك في ذلك تشترين وده وعطفه وحنانه وافكاره وآماله واهتمامه ونبله وحبـه الصميمي ؟ الم يكن لك كل ذلك ؟ هل تزدرينـه وتستخفين به ؟ انك بذلك تتظاهرين وتنافقين فقط فلست بالجادة ٠ انـك تحبينه ٠ انك

تشتاقين اليه بيد انك تعبثين بقلبه لكي تبقي صلته بك اوثق ومؤكدة اكثر ؟ وكيف تستمرين على هذه الحالة ؟ انالا افهم نصف ما قلتيه لي » ٠

واخرجتها الى الحديقة بسرعة واجلستها على المقعد الطويل وطلبت منها الا تير موضوعا حتى تعترف بانها تعني في النهاية أما ان تقبل الرجل او القرد ٠ وقالت لي ٠٠ انت قلت انه برجوازي ذو شعر رجراج كالرمل وان اسمه ينطبق على جون وهذا يكفي فانا لا اريده اما الكولونيل دي هامال فهو جنتلمان ذو صلات جيدة واخلاق رفيعة ومحيا جميل ووجه شاحبة فيه كل عناصر التشويق وشعر وعينان كشعر ايطالي وعينيه ثم ان عشرته مريحة لي فهو على هواي ومرادي وليس حساسا وجديا كالآخر انما هو شخص استطيع ان اتحدث معه حديث الند للند وعلى اساس متعادل وهو غير مزعج ولا ثقيل الظل ولا يزعجني بما هب ودب من المزعجات وبمواهب لا استذوقها ولا هم لي بها ٠ والآن ارخي مسكتك عني ولا تشدديها ثم ارخيت قبضتي بالفعل اما هي فقد اسرعت في الذهاب واثبة ، ولم يرق لي اللحاق والامساك بها ٠

ومهما كان من امر فانا لم احجم عن العودة مرة اخرى باتجاه الممر لكى القي بنظرة أخرى الى الدكتور جون فلاقيته عند درجات السلم الكائن في الحديقة حيث ينسكب ضوء احد الشبابيك على مسافة واسعة ٠ ولم اخطيء صورته المناسبة تناسباجيدا فقد كان يحمل قبعته في يده ولا مثال لجمال رأسه المرفوعة ولحاجبيه البديعين ووجهه الرجولي ٠ ان محياه لم يكن رقيقا ناعما او ناحلا كوجه المرأة ولا منحوتا نحتا ولا مجزءا لكي يخسر من القوة المحركة ون اهمية ما غنمه من التناسق ٠

هناك المزيد من المشاعر والاحاسيس تنطق في ارجاء محياه احيانا وفي عينيه مشاعر واحاسيس صاتة وهذه كانت آرائي به فهو كل ذلك عندي وقد راودني شعور غامض من العجب واستحوذ علي استحواذا حين نظرت اليه ٠ ولم يكن قصدي الدنو منه ومحادثته في الحديقة فحدود تعارفنا لا يسمح بمثل هذه الخطوة وانما كان قصدي ان ارمقه من بين الجميع دون ان يعرف او يراني احد وعندما تقدمت اليه وحيدة ترددت الا انه كان يفتش عني او بالاحرى عمن كانت معي ولذلك نزل من الدرجات ولحق بي في الممشى الذي تكتنفه الاشجار ٠

وسالني بعد ان ادركني « هل تعرفين الآنسة فانشاوي ؟ كثيرا ما اردت أن اسالك ما اذا كنت تعرفينها ام لا » وقلت له « بلى ٠٠ اعرفها٠ » وسالني «معرفة صميمية ؟؟ »فأجبته « صميمية بقدر ما اعرف » وسالني « ما الذي فعلتيه معها الآن ؟ » فاجبته « هل انا الحافظة او القيمةعليها؟» وكان يودي ان اسال ولكنني اكتفيت بهذا الجواب ثم واصلت قائلة له « لقد زعزعتها زعزعة جيدة وكنت اريد مضاعفة هذه الزعزعة ولكنها تملصت مني وولت هاربة » ٠

وسألني قائلا « هل انت مستعدة لتسجيل فضل علي بان تراقبيها في هذه الامسية وتلاحظين ماذا كان لا يبدر سوء منها ٠٠ كأن تهرب بعد الرقص مباشرة وقلت له « ربما اراقبها فترة من الوقت طالما انت راغب في ذلك بيد انها تؤثر طريقتها الخاصة وتفضلها اكثر مما يمكن السيطرة عليها ومراقبتها » وقال لي « انها في ريعان الشباب وساذجة الى حد البراءة » وقلت له « وأنا احسبها لغزا غامضا » وسالني باهتمام زائد « هل هذا صحيح وكيف ؟ » فاجبته « من الصعب علي ان اوضح كيف ؟ من الصعب ـ في الاقل ـ ان اتحدث لك انت عن الكيفية ؟ » وسال « لماذا ٠٠ انا ؟ » وقلت له « ليست مسرورة ـ كما ينبغي ـ لان تكون صديقها » وقال لي « ولكن ليس لديها اقل فكرة عن مدى صداقتي لها وهذه هي ـ بالضبط ـ النقطة التي لا استطيع اعلامها بها فهل لي ان اسالك ما اذا كانت قد تكلمت عني بحضوري ؟ ٠٠٠ وقلت له « عندما تتحدث عن ايزيدور غالبا ما يرد ذكرك على لسانها وعلي ان اضيف على ذلك انني لم اكتشف الا قبل الدقائق العشرة الاخيرة انك وايزيدور متمادلان ٠ ومن خلال هذا الوقت الوجيز فقد عرفت ـ يا دكتور ـ ان جنيفرا فانشاوي هي المخلوقة التي اهتممت بها انت تحت هذا السقف منذ مدة طويلة وانها هي القوة الجذابة التي استهوتك وخلبت لبك (في شارع فوسيك) وانك من اجلها غامرت في الحديقة وتحريت عن عليبة الجواهر التي رماها منافسوها » ٠

وقال لي « انت تعرفين كل شيء » فاجبته بلى ٠٠ اعرف الكثير » وقال لي « اعتدت منذ ما يزيد على السنة ان التقي بها في مجتمع الناس وان السيدة كولمونديلي صديقتها هي احدى معارفي ولهذا اشاهدها كل يوم احد ولاحظت بانها غالبا ما تتكلم عني تحت اسم (ايزيدور) فهللي

ان اسالك ـ بدون نقض العهد او خرق الثقة ـ عن لهجتها في التحدث عني وعن تحسسك الخاص بملاحظاتها عني ؟ انني قلق ـ بنوع ما ـ واروم معرفة ما تلزم معرفته لانني معذب بشكوكي وعـدم استقراري بكيفية تعاملي معها » ٠

وقلت له « انها تخالفك تماما فهي تتبدل وتتغير كالهواء ٠٠ وقال لي « تستطيعين ان تجمعي عنها فكرة عامة فما قولك ؟ » وقلت لـه « لا استطيع ان افعل ذلك ولكن لا فائدة من ايصال هذا الراي العام اليك ثم انني اذا قلت لك انها لا تهواك فانا عليمة بأنك لن تصدقني » فقال لي « انك متكتمة وفي رأيي ان ليس لديك اخبار جيدة توصلينها لي وعلى كل حال اذا كانت تشعر ببرود ومقت نحوي فهي علامة على انني لااستحقها وقلت له « هل لديك شك بنفسك ؟ وهل تعتبر نفسك ادنى منزلة اوقيمة من الكورلونيل دي هامال ؟ » ٠

وقال لي « احب الآنسة فانشاوي اكثر ممـا يحب دي هامال اية مخلوقة واستطيع ان أعنى بها واحميها بافضل من دي هامال ومع احترامي لهذا الرجل اخشى ان تكون قد وقعت ضحية توهم به فاخلاق هذا لرجل معروفة لدي وكذلك ماضي اسلافه جميعا ٠ انه ليس جديرا بصديقتك الشابة الجميلة » وقلت له « ينبغي على صديقتي الشابة الجميلة ان تعرف ذلك وان تدرك من هو الجدير بها وتشعر به واذا كان جمالها او دماغها لا يصلحان للاهتداء الى هذه الحقيقة فانها تستحق دخـول تجربة الدرس القاسي » وقال لي « الست انت قاسيـة عليها نوعـا ما » وقلت له « انا قاسية جدا ٠٠ اقسى من ان اريد اظهار الحقيقة لك » وينبغي عليك ان تصيخ السمع للنقد القاسي الذي به اعطف على صديقتي الشابةالجميلة فقط من اجل ان تصطدم بافتقاري الى اعتبارات العطـف على طبيعتها الكيسة بالذات » ٠

وقال الدكتور جون ٠٠ « انها جد محبوبة وليس بمكنة المرء سوى ان يوليها الود والحب وانت او اية امرأة اكبر منها سنا ينبغي ان تشعر ازاء مثل هذه الفتاة الحورية البسيطة البريئة شعور الام او شعور الاخت الكبرى وتعطفعليها٠٠ايتها الملاك الجميل اللبق الا يحن فؤادكاليهاعندما

تسرك وتسكب في اذنك ثقتها الطفولية النقية فما اشـد تسلطك عليها » قال هذا ثم تنهد امامي ٠

وقلت له « بدأت اقطع حبل هذه الثقة بين حين واخر ولكن هل لك ان تعذرني ايها الدكتور وتسمح لي بان اغير الموضوع هنيهة ؟ اقول اي شخص شبيه بالاله هو هذا الشخص المسمى دي هامال ؟ وما هو هذا الانف الذي يتراءى على وجهه هل هـو انف كامـل ؟ هل هـو كالنموذج الاول المصنوع من المعجون او الطين ٠ الا تستطيع ان تصنع مثيلا له من مثـل هذه المواد ؟ الا تستطيع ان تصنع افضل وأقوم وانظف منه ؟ ثم انظرالى شفتيه الكلاسيكيتين وذقنه والى مشيتـه وجلسته (المهيبتين) ٠٠ » ان دي هامال دمية لا تستحق الذكر رغم ان البعض يعتبرونه بطلا وانتايها الدكتور جون وكل من يقل عنه قولبة » تكنون له حبا واعجابا كاله الحرب والالهة الأخرى التي يقال انها ولدت ابولو الجميل الرشيق أله الشعـر والموسيقى وآلجمال عند الاغريق » ٠

واجابني الدكتور جون بفظاظة وخشونة « انها مقامرة غير مبدئية ايتها القردة الصغيرة التياستطيعان ارفعها من نطاقها في اي يوموارميها في وجار الكلب آذا شئت » وقلت له « ايها الساروفيم الجميل ٠٠ ما هذه الفكرة القاسية ؟ الست قاسيا بنوع ما ايها الدكتور ؟ وهنا توقفت للمرة الثانية في تلك الليلة فقد اشتط بي الغضب وذهبت مذهبـا بعيدا يفوق طاقتي وجازفت بالاشتطاط عن جادة سلوكيوطبعي وتكلمت بتوتر عصبي لا روية فيه وبتهور دون ان اتعمد ذلك وهو امر روعني في الحال وبشكـل غريب عندما استعرضت ما بدر مني ٠

وعند نهوضي من فراشي في صبيحة ذلك اليوم كنت متوقعة انني قبل الليل ينبغي ان امثل دور العاشق المرح في مسرحية وبعد ساعة اتباحث مع الدكتور جونبصراحة حول موضوع بدلته المشؤومة وحول اوهامه وكنت انا والدكتور نروح ونغدو في الممشى واذا به يعود ٠ والضوء المنعكس من الشباك اضاء وجهه ولاحظته وهو يبتسم ولكن الحزن السوداوي يطفحعلى محياه وكم تمنيت ان يشعر بالارتياح وباطمئنان القلب وكم احزنني ان يطيل التفكير في الهه الناجمعنمثل قضيته وانيحب ـ وهو في مثل خصائصه وفوائده العظمى ـ حبا لا طائل من تحته ٠

ولم اكن اعرف حينذاك ان التفكير العكسي الطويل الامد هو افضل المراحل عند بعض اصحاب الذهنيات ولم اعرف ان بعض الاعشاب العطرية الزائل عطرها عندما تمس وتفرك يعود شذاها وعطرها اليها من جديد وقلت له يتفجر عاطفي « لا تحزن ايها الدكتور ولا تغتم فلو وجد في جنيفرا شرارة واحدة من استحقاقها لودادك وحبك فانها ستشعر بان عليها ان تخلص لك فكن حريصا وتمسك بالامل ومن الذي يتشبث بالامل -ايها الدكتور - ان لم يكن واحدا كمثلك ؟ » .

ولقاء كلامي هذا حصلت على ما اتصور على استحقاق بدا في نظرته نظرة الدهشة المباغتة وربما الاستهجان . وافترقنا وذهبت الى الدار وانا اشعر بقشعريرة برد ودقت ساعات المدرسة ورنت اجراسها في منتصف الليل . وكان الناس يغادرون بسرعة فالمهرجان انتهى وخفقت انوار المصابيح وبعد ساعة واحدة سيعم الظلام على دور السكن ويلف الظلام كل ارجاء المؤسسة ويشملها السكون ايضا وآويت الى فراشي ولكن جفوني لم تعرف الغمض بعد الذي انتابني من هياج كهياج ذلك اليوم .

الفصـــل الخـامس عشـر

ـ العطـلة الطـويلة الامـــد ـ

بعد مهرجان المدام بيك الذي جرى في العراء والهواء الطلق باسابيع استجماماته الثلاثة التي سبقته وبعد اثنتي عشرة ساعة من مرحه الصاخب ولذائذ طعامه وشرابه وبعد ما اعقبه من يوم كامل من التواني والكسل جاءت فترة الرجعة والارتكاس ثم شهران من التطبيقات الحقيقية والدراسة الشاقة الجدية ·

وكان ذانك الشهران اخر السنة الدراسية ، شــهرا العمل الخالص الوحيد في السنة تحمل فيهما الاساتذة والمعلمات والطالبات ، العبء الاكبر عبء التحضير للامتحان الذي يسبق توزيع الجوائز وكـــان على المرشحات لنيل الجوائز ان يعملن آنذاك بجدية ملحوظة وعلى الاساتذة والمعلمات ان يبدو جانب الاهتمام ويساعدوا عـــلى تدريب التلميذات الاذكى وينبغي القيام بتظاهرة رائعة وعرض مؤثر امام الجمهور وكانت كـــل الوسائل مهيئة تهيئة جيدة لهذا الغرض ·

وقلما كنت اشاهد كيف كانت المعلمات الآخريات يذهبن الى العمـــل اذ ما كنت اريد ان اكون فضولية كما ان مهمتي لم تكن شاقة او مرهقـــة ابدا انما كانت منصبة على ان احشو اذهان تسعين فتاة بطابع مميز عـــن معرفة صعبة ومعقدة هي اللغة الانكليزية كما كانوا يتصورونها وان ادرب تسعين لسانا فيما كانوا يعتبرونه صعب التدريب هو اللفظ والنطق اللاثغ المميز لابناء الجزيرة ·

ودنا يوم الامتحان وياله من يوم مرعب مخيف ٠٠ دنا بعد ان حضر له بكل اهتمام وقد وقع علي العبء الاكبر ، انـــا الوحيدة من بين كـــل المعلمات لان الاخريات لم يتوقع اجراء الامتحان لهن في المواضيع الدراسية التي كانوا يعلمون الطالبات بها فبروفيسور الآداب المسيو بول تولىبنفسه هذه المهمة وهذا الاوتوقراطي جمع كـــل شيء يخص المدرسة في يديه ولم يقبل ان يكون الى جانبه اي زميل حتى المدام بيك نفسها التي كانتتهوى ـ على ما كان يبدو ـ ان تولى امر الامتحان في درس الجغرافيا دراستهـا المحببة التي كانت تدرس بها الطالبات تدريبا جيدا خضعت للمسيو بول وتوجيهاته الاستبدادية ونحى عنه كل هيئة التدريس ذكورا واناثا ووقف على منصة الممتحن وحيدا وازعجه ان يضطر الى الخضوع لاستثناء واحدفي هذه القاعدة ذلك انه لم يكن يجيد اللغة الانكليزية فاضطر الى ترك هـذا الفرع التعليمي لمدرسة اللغة الانكليزية عـلى مضض وعلى وجهـــه علائم الحســد ٠

لقد كانت الحرب المتواصلة التي يشنها على الاحترام الذاتي لكـل آدمي ديدن ذلك القزم المقتدر الفاهم العنيف الشديد الغضب فقد كانتله رغبة عنيفة في التمثيل العام والنيابة العامة مقرونة في شخصــه وفي مقت واحتقار كل شخص يضارعه في خصائصه هذه ولذلك كان يستخدم القمع وان لم يتسن له ذلك يرغي ويزبد كالزوبعة المحصورة المكبوتة ٠

وفي امسية ما قبل يوم الامتحان كنت اتمشى في الحديقة اسوة بغيري من المعلمات والمعلمـين وكـــل التلميذات الداخليـات وانضم الي المسيو عمانوئيل وسيكاره بين شفتيه ومعطفه المتميز الذي لا شكل خاص له يتدلى بلونه الاسود على هيكله وشرابة قلنسوته تظلل صدغـــه الايسر وشارباه الاسودان مفتولان كشاربي القط الهائج ولعينيه الزرقاوتين بريق الغيمة وبدأ في حديثه معي قائلاً « اذن ستتوجين كملكة الى جانبي غدا وليس من ريب في انك ستتوقعين مسرات السلطة فعلىمحياك تالق ايتها المرآة الطموحة الصغيرة السن ٠

والآن ظهر ان في الامر خطأ تاما فانا لا اقـدر ـ ولا استطيع ـ ان اقرر اعجابات من سيظهر غدا وحسن تقديراتهـــم بنفس الدرجة الـذي يستطيعها هو قياسا مع عدد من سيحضر من اصدقائه ومعارفه الشخصيين

الكثيرين ومن معارفي وصديقاتي واعرف الآن ما الذي سيكون عليه الامر الامر غدا فانا اتحدث عن القضية كما هي فبالنسبة لي لم يعمل نجاحي في المدرسة سوى انه القى ظلا من الشهرة الباردة علي فقد عجبت واعجب الآن أيضا كيف انه تصور الامر شهرة كبيرة لي وانني تألقت بحرارة كحرارة الموقد وبوهج كوهجه يبدو انه ابدى اهتماما بعيدا بها في حين انني لم اهتم بها الا اهتماما بسيطا ومع ذلك كنت املك تخيلا كتخيله فانا مثلا يروق لي ان اجد السيد عمانوئيل غيورا مني فالغيرة تنير وتضيء طبيعته وسريرته وتوقظ روحيته وتسلط كل انواع الاضواء والظلال الغريبة على محياه القاتم وعلى عينيه اللازورديتين البنفسجيتين فقد كان يقول دائما ان شعره الاسود وعينيه الزرقاوين هي من عناصر جماله ٠

ولوحظ تلذذ واستمتاع جدي وبسيط في غضبه ومع انه لم يكن له من موجب فانه لم يكن مصطنعا ايضا ولم انطق بما يستدل بانه تنصل عما قاله بحقي وما عزاه لي عن ارتضائي بنفسي بل اكتفيت بالسؤال منه عن موعد الامتحان باللغة الانكليزية هل انه في باكورة اليوم ام في نهايته ؟ وقال لي « لا اتصور انه سيكون في باكورة اليوم قبل ان يأتي اناس كثيرون ليشعروا بالامتنان من طبيعتك او عند نهاية اليوم حين يكون الجميع تعبانين ومنهوكي القوى ولا يتنبه الى خدماتك سوى النزر اليسير من الناس » ٠

وقلت له باكتئاب عاطفي ما اقساك يا سيدي ٠٠ ينبغي ان يكون المرء (فظا) معك انك من اولئك الناس الذين ينبغي ان يوقفوا عند حدهم ويقمعوا انني اعرفك جيدا ٠٠ اعرفك جيدا ٠٠ ان الناس الاخرين في هذه الدار يشاهدونك وانت تمر ويظنون ان الظل العديم اللون قد مر بهم اما انا فقد تفحصت وجهك مرة وكفاني ذلك التفحص » وقال لي « انك مقتنعة بانك تفهمينني اليس كذلك ؟ » ٠

وبدون ان اجيبه بشكل مباشر استطرد يقول (الم تشعري بالرضى عندما افلحت في مسرحيتك الهزلية تلك ؟ لقد شاهدتك وشعرت بالحماسة المتقدة لاحرازك النصر في فراستك ٠ يالها من رمية نارية في نظراتك ٠ انها ليست مجرد نور او ضوء ٠ انما هو شعاع واعتبرته اثا نذيرا »

وقلت له « ان الشعور الذي داخلني في تلك المناسبة ايها السيد – واعذرني ان انا بالغت كل المبالغة في نوعيته وكميته – كان شعورا اجوف فما انا اهتممت بالمسرحية وكرهت الدور الذي انطته بي ولم أعر أي اهتمام او أي تعاطف مع المشاهدين الموجودين تحت خشبة المسرح . انهم كانوا اناسا طيبين بلا ريب ولكن هل اعرفهم انا ؟ هل هم شيء في حسباني؟وهل سيهمني اذا ما احضروني امامهم مرة اخرى غدا ؟ وهل الامتحان في نظري شيء خلا كونه واجبا من واجباتي ؟ وهو واجب اريده ان ينتهي بسرعة فعلا ؟ » .

وقال لي « هل اتناول هذا الواجب من يدك لاتولاه انا ؟ » واجبته « بكل سرور ومن كل قلبي اذا كنت لا تخشى ان تفشل فيه » وقال لي « سأفشل فيه اذ لا علم لي سوى ببعض العبارات باللغة الانكليزية وبعض الكلمات وفي رأيي ان من الافضل ان نشطب على الموضوع كليا ونتخلى عن اجراء الامتحان الانكليزي » وقلت له « اذا رضيت المدام بذلك فانا راغبة» وقال لي « من صميم فؤادك ؟ » واجبته نعم من صميم فؤادي تماما » ثم اخذ يدخن سيجاره بهدوء وصمت ثم التفت الي على حين غرة وقال لي « اعطني يدك ؟ » وبدا الاحتقار والحسد يتوارى عن سيماء وجهه وشاع عليها بدلا من ذلك العطف والرقة والسماحة وقال لي :

« تعالي ... لن نكون متنافسين بل صديقين والامتحان سيجري وساختار اللحظة المناسبة فبدلا من الحيرة والاعاقة التي استشعرتها قبل عشر دقائق – اذ لدي احقادي التي تدرجت معي منذ طفولتي – فانني ساساعدك باخلاص ثم انك وحيدة ومنزوية عن الناس واجنبية وعليك ان تشقي طريقك وتحصلي على عيشك فمن المستحسن ان تشتهري واريد ان نبقى صديقين فهل توافقين ؟ » .

وقلت له « نعم اريد ايها السيد ان نكون اصدقاء من صميم قلبي وهذا ما افضله على الشهرة والابتهاج بالنصر » وقال لي « ايتها المسكينة» ثم تحول عني وذهب في سبيله . وقد تم اجراء الامتحان وانتهى بشكل جيد والمسيو بول صدق فيما وعد به من اجل ان يخفف العبء عني ويسهل مهمتي وفي اليوم التالي كان يوم توزيع الشهادات وذلك اليوم ولى وانقضى

ايضا وانتهى الدوام المدرسي وعادت التلميذات الى دورهن وحلت العطلة المدرسية الطويلة ٠

وتلك العطلة ٠٠ هل اقوى على نسيانها ؟ لا اظـن ذلك ٠٠ ذهبت المدام بيك خلال ايام العطلة الاولى لتنضم الى اطفالها في منطقة تقـع على ساحل البحر ٠ وكان لكل المدرسين الثـلاثة اباء وامهات واصـدقاء آووا ليهم وكل بروفيسور خرج من المدينة ، البعض منهـم ذهب الى باريس والبعض الى ساحل البحر للاصطياف وقصد المسيو بول روما وظلت الدار الدراسية فارغة تماما ولم يبق فيها سواي والخادمة وتلميذة فقيرة الحال متخلفة عقليا ومشوهة الخلقة وقميئة لا تريد زوجة ابيها الساكنة في اقليم بعيد ان تعيدها الى الدار ٠

وشعرت بان قلبي يموت في داخـلي فالاشواق البائسة وترت اوتاره وما اطول ما كانت ايام شهر ايلول وما كان اهدآها وافرغها من الحياة وكم ظهر على مباني المؤسسة التعليمية الموحشة الفراغ والسعة وما أكاب ارجاء الحديقة المهجـورة التي اضحى رماديا من فعـل اتربة المدينـة واغبرتها الصيفية ٠

وعندما كنت اتطلع في بداية تلك الاسابيع الثمانية كان يصعب علي تصور كيف سأعيش الى نهايتها فمعنوياتي اخذت تهبط شيئا فشيئا وحتى التطلع الى امام لم يبد لي كأمل فالمستقبل الاخرس لم يتحدث عن اية راحة ولم يبد لي ما يبشرني بخير ولم يحمل لي أي دافع او حافز لتحمل الشـر المخيم اعتمادا على المستقبل الافضل ٠

وغالبا ما كان يستبد بي عـدم الاكتراث بالوجـود المشوب بالحزن والاستسلام والقنـوط للتوصل عاجـلا وباكرا الى نهـاية كـل شيء فواحسرتاه ٠٠٠ عندما كان المجال يتسع امامي للنظـر في الحياة ـ كمـا يتوجب ان ينظر اليها شخص مثلي ـ لم آجد فيها سـوى صحراء لا آمل فيها ٠٠ رمال ذات سمرة مصفرة خالية من الحقول الخضر ٠٠ لا نخيل ٠٠ ولا آبار تحت مرمى البصر اما الآمال التي كانت عزيزة على الشباب الذي كان يحملها ويمضي بها قائدا فقـد جهلتها تماما ولم اعـد أجرآ على معرفتها ٠

واذا كانت احيانا تدق على باب قلبي فان حاجزا رافضا القبول كان يسد الطريق امامها سرا وعندما كانت ترقص وتلفظ بتلك الطريقة كانت دموع الحزن تنهمر من عيني مدرارا في بعض الاحيان وان لم يسعفها الحال كنت لا اجرأ على قبول ضيافتها وهكذا اخذت اخشى بشكل قاتل الخطيئة والاثم وضعف الحدس ٠

ويا ايها القارىء المتدين ربما القيت علي محاضرة طويلة عما كتبته الآن وبذلك تكون انت فاضلا متمسكا بالمبادىء الاخلاقية وحكيما عاقلا رواقيا وربما ستتهكم علي وتسخر مني وتضحك علي ٠٠ حسنا ٠٠ ليكن كل ذلك منك ومن الآخرين كلهم ٠ خذوا الامر بطريقتكم ٠ انا اقبل الموعظة واقبل بالسخرية والتهكم والضحك ٠ ربما تكونون محقين جميعا في ذلك ولكنني اقول لكم ان الشهر الاول من العطلة كان شهرا طويلا اسود ٠٠ شهرا ثقيلا علي ٠

ان القميئة المعتلة لم يبد عليها انها تعيسة وكنت ابذل ما في وسعي وطاقتي لاطعامها بشكل جيد وابقائها دافئة في فراشها وما كانت تطلب مني سوى الطعام واشعة الشمس وعندما لا تكون الشمس موجودة كانت تطلب نار التدفئة ٠ ان قواها المستضعفة كانت تدل على وجود قصور ذاتي وعطل اما دماغها وعيناها واذناها وقلبها فقد كانت هادئة وراضية ٠ انها لم تكن تقوى على العمل ولذلك كان سنة النوم والسبات سعادتها الحقيقية وفردوسها الحقيقي ٠

كانت الاسابيع الثلاثة الاولى من العطلة حارة ورائقة وجافة ولكن الاسبوعين الرابع والخامس كانا عاصفين ورطبين ولا ادري لماذا احدث ذلك التبدل الجوي تأثيرا قاسيا علي ولا ادري لماذا اوقعتني الزوبعة والامطار الهاطلة مدرارا بعجز فظيع لم آلفه في حياتي قط في حين ان الجو بقي صافيا ورائقا هكذا كان الحال ولم يعد لجهازي العصبي مايقدر على القيام بما كان يقوم به اياما وليالي في ذلك المبنى الهائل الذي عانيت منه الامرين ٠

لشد ما كنت اصلي للسماء من اجل السلوى والدعم وافضى بي الاعتقاد الى ان اتصور بان عدوي الالد هو مصيري وقدري وانه لن يصالحني قط ٠ وفي صميم فؤادي ما كنت استجدي الرحمة والعدالة

وتوصلت الى قرار بانني اصبحت جزءا مما قدره الله لي وبعض الناس يعانون كل المعاناة في حياتهم من جراء ذلك وارتعشت للفكرة المؤكدة بانني واحدة من مجموع يعاني كما اعاني وشعرت ببعض الراحة عندما جاءت ذات يوم عمة المختلة العقل وهي امرأة مسنة عطوفة واخذت مني مرافقتي الشوهاء الغريبة فقد كانت تلك المخلوقة السيئة الطالع عبئا ثقيلا علي ولم اعد اقدر في الآونة الاخيرة على اخذها الى ما وراء الحديقة ولم اكن ابقيها وحيدة لحظة واحدة لان ذهنها الفقير كان - كجسمها الهزيل - معوجا وملتويا ينزع بطبيعته الى الشر ولهذا كان لا مناص من مراقبتها وعدم تركها وحيدة ٠

ولانها كانت قليلة الكلام فقد كانت تجلس الساعات الطوال مستغرقة في تفكير كئيب وتكشر استنكارا وازدراء وتشوه ملامحها بلي قسماتها ليا ازدرائيا دون ان تقوى على التمحيص بين ما يضيرها وبين ما ينفعها فقد كانت كما لو انها سجينة حيوانات متوحشة غريبة لا كآدمية مع المجموعة الآدمية ٠ ثم انها كانت بحاجة الى عنايات واهتمامات شخصية كأن تكون تحت رقابة ممرضة في المستشفى ٠

لقد كنت مرهقة الى درجة انني مرضت وكأنني على شفا الموت فمثل تلك الواجبات ما كان ينبغي ان تكون من نصيبي ٠ ان الخادمة التي ذهبت الآن مع عمتها هي التي اوصلتني الى هذه الحالة وبالسرعة التي تمت بها العطلة لم تعين من تحتل مثل هذه الوظيفة ٠ وذلك الواجب المفروض علي وتلك المعاناة لم تكن بآخر ما شاهدته في حياتي ٠

ومهما كانت تلك الحالة مثيرة للنفور ومرة المذاق فان آلامي الذهنية كانت اسوأ بكثير من جميع الوجوه فخدمتي لتلك المسكينة المتخلفة عقليا حرمتني حتى من قوة رغبتي في ابتلاع اللقمة وكنت اصاب بالدوار في العراء وتحت الهواء العليل ، بيد ان تلك المهمة لم تعتصر فؤادي قط ولم يرف لها جفني ولم تحرق خدي بالدموع الحارة المذابة ذوبان المعدن ٠ وبذهاب المتخلفة العقل تلك تحررت واخذت امشي وفي بادىء الامر افتقرت الى الشجاعة للخروج بعيدا عن شارع فوسيت ولكن تدريجيا توصلت الى بوابات المدينة واجتزتها ٠

ثم توجهت اهيم على وجهي عبر الطريق العـام طريق العربات عبر الحقول ووراءالمقابر الكاثوليكية والبروتستانتية ووراء المزارع ومبانيها الى الازقة والمشجرات الصغيرة وما كنـت ادري اين انا ذاهبة ووخزتني شوكة وحالت الحمى دون ان ارتاح وان رغبتي العارمة في ايجاد رفيقة لي اودعت في روحي بصمات عجز قاتل ، وغالبا مـا كنت امشي طيلة النهار في حرارة الظهيرة الحارقة وما بعد الظهيرة الجافة وفي الغسق المظلم ومـا كنت اعود الا بعد طلوع القمر وبزوغه في السماء ٠

وحين كنت امشي وحيدة كنت اتخيل احتمالات اوضاع الآخرين من معارفي فهناك المدام بيك في منطقة المصـح المائية البهيجة ، مـع طفلاتها ووالدتهـا ومجموعـة صديقاتها اللواتي شاركنهـا في موضـع المنتجـع والاستجمام وكانت زيلي سنت بيـر في باريس مـع اقاربها والمدرسات والمدرسون الآخرون كانوا في دورهم وهناك جنيفرا فانشاوي التي اعرف باتصالاتها جيدا تقضي سفرة سعيدة في الجنوب وبدت لي اسعدهن فقـد كانت في طريقها الى مشاهدة مناظر بديعة تشرق عليها شموس شهر ايلول وعلى الحقول الحو حيث موسـم الحصاد والكروم والخمور المعتقة واشعـة الشمس اللذيذة ٠

ولكن كل هـذا لم يكـن شيئـا بالنسبة لي فانا نفسي شاعرة باشعة شمس الخريف واشاهد اقمار موسم الحصاد وكـم كنت اتمنى ان تغطيني الارض بما عليها من اعشاب ومروج عميقا عميقا بعيدا عن مؤثراتها اذ كنت اقوى على العيش تحت ضوئها ولا ان اجعل منها صديقات او امنحها الحب والود ٠

بيد ان جنيفرا كانت تمتلك نوعا خاصا مـن الروحية يخولها منـح القوة المتواصلة والراحة المتواصلة لابهـاج ضوء النهار وتعطير الظلماء وتضميخها بالشذى وافضـل الملائكة الصالحة الحارسة للانسانية كـانت تحميها باجنحتها وتلف رأسها بلفافها لقد كانوا يلاحقون جنيفرا بمحبـة حقيقية وما كان بوسعها ان تبقى وحيدة وما كنت لاستطيع ان اتصور لها مثل هذه الميتوتة واتصورها شاكرة نعمتها سرا تحب الآن باحتياط وحذر مصممة يوما ما على ابراز مدى حبها لهذا او ذاك واتصور بطلها الامـين نصف واع على شغفها الخجول ومطمئنا من ذلك الوعي ٠

وتصورت صلة العطف المثـــيرة بينهن والرابطة الرائعة لتفاهمهن المتبـادل والوحدة المساندة الدائمة عبر بعـد مئـات الفراسخ حاملة عبر الهضاب الصغيرة والوديان والاغوار ما يقرب بينهن بالصلات وبالرغبـة وكانت جنيفرا قد اصبحت معي تدريجيا كما لو انها بطلة • ففي احـد الايام حين شعرت بهذا الوهم المتزايد قلت « حقا انها جازمة بان اعصابي تبذل مجهودا شديدا وذهني معنى كثيرا ثم ان العلة تسري فيه فما العمل؟ وكيف ساتماثل الى الشفاء ؟ •

وفي الحقيقة لم تكن الظروف التي امر بها مناسبة لشفائي واخـيرا وبعد نهار وليلة من الحزن والعذاب آلم بي مرض جسماني فاضطررت الى ملازمة الفراش • وفي ذلك الوقت اطبق علينـــا الصيف المسمى بالصيف الهندي وبدأت الزوابع الاستوائية تهب علينا وخلال الايام التسعة المظلمة الرطبة ـ التي كانت ساعات ايامها ولياليها تهاجم باندفاع وقوة كل شيء وهي صماء لا تعرف النظام والترتيب مذهلة ومربكة باعصـار صارخ ـ استلقيت في فراشي اثر حمى غريبـة لازمتني واثرت على دمي واعصابي واستحوذ علي السهاد فلم يعرف جفناي طعم النوم فكنت انهض في الليـل وانظر الى ما حولي مترقبـة مجيئهـا باهتمام غـير ان اصـوات النوافذ المتخشخشة وتناوح العصف الليلي كانت لا تجيب بسوى •• نامي ••لن تاتي قط •

وكنت مخطئة فقد جاءت ذات مرة ولكن جيئة غضوبة وجاءت معهـا ـ وقد عيل صبرها من انزعاجي ـ بحلم ثاري ففي ساعة سنت جين بابتست بقي ذلك الحلم قرابة ربع ساعة وهي فترة زمنية ضئيلة ولكنها كافيـة لتعتصر كياني كله بعذاب مجهول وللتباحث في تجربة بلا اسم لها الشكل والسيماء ولها نفس تأثير زيارة من الابدية •

بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة بعد منتصف تلك الليلة زج بقدح بين شفتي زجا••قدح اسود وقوي وغريب لم يسحب من آية بئر انما اترع وملىء من وبحر لا قرار له ولا حدود••قدح مغلي محتواه ممجوج المذاق وبعد ان شربته نهضت من نومي وظننت ان كل شيء قد انتهى • ان النهاية جاءت ثم مرت • وكنت ارتجف من الفزع بعـــد ان عاد الي رشدي وهممت ان اصرخ وابكي واصيح مستدعية بعض الناس لمساعدتي غير انني ادركت ان لا احد هناك يسدي الي المساعدة قط •

ونهضت من الفراش ووقفت على قدمي بعد ان توارت الساعات المرعبة عني وابتعدت عن ذهني المتعب المكدود المعذب ۰ ومن بين اهوال الحلم ظننت ان الاسوأ يكمن هنا وفكرت بالميت الذي كنت اهواه وكان يهواني في حياته وخيل الي انه التقاني في مكان آخر نأء وبعيد وما اسوأ ما كانت حالتي الروحية في اعمق اعماقها ۰۰ يأس وقنوط فيما يخص المستقبل ولم يداخلني حافز لان احاول استرجاع صحتي او لان ارغب في المضي بحياتي ومع ذلك لم يكن في قدرتي الاصاخة لصوت الموت المتعجرف القاسي وحين حاولت ان اصلي لم استطع سوى التلفظ بالكلمات التالية: ۰۰۰ « منذ شبابي وحتى زمن الاهوال التي لاقيتها كنت اعاني ما كنت اعانيه بذهنيتي المضطربة » وما اصح ما جاء فيها ۰

وجاءت الي غرتون منغرفتها البعيدة عني جدا وحثتني علىاستدعاء طبيب فرفضت لانني كنت اتصور ان لا طبيب يستطيع شفائي ۰ وفي احدى الامسيات التي لم اكن اهذي بها من الحمى كما كان حالي سابقا وانما كنت في ذهنية سليمة نهضت من فراشي وارتديت ملابسي وانا شاعرة بالضعف مرتجفة من الونى ولم اعد اقوى على تحمل العزلة وسكون الفراش الطويل فقد استحالت الاسرة البيضاء المروعة اشباحا واستحال كل اكليل من اكاليلها رأسا ميتا هائل الحجم تلفحه الشمس باشعتها واستحالت احلامها ميتة لعالمأكبر من عالمنا ومجرى مائيامتجمدا في محاجر عينية واسعة الفراغات ۰

وفي تلك الامسية توثق الاعتقاد باقوى من الاول في روحي بان القدر او المصير مكون من الحجارة وبان الامل ليس سوى معبود مزور ، كاذب ، اعمى خال من الدماء ومن لبة الصخر الاصم ، وشعرت ايضا بان التجربة التي قدرها الله لي قد بلغت اقصى حدودها وهي الآن تعود الى كفي الحارين الهزيلين المرتجفين ۰ وكانت السماء لا تزال تمطر وتبرق وترعد ولكن في رأيي باعتدال ورأفة اكثر مما كان عليه الحال طيلة النهار وكان الشفق يتكون دون ان يكون له تأثير يذكر ۰ ومن الشبكية لاحظت مجيء غيوم الليل المتدلية سارية على علو منخفض ۰ وبدا لي في تلك الساعة ان في السماء ودا أسى على كل ألم يعانى منه في الارض الدنيا وخفت وطأة حلمي المزعج وتوارت فكرتي السابقة التي لا تطاق ولا

تحتمل من انني غير محبوبة بعد الآن ولا مملوكة بعد الآن ونصف مستسلمة للامل ، انما على العكس من ذلك تأكدت من ان الامل سيضيء بشكل أنصع اذا خرجت من تحت سقف هذا البيت الذي كان يتهدم كبلاطة القبر ثم اذهب الى خارج مدينة صوب تلة هادئة على مبعدة مسافة طويلة من الحقول ·

ودلف الشفق صوب جنح الظلام وانيرت القناديل في الشوارع قبل ان اخرج من تلك الكنيسة المعتمة · ان العودة من حيث اتيت كان ممكنا الآن غير ان توقاني الشديد لتنسم هواء شهر تشرين الاول على التلة الصغيرة الواقعة خارج بنايات المدينة لم يعد حافزا ضروريا بل تناقصت حدته الى رغبة يستطيع العقل ان يعالج امرها وكان منه ان اخضعها وكبحها وكما اتذكر عدت ادراجي الى شارع فوسيت غير ان الامر التاث علي في قسم من المدينة لم يكن لي به عهد من قبل فقد كان القسم القديم منها مليئا بالازقة التي تقوم عليها دور جميلة واخرى قديمة وخربة ·

وكنت اضعف من ان اكون رابطة الجأش بكثير وكنت لاازال عديمة الاكتراث بسعادتي وسلامتي لكيما التزم جانب الحذر والاحتراس فازدادت حيرتي وحراجتي فوقعت في الشرك وفي شبكة من المنعطفات المجهولة لدي وغبت عن الصواب واستعصى علي ان اسأل المارين اين انا · وكانت الزوبعة قد هدأت نوعا ما عند الغروب وعوضت عن الوقت الضائع وحولت تيار الهواء الافقي العنيف من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وجاءت برذاذ المطر الذي اخذ احيانا في الاشتداد وفي الانهمار بغزارة ·

وكان الجو باردا ينفذ الى الجسم بقوة تمزيقية واملت براسي لصده ولكنه اعاد الي ضرباته ولم ينخذل قلبي ابدا لكل ما كان يصيبني غير انني كنت اريد ان يكون لي جناحان لاعلو بهما على الريح الهوجاء العاصفة وانشر ريشهما على قوتها واعدو معها حيث تعدو واندفع حيثما تندفع · وفي الوقت الذي كنت فيه اتمنى ذلك شعرت في الحال باشتداد البرد حين انني كنت مستبردة فقط وشعرت باطراد استنزاف قوتي في

حين انني كنت استشعر الضعف فقط وحاولت الوصول الى المدخل المسقوف لاحدى البنايات الكبرى القريبة ولكن الواجهة وبرج البيت لفهما الظلام المدلهم فتواريا عن نظري وبدلا من ان اترامى على آثار اقدامي وانكفيء عليها كما كنت انوي بدا كما لو انني كنت انحدر الى هاوية ولم اعد اتذكر شيئا بعد ذلك قط .

الفصل السادس عشر

صديقتي ـ اولد ـ لانغ ـ سين

لا اعرف أين ذهبت روحي اثناء ماالغمي علي فمهما شاهدت وحيثما سافرت في غفوتها وغيبوبتها في تلك الليلة الغريبة ابقته سرا خاصا بها دون ان تهمس بكلمة في اذن الذاكرة وقد وقفت حائلا في طريق التخيل بصمت ابدى وربما صعدت الى اعلى ترقب بيتها الابدي آملة في الراحة الآن وحاسبة بان اتحادها المؤلم بالمادة قد تفكك وانحل وربما جاء ملاك وحذرها من التقرب من عتبة الجنة وقادها وهي تبكي مرة اخرى وترتعد ولا تريد الذهاب الى ذلك الشكل الهيكلي البائس وهي مبتردة ومهملة وشاعرة من جراء ما داهمها من قلق ، اكثر من قلق .

وكنت على علم بانها عادت الى سجنها مرة اخرى متألمة وكارهة تئن وترتعد فرائصها طويلا فذهاب من كان يرافقها روحا ومادة كان من الصعب الاتحاد واياه وكان الواحد يحيي الآخر دون ان يقوى على عناقه وقد عاد الي رشدي وشعوري بالضوء ولكنه كان احمر كما لو انه سابح بالدماء والسمع المعلق عاد الي بقوة صاخبة كقوة هزيم الرعد وانتعش الوعي بشعور من الخوف .

وجلست مرعوبة هائمة في منطقة اجهلها بين كائنات غريبة كنت اماشيها وفي باديء الامر لم أع ما كنت انظر اليه فالحائط لم يكن حائطا عندي والقنديل لم يكن قنديلا وكان علي ان افهم ان ذلك هو ما درجنا على تسميته بالشبح ولكن قدراتي استقرت بعد ذلك كل في موقعها وعاودت

ماكنة الحياة الحركة واسأنفت اعمالها النظامية ومع ذلك ما كنت ادري اين انا سوى انني علمت بالوقت المناسب انني نقلت من المكان الذي سقطت فيه فأنا الآن لست ممددة على درج من درجات مدخل المبنى وتوارى الليل وتوارت الزوبعة بين الحيطان والشبابيك والسقوف وحملت الى منزل من المنازل ولكن اي منزل يا ترى ؟٠

وما كان بوسعي سوى ان افكر بالمدرسة الداخلية في شارع فوسين وانا شبه حالمة وبذلت منتهى جهدي لاعرف في اية غرفة وضعوني هل في غرفة المهجع الكبرى أم في احدى غرف النوم الصغرى ؟ كنت متحيرةلانني لم اقو على القاء نظرات خاطفة على الاثاث الذي شاهدته بموجب الماضي باية من هذه الشتق وكانت الافرشة البيضاء الفارغة ناقصة ومن المؤكد ان الخط الطويل من النوافذ الكبرى لم يكن يعود لغرفة المدام بيك الخاصة التي حملوني اليها وهنا وقعت عيناي على كرسي مريح مغطى بالدمقس والمقاعد الاخرى منضدة الواحد بجنب الآخر وبدت لي على درجات ٠

وفي آخر الامر تناهت الى نظري قاعة الاستقبال المريحة حيث نار من الخشب على موقد مشع وهي مفروشة بسجادة ذات زخرف عربي لامع الزرقة وهناك مرآة مطلية بالذهب تملأ الفراغ الكائن بين النافذتين المستورتين بستارتين يميل لونهما الى الاحمر الضارب الى الرمادي ٠ وفي تلك المرآة وجدت نفسي ممددة لا على الفراش ولكن على اريكة ذات ذراعين ٠

وكنت كالشبح عيناي اكبر واكثر اجوفافا وشعري اكثر اسودادا مما كان عليه قياسا مع وجهي النحيف الشاحب شحوب الميت وكان ظاهرا لا من الاثاث ولكن من مواضع النوافذ والابواب والمواقد ان تلك الغرفة كانت غرفة مجهولة في دار مجهولة ٠ والذي كان واضحا هو ان دماغي لم يكن قد استقر بعد اذ انني عندما رنوت الى الكرسي ذي الذراع الازرق بدا لي كما لو انه مألوف معروف لدي وكذلك البردى المنقش والمنضدة الوسطية المدورة بغطائها الازرق والزخرف الخريفي المؤلف من نقوش على صورة اوراق وازهار وهناك كرسيا القدمين الصغيرتين وغطاؤهما

المطرزان بالابرة وكرسي من خشب الابنوس الـذي طرز مقعده وخلفيته ايضا بالابرة وبمجموعة اوراد زاهية على الارضية الدكناء ٠

وبعد ان فوجئت بهذه الاشياء اكتشفت امرا آخر ومن الغرابة ان اقول ان قدامى معارفي كانوا جميعا حولي وكانت صديقتي اولد ـ لانغ ـ سين تبتسم لي من كل زاوية ومن كل ركن من اركان البيت ٠ وكان هناك رسمان منمنمان بيضويان على غطاء مخرم من مادة غـير قابلة للاحتراق عرفت انهما لؤلؤتان ومخملات تلك المجازات البيضاء ووشائج من النسيج القطني الرقيق ومخرمات اقمشة بأردانها ٠

ووجدت على الرف زهريتان صينيتان لحفظ الزينة والزهور واثار قديمة وطقم من طقوم حفظ الشاي الدقيقة مصقولة ومطلية ونحيفـــه نحـافة قشرة البيضة وحلى بيضاوات الالـــوان ومجموعة كلاسيكية من المرمر المحفوظ تحت الزجاج ورسوم قلمية منهية وخطوط من النقوش ٠ وهـذه المنظورات اتعبت عيني وتذكرت الساعات التي اعقبتهـا قطعـة فقطعة ولمسة فلمسة ومنهـــا قلم رصاص ناعم لفتاة المدرســـة يصعب ارضاؤها كانت تمسك به بـين اصابعها والآن يبدو كهيكل من الهياكل العظمية ٠

فاين كنت انا ؟ لا فقط في اية بقعة من بقاع العالم بل في اي عام من اعوام ربنا ؟ ان كل هذه الاشياء تعود الى الايام الخوالي الماضية والى بلد بعيد فقبل عشرة اعوام ودعتهم ومنذ ان كان عمري ١٤ عاما لم التق بهم وسألت بصوت مسمـــوع ٠٠ « اين انا » ؟ واذا بشبح غـير منظـور يستثيره سؤالي وينهض ويتقدم نحوي ٠٠ شبح غير متجانس مع البيئـة عقد اللغز اكثر ولم يكن هذا الشبح باكثر من خادمـة مواطنـة بقبعة الخادمات وبفستان ملون ولم تتكلم الفرنسية ولا الانكليزية ولم افهـم منها شيئا ولا من الوسادة التي كنت قد وضعت رأسي عليها واومات الي بالتزام الهدوء وعدم التكلم واستأنفت اعمالها عنـــد الجزء الادنى من الاريكـة ٠

ثم انشغلت بالحياكة وصرفت انظارها عني امـــا آنا فكنت ارنو اليها باستمرار وعجبت من امرها كيف جاءت الى هنا ؟ وما الذي كانت

تفعله بين المشاهد او خلال ايام فتوتي والذي اثار عجبي اكثر هو مادخل تلك المشاهد وتلك الايام بي آنا ؟ ولما كنت جسد نحيلة وضعيفة للقيام بالتامل في اللغز او في السبر حاولت ان اسويه بان قلت ان ذلك من قبيل الخطأ وانني لم اكن نائمة وانما صاحية تماما ٠

وكنت اود ان تكون الغرفة مضاءة اضاءة جيدة وفضلت لو انني لم اشاهد بوضوح تلك الصور الصغيرة كالحلي والستائر والكرسي المطرز بالابرة فكل تلك الاشياء والآثاث الدمقسي الاحمر اللون الضارب الى الرمادي كانت في الواقع وفي الدقة نفس الاشياء التي تذكرتها جيدا والفتها جيدا بكل دقائقها في قاعة الاستقبال العائدة لدار عرابتي ،دار السيدة بريتون وخيل الي ان الشقة قد طرآ عيها تبدل فقد كانت ذات نسب وايعاد مغايرة لهذه ٠

وفكرت في بدرالدين حسن من قصص الف ليلة وليلة الذي نقله الجني وهو في القاهرة الى بوابات دمشق وخفض جناحيه السوداوين وسط العاصفة واستسلمت لما بذله من جهد بعد ان التقطني من درجات الكنيسة وتعالى بي في الجو كما تقول القصة العربية وحملني فوق الاراضي وفوق مياه المحيطات وانزلني بهدوء ووضعني بجانب موقد (انكلترا القديم) وعلمت ان نيران الموقد لم تعد تحترق امام آلهة البيت الحارسة لها فقد انطفأت منذ مدة طويلة وقصدت الهة البيت مكانا آخر ٠

وعادت الخادمة مرة اخرى لتتفحصني وتلقي نظرة عامة علي لتعرف كيف آل الامر بي وما ان شاهدت عيني المفتحتين كثيرا حتى لاحظت انها ارتبكت واعتبرت ذلك دليلا على وجوب الاهتمام السريع بي فرمت بحياكتها جانبا وشاهدتها وقد انهمكت في موقف صعب وصبت الماء وقاست القطرات من زجاجة ٠ ودنت مني وبيدها كاس من الماء ويالها من جرعة دواء اسود مشوب ستقدمه الي الآن وياله من اكسير الجن وياله من تقطير السحرة واستحضارهم ٠

وفات اوان التساؤل عنه فقد جرعته على مضض وبمرة واحدة وداخلني تفكير هادىء اخذ يداعب دماغي مداعبة لطيفة وسرى السائل هنيئا مريئا بتموج فاتر هوارق من البلسان والبلسم وزايلني المضعف الفاصل وهجعت عضلاتي وفقدت القوة على الحركة واذا كنت قد فقدت الرغبة

فانني لا أحسب ذلك حرمانا • ان تلك الخادمة وضعت حجابا بيني وبين القنديل وشاهدتها تنهض وتفعل ذلك ولم اشاهدها تعود الى مكانها وفي الفترة الواقعة بين ذينك العملين غرقت بسبات عميق •

ويا للعجب •• حين نهضت من نومي وجدت ان كل شيء قد تغير فضوء نار العطلة احاق بي ولم يكن بالضوء الصيفي الدافيء انما كانت الكربة الثقيلة الوطأة للخريف العاصف الرياح واحسست احساسا اكيدا الان بانني في بناية المدرسة الداخلة وتاكدت من ذلك من وقع قطرات المطر على نافذة الباب ومن عصف الرياح بين الاشجار وهي تشير الى وجود حديقة ومن قشعريرة البرد ومن النقاء والصفاء ومن العزلة والاقفرار التي اجد نفسي بينها واقول النقاء والصفاء لان الستائر المعتمة المسدلة امام فراش عصبت عيني وأعشتهما •

ونهضت من افراشي ورفعت الستائر والقيت بنظرة عامة الى الخارج وأستمدت نور ناظري ليقعا على غرفة طويلة كبيرة الحجم مبيضة بالكلس وبنصف اغماضة منهما وبحيرة لازمتني لكيما تتعرفا على المنطقة المحدودة للغرفة الصغيرة ذات الحيطان الملونة بخضرة كخضرة البحار اتضح لدي انه بدلا من النافذة الشبكية الواحدة العالية المظللة بحبل الزهور المتدلية للزينة وبدلا من دزينتين من مجموعة الاشجار والنباتات النامية كل منها يحوي على حوض ماء وابريق لم يكن هناك سوى منضدة عليها ادوات التبرج ونظمت لسيدة ترتدي ثوبا ابيض على تنورة حمراء قرنفلية وهناك مرآة كبيرة مكللة ووتد جميل لتعليق الثياب وعليه شريط زيني يزخرفه ومنضدة الزينة تلك مع كرسي الاتكاء الواطيء الصغير المزين بقماش ابيض اللون والمغسلة التي تعلوها بلاطة من المرمر مجهزة باوعية من الخزف الاخضر • وهذه كانت تزين وتجهز الغرفة الصغيرة بما فيه الكفاية •

لقد شعرت ـ ايها القاريء ـ بخطر وربما سألت لماذا ؟ ووماذا كان في تلك الحجرة الصغيرة البسيطة البديعة بنوع ما لكي يخيف صاحبة الذهنية المخلوعة الفؤاد ؟ انها هذه الاشياء فقط وان مواد الاثاث لايمكن ان تكون حقيقة ككراسي الاتكاء والمرايا والمغاسل ، ينبغي ان تكون اشباح هذه المواد • اما اذا انكر ذلك بشكل افتراضي ودحض كما انكرته

انا فلا يتبقى من استنتاج سوى انني نفسي وصلت الى حالة ذهنية شاذة وباختصار انني كنت جد مريضة ومصابة بهذيان المرض وحتى في ذلك الوقت كانت حالتي اغرب حالة يزعج فيها الهذيان ضحيته وينهكها ٠

وتصرفت ، بل كنت مضطرة الى ان اتعرف على الشيت الاخضر لذلك الكرسي الصغير المريح نفيه والاطار الاسود المطلي لتلك المرآة والآنية الصينية الصقيلة ذات اللون الاخضر المخفف وهي مصنوعة على القاعدة المخصصة لهاالمصنوعة من المرمرالرمادي اللون المكسور من احدى زواياه٠

ان كل هذه اضطررت الى التعرف عليها والترحيب بها وفي الليلة الماضية رحبت بالخشب الوردي بعد التعرف عليه وبالالبسة الجوفية والخزف الصيني وغرفة الاستقبال ٠

وهتفت قائلة ٠٠٠ بريتون ٠٠ بريتون ٠٠ فقبل عشر سنوات انعكست اضواؤها في تلك المرآة ٠ ولماذا تلازمني بريتون بعد مرور ١٤ عاما من عمري بهذه الطريقة ؟ واذا كانت قد جاءت مرة واحدة مجتمعة فلماذا لا تعود كاملة ؟ ولماذا يبدو امام خيالي النكد المضطرب منظر الآثاث فقط في حين ان الغرف والاشياء والمواضع قد ذهبت ؟ وفيما يخص وسادة الدبابيس المصنوعة من الساتان النسيج الحريري الصقيل المزخرف بالخرز الذهبية والمهدب بالمخرمات فلي ملء الحق في ان اعرفها مثلما اعرف الستائر طالما انا التي صنعتها في الماضي ٠

ونهضت من فراشي واخذت الوسادة في يدي وتفحصتها فوجدت ثلاثة احرف رمزية مصنوعة بالخرز الذهبية ومحاطة باكليل اهليلجي مزخرف بالحرير الابيض وهذه الاحرف الثلاثة ل٠ل٠ب رمزت الى اسم عرابتي لويزا لوسي بريتون وتمتمت قائلة ٠٠ « هل انا في بريطانيا ؟ هل انا في بريتون ؟ وسارعت في جر الستارة التي كانت مسدولة على النافذة ونظرت الى الخارج لاستطيع الاهتداء الى حقيقة مكاني وانانصف مستعدة لمواجهة الابنية القديمة الهادئة ولمشاهدة ابراج الوزارة والا فتوقع مشاهدة منظر بلدة في مكان ما او شارع في فيليت ان لم يكن شارع في مدينة انكليزية قديمة وبهيجة ٠

وعلى المعكوس نظرت عبر مجموعة اوراق النبات الملتفة حول النافذة الشبكية العالية ثم الى ما يشبه المرجة والى سطيحة مرجية اشجارها تعلو من جانب الارض الواطئة الكائنة في الجهة الخلفية والى اشجار غابية عالية من التي لم اشاهد مثلها اياما عديدة وكانت الان كما لو انها تئن وتتناوح من عصف رياح شهر تشرين الاول . ومن بين جذوع الاشجار لاحظت صفا مشجرا حيث الاوراق الصفر تقع باكوام ذرتها الرياح سابقا او كانت بدوامة قبل ان تسوقها الريح الغربية وبدا المكان موحشا وغريبا لدي اذ لم يسبق لي ان شاهدته قط .

ومرة اخرى تمددت على فراشي الذي كان في فجوة مظللة من جدار في الحديقة وعندما ادرت وجهي الى الحائط اصبحت الغرفة بما فيها من المحتويات خارج نطاق النظر لانني عندما رتبت وضعي على هذا الاساس نظرت صوب الفراغ الاخضر الكائن بين الستائر المقسمة المثبتات بعرى فشاهدت صورة واسعة الارجاء مطليا اطارها بالذهب كانت مرسومة بشكل جيد بالالوان المائية . صورة رأس ولد رسمها حديث وحي كما لو انه جيد بالالوان المائية . صورة واسعة الارجاء مطليا اطارها بالذهب كانت مرسومة بشكل جيد بالالوان المائية . صورة رأس ولد رسمها حديث وحي يتحدث وهو مفعم بالحيوية .

ويبدو ان الولد المرسوم في السادسة عشرة من عمره مركب تركيبا جيدا وعلى خديه امارات الصحة والدماء الدافقة .. الشعر اسود غير فاحم .. والعينان سوداوان نفاذتان والفم مقوس بابتسامة بهية ووجه يرتاح الى مشاهدته كل ناظر ولاسيما بالنسبة لمن يحملون له الود كالاب والام والاخوات . وكل فتاة مدرسية صغيرة رومانتيكية النزعة لابد ان تهوى النظر ليه وهو في اطاره وبدت تلكما العينان كما لو انهما اذا ما مضى بهما زمن اطول بنوع ما فانهما سيومضان بالحب ويتجاوبان معه بسرعة البرق وفي محاولتي اخذ كل اكتشاف جديد في الرسم بكل هدوء ممكن همست في اذن نفسي قائلة .

عجبا .. تلك الصورة كانت معلقة في غرفة الفطور على رف المستوقد وكانت عالية بنوع ما واتذكر جيدا كيف صعدت على حاملة اداة موسيقية بغية فكها من كلابها وعندما امسكت بها رحت اتفحص تلكم العينين بعمقهما الجميل فكأنما نظراتهما من بين اهدابهما تبدوان كضحكة

مزججة وامعنت النظر بلون الخد ومعبر الفم وصعب علي ان افهم ان بوسع الخيال والتصور ان يبدع في تدويرة ذلك الفم او ذلك الحنك وحتى بجهلي عرفت ان كليهما كان جميلا وامعنت النظر ـ بحيرة ـ في هذا الشك . كيف يصح ان يكون الشيء الذي يسحرك ويأسر فؤادك بهذا القدر الكبير مؤلما لك في الوقت عينه ؟ وفي احدى المرات وبطريق الصدفة اخذت الطفلة الصغيرة (هوم) بين ذراعي ثم رفعتها الى اعالي الصورة وقلت لها انظري اليها وسالتها « هل تحبين هذا الرسم يا بولي ؟» ولم تحر جوابا قط بل اطالت النظر اليه وفي آخر الامر اسود ما هو امام ناظريها الحساسين وقالت لي « انزليني » فانزلتها وقلت لنفسي « ان هذه الطفلة شعرت ايضا بما شعرت به » .

واخذت الآن افكر بكل هذه الاشياء مضيفة ما يلي : « كانت له اخطاؤه ولكن ما ابدع طبيعته وما اندر ما يماثلها . ما اكرمه والطفه وما اشد حساسيته وانصبت ذكرياتي على كلمة ملفوظة بشكل عال مسموع .. غراهام .. وجاء صدى صوت مفاجيء من جانب الفراش قائلا .. « غراهام .. هل تريدين غراهام ؟ » ونظرت اليه .. فالحيرة لم يكن لها بد من التضخم والعجب لم يكن له بد من التأوج . فاذا كان امرا غريبا مشاهدة شكل مصور على الحائط سهل تذكره فان الاغرب منه ان احول وجهي لاشاهده حيالي شخصا آخر سهلا تذكره .. هي امرأة وسيدة حقيقية وواقعية .. طويلة القامة .. ترتدي ملابس فاخرة من الحرير الذي ترتديه الارامل وقلنسوة تغطي رأس تلك الكهلة وجدائل امومية .

لقد كان وجهها هي ايضا جميلا ذا مميزات خاصة جمالية دون ان تكون حسية او خصالية . لقد تبدلت قليلا من حيث بعض مظاهر الصرامة والنشاط تلك كانت غرابتي الصورة المميزة الواضحة المعالم للسيدة بريتون ولازمت السكوت مع انني كنت جد منفعلة سرا واشتد نبضي وتصاعد الدم الى خدي رغم ابترادهما وسالتها « يا مدام .. اين انا ؟ واجابتني وفي مكان امين للغاية مصان صيانة جيدة في الوقت الحاضر فقرري ما تريدين بهدوء بال الى ان تتحسن صحتك فانت تبدين مريضة في هذا الصباح » .

وقلت لها « انني في حيرة من امري كليا ولا ادري ما اذا كنت اقوى

على الاعتماد على مشاعري تماماً أم أن مشاعري تضللني بكل شيء • انت تتكلمين اللغة الانكليزية اليس الامر كذلك يا مدام ؟ » واجابتني « في رايي ان عليك ان تسمعي ما اقوله •• ليس في وسعي التكلم باللغة الفرنسية بمحاورة طويلة فان ذلك يحرجني • ألم تاتي من انكلترا ؟ » واجابتني « وصلت في الآونة الاخيرة من هناك فهل بقيت طويلا في هذا البلد ؟ يبدو انك تعرفين ولدي ؟ » وقلت لها « هل اعرفه يا مدام ؟ ربما اعرفه • ابنك في تلك الصورة » وقالت لي « هذا رسمه يوم كان شابا فانت تلفظت باسمه وانت تنظرين اليه » ثم اومأت براسها قائلة انه فراهام بريتون وقلت لها اذن انا اتكلم الآن مع السيدة بريتون سابقا من مدينة برينونشاير » •

واجابتني قائلة « صحيح تماما •• وانت ؟ قيل لي انك مدرسة اللغة الانكليزية فيمدرسة اجنبية هنا وهذا ما عرفه ابني عنك » وقلت لها « كيف وجدتيني يامدام ومن ذا وجدني ؟ » وقالت لي « ان ولدي سيخبرك بذلك رويدا رويدا ولكنك في الوقت الحاضر مرتبكة ومشوشة واضعف من ان تواصلي الحديث حاولي ان تتناولي فطورك ثم الجاي الى النوم » •

وبالرغم من كل ماعانيته من الانهاك الجسدي والقلق النفسي والتعرض للجو البارد شعرت بان صحتي افضل وانقطعت عني الحمى التي كانت قد هدت كياني وبعد تسعة أيام من عدم تناول طعام صلب عدا السوائل وبعد معاناتي من العطش الدائم شعرت في الصباح بشهية لتناول الطعام ورغم ضعفي الناجم عن اغمائي كان علي ان اتذوق الشاي الذي قدمته لي السيدة واتناول لقمة من الخبز المحمص مع الاخرين • لقد كانت لقمة واحدة فقط وكانت كافية لي لتبقيني على ما يرام لمدة ساعتين او ثلاث ساعات ثم جاءت الخادمة وقدمت لي كوبا صغيرا من الحساء مع بسكويتة واحدة •

وبعد ان حل الظلام على المساء كانت الرياح لا تزال تهب وتعصف والبرد والمطر المدرار الشبيه بالطوفان سائد فشعرت بالتعب والوهن في فراشي وكانت الغرفة ـ رغم جمالها ـ صغيرة الحجم كما لو انها سجن لي واشتقت لبعض التبدل • وانقبضت روحي من القشعريرة الناجمة عن البرد الشديد ومن الاكتئاب المستحوذ علي واردت ان اشاهد الموقد واشعر بحرارته وضللت افكر بابن تلك الكهلة متى ساشاهده ؟ من الموكد انني لن اشاهده الا بعد ان اغادر الغرفة •

واخيرا جاءت الخادمة لتهيء فراشي لنــوم الليل وتهيات لتغطيني بالحرام فوضعتني على الكرسي المزين بالقماش القطني ولرفضي هــذه الاهتمامات بي باشرت بارتداء ملابسي ثم جلست لاتنفس واذا بالسيدة بربتون تظهر مرة اخرى وقالت وهي تبتسم أبتسامتها المعهودة الحلوة « اراك مرتدية ثيابك انت اذن افضل صحة وقوة » .

وراحت تحادثني كثيرا كما كانت في السابق وخيــل لي انها بدأت تعرفني وكان في صوتها وسلوكها معي نفس دليل الاهتمام بي ورعاية وهذا ما آلفته منها دائما حين كنت فتاة واذعنت لــه واحببته ولم تقم هذه على ارضيات تقليدية من الثراء المتفوق او المركز المتفوق ولم يكن بيني وبينها اي مفارقة او اي تفاوت لان شهادتها مضاهية لشهادتي وانما قام على اسباب طبيعية من المنفعة المادية انه الملجأ الذي تقدمه الشجرة للعشب وقد طلبت من السيدة الطلب التالي دون مقدمة رسمية .

« ايتها المدام .. هل تسمحين لي بالنزول الى الجزء التحتاني فانا هنا اشعر بالبرد وبالهمة الفاترة » واجابتني « ليس عــلى قلبي احلى من هذا ان انت تستشعرين القوة لتحمل هــذا التبــدل . اذن تعالي واليك ذراعي اتكئي عليه » وتناولت ذراعها ونزلنا من مجموعة متواصلة مــن درجات السلم المكسوة بالسجاد الى منبسط الدرج حيث يوجد باب طويل مفتوح يؤدي الى غرفة مفروشة بغطاء من الكتان .

وما احلى ما كانت عليه الغرفة من جو مريح وما ادف ما كانت عليه من جراء وجود ضوء المصباح الكهربائي الملون ولهب النــار القرمزية اللون ولاعطاء صورة حقيقية عن الوضع كاي الشــاي حاضرا وموضوعا عــلى منضدة وهو شاي انكليزي وكانما كانت الاشياء الموجودة في الغرفة تنظر الي وديا ابتداء من الوعاء الفضي المعــدني للشاي من النمط القديم والقدر المعدني الضخم واقداح الخزف الصيني الدقيقة السوداء الممزوجة باللونين الاحمر والقرنفلي المطلية بالذهب .

ومن الاشياء المألوفة لدي في الغرفة الكعكة البيزرية المميزة المحلاة بالبذور المعطرة المخبوزة بقالب خاص وهذه الكعكة كانت دائما تشاهــد على منضدة الشاي الخاصة ببريتون بجانب صحنــه مــع السكين الفضية والشوكة الفضية وكان الوقت يؤذن بمجيء بريتون لتناول الشاي وربما

كان انذاك في الدار ولن تمضي عدة دقائق الا واشاهده بعدها •
وقالت مرشدتي لي بعد ان تعثرت بخطواتي وانا ماربجانب الموقد « اجلسي •• اجلسي » واجلستني على الاريكة ولكنني سرعان ما قصدت المنطقة التي وراءها قائلة ان حرارة النار هنا شديدة لاتطاق وعلى مقربة منها وجدت مقعدا اخر يلائمني اكثر • ولم تكن السيدة بريتون معتادة ابدا على احداث ضجيج في وجه اي شخص او اي شيء • وبدون معارضة سمحت لي بأن اتصرف وفق طريقتي الخاصة ثم هيأت الشاي وتناولت صحيفة لتقرأ ما فيها مما يهمها •

وكنت اود ان اراقب كل ما يصدر عن عرابتي وكل حركة من حركاتها التي كانت تتميز بمن عمره عمر الشباب وربما كانت قد اجتازت الخمسين من عمرها ولكن مع ذلك لا قواها ولا روحيتها تأثرت بتقادم الزمن بها ومع انها كانت بدينة كانت في الوقت عينه نشطة وانها وان كانت هادئة ورائقة الطبع فانها في بعض الاحيان كانت تبدو عنيفة • ان الصحة الجيدة والسريرة الرائقة ابقتاها نضرة كما لو انها لا تزال في ربيع عمرها •

وعندما كانت تقرأ احسست أنها كانت تفكر بولدها كما لو انها تصغي اليه ولم تكن من النوعية التي تعترف بانها قلقة • لقد كان الجو لا يزال على اضطرابه دون ان تهدأ ثائرته واذا كان غراهام خارج المنزل وسط هذه الريح الهوجاء التي لا ينقطع عويلها فانني كنت عالمة علم اليقين ان قلب والدته خارج معه يرافقه حيثما يذهب •

وقالت وهي تنظر الى ساعتها اليدوية « لقد تأخر عشر دقائق عن وقته المعتاد » وبعد دقيقة اخرى رفعت عينيها عن الصحيفة وامالت راسها ميلانا خفيفا صوب الباب مما دل على انها تسمع صوتا ما ثم صفا حاجباها واشرقا وبعد ذلك حتى اذني سمعت قعقعة حديد الباب المتقلب ووقع الخطوات على الحصباء واخيرا رنين جرس الباب • لقد جاء غراهام•

وسارعت امه فملأت ابريق الشاي من الوعاء المعدني الضخم للشاي ودنت من الموقد ومن الكرسي الازرق اللين الوسادة الذي يقع الكرسي الذي تجلس عليه الى يساره وادركت ان هنالك شخصا له حصانة السيطرة عليه والافادة منه وعندما جاء ذلك الشخص صعد درجات السلم بسرعة

واتجه الى المغسلة وهو امر لابد منه بعد تلك الليلة الموحشة الرطبة ثـم اتجه باستقامة الى حيث نحن وقالت امـــه وهي تخفي ابتسامة السرور وتتحدث باقتضاب « انت غراهام ؟ » ·

وقال الشاب غير الدقيق في مواعيده ذو العرش الذي لا يضاهيه او ينافسه فيه احد « ومن سيكون غيري يا امي ؟ » وقالت له « الا تستحـق الشاي البارد لتأخرك في المجيء الى الدار ؟ » وقال لها « لن انال العقاب منك فالشاي الحار يغني الآن بمرح » وقالت له امه « اتجه نحو المنضدة ايها الولد الكسول · لن يفيدك مقعد سوى مقعدي ولو كـان لديك ذرة من الشعور والادب واللياقة لكنت تركت هذا المقعد دوما لامك المسنة؟ »

وقال لها « هذا ما كنت مستعدا لان افعله دومـــا لولا ان السيدة المسنة تصر على تركه لي ·· وكيف حال مريضتـك يا امي ؟ » وحولت السيدة بريتون وجهها صوب الزاوية التي اجلس فيها قائلة لي « هـــل تتقدم المريضة لتتحدث هي بنفسها عــن حالتها ؟ » وعنـــد هذه الدعـــوة تقدمت الى أمام فنهض غراهام من مقعده ليلاقيني بطوله الفـــارع أمـــام الموقد وانه لشخصية من حق امه ألا تخفي اعتزازها به ·

وقال لي غراهام « اذن استطعت النزول وهذا يدل على انك احسن حالا بكثير مما كنت عليه بالامس وما كنت اقوى على ان اتصور انالاقيك هنا او في مكان اخر لقد كانت حالك في الليلةالماضية على غيرما يرام ولولا انني اسرعت مضطرا الى مشاهدة مريض موشك على الموت لما تركتك ابدا ثم ان امي نفسها لها خصائص طبيب ومارتا ممرضة ماهرة وكنت اعلم ان قضيتك هي قضية اغماء وفقدان الوعي وليس حالة خطرة واريد ان اعرف سبب ذلك وكلما يتصل به علما بانني مؤمن بانك تحسنت ·

وقلت بصوت خافت هادىء « تحسنت كثيرا ·· تحسنت كثيرا ·· شكرا لك يا دكتور واقول للقارىء الآن··ان هذا الرجل الشاب الطويل القامة ·· هذا الولد الحبيب مضيفي انا غراهام بريتون هذا لم يكـــن سوى الدكتور جون ·· هو وليس سواه واكثر من ذلك انني عندماسمعت خطوات غراهام على درجات السلم علمت اي شخص سيدخل واي محيـــا سيتكحل به ناظري ·

ولم يكـن الاكتشاف عائدا لهذا اليـــوم ففجره احتـل احاسيسي ومداركي منذ زمن طويل • انني تذكرت الشـاب بريتون جيدا ولو ان العشرة اعوام التي انصرفت منذ السادسة عشر من عمري وحتى السادسة والعشرين لابد ان تغير الولد تغييرا كبيرا بعد ان نضجت رجولته ومـع ذلك لن تقوى تلك الاعوام العشرة على ان تفعل شيئا ولن تكفي تمامـا لتغشي عيني او تشوه او تربك ذاكرتي •

ان الدكتور جون غراهام بريتون لا يزال يحمل صفات شبابه وهو في السادسة عشرة من عمره فالعينان هما تاكما العينان ويحمل شيئا واضحا من محياه القديم يشهد على كل النصف الاوطآ من الوجـه المقولب عـلى شكل بديع ورائع وعرفتـه في الحـال في باديء الامر عـلى تلك المناسبـة وعادت صفحات الذكرى العديدة الى الخلف حين كان انتباهي غير المثبت بحراسة جيدة قد طبع في ذاكرتي عارالتعنيف والتوبيخ الضمني منه الي •

واكدت لي ملاحظتي الاخرى اللاحقة صدق حدسي السابق بكـل جلاء ومن كل النواحي وتعقبت اثره في ايماءته وفي منفذ وعادات رجولته وكل ما كان يبشر ببشائر صباه وسمعت في نبرات صوته العميقة الحالية نبرات ايامه الاول فبعض الصفات المميزة في تعابيره السابقة ظلت على ما كانت عليه حتى الآن وكذلك الكثير من خدع عينيه وشفتيه والكثير من ابتساماته والكثير من الاشعاعات المفاجئة النابعـة من تحت قوس قزح جبينه المصبوب صبا بديعا •

ان اقول شيئا عن الموضوع او ان أومي الى ما اكتشفته ليس مـن سمات فكري وعاداته ولا يتماشى واحاسيسي فالامر معكوس فقد فضلت أن أبقي الموضوع سرا من اسراري واهوى الدخول الى وجوده وهو مغطى بغيمة لا يستطيع ان ينظر من خلالها وواقف حيالي تحت شعاع انارتـه الخاصة التي تضيء كل قسمة من قسمات وجهه وترتعـد امام قدميه ثم تكف عن القاء الضوء على أي شيء •

وعرفت انه لن يهتم اذا ما تقدمت اليـه قائلة « انا لوسي سناو » واخفيت عنه مكانتي في التدريس وعندما لم يسال عن اسمي لم احاول ان اتفوه به امامه فهو يسمع انهم يصيحون علي باسم (الآنسة) او (الآنسة

لوسي) ولم يسمع بلقبي او باسم اسرتي (سناو) امـا بالنسبة لمعرفتي اياه حالا فان الفكرة لم تخامره رغم انني ربما تبدلت باقل مما تبدل هو واذا كان الامر كذلك فلماذا أوحي له او ابتدره بها ؟ ٠

واثناء تناول الشاي كان يبدي لي جانب اللطف وتلك كانت طبيعته وبعد الفراغ من تناول العشاء ورفع الصينية اخذ يرتب مكانا دافئـا في زاوية من زوايا الاريكة ورجاني ان استقر هنـــاك وتقرب هو ووالدته صوب النار وبعد مرور عشر دقائق على جلوسنا احسست بعـــين السيدة بريتون ترمقني رمقا ذا مغزى ولا تكاد ترفع عينيها عـن وجهي فالنسو يكن ــ بالتأكيد ــ اسرع من الرجال في معرفة بعض الاشياء ٠

وفي الحال هتفت السيدة بريتون موجهة كلامها الى ولدها « لم اجـ ــ الا نادرا ــ شبيها اقوى يا غراهام فهل لاحظت انت ذلك ؟ » وقال لها « الاحظ ماذا ؟ ما الذي في ذهـــن السيدة المسنـــة الآن ؟ كيف تنظـرين وتتفرسين الان يا امي ؟ قد يظن المرء ان لديك حاسة نظر ثانية ؟ » واشارت السيدة الي قائلة ٠٠ « قل لي ياغراهام بمن تذكرك هذه السيدة الشابة؟» وقال غراهام لامه « انت تربكين هذه السيدة وغالبا ما قلت لك انك مخطئة بلهجة قاطعة ٠ تذكري ايضا انها غريبة بالنسبة اليك ولا تعرف شيئا عن اساليبك » ٠

وقالت له امه « الآن ٠٠ عندما تنظر الى اسفل او الى الجانبين قل لي من تشبه يا غراهام ؟ » واجابها غراهام « في الحقيقة يا امي انك بعد ان طرحت امامي هذا اللغز عليك انت نفسك ان تحليه » وقالت له « قلت لي انك تعرفها منذ ان بدأت ترتاد المدرسة في شارع فوسيت ومـــع ذلك لم تتحدث بشيء عن هذا الشبه الغريب » واجابها غراهام « لا استطيـــع ان اتذكر شيئا لم افكر فيه ولا اعترف به الآن فماذا تعنين بكلامك هذا ؟ ٠٠ وقالت له « ايها الولد الاحمق ٠ انظر اليها ٠ »

ونظر الي غراهام اما انا فما عدت احتمل الآن وعرفت ان القضية يجب ان تكون لها نهاية ولذلك فضلت ان اكون السباقة في الاعتراف فقلت « على الدكتور جون ان يعمل ذهنه جيدا ويفكر على ما يرام ليرجع بذاكرته الى كيفية تصافحنا في آخر لقاء لنا في شارع القديسة آن وحـــين شاهدت

المستر غراهام بريتون قبل شهور لم يرد في خاطري ان من الممكن ان يعرف لوسي سناو » .

وصاحت السيدة بريتون قائلة ... « لوسي سناو » .. فكرت بذلك ثم نهضت في الحال واجتازت الموقد وجاءت فقبلتني . ان بعض السيدات يحدثن ضجة كبرى في مثل هذه الاكتشافات دون ان تظهر اسارير الفرح على وجوههن الا ان عرابتي لم يكن من عادتها احداث مثل هذه الضجة وانما كانت تفضل كبت كل التظاهرات العاطفية والشعورية ولهذا انهينا انا وهي هذه المفاجآة ببضع كلمات وبالتحية المتبادلة واجرا على القول انها كانت مسرورة بذلك وانا ايضا بادلتها السرور بالسرور .

وفي الوقت الذي جلسنا فيه الواحدة قبالة الاخرى نتبادل ذكريات تعارفنا القديمة كان غراهام يجلس امامنا ساكنا متخلصا من اعراض دهشته واخيرا قال « امي سمتني بالولد الاحمق واظن انني كذلك ولكن مع ذلك اقسم بشرفي انني كلما رأيتك لم اشك بهذه الحقيقة وانا اتذكر تذكرا جيدا وهناك كنت تجلسين مافي ذلك من شك » واضاف قائلا « انت بالتاكيد لم تعرفيني ، لم تعرفي انني واحد من معارفك البارزين طيلة ذلك الوقت ولم تنوهي او تعلمي احدا بذلك » ولكنني قلت له « بلى .. عرفتك تماما » .

ولم يعلق الدكتور جون على ذلك وخيل الي انه اعتبر سكوتي طورا غريبا وبالغ في الاحجام عن لومي واجرا على القول ايضا انه وجد ان من الحماقة ان يستجوبني استجوابا دقيقا وان يطلب مني معرفة لماذا ذلك التكتم ومع انه كان يشعر بفضولية حب الاستطلاع بنوع ما فان اهمية القضية لم تكن على الشاكلة التي ينبغي ان يدفعه فيهافضوله الى ان يركب متن الشطط في معرفة السبب .

وبالنسبة لي جازفت في ان اساله اذا كان يتذكر الظرف الذي كان يحيط بي عندما نظرت اليه ذات مرة نظرة متفحصة ومركزة جدا فبدر منه شيء من الانزعاج مني بصددها ولا ازال استشعر الالم منهاحتى الآن وقال « هذا صحيح .. وحتى انني تصرفت ازاءك على نحو غير لائق وقلت له « اظن انك تصورتني وقحة نوعا ما انذاك » فاجابني « ابدا لم اتصور

كذلك وانما كان عهدي بك دائما انك خجولة وهادئة ومنكفئة على ذاتك وتلك كانت سرائرك العامة ولا ادري اية قباحة شخصية بدرت مني فبدت فاتنة او ساحرة امام عينيك المتفاديتين المغضوضتين من الخجل » وقلت له « الآن عرفت حقيقة الامر » فقال « تمام المعرفة » ٠

واخذت السيدة بريتون توجه لي العديد من الاسئلة عن ماضي الايام ولكي ارضيها عدت الى ســــرد القلاقل الماضية وتوضيح اسباب الابتعاد وتبيان كفاحي ـ دون معين ـ مع الحياة ومع الموت ومع الحزن ومــــع القضاء والقدر وكان الدكتور جون يصغي دون ان يتحدث او يعلق على ذلك الا نادرا ثم حدثني كلاهما عن التبدلات التي حصلت وعن الامــور التي عاكستهما وعن ثروتها التي تقلصت بعد ان منحت لهما نعما جمة٠

ولكن الام تلك الام الشجاعة وبطولة ولدها كانا بالمرصاد للاقدار وكانا قادرين على خوض كفاح مرير مع العالم ليفوزا فوزا مبينا وكــان الدكتور جون واحدا من اللذين ابتسمت النجوم لولادتهم وهشت وبشت لها على وجه التاكيد وقد يصادف اقبال هؤلاء حظ عاثراو محنة من المحن الا انه كان يصمد لها ويبددها بابتساماته وعدم اكتراثه فقــد كان قويا ومرحا وحازما ولطيفا ودمثا بعيدا عن الحمق او التسرع وطموحا لكي يتودد الى القدر ذاته ويفوز من مقلته الحجرية بما يريد ان يفوز به ٠

وفيما اعترف به منحقائق تبين انىنجاحه اصبح مستقرا ومضمونا فخلال الاشهر الثلاثة الاخيرة استطاع ان يشتري هــذا البيت وهــو بيت ريفي على النمط الفرنسي تبلغ مساحته نصف فرسخ بدون بوابة دخول العربة ، وهذا البيت اشتراه من اجل مداراة صحة والدته لان هواء المدن لا يلائمها وكانت عند تركها لندن قد جلبت معها اثاثها الذي كانت قــد اشترته من قصر صاحب العزبة الكائنفي شارع (آن) ولم تبعه ابدا ولكن عجبي كان من جمال الكراسي المثالية والمرايا واباريق الشاي واكوابها٠

وعندما دقت الساعة الحادية عشراتصل الدكتور جون بوالدته قائلا لها ٠٠ « اماه يتبغي ان تلازم الانسة سناو الفراش الان فقد زاد اصفرار وجهها وغدا ساجازف بتوجيه بعض الاسئلة عن سبب تدهور صحتها فقد تبدلت كثيرا عما كانت عليه في السابق وبالنسبة لمحنتها في الليلة الماضية

انا مؤمن بان هنالك قصة عن مسبباتها امـا في المساء فلن نوجه اليهـا الاسئلة ليلتك سعيدة ايتها الآنسة لوسي » ٠

وقادني بكل لطف الىالباب ماسكا بيده شمعةمنارة ليريني بها طريق احـدى مجموعات السـلم ٠ وعندما تلوت صـلواتي ونزعت ثيـابي واضطجعت على الفراش شعرت بان لدي اصـدقاء واصدقاء لا يمارسون الارتباطات العنيفة ولا يقدمون العزاء الودي الملائم لطبيعة المرء انمـا يكتفون بود معتدلويهفو لهمقلبي غريزيا ويتوق ويشتاق ويشعربعرفان الجميل تجاههم ٠

وتضرعت في صلواتي اقول « اللهملا تجعلني افكر بهـم مرارا وتكرارا بتوقان وشوق بالغ ودعني قانعة بجرعة معتدلة من معين هذا الجدولالحي ولا تجعلني اركض وانا ظامئـة لنشدان مياهه العذبة ولا تجعلني اتصور ان فيها مذاقا اعذب من جدول الارض الاخرى٠ابتهل الى الله لكي يبقيني على قيد الحياة بهذا الرباط الـودي بمناسباته وندرته وطمأنيته ٠٠ طمأنينته التامة » وبعد ان كررت هذه الكلمة تحولت الى وسادتي وظللت اكررها وانا اغرق تلك الوسادة بالدموع الغزار ٠

الفصـــل الســابع عشـــر

ـ الشـــرفة ـ

ان هذه النضالات مع الخصائص الطبيعية للقلب ومع قدرة تحمله القوية قد تبدو عقيمة وغير مثمرة ولكنهـــا في النهاية تسفر عن اشياء نافعة فهي تنزع ـ ولو بشكل مخفــف ـ الى ان تعطي للاعمال وللسلوك منعطفا يقره العقل علما بان الشاعر غالبا ما تعارضه وتحدث اختــلافا في النزعة العامة لحياة ما وتتيح لها ان تكون افضل تنظيما واكثر رصانة واستواء وأهدأ على السطح لان النظرات العامة لا تقع الا على السطــح اما ماذا يكمن في الموضع التحتاني فعهدي به عند الله ٠

اما الرجل الذي هو ند لك، وضعيف مثلك والــذي ليس لائقا لان يحكم عليك فقد توصد بوجهه الابواب فخذه الى خالقك وافش له اسرار الروح التي اعطيت له واسأله كيف ستتحمل الآلام التي الحقت بك واركع بحضوره وصل بايمان ليحل النور محل الظلام والقوة محل الضعف الذي يرثى له والصبر على الحاجة الملحة ٠ وفي ساعة من الساعات ـ وان كانت ليس من الشكل الذي تحلم به ويهواه قلبك وينزف دما له ٠

وسينزل البشير المعالج الشافي فالمقعد والاعمى والاخرس والممسوس يرسل للاغتسال بالماء فيا ايها البشير تعالى بسرعة فالالوف ممددون حول البركة يبكون بياس لمشاهدتها عبر مدى سنتين بطيبة من الركود فطويلة هي ازمنه السماء ومداراة رسل الملائكة اوســـع من النظرة القائلة ان دورة السفرة الواحدة والرجوع قد تحتضن اجيالا لا عداد لهـــا وتمحي الغبار من الذاكرة وان الــــذي يسميه الشرقيون بعزرائيل كم بليونا سيزور من الحزانى والمشوهين ٠

وحاولت النهوض في صبيحة اليوم التالي وبينما كنت ارتدي ثيابي وفي بعض اللحظات اشرب الماء البارد من الابريق الزجاجي الموضوع على المغسلة الجدارية لازالة الضعف المرتعش الذي جعل ارتــــدائي لثيابي صعبا جدا دخلت السيدة بريتون وبادرت كلام الصباح قائلة ٠٠ماسخف ما ارى لا يجوز ذلك ٠٠ وعاملتني في الحال بنفس الشدة التي تتعامـــل بها مع ولدها وهو ما كنت اتمتع بسماعه وهي توجهه اليه وفي خـــلال دقيقتين اعتبرتني اسيرة الفراش الفرنسي وقالت لي « ههنا تنامين حتى ساعات بعد الظهر فولدي ترك توصياته عندي قبل ان يذهب واقول لك ان ابني هو سيد البيت وان اوامره واجبــة الاطاعـــة والآن ينبغي ان تتناولي فطورك » ٠

وفي الحال جاءت بالفطور بيديها بدلا من الخدم وجلست الى جانبي وانا اتناول الطعام ولم يكن اي شخص بيننا حتى بين اصدقائنا المحترمين ومعارفنا المقدرين ممن نريدهم ان يكونوا الى جانبنا وينتظرونا ويدنوا منا دنو الممرضة من المريضة ذلك انه ليست كــل صديقة بمثابة ضوء في غرفة المرضى انما تلك كانت السيدة بريتون التي كان وجودها الى جانبي سلوى وتعزية ٠ ان الطعام والشراب لم يكن يرضيني ويسرني الا عندما كانت تأتي به لي هذه السيدة بيديها ٠

ولا اتذكر المناسبة التي لم يكن دخولها فيها الغرفة اكثر فرحا لي ان طبائعنا تمتلك ولوعا او كراهيــة كالغرباء فهنـــاك اناس ننكمش وننقبض من وجودهم في سرنا ونتحاشى اللقـــاء معهـــم شخصيا حتى ان العقل او المنطق يعترف بانهم اناس طيبون وهناك اناس سيئـو الطباع وما الى ذلك نرتاح الى مجالستهم ونشعر بان الذي يحيط بهم هو خير لنا وكانت عينا عرابتي السوداوان المرحتان وخداهـــا السمراوان الصافيان ويداها الدافئتان الخدومتان وطبعها المعتمد على ذاته وقوة تحملها ذات نفع لي كالهواء النقي ٠

وكان ولدها يعتاد على تسميتها بالسيدة المسنة وهذا ماكان يغمرني بالفرح والسرور اذ كنت الاحظ رشاقتها وخفتها وحيويتهـــا التي كانت مقاربة لخفــة واحــدة في السن الخامســة والعشرين ٠

وقالت لي « وساجلب حوائج شغلي الى هنـــا » ثم تناولت قـدح الشاي الفارغ وقالت لي « كنت اود الجلوس معك النهار طولـه لو لم يعارض هذا الطاغية المستبد جون غراهام رغبتي هذه · وقال غراهام وهو يهم بالخروج « اهتمي بها وما عليك انتحشي ذهنية ابنتك بالممودية بالقال والقيل » ثم التفت الي وقال « عليك ان تبقي ملازمـة فراشك » وقالت امه لي « يرى الدكتور ان مرضك عصبي واستنتج ذلك من نظراتك فهل هذا صحيح ؟ »

واجبت « انني لا اعلم ماهو مرضي والذي اعرفه انني عانيت من الكثير ولاسيما ذهنياً ولا ارى ان من الصحيـح ان اسهب بتفاصيل مـــا عانيت ومن انها تخص جزءا من كيانيوهو مالم اتوقع ان تشاركعرابتي في امره وفي أية منطقة جديدة قادت مثل هذه الثقة تلك الطبيعة الصافيـة الاديم · ان الفرق بينها وبيني يكمن كما بـــين الباخرة العظيمة التي تمخر بامان على البحار الهادئة الامواج بكامل ملاحيهـا معالقبطان المرح الشجاع المغامر البعيد النظر وبين زورق النجاة الذي يستقر فيمعظم ايام العام وحيدا في دار الزوارق القديمة المظلمة والذي لا يدخـــل البحـــر الا عندما تتلاطم الامواج في جو اهوج والا عندما يقارع الغيم صفحـــة المياه حيث الخطر والموت يقسم بينهما حكم العمق الاعظم · كـــلا ·· لم تكن لويزا بريتون خارج الميناء في تلك الليلة ·· وفي مثل ذلك المشهد ان ملاحيها لم يشاهدوها وهكذا واصل قائد زورق الحياة الغريق مشاوراته ولم يلفق القصة · وتركتني المدام ممــــددة في فراشي راضية مطمئنـة وكان جميلا من الدكتور غراهام ان يذكرني بما ينبغي ان افعله قبل ان يغادر الدار ·

كان نهاري وحيدا ولكن انتظاري لقدوم المساء قلصه وجعله بهيجا في ناظري ثم عاودني الشعور بالضعف ورحبت بالراحة وبعـد انقضاء ساعات الصبـاح ومجيء تلك الساعات التي تاتي دائما ــ حتى لاولئك المطمئني البال ــ بشعور انجاز الاعمال والواجبات والمهمات التي تنتظر التحقيق وبانطباع غامض يحفزه على تحقيق التزاماته · وعندما انصرم هـذا الوقت المثير اوقفت حلول ما بعـد الظهيرة حلولا هـادئا اصـوات

وقع اقدام خادمة المنزل على السلالم وفي الغرف تحولت الى حالـة حالمة ، لا تخلو من لذة .

لقد بدت غرفتي الصغيرة الهادئة ـ بنوع ما ـ ككهف في البحر فلا لون يحيط بها عدا الابيض والاخضر الفاتح المذكرين بالزبد والميـاه العميقة وقد زين الافريز بزخارف صدفية الشكل وهناك قوالب بيضاء كالدولفينات في زوايا السقف وحتى لمسة واحدة مـن اللون المرئي في وسادة الدبابيس المكونة من الساتان الاحمر كانت تشبه المرجـان وحتى ذلك الزجاج الاسود اللامع كان يعكس صورة حورية البحر .

وعندما اغمضت عيني سمعت صوت ريح هوجاء سرعان ما همـدت وتوارت بعد ان شقت طريقها عبر واجهة البيت كما تشق موجة البحـر طريقها من على القاعدة الصخرية . سمعتها تاتي وتنسحب بعيـدا ... بعيدا كتيار ينحسر من شاطيء العالم الاعلى ، عالم من العلـو بحيث ان اندفاع امواجه الكبرى المتكسرة على الصخور كان يسمع صداه في هـذا المنزل البادي كما لو انه تحت البحر كالهمهمة والتهويدة وبين هذه الاحلام جاء المساء وشاهدت مرتا تاتي بالقنديل الـذي استطعت على ضوئه ان ارتدي ثيابي بسرعة واستشعرت قوة اكثر من قوة الصباح بحيث شققت طريقي الى الصالون الازرق دون مساعدة من احد .

ويظهر ان الدكتور جون قـد اكمـل دورة الدعوات الموجهة اليـه لماينة المرضى باسرع مما كان ينجزها عادة وكان شكل محياه هـو اول ما التقته عيناي عند دخولي الردهة . وكان واقفا بجانب مختلى النافذة المقابل للباب يقرأ صحيفة تحت نور خافت كالنور الذي يبقى عندانتهاء النهار وكانت النار تبدو بوضوح والقنديل موضوعا على المنضدة دون ان يضاء ولم تكن اقداح الشاي قد نضدت عليه بعد .

وكانت السيدة بريتون عرابتي الفعلية ـ كما علمت بعدئذ ـ قـد خرجت الى العراء طيلة النهار ،وكانت ممددة علىالكرسي الموسد مستغرقة في سنة من النوم وبعد ان شاهدني ولدها اتجـه الي ولاحظت انه كان يخطو بحذر خشية ايقاظ امه من نومها واخـذ يكلمني بصوت واطيء وصوته الرخيم كان يخلو من كل حدة او خشونة لهدهدة النائمة بدلا من ايقاظها بفزع .

وقال لي بعد ان دعاني للجلوس بالقرب من النافذة البابيـة « ان هذا الدار ريفي هادىء ولا ادري ما اذا كنت‌قد لاحظت ذلك وانت تمشين فيه علما بانه لا يرى كذلك من طريق العربات ، فمن مسافة ميل وراء مدخل العربة تنعطفين بطريق زقاقي وسرعان ما ينتهي الامر بك بشارع يقودك عبر المرجة الى باب هذا الدار بالذات انـه ليس بالمكان المعاصر الحديث ولكنه مبني بشكل ما وبنوع مـا على الطـراز القـديم بجنوبي المدينة انه كقصر مالك العزبة اكثرمن كونه بيتا ريفيا فرنسيا : يسمون هذا البيت « بالشرفة » لان مقدمته تظهر من مكان اعشاب المرجة حين‌ان درجات سلالمه تمر من منحدر حشيشي يصل الى الشارع • انظري بعيدا تري القمر بازغا وهو منظر رائع من خلال اغصان الشجرة •

اين يا ترى لا يبدو القمر جميلا ؟ وما هو المشهد الضيق او المتسع لا يبجل مداره فيه وسواء اكان اللون ورديا او متقدا فالقمر يعلوالآن‌على ركام غير بعيد وحتى عندما نرقب مرتقاه المتورد فانه يتحول الـى لـون الذهب وفي بعض الفترات القصيرة جدا تراه طافيا ــ غير مشوب بلون اخر ــ في‌جوز الفضاء الهادي •

وهل ياترى يبهج‌ضوء القمر الدكتور جون ام يحزنه؟ وهل يدغدغه دغدغة رومانسية ؟! اتصدق انه يفعل ذلك واذا كان في غير الوضع الذي يلزمه بالتنهد والتحسر فقد لاحظته يتحسر عند مشاهدته بشكـل هادىء ولا حاجة لمعرفة سبب تنهده • انا اعلم انه كان قد ايقظه جمال وادري‌انه لاحق جنيفرا ولعلمي ذلك حاصرتني فكرة استبدت بي لكي اتلفظ بالاسم الذي يفكر به دوما عالمة ان ذلك هو من واجبي •

وبالطبع كان مستعدا لذلك فقد لاحظت على محياه ما يضج بمظاهر التعليق والتساؤل والاهتمام وضغط اللغة والمشاعر ولكنها مكبوتة جميعا وفكرت في كيفية البدء بذلك • ان انقاذه من حيرته وارتباكه كان جـل اهتمامي وما ان نطقت‌باسم المعبود حتى تفجرت فيه ينابيع الحنان‌والحب بعد ان وجدت هذه العبارة المناسبة وانت تعـرف ان فانشاوي ذهبت في سفرة مع عائلة كولموندلي •• وما ان فتحـت فمي للتحدث حتى بدد خططي بابتداء موضوع آخر غير هذا الموضوع قائلا لي • بعد ان وضع

مشاعره في جيبه وقطع حديثه عن القمر :

اول ما فعلته هذا الصباح هو انني اتجهت الى شارع فوسيت وقلت للطباخة انك سالمة وبأيد امينة اتدرين انها لا تعرف بانك غبت عن الدار وقالت بانك سالمة في المدرسة الداخلية الكبرى ،وقلت له « ان ذلك لايمكن تصوره ابدا ٠ ان (غوتون) لم يكن يعطيني سوى المرق المعطر وكسرة الخبز وفي الاسبوع الماضي رفضتها بحيث ان تلك الطباخة الطيبة كفت عن التنقل المضجر من المطبخ الى المدرسة الداخلية وجاءت مرة لتسوي فراشي وترتبه ٠ انها امرأة طيبةالسريرة ويبهجها انتطبخ لي ماأشتهي٠

وسألني « ماذا كانت تقصد المدام بيك من ابقائك وحيدة ؟ » فقلت له « المدام بيك لم تتصور انني سأمرض » وقال لي « ان جهازك العصبي تحمل قسطا كبيرا من معاناتك ٠ اليس الامر كذلك ؟ » فاجبته « لست متأكدة من وضعية جهازي العصبي الا انني مكتئبة ومنقبضة الصدر بشكل مروع » وقال لي « ولذلك احجمت عن اعطائك الحبوب او جرعات الدواء فالادوية لا تعطى لاي مريض يستشعر انشراحا نفسيا ٠ ان فني توقف عند مرض الوسواس فالمريضة كهذه تنظر فلا ترى سوى غرفة التعذيب ولاتقوى على ان تفعل او تعمل شيئا ولهذه فان المجتمع المرح يفيد المريض ولا ينبغي ان تكوني وحيدة قدر الامكان وينبغي ان تزاولي الرياضة كثيرا » ٠

ومال الى الاذعان والتوقف عن الحديث برهة بعد هذه الملاحظاتالتي كان لها وقع جيد على نفسي وعاود الدكتور جون كلامه قائلا « يا آنسة سناو ٠٠ ان صحتك وجهازك العصبي تحسنا الآن بعض الشيء بعد ان تصرفت التصرف الصحيح فهلتسمحين لي بأن اسألك عن مذهبك الديني؟ هل انت كاثوليكية؟ »وتظرت اليه باستغراب قائلة « كاثوليكية ؟٠٠كلا ٠٠ من جاء اليك بهذه الخاطرة ؟ » وقال لي :

« الوضعية التي شاهدتك بها في الليلة الماضية بعد ان سلمت لي اثارت شكي » وقلت له « سلمت لك ؟ حقا انني لا ادري فقد نسيت وبقي علي ان اعلم الآن كيف وقعت بين يديك ؟ » فقال لي « في ظروف اربكتني وحيرتني فقد كنت اعود مريضا آنذاك طيلة النهار وكان مرضه نادرا ومعالجته مشكوكا فيها ففكرتفياخذه الى مستشفى بباريسواخيرا آراحني

بعد ان خفت ألمه . وعند رجوعي الى البيت كان اقصر الطريق المؤدي اليه يمر عبر جنوب المدينة ولان الليل كان حالك الظلام موحشا ورطبا عاودت سفري عن طريق الكنيسة القديمة للراهبات الفلمنكيات » واستطرد الدكتور جون يقول :

« وقد ابصرت على ضوء القنديل المشتعل فوق مدخل المبنى كاهنا وبين ذراعيه شيء ما وكان النور من الوضوح بحيث بانت على ضوئه ملامح وجهه فعرفته اذ غالبا ما كنت اشاهده بجانب اسرة المرضى اغنياء كانوا ام فقراء واكثرهم من الفقراء وفي رأيي انه شخص مسن صالح افضل من كثير من اقرانه في هذا البلد ومتفوق عليهم بكل طريقة من الطرق ومثقف ثقافة جيدة ومكرس خدماته لواجبه والتقت عينانا وطلب مني التوقف والذي كان بين يديه ظهر انها امرأة مغمي عليها او مشرفة على الموت وبعد ان ترجلت عن فرسي قال لي ذلك الكاهن «هذه المرأة واحدة من ابناء بلدكم فانقذها ان لم تكن قد ماتت » .

وظهر بعد التحري ان المرأة التي هي من بلادي هي مدرسة اللغة الانكليزية في المدرسة الداخلية العائدة للمدام بيك وكانت فاقدة الوعي تماما ولا اثر من دماء عليها انما كانت مغميا عليها من شدة البرد وسألته « ماذا يعني لديك كل هذا ؟ » وتحدث عن شيء غريب وهو انك كنت في كرسي الاعتراف في ذلك المساء وان شكلك المجهد التعب ومظهرك المعذب تمازج مع بعض الاشياء التي اعترفت بها » وقلت له « اشياء قلتها ؟ لا ادري ماهي تلك الاشياء » .

وقال لي « ليس من ريب في انها جرائم مروعة ولكنه احجم عن الافصاح عنها لانك كما تعرفين ان ذلك يمت بصلة الى مبدأ الاعتراف الذي كبح ثرثرته وكبح فضولي . ان سرك الذي اعترفت به لم يزعج الكاهن الصالح انما فوجيء به وشعر بالالم لانك كنت خارجة في تلك الليلة وان من واجبه الديني ان يراقبك عندما تخرجين من الكنيسة الى ان يرتاح لوصولك الى بيتك الذي كان يريد ان يعرف موقعه فهل افشيت له ذلك بالاعتراف ؟ » .

وقلت له « كلا .. لم اعترف . بل على العكس من ذلك تجنبت

الاشارة الى اي شيء ما بصدد اعترافي ـ ايها الدكتور جون ـ فانا اقول لك ان من الجنون ان اقوم بمثل هذه الخطوة ولكن يظهر انه ما كان بيدي شيء فقد كان الخطا خطأ ما تسميه انت « بالجهاز العصبي » ولااستطيع ان اصور القضية بالكلمات غير ان اقول لك ان ايامي وليالي لم يكن بالوسع تحملها فالشعور القاسي بالعزلة آلم ذهنيتي وشعرت بان هنالك من يندفع نحوي لقتلي لقد كان الامر كالتيار الذي يمر عبر القلب واذا كان تمدد الاوعية الدموية او اي سبب مرضي آخر يحجز مجراها الطبيعي فانه ينشد الخروج خروجا شاذا . كنت اريد الصداقة .. كنت اريد مشورة احد ولم اجد شيئا من هذا القبيل لا في حجرتي الصغيرة ولا في الغرف الكبرى ولذلك ذهبت افتش عنها في الكنيسة وفي الاعتراف الذي اقول انه لم يكن اعترافا ولا سردا . انني لم افعل شيئا سيئا وحياتي لم تكن ناشطة لاية حقيقة مظلمة سواء كانت رومانتيكية او واقعية وكل ما ند عن شفتي كانت شكوى مزعجة قانطة لا اكثر ولا اقل .

وقلت « سبق ان قالت لي المدام بيك .. يا لوسي عليك ان تسافري لمدة ستة اشهر لان طبيعتك الهادئة تحولت الى طبيعة ثائرة تماما ؟ وقال الدكتور جون « الم يكن لتلك المرآة البدينة بد من أن تدين افضل مدرسة لديها وتودعها الاعتقال الانفرادي » وقلت له « لم يكن الذنب ذنب المدام بيك ولا ذنب اي مخلوق آخر ولا اريد ان اسمع لوما على احد من جراء ذلك » .

وقال لي الدكتور جون « اذن خطأ من هو يالوسي ؟ » واجبته « انه خطأ صادر مني وليس من سواي مني انا ايها الدكتورجون .. انا والقدر مسؤولان عن ذلك » وقال لي الدكتور جون مبتسما « عليك ان تهتمي بالغ الاهتمام بنفسك وفي رأيي ان ذلك يتحقق بتبديل الجو وتبديل المشاهد وهذه توصياتي ووصفاتي الطبية لك » وقال لي ايضا « ان تجوالك في تلك الليلة اتخذ اتجاها معاكسا صوب المدرسة الداخلية بالقرب من محل الراهبات ووسط قوة الفيضان وعصف الرياح وتخبط الظلماء سقطت مغميا عليك وجاء القس لاسعافك وتبعه الطبيب وهو انا كما ستعرف وجئنا بعربة واتينا بك الى هنا وحملك الاب سيلاس رغم كبر سنه الى فوق ومددك على هذه الاريكة بنفسه وكان المفروض ان يبقى هو وابقى

انا ايضا معك الى ان تعودي الى رشدك ولكن في ذلك الوقت جاءنا نباعاجل من المريض المشرف على الموت الـذي تركته على مضض مني وارادوا مني الزيارة الاخيرة له ومن الكاهن الزيارة الاخيرة لاجراء المراسيم الدينيـة وخرجنا كلينا وكانت والدتي آنذاك فيالخارج فسلمناك الى مارتا الخادمة بعد تزويدها بالتوصيات كما ينبغي ان تفعله معك وهو ما حققته بنجـاح والآن اسألك هل انت كاثوليكية ؟ »

فاجبته بابتسامة « لم اصبح كاثوليكية حتى الآن ولن اسمح للاب سيلاس ان يعرف اين اسكن واذاشاهدته اقرأه عني السلام وبلغهتشكرا ي وامتناناتي الحقيقية منه واذا ما اصبحت غنية في المستقبل فسارسل لـه المال لما اسدى الي من احسان وعون . وبالمناسبة يا دكتور ان والدتكعلى وشك النهوض من نومها وعليك ان تـدق الجرس لتـاتي الخادمة باقداح الشـاي » .

وفعل الدكتور ذلك وعندما نهضت السيدةبريتون من نومها مندهشة ومستاءة من نفسها لاستسلامها واطلاق العنان لاهوائهـا ومستعدة تمام الاستعداد لكي تنكر بانها نامت انكارا مطلقا جاء ولدها مبتهجا ومبتدرا اياها بقوله « صه .. يا امي ونامي مرة اخرى فانت في نومك ذات وجه بريء ... وقالت له « ماذا تقول ياجون غراهام ؟.. انت تعرف انني لا انام في النهار ابدا ربما كان نعاسا او نوما خفيفا للغاية » .

وقال لها ولدها ؟ تماما نفوة مـلاك الساروفيم البديعة او حلم الجنية وفي مثل هذه الحالة تذكرينني ياماما بنيتانيا (نيتانيا ملكة الجنيات في مسرحية شكسبير المعنونة « حلم منتصف الليل ...المترجم) وقالت له امه « هذا لانك انت نفسك شبيهببوتوم » (بوتوم هوالشخصية الهزلية الرئيسة في المسرحية حيث تحول راسه الى راس حمار) ..

وقال الدكتور جون مخاطبا اياي « ايتها الآنسة سناو هـل سمعت بذكاء كذكاء امي ثم انها صاحبة اجمل جسم قياسا مع حجمها وسنها » وقلت له « احفظ اماديحك لنفسك ياسيدي ولا تغض النظر عن حجمـك انت هذا الحجم الذي يتراءى لي بانه في ازدياد مطـرد » وقالت والدته مخاطبة اياي (يا لوسي .. اليس به شبه بجون بول ؟ لقـد كان نحيفـا

كسمكة الانقليس الشبيهة بالافعى والآن ارى فيه شكلا من اشكال التنين الثقيل الوزن فياغراهام انتبه جيـــدا فاذا زاد وزنك وسمنت اكثر فسأتبرأ منك » ..

وقال لها « مثلما انك لا تستطيعين التبرؤ من شخصيتك بسرعةفانا لا غنى لي عن سعادة لوسي السيدة القديمة في هذا البيت فانها ستهزلفي مرض الملنخوليا ان ازدرت قامتي وسخرت منها . ان هذا الطول يبقيها حية ويديم مناعة روحيتها وحيويتها » .. وكان الطرفان الآن واقفـين الواحد قبالة الآخر في كلا جانبي الموقـد . كانت كلماتهما خاليـــة من التعاطف الا ان نظراتهما كانت تكفر عن عيوب الفاظهما . وفي اقــل تقدير كان افضل كنز لحياة السيدة بريتون محفوظا داخل صدر ولدها واعز نبضات قلبها تخفق في قلبه .

اما بالنسبة للدكتور جون . فبالطبـع هنالك حب آخـر يشــارك مشاعره البنوية وما من ريب في ان العاطفة الجديدة ولدت في آخر الامر ولهذا اودعها محلها الخاص .. جنيفرا .. جنيفرا.. هل تعرفالسيدة بريتون على قدم من يتهاوى ولدها ومعبودها اويرتمي ؟. وهل سترتضي خياره هذا ؟. لا ادريفيالحقيقة ولكنني اقوى على ان اتكهن بانها اندرت بتصرفات الآنسة فانشاوي نحو غراهام فان تناوبهــا بـين الفتور وبين الملاطفة وبين الرفض والافتتان سيطرا عليه تغيير اساسي .

وان درت او تحسست بالالمالذي سببته له واذا ما رأت ــ كمارأيت انا ــ كيف اخضعت شخصيته واذلتهـــا وكيف ارتضى ان تهبط قيمتــه ازاءها وكيف استفادت من هي اقل قيمة منه من اذلاله واخضاعه ... ان عرفت السيدة بريتون بكل ذلك لاعتبرت جنيفرا من النوع المخبــول او الساقط والشرير . او كلها مجتمعة وانا ايضا من رأيها طبعا . لقد مضت الامسية الثانية بحلاوة كحلاوة الامسيةالاولى بل احلى حقا وتمتعنا بتبادل الآراء على كيفيةرائعة الجو فالقلاقل الاولى لم نعد اليها والتعارف تعزز بشكل افضل واحسست بتحسن وبانني اسعد من ذي قبـل في الدار وفي تلك الليلة وبـدلا من ان ابكي في فراشي كالسابق وصلت الى ارض الاحلام عبر طريق تقع على حدوده الافكار البهيجة ..

الفصـــل الثـــامن عشـــر

ـ الخصـــام ـ

خلال اولى ايام مكوثي في الدارالمسماة (بالشرفة) لم يضع فراهام مقعده بالقرب مني ولا دنا من المكان الذي كنت اجلس عليه عندما كان يتخطى ارجاء الغرفة جيئة وذهوبا ولا نظر الي نظـرة اهتمام او نظرة جدية تزيد عـلى النظـرة الاعتيادية ولكنني فكـرت في الآنسة فانشاوي وتوقعت تلفظ لسانه باسمها او اندفاعه خارجا عن شفتيه ٠

وارهفت اذني وشحذت ذهني باستعداد دائـــم للموضوع الحساس وأمرت صبري بان يتزود دومـا بالسلاح وكـان تعاطفي يروم ان يبقي وعاءه كامل الامتلاء مستعدا للانبجاس والتدفق وفي آخر الامر وبعـد نضال خفي قصير الامد فتح الدكتور جون الموضوع في احد الايام فتحـه بلطف وهدوء وبنوع من الغموض فمثلا قال لي بلهجة التساؤل « هــل سمعت ان صديقتك تمضي عطلتها في السفر ؟٠

وقلت في نفسي ٠ صديقتي في الواقع فقط ووجدت ان ليس مــن المناسب النكران ولابد ان له طريقته الخاصة فعلي ان الجأ الى التشكيك غير الجارح وقلت ٠٠ صديقة ؟٠٠ لتكـن صديقة ٠٠ وبطريقة التجربة وجدت ان علي ان اسأله من هي التي يعنيها ؟٠٠ وكان قــد جلس على منضد عملي اما الآن بعد ان وجهت اليه هذا السؤال فقد بادر الى وضـع يديه على بكرة خيوط واخذ يحلها بطيش وكـان جوابه « جنيفرا ٠٠٠ الآنسة جنيفرا رافقت عائلة كولمونديلي في سـفرة الى جنـوب فرنسا » « نعم ٠٠٠ سافرت » ٠

وقال لي « هل تتراسلان ؟ » ٠ واجبته « ربما استغربت اذا سمعت مني انني لم افكر بهذا الامتيـاز » وقال لي « انت قرآت رسـائل بخط

يدها » واجبته « نعم عدة رسائل ارسلتها الى عمهـا » وقال لي « ليست رسائلها معيبة من حيث الذكاء والفطنة والسذاجة ففيها كـل معـاني البراعة وفي روحيتها اقل ما يمكن من التحايل » وقلت له « تكتب بشمول وادراك عندما تكون رسائلها موجهة الى المسيو دي باسومبير وبوسع مـن يريد قراءتها ان يقرأها » وفي الحقيقة ان رسائلها الانيقة لقريبها الثري ليست سوى وثائق مصلحية عامة ٠وقال لي « ان كتاباتها اليدوية جميلة مشرقة ومهذبة ومصقولة الحواشي على ما ارى » فاجبتـه « كانت كذلك وقلت في السابق انها كذلك » ٠؟٠

وقال لي « اعتقد ان كل ما تفعله هو حسن جدا » ولما كنت شاعرة بان لا لزوم لمقاطعته فيملاحظته هذه اضاف قائلا « انت ٠٠ انتتعرفينها جيدا فهل بوسعك ان توردي لي مثالا واحدا عنها وجـدت فيـه عيبا او نقصا ؟٠ » وقلت له تقوم ببعض الاعمال بشكل جيد (وكان في فكري ان اقول ٠٠ مغازلاتها امام الجميع) وسألني على التو « متى ستعود الىالمدينة في تصورك ؟ » ٠

وكان جوابي له « اعذرني ايها الدكتور جون ٠٠ علي ان اوضحلك انك تشرفني كثيرا جدا في تصورك ان لي علاقـة صميمة بها يشرفني التمتع بهـا فما انا كذلك ولم اكـن في يـوم من الايام خازنة خططهـا واسرارها ٠ تستطيع ان تجد لها صديقات خاصات بين عائلة كولموندينلي مثلا ٠٠٠ »

وظن فعلا انني وخزت بنوع من الم الغيرة المشابه لالمه فقـال لي « اعذريها واحكمي عليها بالتساهل والتسامح فان بهرجة الازياء تضللها ولابد ان تكتشف عما قريب ان هؤلاء الناس فارغون اجوفون فتعودأليك بصلة معززة وثقة راسخة انني اعرف بعض الاشياء عن عائلة كولموندليلي فهم اناس سطحيون مبهرجون بـلا ذوق وانانيـون واعتمدي عـلى ذلك فجنيفرا بحرارة فؤادها تقيمـك اكثر مما تقيم العشرات من امثـال هؤلاء » ٠٠

وقلت بايجاز « انك لطيف جدا » ان رغبة التنصل عـن المشاعر المعزوة لي احترقت علي شفتي ولكنني اطفأت لهيبها واستسلمت لـكي

اكون ذليلة ومنبوذة وكاتمة اسرار الآنسة فانشاوي المميزة وصديقتها الحميمة ولكن كان ــ ايها القارىء ــ استسلاما صعبا علي للغاية •

وواصل غراهام قوله ــ وعلى كل ترين انني في الوقت الذي اريحك واعزيك لا استطيع ان اعزي نفسي بنفس العزاء فانا لا امل لي في ان تنظر الي نظرة عادلة فدي هامال الذي لا يسوى شروى نقير يسر فؤادها اكثر •• ياله من وهم تعيس وانخداع اتعس ــ وهنا عيل صبري فقد احضره ــ دون اشعار ــ المرض والضعف وهاجماه بعنف بحيث انقصف انقصافا •

وانبجست من فمي هذه الكلمات التي قلتها بغضب وانفعال •• « يا دكتور بريتون لا يوجد وهم كوهمك ولا انخداع كانخداعك انك في كل القضايا ــ باستثناء واحدة فقط ــ رجل نزيه واضح السريرة متعافي الجسم صادق التفكير وصادق الرؤية اما في هذه التضية المستثناة فلست سوى عبد ففيما يخص الانسة فانشاوي اقول لك انك لا تستاهل الاحترام ــ حتى احترامي انا ــ » قلت ذلك ثم نهضت وغادرت الغرفة وانا في حالة انفعال شديد •

هذا المشهد الصغير حدث في الصباح وكان علي ان اقابله في المساء وكيف لي بذلك وانا اسأت اليه كل تلك الاساءة فهو لم يكن مكونا من هيكل طيني ولا من عناصر ومواد مبتذلة ومع ان الصور الظاهرية لطبيعته قد كونت تكوينا واسعا وقويا الا ان تفاصيلها احتوت على صناعة متسمة برقة لا تشابهها الا رقة كرقة الجنس اللطيف تقريبا فهو اروع مما تكون مستعدا للقائه اروع بكثير مما تعتقد انه متأصل به حتى بعد اعوام التعرف عليه ان القدرة على الشعور بشيء والتحسس السريع بمشاعر الآخرين امران مختلفان وخاصيتان مختلفتان فهناك بعض الناس يملكون كلتا هاتين الخاصيتين والبعض الآخر لا يملكهما وللدكتور جون احداهما بشكل كامل متقن •

ولانني اعترفت بان الدكتور جون لم يوهب الخاصية الاخرى بدرجة متعادلة ربما اعتبره القارىء غير عاطفي وغير متحسس • ان الامر على المعكوس تماما فالدكتور جون رجل سخي لطيف فما ان تبين له انك

بحاجة الى شيء حتى ترى راحة يده ممدودة لاعطاءك اياها وما ان تمزج بلواك او احزانك بكلمات حتى ترى ان لديه اذنين تصيخان الى ما تقوله وتتوقع منه الدماثة وتنقية الجو الكدر وعجائب البديهة ·

وفي تلك الليلةالتي دخلفيها الدكتور جون الى الغرفة حيالالقنديل المنار في المساء استشفقت على ضوئه بشكل جيد وبنظرة واحدة حقيقـــة كامل هيكله ·· لابد ان تكون لديه مشاعر خاصة الآن بالنسبة لمن نعتته بالعبد مرة وبالحرمان من الاحترام مرة اخـــرى · اما ان يكون النعت صحيحا تماما والحرمان من الاحترام ممكنا فلا نكران في ان فكره اخـذ يمعن التفكير بصراحة في هذا الاحتمال واخذ يفتش في هذا الاتهامالموجه اليه عن سبب قلة نجاحه في موضوع حبـــه وهو ما تغص عليه اطمئنانه العقـــلي ·

وبين مقلقات مناجاة نفسهوتقريعها بدا سلوكه خطيرا وربما باردا سواء حيالي او حيال امه · ولكن لم تظهر على محيـــاه امارات المشاعر السيئة او الحقد او الضغينة او الاحتقار كان جميلا وحتى في حزنه وألمه كان له جمال رجولي · وعندما وضعت كرسيه على المنضدة وهو ما قمت به بسرعة بدلا من الخادمة وعندما كنت اقدم لـــه الشاي باهتمام تشوبه رجفة كان يقول لي بلهجـــة كاملة اللطافة وبصوت حلو جميل هو احـلى ما تسمعه اذناي « شكرا يا لوسي » ·

وبالنسبة لي ما كان امامي سوى ان أقوم بعمل واحد ·· هـــو أن اكفر عن العنف الجديد بأن آلام عنه والا لن يكون بمقدوري ان انام في تلك الليلة · ان الذي بدر مني لايمكن تحمله قط فانا لم اكن ذاتقدرة لان أشن الحرب عـــلى ذلك الاستعداد او على ذلك المنـــوال فوحدانيتي المدرسية وصمتي وجمودي لا مثيل لها الا في الاديرة · ان كـــل شيء بدا لي افضل من ان اعيش مع الدكتور جون عيشة منغصة ومشوشة ·

وبالنسبة لجنيفرا · تستطيع ان تستعيد الاجنحة الفضية لحمامةاو لاية بومة اخرى تطير وان تصعد الى اعـــلى مكانة بين اعلى النجوم حيث خيال حبيبها المجنح الصاعد الى العلالي يرتئي تثبيت برج نجوم سحرها فما علي انا أن احتج على ذلك ومنذ مدة طويلة تمنيت وحاولت احـداث

لقاء بين عينيه وعيني وما ان يحدث هذا حتى تغض النظرات لعدم وجود شيء نتكلم به وتحيرت ايما حيرة ٠

وبعد شرب الشاي جلس صامتا وحزينا واخذ يقرأ في كتاب وودت انه لو كان بوسعي ان اجالسه ولم أقو على المغامرة وبدا لي انني ان غامرت في تحقيق ذلك فمن المؤكد انه سيجابهني بالعداء والاحتقار واشتقت الى الكلام جهارا ولكنني لم اجرأ حتى على الهمس ٠ وغادرت والدته الغرفة أما أنا فقد توجهت اليه بأسى لا يطـاق ولا يحتمـل واستطعت ان اتمتم بهاتين الكلمتين (دكتور بريتون !) ونظر الي من خلال الكتاب المفتوح فلم اجد برودا في عينيه ولا غلا ولم يكن فمه منطويا على سخرية ووجدته مستعدا لسماع ما اريد ان اقوله وكانت روحيته ابعد من ان يصدر عنها ما يسيء فبادرته قائلة له « ايها الدكتور جون سامح كلماتي المتسرعة٠٠ ارجوك ان تسامحني ٠٠ »

وابتسم عندما تفوهت بهـــذه الكلمات وقال لي « انني استحقهـا يا لوسي واذا كنت لاتحترميني فانا موقـــن بانني لا استحق الاحترام واخشى ان اكون احمق واخرق٠٠ يبدو انني اتصرف تصرفا سيئا بطريقة ما اذ حيث انوي ادخال البهجة الى قلب احد اجـــد انني لا افلح في ذلك » وقلت له « لا يمكن ان تتأكد مما قلته وحتى اذا وجدت ان هذه القضية هي كذلك فهل ذلك ناجم عن خطأ بدر منك ام عن سوء عدم فهم او ادراك من الآخرين ؟ وعني اسحب كلامي عما قلته في حالة غضب ٠ انني في هـــذا الشيء وفي كل شيء أكن لك احتراما عميقا اذا فكرت قليلا في امر نفسك وفكرت كثيرا جدا في امور الآخرين وهذه ميزة فاضلة ليس الا ٠٠

وقال لي « هل استطيع التفكير كثيرا بجنيفرا ؟ » فقلت له انا اعتقد بان باستطاعتك ذلك وان كنت تعتقد بانك غير قادر على ذلك فدعنا نتفق على هذا الخلاف ٠ ولتغفر لي وهذا ما جئت لارجوه منك » وقال لي «هل « هل تظنين انني احمل ضغينة من اجل كلمة واحدة غاضبة ؟ ٠ » وقلت له « في رأيي انك لا تحمل ذلك ولا تقوى عليه ولكن قل لي فقط انا اغفر لك يا لوسي لتخف آلام قلبي » ٠

وقال لي « تخلصي من الم القلب كما ساتخلص انا ايضا منه لقـــاء

ما ألمتني بنوع ما يا لوسي وعندما يتوارى الألم اكون انا في حالة غافر لك واكثر من غافر • انني في الحقيقة ممتن وشاكر لمن تتمنى الخير لي باخلاص » وقلت له « صح قولك انني اتمنى الخير لك باخلاص » وبذلك انتهى ما حدث بيننا من خصام •

ايها القارىء اذا وجدت في مجرى هذا الكتاب ان رأيي بالدكتور جون طرأ عليه تعديل فاعذر لي هذا التناقض البادىء ذلك انني اعبر عن شعوري في وقته اي في وقت التحسس بالحدث واعرض رأيي الشخصي ـ كما يبدو حين الاكتشاف ـ لقد ابدى وداعة طبيعته بأن بدا حيالي عطوفا وشفوقا اكثر مما ابداه بعد سوء التفاهم معه •

وليس هذا فحسب بل ان الحادثة التي آبعدتنا الواحد عن الآخر نوعا ما بدلت في الحقيقة ـ وبشكل ما ـ علاقاتنا ولكن لا من الناحيةالتي توقعتها بالم فتلك الكلمات القليلة الدافئة الممزوجة ببعض الغضب بددت تلك الزخرفة الصقيعية الهشة من التحفظ وفي ذلك الوقت اعطت مقدمة واشعارا للتذويب • وفي رأيي انه منذ ذلك اليوم وطيلة مدة صداقتنا المتواصلة لم يبد جانب السلوك (الايتيكيتي) معي •

ويبدو انه كان على علم من انه اذا اقتصر على التحدث عن نفسه وعن تلك التي تثير اهتمامه كليا فان توقعي سيستجاب دائما ورغبتي تطمن دائما ونجم عن ذلك انني ظللت استمع الكثير عن جنيفرا واعتبرها جميلة وصالحة وتكلم عن سحرها بافتتان وعن حلاوتها وبراءتها بحيث رغم علمي الواضح بحقيقتها فان نوعا من التوهج والتوقد استقر على فكرتها حتى بالنسبة لي ويا ايها القارىء لا ازال حرة في ان اعترف بانه غالبا ما كان يتحدث سخفا وعبثا الا انني كنت اجاهد في ان اكون صبورة معه فقد كان لي درس فيهذا وعلمت بمدى قسوتي لو انني اسبب له الاذى عند معارضتي اياه او ايلامه او تخييب امله •

وبشعور غريب جديدتزايدت انانيتي واحسست بالعجز اذا ماحرمت نفسي من لذة التساهل معه ومن لذة ان اكون مطواعة له وظل يبدي جانب السخف المتزايد عندما اخذ يتشكك بعناد ويشعر بالهم والقنوط حيال عجزه عن نيل حظوة الآنسة فانشاوي او تفضيلها اياه • وظل هذا التصور

عالقا برسوخ في ذهنيتي الخاصة وبعناد يزيد على عنادي الاول من انها كانت لا تروم لعب دور التغنج معه الا لــكي تلعب وتعبث به على مــا تشــاء وانها في قرارة نفسها تريد ان تستثمر كل كلمة من كلماته وكل نظرة من نظراته لصالحها فقط ·

وفي بعض الاحيان كان يزعجني رغــم اتخاذي قــرارا بوجوب تحمله وبوجوب الاصغاء اليه والسماع منه ورغم شــعوره الذي لا يوصــف بلذة تحمله الاصغاء اليه اخذ يضرب بشدة ويقدح زناد ما ملكته من قوة وثبات حتى انه كان يخرج نار القدح مرة بعــد اخرى وصادف انني عولت على الدفاع عما هو حق بغية تسكين حدة تلهفه واقنع نفسي بان على الآنسة فانشاوي ان تقبل به في آخر الامر ··

ولما بينت ذلك له قال « هل تقبل بي بشكل ايجابي ؟ » ولكن لا ارضية لي لمثل هذا الاطمئنان » وقلت له « لك افضل الارضيات » وقال لي « والآن يا لوسي قولي لي ماهي ؟ » · وقلت له « انت تعرفها مثلما اعرفهــا انا وما دمت تعرفها ايها الدكتور جون فمن المدهش حقــا الا تضع ثقتــك الخالصة للغاية باخلاصها ان شكك في هذا الصدد وفي مثــل هذه الظروف هو في الحقيقة اهانة » واجابني قائلا :

« انت بدأت تتحدثين سريعا وتتنفسين بطيئا ولكن عليك ان تتكلمي بسرعة اقل وتتنفسين ببطء اقــل الى ان تتوصلي الى تقديم ايضاح او تفسير اكمل اذ انني بحاجة اليه » وقلت له « ستتوصل اليه ايها الدكتور ففي بعض القضايا انت رجل كريم مسرف في كرمــه وانت متعبد فانت مستعد دائما لتقديم النذور واذا طلب منك القس سيلاس مساعدة فانت مستعد لتقديم المزيد من الصدقات للفقراء ولتجهيز مذبحه بالشموع وانت مستعد لاغنــاء ضريح قديسك المفضل ·· جنيفرا ··· ايها الدكتور جون » ·· وهنا قاطعني قائلا « اسكتي لا تواصلي الحديث » · وقلت له « لن اسكت وساواصل الحديث ان جنيفرا قد ملأت يديها مرارا وتكرارا بما لا اقوى على احصائه وفتشت عن اجمل واثمن الزهور وشغلت ذهنك بافضل الهدايا التي لا تستطيع ان تحلم بها امرأة وعلاوة على ذلك تملك فانشاوي مجموعة من الحلي اوصلتك انت بسخائك الى حالة من التهور

والتطرف » وقال لي « ان المتواضعة جنيفرا لا دخـل لها اطلاقا في هـذه القضية » واحمر خدا المعجب بها احمرارا ظاهرا ثم قال بعصبية وهـو يقص قطعة من الحرير بمقصي « هذه سخافة ... انني وهبت لها كـل ذلك لارضي واسر نفسي واشعر بانها ذات فضل لقبولها مني ذلك » .

وقلت له « انها قدمت لك اكثر من فضل ايها الدكتور جون فمـن دواعي الشرف ان تعيد اليك من فضلك اليها شيئا وان لم تستطع الاعادة بالود والمحبة فعليها ان تقدم ما يعادلها مصلحيا على شكل قطع ذهبيـة » فاجابني « انك لا تفهمينها فهي لا يهمهـا بشيء ابـدا امر الهدايا التي اقدمها لها وهي من البساطة الذهنية بحيث لا تعرف قيمتها » .

وضحكت مما قاله اذ انني سمعتها بنفسي تقيم تمام التقييم كل قطعة من الجواهر الموجودة لديها وانا اعلم تمام العلم ان الارتباطات والمشاريع المالية والنقدية واقيام النقود ومساعيها لاقتنائها كانت تشغل بالها منذ ان كانت صغيرة السن وتسيطر على تفكيرها طيلة اعوام ... وعقب على كلامي قائلا « لو كنت تشاهدينها حينما كنت ارمي الى حضنها بهدية ماهي تافهة بنظري كيف كانت تتلقاها ببرود وبلا حراك وبلا رغبة لاخذهـا وللتحاشي عن معاتبتها لي كانت تسمح لباقة الورد المهداة لها ان تستقـر الى جانبها او ربما كانت راضية بحملها أو في بعض الاحيان عنـدما كنت البسها السوار واودعه ذراعها العاجي ومهما كانت الحلية بديعة ـ كنـت دائما اتوخى ان اختار لها ما هو بديع وغالي الثمن ـ فان التألق ما كان يغادر عينيها اللماعتين اللتينما كانتا تنبهران من الهدايا وما كانت لتلقي اية نظرة عليها الا في النوادر ... »

وقلت له « اذا كانت لا تعرف قيمتها وليست لها اهمية لديها فانهـا ستنزعها وتعيدها اليك طبعا » فاجابني « كلا انها اطيب قلبـا واطيب سريرة من ان تخيب املي انما سترضى بنسيان ما فعلته وستبقى الهدايا بنسيان بسيط وهادىء يليق بالسيدة . وقبل مثل هـذه الظروف كيـف يستطيع الانسان انيتصور ان قبول هداياه هو دليل فأل حسن او علامـة مريحة ؟ وبالنسبة لي عندما اهدي اليها كل ما لدي وتقبله هي فان هـذا دليل على عدم رغبتها في ان تتلاعب بها الاعتبارات الدنيئة ، ولا داعي لي

لاعتقد بان هذه العملية عملية تقديم الهدايا لها قـد جعلتني اتقدم الى امام خطوة واحدة » ٠٠٠

وقلت له « يا دكتور ٠٠ ان الحب اعمى »٠٠ وهنا لمحت شعاعا ازرق ينم عن البراعة ينبعث من جوانب عيني الدكنتور جـون فذكرني باوائل الايام ٠٠٠ ذكرني بصورته وحدا بي الى ان افكر تفكيرا نصفيا بان جزءا ـ في اقل تقدير ـ من اقتناعه الظاهري بسذاجة الآنسة فانشاوي كان زائفا وقادني هذا التفكير قيادة ملتبسة الى ان اخمن حدسـا آن نظرته الى نقاط ضعفها بالرغم من اعجابه بجمالها وتحمسه لها ربما كانت اقل خطئا واكثر تبصرا وحصانة من حديثه العام عنها ثم ان نظرته تلك ربما كانت نظـرة مصادفة او ـ في الاقل ـ رمزا لانطبـاع وقتي فقط وسـواء كانت نظرة صدفة او نظرة مقصودة ذات فحوى وسواء كانت نظرة حقيقية ام خيالية فانها انهت المحادثات بيننا في ذلك اليوم ٠

الفصـــل التاســـع عشـــر

ـ كليوباطـــرة ـ

مدد مكوثي في « الشرقة » اربعة عشر يوما اخرى وراء مـدة انتهاء العطلة وكان ذلك من تدبير السيدة بريتون العطوف التي وفرت لي هـذه الراحة وكان الدكتور جون قد صرح موصيا بي بأنني لم اتوصل بعد الى القوة اللازمة للعودة الى حجـرة بنـاية المدرسة الداخلية للمدام بيك وفي الحال ركبت المدام بريتون عربة اقلتها الى شارع فوسيت وقابلت المديرة واستحصلت منها الاجازة لي قائلة أنني بحاجة الى راحـة طويلة وتبديل الجو من أجل استكمال شفائي واعقب ذلك زيارة فورية وكيسة من المدام بيك لي في بيت السيدة بريتون ٠

وفي يوم بديع جاءت تلك السيدة بعربة صغيرة الى البيت الريفي وفي فكري ان سبب مجيئها هو معرفة نوعية المكان الذي يسكن فيـه الدكتور جون ويبدو أن المـكان المريح وداخلية البيت النظيفة فاقـا تصورها وتوقعاتها وراحت تمتدح كل ما رأته وقالت عن الصالون الازرق انه مكان مريح وبديع وبالغت في تهنئتي بحصولي على مثل هؤلاء الاصدقاء المريحين المحترمـين ٠

وعندما دخل الدكتور جون هرعت اليـه بمنتهى البشر والابتهاج وخرج من بـين شفتيها سـيل دافيء من الكلمات السريعة الملأى بالتهاني وبامتداح والدته التي أسمتهـا بالسيدة المستحقة لقصر مالك العزبة ٠ وكانت نظرات الدكتور جون الزاهية جدا تنم عن السريرة الطيبة لصاحبها حين كان يصغي دائما الى لغة المدام بيك الفرنسية اللبقة المنمقة وباجتزاء كانت المدام في ابهى مظاهرها في ذلك اليوم وكانت تخرج من هنا وتدخل من هناك وامارات البهجة والانشراح والحيوية وحلاوة العشرة بادية عليها٠

ومشيت وراءها وهي ماشية وخارجة لاودعها دون ان اسألها عن القضايا المدرسية ولاحظتها وهي تعد جلوسها في العربة وبعد ايصاد الباب حصل تبدل في ذلك الوقت القصير فقبل برهة شوهدت تماما بعيون براقة ونكات وضحك متواصل وانشراح دائم اما الآن بعد ان دخلت العربة فقد بدت اكثر تجهما من وجه القاضي واكثر رزانة من الحكماء فيا لها من امرأة غريبة !!!

وعدت الى البيت وكايدت الدكتور جون حول حب المدام الشديد له فاستغرق في الضحك والتمعت عيناه بنور الدعابة والهزل عندما تذكر البعض في خطاباتها وقلد لفظها وطريقة القائها وكان هو نفسه ذا روح تعج بالنكات والمداعبات بحيث لا مثيل له في العالم في ذلك اذا كانت الآنسة فانشاوي في غير خاطره ٠

يقال ان الجلوس تحت أشعة الشمس بهدوء ولطافة أمر حسن لضعاف الناس لانها تمنحهم القوة والحيوية وعندما كانت الطفلة جورجيت ابنة المدام بيك تتماثل للشفاء من مرضها كنت عادة احملها بين ذراعي وأتمشى بها في الحديقة ساعة تقريبا تحت حائط من حيطانها تتدلى من فوقنا عناقيد العنب التي كانت تنضجها أشعة الشمس وبقدر ما كانت هذه الاشعة تقوي الاغصان كانت تكبر وتنضج الفاكهة المنعقدة ٠

وهناك أمزجة بشرية لطيفة ورقيقة ومتوهجة مفيدة لحياة الفقراء في الروح مثلما هي مفيدة لضعاف الاجسام تجعلها تنعم بأشعة شمس الظهيرة المتوهجة ومن بين امثال هؤلاء الناس المختارين الدكتور جون ووالدته السيدة بريتون فهما يحبان تحقيق السعادة في قلوب البؤساء ويفعلان ذلك طبيعيا وغريزيا دونما احداث ضجيج ٠ ان وسائل تصدير السعادة للآخرين موجودة بشكل عفوي في ذهنيهما، وفي كل يوم عندما كنت عندهما ماكثة في دارهما كانا يوجدان وسيلة تنجم عنها المتعة ولان الدكتور جون كان منشغلا كان يتحين بعض فرص فراغه ليرافقنا في كل نزهة قصيرة ٠

ولا ادري كيف كان ينظم وعوده معنا فقد كانت عديدة وبحكم النظام والعادة كان ينتقي اوقات يكون فيها قد تحرر من كل التزام يومي وغالبا ما كنت اشاهده يعمل اعمالا شاقة دون الامعان في التسريع ولم يكن يتبرم

او يرتبك أو يشعر بالاسى والذي كان يعمله كان ينجزه بسهولة ورحابة صدر وبفضل قوته المقتدرة الكافية والرحية العالية لما كان يملكه من طاقات عالية لا تنضب ٠

وبموجب توجيهاته وجدت في ذينك الاسبوعين من (فيليت) وضواحيها وسكانها ما يزيد على ما شاهدته خلال كل الاشهر الثمانية من اقامتي السابقة فيها واخذني الى مكان التسلية الموجودة في المدينة ولم اكن قد سمعت بها سابقا وبرغبة وشجاعة مفعمة بالحيوية قدم لي معلومات جديرة بالسرد ولم يشعر باي حرج من التحدث معي وكنت متاكدة من ان اصغائي اليه لم يكن من قبيل الواجب ولم يكن من عوائده أن يتحدث عن المواضيع بفتور او بغموض وقلما كان يتكلم بلهجة تعميم او ابتذال ٠

ويبدو انه كان يهوى التفاصيل البديعة مثلما كنت آهواها انا وكان حريصا على التقيد بالاخلاق دون ان يتقيد بالمظاهر ابدا وهذه السجايا حببت لي معاشرته والاتصال به وحقيقة كونه اعتاد على ان يتكلم من معين مصادره مباشرة دون ان يستعير او يسرق من الكتب ـ هنا حقيقة جافة وهناك عبارة مبتذلة وفي مكان آخر رأي مبتذل ضمن وجود الجدة والطراوة في حديثه وهو أمر كنت استمتع به لندرته ٠ وأمام عيني أيضا كان مزاجه يبدي طورا آخر يتمثل في امضائه يوما جديدا والنهوض في وقت فجر احدث وأبرز وارفع ٠

واذا كانت أمه تحمل في طيات قلبها الخير والكرم فان ولدها كان يحمل ما هو افضل واعظم فقد وجدت عندما رافقته الى المنطقة « بيسفيل » ـ وهي اكثر ارجاء المدينة فقرا وازدحاما بالناس ـ أن مهماته هناك كانت كمهمات الانوسانيين وادركت في الحال انه كان يخلق ـ بروحية مرحة وعلى الشكل المالوف وبعدم درايته باية فضيلة خاصة تميز حقيقته ـ عالما من اعمال الخير والصلاح التي تميز حقيقته للتعساء من السكان ، واوطأ طبقة من طبقات الناس أحبته حبا جما وكان مرضاه التعساء في المستشفيات يرحبون به ترحيبا حماسيا دائما ٠

ولكن يا قارئي توقف قليلاً ٠٠ فعلي من حيث السرد الامين الا أنحط الى درك المادحة المتحيزة ٠٠ صحيح وصحيح جدا انني على علم من ان

الدكتور جون لم يكن بالشخص الكامل بقــدر ما آنا لست بالكاملة · ان عدم المعصومية مزجته بشيء ملدلف فما من ساعة او لحظـــة في الوقت أمضيها معه لم يتخل فيه عن أي شيء ليست به من حيث العمل او الكلام أو النظرة علاقة بالله وحاشا آن يكون بالله سبحانه ما في الدكتور جــون من تفاهات او غرور او مثالب او طيش أو تقلب في بعض الاحيان ·

وليس من خلود يشبهه في نسيانه المؤقت لكل شيء عدا الحاضر وفي تشبثه السريع الزوال في هذا الحاضر البارز بشكل غير رديء وبتكريس للملذات والانغماسات الذاتية ولكن من حيث الاثرة والانانية كان ينتزع منها ما له علاقة بالغذاء اللازم لحبــــه الرجولي الذاتي ويكمن فرحه في تغذية هذه المشاعر النهمة الشبقة دون التفكير بثمن العلف ودون الاهتمام بكلفة الاحتفاظ به طريا على ان يبقي وطره منالا على أعلى ما يكون ·

والمطلوب منك أيها القارىء ملاحظة التناقض البادي في النظرتــين البادیتین في غراهام بريتون احداهما عامة والثانية خاصـــة أي نظرته داخل المنزل ونظرته خارج المنزل ففي نظرته الاولى العامة يظهر نسيانا ذاتيا واعتدالا في عرض وتبيان قواه وجدية ممارستها أمـــا في النظرة الثانية فتعبر ـ كما في الصورة المعلقة بجانب الموقد ـ عن ماهيته وعمـا ينتويه ·· اللذة في الوفاء والطيش في الاثارة والخيلاء في تلقي ما يماثله وكلتا الصورتين صحيحة ·

وكان من الصعب تطويق عنق الدكتور جون بمنة لا في السر ولا في العلن ما دام ما كان يقوم به من بعض الخدمات للآخرين لمجرد الاستخدام ولا يريد أن يعرف قط من أين جـــاءت ويدهشك بملاحظة بيديهـا او بملاحظتين بيديهما وهو مبتسم ويبرهن لك أن عينه ساهرة على العمــل من البداية الى النهاية وانه لاحظ المقصد او الغاية وتعقب سيرها ولاحظ عملية اكمالها ويرتاح لذلك ويبان نور الابتهاج في عينيه وفي فتحة فمه·

هذا كله يعتبر جيدا جدا ولكنه يضيف الى مثل هذه الشهادة العطوفة السمحاء عملا مقصودا ومتعمدا في غض النظر عما يسميها ديونا فعندما تقوم والدته بخدمة له فانه يقابلها الخدمة بالخدمة بأن ينشر عليها فيضا من روحيته المرحة هو اكثر وفرة وغنى مــــن خصائصه اللطيفة البهية

المتسمة بالملاطفة واذا راى ان لوسي سناو هي التي قامت بذلك العمل الذي راق له فانه يكافؤها بما يجدد نشاطها وحيويتها وبما يبهج فؤادها.

وغالبا ما كان يدهشني منه انه يعرف كل شيء عن « فيليت » وهي معرفة لا تتصل فقط بشوارعها المفتوحة وانما بالتعمق في معرفة اروقتها وصالاتها ومسارحها ومتاحفها وكل باب مغلق على شيء تسوى مشاهدته وكل متحف في اية قاعة مخصص للفن او العلم ويظهر انه كان يملك سر « أفتح يا سمسم » ولم آكن أعنى بالعلوم ولكن غريزة الشغف الاعمى بالفن كانت موجودة لدي .

وأردت أن أزور صاآلات الصور التي يسمح لي بالبقاء فيها لوحدي أما برفقة الآخرين فان خصوصيتي التعسة كانت تمنعني من ان آشاهد الكثير منها او التحسس باية صورة منها بحيث انني لا ابقى اكثر من نصف ساعة برفقة جماعة غير مالوفة ولا معروفة لدي لان الضرورة تتطلب مني أن اتكلم كثيرا معهم حول مواضيعها فياخذ التعب الجسماني مني مأخذه ويضعف كامل قواي العقلية .

ولكن الدكتور جون كان دليلا سياحيا لقلبي فكان يأخذني باكرا وقبل فوات الاوان وقبل ان تمتلىء الصاآلات بالزوار فيتركني هناك ساعتين او ثلاث ساعات ويأتي لاخذي عندما ينتهي من اشغاله ومواعيده وكنت سعيدة وسعيدة جدا لا في ابداء عجبي دائما وانما في استنباط النتائج او السؤال عنها او تشكيلها وفي بداية تلك الزيارات ظهر نوع من سوء التفاهم ، نزاع ينشب بين الارادة وبين القوة فقدرة الارادة تنتزع استحسان ماكان يعتبر مالوفا لاثارة العجب او القسوة فتتشكى من عجزها المطلق عن دفع الضريبة .

وبدا لي ان الصورة الاصلية الجيدة نادرة ندرة الكتاب الاصيل الجديد ولم اتحرج في النهاية من ان أقول لنفسي وأنا واقفة أمام بعض التحف الفنية التي تحمل اسماء عظيمة هل تعتبر هذه الا مثقال ذرة بالنسبة للطبيعة فضوء النهار الطبيعي ليس له هذا اللون ولا يمكن تكديره لا بالزوابع الهابة ولا بالضباب المتجمع كما هو مرسوم ههنا تحت جو من اللون النيلي الازرق فهذا اللون النيلي الازرق لا يمكن ان يضاهي

الجـو الاصلي الازرق وتلك النباتات والاعشاب الدكناء المصنوعة من القوالب الجصية ليست أشجارا قط ٠

لقد أثار دهشتي عـدد من النسوة البدينات ذوات الهندام الحسن والنظرات اللطيفة وهن يحسبن انفسهن بمثابة آلهات كن يظهرن اهتماما من بصور فلمنكية رائعة صغيرة الحجم وبرسوم تخطيطية تناسب الكتب النموذجية مظهرة مختلف الازياء بأروع المواد وصناعة معمولة بشكل غريب متجاهلات اجـزاء حقيقية ترضي الاحاسيس وتريحها وومضات من الانوار تسر الانظار ٠ ان قوة الطبيعة تتجـلى في الزوبة الثلجيـة وأبهتها وبهائهـا في اليوم المشمس في الجنوب وان كل تعبير في مثل هذه الصورة الطبيعيـة يبرهن على البصيرة النقية وان التعبير الوجهي في تلك الصور الزيتيـة التاريخية بشبهها الرائـع تعلمك بشكـل مدهش بأن العبقرية هي التي ولدتها ومثل هذه الشواذ المستثنيات كنت آهواها وتزايدت محبتها وعزتها في قلبي ٠

وفي يوم ما وفي ساعة مبكرة منـه وجدت نفسي وحيـدة تقريبا في صالة لعرض الآثار الفنية أمام صورة خاصة ذات حجم رائع وقـد سلطت عليها اجمل الاضواء وأحيطت بنطاق واق ومنصة موسدة يجلس عليهـا عشاق القطع الفنية ونقادها وفي رأيي ان تلك الصورة تعتبر نفسها ملكة المجموعة الفنية فهي تمثل امرأة هي في نظري أكبر واعظم من الحياة بكثير ولو وضعت في ميزان ضخم مناسب لاستقبال سلع في صناديق لبلغ وزنها ما يتراوح بين ١٤ و١٦ ستون (ستون وحدة وزن انكليزية تعـادل ١٤ رطلا انكليزيا ـ المترجم) ٠

وتلك الامرأة كانت تتغذى بشكل جيد فأمامها كميات كبيرة من لحم القصاب ناهيك عن كميات الخبز والخضر والسوائل وهي كانت تستهلكها لتكوين مثل ذلك الطول ومثل ذلك العرض الجسماني ومثـل تلك الوفرة العضلية والوفرة اللحمية ٠ وكانت تلك الامرأة متكئة نصف اتكاءة عـلى الاريكة فلماذا ؟٠٠ من الصعب ان يقول المرء شيئا ٠٠ كان ضوء النهـار الوسيع يتوهج من حولها وبدت بصحة متعافية وبقوة قادرة على ان تنفـذ شغل طباخين اثنين ٠

ولم يكن لديها عمود فقري ضعيف وكان ينبغي آن تكون واقفة او

في الاقل جالسة بشكل عمودي كالسهم المستقيم وما كان عليها آن تنـام في الظهيرة على تلك الاريكة وان ترتدي الازياء المحتشمة وان يكون عليهـا ثوب يغطي جسمها بشكل جيد وهو ما لم يكن ومثل ذلك الجسم كان ينبغي ان تكون عليه آردية تبلغ زنتها ٢٧ ياردة حين ان الذي ارتدته كان ناقصا لا يكفي لتغطية الجسم تغطية صحيحة ٠

ولا عذر لهذه الاخطاء اذا ما وجدنا فوضى ما كان يحيط بها من قدور ومقلايات ومزهريات وكؤوس واقداح ملقاة هنـا وهناك عـلى الارضية الامامية وبينها نفايات كاملة من الزهور وعدد من الستائر مسبلة بشكـل لا ترتيب فيه على الاريكة وعلى الارضية وعندما نظرت في الكتالوغ عـن عنوان تلك القطعة وجدت ان ذلك الانتاج الشهير يحمـل اسم كليوباترة (الصورة للفنان البلجيكي ديفين وكانت معروضة مـع الرسوم الاخرى المنوه عنها في هـذا الفصل في صالون ببروكسل عنـدما كانت شارلوت برونتي هناك) ٠

ورحت آتفرج باندهاش على الرسم ولمـا كان هناك مقعـد طويل للجلوس فقد جلست واخذني التفكير في أنه ادا كانت بعض التفاصيـل امثال الزهور والاقداح الذهبية والمجوهرات وما الى ذلك مرسومة رسمـا بديعا جدا فقد كان الرسم بمجموعه قطعـة ضخمـة من التعبير الفارغ والغرفة التي كانت فارغة تقريبا عند دخولي اياها بدآت تمتلىء بالزوار٠

ودون آن آلاحظ هذا الظرف كما ينبغي ــ اذ لم يكن لي من موجب لذلك ــ احتفظت بمقعدي لاريح نفسي وليس لدراسة وضعية تلك الملكة السمراء الملامح العبلة الجسم الشبيهة بملكة الغجر اذ آتعبني النظر اليها بسرعة وهيأت نفسي للراحة ثم استئناف التآمل ببعض الصور الصغـيرة المنتقاة من قبلي باهتمام وتصور الحياة الصامتة كالزهور البرية والثمار البرية وآعشاب الايكة الطحلبية ٠

وعلى حين غرة احسست بربتة خفيفة على كتفي وحولت نظري لارى من هو الرابت واذا بناظري يلتقيان وجها انحنى ليلتقي بناظري وكـان وجها عابسا صارما بادرني بصوته قائلا « ماذا تفعلين هنا ؟ » فأجبته « آمتع نفسي » وقال لي « تمتعين نفسك وبماذا ٠٠ رجـاء ؟ ٠٠ اسمحي لي في

البداية لاساعدك على الوقوف على قدميك · استندي على ذراعي ودعينا نخرج » ·

وامتثلت لما قاله وطلبه مني · لقد كان المسيو بول عمانوئيل ذاته وقد عاد من روما وبوصفه مسافرا الآن ليس من الممكن آن يكون الآن أقل تحملا لمنزلة أدنى بالنسبة لما كانت عليه منزلته التي أضفت عليه في السابق أكاليل الفخار وقال لي « أسمحي لي بأن آخذك الى جماعتك التي معك » قال ذلك وهو يعبر أرضية الغرفة · قلت له « ليس لي جماعة معي » وقال لي « هل أنت اذن وحيدة ؟ » فأجبته « نعم ايها السيد » وقال لي « الدكتور بريتون وآمه طبعا » فقلت له « الدكتور بريتون وحده » وقال لي هل هو الذي أراك هذه الصورة ؟ » فقلت له على الاطلاق · أنا التي وجدتها » ·

لقد كان شعر المسيو بول مقصوصا وواقفا على رأسه ولما كنت أعرف انه شديد الاندفاع في كلامه سرني ان اثير مشاعره والتزم أنا جانب الهدوء فانفجر غاضبا وقال بوقاحة « هؤلاء النسوة الانكليزيات يحيرن المرء فهن مستثنيات وشاذات » وقلت له « ما بك ايها السيد » فقال لي « ماذا بي ؟ كيف تجرئين وأنت الشابة آن تجلسي ببرود كما لو كنت ولدا وتتفرجي على هذه الصورة ؟ » ·

وقلت له «انها صورة سخيفة جدا ولكن لا ادري لماذا لا يجوز آن انظر اليها » وقال لي « لا يجوز آن تتكلمي عنها وينبغي ألا تكوني وحيدة » وقلت له « اذا لم يكن معي جماعة كما تقول فما عسى يعني لك كوني وحيدة ؟ أو كوني مع آخرين ؟ فلا يحق لاحد آن يتدخل في شؤوني » وقال لي « اهدئي واجلسي هناك ··· هناك » بعد ان هيأ كرسيا بعصبية في زاوية معتمة بشكل خاص حيث الاطر والصور ·· وقلت له « لماذا أيها السيد ؟ ·· » وقال لي « لماذا ؟ ·· ليس عليك سوى آن تجلسي دون حراك الى ان يتقدم اليك آحد او اعطيك الاذن بذلك » ·

وصحت به « ما هذه الزاوية المظلمة ؟ وما هذه الرسوم القبيحة ؟ » وكانت في الحقيقة اربع اوراق مدموغة · معرفة في الفهرس المصور (الكتالوغ) بعنوان (حياة امرأة) وقد رسمت بطريقة رائعة جديرة بالاهتمام مسطحة وميتة وباهتة وشكلية ·

الاولى منها تمثل فتاة شابة تخرج من باب الكنيسة وبيدها كتاب القداس وثوبها انيق جدا وعيناها منخفضتان وفمها مغلق ومظهرها مظهر الانثى المتظاهرة تظاهرا بالدين وقد نضجت أنوثتها قبل الاوان • والثانية تمثل عروسا وعلى رأسها حجاب أبيض مسدل وهي راكعة على كرسي الصلوات وقد تشابكت أصابع يدها اصبعا على اصبع واحوزاز عينيها بارز بروزا حادا ، والثالثة تمثل والدة صغيرة السن وهي تمسك بفتاة سوداء صغيرة والاثنتان تعاينان بدقة نصبا فرنسيا ممتازا في روعته مقاما على زاوية من زوايا بيير لاجيس (المقبرة الرئيسة في باريس أسميت باسم بيير لاجيس كاهن الاعتراف لدى الملك لويس الرابع عشر) • -

وكل تلك الرسوم الاربعة كانت كالحة ورمادية كاللصوص وباردة وتافهة كالاشباح وماهي الاشياء التي تعيش النسوة في اوساطها ؟•• خيانة بشكاسة ورداءة طبع شاحبة تعوزها الحيوية والعبث والتفاهة • رداءة كرداءة الجبارات الغجريات وتدخل كليوباطرة ضمن هذه الاوصاف، وكان من المستحيل البقاء طويلا لتركيز الانتباه على مثل تلك التحف الفنية ولهذا اخذت شيئا فشيئا أغير اتجاهي لاستعرض ما في صالون القطع الفنيـة

كان الجمهور النفير من المتفرجين في ذلك الوقت قد تجمع حول اللبوءة اللبوءة التي منعت من التقرب اليها ونصف مجموع المتفرجين كان من النساء ولكن المسيو قال لي بعد ذلك أن تلك السيدات ينبغي عليهن أن يدركن أن لا موجب للاوانس أن يتفرجن عليها الا انني طمنته قائلة له بوضوح انني لا أوافقه على رأيه هذا وان ليس في مثل هذا الرأي أثر للرشاد او ارجحية العقل غير انه باستبداديته المألوفة لم يجب بشيء غير مطالبتي بالسكوت وبعد برهة أخذ يهاجم طيشي وتهوري وجهلي •

ان شخصا قميئا يفوق المسيو بول باستبداديته لا ينبغي أن يجلس على كرسي البروفيسورية ولاحظت بطريق الصدفة أنه كان ينظر الى الصورة نفسها بهدوء ويملي نظره بها مدة طويلة جدا ولم يتحاش النظر من وقت الى آخر الي وربما للتأكد من انني اطيع الاوامر ولا أعصي التوصيات وشيئا فشيئا أخذ يدنو مني ليبادرني الكلام وسألني من أجل أن يعرف الحقيقة « الست مريضة » وفهم انني كذلك وكان جوابي له

« نعم ولكني الآن بحالة حسنة » وسالني « اين امضيت العطلة ؟ »واجبته « في شارع فوسيت وفي بعض من وقت العطلة مع المدام بريتون » .

وكان قد سمع بانني تركت لوحدي في شارع فوسيت فسألني ما اذا كان ذلك صحيحا فقلت له لم اكن وحيدة تماما فقد كانت ماري بروك (المتخلفة العقل) معي وهز كتفيه بلا مبالاة وبلا اكتراث وظهرت على محياه امارات التعابير المتباينة المتناقضة ، فماري بروك معروفة عند المسيو بول معرفة جيدة فهو لم يعط اي درس في الشعبة الثالثة التي كانت تحتوي على طالبات غير متقدمات أمثالها . انها لم تسبب له نزاعا حادا بين الانطباعات المتناقضة فمظهرها الشخصي وخصائصها الرافضة وامزجتها ونزعاتها المتسيبة في غالب الاحيان كانت تزعج مزاجه وتوحي اليه باولكراهة العنيفة وهو ما يصدرعنه كلماشعر ان ذوقه مساء اليهوان ارادته مبددة ومشتتة .

فمن الجهة الواحدة كانت لبلاواها ومحنتها وطأة ثقيلة على دماثته وصبره ومثل هده الوطأة لم يكن ينكرها الامر الذي كان ينجم عنهامعارك طويلة بين انعدام صبره وقرفه واشمئزازه من الجهة الواحدة وبين عطفه وشعوره بالعدالة من الجهة الاخرى بحيث ينبغي القول لصالحه ان من النادر جدا سيادة المشاعر القديمة لديه وعندما تسود كان المسيو بول يبدي طورا متميزا يتسم بالويل والثبور .

لقد كانت عواطفه وانفعالاته حادة جدا وحالات كرهه وروابطه مفعمة بالقوة والحيوية وان القوة التي كان يبديها او يفرضها لكبحها لم تكن باي حال من الاحوال تلطف من شعور الملاحظ بانها شديدة . وبمثل هذه النزعات والميول يمكن القول بأنها غالبا ما كانت تهيج وتستثير في الذهنيات الخوف والكره ومع ذلك كان من الخطأ ان يخشاه المرء فما من شيء حدا به الى آن يتهيج هياج الروحية الخائفة المرتابة . ان اظهار مثل هذه المشاعر يتطلب ادراكا صحيحا لطبيعته علما بأن طبيعته كانت ذات نظام يندر فهمه وادراكه .

وسالني قائلا بعد دقائق صمت قليلة « كيف دبرت آمرك مع ماري بروك» فاجبته « بذلت كل جهدي ولكن الحالةكانت مرعبة معها تماما » وقال لي

« اذن آنت ذات قلب واهن ضعيف وتفتقرين الى الشجاعة وربما الى الاحسان والمحبة فقلبك ليس فيه الخصائص التي تولد الرحمة والشفقة » فاجبته « لا ادري في الحقيقة انما الذي ادريه انني اهتممت بها قدر امكاني ولكن عندما جاءت عمتها تفتش عنها لاخذها واخذتها فعلا استشعرت الراحة الكبرى » .

وقال لي « آه .. انك انانية فهنالك نسوة اعتنين بنساء تعيسات امتلأت بهن المستشفى وانت عاجزة عن ذلك » وقلت له « هل السيد يستطيع ان يفعل ذلك ؟ » فاجابني « ان النسوة الجديرات بالتقدير والسمعة بافعال البر عليهن أن يتفوقن على فظاظتنا نحن الرجال غير المعصومين المطلقين العنان لاهوائنا في مجال تحقيق مثل هذه الواجبات » .

وقلت له « ايها السيد .. لقد كنت اغسلها في الحمام لابقيها نظيفة وكنت اطعمها بيدي واحاول ادخال السرور الى قلبها ولكنها كانت تظهر لي علائم الهزء والسخرية بدلا من التكلم معي » وقال لي « هل تظنين ان الذي فعلتيه يدخل في عداد الافعال العظيمة ؟ » واجبته « كلا لا أدعي ذلك ولكن الذي فعلته كان عظيما بالنسبة لقدرتي » وقال لي « اذن ان قدراتك محدودة ولانك رعيت احدى الغبيات واهتمت بها سقطت مريضة على الفراش » .

وقلت له « لم امرض بسبب ذلك أيها السيد انما اصابتني حمى عصبية وتمرضت ذهنيتي » وقال لي « حقا انك فتاة بائسة وأنت لم تتقولبي بقالب بطولي وشجاعتك لا تكفي لابقائك حية على ما يرام في الحالة الانفرادية انما تعطيك فقط الطيش والتهور لتطيلي النظر بامعان الى تصاوير كليوباطرة » ! وكان سهلا علي جدا ان استاء من كلماته غير انني لم افعل ذلك وانما بادرته بهدوء بسؤالي هذا .. « كليوباطرة ؟ . ان السيد ايضا كان يطيل النظر الى صورتها فما هو رايه بها ؟ »

واجاب قائلا : ليست بذات قيمة . واذا كانت في الصورة امرأة رائعة ولها قوام امبراطورة وصورة جونو ملكة السماء في اساطير اليونان الا انها في نظري مخلوقة لا أريدها كزوجة ولا كابنة ولا كاخت وعليك ألا تلقي أية نظرة في اتجاهها » وقلت له « لقد عاينت الصورة مرات عديدة والسيد

ماض في كلامه وبوسعي ان اشاهدها مشاهدة جيدة من هذه الزاوية «وقال لي « استديري صوب الحائط وادرسي الصور الاربعة لحياة المرآة » وقلت له « اعذرني ايها السيد بول انها قبيحة للغاية ولكن اذا كنت معجبا بهـا فاسمح لي أن أخلي مكاني واتركك في تأملاتك بها » ٠

وقال لي مكشرا عن نصف ابتسامـة او ابتسامة وان كانت كتظاهرة كالحة «انتن الانكليزيات المتسيبات تمشين بهدوء بين شفرات المحـاريث المتوهجة بالحرارة الشديدة وتتخلصن مـــن الاحتراق » وقلت له « هل السيد آن يتفضل وينزاح انجا واحدا الى احد الجانبين ؟ ٠٠ » « فقال لي» ولماذا ؟ على م أنت ناظرة الآن ؟ انك لا تشاهدين ايا من معارفك في تلك المجموعة ؟ « فقلت له » نعم انني أشاهد هناك شخصا أعرفه » ٠

وفي الحقيقة آن ناظري وقـع عـلى رأس لا ينطبـــق الا على رأس الكولونيل دي هامال الصغير الانيق ويا لها من قدمين ويدين كقـــدمي المرآة ويديها ويالها من طريقة أنيقة وضع بموجبها نظارته على عينه وباي عجب أو اندهاش كان ينظر فيه الى كليوباطرة وباي افتتان وجاذبية كان يكبت ضحكته وهو يهمس باذن صديق له ممسك بمرفقه ٠٠ آه ٠٠ انه رجل العقل والرشاد « الجنتلمان المتصف بالذوق العالي والبراءة ؟؟ «رحت أرنو اليه مدى عشر دقائق وهو مأخوذ كليا بفينوس النيـــل السمراء البدينة !! المهيبة ٠٠

وكنت شديدة الاهتمام بوقفته ومشيته مستشفة بحدسي سرائره من خلال نظراته وحركاته ونسيت موقتا المسيو بول وخلال ذلك الوقت وقف جمهور بين ذلك الجنتلمان وبيني ثم انسحب طوعا وعندما اعدت النظر الى المكان الذي كان فيه قبل آن يحجب عـــن ناظري واجلته في الواقفين مرة أخرى كن قد توارى ٠

وظل نظري يتجول فوقع عـلى شخص ســـواه لا يشبهه ويمكن ان يشاهد بوضوح بين الجمهور لطوله وقيافته المتميزتين فيه ٠ لقـــد كان الدكتور جون في سيمائه وطلعته وهيكله المختلفة عن شـكل ذلك الذميم الفظ المكفهر الوجه البروفيسور القميء ٠ لقـد كان يبحث عني ولـم يكن قد اكتشف الزاوية التي وضعني فيها الناظر في المدرسة قبل قليـل وظللت ساكنة وهادئة في مكاني وبعـد دقيقة أخرى أخـذت أجيل النظر ايضــا ٠

وتقرب الدكتور جون من دي هامال ووقف فترة قصيرة الى جانبه وظننت ان النظر الى رأسه مسرة وأخذ الدكتور جون ايضا يطيل النظر برسم كليوباطرة وشككت في أن الرسم كان رائقا لذوقه اذ لم يتكلف أية ابتسامة كالتي تكلفها الكونت القزم • ولقد كان من منظر فمه يبدو صعب الارضاء أما عيناه فكانتا فاترتين وهادئتين وبدون تظاهرة تنحى جانبا وترك الغرفة للداخلين الآخرين وشاهدته الان منتظرا وناهضا على قدميه فتوجهت وانضممت اليه •

وانعطفنا انعطافة واحدة حول الصالون وكانت الانعطافة ممتعة ومبهجة جدا وكنت شديدة التوقان والشوق دائما لان اسمع منه ما يريد ان يقوله عن الصور والرسوم والكتب الاخرى لانه دون التظاهر بانه خبير كان دائما يعبر عن أفكاره وذلك أمر حسن وفي الغالب كان عادلا وبليغا ومليئا بالحيوية وكان من الامور البهيجة على قلبي آن أسر له ببعض الاشياء التي كان يجهلها •

وراح يصغي لي بلطف راغبا في السماع والتعلم دون شكليات التردد والحيرة لكي لا يتوجه ذهنه اللامع الى جمع تفسيرات غامضة قد تسيء الى كرامة رجولته وعزتها وعندما قابلني بالحديث هو أيضا كان حديثه مشرقا صافي التفكير واودع كلماته الواضحة بشكل كما لو انها تحدث نحتا في الذاكرة او اثرا عميقا فيه دون آن آنسى التوضيحات التي صدرت عنه او دقائق سرها •

ولدى مغادرتنا الصالون سألته رأيه عن كليوباطرة بعد ان جعلته يضحك عندما أطلعته على ما جرى بيني وبين البروفيسور عمانوئيل وكيف آنه آراد آن يصرف ذهني عما كنت اتأمل فيه من الصور وآبدى تبرمه مما قاله البروفيسور عما نوئيل باسارير وجهه وقال لي « سمعت بعض الفرنسيين المتأنقين في ملابسهم يقولون عن والدتي انها أجملهن ووصفوها بنموذج المرأة المتقدة الاحاسيس واذا كان الامر كذلك لا استطيع سوى ان اقول ان المرأة المتقدة الاحاسيس لا تروق لي •• قارني هذه الخلاسية بجنيفرا مثلا » !!



الفصـــــل العشـــــرون

ـ الحلقـة الموسـيقية ـ

في صبيحة أحد الايام جاءت السيدة بريتون بسرعة الى غرفتي وطلبت مني فتح جاروراتي وابراز ما لدي من الملابس امامها وفعلت مـا طلبت مني دون ان انبس بكلمة وقالت لي بعد ان قلبتها « هذا يكفي ولكن ينبغي ان يكون لك ثوب آخر جديد » وخرجت من الغرفة ثم عادت لتوهـا مـع خياطة أخذت مقاييسي قائلة لي « أردت بهذا أن تتابعي ذوقي وان يكون لك ثوب بموجبه » وبعد يومين جاءت لي بثوب أحمر قرنفلي ٠

وقلت بسرعة وأنا شاعرة بأنني سرعان ما ارتدي زي سيدة صينيـة في مرتبتي « ليس هذا لي » واجابت عرابتي « سنرى ما اذا كان هذا لك أم لا » وأضافت على كلامها ما يشكل قرارا لا يقاوم « التزمي بكلماتي سترين هذا في هذه الامسية » وقلت لها « بودي أن أرفض فلا قوة بشرية تستطيع أن تلبسني اياه ٠٠ ثوب احمر قرنفلي ٠٠ لا اعرفه ولا يعرفني ولم آجرب ارتداء مثيله في السابق » ٠

وقالت لي عرابتي على شكل مرسوم قانوني « أن علي أن أذهب معها ومع غراهام الى حفلة راقصـــة بنفس الليلة وهي حفلة كبرى تقـــام في الصالون الكبير او في القاعـة العائـــدة للجمعية الموسيقية الكبرى التي ستعزف فيها خيرة طالبات المدرسة العامة للموسيقى وتلقى فيها خيرة الخطب في القارة يعقبها يانصيب لمنفعـــة الفقراء ويحضر الحفلة الملك والملكة وأمير لاباسكور ولخدماته المعروفة وامتيازه أهدي له ثوب وأوصى الدكتور جون أن تستعد لحضور الحفلة في الساعة السابعـة وفي حوالى الساعـة السادسة اخذت الى فوق وبدون مقاومـة وجدتني مقـــادة ومؤثرا علي بارادة شخص آخـر ودون أن استشار أو أن أقنع أمكـن السيطـرة علي بهـــدوء ٠

وارتديت الثوب الاحمر بعد ان خفف بقماش أسود مخـرم وطلب مني ان اكون بكامل ملابسي المسائية وأن أنظر الى نفسي في المرآةوفعلت ذلك وأنا شاعرة ببعض الخوف والارتعاش وحولت نظري عن المرآة بعد ازدياد خوفي وارتعاشي • ودقت الساعة السابعـة وجـاء الدكتور جـون ونزلت أنا وعرابتي التي ارتدت المخمل الناعم الاسمر اللون وعنـدما كنت أمشي خلفها حسدتها على ما كان على سيمائها من أمـارات الهيبـة والابهة وكان غراهام واقفا على باب قاعة الاستقبال •

وكانطموحي المطلوبالا يتصور الدكتور جون أن الغرض منتزوقي هو لفت الانظار الي وقال لي « يا لوسي اليك بعض الورد » وسلم لي باقة ورد ولم يلاحظ ثوبي ولم يبد أي تعليق سوى ابتسامة وايماءة موافقة وارتياح من رأسه خففت من شعوري بالخجل والسخرية ، وفي الحقيقة أن الثوب صنع ببساطة فائقة وخلا من الاهداب والحواشي المزركشة وكـان مصنوعا من قماش خفيف ولون خفيـف أخافني ولان الدكتور جـون لم يشاهد فيه ما يضير فان عيني رضيتا به وسرعان ما صالحته وارتحت اليه •

انني اتصور بأن الناس الذين يذهبون كل ليلة الى أماكن التسليـة العامة يندر أن يدخلوا الى الاحتفال الطلق وهم شاعرون بأن من ينـدر ان يشاهدها ـ اوبرا كانت أم حفلة موسيقية ـ يتمتع بها كما يتمتـع الآخرون ولم اكن متاكدة من انني ساجد لذة عظمى بتلك الحفلة الموسيقية اذ كنت أجهل جهلا تاما طبيعتها غير أن التوجه اليها كـان جميلا ومفعما بالمتعـة •

ان صوت سير العربة المجاورة في تلك الليلة البديعة رغم برودتهـا ولذة الانطلاق مع مرافقين مرحين وصديقين حميمين ومنظر النجوم المومضة المتألقة من بين الاشجار كلما قطعنا الشارع العام ومنظر الجو الليلي الظاهر بانطلاقته الحرة ونحن نسير في طريق العربات المفتوح، الممر المؤدي الى بوابات المدينة وتوهج الاضواء ووجود الحرس هناك ، ان كل تلك الامور الصغيرة كانت لي في بدعتها وجدتها بمثابة سحر بهيج بشكل متميز ولا ادري كم من امثاله يوجد في جو الصداقة الفواح من حولي •

لقد كان الدكتور جون ووالدته في أبهى وابدع حالاتهما النفسيـة

وهما يتجادلان ويتحاوران مع بعضهما بعضا طيلة الطريق وفي أحسن حالات التعاطف والتواد معي كما لو كنت واحدة من انسبائهما ٠

وكان طريقنا يمر عبر افضل شوارع « فيليت » التي كانت مضاءة اضاءة زاهية تموج بالحياة والحيوية اكثر من وقت الظهيرة وكم كانت رائعة تلك الحوانيت وما ابهج وابهى واوفر تيارات الحياة المائجة على طول الرصيف الواسع ٠

وعندما كنت أعاين خطرت في ذهني احدى خواطر شارع فوسيت ذي الحدائق المسورة بالحيطان وبمدرسته وبصفوفها الواسعة المظلمة حيث كنت في مثل هذه الساعة من الليل أنزع وآتوق الى الهيمان على وجهي والتجول وحيدة آتأمل النجوم من بين النوافذ العالية العمياء وأصغي الى الصوت الصادر عن بعد من القارئة المتذكرة في حجرة الطعام المتمرنة تمرينا رتيبا تلك المناظر التي لابد لي أن أعود الى الاصغاء اليها وتلك الاماكن التي لابد لي أن أهيم في سوحها مرة أخرى وظل المستقبل هذا تسلل الى نفسي وباغتني خلسة الى داخل حاضري المبتسم المشع ٠

وفي ذلك الوقت وصلنا الى مزدحم عربات كلها متجهة اتجاها واحدا وسرعان ما وصلنا قبالة بناية عظيمة منارة انارة رائعة كما لو أنها تتوهج ٠ ترى ؟ ما الذي سأشاهده داخل هذه البناية ؟ وكنت مضطربة نوعاما اذ لم يسبق لي أن دخلت أماكن تسلية كهذه ٠ وترجلنا من العربة تحت مدخل المبنى حيث الجمهور الكبير وضوضاؤه الصاخبة ولم اتذكر بوضوح المزيد من التفاصيل حتى وجدتني اتخطى على درجات سلم واسع فخم سهل صعوده ومفروش بالسجاد القرمزي فرشا تاما مريحا وحتى جدرانه كانت مغطاة بأقمشة قرمزية اللون ايضا ٠

وصعب علي عرفان كيفية دوران هذه الابواب الى الخلف أما الدكتور جون فكان يعرف ذلك ويعالج تلك النقاط ودخلنا قاعة كبيرة فسيحة وعالية بدت لي حيطانها الدائرية الشاملة وسقفها الاجوف المقبب كما لو انها موشاة بالذهب ومزخرفة بفن رفيع ملطف بالافريز والتحزيز واكاليل الزهور الزاهية اللماعة المصقولة كانصقال الذهب والبيضاء الثلجية

كالمرمر الابيض المذهب الممزوج باكاليل كاكاليل الاوراق المذهبة أو أوراد السوسن الطاهرة الخالية من الشوائب والعيوب ٠

وحيثما تدلت الاقمشة أو انتشرت السجاد أو وضعت المساند والوسائد كان اللون السائد هو اللون القرمزي الغامق وقد تدلت من القبة كتلة متألقة بهرت عيني ، كتلة ربما تكونت من البلور الصخري المتألق بالواجهات التي تعج بالاقراط والحلي وتتوهج بالنجوم المشوبة بقطرات محلول الجواهر او اجزاء قوس قزح وشظاياه ولم تكن هذه الكتلة سوى المشمعة وبدا لي انها من صنع الجن الشرقي ءخيل الى آن اليد السوداء الضخمة الغيمية يد خادم المصباح السحري تحوم في جو سقف القبة الرائع المعطر لحراسة هذه الكنوز المدهشة ٠

وتقدمنا الى امام ولم اكن اعرف الى اين نحن متوجهون ولكن عند احدى المنعطفات تقابلنا على حين غرة مع جماعة اخرى تدنو الينا من الجهة المقابلة ولم اشاهد الجماعة الا الان بعد ان برزت حيالي خلال لحظة احداها وهي سيدة جميلة في منتصف العمر ترتدي مخملا ناعما داكنا ولآخر شاب ربما كان ولدها وله أجمل وجه شاهدته في حياتي وشخص ثالث في ثوب احمر قرنفلي ومعطف أسود مخرم ٠

وشاهدتهم كلهم وكان الشخص الثالث والشخصان الاخران قد ظننتهم لاول مرة من الاجانب ولذلك لم يكن في انطباعي عنهم أي تحيز بل لم يكن يحتسب انطباعا الا بصعوبة لعدم ثبوته واصبح كذلك عندما قابلت مرآة كبيرة تملأ فراغ حجيرة خاصة بها تقع بين دعامتين فقد كانت الجماعة جماعتنا ولهذا استمتعت لاول مرة وربما للمرة الوحيدة في حياتي بموهبة مشاهدة نفسي كما يشاهدني الآخرون وما كانت بي من حاجة للتفكير بالنتيجة فقد جاءت هذه بارتجاج مفاجيء ووخزة الم ٠

وفي آخر الامر جلسنا في اماكن تشرف على منظر عام جميل لتلك القاعة الفسيحة المتألقة بالانوار ، تلك القاعة الدافئة البهيجة التي سبق ان غصت بالناس وامتلأت بالجمع العظيم العدد ولم آكن أعلم آن النسوة الاجنبيات كن جميلات وكانت البستهم مكملة لجميع الشروط ومع ان مثل

هذه الملابس غير مألوفة في الخصوصيات المحلية فانها كانت تملك فن الظهور بشكل لطيف في الاماكن العامة ·

ووجدت في الحفلة ملامح جميلة هنا وهناك ونماذج من انماط جمالية خاصة ومميزة لا يوجد مثيلها في انكلترا فلهن ملامح كالملامح التي يضفيها كبار الرسامين الهولنديين على سيداتهم ملامح البلدان المنخفضة والملامح الكلاسيكية كانت متناسقة ولكن مدورة ومستقيمة وعليهن دلائل الغباء وانعدام الحس وبصدد الهدوء العميق الذي لا يعبر عن شيء والسلام المنعدم الشعور لا يمكن الا لحقل جليدي قطبي أن يقدم نموذجا كمثل تلك النماذج · ان نسوة من ذلك النمط لا يحتجن الى تزيين ونادرا ما يرتدين البسة ذات زينة فالشعر الناعم المضفر المعقوص يضفي مايكفي من التناقض على الخد الانعم والحاجب الاجمل ولا يمكن أن تكون الالبسة جد بسيطة فالذراع المدورة والجيد المكتمل لا يتطلبان سوارا ولا قلادة ·

وكان لي شرف التعرف التام ذات مرة بجمال من امثال هذه الجمالات وكان مدهشا امر القوة الخفية لحبها المستقر عميقا ولا يمكن أن يبزه أو يتخطاه الا ضعفها المتعجرف وعجزها من أن تهتم باي مخلوق حي آخر تتصور انها تهواه ومن حيث الدماء كانت أوردتها المبتردة لا تجري فيها ومن حيث اللنف الهادىء فانه كان يملأ شرايينها ويغلقها في الاغلب (اللنف سائل عديم اللون تقريبا تشتمل عليه الاوعية اللنفاوية ويتألف في بلازما الدم وكريات الدم البيضاء ـ القاموس) ·

ومثل هذه الجونو (ملكة السماء في الاساطير الرومانية) كانت تجلس واحدة أمامنا تماما وهي من النوع الذي يجتذب الانظار وأنا واثقة أنها كانت كذلك وذات قوة قياسية حيال التأثير المغناطيسي للنظرة الخاطفة أو الفاحصة وكانت فاترة ومصقولة ومكورة وشقراء وجميلة كجمال العمود الابيض أو الدعامة البيضاء زخرف جسمها بكل أنواع الحلي والزينة وعندما لاحظت أن اهتمام الدكتورجون تركز عليها بشكل يلفت النظر توسلت اليه بصوت واطىء وبحق السماء أن يضون قلبه صيانة جيدة وقلت له « ليس بك من حاجة لان تتعشق هذه السيدة لانني قلت لك في السابق انك قد تموت على قدميها وانها لن تحمل لك الود والحب مرة اخرى » ·

وقال لي حسنا ٠٠ وكيف علمت آن مظهر أو مشهد غفلتها الكبرى لن تكون ـ فيما يخصني ـ أقوى حافز للولاء فيما بيننا آن لذعة القنوط ـ في نظري ـ تؤذي عواطفي ومشاعري أيما ايذاء ! وهز كتفيه واستأنف الحديث قائلا « أنت تجهلين مثل هذه الامور كل الجهل وساخاطب امي في الموضوع » والتفت الى والدته قائلا « امي انا في مسلك خطير » واجابته امه « يخاطبني كما لو ان الامر يثير اهتمامي » واجابها « واحسرتاه ٠٠ هل يجب آن تكون القسوة من نصيبي ؟ ليس لشخص آخر والدة تنقصها العواطف الرقيقة تجاهي كوالدتي وهي لا تفكر بأن مثـل هـذه البلوى ستحل بكنتها ايضا » ٠

وقالت امه « ان رفضي لا يعني أنني اريد آن تحـل نفس البلوى بي ٠ أنت مازلت تهددني بذلك خلال الاعوام العشرة الماضية » وقال لها ولدها صائحا « يا امي ٠٠ أنا في سبيلي الى الزواج سريعا ٠ وسيتحقق ذلك في احد هذه الايام أو بين ليلة وضحاها وعندما تظنين أنك في مأمـن تام ساذهب كما ذهب اسحق أو عيسو أو اي ورع آخر وأتحرى عن زوجة لي وربما من هؤلاء الفتيات اللواتي هن من هذه الارض » ٠

وقالت له امه « على مسؤوليتك يا جون غراهام وهذا يكفي » وقال جون « امي هذه تريدني أن ابقى اعزب مسنا فما اشد غيرتك ورغبتك في الأحتفاظ بي دون زواج أيتها المرآة المسنة ٠ انظري الآن فقط الى تلك المخلوقة الرائعـــة ذات الرداء الازرق الساتاني الفاتح والشعر الاسمر الافتح الذي له انعكاس ساتاني كثوبها ٠ آلا تستشعرين الفخر والاعتزاز يا امي اذا ما جلبت تلك المعبودة الفاتنة يوما ما الى البيت ؟٠٠ » واقدمها لك قائلا هذه هي السيدة بريتون الصغيرة ؟ » ٠

وقالت له امه « لن تجلب معبودتك الفاتنـــة الى (الشرفة) فالبيت الريفي بيتنا لن يحوي سيدتين لاسيما اذا كانت الثانية صاحبة هذا الطول والحجم الذي يشبه الدمية الجبارة المصنوعة من خشب وشمع وجلد الجدي والساتان » وقال لها « والله يا امي ستملأ فراغ كرسيك الازرق على شاكلة تثير العجب ! » واجابته امه «تملأ كرسيي !؟ انني أتحدى المغتصبة الاجنبية فالكرسي البائس لن يكون لها ولكن صه يا جون غراهام وامسك لسانك عن الكلام واستخدم ناظريك » ٠

واثناء المناوشة التي جرت بين الام والولد استمرت القاعة التي ظننها ملأى بالناس تستقبل الجماعات تلو الجماعات بحيث أن المكان شبه الدائري الواقع أمام المسرح كون ما لايحصى من أروس الناس المتكاتفة بين الارضية والسقف • وحتى المسرح أو المنصة الواسعة الاحتياطية التي هي أوسع من أي مسرح والمهجور قبل نصف ساعة أخذ الآن يعج بالناس وبالحياة حول اثنين من البيانوات موضوعين في الوسط تقريبا وتقاطرت جماعات بيضاء من الفتيات الشابات وتلميذات المدرسة الداخلية بلا جلبة ولا ضوضاء •

ولاحظت تجمعهن عندما كان غراهام ووالدته منهمكين في النقاش حول الفاتنة الحسناء ذات الساتان الازرق وراقبت باهتمام طريقة ارتدائهن وترتيبهن وتصفيفهن وكان يقود اولئك العذارى اثنان من معارفي احدهما رجل ذو شكل فني ملتح وذو شعر طويل مشهور بالعزف على البيانو ومشهور بكونه مدرس الموسيقى الاول في (فيليت) وكان يحضر مرتين في الاسبوع مدرسة المدام بيك ليقدم دروس الموسيقى الى عدد من التلميذات اللواتي كان اولياء امورهن وآبائهن وامهاتهن من الغنى والثراء الكافي للسماح لبناتهن لتلقي تلك الدروس وكان اسمه جوزيف عما نوئيل أخ غير شقيق للمسيو بول عما نوئيل •

وآنسني عن بعد المسيو بول وضحكت في سري عند مراقبتي اياه فقد كان يقف بشكل يثير الضحك أمام جمع كبير جدا يرتب الامور ويضبط ويرهب ويخيف حوالي مائة فتاة شابة وكان يبدو جديا جدا وحيويا في حركاته ومنكبا على عمله على شاكلة تصميمية ومطلقا في استبداديته ثم اي عمل كان له هناك؟وماذا كان شأنه في الموسيقى أو في المدرسة الداخلية وهو الذي لا يفهم ولا يميز بين نغمة موسيقية واخرى ؟•

وكنت على علم من أن حبه للظهور والتسلطة هما اللتان جاءنا به الى هناك وهو حب لا يتسم بالعنف وانما بسذاجته فقط ثم بين اخيه هناك المسيو جوزيف كان واقعا تحت نفوذه وسيطرته اكثر من الفتيات أنفسهن ولم يظهر بمظهر الصقر مثل المسيو بول ولم تمر مدة قليلة الا واعتلى بعض المغنين الموسيقيين الشهيرين المنصة وعندما ظهر هؤلاء النجوم غاب الشبيه بالمذنب •• المسيو بول •• الذي يعتبر كل المشهورين

اناسا لا يمكن لاحد ان يقف بوجوههم والمسيو مول لا معدى له عن الهرب اذا أحس بانه غير قادر على ان يتالق في اجتماع ما أو في حفلة ما ٠

والآن كل شيء تهيأ الا مقصورة واحدة من القاعة كانت تنتظـــر اشغالها وتلك المقصورة كانت مغطاة باللون القرمزي كما أن السلم الكبير والابواب جهزت بمقاعد وسدت وزوقت ووضبت على كل جانب من جوانب كرسيين ملكيين وضعا بكل مهابة واجـــلال تحت سقف مزخرف بزخرف ملكي خاص ٠

واعطيت الاشارة فعادت الابواب الى الخلف ووقف الجمهور وصدحت الاوركسترا صدوحا صاخبا وحينذاك دخل الملك والملكة واعضاء البلاط والامير لاباسكور وكنت الى ذلك الحين لم اشـــاهد ملكا او ملكة حيـــن وركزت قواي البصرية لاشهد مليا نموذجين من الملوكية الاوربية وعلى أي منها وقع ناظري لاول مرة كانت تلك بالنسبة لي مفاجأة غريبة وغامضة تحادد خيبة الامل ذلك أن ايا منهما لا يبـــدو انه جلس على عرش ملكي دائم بتاج وصولجان وعند النظر الى الملك والملكة لم أجد فيهما ســـوى جندي في منتصف العمر وسيدة شابة فشعرت بأنني نصف مخدوعة ونصف مسرورة في آن واحد ٠

انني اتذكر ذلك الملك ٠٠ رجل في الخمسين من عمره منحني القامة قليلا ورمادي اللون قليلا ولم يكن احد من الموجودين في الحفلة يشابهه ولم يقل لي احد ــ ولم أقرأ ــ أي شيء عن طبيعة عاداته قط وكأنما نقش على جبينه غموض تام بميسم حديدي وكذلك حول عينيه والى جانب حلـــقه غريزة محيرة ومربكة ٠ وان لم أكن أعلم ففي الاقـــل شعرت بمعنى تلك الخصائص والمميزات المكتوبة بدون يد ٠

هناك يجلس رجل عصبي من المعاناة مصـــاب بمرض الانقباضية أو السوداوية وعيناه تترقبان زيارات شبح وتنتظران ذهاب ومجيء طيـــف اسمه ظاهرة الوسواس وربما وجدها الآن على ذلك المسرح فلها عادة الظهور بين الالوف وهي سوداء كالقدر المشؤوم وشاحبة كالمرض وقوية كالموت ٠ ان رفيقها أو ضحيتها كان يظن أنه سعيد ولو لحظة ما تأتي وتقول له ليس الامر كذلك ٠ أنا قادمة ، ثم تجمد دماء قلبـــه وتحجب الضياء المنبعث عن عينيه ٠

وقد يقول البعض أن الملك ليوبولد الاول البلجيكي (١٧٩٠ ـ ١٨٦٥) الذي انتخب لتولي العرش بعد ثورة استهدفت انتزاع استقلال بلجيكا من التاج الهولندي كان في السابق الامير ليوبولد آمير سيكس كوبورغ ولذلك اعتبر اجنبيا ٠ وقد يستقى البعض مؤثرات موت الزوجة الاولى للملك ليوبولد الاول وهي شارلوت ابنة الملك جورج الرابع ملك انكلترا التي توفيت في عام ١٨١٧ علما بأن زوجته الثانية التي تزوجها في عام ١٩٣٢ كانت لويزا ابنة لويس فيليب ملك فرنسا وقد يكون ما يبدو عليه نتيجة مؤثرات كلا هذين الحدثين اللذين نغصهما أسوأ عدو للانسانية الا وهو مرض السوداوية الدستورية ٠

والملكة زوجته تعرف هذه الحقائق ويبدو لي أن انعكاسية حزن زوجها كانت تضفي ظلا ذا معنى على محياها الرقيق فهي ذات ذهنية دمثة ولبقة ولطيفة الشمائل وكثيرة التأملات ولم تكن جميلة ذات سحر كسحر النسوة المتواصل وكمشاعرهن المرمرية الانصقال من اللواتي وصفناهن قبل صفحة او صفحتين من هذا المؤلف بل كانت ذات شكل نحيل ٠ وسيماؤها وان كانت متميزة بما فيه الكفاية فانها كانت توحي بسلالات ملكية حاكمة تمنح شعورا باللذة والاطمئنان اللذين لا يضاهيان ٠

ان التعبير الذي كان يغلف تلك الصورة الجانبية كان تعبيرا مرضيا في ذلك الوقت ولكن لم يكن بوسعك أن تتحاشى توصيله بالصور التي يمكن تذكرها حيث تظهر خطوط مماثلة تحت مظهر حسي ضعيف او ماكر وفق الحالة السائدة ٠ ان عيني الملكة كانتا عينين أصيلتين خاصتين بها تباركهما الرحمة والشفقة والطيبة وحلاوة التعاطف بأقدس نور ٠

ولم تظهر عليها خاصية ملكة وانما خاصية سيدة شفوقة صحية وأنيقة يرافقها ولدها الصغير الامير لاباسكور والشاب الدوق دي دنيدولو وكان منكفئا على حضن امه بين الفينة والفينة في تلك الامسية ورأيتها يقظة وساهرة على الملك الجالس الى جانبها وهي شاعرة بما يبدو عليه من ذهول وراغبة في توعيته ووقايته منه عن طريق لفت اهتمامه بولدها وغالبا ما كانت تميل برأسها لتصغي الى ملاحظات الامير فتنقلها مبتسمة الى والده ٠

وكان الملك الكئيب المتقلب المزاج يستيقظ من ذهوله فجـأة ليصحي وليبتسم وليغفو غفوة اخرى حالما يكف ملاكه عن الكلام • وعند دخـول الملك والملكة أعقبتهما حاشيته المؤلفة من ثلاثة سفراء آجانب ثم نخبة من الاجانب المقيمين في (فيليت) الذين آخذوا مقاعـدهم القرمزية الالوان وجلست السيدات ولكن معظم الرجال ظلوا واقفين وبدت ملابسهم الرتيبة السوداء كزخرف آسود وسط ذلك السناء الظاهر في مقدمة الحفلة •

ولم يكن ذلك السناء بلا آضواء او ظلال او تداخل الالوان المختلفة وامتلأ البعد الوسطي بنسوة كهلات متزوجات من الطبقة الرفيعة يرتدين الثياب القرمزية والاطلس (الساتان) ورياش الزينة والجواهر • ويبدو ان المقاعد الطويلة في المقدمة الموضوعة الى يمـــين الملكة كانت مخصصـة للفتيات اللواتي انحدرن من آرومة الطبقـة الارستقراطية وبراعمها في (فيليب) فهناك لا توجد جواهر ولا أغطية الرأس ولا زئبر النسيج المخملي ولا لمعان الثياب الحريرية انما سادت فتيـــات الجوق الموسيقي النقــاوة والبساطة والشمائل الاخلاقية السامية والضفائر والملامح الجميلة وكنت اروم ان اقول والهياكل الرشيقة لولا ان من بينهن عددا من البالغ اعمارهن ما يتراوح بين ١٦ سنة و ١٧ سنة من ذوات الهياكل الضخمة والاجسام البدينة الصلبة كبعض الانكليزيات من هن في السادسـة والعشـرين من اعمارهن •

ومن أمثال هؤلاء كن يرتدين الثيـــاب البيضاء أو الثياب الوردية الفاتحة آو الزرقاء الرائعة ممن يحلمن بأحلام السماء وملائكتها واعرف منهن اثنتين في الاقل هما تلميذتان من تلميذات المدام بيـك المتاخرات في دروسهن هما الانسة ماتيلدة والانسة انجليك اللتان وان كانتا في صفهما الاخير الا انه كان ينبغي ان تكونا في الصف الاول كمـــا ان دماغيهما لم يتجاوزا الشعبة الثانية ففـي اللغـة الانكليزية كانتـا بامرتي واشرافي وتدريسي واستطيع آن اقول على وجه التاكيد آن اية منهما لا تستطيع أن تترجم ترجمة صحيحة ولو صفحة واحدة من كتاب « كاهن ويكفيلو » •

وهذا الكتاب رواية شهيرة وضعها في فترة ١٧٦١ ــ ١٧٦٢ أوليفر فولدسيت (١٧٣٠ــ١٧٧٤) الذي اشتهر في وقته بكونه افضل شاعـــــر ومسرحي وكاتب مقالات • وخلال ثلاثة اشهر كانت احداهن تجلس عـلى

المنضدة قبالتي تلتهم عادة كميات من خبز البيت والزبد ومن الفواكه في وجبة الغداء الثانية تعتبر من عجائب الدنيا والانكى من ذلك انها كانت تحفظ في داخل جيوبها شرائح تعجز عن التهامها وانهـا لحقائق وحقائق ثابتة ايضا ٠

واعرف واحدة اخرى من تلك الملائكة الساروفيم هي اجملهن ولكن اقلهن احتشاما واقلهن من حيـث نظرات الرياء والنفاق وكانت تجلس بجانب ابنة احد النبلاء الانكليز وكلتا الفتاتين ورغم امانتهن ـ وان كانتا متعجرفتين ـ دخلتا في بطانة السفارة البريطانية وسلكها ولم تكن (تلك التي قلت انها من معارفي) ذات الشخصية المرنة عـلى غـرار الاوانس الاجنبيات ٠

لقد كان شعرها غير معقوص ولا مجدول تماما كان طويلا يتطاير من على راسها ويتحرك بطريقة لولبية ويتماوج٠ وكانت تتكلم بلا تكلف ولكن ولكن هذرا وتبدو راضية عن نفسها وعن مكانتها ولم انظـر الى الدكتور جون بريتون ولكنني اعلم انه هو ايضا راى جنيفرا فانشاوي كما رأيتها انا فقد كان يبدو هادئا وساكنا وكان يجيب عـلى اسئلة امـه باقتضاب واجتزاء وغالبا ما كان يحبس تنهدة او حسرة وعلام كان يتحسر ياترى ؟ لقد اعترف بانهماكه المتذوق بحب تحف به الصعوبات وعليه هو ارضاء واشباع هذا الحب اما حبيبته فكانت تنظر اليه من منزلة اعلى او موقع اعلى من منزلته او موقعه فهو لا يستطيع التقرب منها ولم يكن متأكـدا من انه يحظى منها بنظرة وراقبت بصورة جيدة ماذا كانت تفضله عـلى سواه ولم يكن مقعدنا بعيدا عن المقاعد القرمزية الطويلة ولذلك لابـد أن يشاهدونا ولابد أن تبصرنا عينان كعيني جنيفرا السريعتي التجوال ولابد أن تتسلط عيناها علينا ولا سيما على الدكتور جـون والسيدة بريتون أما أنا فقد بقيت في عزلة نسبية خارج نطاق الرؤية لا اريد أن تراني وكانت هي تنظر بشكل مطرد الى الدكتور ثم رفعت نظارتها لتمعن النظر في والدته وبعد دقيقة او دقيقتين اخذت تهمس في أذن صاحبتهـا وهي تضحك وعند ابتداء الفعاليات كانت نظراتها مصوبة على المنصة٠

ولا حاجة بي للتحدث عـن الحفـلة الموسيقية ولن تهـم القارىء انطباعاتي عنها وفي الحقيقة ان لا جدوى ولا اهمية لتسجيلها ٠ وكانت

شابات المدرسة الداخلية المضطربات كل الاضطراب يعزفن على البيانين الاثنين والى جانبهن المسيو جوزيف عما نوئيل حين العزف ولم يكن له أي تاثير على شقيقه النصفي الذي كان بوسعه في مثل هذه الظروف أن يجبر الطالبات ـ بالتاكيد ـ على التصرف ببطولة ورباطة جاش وكان المسيو بول يضع المبتدئات المصابات بهستيريا الخوف بين نارين نار الجمهور المنفرج ونارهن هن ويوحي اليهن بشجاعة القانط عن طريق جعل الرعب الاخير اكبر نسبيا غير أن المسيو جوزيف لم يقو على أن يفعل ذلك ·

ويعد العازفات على البيانو المرتديات أردية الموصلين النسيج القطني الرقيق تقدمت فتاة جميلة كاملة الجسم متجهمة الوجه ترتدي الساتان الابيض واخذت تغني فأثر غناؤها بي كما تؤثر حيل السحرة وعجيب كيف غنت ما غنت وكيف تتلاعب باللحن نزولا وصعودا وتجعل المشاهدين يرقصون بمرح ويتصرفون التصرفات الحمقاء ، ان لحنا اسكتلنديا بسيطا يؤديه مستزنج من الشارع كان بوسعه أن يؤثر في ويطربني بشكل أعمق·

وبعدها تقدم احد السادة وأمال جسمه كثيرا صوب الملك والملكة وقرب يده المقفزة بقفاز أبيض مرة بعد اخرى صوب قلبه وغنى بصوت عال موجع ومرير اغنية « ايزابيل الغادرة » وفي ظني أنه أراد أستثارة عطف الملكة ولكن اذا لم آكن مخطئة خطئا كبيرا فان الملكة كانت تنتبه وتصغي بدافع التأدب وليس بدافع الاهتمام بالاغنية · وأثارت اهتمامي مجموعة الكورسات فاعتبرتها افضل ما في المسليات المسائية وكان حاضرا في الاحتفال مندوبون من افضل اقسام وشرائح المجتمعات الكورسية الاقليمية ومثل هؤلاء البارزين المشهورين قدموا الاصوات دون أن يتصنعوا او يفسدوا الموضوع وكان لنشاطاتهم الصميمية هذه النتيجة الجيدة التي شربت فيها كل اذن من معين القوة البدنية المحركة المشبعة·

وخلال كل تلك الحفلة التي ادى فعالياتها ثنائيو الاجهزة الموسيقية وفرادى المغنين المعجبين بأنفسهم ومن يعنيهم في الترديد الغنائي والكورسات الغنائية والنافخون في الادوات الموسيقية خلال تلك الحفلة اعطيت اذنا واحدة وعينا واحدة للمسرح والاذن الثانية والعين الثانية خصصتهما بصورة مستديمة لخدمة الدكتور جون بريتون اذ لم يكن

بوسعي ان اتناساه آو ان اكف عن التساؤل عن مصير مشاعره وبما كان يفكر يا ترى ؟ هل كان يتمتع بالحفلة أو لا يتمتع بها ؟ وأخيرا تكلم وقال لي بالذات بصوته الخاص العذب : « هل احببت هذه الحفلة كلها وهل راقت لديك اذ اراك ساكنة وهادئة تماما ؟ » فأجبته « انني ساكنةوهادئة لانني مستمتعة بها كل الاستمتاع لا بالموسيقى فحسب بل بكل شيء فيها » وشرع آنذاك فيتقديم بعض الملاحظات الاخرى بمزيد من الاتزانورباطة الجاش بحيث اخذت اظن انه في الحقيقة لميشاهد ما شاهدته أنا وبادرته بكلمات هامسة « الآنسة فانشاوي هنا ٠٠ هل شاهدتها ؟ » فأجابني « نعم شاهدتها ولاحظت انك شاهدتيها انت ايضا » ٠

وقلت له متسائلة « هل جاءت يا ترى مع السيدة كولمونديلي فماذا تظن ؟ » فاجابني « انالسيدة كولمونديلي هي هناك مع جماعة كبيرة جدا وان جنيفرا كانت معها فعلا في القطار الذي جاء مع قطار الملكة »وسألته « هل تظن ان جنيفرا شاهدتك ؟ » فقال لي « هذا ما اظنه آنا ايضا في مرات عديدة كنت آركز نظراتي عليها منذ ان سحبت انت نظراتك عنها وكان لي شرف معاينة نظارتها الصغيرة التي لم تلحظيها انت » وقلت له « ما سالتك عن الاسباب انما انتظرت منك معلومات طوعية وهو ماقدمته لي في الحال » ٠

وقال « مع الآنسة فانشاوي مرافقة ذات منزلة اجتماعية هيالسيدة سارا التي استدعتني امها لغرض مهني ذات مرة انها فتاة متكبرة ولكنها ليست وقحة ابداولا ادري ماذا كانتفانشاوي قد كسبت شيئا منتخمينها ووجهة نظرها حين آخذت تسخر من جيرانها وتزدريهم ؟ » وقلت لــه آي جيران ؟ » فأجابتني « أنا وأمي فقط وفيما يخصني أنا أراه شيئا طبيعيا تماما فلا شيء عندها افضل من آن يكـــون الدكتور البورجوازي الشاب هدفا لها ٠٠ ولكن امي ؟! لم آر من يسخر منهـــا ويزدريها طيلة حياتي أتعلمين أن الشفة الممطوطة والنــاظرة المنزلة من عينيها لكيما تسخر من والدتي آثارتا في هياجا غريبا ؟ » ٠

وقلت له « آنس ذلك يا دكتور ولا تفكر به ٠٠ فالامر لا يسوي شيئا لقد كانت جنيفرا في حالة نفسية مـــن الطيش والاستهتار كما هي الليلة وبشكل سافر وما كان عليها ان تضحك على الملكـة اللطيفة المستغرقة في

التفكير الحزين ولا على الملك المصاب بمرض السوداوية والانقباضية خاصة وانها ليست مدفوعة باي حقد او ضغينة في هذا الشان وانما هي مدفوعة فقط بالحماقة المحضة والاستهتار المحض فليس لفتاة مدرسة متسمة بخفة العقل ما يحرجها او ما ينهيها عما هو محرم » .

وقال لي « نسيت شيئا .. أنا لم أتعود على النظر الى الآنسةفانشاوي على انها تلميذة خفيفة العقل . ألم تكن معبودتي وملاك سيرتي ومجرى حياتي ؟ وأجبته بعد التنحنح « تلك كانت اساس غلطتك يا دكتور » وقال لي . اذا عدنا الى الحقيقة الخالصة دون صخب ودون تبجح ودون رومانتيكية منتحلة .. كنت قبل ستة أشهر أعتبرها رائعة جدا . هل تتذكرين محادثتنا عن الهدايا ؟ لم أكن صريحا معك بما فيه الكفاية ، ذلك ان الحماسة المتقدة التي توليت بها معالجة القضية سرتني فبطريقة جنيك الفائدة الكلية من اضوائك وحقائقك سمحت لك بأن تريني في ظلمة هي ادكن مما أنا فيها » ومضى في كلامه معي قائلا لي :

« لقد كانت تجربة الهدايا هي اول تجربة برهنت على انها رهيبة وعلى انها مميتة ولكن مع ذلك لم يزل جمالها محافظا على بهائه وفتنته فقبل ثلاثة أيام بل قبل ثلاثة ساعات كنت لا ازال عبدها تماما وعند مرورها بي الليلة بجمالها الغالب أثنت عليها عواطفي ولتهكمها السيء الحظ هذا احسست أن علي أن اكون ذليلا خاضعا لها وعبدا منعبيدها . ربما سخرت مني وحتى لو انها جرحتني شخصيا لما قدر هذا الجرح الذي تلحقه بي على أن يبعدني عنها وما كان بوسعها أن تثير استيائي منها طيلة عشرة اعوام ولكنها في لحظة اثارت استيائي وامتعاضي لما فعلته معوالدتي من مظاهر الهزء والسخرية » .

ولزم الصمت لحظة ولم اشاهد في عينيه حدة غضب متقدة كالتي شاهدتها في عينيه الزرقاوين وقلة وجود انعكاس نور الشمس فيهما وناداني قائلا « يا لوسي .. انظري جيدا الى والدتي وقولي لي دون محاباة أو خوف ما رأيك فيها وبأي ضوء تبدو امامك الآن ؟ » فأجبته تبدو كما كانت تبدو دائما امرأة انكليزية نبيلة من الطبقة الوسطى ترتدي أردية جميلةوتتحلى باستقلالية مظهرها ومرحها وجمال تركيبها» .

وقال لي « وهكذا تبدو لي أنا .. ليباركها الله .. الرشيقة والمرحة

تضحك معها والضعيفة فقط هي التي تضحك عليها · هذه ليست مادة للضحك عليها والاستخفاف بها ثم تلفظ بكلمات غامضة وتوقف ثم اشتد به الضعف والهياج باكثر مما يتطلبه الامر ولم اكن في وقته قد عرفت ان الدكتور جون شاهد قضيتين مزدوجتين من الانسة فانشاوي آثارتا استياءه منها فترشح واتقاد مظهره العام وتوسع منخري أنفه والتقوس الكبير الذي شوه التقاطيع الجميلة لما تحت شفتيه اظهرته في طور جديد مؤثر ثم ان الانفعال النادر للشخص المهذب الدمث ليس بالمنظر السار ولم يرق لي نوع الثوران الحقدي الانتقامي الذي سرى على محيا الشاب وهيكله ·

وسالني « هل اخفتك يالوسي ؟ »فاجبته « لا اعرف لماذا أنت غاضب الى هذا الحد ؟ » وتمتم في آذني قائلا « للسبب التالي ·· ان جنيفرا ليست ملاكا طاهرا ولا امرأة نقية الذهنية » واجبته « هذا كلام عابث لا طائل تحته وانت تبالغ فهي ليست مؤذية الى هذا الحد في قرارة نفسها» واجابني « كفى ··.كفى ·· هذا ما لا أقوى على تحمله · الآن اكتشفت عماوة بصرك والآن غضي النظر عن الموضوع ودعيني اطالب نفسي بملاطفة ماما · آتصور انها الآن تعبة وصاح بأمه ·· استيقظي ياماما رجاء !! » وقالت له أمه « جون ! الويل لك ان لم تعدل سلوكك ·· هل تتكرم أنت ولوسي بالسكوت لكي يتسنى لي سماع الغناء ؟ » ·

وقال لها جون « اتسمعين الغناء الآن ياماما · اراهن بكل خيولي النشيطة الاصيلة مقابل حلاك المزيفة » وقالت له آمه « حلاي الزائفة ؟ يا غراهام ! أيها الولد العاق المجدف !! انك تعرف أن حلاي أصيلة غالية الثمن » وقال لها « آه ·· انها واحدة من معتقداتك الخرافية فقدخدعوك حين آشتريتها » وقالت له آمه « لقد خدعت في أشياء أقل مما تتصور ·· كيف جرى وتعرفت بسيدات البلاط الشابات ياجون · لقد شاهدت اثنتين منهن وهما يعيران لك أهمية ليست بالقليلة خلال نصف الساعة الاخيرة» وقال لها جون « كان بودي ألا تشاهدينهما » فاجابته أمه « ولم لا ؟؟ فاحداهن كانت تنكت ضدي وتنظر الي بعين السخرية والاستهزاء من خلال نظارة عينها · انها فتاة حلوة ولكنها غبية وهل تدري أن ضحكاتها المكبوتة الساخرة بحقي ستربكني وتخزيني ؟ » وقال لها ولدها « آيتها

السيدة المسنة العاقلة المثيرة الاعجاب .. يا آمي.. آنت آحسن عندي من عشر زوجات » وقالت له « كفى ادعاءا وكذبا يا جـــون والا سببت لي اغماء يكون عليك ازاءه آن تحملني خارج الحفلة واذا كان هذا العبء قد وضع على كاهليك فعليك آن تنقض او تبدل كلامك الاخـــير وتقول ان عشر زيجات لا يمكن آن يكن اسوآ علي منك » .

وانتهت الحفلة وجــاء أوان يانصيب « مساعدة الفقراء » بعـدها وكـانت الفترة الكائنة بينهما فترة استجمام عامــة وفترة آبهــج حركة نشيطة فقد انزاح القطيع الابيض من المنصة وحــل محله صخب السادة المنشغلين بتهيئة الترتيبات لاجراء اليانصيب وسحبه ومن بينهم ـ واكثرهم انشغالا ـ الرجل الكثير النشاط .. المسيو بول ..

وكنت تلحظه وهو يصدر تعليماته وفي الوقت ذاته يضع ذراعه على دولاب اليانصيب وقد انشغل معه ستة مساعدين وراء ظهره يساعدونــه في نقل البيانوين وغير ذلــك من الادوات ، ان وفــرة نشاطـــه ويقظته تقاسمتها مثيرات الحيرة والسخرية وفي ذهني لم آوافق على معظم ضجيجه لا بل سخرت منه في سري . وفي وســط الاذى والتبرم لم يسعني ـ وانا اراقب تلك السذاجة ـ الا ان اتجنب التحسس بكل ما كان يقوله ويفعله وما كان بوسعي أن اتعامى عن بعض المميزات والخصائص النشيطة في اساريره البارزة الآن وفي بريق عينيه الحاد وقوة جبهته الواسعة الشاحبة وقابلية التحرك في فمه القابل للتكيف جدا . وبقـــدر ما كانت تعوزه القوة الهادئة المتزنة كان يمتلك قوة الحركة بشكل ملحوظ .

وفي تلك الاثنــاء كانت القاعــة كلهــا تتماوج بالحركة والانفعال ومعظم من فيها نهضوا وظلوا واقفين استعدادا لاجــراء تبديلات وكــان البعض يمشي ويتكلم احدهم مــع الآخــر ويضحكون مــع بعضهم بعضا واضحت الحجيرة القرمزية مشهدا مفعما بالحيوية واختلطت غيوم السادة المنقسمين الى شراذم بخط قوس قزح السيدات ودنا اثنان او ثلاثة ممن يشبهون الضباط من الملك واخذوا يتحادثون معه وتركت الملكة مقعـدها ودلفت صوب صف الفتيات اللواتي وقفن جميعهن حتى مرت بهن وكانت تبتسم بدورها ابتسامات لطيفة وتحادثهن بكلمات رقيقة او تنظر اليهن بتلك الابتسامات .

وتكلمت الملكة مع فتاتين انكليزيتين جميلتين هما سارا وجنيفرا فانشاوي ببعض الجمل حينما كانت تهم بمغادرتهما وظهر على وجه جنيفرا توهج الشكر والامتنان وتجمعت بعض السيدات حولهما بعد ذلك ثم تجمعت دائرة صغيرة من السادة حولهن ومن بينهم وهو الاقرب الى جنيفرا كان الكونت دي هامال ، وانتفض الدكتور بريتون ونهض فجأة من مكانه قائلا « اصبحت هذه الغرفة حارة · يالوسي وياماما الا تخرجان معي قليلا الى الهواء الطلق ؟ » وقالت السيدة بريتون لي « اذهبي معه يا لوسي فأنا افضل الاحتفاظ بمقعدي » ·

وكان بودي انا ايضا ان احتفظ بمقعدي ولكن رغبة غراهام ينبغي ان تكون لها اولويتها عندي فرافقته · ووجدنا هواء الليل شديدا في برودته او ربما انا شعرت بذلك فقط دون ان يشعر به هو علما بأن الهواء كان راكدا رغم برودته والسماء المزروعة بالكواكب صافية الاديم خالية من الغيوم وكنت ملتفة بشالي المصنوع من الفرو ودرنا بعض الدورات حول ارضية الشارع المرصوفة ولدى مرورنا من تحت احد المصابيح التقت عينا غراهام بعيني وقال لي « اراك مستغرقة بتفكير كئيب يا لوسي فهل هذا من اجلي ؟ » فقلت له « كنت اخشى انك مكتئب » وقال لي « ابدا ·· انا منشرح كما هو عهدك بي وسابقى هكذا حتى الممات ·· يا لوسي ·· انا مقتنع بان اساي ليس بالقلب ربما اشعر بوخزه وقد اهن وقد ابتئس حينا ما ولكن لا الم في المشاعر والاحاسيس ولا علة في كياني كله ألم تشاهديني منشرح الصدر مبتهجا في الدار دائما ؟ » فقلت له « انت كذلك على وجه التعميم » ·

وقال لي « انا مسرور لانها ضحكت على امي وسخرت منها فقد وعيت على حقيقتها بذلك ولن اعادل امي بعشرات من الجميلات وان تلك السخرية قدمت لي اعظم فائدة في العالم ، اشكرك يا آنسة فانشاوي » قال ذلك بشكل ساخر بعد ان رفع قبعته من على خصلات شعره المتموجة · »

واستطرد قائلا « نعم ·· انا اشكرها اذ اشعرتني بأن تسعة اعشار قلبي اخذت تدق كدقات الجرس وسال الدم من الجزء العاشر من جراء ثقب واحد كثقب المبضع الذي سرعان ما يشفى بلمحة بصر » ·

وقلت له « أنت غاضب وثائر ومستاء الآن ولكن غدا ستشعر بشعور آخر يختلف عن شعور اليوم » وقال لي « انا ثائر وغاضب ومستاء ؟ أنت لا تعرفينني فعلى المعكوس آنا الآن أقول لك آن الغضب والاستياء والثوران قد زالت وآنا الآن بارد كهذه الليلة ولما كنت على وشك الاستبراد الشديد اقترح عليك ان نرجع » وقلت له « أيها الدكتور هـذا تحول مفاجيء » وقال لي « ليس الامر كذلك آما اذا كان الامر كذلك كما تقولين فهناك مسببان بينت لك احدهما فقط آما الآن فلنعد الى القاعة » .

ولم نحصل على مقعدينا بسهولة ذلك آن اليانصيب كان قـد بدأ والقاعة تموج بالضجيج والبلبلة وكانت الجماهير قد آغلقت المجاز الشبيه بالممر الذي كان علقينا أن نمر به شقـا للصفوف وكان من الضـروري التوقف قليلا وبعد ان اجلت نظري حولي بمحض الصدفة تخيل لي آنني قد سمعت احدا يردد اسمي ونظرت الى جهة صدور النـداء واذا بالمسيو بول القريب مني جدا المتعذر اجتنابه كما لو انه موجود في كل مكان ينظر الي نظرة فيها كل معاني الجدية والخطورة والتقصد او خيل الي آنـه كان ينظر الى ثوبي القرمزي بشكل ينم عن تعليق متهكم تألقت بموجبه عينـاه .

وكان من عاداته آن ينهمك في الحديث عن ضيق الثوب على الجسم سواء ارتدته مدرسة أو تلميذة في مدرسة المدام بيك وهي عادة كنـــا نعتبرها تهجما وقحا علما بانني لم يسبق لي ان تألمت منها ثم آن البستي اليومية الداكنة اللون لم تكن مفصلة بالشكل الذي يلفت الانظار ومـا كنت في الحالة النفسية التي تسمح لي بقبول انتهاك حرمة أي شيء مرة اخرى ولذلك رضيت بمزاحـه وتجاهلت وجـوده فحولت وجهي الى ردن معطف الدكتور جون شاعرة بذلك الردن الاسود توقعا او مأمولا عن عطر اكثر فوحانا لجلب الراحة والسرور لقلبي والطف وأصـدق . واخذت افكر ـ دون آن تحدوني لذلك سيماء البروفيسور الصغـير المكروهة ـ بان الدكتور جون يبدو بآنه يؤكد بالعبارة التالية التي وجهها الي بصوته اللطيف على اختياره المفضل .. « ابقي دائما الى جانبي يالوسي فهؤلاء المواطنون المتزاحمون لا يحترمون الناس » .

ولا يمكن أن أكون صـادقة مع نفسي وأنا امتثل أو اخضع لتاثيرما

سواء كان فاتنا أو غير ذلك أو لتأثير غير مرغوب فيه ومزعج ولكن له تأثيره علي ولذلك عدت وأجلت النظر فيما حوالي لارى ماذا كـان المسيو بول قد ولى ام لا واذا به واقفا في نفس المكـــان ولا يزال يحدجني بنظرات كنظراته السابقة فقد اخترق اعماق تفكيري وقرأ رغبتي في آن اتجنبــه وابتعد عنه وتحولت نظرته الساخرة غير المسيئة الى تقطيبة عابسة ومكفهرة وعندما حنيت رأسي له لاصالحه لم يرد علي الا بايماءات ما كان أقساها واكثرها فظاعة ·

وسألني الدكتور بريتون هامساوباسما« من هو هذا الذي اغضبتيه يا لوسي ؟- من هو صديقك هذا ذو النظرات المتوحشة ؟! » فقلت لــه « واحد من البروفيسورية الاقزام في مدرسة المدام بيك » وقال لي « انه لا يزال ينظر اليك نظرات قاسية فما الذي فعلتيه به ؟ وما هي القضية بينكما آه يالوسي ·· يالوسي ·· قولي لي ما معنى كل ذلك ؟ » وقلت له « اطمنك آن لا سر في ذلك فالمسيو بول هما نوئيل ملحاح جدا يتعـذر ارضاؤه ولانني تقربت من ردن معطفك بدلا من ملاطفته والانحناء لـه احتراما يظن آنني قصرت في ابداء جانب الاحترام له » ·

وبادرني الدكتور جون قائلا « هو ذا القميء » !! ولا ادري مـاذا يريد أن يضيف على ما قام به تجاهي وكنت في ذلك الوقت كما لو انني اصبحت بين آقـدام الجمهور ولاحظت المسيو بـول وهو يندفع الى امـام بوقاحة وفظاظة ويفسح المجال لتقدمـــه بمرفقيه دون آن يرعى جانب الكياسة قط ودون أن يرعى سلامة الجمهور المحتشد الامر الذي خلق وضعا غير مريح وضغطا وعنتا لا مبرر لها وقال لي الدكتور جون « حقا انه سيء الخلق » وآنا نفسي ايضا ارتأيت ذلك ·

وببطء وصعوبة وصلنا الى مقعدينا وجلسنا كلينا واستغرق سحب القرعة اليانصيبية ساعة من الزمن تقريبا·وكان مشهدا مفعما بالنشاط والحيوية ولاننا كنا نحمل بطاقات شاركنا في المتابعة واحسسنا بالامـل والخوف عند كل تدويرة من تدويرات الدولاب · وهناك طفلتان احداهما في الخامسة من عمرها والاخـرى في السادسة تسحبـان اوراق اليانصيب وينادى من المنصة بارقام البطاقات الفائزة ·

وكانت الجوائز عديدة وان كانت بمبالغ قليلة وحدث آن بطاقـــة

الدكتور جون فازت كما فازت بطاقتي وكانت جائزتي علبة سجاير وبطاقته غطاء لراس السيدة من النوع الممتاز جدا ذو لون فضي أزرق وعليها ريش الطائر يخفق من أحد جوانبه كالغيمة الجليدية اللون . وراق له أن يبادلني جائزتي بجائزته ولا ازال حتى اليوم احتفظ بعلبة السجاير التي فزت بهالتذكرني بالايام الخوالي وبتلك الامسية السعيدة.

اما الدكتور جون فقد امسك بغطاء الراس الذي فاز به وأضفاه على طول كتفه واستبقاه بين اصبعه وابهامه وكان ينظر اليه بمزيج من الاعتزاز والارتباك يثير الضحك تماما ويبدو انه لم تكن لديه فكرة عن كيفية التصرف به أو أين يحفظه وهم بالقائه ارضا بين اقدامه لو لم تأت والدته وتأخذه منه لتضعه ضمن مخزونها من اللوازم .

وكان غراهام مسرورا ومرحا جدا طيلة المساء وكان سروره طبيعيا خالصا لا تكلف او تصنع فيه ولا يمكن أن يصف المرء بسهولة سلوكه ونظراته فقد كان فيها نوع من الميزة والخصوصية الاصيلة ولم أقرأ فيها سيطرته العامة على عواطفه وانما وفرة قواه الصحية وعمقها وجهوده التي لا تكل ولا تمل في البذل وذكرتني اخلاقه وتصرفاته عن خصائص ومميزات لاحظتها فيه حين كان يقوم بواجبه المهني بين الفقراء من الناس الذين كانوا يعانون من امراضهم في « باس ـ فيل » وكان يبدو في عمله ذا عزم وتحمل وطبع حلو واذا كان كذلك فلا غرو اذا ما احبه الجميع فالى جانبه دائما الراحة والامن ومن حوله دفؤ الشمس .

ومع ذلك لم يغفر للانسة فانشاوي ولم ينسها ايضا فاذا غضب لايمكن استرضاؤه بسهولة : لقد نظر اليها اكثر من مرة لا خلسة ولا ذلة أوخضوعا وانما نظر اليها مليا وكان دي هامال جالسا كالصنم وراءها والى جانبها السيدة كولمونديلي وكانت منهمكة كل الانهماك في المحادثة والمرح والانفعال بحيث أن المقاعد سادها هرج ومرج كما ساد بعض مناطق قاعة الحفلة .

وفي غمرة بعض المباحثات الجارية بينهم بحمية ونشاط كانت جنيفرا ترفع يدها وذراعها مرتين او ثلاث مرات وأومض سوار على ذراعها ووجدت ان وميضه كان له انعكاس في عين الدكتور جون اذ أثار فيها شرارة سخرية وحنق فضحك وقال « أظن أنني ساقدم جائزتي على مذبح عطاياي المعتادة فهناك ستجد اللذة والاستحسان . ولم اجد في حياتي عاملة فرنسية مثلها

تتقبل الهبات والعطايا بمثل هذه السهولة والاغرب من ذلك والانكى انها فتاة من عائلة مرموقة » .

وقلت له « ولكنك يا دكتور جون لا تعرف شيئا عن نشأتها التعليمية فهي تتنقل طريدة من مدرسة اجنبية الى اخرى فهي تبين أو تعرض موضوع جهلها للتخفيف عن معظم اخطائها ومما تقوله هي عرفت جازمة أن أمها واباها مثقفان كثقافتها » وقال لي « كنت أعرف دائما أن لا ثروة لها وفي السابق كنت مبتهجا لذلك » وأجبته « انها كانت تقول لي أن عائلتها فقيرة وكانت تتكلم دائما وبصراحة عن ذلك ولم أجد قط أنها تكذب كما يكذب غالبا هؤلاء الغرباء . ان لعائلتها افرادا كثيرين . ان لهم مثل هذا المركز الاجتماعي ولهم مثل هذه الصلات التي تتطلب في نظرهم الكشف والابراز امام الناس ولهذا فان متطلبات الظروف القاسية وطيش النزعة والمزاج ولدت فيهم انعدام الضمير والطيش في محاولتهم الحصول على وسائل الابقاء على المظهر الجيد من الآخرين . هذه هي حقيقة الاشياء المحيطة بها وهذه هي الحالة الوحيدة البارزة فيها منذ طفولتها وحتى الآن » .

وقال لي جون « أنا معتقد بذلك وكان في فكري أن أكونها في قالب آخر أفضل ولكن يا لوسي أصارحك بالحقيقة .. لقد شعرت بشيء جديد في هذه الليلة عندما نظرت اليها والى دي هامال شعرت به قبل أن الاحظ وقاحتها في الازدراء بأمي . لقد لاحظت نظرة متبادلة بينهما بعد دخولها مباشرة ألقت ضوءا كان له أسوأ الاثر في ذهني » وقلت له « مـاذا تعني ؟ هل كنت تعرف منذ زمن طويل انهما يتغازلان بينهما ؟ » .

وقال لي نعم « .. انهما كانا يتغازلان على طول وقد تكون خدعة من الفتاة البريئة أن تغري المحب الصادق بيد أن الذي أشير اليه ليس الغزل وانما كانت نظرة يستدل منها على وجود تفاهم سري متبادل بينهما فالامر لم يكن فيه معشوقية او براءة فما من امرأة حتى وان كان لها جمال افروديت تتبادل مع واحد مثل هذه النظرة المريبة هل تظنين أنني احاول من جانبي أن أتزوجها ؟؟ .. ذلك محال .. أفضل أن أتزوج ريفية ذات معطف قصير وقبعة عالية بمجرد اطمئناني بانها مخلصة وشريفة » .

وما كان لي بد من أن ابتسم فقد تأكدت من انه بالغ الآن في القضية لان جنيفرا شريفة حسب اعتقادي رغم كل رعوناتها وطيشها وقلت له لذلك

فهز راسه بالنفي وقال انه لم يعد يثق بها في موضوع الشرف وقلت لـــه « ان الشيء الوحيد الذي يمكن أن تثق به بأمان هو أنهـــا تضر بأموال الزوج وممتلكاته بشكل يدل على انعــدام الضمير فتضــع صبره وطبعه في مشرحة التجربة ولا أظن انها تسمح لاحد لان يتلاعب بشرف زوجها » ٠

وقال لي « لقد اصبحت محاميــة لها فهــل تريدين أن استعيد معهــا ثيودي القديمة ؟ » وقلت له « كلا ٠٠ لا اريد ذلك ٠٠ اريدك حرا واريد ان أكون واثقة من كونك ستبقى حرا الى الابد وان تكون عادلا في الوقت ذاته » وقال لي « أنا هكذا دائما ولكن عندما اعامل بالنفور وأبعد تماما فلا معدى لي من أن آكــون قاسيا ولــكن انظري ، فالملك والملكة نهضا من مقعديهما ٠ أنا أحببت هذه الملكة ٠٠٠ وجه جميل ٠٠ انظري ان الوالدة مصابة بتعب شديد أيضا فاذا مكثنا مــدة طويلة فان السيــدة المسنة لن تقوى على الوصول الى الدار ٠

وصاحت به السيدة بريتون قائلة له وهي في حيويتها التامة ويقظـة كولدها « هل أنا الذي تعبت يا جون ؟ سأظل جالسة وأبقنا كلينا هنا حتى الصباح وسنرى من الذي سيكون منهكا منا عند طلوع الشمس » وآجابها ولدها « لا اريد الدخول في هــــذه التجربة والحقيقة يا ماما أنت أنشط الكهلات واكثرهن نضارة والآن من أجل اعصاب ولــدك المرهقة وتكوينـه الضعيف نقدم اليك طلب فض الجلسة وانهائها بسرعة » ٠

وقالت له أمه « أيها الشاب الكسول لا ريب في انك كنت تريد أن تكون في الفراش منذ زمن وعلينا الآن أن نداري مزاجك وهنا لوسي ايضا تبدو مرهقة ايضا ٠ عيب عليكما يا لوسي وأنتما في هــذا السن تشعران بالتعب ٠ أما أنا فلو بقيت سبع امسيات في الاسبوع خارج البيت لما تأثرت او ارهقت ٠ تعالا كليكما وبوسعكما أن تضحكا على مسنة مثلي مــا يشاء لكما الضحك أما أنا فساعنى بعلبة القبعات والقبعة النسوية التي ربحناها» وهذا ما فعلته الكهلة بريتون وتقربت منها للاخذ بيدها ولحمل ما ارادت ان تحمله فبانت على وجهها مسحة التحدي او مــــا يشبه الازدراء المشوب بالعطف وعبرت عرابتي عن رأيهــا في أن أهتم أنا بنفسي وفي وسط ذلك الصخب وبعد خروج الملك والملكة تقدمتنا السيدة بريتون وبسرعة وفرت لنا ممشى ضيقا بين الجمهور وتبعها غراهام ٠

وكانت تلك الليلة باردة ومظلمة جدا ولكن سرعان ما وجـدنا عربة تنقلنا الى الدار وجلسنا محشورين ودافئين فيها كما لو أننا جالسون أمام موقد النار وكانت العودة الى الدار في رأيي أبهج من ذهابنا الى الحفلةرغم ان الحوذي سار بنا عبر طريق العربات المظلم الموحش بعيدا عن الطريق المؤدي الى « الشرفة » ونحن الذين كنا منهمكين في الحديث والضحك لم نلاحظ الزوغان عن الطريق الى ان قالت السيدة بريتون انها وان كانت على الدوام تعتبر البيت الريفي بقعة منعزلة ولكنها لم تكن تتصور أنـه يقع في نهاية العالم كما رأت الآن وكانت تعتقد اننا قطعنا ساعة ونصف الساعة في الطريق ولم نبلـغ المنعطف المؤدي الى الشارع العـام المفضي اليـــه ٠

ثم نظر غراهام ولم يلحظ الا حقولا مظلمة فسيحة انتشرت فيهـا صفوف من الاشجار المقطوعة الرؤوس واشجار الزيزفون والدبق فأوقف الحوذي بعد أن ادرك حقيقة الامر ونزلنا فصعد وقعـد بمكانه وامسـك بالاعنة وبفضل ما قام به وصلنا البيت متأخرين ساعة ونصف سـاعة ٠ ولم تنسنا « مرتا » فقد اشعلت النار التي تبهـــج النفس في تلك الليلة الباردة وصفت أواني العشاء في غرفة الطعام وسرنا الامران معا ٠

وكان فجر تلك الليلة الشتوية قد طر قبل أن نصل الى غرفتنا ونزعت ثوبي القرنفلي ومعطفي المزركش وأنا احسس بمشاعر سعيدة لم يكـن لي بها عهد من قبل ، بمشاعر أسعد من مشاعري حين ارتديتها ٠ ومـا كان بوسع ملابسي الزاهية في تلك الحفلة أن تأتي لي بمثل هذه السعادة والفضـل في ذلك يعود الى الصـداقة والشعور بما يتعاورها من هـدوء الراحة ومن الامل المتواضع ٠



الفصل الواحد والعشرون

ـ الارتكاس او رد الفعل ـ

بقي لي ثلاثة ايام وعلي بعدها أن اعود الى المدرسة وكنت دائما اعد لحظات الايام الثلاثة على الساعة الحائطية وكنت آمل أن يمشي رقاصها وئيدا وئيدا غير انه كان يمشي اعتياديا وأنا اراقبه وانتهيت وسط خوفي من انتهائها • وقالت السيدة بريتون بلهجة الملاطفة حين كنا نتناول الفطور « لوسي لن تغادرنا في هذا اليوم فلتعلم أننا قادرون على أن نستحصل لها فترة راحة اخرى وتأجيلا آخر » •

وقلت لها « لا اريد فترة راحة اخرى فبودي أن اودعكم لاستقر في شارع فوسيت مرة اخرى وعلي أن اذهب في هذا الصباح مباشرة لان جسمي قد استعاد قوته » • وظهر أن ذهابي يتوقف على غراهام لانه وعد بمرافقتي الى المدرسة • وصادف أنه انشغل طيلة النهار ولم يعد الىالبيت الا عند الغسق وحصلت مشادة كلامية بسيطة بيننا فقد ضغطت السيدة بريتون وولدها علي لكي أبقى عندها ليلة اخرى وكنت أهم بالبكاءلانني كنت متبرمة وتواقة للذهاب مثل توقان المجرم لنزول الفأس على رقبته ووددت أن ينتهي عذابي وتزول غصتي اما الى متى تبقى حالتي هذه فلم يقل واحد منهما أي شيء عن ذلك فقد كانت حالتي الذهنية بعيدة كل البعد عن تجربتهم أو مفهومهم •

وكان قد اظلم الليل حين أوصلني الدكتور جون بالعربة الى باب المدام بيك وكان المصباح مضاءا من فوق رأسنا وقطرات المطر ترذ في شهر تشرين الثاني ثم تحول مدرارا طيلة النهار وأنار ضوء المصباح الدكة البليلة وفي مثل تلك الليلة قبل عام كنت قد وقفت على نفس هذه الدكة وكان المنظر نفس منظر اليوم ، وتذكرت نفس اشكال حصى الرصيف الذي كنت قد لاحظته بعين كليلة وكسولة عندما كنت انتظر

فتح الباب بنبضات قلب متصاعدة بشدة وانا واقفة على الباب وحيدة وعلى وجهي دلائل التوسل .

في تلك الليلة ايضا كنت قد قابلت مقابلة قصيرة هذا الذي يقف الآن الى جانبي فهل تراني اذكره بها ؟ قررت ألا افعل ذلك وان كانت خاطرة سارة متركزة وراسخة في ذهني والافضل أن تبقى هكذا .

ودق غراهام جرس الباب ففتح في الحال لان فترة الامسية تلك كانت موعد رحيل التلاميذ النهاريين وكانت « روزين » متيقظة وقلت لجون « لا تدخل » ولكنه توقف عند المدخل في المجاز المضاء اضاءة جيدة ،وكنت لا اريده أن يشاهد الدموع التي كانت تترقرق في عيني آنذاك لانه كان ذا طبيعة أرق من أن يتحمل أية علامة من علامات الاسى والحزن وهوالذي كان همه أن يشفي المرضى ويواسيهم .

وقال لي « حافظي على شجاعتك يا لوسي .. وفكري في أن والدتي وانا صديقان حميمان لك ولن ننساك » وقلت له « وأنا ايضا لن انساكم» وجيء الآن بصندوق ملابسي وحاجاتي وتصافحنا أنا وجون واستدار ليذهب غير أنه لم يقتنع ولم يرض بذلك فهو لم يشعر بأنه عمل شيئاً أو قال شيئا يفي بمشاعره النبيلة فعاد ليقول لي متسائلا « هل ستستشعرين الوحدة ؟ » وقلت له « في أول الامر .. نعم سأشعر بذلك » .

وقال لي « أن أمي ستأتي لزيارتك في الحال وفي اثناء ذلك سأخبرك بما سأفعله .. سأكتب اليك كلما يجول في ذهني من العبث المرح فهل تسمحين بذلك ؟ » وقلت لنفسي يا له من شهم ويا لعظمة قلبه ثم أجبته بهز الرأس والابتسامة قائلة « لا تزعج نفسك بذلك ولا تفرض ما يثقل عليك في مثل هذه المهمة ... انت تريد الكتابة لي ؟ ومن أين لك الوقت ؟ .. وقال لي مدهوشا « سأجد الوقت اللازم لذلك .. وداعا » .

وبعد أن ذهب شعرت بأن الباب الكبير يتحطم ويتهشم وبالفأس تهوي وتجرعت الغصة والعذاب دون أن أسمح لنفسي بالتفكير أو بالشعور بأي شيء وبعد ان ابتلعت دموعي كما لو انها الخمر دلفت صوب غرفة جلوس المدام بيك لازورها زيارة الاحترام والتكريم واستقبلتني بود خالص تماما ولاحظت في ترحيبها حتى مشاعر الود التعبيرية وان كان ترحيبها

بي مقتضبا وفي غضون عشر دقائق ارسلت الى غرفة المطالعة حيث كانت التلميذات والمدرسات مجتمعات للدرس المسائي وهناك أيضا رحبن بي ترحيبا ليس بالبارد على ما أظن وبعد ذلك تحررت للذهاب الى جناح المهجع حيث تنام التلميذات والمدرسات ٠

واذ تمددت على الفراش سألت نفسي « ترى ؟ هل سيكتب لي الدكتور جون رسائل ؟ » وتسلل الى ذهني خلسة المنطق عبر الشنق البائن في تلك الغرفة المهجعية المظلمة الطويلة وقلت لنفسي همسا « ربما سيكتب لي مرة واحدة ٠ ما الطف شمائله وما أرق سريرته فهي التي ستحدو به الى أن يقوم بذلك ولكن رسائله لا يمكن أن تستمر وقد لا تتكرر ٠ انها لحماقة عظيمة الاعتماد على مثل هذا الوعد كليا ومجنونة تلك السذاجة التي أخطأت فاعتبرت بركة المطر ذات المياه الوقتية التي تحمل في تجويفها او غورها جرعة ماء واحدة ربيع السنة الذي يهب الغلال للفصول الاخرى ٠

وأحنيت راسي وانا جالسة أطيل التفكير في الموضوع ساعة اخرى وراح المنطق يهمس في أذني ويضع على كتفي يده الضاغطة ويلمس اذني بقشعريرة شفتي الايام الخوالي المزرورقتين قائلا « اذا كتب اليك فماذا بعد ذلك ؟ هل تفكرين في متعة الاجابة على رسالته ؟ أنت ايتها الحمقاء ٠ أحذرك ٠٠ ينبغي أن يكون جوابك قصيرا مقتضبا ولا تأملي منه بهجة القلب ولا تضربي اخماسا باسداس ولا توسعي مشاعرك ولا تعولي على المداعبة في مبادلة الصداقة والعلاقة بالعلاقة ٠ »

وقلت له مترسلة « ولكنني تكلمت مع غراهام ولم تعنفني » فأجابني « كلا ٠٠ ما اردت ذلك فالكلام من لدنك انضباط نفسي جيد وانت تتحدثين حديثا منقوصا غير مكتمل فحين تتحدثين لا ينبغي أن تتناسي التبعية والمرؤوسية ٠٠ ولا أن تشجعي ظاهرة الوهم والالم والعوز ، فالنقر المدقع يكبح ويخمد كلامك ٠٠ » وقاطعته قائلة « ولكن اذا كان الوجود الجسماني ضعيفا والكلام جديرا بالازدراء فمن المؤكد ألا يكون هناك خطأ في جعل اللغة المكتوبة وسيلة لكلام افضل من كلام الشفتين المترددتين المتلعثمتين » واجابني المنطق بهذه العبارة فقط » ما علي بهذا وعلى مسؤوليتك التشبث بهذه الفكرة والا ستتحملين معاناة مؤثراتها اذا شجعت

فكرة المكاتبة » . وسالته « ولكني اذا احسست فهلا اعبر عن احساسي ؟ »
فأجابني المنطق « أبدا !! ابدا !! » .

ورحت أئن وأتاوه لصرامة تكرار هذه الكلمة « ابدا . . ابدا !! فما أقساها من كلمة . . ان هذا الشيطان هذا المنطق . هذا الفعل لن يدعني أرفع بصري الى فوق أو ابتسم أو آمل ولن يقر له قرار حتى يراني وقد تحطمت وروعني التهديد فأنهاريت ففي رأيه لم اولد الا لكسب كسرة الخبز أو قطعة الزبد والا لانتظر آلام الموت وأكتئب واقنط طيلة حياتي . قد يكون المنطق محقا ولكن لا غرو اذا ما كانت أفراحنا في بعض الاوقات تتحداه وتفلت من سلطانه وتعين ساعة هروب لكيما تتخيل فيها ساعة هروب رائعة هي عدوته اللدودة وأملنا الحلو العذب الرائع القدسية » . « ان علينا ان نكسر الاغلال في بعض الفترات رغم الانتقام الرهيب الذي ينتظر عودتنا . ان المنطق انتقامي حاقد كالشيطان تماما . انه كالسم الزعاف لي دائما واذا كنت قد اطعته واسلست له القياد فقد كانت اطاعة من جراء الخوف ولن اطيعه في موضوع الحب ومنذ زمن طويل أشرفت على الموت من جراء اساءة استخدامه ومن جراء التقيد به ومن قشعريرته ومن مدرسته الجرداء وفراشه الثلجي البرودة وضرباته الوحشية المتتالية . ومن أجل تلك القوة الرحومة التي تحتفظ بسري وبولائي واخلاصي الاكيدين الراسخين غالبا ما حدا بي هذا المنطق الى الخروج ليلا في أواسط فصل الشتاء وعلى الجليد البارد مندفعة لكسب العيش الذي تعافه حتى الكلاب الجائعة وغالبا ما كان ينكر حقي بأن أطالب بأشياء افضل وبأوضاع افضل » .

وعندما كنت أنظر الى السماء هل وجدت واحدا من بين النجوم الدرارة يعيرني شعاعة عطف أو عناية ؟ هل وجدت روحا ألطف وأفضل من العقل الانساني ينزل ويمنحني مجالا جويا وهواء مستعارا من الصيف الخالد ياتي لي بالزهور الفواحة التي لا تذبل وبعبير الاشجار التي تعتبر ثمارها الحياة بعينها وبالنسائم العليلة في عالم لا يحتاج نهاره الى شمس تنيره ، يمنح الراحة للمنهوكي القوى ويعطي الامل والمحفزات للقنوط الاشل » .

وتذكرتني ابنة السماء هــذه الليلة اذ رآتني آبكي وتقربت مني قائلة « نامي ! نامي يا حبيبتي فآنا سآحقق احلامك » وحافظت على وعدها وراقبتني في راحتي الليلية ولكنما ان طر الفجر حتى طرد العقل حارستي هذه فاستيقظت جافلة من نومي على صوت قطرات المطر المرتطمة بالالواح الزجاجية وبجوانب المواد المنزلية وعلى صوت الرياح النائحة بين الفينــة والفينة نوآحا مرا وكان المصباح الليلي يموت على المسند الدائري الاسود الموجود في وسط غرفة النوم وكان ضوء الصبح قد انشق من بين عتمــة الليل • لكم آرثي لهؤلاء الذين آلامهم العقلية تدوخهم بدلا من آن تنهضهم •

وفي ذلك الصباح جرتني وخزة حب النهوض من نومي يد كيد جبار وبسرعة رايتني ارتدي ثيابي وسط برودة الفجر القارصة ورحت أشرب الماء المثلج من الابريق الزجاجي وهو المفضل الي دائمــا كلما داهمتني الاكدار والمزعجاب وسرعان ما رن جرس الحضور الى المدرسة ولما كنت قد لبست ثيابي نزلت وحيدة الى غرفة الطعام حيث كان الوجاق مشغولا والجو دافئا على خلاف ما كان كل ما في الدار باردا وسط قسوة شتاء الجزيرة في بداية شهر تشرين الثاني المبكر لموسم الشتاء ولكن الريح الشمالية جاءت بشتاء مبكر نشرته على كل بلدان اوربا • لقد تذكرت كيــف ان الوجاقات السوداء راقت لي عند اول مجيئي اما الآن فقد بدآت اشاركها لذة الارتياح واحببتها مثلما كنا في انكلترا نحب المواقد •

لقد ذهب بي تفكيري وآنا جالسة آمام الموقــد المريح الى مناقشة نفسي حول الحياة والفرص التي تتيحها وحــول القدر والمصير وقراراته وكونت ذهنيتي الاهدآ والاقوى من الليلة الماضية لنفسها بعض القواعد والانظمة الملحة التي تمنع بعقوبات صارمة ــ كــــل استعادة للماضي السعيد وتآمر المريض بالسفر عبر تيــه الحاضر وقفره وبالاعتماد عـلى العقيدة وبالقوانين والمراسيم حيث يلتف شعور مركب من القوة والالم حول قلبي لفا متينا مسيطرا على نبضاته لكي يتيح لي انجــاز عمــل اليوم ثم رفعت رآسي •

وكما قلت سابقا كنت جالسة بالقرب من الوجاق بين المائدة الطويلة وبين المربع المجاور للشباك بحيث يكفي لتسخين كــلا الشقتين متغلغلا في

الحائط ذاته والى جانب الوجاق شباك يطل على الساحة وعندما كنت أنظر الى الشباك وقعت عيناي على غطاء راس وجبين وعينين ملأت قسما كبيرا من ذلك الشباك والتقت تلكما العينين المركزتين بعيني وكانتا تراقباني ولم أعرف حتى تلك اللحظة ان الدموع كانت مستقرة على خدي وفي ذلك الوقت شعرت بذلك ٠

وكانت تلك الدار دارا غريبة لا تخلو زاوية من زواياها من الرقابة والتطفل والاقتحام فلا دمعة تنهمر ولا فكرة تخطر على البال الا وجاسوسة تدون الملاحظات او تحزر ما يحدث ، أما هذا الجاسوس الذكر الجديدالذي جاء يتلصص من الخارج فما هي المهمة التي أنيطت به في تلك الساعة غير المألوفة وغير المحسوب لها حساب وأي حق له في أن يتطفل ويتجسس علي بتلك الشاكلة ؟

ما من بروفيسور آخر يجرأ على عبور المربع المجاور للشباك قبل أن يدق جرس الصف غير ان المسيو بول عما نوئيل لم يكـن ليلتزم بالساعات او الصفوف فقد احتاج الى دليل محفوظ في مكتبة الصـف الاول يريد ان يستعمله فجاء لاخذه وفي طريقه مر بحجرة الطعام وكـان من عوائده أن يستخدم نظارات تريه ما امامه وما وراءه ومـا عـلى جانبيـه فرآني عبر الشباك الصغير وفتح الآن باب حجرة الطعام حيـث وقف وقال لي « اراك حزينة أيتها الآنسة » فأجبته « توجد لدي أسباب لان اكون كذلك » ٠

وقال لي « أنت مريضة بالقلب ومغتاظة وبعين الوقت حزينة وثائرة وارى على وجنتيك دمعتـين أعتقـد انهما حارتان كشرارتي نار ومالحتان كبلورتي بحر وأنت تحدجينني بغرابة وانا احادثك حاليا فهل لي أن أقول لك بماذا اتذكر وأنا اراقبك ؟ » وقلت له « أيها السيد٠٠ علي أن أذهب للصلاة وشيكا ووقتي القصير جدا لا يسمح لي بالحديث في هذه الساعـة فاعذرني » ٠

وقاطعني قائلا « أنا أسامح كل شخص واعذر كـل شيء فمزاجـي معتدل وحليم وليس بعنيف وربمـا لا تقـوى حتى الاهانة على تكديره واثارته » وقلت له « مبادرة كلامية لا مبرر لها اعتبرها فظـة وطائشة ان وجهت الى تلميذة وغير مقبول بها ان وجهت الى مدرسة » ٠

وبان عليه أنه يروم أن يجيب اجابة ودية وقد سبق أن اوصل مخاطبه

السريع الغضب الى حالة الانفجار قبل الآن ولن اسمح له أن يشبع خبثه وأذاه عندي ولذلك جلست صامتة بلا كلام ولكنه قال لي « انظري أنت كذلك الذي يختطف جرعة من السم الحلو ثم يلفظ المرارة كلهـا بقرف واشمئزاز فأجبته « في الحقيقة أن المرارة لا تعجبني أما اذا كان الشيء حلوا سواء كان سما أو طعاماً فلست بقادرة على نكران نوعيته وحلاوته اللذيذة الخاصة فمن الافضل الموت موتا لذيذا سريعا ذلك أفضل من أن يبقى المرء يعيش حياة طويلة لا لذة ولا سحر فيها » وقال لي « ومع ذلك ينبغي أن تأخذي جرعتك المرة يوميا وفي وقتها المعين ولو كان لدي القوة اللازمة فيما يخص السم المحبوب لربما كسرت نفس القدح الذي يحويه ».

وحولت وجهي وأشحته عنه باستياء ، اولا لان وجوده أزعجني كل الازعاج وثانيا لانني أردت تجنب الاسئلة خشية أن أفشل في ضبط النفس عند محاولتي الاجابة » وقالت لي « تعـالي وبهـدوء أكثر أخبريني الحقيقة .. الست حزينة لانك فارقت اصدقاء ؟ أليس الامر كذلك ؟ »

ان النعومة التي لمح اليها غير مقبولة لدي اكثر من عـدم قبولي بفضوله في التحقيق معي ولذلك سكت ودخـل الغرفة وجلس على رحلة لا تبعد عني اكثر من ياردتين وبقي جالسا مدة طويلة دون ان يمل أو يكل في محاولاته الرامية الى جري الى التحادث معه وهي محاولات لم تجد لانني لم أقو على الكلام أو أرغب فيه وأخـيرا توسلت اليه أن يبقيني وحـدي بكلمات ضعيفة الصوت وهبط رأسي على ذراعي وعـلى المنضدة وأخذت أبكي بكاءا مرا وان كان بصوت خافت ثم جلس لمدة اخرى ولم أقو عـلى النظر اليه أو التحدث معه الى ان علمت من غلـق البـاب ومن الخطوات المتراجعة أنه قد ذهب وأراحتني تلك الدموع .

وانفسح أمامي مجال غسل عيني قبل الفطور وفي رأيي انني ظهرت في وجبة الطعام تلك هادئة ككل شخص آخر ولكن لم اكن مرحة مرح الشابة التي جلست على المقعد الموجود قبالتي وركزت عـلى عينيهـا الصغيرتين ـ نوعا ما ـ اللتين كانتا تومضان ومضات الفرح والابتهاج ومدت الي عبر المائدة بيدها البيضاء لكي أصافحها .

انها الآنسة فانشاوي بحركاتها ومظاهر مرحها وغزلهـا الاستهتارية وقد سمنت واكتنز جسمها وبدا خداها كتفاحتين مدروتين وكنت آخر مرة

شاهدتها بملابسها المسائية الفاخرة الانيقة الرائعة ولا ادري انهـا تبدو الآن اقل سحرا في ملابسها المدرسية وهو نوع من البنـوار الفضفاض ذو اللون الازرق الغامق المربع النقش باللون الاسود حتى انني ظننت أن ذلك القميص القاتم أضفى على سحرها تفوقا منتصرا معليا ـ بالمقارنة ـ جمال بشرتها وجدة ازدهارها والجمال الذهبي لغدائرها وخصلات شعرها .

وقالت لي « انني مسرورة بعودتك يا تيمون (تيمون هي الشخصية الرئيسة في مأساة شكسبير استحال عدوا للبشرية بعد ان رفض صديقه أن يقدم له العون بعد ان اضاع أمواله ثم شنق نفسه ويعتبر هذا الاسم رمزا لمرض السوداوية الانقباضية ـ تفسير المؤلفة في آخر الكتاب) وتيمون هو واحد من عشرات الاسماء التي كانت تلتبني بها وقالت « أنت لا تدرين كم كان بودي آن تكوني معي في هذه الحفرة الموحشة » وقلت لها بلهجـة تعجب « اذن اذا كنت تريدينني هنا فبالطبع لديك حاجـة ما أقضيها لك كتصليح جواربك مثلا » وقالت لي « أنت غاضبة ومتشكية وفظـة كمهدي بك دائما فقد توقعت منك هذا وانت لن تكوني انت آن لم تزجري المقابل او تنهريه ولكن الآن تعالي يا جدتي فأمل أنك تحبين القهوة كثـيرا ولا تزالين لا تحبين البستوليت (خبز بحليب) فهل تريديننا أن نتساوم فيما بيننا ؟ » وقلت لها « اذهبي في سبيلك » .

وتلك عادتها عندما تريد ان تسترضيني فهي لم تكـن تحب شرب فنجان القهوة صباحا وشراب المدرسة المخمر لميكن من القوةأو من الحلاوة لكي يلائم مذاقها او يتكيف مع شهيتها المعروفة بها كأية فتاة مدرسةآخرى تتمتع بصحة جيدة كالخبز المحلب الصباحي أو أقراص الرغيـف المخبوزة حديثا وبشكل جيد جدا وكنت أعطي نصف حصتي المدرسية لجنيفرا لانه كان بكمية تزيد على حاجتي وكانت التلميذات يحسدنني على وفرتها أمـا هي فكانت تقدم لي فنجانا من القهوة في الصباح .

وفي تلك الصبيحة كنت مسرورة من حصتي فلا جـوع ولا عطش ولا ادري لماذا كنت أعطي خبزي لجنيفرا وليس لسواها وأتذكر أنني فياحدى سفراتي معها أعطيتها مشربتي لان طريق السفر كـان طويـلا وتوقفنا لتناول الطعام والشراب سوية في مزرعة وكنت أفضل ان اعطي لها حصـة الاسد سواء من حيث الجعة البيضاء أو الخمر الحلو او الحليب الطازج .

هكذا كان الحال معنا وهي تعرف ذلك ولهذا عندما كنا نتخاصم يوميا ما كنا لنتباعد الواحدة عن الاخرى ابدا ٠

وبعد الفطور كنت اتوجه لتدريس الصف الاول ثم اجلس او اقرأ أو آفكر وحيدة وكانت رغبتي في التفكير اكثر من رغبتي في الجلوس والقراءة وعند الساعة التاسعة كان الجرس يدق فتنفتح كل الابواب الموصدة ويسمح بدخول الخارجيين وشبه الداخليين الى حد الساعة الخامسة بدون توقف أو هدوء ٠ وكنت في ذلك الصباح أهم بالجلوس واذا بدقة على الباب ودخلت بعد الاستئذان احدى انصاف الداخليات واخذت من رحلتها بعض الكتب والدفاتر الضرورية ثم خرجت بهدوء على رؤوس اصابعها وتمتمت وهي تخرج « ما أشد انشغالك أيتها الآنسة » ٠

« قلت لها نعم أنا مشغولة ويبدو أن الجميع لاحظوا علي كثرة الانشغال بيد أنني لم أكن أعمل شيئا وما عملت في السابق شيئا ولا أنوي أن أعمل شيئا وبهذا يمنحنا العالم فضلا وسمعة حسنة لاعمال لم نحققها ، ونفس المدام بيك اعتبرتني كثيرة الانهماك ومثقفة وغالبا ما كانت تحذرني من عدم الانكباب على الدراسة كثيرا جدا لئلا يصعد الدم كله الى الرأس » ٠

وفي الحقيقة أن كل شخص في شارع فوسيت كان يعتقد بخرافة « أن الآنسة لوسي مثقفة ما عدا المسيو بول عما نوئيل الذي لم ينسب الي ما نسبوه لاسباب تتعلق به اعتبرها غامضة بالنسبة الي ولم يكن يعترف بالخصائص التي يعترف بها سواه وكان ينتهز كل فرصة ممكنة ليوحي لي وليدخل في روعي بضحكته الخافتة او المكبوتة ومرحه الخبيث انني لست شيئا مذكورا ٠

اما آنا فلم اكن أعير لذلك آية اهمية اذ كان همي أن أفكر تفكيري الخاص وكنت استشعر اللذة الكبرى في قراءة بعض الكتب ولكن ماكنت أقرأ الكثير منها بل كنت أفضل دائما تلك الكتب التي تظهر فيها شخصية المؤلف وطريقته واسلوبه ومشاعره ظهورا بينا وليس الكتب التي لا شخصية بارزة فيها لاصحابها حتى وان كانوا من الاذكياء وذوي الخصائص الحميدة وكنت أتحسس ـ بقدر ما يتعلق الامر بذهنيتي ـ

بان الله سبحانه وتعالى حـــدد القوى والاعمال وانا ممتنة للموهبة التي منحها لي دون آن يستحوذ على مشاعري الطموح لنيل مواهب اسمى واعلى علما بانني كنت اتوق الى زيادة نطاق تثقيفي ٠

ومـــا ان خرجت التلميذة المؤدبة حتى دخلت أخرى بدون استئذان وبدون نقر على الباب وباندفاع فهل كانت على عيني غشاوة لم اشخصها في اول الامر ؟ وبين السلوك المبدئي في ذلك الوقت مدى اخلاقية بريكتي في المدرسة ٠ جنيفرا التي لم تهتـــم قط باصول الآداب علما بأنني كنت ادري ان كل اهتماماتي في هذا الموضوع قد توقفت قبل مدة دون آن ارى ان هنالك ضرورة ان أجزع أو اتحمل ما ينافي الاعراف والقواعد المدرسية الا من ناحية كونها انكليزية ولانها انكليزية تحملتها ٠

ان جنيفرا فانشاوي لم تهتم قط بالرسميات في اي وقت كان فقـد كانت تمسك بي وأنا أتوجه الى مربع الارضية وتدور بي بقوة في حركة من حركات الفالس وهي في متعـــة فكرية وجسمية ٠ ان فانشاوي هـي التي اقتحمت الآن باب غرفتي التي اعتبرته وقت فراغي الذي « اتثقف فيه » وكانت تحمل تحت ضبنها كتابا ضخما عن الموسيقى ٠

وقلت لها في الحال حين دخلت « اذهبي الى غرفة التدريب والتطبيق او اذهبي الى الصالون الصغير » ٠٠ واجابتني « لن اذهب قبل ان يكون لي حديث معك يا عزيزتي أنا اعرف اين قضيت عطلتك وكيـف شرعت تفضحين لاصحاب الجمال والرشاقة تتمتعين بحياتك ككل فاتنة حسناء ٠ لقد شاهدتك في تلك الحفلة وفي تلك الليلة وأنت مرتدية فعلا البسة ككل فتاة اخرى فمن هي الخياطة التي خاطت لك ذلك الثوب ؟ » ٠

وقلت لها هذا لغو ومن قبيل القيل والقال ٠ ما أجمل بدايتك ٠٠ الخياطة !!٠٠ خياطتي ٠٠٠ اليك عني ياجنيفرا، فلا أريد حقا أن تكوني برفقتي » وقالت لي « طالما أنني اريد عشرتك أيها الملاك الضاري غـير الاجتماعي فما قيمة رفضك الواهن وما معناه ؟ شكرا لله لاننا ندري كيف نناور زميلتنا الموهوبة ونخادعها والآن ايتها الدبة البريطانية الصغـيرة المتعلمة ٠٠ هل تعرفين ايزيدور ؟ » فقلت لها « اعرف جـون بريتون » وقالت لي بعد ان وضعت اصابيعها داخل آذينها « اسكتي فأنك تشقـين

طبلتي اذني وقولي لي كيف حال محبوبنا المفضل جون ؟ حدثيني عنه !! ربما كان المسكين في حالة حزن وكآبة وما الـــذي قاله عن تصرفاتي في الليلة الماضية ؟ الم اكن قاسية ؟! » وقلت لها « هل تظنين انني لاحظتك؟»

وقالت لي « لقد كانت امسية رائعة ٠ آه ٠٠ يا لروعة دي هامال وما اروع مراقبتي لذلك العابس المقطب الجبين الذي كان يموت امامي عن بعد ٠٠ وتلك العجوز حماتي المستقبلية !! والحقيقة انني اخشى ان اكون انا والسيدة سارا قد ابدينا جانب الفظاظة والسخرية ازاءها » وقلت لها « ان السيدة سارا لم تسخر منهـــا ابدا ٠٠ وانت ٠٠ لمــاذا استهزأت بها ؟ ولا تتظاهري بانك قلقة وخائفـــة لان السيدة بريتون بقيت على قيد الحياة بعد كل سخرياتك » ٠

وقالت لي « ربما لان السيدات كبـار السن يكـن فظات وخشنات ولكن ذلك الولد ولدها المسكين ماذا قال عني فقد لاحظته مقطع الفؤاد بشكل فظيع » فاجبتها « قال انك كنت تبدين في سرك كما لو انك السيدة دي هامال منذ زمن » وصاحت بفرح « هل حقا انك نفضت يدك عن جون بريتون ؟ وهل تريدين منه ان يتخلى عنك ؟ » ٠

وقالت لي « انت تعرفين انه لا يستطيع ان يفعـل ذلك ٠٠ ولكنني اسألك الم يجن بي ؟! » وقلت لها بهيئة موافقة « جنـون مطبق كجنون الارنب في شـهر آذار » وقالت لي « والآن قـولي لي كيـف توصلت الى اللحاق به في البيت ؟! » وقلت لها « كيف توصلت ؟؟! الا تأخذك الشفقة على امه المسكينة وعلي ؟ لو رأيت ونحن نمسك به في العربة مسكا قويا وهو يهذي بيننا ومع ذلك كان قادرا على السياقة رغـم انفعاله الشديد فمثلا ضل الحوذي ولم يهتد الى البيت نوعا ما وضللنا نحن ايضا عـــن الطريق » وقالت لي « لا تقولي ذلك فانك تضحكين علي والآن يالوسي سناو ٠٠ »

وقاطعتها قائلة » اوكد لك انها حقيقة ٠٠وحقيقة ٠٠ ان الدكتور جون بعد ان عرف اننا ضللنا الطريق انفصل عنا وجلس محـل الحوذي ليهدينا الى طريق البيت الحقيقي » وقالت لي « وبعد ذلك ماذا جرى ؟ » وقلت لها « وبعد ذلك وصلنا الدار والمشهد يفـوق الوصف » وقالت لي

« سفي لي ذلك فالامر يثير المزاح ! » وقلت لها بمهابة وجدية « هــو مزاح بالنسبة لك ايتها الآنسة فانشاوي وانت تعرفين المثل القائل ٠٠ ماهو لهو ولعب بالنسبة لك قد يكون موتا للآخر » ٠

وقالت لي » واصلي الحديث يا حبيبتي تيمون » وقلت لها « مــن حيث الضمير الحي لا استطيع المواصلة ما لم تطمئنيني بأن لك قلبا كيفما كان » وقالت « لي قلب واسع لو تدرين » وقلت لها « هذا جيد ٠٠ ففي هذه الحالة يمكنك ان تتصوري كيف أن الدكتور جون بريتون لم يتناول طعام العشاء في اول الامر وترك الدجاجة والخبز الحلو المهيأ لانعاشــه على المنضدة دون ان يتناول أيشيء منها ولكنلا فائدة ترجى من الاعتماد على التفاصيل المزعجة ويكفي اناقول ان والدته لم تكثر من تعديل غطائه ليبقى على جسمه وهو نائم مثلما أكثرت في تلك الليلة بحيث فاق الامــر كل ما كانت تقوم به في هذا الصدد حين كان طفلا صغيرا » ٠

وقالت لي « ومع كل ذلك لم ياخذ جفنيه النوم ؟٠٠ وقلت لهـــا « لم ياخذ جفنيه النوم » وتساءلت « وماذا قال ؟ » فأجبتها « ماذا قال ؟؟ تصوريه يهتف باسم جنيفرا الفاتنـــة ويلعن ذلك الشيطـــان دي هـــامال ويهــــذي بالضفائر الذهبية والعينين الزرقاوين والذراعين البيضاوين والسوارين الملتمعين وقالت لي « هل هذا صحيح؟! هل رأى السوارين ؟!»

وقلت لها « نعم رآهما كمثل رؤيتي انا لهما بوضوح وربما شاهــد ــ لاول مرة ــ أثر ضغط يده على ذراعك حين البسك السوارين » (وهنــا نهضت جنيفرا لتبدل نبرة صوتي) أما أنا فقلت لها « تعالي ٠٠ ننســه هذا الحديث ، اخرجي وراجعي دروسك وتمارينك » ثم فتحت لها البــاب لتخرج غير انها قالت لي « ولكنك لم تنه كل شيء ولم تخبريني بكلشيء» وقلت لها « من الافضل لك الا تنتظري مني ان اعلمك بكل شيء ومثـــل هذه المحادثات الاضافية لن تسرك وخـــير لك ان تخرجي » وقالــت لي « شيء محير » ولكنها أطاعتني أخيرا وفي الحقيقـة أن جرس الصف الاول رن وكان واجبي أن ادخله للتدريس ولم يكن لها بد من أن تطيعني وتكف عن مقاومة طلبي منها في ان تخرج لاذهب الى واجبي » ٠

واذا توخيت الحقيقة أقول انني لم أكن أقل استياء منها مما كنت

سابقا وسرني التفكير بالفارق الموجود بين الواقع وبين التخيل وتذكري الدكتور جون متمتعا بسياقته للوصول الى داره وتناول عشائه بلذة ولجوئه الى الراحة بهدوئه ولم اشعر بالحيرة الا بعد أن رأيته حزينا فعلا من جراء قضيته التي سببت له المعاناة ٠

ومر اسبوعان اعتدت بعدهما على روتين العمل المدرسي وتنقلت بين الم التبدل العاطفي وبين شلل التعود ٠ وعند مروري بعد الظهيرة من مربع الارضية في طريقي الى صفي الاول حيث كان علي أن أشرح درسي « الاسلوب والادب » شاهدت روزين البوابة وهي واقفة بجانب احد الشبابيك الطويلة الكبيرة وكانت حالتها اعتيادية وهو الوقوف بهدوء وبلا اكتراث باي شيء واحدى يديها مستقرة في جيب مئزرها اما الاخرى فقد امسكت برسالة الصقتها على عينها وراحت الآنسة البوابة تقرأ العنوان ببرود وتتفحص ختمها عن قصد ٠

وقلت لنفسي هل هي رسالة من نوع الرسالة التي اخذت تنتاب فكري بمحتواها منذ سبعة أيام ؟

لقد حلمت الليلة الماضية برسالة وهاآن قوة مغنطيسية تجتذبني الآن الى الرسالة التي تحملها فهل أستطيع أن اتجرأ وأطلب من روزين القاء نظرة على غلافها الابيض هذا وعلى بقعة الشمع الاحمر في وسطه ؟ لا أدري ٠٠ وقلت لنفسي كلا ٠٠ لن افعل ذلك خشية أن ترفض طلبي واخذت دقات قلبي تتزايد الآن وقد اقتربت خطواتها مني ٠ انه لخطأ جسيم فقد كنت الخطوات السريعة لبروفيسور الآداب وهو يتخطى الممر ٠

وأخذت أمر من أمامه مسائلة نفسي ما اذا كان بوسعي الجلوس على رحلتي قبل وصوله وكان الصف على استعداد منظم ليعمل بموجب اوامري وربما فشل في القاء النظرة علي ولكن لو انه وجدني اتسكع في المربع الارضي فلابد ان ياتي ويسمعني محاضرته عن ذلك ٠ وكان لدي الوقت للجلوس وملازمة الصمت المطبق والقيام بأعمال وسط سكون تام تدربنا عليه قبل دخول المسيو عما نوئيل الغضوب ٠

وكما هي عادته دخل الينا دخولا اقتحاميا كقصف الرعد وبدلا من أن يقطع المسافة الكائنة بين الباب وبين المنصة بسرعة مشيته على بعد

نصف المسافة من رحلتي حملق في وجهي وظهره الى التلميذات والغرفة حملقة كان ينبغي أن تحدو بي الى النهوض والوقوف معتدلة الجسم وتوجيه السؤال اليه عما يريده مني بعد تلك النظرة النامة عن الارتياب العابس المقطب ٠

وقال لي وهو يخرج يده من صدريته ويضع رسالة على رحلتي هي نفس الرسالة التي وجدتها في يد روزين وهي مزخرفة بسطح ملون وعين سيكلوبية واحدة من اللون الاحمر القرمزي « هذه الرسالة لك ٠٠ خذيها » وقد عرفت الرسالة وعرفت أنها رسالة أملي ورغبتي المتعةالتي تنقذني من شكوكي وخوفي ٠ ان تلك الرسالة كان المسيو بول قد اخذها من روزين بما عرف عنه من التدخل الذي ليس له ما يبرره في شؤون الآخرين وسلمها الي الآن ٠

وكان ينبغي علي أن أغضب غير أنني غضضت النظر ورنوت الى الغلاف الذي لابد ان يحوي ـ في الاقل ـ صحيفة من الورق ولم يظهر انها خفيفة الوزن انما ذات حجم كبير مرض وهذا عنوانها ٠٠ الآنسة لوسي سناو ٠٠٠ كتبته يد نظيفة رائعة وعازمة ومختومة بختم مدور كامل وواسع وعليه بصمة واضحة للاحرف الاولى من اسم مراسلها ج٠غ٠ب وداخلني الشعور السعيد والعواطف البهجة بحيث وصل دفؤها الى قلبي وسرت في كل اوردتي ٠

لقد تحقق الامل وبيدي الآن عنوان مرحي الحقيقي المحسوس وليس حلما من الاحلام ولا صورة خيالية من الصور الذهنية ولا واحدة من تلك الصور الظلية وليدة الفرص التي تموت الانسانية فيها جوعا ولا تعيش ولم يكن طعاما سماويا كالمن والسلوى الذي امتدحته آنفا حين كنت في حالة نفسية من الكآبة والحزن والذي يذوب في اول الامر بين الشفتين بحلاوة لا مثيل لها اطلاقا ولكنها فيالنهاية تعافها النفس على وجهالتاكيد وتتوق بعد ذلك الى غذاء طبيعي ينبت من داخل الارض ذاتها ٠

وقلت للمسيو بول« شكرا ٠٠٠ شكرا أيها السيد » وحدجني بنظرة شريرة من عينه وعاد الى منصته وعلي أن أقول عنه انه ليس بالآدمي الصالح وان كانت له بعض النواحي الحسنة ٠ وهل قرأت رسالتي مرة بعد اخرى ؟ وهل استهلكت تناول لحم ذلك الغزال بلذة وبسرعة ياترى؟

انا اعرف ان غـــلاف الرسالة بعنوانه والختم البريدي بحروفه الاولى الثلاثة كان ثرا وغنيا ووافرا بيد انه لا يمكن الاطلاع عليها وقراؤتها في ذلك الوقت .

ولهــذا خرجت متسللة من الغرفــة وتناولت مفتاح حجرة النــوم الكبرى التي توصد خــلال النهـــار وقصدت منضدتي الكائنة في مكتبي بسرعة وانا ارتجف خشية صعود المدام بيك الى فوق والتسلل للتجسس علي وفتحت الصندوق وتناولت علبة فيه وبعد ان مليت نظري مرةاخرى من الرسالة قربت الختم ـ بمزيجمن الخوف والشعور بالخجل والفرح ـ من شفتي لافتحها واطلع على ذلك الكنز غــير المعروف ولكنني وضعتها داخل العلبة واغلقت الصندوق والجارورة وأعدت اغــلاق حجرة النوم باقفالها وعــدت مرة اخــرى الى الصف وأنا شــاعرة بأن قصص الجــن الخرافية ليست خرافية وان هدايا الجن ليست اضغاث احـــلام . انه لخيال حلو غريب فان تلك ارسالة التي كانت مصدر سروري لم اقرآها ولم اعرف عدد سطورها حتى الآن .

وعند عودتي الى الصف شاهدت المسيو بول هائجا كالمصاب بالطاعون لمجرد ان بعض التلميذات لم يتكلمن بالصوت الذي يلائم اذنه وذوقهوأخذ بعضهن يبكي وهو في حالة غضب هادريهاجم بعنف ويهم بأن ينوه عنبعض الاسماء وما ان دخلت حتى اخذ يصب جام غضبــه علي قائلا « هــل انا مدرس هؤلاء البنات ؟ وهل انا أشجعهم على خنق لغة آبائهن واجدادهن في حلوقهن ؟ او فرمها بين اسنانهن كما لو ان بهن خجــلا من الكلمات التي يتلفظنها ؟ هل هذا احتشام او تواضع ؟ انه لشعور رديء وزائف ـ كما يعرف هو بالضبط ـ ونذير بالشر وليس خضوعا وانصياعا لهذا الازدراء ولهذه الالفاظ الاستهزائية والاعتباطية والتكشيرية الصــادر عن تلك اللغة النبيلة .

امــا انا فماذا كـــان المفروض في ان اصنعه ؟ لا شيء وظننت انه بسكوتي سيسمح لي ببقائي ساكتة ولكن الزوبعة سرعان ما بدأتتعصف وتهدر . لقد رفضنا ان نجيب على اي سؤال كـــان يطرحه علينا بغضب وعلى م كان استنكاره منصبا ؟ عن رايه في منادع الصف الاول وحجرات تومهــن وخزانات الــكتب ونسيج الرحلات الاخضر ومزهريات الاوراد وتوافه اطر الصور والخرائط وعن المشرفين الاجانب وما الى ذلك .

ومن انتقاداته هذه ظهر انطباع فكري بان « بروفيسور الاداب » لا يستحق اي جواب لكل لغوه الغاضب المنفعل ذاك . وتلك كانت آراء مستوردة مستقاة من « بريطانيا العظمى » تعبر عن وقاحة بعض اهل الجزيرة وتعاليهم على سواهم . وبعد أن هدأت الفتيات لحظة من الزمن ـ ولم يسبق لاية واحدة منهن ان سكبت دمعة واحدة لاهانات اي من الاساتذة الآخرين ـ أخذن الآن يذبن ذوبان قوالب الجليد أمام الطبع الحار للمسيو عما نوئيل اما أنا التي لم تنفعل كل الانفعال فقد جلست وغامرت لاستانف عملي .

ويظهر ان شيئا كمواصلتي السكوت او حركة يدي جعلت المسيو عما نوئيل يحرق الأرم ويخرج عن طوره وصبره ويشب من منصته وثبة حقيقية ويرفس الوجاق القريب من رحلتي بتقدمه بحيث خرج الباب الحديدي الصغير عن مفصله وتطاير الوقود ، وقال لي بصوت واطيء عنيف مشوب بالغضب والاهتياج « هل تحاولين اهانتي ؟ » ثم شرع ينظم وضعية نار الموقد . واذ شعرت بان علي أن أهدئه قليلا اذا كان ذلك في الامكان اجبته « أيها السيد لن آهينك حتى من أجل العالم كله ولا ازال اتذكر جيدا انك قلت لي ذات مرة ان علينا أن نصبح صديقين » .

ولم أرد أن اخفض صوتي او أن اتلعثم في ردي عليه الا انه مع ذلك شاب خفوض صوتي التلعثم عندما رددت عليه ولا ازال أرتئي أن في نوبة غضب المسيو بول شيئا من شبوب العاطفة وهذا كان سببا في أن تغرورق عيناي بالدموع . صحيح أنني كنت في حالة انكساف ومع انني لم أكن جد خائفة فقد بكيت .

وقال لي في الحال بعد ان التفت على كل ما حواليه ليجد الدموع في كل عين « تعالي ... تعالي .. أقر بانني شخص متوحش وليس لي سوى منديل جيبي واحد ولو كان لي عشرون منديلا لوزعتها على كل منكن . ان مدرستكن المسؤولة هنا عنكن والتي تمثلكن هي الآنسة لوسي » . قال ذلك واخرج منديلا من جيبه من الحرير النقي وسلمه لي .

ان الشخص الذي لا يعرف المسيو بول او الذي لم يعتمد عليه وعلى حوافزه ودوافعه يتردد طبعا في اخذ المنديل وقد يرفضه او ما الى ذلك ولكنني شعرت بوضوح ان ذلك لن ينجح معه وان اقل تردد في اخذ المنديل سيكون

خطورة على مشروع الصلح الاولي معه ولذلك لم يكن مني سوى آن انهض والتقي بمنديله في وسط الطريق واستلمه بكياسة ولباقة وامسح به دموع عيني ثم استأنف جلوسي واستبقي علم الصلح بيـــدي واهتممت اهتماما خاصا خلال ما تبقى مـــن وقت الدراسة بأن لا أمس الابرة او الكشتبان أو المقص أو الموصلين ٠

ذلك ان آية نظرة غضوبة مـــن المسيو بـــول تجعله يرمي بهذه الاشياء خارجا فقد كان شديد الكراهية لهـــا ويعتبر الخياطة ضـــربا مـــن ضروب العزوف عن الانتباه واخيرا قدم درسا بليغا جـــدا بنفسية تتصف باللطف وبروح الصداقة في نهاية الدرس وقبل ان ينتهي كانت الغيوم قد انقشعت وظهرت آشعة الشمس وحلت الابتسامات محل الدموع وبعد ان هدأ الصف تقرب من رحلتي مرة اخرى وسألني بلهجة ليست عنيفة جدا « وماذا عـــن الرسالة التي جئت بها اليك ؟ فأجبته « لم آقرآها بعد آيهـــا السيد » وقال لي « عجبا ٠٠ الصحيح آن تعرفي ما بها في الحال فعندما كنت طفلاا حتفظت بخوخة لم آكلها في نضوجها ثم نسيتها فتلفت » ٠

وجاء حدسه صحيحا ولم استطيع منـــــع صعود الحرارة الى وجهي من جوابي له » وقال لي « انك تخصصين لها لحظـــــة مريحة وسارة لقراءتها وستفتحينها عندما تكونين وحيدة آليس كذلك ؟ آن الابتسامة هي الجواب٠ حسنا ٠٠ حسنا ٠٠ لا ينبغي على المرء آن يكون فظا جـــــدا آن شبابنا لن يعيش الا مرة واحدة » وما أن ادار ظهره ليذهب حتى صحت عليه وقلت له همسا « لا ينبغي آن تكون على خطأ في تقديرك ٠ انهـــــا رسالة من صديق ولست على عجل في عدم قراءتها في الحال » واجابني « فهمت ٠٠ فهمت ٠٠ اننا نعرف ماذا تعني كلمة صديق ! » ٠

وقلت له « آيها السيد اليك منديلك ؟ » وقال لي « احتفظي به ٠٠٠ احتفظي به الى حين قراءة الرسالة ثم ايتي لي بهاوساقرأ وقع قراءةالرسالة في عينيك » وبعد ذهابه خرجت التلميذات وتقاطرن على التعريشة المظللة بالاغصان المتشابكة في الحديقـــــة حيث المقاعـــد الهزازة لاخذ راحتهـــن الأعتيادية قبل عشاء الساعة الخامسة وجلست لحظـــــة افكر وانا شاردة الذهن آلف المنديل حول ذراعي فرحة لموضوع كنز الرسالة المحفوظـــة في علبة في جاروة الشقة العليا من البيت ورحت اتلاعب بالمنديل كما لو انه

كرة أرميها عاليا في الهواء حتى اذا سقطت التقيهـــا بيـــدي وأوقعت المنـــديل يد أخرى هي غـــير يـــدي ، يـــد خـــرجت من ردن معطـــف وامتدت فوق ذراعي وتلقفها قائلا « أرى أنك عديمة الاهتمام بي وبما أملك » • حقا ان ذلك الرجل القميء المسيو بول كان سخيفا بمجموعة ما فيه من نزوات ومن حضور في كل مكان فالمرء لا يستطيع أن يتوصل الى حقيقة ما يرمي اليه ولا الى أماكن تواجده •

الفصـــل الثـاني والعشــرون

ـ الرســـــالة ـ

ولما جن الليل وانتهى العشاء وانتهت ساعة ضجيج الاستجمام وأنير مصباح الدراسة في حجرة الطعام وذهب الخارجيون الى دورهـم وسكتت اصوات الدور والاجراس عند المساء واستقرت المدام في غرفة الطعام مع امها وبعض صديقاتها تسللت الى المطبخ وطلبت شمعة لمدة نصف ساعـة لشغل خاص وجاء الجواب بواسطة صديقي فوتون وهو « طبعا يا عزيزتي بوسعك ان تأخذي شمعتين بدلا من شمعة واحدة اذا أردت وصعـدت الى فوق بلا ضجيج نحو غرفة النوم » .

وكان المي شديدا عندما وجدت في تلك الشـقة تلميذة ذهبت الى فراشها وهي متوعكة المزاج وازداد ألمي عنـدما علمت أن المريضة هي جنيفرا فانشاوي التي كانت مستلقية على ظهرها وادركت جازمة أنهـا ستوقظني وتغمرني غمرا بثرثرتها والقيت نظرة عليها وانذرني بريق جفنيها أن مظهر رقادها الحالي ان هو الا خدعة وتحايل من أجل مراقبة حركات « تيمون » اذ ليست من النوع الذي يمكن الوثوق به بينما اريد أن اكون وحيدة لقراءة الرسالة الثمينة بامان .

وخطر لي أن علي الذهاب الى الصفوف وبعد أن وجدت جائزتي في عليبة الجواهر نزلت ولاحقني سـوء الحظ اذ كانت الخادمات يكنسنها وينظفنها على ضوء الشموع وتلك عادة اسبوعية وقد صفت المقاعد على الرحلات وعلت الاتربة والاغبرة اجواء الصفوف وسـودت ثقالات البن الرطبة التي استخدمتها الخادمات أرضية الغرف وكان كل شيء ينم عـن الهرج والمرج والارتباك وبعد ان استحوذت علي الحـيرة دون الشعـور بالهزيمة انسحبت على أمـل أن القى مكانا خلوا من أي واحد في جهـة أخـرى .

ولما كنت اعرف مكان المذبح الجانبي للكنيسة آخذت المفتاح وصعدت ثلاثة سلالم متعاقبة فوصلت منبسط الدرج الضيق المظلم الصامت وفتحت بابا اكلته الديدان الطفولية وتوغلت في العلبـــة العميقة السوداء وهي حجرة تحت السقف الاعلى وهناك حيث لا احد يكتشف امري او يتعرضني حتى المدام نفسها اوصدت الباب ووضعت الشمعة على ركام من الجارورات العتيقة والتففت بشالي لان الجوكان باردا كالثلج واخرجت الرسالة وآنا ارتعش من نفاذ صبري وشققت الختم ٠

وسالت نفسي ٠٠ « وهل ستكون هذه الرسالة طويلة ؟ ام هل ستكون قصيرة ؟ » ثم امررت يدي على عيني لازيح قطــرات الدموع الفضية التي كانت الريح الجنوبية تداعبها ٠٠٠ يالله ٠٠٠ انهـــا طويلة هل ستكون

رسالة باردة الروحية أم ستكون رقيقة ٠٠؟!

٠٠ يالله هي رقيقة ، ووفق توقعي ‹..قيق المنضبط بدت رقيقة جدا ووفق اشتياقي الجائع ربما بدت لي آرق مما كانت ٠

وبقدر ما كـــان أملي ضئيلا كـان خوفي شديدا وفي هـــذا المــذاق الامتمتاعي تواجد قدر كامل من المسرة والبهجة وهكذا ربما مر الكثيرون من الآدميين في عالم الحياة دون أن يعرفوا مدرسة اللغة الانكليزية المسكينة في الحجرة السقفية الباردة تقرآ ــ على ضوء شمعة تـــذوب وتذوى وسط الهواء الشتوي ــ رسالة ذات طبيعة حلـــوة ٠٠ لا اكثر ٠٠ علما بانني اعتبرت طبيعتها الحلوة سامية سمو الآلهة وأسعد من معظم الملوك العائشين في القصور ٠

ومن الطبيعي أن تكون سعادة مثل هـــذا الشخص الضحل الاصالة قصيرة ومع ذلك حين طالت كانت خالصة من الشوائب ورائعة كمجرد فقاعة ولكنها حلوة كالقطرات المائية التي تتعقد عـــلى الشجرة عسلا ثم تجـف كالصمغ ٠ لقد كتب الدكتور جون لي رسالة مطولة ٠٠ كتبهـــا مسرورا ويتعاطف وآورد فيها طمأنينته وسروره بمشاهد مرت امام عينيه وعيني وعن زيارات لبعض المناطق ومحادثاتنا وعن كل القضايا الصغيرة وعــن الاسابيع القلائل الاخيرة السعيدة ٠

وكان جوهر الود الصميمي ايمانه بأن التعابـير والكلمات اللطيفة

البهيجة التي انهالت علينا بوفرة وسخاء لم تنصب علينا من اجل أن ترضيني فقط بل من أجل أن يشبع نفسه بها أيضا وهي اشباعات لاشيء أرضاه وسره اكثر منها ولم ينشد سواها وهي فرضية تقارب المحتوم والمؤكد من جميع الوجوه تلك التي تتعلق بالمستقبل . ان اللحظة الحالية خالية من الالم أو الوصمة او الشائبة وخالية من العوز والحاجة فهي نقية وكاملة تنعم علي وتصونني بعمق ويبدو أن الساروفيم الملائكي استقر الى جانبي ومال الى قلبي واعطى لنبضاته جناحا مبجلا للتلطيف والتنعيم واشفاء العلة .. أيها الدكتور لقد آلمتني فيما بعد فاغفر لي لانني مريضة .. اغفر لي من اجل الاشياء العزيزة على قلبينا التي تذكرتها بشكل رائع وهل هناك اشياء شريرة لا انسانية تحصد نعيم المرء وسعادته ؟ هل هنالك مؤثرات شريرة تلازم الجو الانساني وتسممه ؟ وما حقيقة الاشياء القريبة مني ؟

في هذه الحجرة العليا الواسعة حركة غريبة فقد تناهى الى سمعي بمنتهى التأكيد صوت خطوات متسللة الى أرض الحجرة ... صوت انسلال من ناحية المختلى الاسود الذي دخلت اليه أقدام فاعلي السور المحجبين . وأدرت بصري الى الخلف وكان ضوء الشمعة خافتا والغرفة طويلة ولكن المؤكد لدي انني شاهدت في وسط تلك الحجرة ذات الاشباح شخصا أسود كله او ابيض كله والتنورات حسنة الترتيب وضيقة وسوداء والرأس ملفوف ومحجب بحجاب ابيض .

ما الذي ستقوله أيها القارىء ؟ هل تقول انني كنت عصبية أو مجنونة ؟ أكد لي انني كنت في حالة غير مستقرة اثر قراءتي الرسالة وانفعالي بمضمونها وقل لي انني كنت أحلم ولكنني أؤكد وأجزم بأنني رأيت هناك في تلك الليلة بالذات صورة تشبه صورة ... الراهبة وصرخت من الخوف وكما لو انني تمرضت وتراءى لي أن الشبح أخذ يدنو مني . ربما أغمي علي . وتراجعت الى خلف راكضة صوب الباب ولا ادري كيف نزلت من كل تلك السلالم ربما بغريزتي وابتعدت عن غرفة الطعام ويممت صوب غرفة الجلوس العائدة للمدام بيك واندفعت الى الداخل قائلة « يوجد شيء في الغرفة السقفية كنت هناك وشاهدت شيئا . اذهبوا كلكم وانظروا وشاهدوه » .

وقلت « كلكم » لان الغرفة بدت لي كما لو انها ملأى بالناس في حين انه لم يكن فيها في الحقيقة اكثر من اربعة اشخاص هم المدام بيك وأمها والمدام كينت التي كانت مريضة ومكثت عندها بعد الزيارة واخوها فكتور كينت ورجل آخر وكانوا — عند دخولي عليهم خائفة — يتحادثون مع السيدة العجوز التي كان ظهرها مقابل الباب ·

وربما احالني الخوف القاتل والدوار الى فتاة شاحبة الوجه بشكل فظيع وشعرت بالبرد والصدمة والارتعاش هاجمتني كلها هجوما مخيفا واحاقت بي وحاصرتني وحثثت الجمع على الذهاب الى الغرفة الكائنة تحت السقف الاعلى وشجعني الرجل على الهدوء وعدم الخوف وبدا لي أن امامي من سيقدم المساعدة والامل لي فالتفت الى الباب واومأت اليهم ان يلحقوا بي وارادوا ايقافي ولكنني قلت لهم ان عليهم ان يأتوا معي صوب هذا الطريق ليروا بأم أعينهم ما رأيته أنا من شبح غريب ظهر امامي في وسط الغرفة السقفية وتذكرت الآن رسالتي المتروكة على الجارورات القديمة حيال الشمعة وان علي أن استعيدها واتحدى كل شيء من اجلها فركضت الى فوق بأسرع مما كان في امكاني وتبعوني اضطرارا ·

وعندما وصلت الى باب الغرفة الكائنة تحت السقف الاعلى كان كل شيء مظلما كظلام الحفرة والضوء منطفئا ومن دواعي الارتياح ان احدا — وربما كانت المدام بيك — جاءت معها بمصباح من الغرفة بمشاعرها الهادئة اعتياديا وبسرعة شق الضوء — عندما جاؤوا — الظلام الداكن ووجدوا الشمعة منطفئة على الجارورات ولكن أين الرسالة ؟ اخذت أفتش عنها ونسيت أمر الشبح ·· الراهبة ·

واخذت أشكو والهث واصيح « رسالتي !!·· رسالتي ! » ورحت أفتش قاعة الغرفة وأضرب كفا بكف متوجعة وأقول ··· « أيها القساة !!· حكمتم علي بالقسوة !! كيف انتزعتم من بين يدي رسالتي قبل أن اتذوق حلاوة ما فيها تذوقا تاما ؟ » ولم اعرف ماذا كان الآخرون يفعلون فلم أقو آنذاك على مراقبتهم وأنا مشدوهة في التحري أما هم فقد شرعوا يوجهون الي الاسئلة ولا اجيب عليها واخذوا يفتشون كل زاوية من زوايا الغرفة وعم اللغط بينهم بشأنها وبشأن الحجب وسألوني ما اذا كنت قد سمعت خرقا او قرقعة في البنور فأكدت لهم أن شيئا ما أو

شخصا ما لابد ان كان هنـــاك » وصرخت انا الاحادية المس المنبطحة على الارض للتحري « أواه ٠٠ لقد أخذوا رسالتي » ٠

وسالني صوت معروف لدي هامسا في أذني « أية رســالة يا لوسي ؟ يا فتاتي العزيزة » وقلت هل يمكنني ان اصدق أذني التي سمعت صوتا مالوفا لدي ؟ ونظرت وقلت لنفسي ٠٠ هل اصدق عيني وأثق بها ؟ هــل تعرفت على الصوت الذي سمعته وهل أنني شاهدت وجه هــذا الذي بعث الي بهذه الرسالة ؟! وهل هذا الذي رايتــه الآن بجانبي في هــذه الغرفة المعتمة هو الدكتور جون غراهام ؟؟ الدكتور بريتون نفسه ؟؟ » ٠

نعم !٠٠ لقد كان هو بعينـــه استدعى للكشف على مرض العجوز السيدة كينت وتشخيصه وكان ثاني السيدين من الحاضرين في غرفة جلوس المدام بيك حين دخولي ٠ وسالني الآن قائلا « هل كانت رسالتي يالوسي؟» فقلت له « نعم ٠٠ كانت هي بعينها هي التي كتبتها وبعثتهــا لي جئت الى هنا لاقرأها بهدوء ولم أجد مكانا آخر ملائما لاقرأها بنفسي دون رقيــب بعد أن كنت قد أخبأتها طيلة اليوم ولم افتحها حتى هــذا المساء وبالكاد ألقيت نظرة عليها ولذلك صعب علي فقدانها ٠٠ آه ٠٠ يا رسالتي !!»٠

وقال لي جون « اسكتي ولا تبكي وتحـزني نفسـك بكـل هــذه الدرجة ٠٠ فما هي قيمتها ؟! ٠٠٠ اسكتي ودعينا نخرج من هذه الغرفة الباردة ٠ انهم يرومون لا استدعاء الشرطة ان لمواصلة التفتيش ولا يجوز البقاء هنا ٠ تعالي ننزل » وتناولت يد ساخنة أصابعي الباردة وانزلتني الى الغرفة التي كان فيها موقد وجلسنا آنا وهو نصطلي بنيران الموقد ٠

وأخذ يحادثني ويلاطفني ويهدهدني بدماثة خلق وطيبة لا مثيل لها واعدا اياي بعشرين رسالة مقابل هذه الرسالة المفقودة واذا كانت هناك كلمات مؤذية كالسكاكين لا يمكـــن أن تشفي الجروح التي تحدثها واذا كانت هنالك أعمال حيف وظلم واهانات ذات أسـنة جارحـــة وحافات وحواش يقطر منها السم فهنالك أيضا كلمات عزاء وسلوى تسمعها الاذن وبها البلسم الشافي ورقة لطيفة الوقع يتذكرها المرء بتحنان لا يتلاشى ولا يضمحل ابدا ٠

لقد قيل لي أن الدكتور بريتون لم يكن كاملا ومثاليا كعهدي بهوان

اخلاقه الفعلية كانت تفتقر الى العمل والتسامي والاحتمال ولا ادري ما في ذلك من الحقيقة أو الشطط بيد ان الذي اعرفه فيه هو انه كان صالحا معي ومفيدا لي كفائدة البئر للعابرين على السبيل وكفائدة الشمس لاليف السجون المرتعد من البرد وعهدي به بطولته حتى في هذه اللحظة ٠

وسألني متبسما لماذا اهتممت بالرسالة اهتماما كبيرا الى هذا الحد؟ وكان في فكري ان اقول ـ ولكني لم أقل ـ انني ثمنتها وقيمتها قيمة دمائي في عروقي ولذلك اكتفيت بان قلت له بأن ليس لي من الرسائل للاحتفاظ بها الا عدد قليل جدا منها » وقال لي « انني متأكد من انك لم تقرئيها والا لما فكرت بها باي تفكير » وقلت له « لم أقرأها الا مرة واحدة وأروم قراءتها ثانية وما اشد أسفي لفقدانها ولا معدى لي عن أن أبكي مرة أخرى » ٠

وقال لي « لوسي ٠٠ لوسي يا أختي الصغيرة بالرضاعة (اذا وجدت مثل هذه العلاقة) اليك ٠٠ اليك ٠٠ رسالتك ٠٠ انها ليست أفضل من دموعك هذه ولا أفضل من مثل هذا الاخلاص العاطفي الزائد عن اللزوم انها لظاهرة غريبة متميزة ! وحقيقة الامر أن عينه السريعة شاهدت الرسالة على أرضية الغرفة حيث كنت أفتش أنا أيضا عليها فخطفها بسرعة واخفاها في جيب معطفه وانني اشك بانه كان يفكر بالاعتراف بها او باعادتها لان دموع الحالة النفسية التي تساقطت من عيني حتى لو كانت أقل برودة ـ بدرجة واحدة ـ مما أحس بها لابهج ذلك فؤاده ٠

ان لذة استعادة الرسالة جعلتني أنسى أن أعاتبه على العذاب الذي سببه لي فسروري كان عظيما بحيث لم يتسن لي كبته وتشبثت بالهدوء والطمأنينة اكثر مما تشبثت بالكلام وسألني الدكتور جون « هل أنت مرتاحة الآن ؟ » فأجبته « أنا مرتاحة وسعيدة » وقال لي « حسنا ٠٠ اذا كان الامر كذلك فكيف تجدين وضعك الصحي الآن ؟ هل أنت اهدأ بالا واكثر اطمئنانا ؟ ٠٠ لا أظن بهذه الدرجة لانك ترتجفين حتى الآن كورقة من اوراق الشجر » ٠

ويبدا لي انني هادئة بما يكفي وشعرت ـ في الاقل ـ بأنني خائفة

وعبرت عن نفسي برباطة جاش . وقال لي بعد ذلك « بمقدورك الآن ان تعلميني عما وجدت لان وضعيتك آنذاك اتسمت بالغموض هل تعلمين ؟. كنت شاحبة الوجه ولم تتكلمي الا عن « شيء » لم تفصحي عن ماهيته.. هل كان رجلا ؟.. هل كان حيوانا ؟ ماذا كان ؟ » وقلت اجيبه « لن اقول لك بالضبط عما كان في مكنوني ما لم يتحسس به شخص آخر ايضا وحينئذ سأقدم شهادة مؤكدة وبدون ذلك ساشعر بالخزي وسأتهم بأنني احلم » وقال لي الدكتور بريتون « أخبريني ساسمعه بصفتي المهنية أو من وجهة نظري المهنية وربما اراني أقرأ كل ما تخفيه في عينيك البهيتين والقلقتين معا بشكل غريب وفي خديك اللذين هجرهما الدم وفي يديك اللتين لا تعرفان الثبات ولا الاستقرار .. تعالي يا لوسي تكلمي واخبريني » .

وقلت له « ان لم أعلمك ستقطع رسائلك عني اليس كذلك ؟ » فقال لي «انك تضحكين الآن» وقلت له «اريد أخذ هذه الرسالة الوحيدة لانها لي وأرى أن لي حقا في استعادتها » وشعرت بالمزاح الممزوج بكلماته الامر الذي أفاض علي الجدية والسكوت وطويت الرسالة التي أعطانيها ودسستها في جيبي وقال لي « انك اخفيتها وبوسعك آن تفعلي ذلك أما انا فقادر على اخذها لحظة ما اريد وأنت لا تعرفين براعتي وخفة يدي وبوسعي آن أكون ساحرا بارعا اذا أردت ذلك . تقول لي والدتي احيانا أن لدي خاصية وميزة متناسقة ومتناغمة بين لساني وعيني أما أنت فلم تهتد الى ذلك في « أليس كذلك يا لوسي ؟ » .

وقلت له « بلى .. بلى .. عندما كنت صبيا لاحظت كلتا هاتين الميزتين وكانتا آنذاك أقوى مما هما عليه الآن ذلك آنك الآن قوي والقوة تستغني عن المكر ولا تزال يا جون تمتلك ما يسمى في هذا البلد بالمظهر الماكر ولا يخطيء أي شخص في ذلك وقد اكتشفتها المدام بيك ... » وقاطعني بضحكة قائلا « وأحببتها لانها هي ذاتها تمتلك نفس الميزة .. ولكن يا لوسي أعطني الرسالة فانت لا تهتمين بها » .

ولم أجبه على عبارته الاستفزازية تلك فغراهام في حالته المرحة لا ينبغي ممازحته اكثر من اللازم . وتلاعبت على شفتيه نوعية جديدة من الابتسامة رغم انها كانت حلوة فانها احزنتني بنوع ما لان نوعا جديدا

من النور التمع في عينيه ورغم عدم اتصافه بالروح الهجومية الا أنها لم تكن مطمئنة لذلك نهضت لاذهب وودعته وأنا حزينة بعض الشيء . ان حساسيته تلك القوة الاستنباطية الكاشفة ظهرت في لحظة الشكوى وبانت على وجهه بجلاء صامت امارات الشكوى والمعاتبة وسألني بلهجة هادئة اذا ما كان قد اساء الي فهززت راسي بما يعني النفي وعدم حصول ذلك .

وقال لي « اذا كان الامر كذلك فدعيني أكلمك قليلا بجدية قبل أن تذهبي . أنك في حالة عصبية للغاية وأنا متأكد مما هو شائع على نظرتك وسلوكك ـ اللتين تسيطرين عليهما سيطرة تامة ـ انك عندما كنت وحيدة في ذلك المساء بتلك الغرفة الكائنة تحت السقف الاعلى ، تلك الغرفة المخيفة المهلكة الشبيهة بوحشة القبور ذلك الجب الذي تعلوه الرقائق والصفائح المعدنية الذي يفوح بروائح الرطوبة والعفونة والذي كان عليك الا تدخليه ، رأيت أو ظننت بأنك رايت شيئا أثر على خيالك وتصورك وأنا على علم من أنك لم تكوني عرضة لمخاوف محسوسة اولخوف من أن يرقك أحد أو ما شاكل ذلك . ولست متأكدا من أن زائرة متجسدة بشخص طيفي تسبب لك صدمة في ذهنيتك . اقول لك اهدئي فالقضية قضية اضطراب عصبي على ما أرى وكل ما أريده منك الآن أن تعطي مواصفات الشبح أو الخيال الذي تراءى لك » .

وقلت له « الن تخبر أحدا بذلك ؟ » فقال « ابدا .. ابدا .. تأكدي من ذلك ! وينبغي أن تثقي بي كما وثقت بالاب سيلاس فالطبيب هو أفضل من الكاهن في حفظ السر وان لم يكن له شعر أبيض » ثم قال لي « لا تضحكي فربما كنت سببا في أن اخدمك بشكل جيد ولا تسخري فأنا أشعر بكوني صديقا لك وان كانت طبيعتك الهيابة بطيئة في الشعور بثقتك بالمقابل » .

وبدا الآن كصديق فقد زايلته الابتسامة وبريق عينيه الفائقة لحد الوصف وانكسف تقوس شفتيه كما انكسف حال منخريه وحاجبيه وبدت السكينة على محياه وشاع الاهتمام الرزين على هيئته وسيمائه وبمنتهى الثقة به أخبرته بحقيقة ما شاهدت وقبل هذا رويت له الاسطورة الشائعة عن الدار واستغرق حديثي وشرحي الامور له قرابة ساعة من ظهيرة شهر تشرين الاول المعتدل ثم ركبنا العربة عبر الخميلة ذات البركة .

وجلس يتأمل وبينما كان على هذه الحالة سمعناهم كلهم وينزلون الى اسفل البناية وقال وهو يرنو الى الباب وقد ارتسم الانزعاج على محياه « هل هم آتون لتعكير صفونا ؟ » فأجبته « لن يأتوا الى هذا المكان لاننا في الصالون الصغير اذي لا تجلس فيه المدام بيك عادة عند المساء ومن قبيل الصدفة أن تظل حرارة الوجاق باقية حتى ذلك الوقت » ومر الجمع من أمام الباب قاصدين غرفة العشاء وتابع الدكتور جون حديثه قائلا « الآن سيتحدثون عن اللصوص والسراق والسطو على البيوت وما الى ذلك اما أنت فكمن لم تقل شيئا ولا تصغي لاحد قصة الراهبة الشبح وقدتظهر امامك مرة اخرى فلا تجفلي ولا تخافي منها » ٠

وقلت له برعب مستتر هل ترى ذلك ؟ لقد توارى الحديث عن دماغي كما يتوارى الآن هنا ٠ وقال لي « أظن أن الامر مجرد وهم طيفي ناجم عن نزاع او تناقض ذهني وعقلي مضت عليه مدة طويلة » وقلت له بلهجة التعجب « آه ٠٠ يا دكتور انني أرتعد لفكرة تعرضي لمثل هذا الوهم فهو يبدو عندي أمرا حقيقيا ٠٠ ثم أليس لهذه العلة دواء ؟ أليس له وقاء ؟ » وقال لي « دواء ذلك هو الشعور بالسعادة وذهنية مرحة واستثمار ورعاية كلتيهما » ٠

وفي رايي أن ليس من مسخرية في هذا العالم تبدو أمامي جوفاء كسخرية أن يقال لك ٠ « استثمر السعادة وارعها فما الذي تعنيه هذه النصيحة ؟! فالسعادة ليست كالبطاطس التي تزرع بقالبها وتجنى بالتسميد ٠ السعادة أبهة متألقة علينا من السماء وقطرة ندى مقدسة تشعر الروح في بعض أصباح أيام الصيف بأنها تنزل اليها من زهرةنبتة خالدة لا تعرف الذبول ومن ثمار الفردوس الذهبية ٠

وقلت للدكتور جون باقتضاب « استثمار السعادة !! هل تستثمر أنت السعادة وترعاها وكيف تقوى على ذلك ؟ » فقال لي « انني مرح بطبيعتي ولم يطاردني سوء الطالع وعندما طاردني أنا والوالدة ذاتمرة وتناوشمعنا في معركة عابسا مقطب الجبين تحديناه أوبالاحرى ضحكنا عليه وسخرنا منه » وقلت له « ليس في كلهذا استثمار او رعاية اطلاقا » وقال لي « لم افسح المجال لكي يتداخلني او يهاجمني مرض السوداوية الانقباضية » وقلت له « نعم رأيتك وقد خضعت لذلك الاحساس » وقال

لي « تقصدين موضوع جنيفرا٠٠ اليس كذلك ؟ » وقلت له « ألم تحولك في بعض الاحيان الى بائس ؟ » ٠

وقال لي بلهجة الاستخفاف والازدراء « أف ٠٠ كان هراء وعبثا ٠٠ الا ترين أنني الآن احسن حالا ؟ فاذا كانت هنالك عين ضاحكة ونور حي منعش ووجه يزخر ويزدهر بالاشراقة تشهد على ان فلانا بحالة أحسن فهو فعلا بحالة أحسن » وقلت له بلهجة الاقرار « أنت لا تبدو جد مستاء أو في وضع سيء او صحة سيئة ٠٠ » وقال لي « لماذا يالوسي ؟ الا تستطيعين أن تبدين مثلي وتشعرين مثلي بشعور المرح والابتهاج وتتدرعين بالشجاعة وأن تكوني لائقة لتحدي كل العابثين والعابثات في العالم ؟ سأدفع ثمنا وذهبا لمجرد أن أجدك تقابلينني بالازدراء وعدم الاكتراث في مثل هذه الامور ٠ جربي هذه المناورة تجدي ما يروق لك ويرضيك » ٠

وقلت له « وماذا لو جئت لك بالآنسة فانشاوي وأوقفتها امامك الآن ؟ » فاجابني « أعاهدك يا لوسي انها لن تحرك في أية مشاعر ولن تقوى على تحريكي الا بشيء واحد فقط وهو أن تقول نعم » ان تقولها لي صحيحة لا شائبة فيها وأن تكن لي الحب العاطفي العميق الغور ٠ في مثل هذه الحالة أسامحها بما لا يقل عن هذا بثمن » وقلت له « في الحقيقة ان ابسامة منها ستسوى عندك كنزا » ٠

وقال لي « تبدل هذا يا لوسي ٠٠ تبدل ٠٠ وتذكري أنك نعتيني ذات مرة بالعبد ولكنني اقول لك الآن أنني حر » ٠٠

ووقف على قدميه وبانت الحرية التي يقول عنها في ملامح وجهه وبريق عينيه وتجلت نفسيته الجديدة الكارهة لقيود الماضي وقال لي « ان الآنسة فانشاوي قد سيرتني في درب طور وحالة وشعور انتهى أمرها معي نهائيا ودخلت حالة أخرى وأنا الآن مستعد لمقابلة الحب بالحب والعاطفة بالعاطفة وساقدر ذلك أحسن تقدير ايضا » وقلت له « آه منك ٠٠ أيها الدكتور لقد سبق أن قلت لي أن طبيعتك تمشي وراء حب محفوف بالصعوبات ويسحرك انعدام الحس المتسم بالعجرفة والخيلاء »٠

واجابني ضاحكا «ان طبيعتي تتغير وتتبدل وحالة ساعتنا ووضعيتها

تكون في بعض الاحيـان أضحوكة الساعـة التي تعقبها » وسحب قفازيه قائلا « حسنا يالوسي ·· هل ستعود الراهبة مرة اخـرى فما رأيك ؟ » وقلت له « لا أظن أنهـا ستعود » وقال لي « اذا عادت بلغيها تحيـاتي واستعطفيها لكي تتلطف وتقبـل زيارة مني · قولي لي يا لوسي هـل كانت راهبة جميلة ؟ وهل كان لها وجه بديع ؟ لم تقولي لي شيئا عن هذا الموضوع وهي نقطة هامة حقا » ·

وقلت له « كانت تلف وجهها بقماش ابيض وكانت عيناها تلتمعان وتتالقان » وقال لي بصوت عال « هذا لستر اغطيتها الجنية ولكن لابـد أن تكون ذات عينين جميلتين لامعتين وناعستين » وكان جوابي له «باردتان وجامدتان » وقال لي « كلا ·· كلا ·· نحـن لا نخشاها ولن تنتابك أو تتردد عليك يا لوسي واذا فعلت فكل ما تفعلين هو أن تصافحيها ·· وهل تتصورين أنها قادرة على تحمل ذلك ؟ » ثم ابتسم وودعني ·

وقلت في نفسي هل يوجد شيء ما يا ترى في تلك الغرفة الكائنـة تحت السقف ؟ وماذا اكتشفوا ؟ بعد التفكير الزائد اعتقدت أن اكتشافاتهم لم تكن الا شيئا ضئيلا فقد سبق أن تكلموا عن أقنعة مزعجة ولكن المدام بيك اكدت لي فيما بعـد أنه فيما يخص الالواح الزجاجية والنوافـذ المكسورة في كوة سقف البيت أن سبب انكسار أو تهشم بعضها هو هبوب عاصفة شديدة قبل بضعة أيام ·

واستفهمت مني المدام باهتمام زائد عما شاهدته ولكنني اكتفيت فقط بوصف شخص بشري غامض يرتدي أردية سوداء وحذرت نفسي من عدم ذكر كلمة راهبة » لان هذه الكلمة لابـد ان تـورد الى خاطرها في الحال فكرة رومانسية وخيالية وأوصتني بألا اتحدث بذلك لاية خادمـة أو تلميذة أو مدرسة وحذرتني من ذلك كثـيرا وأوصتني بأن اذهب الى ادارتها الخاصة بدلا من ترويج قصة الرعب في غرف المدرسة وبذلك يكون الموضوع قد أغلق أما أنا فقد ظللت وحدي تائهة في احزاني اسأل نفسي عما اذا كان هذا الشيء الغريب يعود لعالمنا أو لعالم ما وراء المقابر وعما اذا لم يكن سوى وليد المرض وأنا المريضة فريسته ؟ ·



الفصل الثالث والعشرون

- فاشتي -

كنت قد قلت « أهيم على وجهي حزينة » أما الآن فلافقد أثر مؤثر جديد على حياتي واوقف تقدم الحزن في مكانه وتخيل معي أيها القارىء واديا صغيرا عميق الغور في الغموض الغابي يكمن في ظلام وضباب تربته الظاهرة شديدة الرطوبة ، واعشابه رطبة وشاحبة وقد احدثت زوبعة ما او فاس ما فراغا واسعا بين اشجار البلوط والسنديان وقد هبت النسائم في ارجائه وحجب عنه نور الشمس واصبح الوادي البارد الحزين مصقولا كالكأس الصينية الصقيلة العالية الصنع وقد أضفى أوج الصيف ابهته الزرقاء ونوره الذهبي على ذلك الجو الجميل الرائق وهو ما لم يشهده ذلك الوادي بغوره العميق . وداخلتني عقيدة جديدة وآمنت بالسعادة .

مرت ثلاثة اسابيع على مغامرة الغرفة الكائنة تحت السقف الاعلى من البناية ولدي الان في علبتي وصندوقي وجاروريتي الفوقانية التي تضم اول رسالة واربع رسائل أخرى مماثلة بنفس القلم الحبر ومختومة بنفس الختم الواضح حاوية كل ما يبهج القلب والنفس ويريحها الى أقصى حد كما كنت اراها حينذاك وبعد اعوام كنت أقراها وبدت لي رسائل رقيقة بما يكفي وسارة بما يكفي الا كتبها شخص هو أيضا مسرور ومبتهج القلب وانطوت الرسالتان الاخيرتان على ثلاثة أو اربعة اسطر نصفية الرقة ونصفية البهجة مستقاة من مشاعر متحسسة ومتاثرة بالعاطفة ولكنها لا تتسم بسمات الخضوع او التضرع .

ايها القارىء العزيز لقد حولها الزمن الى شراب مستساغ من هذه النوعية اللطيفة وعندما تذوقت اكسيرها من ذلك الينبوع الطاهر بدا لي كما لو انه عصير غلة الكروم الفاخرة وهي جرعات كما لو أن « هيب » آلهة الشباب التي كانت تملأ كؤوس الالهة هي التي ملأتها بموافقة

منهم • هل يتذكر القاريء ماذا قيل عن بعض الصفحات الماضية من هذا الكتاب ؟ وهل له أن يتساءل عن كيفية اجابتي على هذه الرسائل ؟ هل أجبت عليها وفق الرقابة العقلية المقيدة ضمن حدود معينة أم وفق الحوافز الليبرالية الكاملة للمشاعر والاحاسيس •؟

توخيا للصدق وقفت بين الامرين وخدمت سيدين واحنيت رأسي اجلالا في بيت الوهية ريمون (ريمون اله من آلهة الآشوريين منوه عنه في « كتاب الملوك » ـ شرح المؤلفة) وحركت أوتار قلبي عند مزار مقدس آخر • لقد كتبت رسالتين جوابيتين احداهما ارحت بها نفسي وتنفست الصعداء والاخرى من أجل غرامام ولكي تبدأ الحديث عنهما اخذت أنا ومشاعري نخرج العقل من الابواب وحجبنا عنه الرؤية وفرشنا الورقة وغمسنا القلم في حبر الاشواق وبعميق المتعة نشرنا ما في القلب من خالص الحب •

وعندما فعلنا ذلك ملأنا الصفحتين بلغة الحب العنيف الخالص وهو عرفان بالجميل عميق الجذور وقويها وفي هذه الجملة المعترضة تنازلت ـ بكل تهكم واستهزاء ـ من كل ريبة متسللة مما يقال عنها « بالمشاعر الساخنة » أن النساء لا يتمعتعن بهذه « المشاعر الساخنة » حين لن يكن واقعات منذ البداية طيلة معرفتهن بمعارفهن ـ في احبولة انخداعهن بالمفهوم الشرطي التالي وهو ان فعلت كذا يعتبر منك هذا سخفا اوحمقا يتصف بالخطورة •

وما من فتاة تنزع الى الحب وتندفع اليه مالم تكن قد شهدت صعود نجم الامل فوق مياه الحب المعكرة او حلمت بذلك وعندما عبرت آنذاك عن الصلة العنيفة التشبث والعميقة الاحترام التي أبدت استعدادها لتقبل كل ما هو محزن ومؤلم من أجل الهدف الذي تصبو اليه فمعنى ذلك انها امتصت او بددت كل الزوابع والصواعق عن كيان يهده القلق والهم وفي مثل هذه اللحظة فقط تهتز ابواب قلبي ويستسلم الرتاج ويزول الحاجز ويتقدم العقل بعنف انتقامي ويختطف أوراق الرسالة فيقرؤها ويأخذ في ابداء التهكم والهزء ويحذف ما يشاء ويمزق ما يشاء ويعيد الكتابة كيفما يشاء ويطوي ويختم الرسالة بعد أن يوصلها الى موجز مقتضب مهذب ونعم ما يفعل •

ولم أعش على الرسائل فقط فقد زاروني واعتنوا واهتموا بي وفي يوم من ايام الاسبوع اخذوني الى الدار المسماة «بالشرفة» وكنت موضوع العناية واللطف ولم يبح الدكتور بريتون لي بالاسباب التي تحدو به الى ان يكون لطيفا جدا ورقيقا جدا معي وقال لي ذات مرة « لكي انقذك من الراهبة سأناقش الموضوع معها بشأنك فأنا اكرهها بسبب القماش الوجهي الابيض الذي ترتديه وعينيها الرماديتين الجامدتين واكد لي بانه ما ان سمع مني باوصافها حتى شعر بالقرف والاشمئزاز التام منها وعول على مقاومتها وعلى تبيان ما اذا كانت هي أو هو الاذكى وتمنى لو أنها في ذات مرة تحاول النظر اليك وأنا موجود وهذا مالم يحدث ثم اخذ يتحادث معي حول الموضوع علميا على ضوء أنني المريضة وأنه المهني الذي يريد المعالجة ببراعة وفعلا باشر بمعالجتي بما عرف في طبعه من حب الخير بعملية علاج ودية ولطيفة ٠

وفي احدى الامسيات التي صادفت اليوم الاول من شهر كانون الاول كنت أتمشى في المربع الارضي وكانت الساعة السادسة منها وقد أغلقت الصفوف وفي داخلها كانت التلميذات منشغلات في الاستجمامة المسائية تصدر منهن ضوضاء غير شديدة وكانت ارضية المربع ملفوفة بالظلام باستثناء لمعان ضوء أحمر تحت الوجاق وفيما حوله وتجمد الثلج على الابواب الزجاجية الرحبة وعلى النوافذ الطويلة ٠

وبرهن شعاع شفاف من بعض النجوم ملقى على ذلك الحاجب الشتوي الابيض ومبدد تبديدا رائعا لون تطريزه الشاحب ، برهن على أنها كانت ليلة صافية الاديم وان كان القمر لم يطلع فيها وكوني تجرأت على أن أبقى وحيدة في الظلماء دلل على أن أعصابي استعادت صحتها وفكرت في الراهبة دون ان اخشاها هذه المرة رغم ان بيت السلم يقع خلفي عبر ليلة سوداء عمياء من منبسط درجي الى آخر الى الغرفة المسكونة الكائنة تحت السقف ٠

فاشتي = هي زوجة الملك أهازورس احد ملوك الميديين وكان قد طلب منها الملك أن تعرض جمالها أمام عدد من الامراء زاروه فرفضت طلبه فعزلها عن ملوكيتها وتزوج اليهودية ايستر وأحلها ملكة بمحلها (القاموس) ٠

واذا بقلبي تزداد دقاته ونبضي كذلك وعلى حين غرة سمعت صوت تنفس وصوت حفيف وخشخشة والتفت صوب الصوت فوجدت في عمق ظلال الدرجات خيالا يتحرك ويهبط الدرجات ثم توقف برهة عند باب الصف ثم انسل امامي وبنفس الوقت رنجرس الباب البعيد ، انالاصوات الشبيهة بالحياة تأتي بمشاعر شبيهة بالحياة وكان ذلك الخيال اكثردائرية وخصرا من خيال الراهبة النحيف واتضح انه لم يكن سوى المدام بيكالتي كانت تقوم بواجبها المدرسي ٠

وجاءت روزين من الممر بسرعةوهي تصيح بي لاهثة وبيدها المصباح « أيتها الآنسة لوسي ٠٠٠ يوجد شخص ينتظرك في الصالون » لقد رآتني المدام وانا رأيتها أيضا وروزين رأتنا كلينا ولم تكن بيننا معرفة متبادلة ثم ذهبت الى الصالون في الحال فوجدت ما توقعت ان اجده ٠٠ الدكتور بريتون ٠٠ وكان يرتدي بدلة السهرة الرسمية وقال لي حين شاهدني « العربة عند الباب ارسلتهاوالدتي لاخذك الى المسرح وكانت نفسهاتريد الذهاب الى هذا المسرح لولا ان زوارا داهموها فامتنعت عن الذهاب قائلة لي في الحال « خذ لوسي عوضا عني ٠٠٠ واذهب واصحبها » ٠

وقلت له وانا انظر بخيبة أمل الى ثوبي « المرينوس » الاسود ذي النسيج الصوفي « الآن ؟! لست مرتدية الثياب اللائقة » وقال لي «لديك نصف ساعة لترتدي خلالها ثيابك وكان ينبغي علي ان اعطيك اشعارا بذلك لولا انني لم اعول على الذهاب الا في الساعة الخامسة عندما علمت ان حفلة كبرى اصيلة ستقام تكريما لفنانة عظيمة » ولفظ امامي اسما هزني وآثار مشاعري ٠٠٠ اسما هز اوربا برمتها هزا في ذلك الوقت واسمي يومها « بيوم سيربوس » اسم اعظم النجوم الثابتة لمعانا وتوهجا من بين مجموعة النجوم ٠

وقلت له سارتدي ملابسي بسرعة خلال عشر دقائق وعدت بسرعة لتبديل ثيابي دون ان تعيقني فكرة الذهاب مع غراهام بدون السيدة بريتون لان السيدة والدته عرابتي كانت تعرف ولدها وتعرفني ثم انها كانت تعتبرنا كأخ وأخت ولم تفكر في وضع مراقبين يراقبون روحاتنا وجيئاتنا ٠ ولم يكن الوقت الحاضر مناسبا لترتيبات مظهرية فقماش

الكريب الكميتي اللون يكفي وكنت قد ارتديته في غرفة المهجع التي علق فيها ما لا يقل عن اربعين ثوبا ٠

غير ان تبدلات واصلاحات أجريت وان يدا اصلاحية هي التي أجرت مثل هذه التبدلات والاصلاحات علىخزانة الثياب التي كان ردائي الكريبي موجودا بينها وعلي أن افتش عنه واخذت المفتاح وصعدت بلا خوف وأنا طائشة الفكر وفتحت الباب واندفعت الى الداخل وقد يصدق القاريء أو لا يصدق ذلك أنني عندما دخلت باندفاع لم تكـن الغرفة الموجودة تحت السقف مظلمة جدا كمهدي بها فقـد لاحظت أن ضـوءا كضوء النجمـة ــ ولكن بشكل اوسع نطاقا ــ ينبعث من احدى نواحيها ٠

وكان وميض الضوء من الوضوح بحيث أظهر فجوة الجدار العميقة مع قسم من الستارة القرمزية الوسخة التي تغطيها ولم اجازف لمعرفـــة السبب فلم يكن لدي وقت أو رغبة في ذلك وتناولت ملابسي المعلقة على الحائط بالقرب من الباب بفرح واندفعت بكل سرعة بعد ان اغلقتالباب ونزلت الى غرفة المهجع وكنت أرتجف من البرد بحيث أدركت أن ارتداء ملابسي بمثل تلك الاصابع الباردة أو تثبيت وغلـــق المشبكات والعرى بها أمر غير ممكن بتاتا ولهذا استدعيت روزين واعطيتها رشوة لمساعدتي ولما كانت تحب الرشاوى فقد عملت جهـــدها لمساعدتي وأخذت تمشط شعري وتنعمه وتجدله وتضفره كما يصنع الحلاق تماما ٠

ونظمتطوق التخريم بشكل صحيح ودقيق وشدت شريط الرقبة شدا دقيقا أيضا وقامت بعملها كالحورية بيد أنيقة ورشيقة وبعد أن أعطتلي منديلي وقفازي حملت الشمعة وأنارت لي طريق نزولي واخبرتها أنني نسيت شالي فهرعت صاعدة الى فوق وجاءت بـــه الي ووقفت في المجاز الى جانب الدكتور جونمنتظرين وقال لي جون وهو ينظر الي بعينين مزويتين « ما هذا يا لوسي ٠٠ هلتكرر حادث الاستثارة ؟ هل الراهبة مرة اخرى؟»

ونفيت نفيا قاطعا اذ كنت حائرة من أن أتهم مرة اخرى بوهم ثان الا أنه لم يصدقني وقال لي « نعم كانت هي وأنا موقن من ذلك طالما أنا حي فصورتها المرسومة في عينيك بهذا البريق الخاص وهذا التعبيرالخاص لا يدع مجالا لتنطئتي » وباصرار قلت له « لم تكـن هي » وفعلا أنكرت

ظهورها وأنا صادقة اذ لم آرها فعلا واجابني مؤكدا « آرى نفس الدلائل على محياك • اصفرار خاص وما يسميه الاسكتلنديون بالنظرة الزائغة » •

ولما أمعن في اصراره لم أر بدا من أن أعلمه بما وجدت حقيقة وبالطبع يعني ذلك معه تأثيرا آخر للقضية ذاتها انه كان وهما من أوهام النظر ومرضا عصبيا وما الى ذلك ولم اصدق ذلك قط رغم انني لم أعارضه فيما قاله فالاطباء لهم آراؤهم المادية المتسمة بالواقعية ثم جاءت الي روزين بشالي ودخلنا العربة ووجدنا المسرح مكتظا بالناس حتى سقفه ومن بينهم ملكيون ونبلاء وقلت لنفسي سنكون محظوظين جدا اذا وجدنا مكانا أمام المسرح اذ انني كنت تائقة لاشاهد شخصية سمعت عن شهرتها بتقارير جعلتني أتوقع منها اشياء متميزة وساءلت نفسي عما اذا سيبدر منها ما يبرر شهرتها بجلائل الاداء وغرائبه وبأحاسيس مترمتة تلفت انظار الجمهور وانتظرت • وكانت دراسة ذات طبيعة لم تشهدها عيناي • فقد ظهر جلية أنها نجمة عظيمة وجديدة ولكن بأي شكل ؟ وانتظرت ظهورها على المسرح •

« وفي الساعة التاسعة من ليلة من ليالي كانون الاول ظهرت على المسرح ووجدتها تتقدم من فوق الافق مشرقة بعظمة وأبهة شاحبة وبقوة راسخة وعندما اصبحت قريبة تراءت أمامي كما لو أنها مزيج من الاضطراب والتشوش والفراغ والذبول النصفي والهيكل المشرف على الهلاك يتناصفها الخمود والتوهج لقد سمعت عن هذه المرأة انها صريحة وبسيطة وتوقعت أن تكون ناتئة العظام أو خشنة العظام ومتجهمة وضخمة الجثة ولكن الذي رأيته فيها أنها ظل الملكة « فاشتي » فقد كانت جميلة كالنهار فيما مضى أما الآن فقد استحالت شاحبة كالشفق وذاوية كالشمعة المشعولة •

لقد لحقت المعاناة بأمبراطورة المسرح التي وقفت أمام جمهورها لا مستسلمة ولا متحملة • وقفت كمنغلقة على نفسها فيما تبديه من جهد وصارمة في مقاومتها وقفت على ما ترتديه ثنيات قديمة وقفت كتمثال منحوت في ملابس قسم منها قرمزي غير منسجم وقسم منها ابيض كالفضة ان لم نقل كالموت • أين كان الفنان الذي رسم كليوباترة ليأت الى هنا ويجلس ويتدارس هذه الصورة المغايرة لتشد العضلات القوية والدماء الوفيرة واللحم المكتنز الذي يتعبده ليتقرب كل الماديين وينظروا اليها •

قلت انها غير مستاءة من اساها وحزنها . كلا .. ان ضعف هذه الكلمة يجعل منها اكذوبة وبالنسبة لها يصبح الذي يؤذيها متجسدا فيها على التو وتنظر اليه كما لو انه شيء يمكن شن الهجوم عليه وتمزيقه اربا اربا فكانها مادة تتناقض مع التجريد وقبل ان تلحق بها بلوى تكون كالنمرة تمزق كل ما يهاجمها من مظاهر الويل او البلوى اما الالم عندها فليست نتيجته على ما ترام والدموع لا تروي غلة الحكمة وحصادها واما عن المرض والموت نفسه فلا تنظر اليهما الا بعين التمرد والثورة .

وربما ان الذي يبدو عليها هو شر بيد انها من الجهة الاخرى قوية وقوتها انتصرت على الجمال وتغلبت على التناسق وقيدت الاثنين الى جانبها اسيرين مطواعين بين يديها . ان شعرها المتطاير كما لو انه في حالة حرب لا يزال كشعر الملائكة زاهيا تحت هالة من نور . لقد قيل لي ان «فاشتي» لم تكن فاشلة وقلت ان مظهرها ليس بالجيد ومع انها روح فانها كانت خارج نطاق تقديم القرابين والضحايا . حسنا ... اذا كانت قبل هذه القوة غير القدسية قد برزت من تحت الا يجوز ان ينزل مثيل لها من محتوى قدسي في يوم ما من اعلى الى تحت وساءلت نفسي ما هو راي الدكتور بريتون بهذه المخلوقة ؟ .

وكنت في فترات طويلة قد نسيت ان اساله كيف كانت حالته وموقفه من هذه المشاهد ورايه بها فالقوة الجذابة للعبقرية اخرجت قلبي عن مداره الاعتيادي وتحول عباد الشمس من ناحية الجنوب الى ضوء صارخ هو غير ضوء الشمس انما ضوء مذنب احمر مندفع يبدو حارا امام النظر والاحساس . لقد شاهدت التمثيل قبل هذا ولكن لا كهذا التمثيل ابدا ، لا كهذا الذي يدهش الامل ويهدهد الرغبة ويخمدها ويبذ الحافز ويوهن الادراك والذي بدلا من ان يزعج التصور بما ينبغي ان يتحقق بمرض الاعصاب ـ في الوقت عينه ـ لانه لم يتحقق ويبرز القوة ويبديها للعيان كنهر الشتاء العميق الفائض الهادر في فيضانه يحمل الروح كورقة من الاوراق عبر اندفاعه الوعر صوب منحدره .

لقد وصفت الآنسة فانشاوي الدكتور بريتون على انه رجل خطير مشبوب العاطفة رزين جدا وحساس جدا ولم اجده في مثل هذا الوصف ولا يمكن ان يرميه المرء في مثل هذه النعوت ولم يكن موقفه الطبيعي

او حالته الطبيعية تنطوي على التاملية ولا على الوجدانية لقد كان مرنا وسريع التاثر • انه رجل قادر على التفكير بشكل جيد زد على ذلك انه رجل عمل اكثر من كونه رجل فكر • وله شعور او احساس رائع في اعماله ولكن ليس في قلبه وتر للتعصب قط •

وبالنسبة للمؤثرات الحلوة اللطيفة ترحب عيناه وشفتاه ترحيبا حلوا وما أجمل النظر اليه عندها كما لو أنك تعاين الاصباغ الوردية والفضية واللؤلؤية والارجوانية للغيوم الصيفية وليس له من تعاطفمع كل ما له صلة بالزوبعة من عنف وخطورة ومفاجاة واضطرام التوهجات والبروق• وعندما كانت تتاح لي الفرصة للرنو اليه كان يبهجني وينورني عنه • انه لم يتفرج على « فاشتي » الملكة الشريرة لا باندهاش ولا بالتعبد و لابخوف انما لمجرد حب الاستطلاع الشديد • ان عذابها لم يؤلمه ولم تحرك بهساكنا تاوهاتها الاسوا من الزعيق اما غضبها او عنفها فقد اثارته نوعا ما ولكن لا الى حد الاشمئزاز او الرعب •

يا لك من شاب هاديء يا بريتون !! عند نظري الى وجهه اشتقت الى معرفة آرائه الحقيقية وأخيرا طرحت عليه سؤالا ابتغي به استنباطها واستيقظ على صوت كلماتي كما لو انه كان مستغرقا في نوم حالم •• لقد كان يفكر بتقصد تام منهمكا في افكاره الخاصة وسألته ما رأيه بفاشتي فأجابني « هم ؟؟؟ » وهو الجواب التعبيري المفصلي الاول ثم اخذت ابتسامته الغريبة تفيض على شفتيه وهي ابتسامة دقيقة حرجة وقاسية نوعا ما وفي رايي انه في مثل هذه الاحوال تنم عواطفه عن الصراحة • وبعبارات قليلة افصح عن رأيه واحساسه بالممثلة قائلا انها امرأة وليس فنانة ••

وعندما انتصف الليل واسودت المأساة العميقة الى حد مشهد الموت والكل حبسوا انفاسهم حتى غراهام عض على شفتيه السفلى وعقدحاجبيه وبدا الهدوء عليه وآثر الصدمة وحين عم السكون على كل الجالسين المتفرجين وتركزت الانظار على نقطة واحدة واصاخت كل الآذان السمع صوب جهة واحدة هي الشكل الابيض الممدود على مقعد وهي ترتجف من اثر مقاومتها آخر اعدائها ولا يسمع منها سوى الحشرجة وآلام الاحتضار

بعد ان استنزفت كل قواها في المقاومة المنيدة وسفحت كل قطرة من دمائها حتى جاء اوان الموت الذي يقول لكل الاحاسيس ولكل الآدميين « الى هذا الحد ولا حد بعده » ٠

وهنا حدث أمر مثير مترع بالنحس والشؤم وراء الكواليس وكنت ترى الناس يتراكضون والاصوات تتعالى بالتحذيرات فما الذي جرى يا ترى ؟ هكذا كان المتفرجون يتساءلون وجاء الجواب ان شرارة نار أوجدت دخان حريق ورن في الرواق صوت ٠٠ النار ـ النار واعقب ذلك ـ بما لا يقوى القلم على وصفه ـ رعب مندفع ومحطم وفوضى عمياء قاسية وانانية وفي تلك اللحظة شاهدت الدكتور جون على ما اتصف به من شجاعة وهدوء صميمي خالص ٠

وقال وهو يرنو الي بنفس الطيبة والدماثة المعروفة عنه عند جلوسي الى جانبه وجانب أمه في البيت « على لوسي أن تستقر هادئة في مكانها » هكذا ناشدني وجلست هادئة كما لو أنني جالسة على جرف مشرف على الانهيار وفي الحقيقة أن تلك كانت عادتي وهو التزام الهدوء في مثل هذه الظروف وعلى حساب حياتي نفسها عولت على البقاء في مكاني وعدم الابتعاد عنه كي لا أسبب له القلق أو أعارض ارادته او احرجه في تركيز اهتمامه وملاحظته في تلك الساعة الخطرة وكنا في أحد المقاعد الامامية وبعد بضع دقائق حل ضغط قاس وحرج مخيف جدا حولنا ٠

وقال جون « ما أخوف النساء وما اكثرهن رعبا ولو لم يكن بعض الرجال مثلهن تقريبا لامكن المحافظة على الامن ٠ هذا وضع مؤلم يوجد خمسون متوحشا انانيا في هذه اللحظة لو كنت قريبا من أي منهم للكمته واسقطته الارض ولكن بعض النساء هن أشجع من بعض الرجال وهنالك على مبعدة منا واحدة منهن ٠٠٠ يا الهي !! وعندما كان جون يتحدث أسقط أحد هؤلاء المتوحشين فتاة شابة هادئة كانت متشبثة برجل أمامها فوقعت تحت اقدام الجمهور وبثانيتين تقريبا اندفع غراهام الى امام وتعاون والرجل الذي كان معها وجاء الى التعاون معهما رجل قوي ثالث أبيض الشعر ووحدوا قواهم واصبحوا وراء الحشد من الناس وقدتدلى رأسها وشعرها الطويل على كتفه وربما اغمي عليها على ما كان يبدو من وضعها ذاك ٠

وقال الدكتور جون أودعها لدي فأنا طبيب « وكان جواب الرجل » « ان لم يكن معك سيدة فليكن ذلك . امسك بها وأنا سأنظم لك بالقـوة ممرا اذ ينبغي ايصالها الى العراء » وقال غراهام « لدي سيدة ولكنها لن تكون عائقا » واستدعاني بايماءة من عينه لاننا كنا متفرقين ولرغبتي في الوصول اليهم احتللت الحاجز وحاولت الزحف من تحته للوصول اليهم دون جدوى فصاح بي جون « تعالي وتشبثي بي ولا تغادرينا » فأطعته.

وظهرت قوة رائدنا وبراعته في شق صفوف الجمع المتكاتف كما لو كان وتدا أو اسفينا وبمثابرة وصبر وجهد وصلنـــا عبر صخرة اللحم والدم القوية الحارة الخائفة ، الى العراء حيث نسيم الليل العليل البارد وقال له الرجل متسائلا بعد وصولنا الى الشارع « هل أنت انكليزي ؟ » فاجابه « أنا انكليزي وهل انا اتكلم مع مواطن ؟ » أجابه الرجل « حسنا .. تلطف وانتظرني دقيقتين ههنا حتى أجلب عربتي » وهنا تكلمت الفتاة « أبي .. ليس بي شيء مؤذ هل أنا اتكلم مع أبي ؟ » فأجابها جون « أنت مع صديق ووالدك قريب منا » وقالت له « أخبره أني بخير ولم أصب بأذى باستثناء ذراعي .. آه . ذراعي !! انهم داسوا عليه » وقال لهـــا جون « ربما كان خلعا ولنأمل أن لا أذى أسوأ منـــه موجودا .. تعالي يا لوسي واعطني يدا واحدة منك للحظتين فقط » .

وقدمت العون بينما أخذ ينهمك في صنع الضمادات وما يلزم لاراحة الفتاة المعانية من الالم انها عندما تمددت بين احضانه بهـــدوء وصبر كبتت أناتها وقال غراهام « انها خفيفة جدا خفـة الطفلة وأسر في أذني متسائلا « هل هي طفلة يا لوسي ؟ هل قدرت عمرهـــا ؟ » .. واجابت الفتاة المريضة معترضة باباء وشمم « لست طفلة .. أنا في السابعة عشرة من عمري » ثـم استطردت قائلة « استدعوا ابي ليـأتي فانني مشتاقة اليــه » .

وقدمت العربة وبقدومها أخذ الوالد ابنته من غراهام ليتركه ولكن الفتاة بنقلها من يد الى اخرى عاودها الالم وراحت تئن مرة اخرى وقال لها ابوها بحنان « عزيزتي ما بك ؟ » والتفت الى غراهام قائلا له « أنت قلت يا سيدي انك طبيب ؟ » واجابه جون « انا الدكتور بريتون » فقال له الرجل « حسنا .. ان عربتي هنا سآتي بها وارافقك » وقال له جــون

« تفضل واتبعنا » واعطى له عنوانه « فندق غريسي في شارع غريسي »•
وامضينا بعض الوقت في اعادة النظر باغراضنا ومـــا يعود الينا في داخل العربة ووصلنا الفندق بعد الرجل وابنته بعشر دقائق وكان فندقا اجنبي الشكل والتصميم وليس خانا بنايته ضخمة وعاليــة وواسعة وبه قوس الدخول عند باب الشارع يؤدي الى طريق مقنطر ومغطى الى ساحـة مربعة الشكل تحوي كلها ابنية •

ونزلنا من العربة وصعدنا سلما بديعا عاما ووقفنا عند الرقم (٢) في منبسط الدرج للطابق الاول الذي يشتمل على مقر الامير الروسي كمـــا اسماه لي غراهام وضغطنا على جرس البـــاب الثاني الـــكبير ودخلنا الى مجموعة اجنحةرائعة جداوقادنا خادم يرتدي زيا مميزا الى قاعة الاستقبال تتوهج موائدها الانكليزية بالنيران وتتوهج حيطانهـــا بمرايا اجنبية • وبالقرب من الموقد مجموعة صغيرة من النزلاء غاطسين في كراسي الاتكاء العميقة ذات الذراعين •

ورمقنا الرجل ذو الشعر الرمادي ـ الحديدي بنظـــرة غير مريحة وكـــانت هنالك امرأتان منهمكتـــان قالت احداهما بصوت خـافت « اين هريت ؟ أريد أن تأتي هريت الي » وقال الرجل الـــذي أبدى تبرمه من الخادم الذي سمح لنا بالدخول بنظرته الحادة المصوبة اليه » أين السيدة هريت ؟ أريد أن تأتي هريت الي » وقال الرجـل الذي أبـدى تبرمه من فقد منحتها سيدتي الشابة اجازة حتى يوم غد » وتدخلت السيدة الشابة قائلة « نعم أنا منحتها الاجازة لانها تريد زيارة شقيقتها • وانا آسفةجدا لذلك لان الخادمتين مانون ولويزون لاتفهمان كلمة واحدة مما اقوله وانا متبرمة بهما » •

وتبادل جون والسيد الان كلمات الترحيب وبعـــد ان امضينا تسع دقائق في المحادثة ، دنوت من الكرسي المريح وكنت انجز للفتاة الممدة على الكرسي التي كان قد أغمي عليها كل ما قدرت على انجازه وحـــين كنت منهمكة في عملي تقرب مني جون وكانت براعته في الجراحة لا تقل عـــن براعته في مجالات الطب الاخرى وبعد ان فحصها وجد ان لا شيء اكثـر مما اكتشفه فيها ولا توصية أكثر من توصيته التي كانت ضرورية لحالتها وأمر بحملها الى غرفته ثم همس في أذني قائلا :

« اذهبي يا لوسي مع النسوة فهن على ما يبدو عليهن بليدات وبوسعك - في اقل تقديري - آن توجهي حركاتهن فتوفرين لهذه المريضة بعض الآلام التي هي في غنى عنها اذ ينبغي ان تلمس بلطف تام ورقة تامة ·
وكان في القاعة غرفة ظليلة وستارة تعليق للزينة ذات لون ازرق باهت وستائر وانسجة شفافة من الموصلين - وبدا لي الفراش كثلج ذرته الرياح ، بدا نظيفا ناعما وضبابيا وأوقفت النسوة على حدة ونزعت ملابس المريضة دون ان اسمح لهن بالتدخل او ابداء العون لانهن لسن أهلا لذلك ·

وكانت الفتاة نفسها جميلة ولطيفة فلففت شعرها الكث الرائع الملتمع الناعم ووقع نظري على وجهها الفتي الشاحب التعب وكان جبينها صقيلا لامعا ورموش عينيها متميزة وناعمة وعيناها هبة غنية من الطبيعة جميلة وكاملة الحجم وعميقة الغور متسيدة على الملامح الاخرى قابلة لان تصبح معبرة اكثر في ساعة اخرى وفي ظروف اخرى غير هذا الظرف حيث انها الآن تعاني وتتعذب ·

لقد كان جسمها كامل الجمال فالعنق واليدان ممرقة ومجزعة بشكل رائق وبديع كتويجيات الزهور وان الطبقة الملساء الزلقة من جليد كبريائها صقل هيكلها الخارجي البديع ، وشفتها تحمل تقوسا لو انني شاهدته قبل حادث مرضها لصعقني بشكل لا مبرر له · لقد كانت حالتها بين يدي الطبيب في اول الامر تستثير الضحك دون آن تكون صبيانية · لقد كانت مريضة قوية وراسخة ولكنها خاطبته مرة أو مرتين بشكل مفاجيء وبحدة قائلة له أنه آذاها وينبغي آن يجد وسيلة لتخفيف الالم ·
ووجدت عينيها الواسعتين الكبيرتين تستقران على وجهه كما لوأنها عينا طفل جميل منشده ومستغرب ولا ادري ما اذا كان غراهام قد لاحظ ذلك فيها واذا كان قد لاحظ ذلك فانه لابد انه احترس وابدى جانب الحذر في عدم صدها او مقابلتها بأية نظرة انتقامية وفي رايي آنه آنجز واجبه بمنتهى الاهتمام واللطف وعمل جهد امكانه لتخفيف الالم عنها وعبرت عن شكرها له كثيرا بعد ان اكمل واجبه بقولها هذا « شكرا آيها الدكتور وليلتك سعيدة » وعندما تفوهت بذلك ارفقت كلماتها بنظرات مباشرة واضحة في جديتها ونواياها ·

وظهر ان الاذى لم يكن خطيرا واطمئن والدها من ذلك ابتسامة سعيدة فيها كل معاني السرور والامتنان توحي للمقابل بأنه يحاول مصادقته وفعلا عبر عن تشكراته وتمنياته للدكتور ورجاه ان يزوره في اليوم التالي وقالت الفتاة مخاطبة اباها « يا آبي اشكر السيدة ايضا هل هي هناك ؟ » وفتحت الستارة بابتسامة ورنوت اليها وهي نائمة نوما مريحا نسبيا ، واذا كانت في باديء الامر قد تراءت لي بانها متكبرة الا انني موقنة بان الاعراف قد برهنت على أنها وديعة ايضا ٠

وقال والدها « أشكر السيدة من صميم قلبي فانها كانت همامة مع ابنتي ولا نتجرأ على أن نقول للسيدة هرست من كان لها بديلا ومن أنجز عملها مشكورا لانها ربما احست بالخجل والغيرة وقدمت لنا المشروبات المنعشة بروح مضيافة ولكننا اعتذرنا وانسحبنا من فندق فريسي ٠ وفي طريق رجوعنا مررنا بالمسرح الذي عمه الصمت والظلام بعد ان غادرته الجموع الهادرة حتى المصابيح كانت قد اطفئت مع نيران المواقد وفي صبيحة اليوم التالي صدرت الجرائد وفيها خبر عن الموضوع جاء فيه أن شرارة نار سقطت على قطعة قماش مدلاة فالتهبت واخمدت بلحظات ٠



الفصــل الرابــع والعشـــرون

ـ المسيو دي باسومبيير ـ

آن اولئك الذين يعيشون متقاعدين من الــــذين سقطت ارواحهم وسط المدارس المنعزلة او غيرها من الدور المحروسة أو المسورة يكونون عرضة لان تتناساهم ذاكرات أصدقائهم في الحال أو بعد مـــدة طويلة وذاكرات سكان العالم الحر ومما لا يمكن تفسيره ـ على سبيل الاحتمال ـ انه في بعض مجالات الاتصال المتواتر يحدث توقف مؤقت وسكوت لا كلام يتخلله ونسيان عقيم يتخلله فراغ طويل الامد لا يمكن توضيحه تنقطـع فيه الرسائل والاخبار وتنقطع الزيارات التي كانت متراترة في السابق وتنقطع كل التذكارات التي تشير الى الذكريات :

وتوجد دائما أسباب لها ما يبررها لهذه الارتدادات او الانحرافات اذا عرف بها فقط الناسك المنعزل ومـــع انه معتكف في صومعته فان علاقاته بدونها تدور في دوامة الحياة ذاتها وتلك الفترة الفارغة التي تمر به مرا بطيئا بحيث يبـدو من بطئهـا كما لو آن اقراص الساعات تتوقف عن الدورات والساعات غير المجنحة التي تتهادى بجانبه على شاكنة دوسات اقدام اخذ التعب مأخذه منها تميل الى الاستراحـة عنـد معـالم الطريق وصواه وتلك الفترة ذاتها ربما كانت عاجة بالاحداث والركض اللاهث من اجل التحري عن الاصدقاء ·

وهذا الناسك ـ لو كان ناسكا ذكيا راشدا ـ لابتلع أفكاره الخاصة وآغلق باب عواطفه خلال اسابيع شتائه الداخلي عالما بأن القدر عينــه ليقلد السنجاب أو ما يشبهه من القوارض في بعض المناسبات ومتمتعـا براحة التكيف جاعلا من نفسه كرة منتفخة يدخل بواسطتها ثقب حائط الحياة ويخضع خضوعا محتشما لائقا لتيارات الهـواء الذارية التي تهب صوب الداخل فتقيه وتحميه في فصل الثلوج ·

وليقل « هـذا حسن ومريح » وينبغي أن يكون الامر هكذا ولربما سينتفتح يوما ما قبره الثلجي ويعود الربيع الرائع الطلق وتصله الريح الجنوبية واشعة الشمس وستدعوه براعم أوراد سياج الشجيرات وترانيم الطيور واغاني الجداول المتحررة الى نشر أو انبعاث ملائم • ربما يكون هذا الذي سيحدث وربما لا يكون غير ان الجليد قد يصل الى فؤاده ولـن يذوب مرة اخرى • وعند عودة الربيع قد ياتي الغراب أو العقعق فـلا يخرج من الحائطين سوى عظام السنجاب والمفروض أن يكون هو على علم منذ البداية بانه خالد وفي يوم ما يسلك طريق اللحم الانساني •

بعد أمسية المسرح الزاخرة بالاحداث أمضيت سبعة اسابيع جرداء كسبع صفحات من الورق الابيض فما من كلمة ارسلت الي ولا زيارةولا أثر يذكرني ووسط ذلك الوقت وردت الى خاطري فكرة احتمال حدوث شيء او مكروه بصديقي فيالبيت المسمى بالشرفة ،ووسط الفراغ توجد دائما نقطة مظلمة غامضة للوحيد الـــذي تتالم اعصابه بعنت التوقـع الطويل ووطاته الشديدة واخذت الشكوك المنبوذة تتجمع الآن وتتكتـل بقوة تجمعها لتعود وتهوى عليه بقوة كقوة الانتقام •

واستحال الليل أيضا وقتا لا عطف فيـه ولا رحمة واضحى الليل وقتا موحشا ولا يلتقي النوم وطبيعته فالبدايات الغريبـة والنضـالات الغريبة تقض مضجعه ومجموعة الاحلام المزعجة المتعسفـة برعب الكارثة والخشية المريضة من حدوث الهجرة التامة تجمعت كلها على رأسه ويا له من مسكين تعس فهو يحاول أن يتحمل ويثبت ويقاوم بيـــد أنه مسكين شاحب الوجه وتعس ضائع رغم كل شيء •

وعند نهاية تلك الأسابيع السبعة الطويلة اعترفت ــ بما استثنيته خلال الاسابيع الستة الاخرى بدافع الغيرة ــ بحقيقة الاعتقاد بأن هـذه الفراغات كانت أمرا محتوما لا مفر منه وحصيلة ظـروف ومن املاءات القدر وجزءا من نصيبي في الحياة ــ وفوق كل ذلك ــ امرا لا ينبغي ان يوجه اي سؤال عن سببه ولا التعبير عن التذمر بصدده قط •

وبطبيعة الحال لم المنفسي لهذه المعاناة التي داخلتني واشكر الباري عزوجل أن حظيت منه باحساس عـادل بـدلا من الوقوع في التهـور أو

التطرف الابله من اتهام الذات وفيما يخص اتهام الآخرين عن ذلك الصمت ففي رأيي انني على علم من أن ليس لهم ذنب في الموضوع يلامون عليه وفي سري اعترفت لهم بذلك ولكنه كان طريق سفر وعر وشاق ولذلك أخذت اشتاق الى أيام أفضل ٠

وجربت مختلف الوسائل لاساند وجودي وأغذيه واملأه فشرعت في القيام بأعمال التخريم ودراسة اللغة الالمانية دراسة شاقة وبدأت في دورة قراءة منظمة قرأت بها اقدم وأثخن الكتب الموجودة في المكتبة ٠ وفي كل مجهوداتي كنت راشدة وقويمة في آرائي الذاتية وفي كيفية التصرف وسألت نفسي ٠٠ ترى ؟ هل وقع مني خطأ ما في مكان ما ؟٠ يحتمل أن يكون قد بدر مني شيء من هذا التبيل ولا أعلم سوى أن النتيجة كانت كما لو انني قضمت ما لا يؤكل لسد الجوع أو شربت الماء المالح لاطفاء العطش ٠

ان ساعة عذابي كانت ساعة مجيء البريد وكنت أعرف ذلك معرفة جيدة غير أنني رحت أخدع نفسي ـ عابثة ـ بصدد هذه المعرفة مخيفة آلام التوقع والترقب المبرحة والانهيار المريض لخيبة الأمل التي تتقدم يوميا تقدما سباقا ملاحقة تلك الدائرة المعترف بها اعترافا جيدا ٠٠ان الحيوانات توضع في أقفاص ولا تطعم الا قليلا وتكون دائما على شفا المجاعة تنتظر طعامها بمثل ما انتظر أنا رسالتي ٠ أواه ٠٠ لكي أتكلم الحقيقة وأتخلى عن أسلوب الهدوء الزائف الذي يتوق للبقاء طويلا فوق ما تتحمله الطبيعة أقول أنني عانيت في تلكم الاسابيع السبعة ما عانيت من المخاوف والاوجاع المرة والمحن الخفية الغريبة وقلة الامل وبؤسه وهجمات القنوط التي لا تحتمل والتي كانت تقترب مني أحيانا بحيث أتحسس بانفاسها ، تلك الانفاس التي رحت أحس بجوها المشؤوم كما لو أنها تنهدات ، كانت تتغلغل في اعماقي وتوقف الحركة بجوار قلبي أو لا تنطلق الا تحت غم وكدر لا مثيل لهما ٠٠ الرسالة ٠٠ الرسالة الحبيبة لن تأتي الرسالة التي كان مجرد النظر اليها يعتبر حلاوة ما بعدها حلاوة ٠

وفي غمرة حاجتي الملحة الشديدة ، عدت المرة تلو المرة الى العلبة الصغيرة الموجودة في صندوقي حيث رسائله الخمسة وما أبدع ذلك الشهر الذي شهدت اجواؤه تصاعد تلك الانجم الخمسة !! فقد كان الوقت ليلا

عندما زرتها وبغية عدم قيامي بمغامرة طلب شمعة في كل مساء من المطبخ اشتريت فتيلا مكسوا بالشمع واعواد الثقاب لاشعالها وفي ساعة الدراسة كنت أذهب الى حجرة النوم ولا آكـــل سوى كسرات خبز لم تكن تغذيني طبعا فهزلت واصبحت كالخيال دون أن أمرض ٠

وكنت في ذات مساء أقرأ واذا بي احس أن لا قدرة لي على القراءة ون قراءتي للرسائل فقدت أهميتها السابقة وتمزقت آمالي مزقا أمام عيني وشعرت بأسف وحزن لتحرري من الوهم وعلى حين غرة سمعت وقع اقدام سريعة تصعد الى فوق جريا وعرفت أنها وقع اقدام جنيفرا فانشاوي فقد تناولت طعامها في المدينة في تلك الظهيرة والآن عادت وجاءت هنـا لـكي تستبدل شالها وغير شالها من خزينة الثياب ٠ نعم دخلت جنيفرا وهـي مرتدية ملابس من الحرير البراق وقد وقع شالها من على كتفيها وضفائر شعرها نصف المحلولة وسط رطوبة الليل كانت مدلاة دون اهتمام عـلى عنقها وبالكاد وجدت الوقت لاعادة كنوزي الى علبتها واقفالها عندماكانت هي بجانبي وبان على محياها أنهـا لم تكن على ما يرام وأنهـا مستاءة ومعكرة المزاج ٠

وبدأت حديثها معي قائلة « لقد كانت أمسية عابثة سخيفة والناس كانوا سخفاء » وقلت لها « من ؟ السيدة كولمونديلي ؟ أظن انك اعتبرتها دائما من نساء البيت الساحرات » فقالت لي « لم أكـن في بيت السيدة كولمونديلي » وقلت لها « هل هذا صحيح يظهر انك تعرفت باناس جدد » فقالت لي « لقد جاء عمي باسومبيير » وقلت لها « عمك باسومبيير ؟ ألست سعيدة لذلك ؟ أظن أنه كان المفضل لديك » ٠

وقالت لي جنيفرا « أنت ذاهبة في طريق الخطأ فالرجل مكروه وأنا اجتويه وامقته » وقلت لها « هل لانه أجنبي ؟ والا لمـاذا ؟ » وقالت لي « ليس بالاجنبي فالرجل انكليزي محض وكان له اسم انكليزي الى ما قبـل ثلاثة أو اربعة اعوام ولكن أمه هي الاجنبيـة واسمها دي باسومبيير التي توفي بعض افراد عائلتها وخلفوا له عقارات ولقبا واسمه هذا وأنه رجل مرموق في الوقت الحاضر » وقلت له « هل تكرهينه لهذا السبب ؟ »

واجابتني « هل تتصورين ما قالت أمي عنه ؟ أنـه ليس عمي انمـا

تزوج اختها وامي تمقته مقتا شديدا وتقول أنه قتل العمة جنيفرا بقسوة وشكله شكل دب » واستطردت تقول « ما أسوأ تلك الامسية لن أذهب بعد الآن الى فندقه الكبير · تصوريه في روحاته وندواته في أرض الغرفة وحيدا وعمره خمسون عاما وبعد ان يحادث أحدا بضع دقائق يوليه ظهره ثم يخرج من الغرفة فجأة بمثل تلك الشاكلة الغريبة وبوسعي أن اقول أن ضميره يخشاه · ويقول الجميع أنا صورة شبيهة بالعمة جنيفرا وماما تقول ان الشبه بيننا يثير والاستغراب » وقلت لها « هل كنت الزائرة الوحيدة ؟ »·

واجابتني جنيفرا « الزائرة الوحيدة ؟·· نعم ولكن ميسي ابنة عمي كنت هنالك وقد أفسدها التدليل » وسألتها « هل لدى باسومبيير بنت ؟ » وقالت لي « نعم ·· نعم ·· لا تزعجيني بالاسئلة يا عزيزتي فأنا تعبة » ثم تثاءبت والقت بنفسها على فراسي بلا كياسة وقالت » أظن أن الفتاة اغمي عليها وكانت على وشك أن تهلكها أقدام الناس في هرج ومرج حدث في المسرح قبل بضعة أسابيع » ·

وقلت لها « نعم وهي تعيش مع والدها في فندق كبير في شارع كريسي » وقالت لي « هل هذا صحيح ؟ وكيف عرفت ! » فقلت لها «كنت هناك » وقالت لي « هل كنت هناك حقا ؟ · أنت تذهبين الى كل الاماكن في هذه الايام وأظن ان الوالدة بريتون تأخذك معها ، انها وابنها زارا طابق دي باسومبيير وأظن (ولدي جون) سهر على ميسي بمناسبة الحادث الذي وقع لها ·· حادث ؟؟ عجبا ·· لقد كان تظاهرا وتصنعا لا غير ولا اظن أن سقوطها آذاها الى تلك الدرجة والآن حدثت بينهما ألفة ومودة وسمعت عنهما بعض الاشياء وما اكبر حمتهما !! » ·

وقلت لها وأنا شبه متلعثمة « قلت أنك كنت الزائرة الوحيدة ؟ » وأجابتني « هل قلت ذلك ؟ ان المرء ينسى احيانا ان يعين أو يخصص ذكر امراة مسنة وولدها » وسألتها « هل قلت أن الدكتور بريتون والسيدة والدته كانا في مسكن المسيو دي باسومبيير في ذلك المساء ؟ » فأجابتني « نعم ·· نعم وكانت (ميسي) تقوم بدور المضيفة » يالها من دمية معتزة بنفسها « وبدأت الآنسة فانشاوي تفشي أسباب ما اصابها من غلبة بشكل شكس وبتجهم وبفتور الهمة ولكن بسخط شديد وقلة احترام » ·

لقد انتهى غنجها ودلالها وكبرياؤها وزال تأثيرها وأبهتها وخيلاؤها ثم رمت بنفسها على الفراش مستشيطة غيظـا وسألتها « هـل الانسـة ميسي دي باسومبيير استعادت صحتهـا الآن ؟ » فقالت لي « استعادت صحتها ؟؟ انها بلا ريب مثلك ومثلي لا تشكو من شيء وهي الآن فتـاة صغيرة مولعة ومدلعة تظاهرت بمظهر المريضة لتستلفت أنظـار الدكتور وتكسب عطفـه وكنت ترين تلك الارملة العجـوز تمددها على الاريكـة (وولدي جون) يمنع الضجيج والمهيجات من حولها وخرجت من فيهـا اشارات الازدراء وقالت « لقد كان المنظر ممرضا تاما » ٠

وقلت لها « ما كـان ذلك ليحصل لو أنك اخذت مكان الآنسـة دي باسومبيير ! » وقالت لي « أحقا ما تقولـين ٠٠ أنني أكره (ولدي جون) وقلت لها « من تعنين بعبارة ولدي جون ؟ » هـل تعنين الدكتور جون ؟ حتى أمه لا تسميه بهذه التسمية ! » واجابت « عليها أن تسميـه كذلك فليس هو سوى جلف وأحمق ومن فصيلة الدببة » ٠

وقلت لها « أنت تجانفين الحقيقة بقولك عنه هكذا ولأن صبري قد نفد أريد منك بشكل قاطـع أن تنهضي من هـذا الفراش وتغادرين هـذه الغرفة » وقالت « يا للغرابة ٠٠ لقـد اتخذ وجهك لون الخشخاش الاحمر ولا ادري ما الذي يحدو بك دائما الى أن تستحيلي نزقة شـديدة الغضب كلما ذكر اسم جون « العظيم » !!

واثارني الغضب الشديد وخشيت أن ارتكب حماقة صب جامه على تلك الحشرة الحقيرة فأطفأت الفتيل المشمع واغلقت المنضدة التي أكتب عليها وتركتها طالما أنها لم تغادر أما هي فقد استحالت ذات وجه أحمر مزرورق وكان صباح اليوم التالي الخميس وهـو نصف عطلة وانتهى تناول الفطور وقصدت الصف الاول ودنا ميعاد الساعة المزعجـة ساعة وصول البريد فجلست أنتظر كالصياد الذي ينتظر طريدته ٠ هل سترد الرسالة المنتظرة الي ومع انني كنت مجهدة النفس لم أنس أن ذلك أمر ممكن أو محتمل ٠

وبعد لحظات من الهدوء هاجمني الخوف والقلق بشكل فظيع ٠لقد كان ذلك اليوم شتائيا تهب فيه الريح الشرقية وأنا منذ مدة ـ ولاآزال ـ

رفيقة حزينة للرياح وتبدلاتها • وكان للرياح الشمالية والشرقية تاثير مرعب علـى ذوي الاجسام الضعيفة فهي تزيد آلامهم وتضاعف احزانهم ويمكن أن تهدأ الريح الجنوبية أما الريح الغربية فهي احيانا عليلة ومبهجة مالم تات معها على جناحيها بعبء الغيوم المبرقة وهي الحالة التي تميت كل طاقة أو قوة في الانسان •

ذلك اليوم يوم كانون الثاني كان قارسا ومظلما وتذكرت أنني غادرت الصف راكضة بلا قلنسوة الى عمق الحديقة الطويلة وتريثت بين الشجيرات المجردة عن أوراقها على امل يائس بأن رجل البريد قد يقرع الجرس لاسمعه من مكاني لتعذر سماعه في الصف ولتجنب وطأته الشديدة على الاعصاب التي تنخرها أنياب فكرة مركزة نخرا مستديما •

ومكثت في مكاني بقدر ما وهبتــه الجرأة لي دون أن أخشى لفت الانظار بصدد غيابي ولففت رأسي بغطاء واق من المطر وأرهفت سمعي وأنا اترقب بقلق وعذاب شديدين رنين الجرس المرتقب الـذي لابد أن تعقبه فترة سكون • كانت كالدائرة المفرغة بالنسبة لي وأخيرا عدت الى الصف قبلها •

واول ما وقع نظري عليه كـان شيئا أبيض منبسطا على منضدتي السوداء لقد كان ساعي البريد قد جاء دون أن اشعر بمجيئه وقصدت روزين غرفتي فلم ترني فيها وكانتقد أخبأت وراء ظهرها ذلك التذكار الجميل اللامع على منضدتي آلا وهي الرسالة المنتظرة بحق وحقيق وكان هنالك الكثير مما شاهدته دون أن أعيه اذ كان فكري مركزا على مرسل واحد في العالم ولابد ان الرسالة كانت منه فما أعمـق واخلص نبضات الشكر وعرفان الجميل التي بعثت بالحياة الجديدة الى قلبي مرة أخرى •

وتقربت اكثر ونظرت الى الرسالة وأنا في حالة اضطراب ولكنني على يقين من أمل مشاهدة اليد التي كتبت العنوان وكان حظي أن شاهدت ـ على النقيض مما توقعت ـ خط يـد أنثى مجهولة وخربشتها الباهتة وليس خط يد ذكر واضح وراسخ واخذت اتحسس بان القدر يقسوعلي كثيرا وقلت بشكل يمكن سماعه « هذه قسوة » • ولكنني استطعتالتغلب على ذلك الالم ايضا فالحياة لا تزال هي هي مهما كانت آلامها وغصصها

في الحلوق • ان عيوننا وآذاننا وما فيها من فوائد لا تزال معنا وانكانت توقعات وتطلعات ما يسر النفوس قد زالت واصوات التعزية والسلوى قد صمتت • وفتحت الرسالة وفي ذلك الوقت عرفت خط يد الكاتبة لانه كان مالوفا لدي تماما وقد دون التاريخ على عنوان الشرفة وجاء في الرسالة ما يلي :

عزيزتي لوسي :

بودي ان اعرف منك ما فعلتيه طيلة الشهر او الشهرين الماضية فما اراني مرتابة في قدرتك على القيام بأعمالك بأقل صعوبة ولكنني أجرأ على القول بأنك كنت منشغلة بها وبأنك كنت طيلة هذه المدة سعيدة كسعادتنا هنا في البيت وبالنسبة لغراهآم فان روابطه وصلاته المهنية تتسع يوما بعد يوم فهو مطلوب من قبل مرضى كثيرين ومنشغل كثيرا وقلت له ان غروره بذلك سيتزايد وأطلب منه كوالدة صالحة أن يظل متراضعا ولا يجد مني أي اطراء او تمليق فانت عارفة بذلك •

ومع ذلك كله يا لوسي لا يزال شخصا رائعا وقلب أمه يتراقص فرحا كلما وقع نظرها عليه ورغم هروعه في الذهاب الى هنا وهناك طيلة النهار ورغم قيامه بواجباته حيال خمسين مريضا من ذوي أطباع وامراض متباينة ومقارعته مختلف انواع النزوات ومعاينته في بعض الاحيان حالات معاناة قاسية يبتلى بها فهو يأتي الى الدار ليلا وهو في حالة مرح وطيبة وعطف وترينني على هذا الاساس أعيش وسط انواع من التناقضات المعنوية وفي خلال هذه الامسيات ، آمسيات شهر كانون الثاني يشرق يومي فيحين ان ليالي الآخرين تغرب •

ولا يزال بحاجة الى أن ينظم نفسه ويصحح اخطاءه ويكبت ويكظم وأقدم له أنا الخدمة اللازمة في هذا الصدد ولكن هذا الولد فيه مرونة تملص ولا يوجد شيء يربكه او يغيظه أو يثيره وعندما اوصله احياناالى حالة من الغضب والاثارة ينتقم مني بنكاته ، بيد أنك تعرفينه جيدا وتعرفين كل ماضيه وما أنا سوى امرأة مسنة اكثر سذاجة من أن اجعله موضوع نصائحي ووعوظي •

وفيما يخصني زارتني واحدة من أعضاء عائلة بريتون القدامى وهي

منهكمة وغرقى حتى أذنيها بالعمل المنزلي واريد بذلك أن يعرف غراهام شيئا مما خلفه والده ويضحك علي لاهتمامي الزائد بهذه النقطة وينظر الي نظرة التباهي فيما اوجده لنفسه ولي ايضا بحيث قال لي متسائلا ماهو الشيء الذي تريده المرأة المسنة ولم يؤت به الينا ملمحا عن القبعات النسوية ذات الزرقة السماوية ومتهما اياي بالطموح نلبس اللآليء والجواهر واقتناء الخدم من ذوي البزات الرسمية الخاصة بهم وامتلاك فندق والتباهي أمام الجماعات الانكليزية الموجودة في « فيليت » ·

وعن القبعات النسوية ذات الزرقة السماوية كنت أود أن تكوني في تلك الامسية معنا فقد جاء جون متعبا جدا وبعد ان قدمت له الشاي جلس على مقعدي بوقاحته المعهودة ولسروري العظيم اخذته سنة النوم وأنت تعرفين كيف يكايدني عندما أكون ناعسة في سبيلي الى النوم يعيبني أنا التي لم يحدث أن نمت في النهار أو أغمضت جفني اطلاقا · وبينما كان نائما وجدته جميلا جدا يا لوسي ·

انا حمقاء اذ أفخر به ولكن من يستطيع ألا يفعل ذلك ، اريني مثيلا له · أينما أمش في « فيليت » لا أجد نظيرا له · أردت أن أرتب عليه حيلة فجئت بالقبعة النسوية بمنتهى الحذر كي لا يستفيق من نومه لاغطي بها حاجبيه ولكنني وجدت أنها لا تناسبه فقد ظهر لي كما لو أنه من الشرق باستثناء جماله ولا يقوى أي واحد بعد الآن ان يقول أن شعره أحمر فهو ذو لون كستنائي يشبه كستناءة صقيلة داكنة وعندما أضفي عليه « كشميري » اشبهه بالبيك الشاب أو بالباشا الذي يتمنى كل واحد ان يشاهده ·

وكانت تسلية جيدة لي ولكن لم اتمتع بهاكل التمتع اذ كنت وحيدة وكم تمنيت أن تكوني هنا · وعندما نهض حبيبي في الوقت المعين وجد في المرآة أنه في ورطة والآن وقعت تحت تهديد انتقامه وفي نهاية رسالتي أدركت أن اليوم هو يوم الخميس الذي يعتبر نصف عطلة في « فوسيت » ولذلك استعدي في الساعة الخامسة من بعد الظهر لانني حينذاك سأرسل اليك عربة تأخذك الى البيت · ينبغي أن تأتي على وجه التأكيد وقد تلتقين بواحدة من عارفاتك القديمات · وداعا يا عزيزتي العاقلة الحكيمة يا ابنتي الموقرة بالمعمودية ·

المخلصة لك لويزا بريتون

ان رسالة كهذه تعيد للمرء نشاطه ومع ذلك كـــان ينبغي أن أظـل حزينة بعد قراءتها ولكنني كنت رابطة الجاش اكثر وربما غير مبتهجة تمام الابتهاج انما مرتاحة كمن فرج عنـــه ذلك ان اصدقائي بصحة جيـــدة وسعداء وغراهام سالم من كل مكروه وأمه غير مريضة وســالمة من كـــل مكروه وكنت أضرب أخماسا بأسداس بصددها وشعورها نحوي كان هو هو لم يتبدل ٠

ولكن الغريب في الامر أن ينظـر المـــرء الى اسابيع السيدة بريتون السبعة ويقارنها بأسابيعي السبعة ثم ما أرشد الناس الذين تحف بهـــم حالة استثنائية ويمسكون لسانهم عن الكلام فلا يقولون أن حالتهم هـــذه تفت في عضدهم ٠ ويستطيع العالم أن يدرك جيدا عملية الموت جوعا ولكن ربما لا يتابع الا عدد قليل من الناس كيف يكاد البعض يجن من مزعجات الوحدة والانعزال ٠

انهم يعتبرون السجين المدفون منذ أمد طويل كما لو انه خرج من القبر مجنونا او غبيا ويتساءلون كيف تخلوا عن احاسيسهم وكيف عانت اعصابهم الملتهبة ثورانا في اول الامر وعانت العذاب الـذي لا يوصف ثم ينتقلون الى حالة الشلل الارتجافي ٠ انه موضوع بالغ التعقيد اذا وضـــع تحت مشرحة البحث والنقاش وعويصا جدا بالنسبة للمفهوم العام ٠

لقد أعقب برد الصباح الشديد في اواخر اليوم تنفسا صعبا وحـــادا من القفار الثلجية المترامية لروسيا ، فالمنطقة الباردة تنهدت شوقا لمنطقة معتدلة وجمدتها بسرعة والقبة الزرقاء الغائمـــة المكثفة بالثلج أخـذت ترحل من الشمال لتستقر فـــوق اوربا المترقبة وفي حوالي وقت الظهـر بدأت بالنزول وخفت ألا تقـوى العربة عـلى المجيء لان العاصفة البيضاء ثارت ثورانا شديدا من حيث الكثافة والجموح بيد انني كنت واثقة مـن عرابتي فانها أن ارادت ضيفا فلابد ان تحصل عليـــه وتلقاه وفي حوالي الساعة السادسة نزلت من العربة ودخلت البيت الريفي الفخم « الشرفة »٠

ورحت من المجاز راكضة صوب الطابق الاعلى ومنه الى غرفة الاستقبال حيث وجدت السيدة بريتون وعلى محياها اشراقة يـــوم الصيف ولو كنت مستبردة اكثر من استبرادي بضعفـين لعملت قبلاتهـا الرقيقة الكريمـة

واحتضانها الودي اياي على تدفئتي وكنت مشوقة منذ مدة حتى الى اللوائح والموائد والمناضد السوداء والرحلات والوجاق والصالون الازرق الـــذي بدا أمامي كبيرا جدا ووجدت في نار الموقد الشبيه بنار عيد الميلاد بهـاء قرمزيا أذهلني تماما ٠

وعندما أمسكت عرابتي بيدي برهة وراحت تتحـادث معي وتلومني لانني هزلت اكثر مما كنت عندهم في آخر مرة لاحظت بأن الريح الثلجيـة عملت على تطيير شعرات شعري فارسلتني الى فوق لتنظيمه ونزع شالي ٠ وفي غرفتي الصغيرة الخاصة ذات اللون السحري الاخضر المزرورق وجدت نارا موقدة وشموعا مشعولة ولكن ظهر بين الشموع وأمام المرآة شيء فيه روعة حكايات الجن شيء ابيض صغير ٠٠ روح شتوية !!

اقول انني في أول لحظة ظننت أنه الدكتور غراهام وصوره الطينيــة الخادعة وبعين التشكك لاحظت تفاصيل تلك الصــورة الجديدة ٠ كـانت ملابسها بيضاء موشاة بنقط حمراء قرمزية وكان الطوق أحمر ولاحظـت اكليلا صغيرا وشيئا صقيلا أخضر وسواء كان طَيفا أم لا فما من شيء كان يخيف فيه فتقدمت الى أمام وما أن التفت بسرعة حتى لاحظت عينا واسعة من تحت أهداب سود طويلة نعمها التزجيج :

وقالت لي باندهاش وصوت هادىء رقيق وهي تبتسم لي بأناة وترنو الي يقصد « آتيت ٠٠ ها ؟ » وسرعان ما عرفتها الآن اذ لم أر هذا الوجه الا مرة واحدة وقلت « الآنسة دي باسومبيير » وجاء الجواب « كـلا ٠٠ لست أنا الآنسة باسومبيير » ولم اسألها من أنت انما انتظرت لتاتيني منها معلومات طوعية وقالت لي وهي تدنو مني اكثر « لقـد تبدلت ولكنك لا تزالين أنت أنني اتذكرك جيدا فمحياك ولون شـعرك وشـكلَ وجهـك هي هي » وتقدمت صوب الموقد ووقفت هي قبالتي ورنت الي وأصبـح وجهها بعد الرنو معبرا اكثر فاكثر عن الفكـــر والاحساس الى أن ســاد الاعتام على محياها وقالت لي :

« كلما تذكرت الماضي أهم بالبكاء لا لانني حزينة او حساسة فالامر معكوس تماما لانني فرحة وسعيدة تماما » واخذت اهتم وان كنت عـــلى ما يبدو واقعة في خطأ ولم ادر ماذا اقول واخيرا تمتمت قائلة « اظن انني لم ألتق بك الا تلك الليلة قبل بضعة اسابيع عندما كنت مصـابة بأذى »

وابتسمت لي قائلة « اذن نسيت كم جلست على ركبتيك وانك كنت ترفعيني وتحضنيني حتى انني كنت آنام معك ورأسي عـــلى وسادتك ولـم تعودي تذكرين الليلة التي اخذت ابكي بها واصرخ كطفلة شريرة من اجـــل آن اكون بجانبك في الفراش واخذتيني بين ذراعيك وآنميتني معك واخـذت تهدهديني وتخففين من كربي آلا تذكرين بريتون والمستر هوم ؟ » وأجبتها « اخيرا عرفت تماما ٠٠ أنت بولي الصغيرة » فقالت لي « انا بولينا مـاري هوم دي باسومبيير » ٠

حقا كم يغير الزمن فبولي الصغيرة كانت تحمـــل في ملامحها الصغيرة الشاحبة وتناسقها اللطيف وملامحها المختلفة بعض بشائر الجمال والرشاقة ولكن بولينا ماري اصبحت الآن ذات جمال لا من النوع الاخاذ ولا من النوع الريان الجسم القرنفلي الشكل مثيل جمال ابنة عمهـــا الشقراء جنيفرا فانشاوي غير ان عمرها البالغ سبعة عشر عاما أضفى عليها سحرا غضـا رائعا لا علاقـة له بالبشـرة رغم أن بشرتها كانت جميلة وناعمـة ولو تكلمت عن جاذبيتها فانني لن أبالغ فقد كانت فعلا ذات جاذبية حقيقية على نطاق غير واسع يفوح منها شذى زهرة الكاميليا وزهرة الدهليا ٠

وقلت لها « عجبا انك تذكرين زمان بريتون القـديم ؟ » فقالت لي « كل التذكر وربما احسن منك فانا اتذكر دقائق الامور اتذكر ليس الزمن فقط بل آيام الزمن وساعات اليوم » وقلت لها « ربمـا غابت عـن تذكرك بعض الاشياء » وقالت لي « ربما بعض الاشياء القليلة على ما اظن » وقلت لها « كنت صغـيرة السن ذات مشاعر حسـاسة وربما غـابت عن ذاكرتك الانطباعات التي دفعت السرور والاسى والود والحرمان من الابوين في فكرك قبل عشرة اعوام » وقالت لي « هل تظنين انني نسيت ما كنت آحبه ودرجة حبي له عندما كنت طفلة ؟٠٠ وقلت لها « ربما توارت الحدة والشدة وربما خف آثر الطابع العميق للايام الخوالي ؟ »فاجابتني « لا ازال اذكر كل تلك الايام على نحو جيد » ٠

وبدا عليها آنها فعلا نتذكر كل شيء فعيناها كانت عيني من يقوى على التذكر ، تذكر طفولتها التي لا تزول كزوال الحلم وشبابها الـــذي لا يتوارى كأشعة الشمس ولم تكن تنظر الى الحياة نظرة مهلهلة او نظرة

تنافر وعدم التماسك من ناحية وتسمح لفترة واحدة ان تتصل وهـــي تدخل فترة اخرى انما تستبقي وتضيف وغالبا ما تستعرض الوضع منذ البداية وبذلك تنمو وتترعرع بشكل متناسق ومنسجم وبشكل ثابت كلما مرت بها الاعوام ٠

ولا أزال لا أقر اعتقادها بان كل الصور التي تزاحمت في خاطرها كانت رائعة وزاهية ومنظورة بالنسبة لها فان بدايتها المتسمة بالولوع وألعابها ونزعاتها مع رفيقها في اللعب وتكريسها الصادق لتلبها الطفولي ومخاوفها وتحفظاتها وأسرارها وبلاواها الصغيرة وآخـــر ألم لها ، الم الفراق لا يمكن ان تتذكرها كلها وهززت رأسي وقلت هذا لا يمكن أن يصدقه المرء الا انها أصرت وقالت لي « ان طفلة الآعوام السبعة لا تزال تعيش في فتاة السابعة عشرة من العمر » ٠

واردت اختبارها فسألتها « كنت تحبين المدام بريتون كثيرا وكنت متولعة بها » فقالت لي « لا لدرجة التولع فأنا أحببتها واحترمتها كما أفعل الآن ويظهر انها تبدلت نوعا ما على ما أراها » ووافقتها على ذلك وقلت لها أنها لم تتبدل كثيرا ثم حصل صمت بيننا لمدة بضع دقائق وقالت لي وهي تجيل النظر في أرجاء الغرفة « توجد في هذه الغرفة عدة اشياء كانت عند بريتون ومنها على ما اتذكر وسادة الدبابيس والمرآة » ٠

وبدا لي ان الذي قالته عن قوة ذاكرتها كان صحيحا تماما وقلت لها « في رأيك اذن انك عرفت السيدة بريتون اول ما شاهدتيها » فقالت لي « اتذكرها تمام التذكر ٠ ملامحها وبشرتها الزيتونية اللون وشعرها الاسود وطولها ومشيتها وصوتها » وقلت لها « بالطبع يقع الدكتور جون خارج الصدد وفي الحقيقة اتضح لي من تقابلك معه لاول مرة انه بدا لك كغريب » فأجابتني « في تلك الليلة كنت مرتبكة وفي حيرة من أمري » ٠

وقلت لها « ٠٠٠ متى اذن تم التعارف بينه وبين والدك ؟ » فقالت لي « تبادلا بطاقات الهوية فاسم غراهام بريتون وهـــوم دي باسومبيير أثارا اسئلة وايضاحات ٠ هذا ما حصل في اليوم الثاني ولكن قبـل ذلك بدأت اعرف شيئا » وقلت لها « أي شيء ؟ وكيف ؟ » وقالت لي «ماغرب أن يبدو من معظم الناس انهـــم بطيئون في التحسس بالحقيقة انهـم لا يشاهدون ولكن يشعرون فقط » ٠

واستطردت قائلة « عندما زارني الدكتور بريتون بضع مرات وجلس قريبا مني يحادثني وعندما لاحظت نظرات عينيه والتعبير الطافي على شفتيه وتشكيلة ذقنه وحركة راسه وكل ما نعرفه عن الناس الذين يدنون منا فكيف لي الا اتذكر غراهام بريتون ؟ لقد كان غراهام انحف مما هو عليه الآن ولم يكن بهذا الطول وكان له فم ارق والطف وشعر ذو لون أفتح ولم يكن يتكلم بهذا العمق ·· كان يتكلم كفتاة ولكنه في كل ذلك كان غراهام مثلما أنا بولي الصغيرة وأنت لوسي سناو » ·

وفكرت بنفس التفكير وعجبت كيف أن افكاري هي نفس أفكارها فهناك بعض الاشياء التي نادرا ما نلتقي بها مع امثالنا بحيث تصبح القضية كما لو أنها أعجوبة عندما تحدث مثل هذه الصدف وقلت لها « كنت أنت وغراهام رفيقين في اللعب » وسألتني بدورها « وأنت تذكرين ذلك ؟ » وقلت « ليس من ريب في أنه سيذكر ذلك ايضا » وقالت لي لم أسأله فهناك بعض الاشياء التي تفاجئني وتنبيء عن أنه سيتذكر ذلك ايضا وفي ظني أن مزاجه لا يزال مرحا وعديم الاكتراث » ·

وسألتها « هل كان هكذا في السابق ؟ الهذا السبب سحرك وفتنك ؟ أو لهذا السبب تتذكرينه ؟ » فأجابتني « قلما أتذكره في ضوء آخر غير هذا الضوء ففي بعض الاحيان ترينه منكبا على الدراسة وفي بعض الاحيان ميالا للمرح وسواء كان منشغلا بكتبه او راغبا في اللعب وعندما يشعر أساسا أن كتبه أو اللعبة التي يريد أن يزاولها هي التي تهمه فانه لا يكترث بمن يقرأون معه أو بمن يسلي نفسه معهم » ·

وقلت له « ومع ذلك كان منحازا اليك ومولعا بك ولعا شديدا » وقالت لي « لا ··· لم يكن الامر كذلك فقد كان له رفاق لعب آخرون هم زملاؤه في المدرسة ولم اكن أهمه كثيرا الا في أيام الاحاد حيث كان لطيفاً معي فيها واتذكر ذات مرة انني كنت ماسكة يده وامشي معه الى حيث كنيسة القديسة مريم وكم كان لطيفا وهادئا في أمسيات أيام الاحاد ورقيقا رغم كبرياء صبوته الحية وصبورا جدا لكل ماكنت ارتكبه من اخطاء في القراءة يتحملني الى حد الدهشة في الاعتماد عليه اذ لم يكن يمضي أمسيات الاحاد سوى في البيت حتى أنني كنت أخشى دائما من أن

يقبل زيارة من احد ويتخلى عنا الا انه ما كان يفعل ذلك ولا كانت بـه رغبة في أن يفعل ذلك • هـذا هـو ولا يمكن أن يكون على شاكلة أخـرى واتصور أن ايام احاده الآن هي الخروج وتناول طعامه في الخارج » •

وهنا سمعنا صوت السيدة بريتون في أسفل الـدار تدعونا للنزول وكانت بولينا لا تريد النزول وميالة للمكوث في مكانها أمـــا أنا فكنت ميالة للنزول فنزلنا كلينا •

الفصل الخامس والعشرون

ـ الكونتيسة الصغيرة ـ

استعدت عرابتي بما عرف فيها من روح المرح والضيافة الاستعداد اللازم من أجل امتاعنا وفي تلك الامسية لم تظهر دلائل الامتاع الحقيقية الى أن سمعنا عبر عواء ريح تلك الليلة الشتوية أصوات تؤذن بقدوم أحد وغالبا ما تفكر النسوة والفتيات الجالسات دافئات بجانب المواقد ـ وقلوبهن وتصوراتهن راغبة في الانفصال عن مثل هذه الاجواء المريحة ـ بالخروج مضطرات ليطفن ويتجولن في الطرق المظلمة مغامرات وسط وطأة الجو المزعج المثلج او ينتظرن على الابواب والسياجات الكائنة على الطريق وحيدات وسط الزوابع الهابة ينتظرن أو يصغين لرؤية وسماع صوت الاب أو الابن أو الزوج وهو يأتي الى الدار .

لقد جاء الوالد وجاء الولد أخيرا الى البيت الريفي الضخم «الشرفة» ذلك ان الكونت دي باسومبيير كان يرافق الدكتور بريتون في تلك الليلة ولا ادري من من ثلاثتنا سمع صهيل الفرس قبل الاثنتين فقسوة الجو وعنفه لم تمنعنا من النزول الى القاعة لملاقاة الراكبين الاثنين عند دخولهما لتحيتهما رغم أنهما حذرانا لنبقى في أماكننا حيث نحن دون أن نخرج .

وكان القادمان أبيضين كأنهما جبلان من الجبال الثلجية وصاحت السيدة بريتون بهما لكي يدخلا المطبخ بعد أن وجدت حالتهما ومنعتهما من أن تطأ أقدامهما على بيت السلم المفروش بالسجاد ما لم يتخلصا من قناعيهما القديمين لعيد الميلاد اللذين كانا يرتديانه ودخلا المطبخ ونزلنا نحن للحاق بهما والوصول اليهما رغم كل ذلك فقد كان مطبخنا هولنديا كبيرا من النمط القديم مريحا ورائعا .

وراحت الكونتيسة الصغيرة البيضاء ترقص في دائرة تحيط بأبيها وهي تصفق وتتصايح قائلة « أبي ٠٠ أبي » ٠٠ الشبيه بالدب القطبي الكبير » واخذ ذلك الدب ينفض جسمه وفرت الجنية الصغيرة من الرذاذ المتجمد وعادت الى الخلف وهي تضحك وتتوقف لرفع القناع القطبي وتخلص الوالد من البسته الثخينة وهدد بالباسها اياها كما لو أنها كتلة من التيهور ٠

وتظاهرت بأنها تريد اسقاط نفسها من فوق وعندما تقرب منها والدها فرت من أمامه وابتعدت كغزالة صغيرة ٠ وكان لحركاتها النعومة الطرية وجمال المخمل ولضحكتهانقاوة دونها نقاوة الحلقةالفضية ونقاوة البلورة وعندما فركت يدها ووقفت على ابهامي قدميها لايصال شفتيها لتلقي قبلة أخذت تشع وحولها هالة بهجة الحب وأخذ آلوالد المحترمينظر اليها كما ينظر الرجال الى ما يعتبرونه قرة العين أو بؤبؤها ٠

وصاح الشيخ بالدكتور براون قائلا « ماذا تراني افعل بابنتيهذه فعقلها لا يكبر وكذا هيكلها ألا ترى أنها لا تزال طفلة حلوة كما كانت في العاشرة من عمرها ؟ » وقالت السيدة بريتون « أليست طفولتها اكبر من طفولة ابني العظيم هذا » وقالت ذلك لانها كانت على خلاف ونزاع معه لانها ارادت ان يرتدي ثيابا اعتبرتها مناسبة جدا له وأبى ارتداءها أما هو فقد وقف ورنا الى ملابسها الهولندية وهو يضحك على مبعدة ذراع منها قائلا لها بلهجة من يريد أن يصالحها « تعالي ياماما ولنتصالح على طعم كاس عيد الميلاد » ٠

وبينما كان الكونت واقفا بجانب نار الموقد وبولينا ماري لا تزال ترقص جيئة وذهوبا سعيدة وشاعرة بالحرية في رحاب ذلك المطبخ الكبير أوصت السيدة بريتون الخادمة « مارتا » بأن تطيب وتتبل وتسخن صحن المشروب الذي يحتسى في عيد الميلاد ونظر الكونت رافعا بيده الكأس اللامعة عاليا الى السيدة بريتون معيدا اياها ببض الابيات الشعرية ٠

وصاحت بولينا قائلة « هذا شعر اسكتلندي ٠٠٠ اسكتلندي ٠ أبي يتكلم باللهجة الاسكتلندية فهو اسكتلنديأصلا وسألها والدها هل رقصتك هذه رقصة اسكتلندية والتفت الى السيدة بريتون قائلا لها « ايتها السيدة

ستكون الان حلقة رقص خضراء في وسط مطبخك هذا عما قريب ولن تكون رقصة قاتلة ٠

واجابته ابنته قائلة « أطلب من لوسي أن ترقص معي يا أبي فهنا عندك لوسي سناو » وببساطة المستر هوم لا بكبرياء الكونت دي باسومبيير مد يديه الي قائلا بلطف بعد أن تذكرني جيدا ومع ان ذاكرته ضعيفة في حفظ الاسماء الا أن اسمي عرفه من كثرة تلفظ ابنته به أمامه كما أنه سمع عني الكثير من القصص الطويلة واعتبرني كواحدة من معارفه القدامى ٠

وراح كل واحد الآن يتذوق مشروب عيد الميلاد باستثناء بولينا التي اغاظها الا يقدم لها أحد الشراب وأن تهمل وأن تحرم وتصد عن امتيازاتها المعنوية وخاطبت غراهام الذي كان قد وضع الكاس على رف المزينة بعيدا عن متناول يديها قائلة « دعني أذق الشراب » ٠ وكانت السيدة بريتون والمستر هوم منشغلين الآن في المحادثات وقد لاحظ الدكتور جون رقصة الجنية وأحبها وأحب رشاقة حركاتها وجماليتها واستساغها وسحره ما هو موجود في الدار من راحة ومن طمأنينة وبدت امام عينيه طفلة كالسابق ٠٠٠ ترى ؟ ٠٠ كيف سيكلمها وعلى أية شاكلة ؟ فأنا لم ألمحه بعد يكلمها وأولى كلماته برهنت على أن أيام « بولي الصغيرة » الاول قد استذكرها ذهنه في تلك الامسية الخالية من الهموم ٠

وخاطبها قائلا « ان مقام السيدة طلب الشراب من الابريق الفضي؟» فأجابته « أظن انني طلبت ذلك ولمحت عنه كثيرا » وقال لها « لا اوافق ولا أرضى شيئا من هذا القبيل فيما يخصني ٠ انني آسف لذلك ولا أستطيع تنفيذه » وسألته قائلة « لماذا ؟ فأنا بصحة جيدة الآن فهو لا يستطيع أن يكسر عظم ترقوتي مرة اخرى أو يخلع كتفي فهل هو خمر ؟ » فأجابها « ليس خمرا ولا مشروبا منعشا » وقالت له « لا اريد مشروبا منعشا ٠٠ لا اريد مشروبا منعشا ولكن ماهو اذن ؟ » وقال لها « انه الميزر » (الميزر شراب قديم من نوع الجعة ـ المترجم) قوي مخمر يدعى « تشرين الاول القديم » معتق منذ ولادتي » ٠

وقالت له « لابد أنه نادر وغريب وملفت للنظر ٠٠ هل هو مشروب

لطيف ولذيذ ؟ » وقال لها « فائق اللطافة واللذة » واخذ جرعة ثانية من ذلك الاكسير الجبار وتمطق بطعمه وبكل برود وضع الكأس على الرف وقالت بولين وهي تنظر اليه « أريد قليلا منه فأنا لم يسبق أن شربت من « تشرين المعتق » فهل طعمه حلو ؟ وقال لها غراهام « ذو حلاوة خطرة ».

وظلت تنظر بمحيا طفلة تتوق الى شيء لذيذ المذاق محرم عليها وأخيرا لان الدكتور ورق وتساهل في ارضائها وقدم لها جرعة من يده ولكنه لم يسمح بأن تدخل شفتيها الورديتين المرتشفتين اكثر من قطرة واحدة . وامسكت بيده بأربع من أصابعها لكي ترتشف منه اكثر قائلة بلهجة قوية « أعطني المزيد .. أعطني المزيد » واشتمت رائحة التوابل الممزوجة بالسكر وقالت له « لا أستطيع تذوقه بسبب قوة معصمك وبسبب بخلك أيضا » .

وقال لها بلهجة تدليل وخطورة هامسا « لا تقولي لامي أو للوسي لانهما لن يقبلا ذلك ولن ترتضياه » وقالت له «كلا لن أقول لاحد» وراحت تجرب طعم المشروب كما لو أنها تفك سحر الساحر وقالت « وجدت المشروب كل شيء الا ان يكون حلو المذاق .. انه مر وحار وحاد قطع انفاسي ان مشروبك « اكتوبر القديم » كان مرغوبا فيه حين كان ممنوعا .. أشكرك الآن .. لا اريد المزيد » .

وبانحناءة بسيطة متسمة بعدم الاكتراث وبرشاقة كرشاقة رقصتها انسلت عنه وانضمت الى ابيها . وفي رأيي أن الذي قالته كان صحيحا حتى قالت لي أن طفلة السابعة من عمرها هي فتاة السابعة عشرة من عمرها . ونظر اليها غراهام بنوع من الحيرة والارتباك وكانت عينه مثبتة ومركزة عليها مدة لا باس بها خلال فترة استراحة المساء وبدا عليها أنها لم تكن تنظر اليه .

وعندما نزلنا الى قاعة الاستقبال لتناول الشاي أمسكت بولي بذراع والدها ويبدو أن مكانها الطبيعي كان الى جانبه وان عينيها وأذنيها كانت مكرسة له وكان هو والسيدة بريتون المتكلمين الرئيسين لجماعتناالصغيرة وبولينا كانت أحسن من تصغي اليهما واحسن من ينتبه انتباها تاما لكل ما كانا يقولانه وتكرر هذه النبرة أو تلك وهذه التجربة أو تلك اوتساله « وأين كنت في ذلك الوقت يا أبي ؟ » وماذا قلت آنذاك ؟ » .. « قل

للسيدة بريتون ما حدث في تلك المناسبة وهكذا كانت تدفعه للكلام •

ولم تعد تخضع لاية فورة من فورات المرح والطرب • ان شرارة الطفولة وألقها وفورتها أجلت لليل فقد بدت لطيفة ومطيلة بالتفكير ومرنة وكانت جميلة المنظر عندماتودع اما سلوكها مع غراهام فقداتصف بالكبرياء والخيلاء ففي ابتسامتها الخفيفة جدا وفي انحناءتها الهادئة كانت الكونتيسة ولم يملك غراهام سوى أن ينظر بجدية ورزانة وكان يجاوبها الانحناءة بالانحناءة ولاحظت أن كان صعبا عليه أن يوفق بين رقصتها الجنية وبين كونها السيدة الرفيعة المقام •

وفي اليوم التالي عندما كنا متجمعين حول مائدة الافطار نرتعد من البرد القارس بعد الاغتسال صباحا أصدرت السيدة بريتون تعليمات بعدم خروج أحد من بيتها في ذلك اليوم الا اذا دفعته الضرورة الى ذلك دفعا • وفي الحقيقة أن الخروج بدا شبه مستحيل فالرياح الثلجية سودت الالواح السفلى للنافذة البابية وعندما ينظر المرء الى الخارج يجد السماء والهواء في هياج وظلام دامس والريح والثلوج في نزاع غضوب ولم تكن الثلوج قد هطلت آنذاك غير أن الذي كان ينزل الى الارض كانت الرياح العاصفة تعمل فيه اقتلاعا وتدويرا ثم يفتت الى مائة شكل من الاشكال الغريبة •

وردت الكونتيسة كلمات السيدة بريتون بعد ان وضعت كرسيها بجانب كرسي أبيها ذي الذراعين قائلة « بابا لن يخرج وأنا التي سأهتم به • أنت لن تخرج الى المدينة يا أبي •• أليس كذلك ؟ » فأجابها والدها « نعم •• ولا •• فاذا أحسنت أنت والسيدة بريتون الي تمام الاحسان يا بولي واذا اظهرتما نحوي الاهتمام والطيبة ووضعتماني في وضع جيد جدا واهتممتا بي تلطفا ربما انتظرت ساعة اخرى بعد الفطور لارى ما اذا كانت الرياح القارصة الحادة حدة الموسى ستتوقف ولكن أنت ترين أنك لم تقدمي لي الفطور ولم تهدي لي شيئا وها أنا أتضور جوعا » •

وقالت بولينا بلهجة التوسل والاستعطاف « أسرعي أيتها السيدة بريتون رجاء وهيئي القهوة وصبيها وأنا ساهتم بالكونت دي باسومبيير في النواحي الاخرى فمنذ أن نال لقب الكونت أخذ يشعر بحاجة الى كثير

من الاهتمام » ثم خرجت من بينهم وهيأت رغيفا من الخبز وجـــاءت الى ابيها تقول له « خذ الخبز بالحليب (بيستوليتة) ويوجد مربى «المرملاد» من النوع الذي كنت تتناوله في بريتون وكنت تقول أنه جيد كجودة مربى المرملاد الاسكتلندية » ٠

واعترضتها السيدة بريتون قائلة « والـــذي كنت تطلبينه لولدي وأنت طفلة ٠٠ هل تتذكرين ذلك ؟ هل نسيت كيف كنت تقعدين عـــلى مرفقي وتلمســين ردني وتهمســين في أذني قائلة « أرجوك يا ماما قدمي شيئا جيدا لغراهــام كالمربى او العســل أو مربى الفاكهــة ؟ » وقاطعها الدكتور جون ضاحكا وقد احمر وجهه خجلا قائلا لهـــا « كلا يا أمي لم يكن الامر كذلك وما كنت لاهتم بمثل هذه المآكل » ٠

وسالت السيدة بريتون بولينا ٠٠٠ « هل كـــان يحبها أم لا ؟» ٠ وأكدت بولينا بقولها « نعم كان يحبها » ٠ وقال المسيو هوم بشكل مشجع « لا لزوم للخجل من ذلك فأنا نفسي كنت أحبها ولا ازال أحبها ومـــن عادة بولينا أن تتحرى عما يحب الاصدقاء وتوفرها لهم فأنا الذي زرعت في نفسهما مثل هذه الاكلة وجاءت له بولينا قائلة « اليكها يا أبي وعليك في مثل هذه المجاملات أن تتحلى بالقناعة وتوفق مـــا بينك وبـــين هـــذه « الشرفة » في هذا اليوم » ٠

وقال الكونت « أيتها السيدة بريتـــون ألا تنقذيني من ابنتي بان تبعثي بها الى المدرسة ٠ هل تعرفين مدرسة جيدة ؟ » وقالت السيدة بريتون مجيبة « لديك لوسي هنا فهي في مدرسة المدام بيك » وقال هوم » هل الآنسة سناو في مدرسة ؟ وأحسست بالفرح لان تسنح لي فرصة أن اقول له « أنا مدرسة » وشعرت لاول وهلة كما لو أنني وضعت في موضع غير ملائم فالسيدة بريتون وولدها يعرفان بظروفي دون أن يعـــرف ذلك الكونت وابنته اذ ربما أحدثا تغييرا ــ بشكل ما أو بنـــوع ما ــ في سلوكهـــا الودي مني اذ ربما ما عرفا أن لي موقعي في المجتمع ٠

وتحدثت اليهم عن طيبة خاطر وعن رغبة واستعداد لذلك ولكـــن حشدا من الافكار التي لم اتوقعها ولم استحضرها نهضت وسودت جـــو الكلمات وجعلتني أتنهد دون رغبتي ولم يرفع الميسيو هوم عينيه عن صحن

غذائه لمدة دقيقتين تقريبا ولم يتفوه بكلمة وربما لم يلم بفحوى الكلمات وربما ظن ان اعترافا بتلك الكياسة الطبيعية يحرم التعليق أو التفسير ذلك آن الاسكتلنديين اناس فخورون يعتزون بأنفسهم ٠

ولما كان المسيو هوم بسيطا في نظرته وفي عاداته وأذواقه أدركت بأنه ليس بلا حصة من الخصائص القومية اذن هل كانت كبرياؤه مزيفة ؟ وهل ان عزة نفسه كانت صميمية ؟ أترك القضية بلا حل بمعناها الواسع أما فيما يتعلق الاس بي شخصيا لم استطع أن أجيب وفي كل وقت سوى بكونه رجلا شريفا مصداقا في صميم فؤاده ٠ لقد كان في السجية لامسا وحاسا ومفكرا وفوق عواطفه وانعكاساته سرت بهجة السوداوية من المرح أما في أوقات القلائل والحرمان فقد استحالت غيوما ٠

انه لم يعرف الشيء الكثير عن لوسي سناو والذي عرفه لم يكن دقيقا وشاملا وفي الحقيقة ان عدم فهمه صفاتي واخلاقي جعلتني أضحك في معظم الاوقات ولكنه احس بأن طريقتي في الحياة هي في الجانبالظلي من التل وامتدحني لمسعاي في جعل الطريق مستقيما تماما فقد عبر عن استعداده لمساعدتي لو قدر أو لو سنحت له الفرصة لذلك ولعدم امكانه ذلك تمنى لي تمنيات صميمية وعندما حول نظره الي ورمقني لمحت في عينيه دلائل العطف والرقة وعندما كان يكلم كانت نبرة كلامه تدل على حب الخير ومساعدة الآخرين ٠

وقال لي المسيو هوم أن مهنتك شاقة وأتمنى لك بها الصحة والقوة لتحققي بها النجاح أما ابنته الجميلة فلم تأخذ المعلومات بهدوء فقد ركزت نظراتها علي بعينين واسعتين وبتعجب مشوب بالفزع وصاحت بي « هل آنت مدرسة ؟ » وبعد أن توقفت لحظة حول الفكرة البغيضة التي لم تستسغها قالت « حسنا !! أنا لم اعرف حقيقتك وما آنت عليه ولا فكرت يوما في آن اسالك اذ بالنسبة لي لم تكوني دائما سوى لوسي سناو » ٠

وسألتها « وما أنا الآن ؟ لا معدى لي عن توجيه السؤال ؟ » فقالت لي » أنت نفسك طبعا ولكن هل تدرسين فعلا هنا في « فيليت » فقلت لها « نعم ٠٠ انه لكذلك !!٠٠ » وسألتني « هل تحبين التدريس ؟ » فأجبتها

« ليس دائما » وسألتني « ولماذا تواصلين التدريس ؟ » ونظر اليها أبوها وخشيت أن يوبخها ولكنه اكتفى بأن قال لها « واصلي في هذا القالبمن السؤال والجواب ، وبرهني على انك المغرورة الصغيرة واذا لاحظت على وجه الآنسة سناو أي أثر من آثار الاستحياء والخجل والحيرة فسأطلب منك الكف عن التساؤل وملازمة الصمت وسنكون أنا وأنت جالسين على الطعام يحيط بنا العار ولكن الآنسة سناو تبتسم فقط ولهذا اضغطي عليها ضغطا شديدا وضاعفي من اسئلتك الاستجوابية وأنت أيتها الآنسة سناو لماذا تواصلي الاجوبة معها ؟ فقلت له « بالدرجة الاولى أخشى أن يكون هذا من أجل المال الذي احصل عليه » ٠

وقال متسائلا « أليس الذي يحدونا لهذا هو الدافع الانساني المحض ؟ » أن بولي وأنا متشبثان بهذه الفرضية باعتبارها أحسن طريقة مرنة للمحاسبة ازاء اختلاف المركز وغرابة الطور ؟ » وقلت له « كلا ٠٠ كلا ٠٠ ايها السيد انني استطعت عن طريق المأوى أن أرفع رأسي ومن حيث راحة النفس يحدوني هذا الى التفكير بأنني في الوقت الذي استطيع فيه أن أعمل من اجل نفسي فانني أوفر لنفسي عناء أن أكون عالة على أحد » ٠

وقالت الآنسة دي باسومبيير لابيها « أبي ٠٠ قل ما تشاء أن تقوله فأنا أشفق على لوسي » وقال لها أبوها « احملي هذه الشفقة يا باسومبيير احمليها بكلتا يديك قدر ما تشائين وضعيها في أدفأ عش من قلبك غير أن عليك أن تسمعي مني هذه الهمسة ، اذا أرادت ابنتي بولي أن تعرف بالتجربة الطبيعية المشكوك فيها حسنات هذا العالم فان عليها أن تفعل كما فعلت لوسي وهو أن تعمل من أجل نفسها والا تكون عبئا لا على الانسباء ولا على الاصدقاء » ٠

وقالت بولي وهي مستغرقة في التفكير « نعم يا ابي ولكن المسكينة لوسي ظننتها سيدة غنية ولها أصدقاء أغنياء » وقال لها أبوها « أنت فكرت كساذجة ومغفلة فأنا لم أفكر كذلك وعندما يتسع لي الوقتللنظر في اخلاق لوسي وواجهتها التي رأيت فيها الشخص الذي عليه أنيحرس لا أن يحرس وأن تفعل شيئا لا أن تتدم لها خدمة وفي رأيي أن هذا ساعدها على أن تقوم بتجربة أن عاشت طويلا لكي تدرك منفعتها الكاملة

فانها ستمجد العناية الالهية ولكن هذه المدرسة » ثم خفض صوته وبدل لهجته من الرزانة الى الدعابة وقال « هل ستقبل ابنتي ؟ وهل ستقبل المدام بيك ابنتي بولي ؟ ماذا ترين أيتها الآنسة لوسي ؟ » ٠

وأجبته « لن يبقى عليك سوى أن تسأل المدام بيك ذلك وستعرف النتيجة في الحال على انها مولعة بالطالبات الانكليزيات » ثم قلت له أيضا « اذا تهيأت يا سيدي الآن لاخذ الآنسة دي باسومبيير في عربتك في هذه الظهيرة بالذات فأنا ضامنة لك أن البوابة روزين لن تتباطأ في فتح الباب لك طالما تدق الجرس وأنا متاكدة ايضا من ان المدام بيك ستلبس يديها أفضل زوج من القفاز لتأتي الى الصالون للقائك » ٠

وجاوبني المستر هوم في الحال قائلا « في مثل هذه الحالة لا يوجد اية ضرورة للتأخير فالسيدة هرست تستطيع أن ترسل خصوصيات السيدة الشابة بعدها وبولي تستطيع ان تهييء كتاب القراءة قبل حلول الليل وأنت أيتها الآنسة لوسي لي ثقة في انك لن تترددي في السهر عليها ورعايتها وأن تعلميني مابين الفينة والفينة عن تقدمها في المدرسة والتفت الى الكونتيسة دي باسومبيير قائلا لها «أظن أنك تقرين هذه الترتيبات»٠

وقالت الكونتيسة وهي تتنحنح بتردد « ظننت أنك انهيت موضوع تلقي الدراسة » وقلت لها « ان هذا يبرهن على مدى فداحة خطئنا في التفكير أما أنا فلي رأي يختلف عن رأيك اختلافا كبيرا ٠٠ آه ٠٠ يافتاتي العزيزة ان امامك الكثير والكثير مما ينبغي أن تتعلميه وكان ينبغي على بابا أن يعلمك اكثر مما علمك ٠ تعالي ٠٠ لا يوجد مانع في الوسط سوى استحصال موافقة المدام بيك ويبدو أن الجو يتحسن وانا انهيت تناول فطوري » ٠

وقالت الآنسة دي باسومبيير « ولكن يا بابا » فقال لها « ماذا في الامر ؟ » قالت له « هناك عائق » فقال لها « لا يوجد اي عائق اطلاقا » وقالت له « انه عائق خطير لا يمكن التخلص منه ٠٠ عائق كبير ككبر معطفك هذا والثلج المتراكم عليه » وقال لها « كالثلج الكثيف القابل للذوبان ؟ » فقالت له « كلا ٠٠ انه كاللحم الذي لا يذوب ٠ انه أنت نفسك ٠٠ أيتها الآنسة لوسي قولي للمدام بيك الا تصغي الى اي اقتراح

من اقتراحاته المتعلقة بأخذي الى المدرسة لان ذلك يؤدي الى وجوب اخذ بابا أيضا لانه كثير المضايقات ومثير الازعاجات » ٠

واستطردت تقول « والآن اسمعوا جميعا ٠٠ ساروي لكم روايات وحكايات عنه قبل خمسة اعوام عندما كان عمري اثنى عشر عاما اقتنع بأنه أفسدني بالدلال وانني أترعرع دون أن اكون لائقة لمجابهة الحياة وبدا لي آن ليس هنالك ما يقنعه أو ما يرضيه سوى أن أذهب الىالمدرسة فماذا كانت النتيجة ؟ لقد جاء بابا الى المدرسة أيضا بشكل يدعو الى الاعجاب وكان بين يوم وآخر يأتي لزيارتي وتبرمت بذلك المدامايغريدو « ولكن ذلك لم يفد معه وكانت النتيجة أن كلينا طرد من المدرسة وعلى لوسي أن تتفاهم مع المدام بيك وتخبرها بذلك وبما سيترتب عليها أن تتوقع منه مثل هذا في هذا الصدد » ٠

وسالت السيدة بريتون المسيو هوم عما اذا كان هذا صحيحا وبيان موقفه ورأيه في الموضوع ولانه لم يدافع عن نفسه حكم ضده وانتصرت بولينا التي كانت لها أمزجة أخرى غير ظاهرة سذاجتها ٠ وبعد الفطور حين خرج المسيو هوم والسيدة بريتون الى الخارج رحت أتحدث عن بعض الشؤون المصلحية الخاصة بالسيدة بريتون وكنا أنا والكونتيسة والدكتور بريتون مختلين بانفسنا مدة قصيرة ٠

وليس من ريب أن غراهام وأنا أيضا لاحظنا التغيرات التي تحصل على سحنة بولي عندما تخاطب والدها وقد وقف الدكتور جون بضعدقائق بالقرب من النافذة ينظر الى الجليد وعلى حين غرة دنا من الموقد واخذ يتكلم لا بسهولته المألوفة ٠ ويبدو ان المواضيع الهامة لم تبلغ شفتيه ولكي يجمعها بالشكل الذي يقبله الذوق وبحالة مترددة ثم بحالة غير موفقة أخذ يتحدث عن « فيليت » بشكل غامض وعمن يسكن فيها وعن مناظرها وبناياتها المعروفة ٠

وجاوبته الآنسة دي باسومبيير بنوعية نسوية بعيدة عن النزعة الفردية كليا وبشكل لبق وبنبرة ونظرة وايماءة من هنا وهناك مفعمة بالحيوية انتقلت الى عهد طفولتها عندما كانت بولي الصغيرة والذي كان يفيض على خصائصها ويدعمها وينشطها هو التناسق والدماثة والرشاقة

والهدوء بحيث ان أي شخص ذي حساسية تقل حتى عن حساسية غراهام كان يستطيع أن يهتدي الى انها نقاط مفضلة تفضي الى ألفة ومودة وصداقة بالغة الصراحة والوضوح ·

وفي الوقت الذي ظهر فيه الدكتور بريتون منصاعا وخاضعا وبالنسبة اليه رزينا كان يزال يقظا شديد الانتباه بحيث لم تفته أية من تلك الاندفاعات والنزوات الصغرى والتوقفات الطبيعية ولا آية من الحركات المتحيزة أو التردد في التكلم او التلعثم في النطق · وكانت في بعض أوقات التلكؤ أو التلعثم في النطق هذه تكرر الكلمة بوضوح اكثر بطريقة مثابرة وهي عليمة بالتقصير · وحيثما كان يحدث هذا كان الدكتور جون يبتسم وبمضي المحادثة بينهما تراخي الشعور بضبط النفس والتقيد ولو طال الحديث أكثر لاضحى ألطف وعادت الى خدي بولينا وشفتيها ضحكتها التي تحدث النقرة في خديها وفي احدى المرات تلعثمت ولكن نسيت أن تصححها ولا ادري كيف طرأ التبدل على وضع الدكتور جون فهو لم يبد مبتهجا ولم تظهر على سيمائه امارات المزحة او الطيش ولكنه في داخل نفسه أحس بانه اكثرمرحا وعبر عما في نفسه منالارتياح البالغ بلغة سليمة وبنبرات آرق وأدمث ·

قبل عشرة أعوام كان هذان الاثنان يقولان لاحدهما الآخر الكثير وهذا العقد الزمني المتداخل بينهما لم يضيق فجوة التجربة ولم يسلب تفكير أي واحد منهما ثم ان هنالك بعض السرائر والسجايا بحيث آن التأثير المتبادل بينهما هو من النوع الذي كلما تكلم أحدهما الكثير للآخر تكلم الآخر مثله ايضا اذ بعد المزاملة يحدث الالتصاق وبعد الالتصاق يحدث الاندماج والآن كان على غراهام أن يغادر الدار لان مهنته لايمكن أن ترفض الطلبات والاستدعاءات أو تتجاهلها ·

وغادر غراهام الغرفة ولكن قبل ان يغادر البيت عاد وكنت متأكدة بأنه لم يعد من أجل ورقة او بطاقة في رحلته وهي تشكل مهمته الظاهرية انما عاد ليطمن نفسه بنظرة اخرى بأن وجه بولينا كان في الواقع كماهو في مخيلته وأنه لم يخدع نفسه في نظرته اليها في ضوء متحيز أو مصطنع أو يقع في خطأ يتصف بالحمق · كلا ·· لقد وجد الحقيقة وأخذ معه نظرة رواح خجولة ووادعة جدا وجميلة وبريئة ·

وبقينا أنا وبولينا ساكتتين برهة من الزمن ثم قمنا كلينا ببعض الاعمال المنزلية فعلبة ادوات الشغل المعمولة من الخشب الابيض لسالف الايام استعيض عنها الآن بواحدة من النوع المزخرف بالحفر والتنزيل ومركبة بالفسيفساء الثمين وموشاة بالذهب واصبحت الانامل المرتجفة الناعمة التي قلما استطاعت توجيه الابرة ـ وان كانت لا تزال ناعمة ـ سريعة وماهرة بنفس تقطيبة الجبين حين الانشغال بالعمل وبنفس الطريقة اللذيذة المستساغة ونفس الالتفاتات والحركات السريعة . وشمل العمل احلال شجرة بمكان أخرى تائهة بفعل الرياح الشديدة العاصفة وفي بعض الاحيان ازالة ذرات الاوساخ والاتربة من بعض الملابس الحريرية او ازالة ما علق بها من خيوط .

وفي ذلك الصباح بينما كنت صامتة شاردة الذهنية بفعل مؤثرات الشتاء الصارمة الموحية بالخشوع النفسي وملازمة الصمت لم يكن غضب شهر كانون الثاني وشكله المبيض المجرد عن الرحمة والرأفة قد انتهى والزوبعة الهائجة بصوتها الاجش لم تزل تهدر ولم يبن أي دليل على أنها ستهدأ او تنقطع .

ولو كانت جنيفرا فانشاوي رفيقتي في قاعة الاستقبال لما حدث بي الى أن اجلس متأملة ومستغرقة في التفكير والى الاصغاء والانصات دون الشعور بالانزعاج ولطاردتني وازعجتني بالاسئلة والظنون والاحداس ولاقلقتني وعذبتني بتعليقاتها واسرارها التي كنت أزهد بها وأتوق الى تجنب سماعها . وأين فانشاوي من ماري بولينا التي رنت الي بنظرة أو نظرتين هادئتين وكانت شفتاها نصف مفتوحتين كما لو أنها كانت تهم بالتكلم معي ولكنها لم تفعل ذلك بعد أن وجدتني جانحة للصمت فاحترمت هذه الظاهرة وأبت أن تحادثني .

وقلت لنفسي « لن يدوم هذا طويلا اذ أنني لم أتعود اكتشاف قوة السيطرة الذاتية في النساء او الفتيات ولا قوةنكران الذات وبقدر علمي بهن أرى أن فرصة وجود القيل والقال عن اسرارهن التافهة اعتيادياوعن مشاعرهن التي هي واهنة ورديئة جدا هي معاملة لا ينبغي تضييع فرصها أما الكونتيسة الصغيرة فتعتبر استثنائية وشاذة وقد انهمكت في الخياطة الى ان تعبت ثم تناولت كتابا لتقرأ .

وبطريق الصدفة كانت قد وجدت هـــذا الكتاب في حجيرة الدكتور الخاصة لحفظ الكتب وظهر بأنه كتاب قديم لبريتون مصــور في موضوع التاريخ الطبيعي وغالبا ما كنت أجدها واقفة الى جانبه واضعــة اياه على ركبته وتقرأ فيه وعندما تنتهي من القراءة تتوسل اليه أن يعلمها شرحـــا عن الصور الموجودة فيه وكنت أراقبها بشوق وهنـــا تجربة حقيقية عن ذاكرتها التي تتبجح بها فهل ستذكر هذا الكتاب الذي هو بين يديها تذكرا صحيحا يا ترى ؟

نعم ··· لا يمكن التشكك بذلك فهي حالما شرعت تقلب صفحاته طافت حول وجهها ومضة أثر ومضة من التعبير الذي كان معناها أنها تحيي الماضي بكل جوارحها وعندما نظرت الى صفحة العنوان الذي يحمل اسم الكتاب ومؤلفه وناشره والى الاسم المكتوب بخط يد تلميـــذ المدرسة اخذت تمرر أناملها على الصور تمريرا ناعما وديعا بعد ان نظرت اليهـــا طويلا وترافق التمريرة ابتسامة رقيقة لا شعورية وهي تربت عليها ربتا خفيفا والجدير بالذكر عن خصوصية ذلك المشهد الصغير انهـــا لم تقـــل شيئـــا بصدده · لقد كانت تشعر ولكن دون أن تصب مشاعرها بكلمات متدفقة ·

وانهمكت ساعة بين ركـــام كتب المكتبة متفحصة كتابا بعـــد آخر ومجلدا بعد آخر تجدد ذكرياتها بكل واحد منهـــا وبعــــد ان انهت ذلك جلست على كرسي واطيء وأسندت خدها على راحة يدها وراحت في تأمـــل صامت الى أن اجفلها انفتاح الباب الامامي واندفاع الهواء البارد وصوت والدها محدثا السيدة بريتون في القاعة فنهضت ونزلت الى الطابق التحتاني بثانية واحدة قائلة لابيها « أبي ·· أبي ·· لن تخرج » وقال لها «يابنتي المدللة ينبغي ان انزل الى المدينة » وقالت له « أبي ·· الجو بارد جدا ·· بارد جدا » ·

ثم سمعت المسيو دي باسومبيير يريها الملابس الثخينة التي يرتديها للاتقاء من البرد وكيف أنه سيذهب لاخذ عربته ليتدفأ داخلها ومبرهنـــا لها ـ بايجاز ـ أن ليس عليها أن تقلق على راحتــــه وقالت له « ولكنك وعدت بالعودة في هذا المساء قبل أن يحل الظلام أنت والدكتور بريتون في العربة وليس صحيحا أن تركب عربتك وتنزل الى المدينـــة » وقال لهـــا

« حسنا اذا شاهدت الدكتور فسأخبره أن سيدة أوصته أن يهتم بصحتي الثمينة والرجوع الى البيت مبكرا بحراستي » وقلت له « ستقول سيدة » وهو سيظن أنها والدته ويطيعك الآن ٠٠ يا أبي حاول أن تعود بسرعة لانني أكون في حالة الاصغاء والانتظار » ٠

وأوصد الباب وانطلقت العربة متدحرجة بهدوء عبر الطريق الثلجي وعادت الكونتيسة قلقة حزينة وراحت في ذلك تصغي وتراقب عند انتهاء المساء وتقطع غرفة الاستقبال جيئة وذهوبا بخطوات هادئة لا ضوضاء فيها وفي بعض الاحيان تراجع مشيتها الهادئة وتصيـــخ بسمعها لتتحقق من أصوات الليـــل وعلي أن أقول ٠٠٠ صمت الليل ٠٠٠ لان الريح هدأت أخيرا وتخلص الجو من جليده وبان شحوبه وعريه للعيان بوضوح من بين أغصان الشارع الجرداء كما بانت الاشراقة القطبية لقمر السنة الجديدة الجرم السماوي الابيض الشبيه بعـــالم الثلج وسرعان ما بانت العـــربة قادمة أيضـــا ٠

ولم ترقص بولينا فرحا في تلك الامسية اذا انها هرعت لمساعدة أبيها عند دخوله الغرفة واجلسته على المقعد الذي اختارته له بنفسها وفي الوقت الذي كانت تبذر عليه كلمات الاماديح لمجيئه الى البيت بسرعة جلس ذلك الرجل على كرسيه بقوة يدي ابنته الصغيرتين وسلطانها واستشعر الفرح في استسلامه لارادتها بدافع حبه لها ٠

ولم يظهر غراهام الا بعـــد الكونت ببعض الدقائق وكانت بولينـــا نصف ملتفتة عند سماع وقع اقدامه وتكلما مع بعضهما بكلمة أو بكلمتين فقط والتقت أناملهما ببعضهما التقاء خفيفا عـــلى ما كان يظهر وبقيت بولينا بجانب أبيها ورمى غراهام بنفسه في مقعد موضوع في الجانب الآخر من الغرفة ٠ وراحت السيدة بريتون والمستر هوم يتحادثان مـــع بعضهما بعضا كثـــيرا مستعرضين ذكرياتهما القديمة التي لا ينضب الحديث عنهـــا ولولا ذلك لساد الصمت على الجماعة في ذلك المساء ٠

وبعد تناول الشاي راحت ابرة بولينـــا السريعة وكشتبانها الذهبي الجميل يعملان بانهماك على ضوء المصباح وسكت لسانها عن الكلام وآبت تعبا أيضا بعد عمله اليومي وكان يصغي الى الاحـــاديث دون ان يتفـــوه هو بأية كلمة وتابع بعينيه بولينـــــا وهي تخيط وبدا ابهامهـــا كجناح فراشة أو كالرأس الذهبي لعقرب صغيرة صفراء اللون ٠

الفصل السادس والعشرون

ـ دخن الرسائل ـ

اعتبارا من هذا التاريخ لم تعد حياتي بحاجة الى تنوع فقد تقدمت بشكل جيد برضى تام من المدام بيك التي أقرت اقرارا تاما درجة اطلاعي فهذه المديرة الجديرة بوظيفتها لم تعاملني منذ الاول بغير الاحترام وعندما وجدت أنني عرضة لزيارات اخرى من البيت الريفي (الشرقة) ومن الفندق العظيم زاد الاحترام وتحول الى منزلة مميزة ٠

ولم تكن المدام مشمئزة من ذلك ففي كل الاشياء لم تكن ضعيفة باي حال من الاحوال فقد كان هناك قدر من الاعتدال والرشد في أسخن سعيها لحرصها على مصالحها الشخصية ، وهدوء وامعان في التفكير بسيطرتها على مكاسبها دون أن تجلب لها احتقار احد على انها متملقة وانتهازية وكانت تشعر أنها مسرورة لان الناس الذين لهم صلة بمؤسستها التعليمية يدركون أنها ترفع من شأن من يدرس في مدرستها ولا توهن مستواهم أو تضعفه ٠

ولم تمتدح احدا لا انا ولا سواي من صديقاتي الا مرة واحدة عندما كانت جالسة تتشمس في الحديقة وفي يدها الواحدة فنجان القهوة وفي الاخرى المجلة التي تتفحصها باهتمام وارتياح ورحت لاخذ اجازة لفترة المساء فقط وقالت لي بابتسامة لطيفة « نعم ٠٠ نعم ٠٠ يا عزيزتي خذي الاجازة بكامل رغبتي ان عملك في داري كان ولا يزال مثيرا للاعجاب ومليئا بالشهامة والتحمل والمثابرة ولك ملء الحق في ان تمتعي نفسك فاخرجي كلما أردت أن تخرجي وبالنسبة لانتقائك معارفك ارى أنني فرحة جدا فهم أناس طيبون لهم قيمتهم وجديرون بالثناء والتقدير » ثم خفضت حاجبيها واستأنفت قراءتها المجلة ٠

ان القاريء لن ينظر نظرة جدية جدا الى الطرف الذي توارت فيه العلبة التي تحوي الرسائل الخمسة من خزانتي بصورة مؤقتة وكان الخوف أول نبأ مثير لي عند اكتشافي فقدانها ولكن بلحظة واحدة هدأت نفسي وهمست لها قائلة « صبرا ٠٠ لن أفعل شيئا انما سأنتظر بسلام وستعاد الرسائل الي » وفعلا اعيدت فقد كانت في زيارة قصيرة لدى غرفة المدام وبعد الاطلاع عليها وتفحصها اعيدت ووجدتها كما كانت في اليوم التالي ٠ ولا ادري رأيها بتلك الرسائل وماذا كان رأيها بقوة مسلسل الدكتور جون الرسائلي ؟ وبقوة أفكاره البليغة الخالية من الذرائع والخيلاء وبأسلوب ينساب انسيابا روحيا ، اعطاني مثل تلك البهجة ، ورأيها في تلك الكلمات الرقيقة القليلة المبعثرة هنا وهناك في رسائله كبعثرة اللآليء في وادي السندباد البحري : آه يا مدام بيك هلا قلت لي رأيك فيها ؟

ومن معاينتي عيني المدام بيك أدركت أن الرسائل راقت لديها فعندما استعارتها مني في يوم ما اخذت في اليوم التالي تمتحنني بنظرة تأملية ثابتة وظهرت على سيمائها الحيرة دون الحقد ٠ واثناء ذلك الفراغ بين الدروس عندما خرجت التلميذات الى الساحة لمدة ربع ساعة من الفترة الدراسية بقيت انا وهي في الصف الاول وحيدتين وعندما التقت عيناي بعينيها طافت افكارها على شفتيها وقالت لي :

« يوجد شيء ملفت للنظر بصدد بعض كلمات اللغة الانكليزية » وقلت لها « ما هو يا مدام وكيف ؟ » وضحكت ضحكة قصيرة مكررة كلمة « كيف ؟ » باللغة الانكليزية وقالت « لا استطيع أن أفسر لك ٠٠ كيف ؟ ولكن في اللغة الانكليزية آراء خاصة عن ٠٠ الصداقة ٠٠ الحب وغيرهما ولكن لا لزوم لمراقبتها والسهر عليها » ثم نهضت وابتعدت عني ووقع خطواتها كخبب الحصان القميء وقلت أتمتم مع نفسي « اذن لماذا لا تتلطفين وتتركين رسائلي للمستقبل ؟ » ٠

ومع الاسف أن شيئا اندفع الى عيني واغشاها عن الرؤية وحجبعني غرفة الدراسة والحديقة وشمس الشتاء المشرقة اذ تذكرت أن الرسائل التي قرأتها لن تعود لي ٠ لقد شاهدت آخرها ذلك النهر الجميل الذي أقمت على ضفافه ولم يصل الى شفتي من أمواجه سوى بعض القطرات التي

انمشتني وآحيتني والذي وجدت أنه ينعطف صوب مجرى آخر • لقد وجدته يهجر كوخي وحرمت من حقله ورماله واخذ يصب مياهه بعيدا بعيدا عني • حقا لقد كان التبدل صحيحا وعادلا وطبيعيا فما من كلمة يمكن التفوه بها في هذا الصدد ، بيد أنني أحب رايني ونيلي (نهرالراين ونهر النيل) وعبدت كنجي (نهر الكنج) وتألمت لان التيار العظيم يجري بعيدا عني ليتوارى كالسراب الخادع وهطلت قطرات الدموع وساحت مراعا على يدي وعلى منضدتي ورحت أبكي بكاء مرا •

وبعدها قلت لنفسي أن الامل الذي تحسرت عليه أخذ يتألم ويعاني وجعلني أتألم وأعاني ولم يمت الا عند دنو أجله وبعد حشرجة ونزاع وتباطؤ مرحبا بالموت • مرحبا به فأنا اريده فالالم الطويل الامد جعل من الصبر عادة • وفي نهاية الامر أغمضت عيني ميتي وغطيت وجهه ونظمت أطرافه بهدوء تام وينبغي اخفاء الرسائل • ان الناس الذين يفجعون باعزاء لديهم يتجمعون سوية ويحفظون تذكارات موتاهم فليس من الممكن تحمل طعنات تنفذ الى القلب في كل لحظة من اللحظات عن طريق استثارة الاسى العميق •

وفي ظهيرة عطلة يوم الخميس عندما كنت ذاهبة الى كنزي للتمعن في كيفية التصرف به وأحسست ـ وفي هذه المرة بدافع قوي من الاسى ـ بأن يدا ستعبث به وكانت العلبة هناك حقا ولكن الشريط الذي ضمن له الامان كان يلفه ويحله وبدلائل اخرى علمت أن جاروري قد زاره أحد ولم يكن هذا بالامر الذي يمكن استسهاله فالمدام بيك نفسها كانت عصارة الحذر وروحيتها فعلاوة على امتلاكها دماغا تصدر به حكما لم يصدره أي دماغ بشري فان محتويات العلبة لم تكن سارة وينبغي ابداء جانب التحمل• لقد كانت كمحقق قضائي وتستطيع أن ترى الاشياء في ضوئها الحقيقي وتفهمها بشعور غير فاسد ولا منحرف ولكن فكرةقيامها بمغامرة افشائها للآخرين وربما استمتاعها مع رفيقة معها بمستندات أقدسها تقديسا صدمتني صدمة قاسية •

وما دامت القضية قد وصلت الى هذا الحد فانني أجد سببا لاثارة مخاوفي حتى أنني ظننت بل ضمنت أن مستشارها وقريبها ومؤتمنها المسيو بول عما نوئيل قد أمضى أمسية الامس معها ورأيتها وهي كمن

تستشيره وتبحث معه في قضايا لا يمكن آن تبحثها مع شخص سواه وفي صبيحة ذلك اليوم حدجني المسيو بول بنظرة يبدو انه استعارها من « فاشتي » الممثلة ٠

ولم اكن لاتوقع في ذلك الوقت ان تينك العينين الزرقاوين المتقعتين تومضان بالغضب ولكنني عرفت السبب وتحسست المعنى ٠ وفي اعتقادي انه لم يكن جديرا او محقا بأن ينظر في قضية تخصني من وجهة النظر العادلة ولا بأن يحاكمني بتسامح وبلا تحيز لانني وجدته دائما قاسيا وهكوكيا ومجرد التفكير بأن هذه الرسائل التي هي رسائل صداقة لا غير قد وقعت مرة بيديه او انها قد تقع مرة اخرى يضايقني ٠

وما الذي ينبغي علي ان افعله للحيلولة دون حدوث ذلك ؟ وفي اية زاوية من زوايا هذه الدار الغريبة يمكن آن أجد فيها أمانا أو مكمنا سريا ؟ ومتى كان المفتاح واقيا أو حارسا ومتى كان القفل حاجزا ؟ وهل في العلبة أو الحجرة الواقعة تحت السقف الاعلى أمان ؟٠٠ كلا ٠٠ لاأحب العلبة ثم آن معظم الصناديق والجوارير الموجودة منخورة وعفنة وتالفة ولا يمكن اغلاقها او اقفالها والجرذ تقرض فيها أيضا وتحدث فيها ثقوبا تمر من خشبها المنخور وهناك مأوى بين فضلاتها المبعثرة ومحتوياتها الفاسدة ٠ ان رسائلي العزيزة ربما أكلتها الحشرات أو آن الرطوبة قد محت كتابتها ٠ كلا ٠ ان العلبة لا تفيد ولكن آين احفظها ؟٠

وبينما كنت افكر بهذه المشكلة جلست امام نافذة غرفة المنام على مقعد هناك وكان وقت ما بعد الظهيرة رائعا ومثلجا أشرقت فيه شمس الشتاء وتوهجت صفراء على قمم شجيرات الحديقة في « الممر المحرم »حيث تتعالى شجرة الكمثرى القديمة الكبيرة جدا المسماة بشجيرة كمثرى الراهبات وهي كمثل هيكل طويل رمادي اللون اجرد ومقشر ٠ وخطرت ببالي فكرة كواحدة من الفكر الخيالية الغريبة التي تراود في بعض الاحيان الاناس المنعزلين وارتديت قلنسوتي ومعطفي وفروي وخرجت الى المدينة ٠

وبعد أن وجهت خطواتي الى الحي التاريخي من المدينة حيث كنت دائما ألجأ الى تخومه القديمة المظلمة غريزيا في حالاتي النفسية الكئيبة ورحت أتجول من شارع الى شارع الى أن اجتزت وعبرت المكان شبه

المنزل وجدت نفسي أمام حانوت تاجر قديم يبيع التحف القديمة التي امتلأ بها حانوته والذي كنت أنشده منه هو صندوق معدني يمكن لحمه او جرة زجاجية ثخينة أو قنينة يمكن سدها بسدادة أو ختمها بأحكام ومن بين الاكوام المتنوعة وجدت ضالتي المنشودة الاخيرة واشتريتها •

ولففت الرسائل على شكل لفة صغيرة ورزمتها بحرير مزيت وربطتها بخيط من القنب ووضعتها داخل القنينة وحصلت من ذلك التاجر اليهودي القديم على سدادة وختم للتقوية وعدت لتوي الى المدرسة عند حلول الظلام وفي وقت تناول العشاء وعند الساعة السابعة بزغ القمر وبعد نصف ساعة عندما كانت التلميذات والمدرسون يدرسون في الصفوف والمدام بيك مع امها وطفلاتها في قاعة الطعام وانصاف الداخليين ذهبوا الى دورهم وروزين غادرت المجاز وعم السكون والهدوء لففت جسمي بشالي وحملت الجرة المختومة وانسللت عبر الصف الاول الى الممر المحرم •

وكانت الشجرة القديمة المعمرة تتعالى عند النهاية القصوى من ذلك الممشى بالقرب من مقعدي وفي خشبها القوي ثقب أو تجويف عميق بالقرب من جذعها وكنت أعرف بوجود ذلك التجويف المخفي قسم منه بين جنبات اللبلاب والنباتات المعترشة المتسلقة المتكاثفة النمو وجاء في فكري أن اخبيء هناك كنزي ولم يكن قصدي اخفاء كنز فحسب بل دفن احزاني أيضا هناك ••• احزاني التي طالما أبكتني •

وصنعت الطريق لي بين تلك النباتات المكثفة وعثرت على الثقب أو التجويف وكان من الكبر بحيث اتسع للجرة ودسسته عميقا في الداخل وكان في باطن الحديقة بقايا مواد البناء تركها البناؤون الذين استخدموا مؤخرا لاصلاح قسم من تلك الاراضي وتحريت عن لوحة سددت بها الفتحة وعززتها بالاسمنت وغطيت الجميع بقالب الصب ثم أعدت النباتات الى ما كانت عليه وبعد ان أتممت ذلك أخذت قسطي من الراحة وظللت اتسكع ككل متفجعة على ميت لها بالقرب من الجدث الحديث •

وكان هواء الليل ساكنا جدا يعتمه الضباب الكثيف الذي حول ضوء القمر الى غيمة نيرة ، وفي ذلك الجو أو ذلك الضباب أثرت في الحالة تأثيرا غريبا فقد شعرت آنذاك كما لو أنني في انكلترا والشفق القطبي يتدفق

حول السماء وأنا وحيدة غير سعيدة بـــين الحقول وان كنت شاعرة بقوة متزايدة في نفسي ·

ولو كانت الحياة حربا لكان من المحتم أن أخوضها بمفردي وفكرت في كيفية التخلي عن اماكني الشتوية وفي كيفية مغادرة المخيم الذي فشل أمر تزويده بالطعام وربما اذا أريد احداث هـذا التبـــدل فلابد من معركة مناوشات اخرى مع القدر واذا حدث ذلك فلدي ذهنية خوض المناوشة وقد يعينني الله على كسب المعركة ولـكن أي طـريق مفتوح لي وأية خطـــة موجـودة ؟

توقفت عند هذه القضية حين ظهر القمر بين الغيوم الداكنة بلمعان أبهى ونور شعاع منه حيالي ثم عتمة جزئية ملحوظة وامعنت النظر لمعرفة سبب هذا التباين الواضح المعالم الذي ظهر على حين غرة في الزقاق المظلم وبان أمام عيني أكثر ابيضاضا واسودادا ووقفت على بعد ثلاثة ياردات من تلك المرأة الطويلة ذات الرداء الاسود والحجاب الابيض ومرت دقائق لم أفر خلالها ولم أصرخ من الخوف ولما كانت باقيـــة في محلها خاطبتها قـائلة :

« من أنت ولماذا جئت الي ؟ » وظلت صامتة بدون وجه ولا ملامـــح وكل ما تحت جبينها مغطى بقماش أبيض وكانت لها عينان تنظران الي· وشعرت كان شجاعتي خانتني بنوع من القنوط وغالبا مـا يكفي القنوط لملء الفراغ والقيام بالعمل الذي تقوم به الشجاعة فتقدمت خطوة واحدة ومددت يدي كمن يريد ملامستها ويبدو أنها تتقهقر وأنا أتقرب منهـــا اكثر وان تقهقرها الذي كان لا يزال صامتا تحول الى تقهقر سريع ·

وتدخلت بيني وبينهامجموعة الشجيرات الكاملة الاوراق والاخضرار واشجار الصنوبر المتكاثفة الدائمة الخضرة وبعـد أن اجتزت تلك العقبة نظرت فلم أر شيئا وانتظرت ثم قلت « اذا كانت لديك أية مهمة أو رسالة تريدين ايصالها للرجال تعالي وسلميها ولم تحر جـــوابا واختفت · وفي هذه المرة لم يكن الدكتور جون موجودا لكي أتجرأ أمامه واهمس باذنـــه هذه الكلمات » لقد وجدت الراهبة مرة أخرى· كانت بولينا ماري تطالبني بملاقاتها في شارع كريس في خلال أيام بريتون الماضية ومع أنها لم تكن تفصح عن تولهها بي قط فان معاشرتي اياها اصبح بالنسبة لها نوعا من

الضرورة اللاشعورية واعتدت على ان الاحظ انني انسحبت الى غرفتي فانها كانت تأتي ركضا للحاق بي وتفتح الباب وتنظر منه الي وتقول لي بلهجتها الطفولية اللاثغة « انزلي فلماذا تجلسين وحيدة ؟ عليك أن تأتي الى قاعة الاستقبال .

وبنفس الروحية حثتني الآن قائلة « اتركي شارع فوسيت وتعالي وعيشي معنا وبابا سيعطيك اكثر مما تعطيك المدام بيك بكثير » وكان المسيو هوم قد عرض علي مبلغا ضخما يعادل ثلاثة اضعاف ما أتقاضاه في المدرسة من راتب اذا وافقت على أخذ وظيفة مرافقة ابنته ورفضت وفي رأيي أن كان علي ان ارفض حتى ولو كنت أفقر حالا مما أنا عليه الآن وبأقل مورد من موردي الحالي .

وبوسعي أن أدرس كمدرسة وان أقدم دروسا للآخرين أما ان آخذ وظيفة خاصة كمربية أطفال او وصيفة فلا وليس طبيعيا في نظري قط وبدلا من اشغال الوظيفة السابقة في دار احد الاثرياء أشغل ـ عمدا ـ وظيفة خادمة في منزل واشتري زوجا من القفافيز قويا وأكنس الغرف والسلالم وأنظف الاوجاق (جمع وجاق) والصناديق والاقفال بسلام واستقلال وهذا افضل من أن اكون وصيفة وبوسعي أن اخيط القمصان ولو تضورت جوعا .

انني لست ظلا للسيدة الشهيرة حتى وان كانت كالآنسة دي باسومبيير ولست ذات طبيعة من شأنها الخضوع لاحد ولكن اذا جاءت مظاهر الاظلام والكآبة والاسى من تلقاء ذاتها وبشكل طوعي فالامر يختلف وبوسعي تحملها كالتي أبقتني سهلة الانقياد على رحاتي وسط تلميذات جيدات التعود الآن في الصف الاول من مدرسة المدام بيك أو وحيدة بجانب فراشي في حجرة النوم أو في المشى والمقعد اللذين خصصا لي في الحديقة .

ان مؤهلاتي لم تكن قابلة للتحويل أو للتكييف أو لزخرفة حجر كريم أو جوهرة ولا لالحاقها بأي جمال ولا ذيلا لاية عظمة في العالم . أنا والمدام بيك نفهم احدانا الاخرى بدون استيعاب او تمثيل فهما جيدا ولم أكن وصيفتها ولا مربية أطفالها . انها تركتني اتصرف بحريتي ولم تربطني بأي رباط او تشترط علي أي شرط ولم تربطني لا بها ولا بمصالحها .

وفي ذات مرة استدعيت من قبل أقاربها لمشاهدة مريض من عائلتها وبقيت اسبوعين عندهم وعند عودتها وهي مــلأى بالاهتمام بمؤسستها التعليمية وقلقة من أن يكون قد حدث شيء في غيابها من خطأ أو مكروه وعندما وجدت أن الامور مضت أكثر مما يقتضيه الاعتياد وأن لا دليل على وجود اهمال ظاهر قدمت لكل معلمة هدية تقديرا لكونها موضع الاعتماد. وجاءت الي وأنا بجانب فراشي في الساعة الثانية عشرة ليلا وقالت لي أن لا هدية تعطيها لي وسأقدمها للقديس بيير بدلا من أن أقدمها لك لانني أخشى ان قدمتها لك أن يحصل سوء تفاهم بيننا وربما أدى هذا الى الانفصال وهناك شيء واحد استطيع أن أسرك به هو أن أتركك وحيدة على هواك وبحريتك وهذا ما سأفعله .

وحافظت على كلمتها وبذلك قد تكون قد أزالت بفعلها هذا أي قيد قيدتني به في السابق مهما كان بسيطا وتلذذت باحترام أنظمتها المدرسية بشكل طوعي وكعرفاني بجميلها ضاعفت وقت تكريسي لخدمة الطالبات وضاعفت وقت أتعابي في الوقت ذاته راضية . وبالنسبة للآنسة ماري دي باسومبيير زرتها برغبة صادقة وان كنت قد انتويت عدم العيش معها سرعان ما علمتني زياراتي أن حتى رفقتي الطوعية لها في بعض الاحيان ستكون مما لا يمكن الاستغناء عنها ويبدا المسيو دي باسومبيير مغلقا في حدسه في هذا الصدد وأعمى حيال هذه الامكانية وغير دار ـ كأي طفل ـ بالدلالات والاحتمالات .

وسواء أقر ذلك وديا أم لا فانني أعتدت على استخدام حدسي ومن الصعب التوصل الى الحقيقة بذلك لقد كان منهمكا في المصالح العلمية ومتحمسا ومتحفزا في كل ما يمت بهواياته المفضلة بصلة وواثق ـ دون أي تشكك ـ بشؤون الحياة العامة . ومن كل ما استطعت جمعه يبدو أنه يعتبر ابنته طفلة وربما لم يعترف حتى الآن بالفكرة العامة ، فكرة أن على الآخرين أن ينظروا اليها في ضوء مختلف .

انه لا يزال يتكلم كما كان يتكلم في السابق من انه ماذا سيفعل عندما تصبح بولي امرأة وعندما تترعرع وتكبر وفي ذلك الوقت كانت بولي تقف بجانب كرسيه وتبتسم أحيانا وتمسك بيده بين يديها الصغيرتين وتقبل خصل شعره الرمادي الحديدي واحيانا تعبس وتقطب جبينها وتداعب عقصات شعرها ولكن لا تقول « بابا انا كبرت » .

لقد كان للفتاة أمزجة مختلفة بالنسبة لمختلف الناس فمع أبيهاكانت لا تزال طفلة او شبيهة بالطفلة حنونة ورقيقة ومرحة ولعوب ومعي كانت جدية وامرأة فكرا وحسا ومع السيدة بريتون سهلة الانقياد وراغبة في التعلم وواثقة واتكالية وصريحة غير متحفظة ومع غراهام خجولة وفي الوقت الحاضر خجولة جدا وفي بعض الاحيان كانت تحاول ان تبدو باردة وفي بعض الاحيان الاخرى كانت تحاول أن تتجنبه وتنأى بنفسها عنه ·

ان مجرد سماعها خطواته تشرع في عمل ذلك ودخوله يسكتها وعندما يتكلم معها لا تكون اجوبتها فصيحة ، وعندما يستأذن بالانصراف تبقى مرتبكة ومضطربة وحتى أبيها لاحظ ذلك السلوك عليها بحيث قال لها مرة « يا صغيرتي بولي أنت تعيشين حياة متخلفة جدا فاذا اصبحت امرأة بهذه الاساليب الخجولة لن تكوني صالحة للمجتمع الا بصعوبة · أنت تنظرين الى الدكتور بريتون كما لو أنه غريب فما هذا ؟ الا تتذكرين انك عندما كنت طفلة كنت مولعة به نوعا ما فأجابته بجفاف ممزوج بلهجة وادعة وبسيطة « نوعا ما ·· يا ابي » وقال لها « وأنت لا تريدينه الآن؟ ماذا افعل ؟ » واجابته « لم يفعل شيئا وأنا أحبه قليلا ولكننا كبرنا فأضحينا غرباء الواحد عن الآخر » وقال لها « اذن دعي عنك كل هذا وازيلي الصدأ والفتور وتكلمي عندما يكون هنا ولا تخشي منه » ·

وقالت له « انه لا يتكلم كثيرا فهل هو خائف مني ؟ ما رأيك ياأبي؟» وقال لها تأكدي أن ليس هناك من رجل يخاف من مثل هذه السيدة الصامتة الصغيرة ، واجابته « اذن قل له يوما ألا يهتم عندما يراني صامتة وأن هذه عادتي وطريقتي وأن لا نية لي تجانف الصداقة » وأجابها « طريقتك ؟! أيتها الحمقاء الصغيرة · بعيدا عن كونها عادتك أنها نزوة دأبت عليها » وقالت له « حسنا يا أبي سأصلحها » ·

وكانت رائعة جدا تلك الكياسة التي حاولت بها في اليوم التالي الايفاء بوعدها ووجدتها تبذل مسعى للتحادث مع الدكتور جون بدماثة وعذوبة معاشرة حول مواضيع عامة وهذا الاهتمام بعث في وجه ضيفها توهجا بهيجا وقابلها بحذر وأجابها بأنعم وأرق نبرة كما لو أن هناك نوعا من سعادة رقيقة رقة لعاب الشمس المعلق في الهواء · كان يخشى ازعاجها بجرة نفس عميقة جدا · ومن المؤكد أن التقدم صوب الصداقة كان رائدها ولا يمكن نكران سيادة جو سحري محض على تلك المحادثات ·

وعندما انصرف الدكتور دنت من كرسي ابيها وقالت له « هل وفيت بوعدي يا ابي ؟ وهل تسلكت سلوكا افضل ؟ » وقال لهـا ابوها « ابنتي بولي تصرفت تصرف ملكة وسأكون جد فخور بك اذا استمر هذا التسلك انا والآنسة لوسي ينبغي أن نعنى بالجميع ونحسن كـل الاجواء ونطبق الاعراف الاخلاقية لئلا نرمى في عتمة تحرمنا مـن الشهرة في المجتمع ولا يزال لديك يا بولي أثر من الارتباك وجنوح قليل للفأفأة والتلعثم أحيانا وبلثغة كلثغة الاطفال كما لو انك لا تزالين في السادسة من عمرك » ·

وقاطعته باستياء قائلة له « كلا يا أبي ·· ليس هـذا صحيحا ·· » وقال أبوها « أناشد الآنسة لوسي ألم تكن على هذه الحالة عندما تجيب على سؤال الدكتور بريتون عما اذا كانت قد شاهدت قصر الامير « بوا ليتانغ» واجابته « انني كنت هناك عدة مرات » ولفظت كلمتين من هـذه العبارة باللثغ » وقالت له « أبي أنت هجاء وذو طبع غريب فانا استطيع أن الفظ كل احرف الالف باء بوضوح كما تلفظهـا أنت · والآن اخبرني ·· أنت معني كل العناية بأن تجعل مني مهذبة ولطيفة مع الدكتور بريتون فهـل تحبه أنت ؟ » ·

وقال لها أبوها « تأكدي من انني أحبه لصداقتي القديمة معه ثم انه ولد طيب لام طيبـة · أضيفي الى ذلـك أنه شخص طيب القلب وذكي في مهنته · نعم انه شاب لطيف بما فيه الكفاية » (وذكر كلمة الشاب باللغة الاسكتلندية) واجابته بولي « انك اسكتلندي يا أبي · هل لهجتك لهجـة مدينة ادنبرغ أم لهجة مدينة أبردين ؟ » واجابها أبوها كلتاهما يا بنيتي المدللة وهذا هـو الـذي يجعلني أتكلم الفرنسية بطلاقة ؟ ان اللهجـة الاسكتلندية تتفوق دائما على الفرنسية » · وقالت له « أنت لا سبيـل الى تقويمك يا أبي وأنت ايضا تحتاج الى ارتياد مدرسة » ·

وقال لهـا أبوها « حسنا يا بولي ينبغي عليـك أن تقنعي الآنسـة سناو بأن تتولانا نحن الاثنين فتجعل منك امرأة موضع اعتماد وتجعل مني مهذبا ومثقفا كلاسيكيا » · ان الضوء الـذي شاهدني تحتـه المسيو دي باسومبيير على ما يظهـر أبداني صرحـا ثقافيا فيالها من صفات مميزة متناقضة تعزى الينا في بعض الاوقات عـلى النحو الذي تشاهدنا أعينهم فالمدام بيك اعتبرتني مثقفة ومتعلمة فيحين أن الآنسة فانشاوي اعتبرتني ساخرة وتهكمية وعيابة ··

والمعروف عن المسيو هوم انه كان المدرس النموذجي وجوهر الرزانة والرشاد متمسكا بنوع ما بالتقاليد وربما متزمتا جدا ومقيدا ضمنحدود معينة وكثير الشكوك والوساوس في حين آن البروفيسور بول عما نوئيل ذا المقدرة والموهبة لم يضع أية فرصة للتهويل على ذهنـــه لاعتباري ذات طبيعة متقدة طائشة ومتهورة ومغامرةوتتصف بانعدام المرونة والوقاحة• وفي سري ابتسمت وأنا عالمة بأنجميع هؤلاء لم يفهموني باستثناء الصغيرة بولينا ماري •

انني لم أرد آن اكون مرشحة من قبل بولين ولا أجيرة رفقتها غير ان لطافتها وكرمها ودماثة خلقها جعلتني أنسجم معها واخيرا أقنعتني لـــكي انضم اليها في بعض نواحي الدراسة كوسيلة نظامية مقررة ومبتوت فيهـا لابقاء الصلة بيني وبينها واقترحت علي مساعدتها في تعلم اللغة الالمانية التي وجدتها ــ كما وجدتها آنا من قبل ــ صعبـة واتفقنا على آن نأخـذ دروسنا في شارع كريس لنفس المدرسة وهذا الاتفاق جعلنا نلتقي سوية بضع ساعات من كل اسبوع •

ويبدو ان المسيو باسومبيير ارتاح لذلك تمامــــا وسره أن تخصص « الهة الحكمة » الوقورة قسما من فراغها للقاء بابنتـه وعزيزته الجميلة وهذا الحكم الذي قررته بنفسي جعل بروفيسور شـارع فوسيت يكتشف بأساليبه التجسسية الخفية انني لـم أكـن كالسابق مستقرة ومواظبة في دوامي انما كنت أخرج بانتظام بضع ساعات من كل بضعــــة أيام فقرر وضعي تحت المراقبة وكان الناس يقولون أنه مجبول على التجسس وماهر في ذلك وكنت أود آن اصدق هذه الاقوال لو أنه كـــان قادرا على اخفاء مناوراته بصورة أفضل ولهذا شككت في كـلام الناس وفي اعتقادي آنه لم يكن اكثر من مخطط للكيد مكشوف لا مستورد ومن مدبر دسائس بصورة مكشوفة فهو يحلل دسائسه الخاصة ويدبر المكائد بشكل متقن لا لشيء الا لكي ينهمك في تبيان براعتها ويفتخر بها فيما بعد •

ولا آدري ما اذا كنت مستأنسة، اكثر أو مدعوة للاستفزاز اكثر حين تقرب مني ذات صباح وقال لي هامسا على شاكلة خطيرة انه كان يراقبني وان واجبه يقتضيه بان يدع الصداقة جانبا ولا يتركني أسير وفق أهوائي وظلت قضيتي معلقة دون البلوغ الى تسوية نهائية بهذه الشاكلة أو تلك

ولم يدر ما الذي يفعله ازاءها وفي رأيه أن ابنة عمه المدام بيك هي الملومة عن ذلك في تركها معلمة في مدرستها تضع حبلها على غاربها. وما شأن معلمة تلبي طلبات تثقيفية من الكونتات والكونتيسات والفنادق والبيوت الريفية الفخمة وفي اعتقاده أنني تغيبت ستة أيام كما لمح لي بيد أنني قلت له أن هذا مبالغ فيه وأنني لم أفعل شيئا سوى التمتع بفائدة طروء تبدل طفيف في الآونة الاخيرة ولولا ضرورته لما تغيبت .

وقال لي « ضرورته ؟ كيف ؟ » وحثني الى النظر الى المثاليين الذين لا يطالبون بأي تبدل . ولا أدري بالانطباع الذي طفا على وجهي غداة تفوهه أمامي بذلك وكل ما اعرفه أن جوابي استفزه فراح يتهمني بالحمق والدنيوية والابيقورية وبالطموح في التوصل الى العظمة وبأنني أتوق للخيلاء والتواقة للحياة وغرورها ويبدو أنني ـ وفق ما قاله لي ـ غير مخلصة ولا املك روحية الكياسة والعقيدة والتضحية ولذت بالصمت بعد أن اشحت بوجهي عنه بنوع ما .

وسمعت صوت دمدمة غامضة بين اسنانه لا اظن أنها كانت قسما لانه كان اكثر تدينا من ان يفعل ذلك وعندما لاقيته بعد ذلك بساعتين في الممشى وانا مستعدة للذهاب لاخذ درسي بالالمانية في شارع كريسي وجدت أن ليس هناك من هو أفضل من هذا الرجل القميء في بعض النقاط ولا من هو اكثر نزقا واستبدادا منه في بعض النقاط الاخرى .

كانت مدرستنا الالمانية فرولين آنا براون امرأة ودودة في الخامسة والاربعين من عمرها تقريبا وكان ينبغي أن تعيش في عصر الملكة اليزابيث اذ كان من عاداتها أن تتناول في فطورها الثاني لحم الخنزير مع البيرة وكان محياها الذي يحمل الطبيعة المانية الصرفة يبدو وكأنه يعاني من التحفظ القاسي التعابير بما أسمته بانكليزيتنا المحافظة علما ان كلينا كنا نستشعر الراحة والاطمئنان معها غير أننا ما كنا نستطيع أن نمازحها كأن تضرب على كتفها واذا ما أردنا أن نقبل خدها فاننا كنا نفعل بلطف ونعومة دون التلمظ أو التمطق بقوة لان ذلك كان يضايقها كثيرا وسرعان ما اعتدنا على طبائعها فمشينا معها مشية جيدة جدا ونصحنا الفتيات الاجنبيات بالتصرف وفق ما كانت تهوى وقد أدهشها تقدمنا الحثيث في دراستنا واعتبرتنا فتاتين عبقريتين باردتي الطبع ومعتزتين بكرامتهما كل الاعتزاز .

لقد كانت الكونتيسة قليلة التفاهم بنفسها وصعبة الارضاء نوعا ما وربما كان لجمالها وكياستها الاثر في أحقية تلك التحسسات وفي رأيي أنه كان خطئا كبيرا أن تمارسها معي وكانت تحييني صباحا بشكل منظم وقد شعرت آنا براون بذلك الفرق الكائن بيني وبين بولينا ففي الوقت الذي كانت تنظر فيه الى بولينا نظرة خوف من جهة ونظرة توله من جهة اخرى لجمالها الحوري ورشاقتها الرائعة كانت تنظر الي نظرة أخرى كما لو كنت ملجئا مريحا لها ذات سريرة أسهل وأدمث رغم علمها بشدة مراسي ·

وكان الكتاب الذي أحببنا قرآءته وترجمته هو ديوان الشاعر شيلر وقصائده التي تعلمت بولينا بسرعة كيفية قراءتها بشكل جيد · وكانت فرولين تصغي اليها بابتسامة عريضة تعبر عن ارتياحها قائلة ان صوتها كالموسيقى وترجمت القصائد أيضا بعبارات مناسبة وبتوتر الحماسة الشعرية الاصيلة يتوهج فيها خداها وترتجف شفتاها المبتسمتان وتتألق عيناها الساحرتان او تذوبان ذوبانا كلما أمعنت في القراءة وحفظت القصائد عن ظهر قلب وراحت تعيد تلاوتها في أغلب الاحيان عندما نكون وحيدتين ورددت ذات أمسية ونحن حول الموقد أبياتا شعرية باللغةالالمانية

وقالت بولين « عاش وأحب » هل هذه قمة السعادة على الارض ونهاية الحياة كما يقول هذا الشاعر ؟؟ أن تحبي ؟؟ لا أظن هذا صحيحا فقد يكون هذا الحد الاعلى للبؤس القاتل وقد يكون مضيعة للوقت لا اكثر ولا أقل ومن قبيل تعذيب للمشاعر لا طائل تحته واذا كان الشاعر شيلر قد قصد هو كلماته الشعرية هذه أن يكون محبوبا فانه قارب الحقيقة بذلك واليس « أن تكون محبوبا » هو شأن آخر يا لوسي ؟ »

وقلت لها « أوافقك في ذلك فقد يكون هذا صحيحا ولكن لماذا تتحدثين عن هذا الموضوع ؟ ما هو الحب في نظرك ؟ وماذا تعرفين عنه ؟ » واحمر خداها احمرارا قرمزيا وظهر على محياها مزيج من التبرم والاستحياء وقالت « لا أقبل منك هذا يا لوسي فمن حق بابا أن يظل ينظر الي وكأنني لا أزال طفلة وهذا ما يريحني منه ولكنك تعرفين أو ينبغي عليك أن تعرفي أنني شارفت التاسعة عشرة من عمري » ·

وقلت لها « لا يهم حتى اذا كنت في العشرين من عمرك · أننا لانتوقع احاسيس ومشاعر بالتباحث والحوار ولن نتكلم عن الحب » وقالت لي

بسرعة وحيوية حارة « حقــا ٠٠ حقــا ٠٠ باستطاعتك أن تحاولي معرفة ما في سريرتي قدر ما تشائــين ولكنني ســبق أن تكلمت في ذلك وسمعت الكثير مؤخرا وبطريقة قد لا توافقين عليها » ولم افهم شيئا مما قالتهومع ذلك لم أشأ ان أسألها واستفهم منها ما عنته بعبارتها هذه رغم أنها لــم تزدني علما بعد أن لاحظت ارتباكهـــا وابتسامتها الماكرة الدالة عــلى الانتصار ٠ وبعد أن لاحظت براءتها التامة طائفة على محياها ومقرونـة بانحرافها السريع الزوال قلت لها أخيرا متسائلة : « من تحدث لكبشكل متعمد لم ترتضيه في مثل هذه المواضيع ؟ ومن تلك المقربة لك تجرأتعلى ذلك ؟ » واجابتني بلطــف متزايــد « يا لوسي ٠٠ هي شــخص يزعجني ويغمني واحيانا أود التخلص منه والابتعاد عنه لانني لا أريده » وقلــت لها « انك تحيريني يا بولينا كل التحير فمن هي ؟ » واجابتني « انها ابنة عمي جنيفرا فهي تأتي عندي كلما ارادت أن تزور الســيدة كولمونديلي وكلما تجدني وحيدة تبادثني الحديث عن المعجبين بها وعن الحب وعــن كل ما يتصل بالحب من قريب أو بعيد » ٠

وقلت لها بمنتهى البرود « طالما سمعت منها ما سمعته أنت ٠ انه شيء لا يؤسف له ٠٠٠ انه شيء حسن طالما أن الذي في ذهنيتها لا يؤثر عليك ولا يمكن أن يؤثر وكل ما ينجم عن ذلك هو اكتشافك مافي راسهــا وما في قلبها » وقالت لي « انها تؤثر علي تأثيرا كبيرا فلها فن اقلاق راحتي وسعادتي وتشويش آرائي وافكاريفهي تؤذيني عن طريق هذهالاحاسيس وتؤذي أعز الناس عندي » وقلت لها « ماذا تقول ؟ أعطني فكرة عمـــا تقوله فقد تكون معادلة أو مشابهة للضرر الذي تلحقه » ٠

وقالت لي « انها تسيء بالكلام للناس الذين طالمــا احترمتهم وتحط من قدرتهم حتى ان السيدة بريتون لا تسلم منها ولا ولدها غراهام »وقلت لها « وكيف تمزج هذه بمشاعرها ٠٠ وبحبها ؟ انها تمزجها على ما اظن ؟» وقالت لي « يا لوسي ٠٠! انها وقحة وصلفة وفي اعتقادي أنها مخادعــة وغادرة ٠ أنت تعرفين الدكتور بريتون وكلانا نعرفه فقد يكون مهمـــلا ومتكبرا وعديم الاهتمام ولكنه ليس حقيرا أو حانقا وذليلا كما تصوره ؟ وكل يوم تظهره كما لو أنه ينحني على قدميها ويتابعها متابعة الظلوتصده بالاهانات وهو يتوسل اليها بافتتان وتيتم ٠٠ قولي لي يا لوسي هل هذا صحيح ؟! »

وقلت لها « ربما كان صحيحا انه استحلاها ذات مرة وأعجب بجمالها . ألا تزال تدعي بأنه لا يزال يلتمسها ويطلب يدها ؟ » وقالت لي « تقول أنها ستتزوجه يوما ما فهو ينتظر رضاها وقبولها فقط » وقلت لها « ان هذه المزاعم والحكايات سببت لك هذا التحفظ في موقفك ومسلكك من غراهام وهو ما لاحظه والدك » وقالت لي « فعلا جعلوني جميعا أشك في اخلاقه وكما تقول جنيفرا انهم لا يحملون معهم صدى الحقيقة السافرة وأنا أعتقد بأنها تبالغ وربما تلفق ولكنني أريد أن اعرف الى أي مدى تفعل ذلك » .

وقلت لها « ماذا تقولين اذا أعطينا فرصة لفانشاوي لتقدم البرهان ولتظهر أمامنا قوة تبجحها » وقالت لي « أستطيع أن احقق ذلك غدا فقد قدم الوالد دعوة لبعض العلماء الجنتلمانية لتناول العشاء عنده وقد اكتشف الوالد أن غراهام أيضا هو عالم فهو بارع — كما يقولون — في اكثر من فرع علمي وساجلس دون أن يسليني أحد على المنضدة بين مثل هذا الجمع ولن يكون بوسعي أن أكلم السيدين أي « و . ز » العالمين الاكاديميين من باريس وساكون في وضع محفوف بالصعوبات . ان عليك أنت والمستر بريتون أن تأتيا لمساعدتي . وستكون جنيفرا معكما بالتاكيد لانني سأقدم الدعوة لها وستتاح لها فرصة تبرير سلوكها وصحة ما تدعيه » .



الفصل السابع والعشرون

ـ فندق كريسي ـ

بدأ الغد يوما اكثر حيوية وانشغالا مما توقعوها أو مما توقعتها أنا كان عيد ميلاد أحد الامراء الشباب من آل لاباسيكور وأن أكبر الامراء الدون كان دي دندونو الذي خصصت في المدارس عطلة عامة تيمنا به ولا سيما في كلية « أثينييه » الكبرى • وكان لعدد من اصدقاء المسيو باسومبيير من العلماء « علاقة ـ بهذا المدى أو ذاك ـ بهذه الكلية وكان من المتوقع أن يحضروا بهذه المناسبة مع موظفي بلدية « فيليت » الموقرين امثال المسيو شيفاليه ستاس عمدة المدينة وكان اصدقاء دي باسومبيير قد استدعوه لمرافقتهم ولابد أن تكون ابنته الجميلة من ضمن المجموعة وقد كتبت لجنيفرا ولي ملاحظة تطلب منا الحضور مبكرا والانضمام اليها •

وبينما كانت الآنسة فانشاوي وأنا نرتدي ثيابنا في المهجع أخذت هذه تستغرق بالضحك بعد أن انتهت من ارتداء ثيابها الفاخرة واخذت تطيل النظر الي فقلت لها « وماذا لديك الآن ؟ » فأجابتني قائلة بلهجتها الوقحة المتسيبة العديمة التحفظ الممزوجة بمظاهر الصداقة « يبدو انمن الغرابة بمكان انك وانا اضحينا في مستوى واحد نزور نفس المنزلة الاجتماعية ولنا نفس الصلات والارتباطات » •

وقلت لها لماذا ؟ أنا لا أكن احتراما كبيرا للصلات والارتباطات التي نوهت عنها قبل برهة وليست السيدة كولموندیلي ومن لف لفها بالتي تناسبني أو يناسبنني اطلاقا » وتساءلت بلهجة صريحة لا لبس فيها من الغرابة جعلتني أضحك أنا ايضا بدوري « من أنت أيتها الآنسة سناو ؟ لقد أسميت نفسك أول ما جئت الى هنا مربية أطفال في هذه الدار

وشاهدتك تحملين جورجيت طفلة المدام بيك ككل خادمة أو مربية أطفال والآن تظهرين شعورك بالتفوق والمدام بيك تعاملك بادب جم يفوق أدبها في التعامل مع الباريسية سنت بيير وتلك الفتاة الوقحة ابنة عمي اتخذت منك صديقة صميمة لها » ٠

وسررت بلهجتها التي ارادت أن تربكني بهـا ووافقتها بقولي لهـا « هذا مدهش ٠٠ من أنا في الحقيقة ؟! ربما كنت شخصية بارزة متخفيـة ومن المؤسف أن ذلك لا يناسبني » وقالت لي « استغرب من أن كل هذا لم يشبع غرورك وتأخذين كل هذا بهدوء ورباطة جاش وعدم اكتراث واذا كنت لا شيئا كما ظننتك ذات مرة اذن لست سوى باردة الاحساس وعديمة الاكتراث » ٠

وقلت لها وأنا شاعرة بان دمائي تفور نوعا ما دون أن يبـدو علي الغضب وحول عبارة لاشيء التيوصمتيني بها ذات مرة أقول لك مكررة٠٠ أية أهمية تعار لفتاة مدرسة تستخدم استخداما فظا عبارتي « لا احد ٠٠ ولا شيء » واكتفي بالقول انني أعامل بكل مكان معاملة اللطف والكياسة واسالك الآنأي شيء في الكياسة حظيت به بحيث حـــدت بك الى رميي بحمى الارتباك ٠

وقالت لي باصرار « ليس بوسعي سوى انأظهر الدهشة مما تقولين» فاجبتها قائلة « تندهشين من أعاجيب تلفيقاتك الخاصة ٠٠ هل أنت الآن جاهزة للذهاب اخيرا ؟ » فقـالت لي « نعـم ٠ دعيني أتشبث بذراعـك » فقلت لها « لا أرتضي ذلك بل نمشي جنبـــا الى جنب » وعندمـا تشبثت بذراعي رغم رفضي كانت دائما ترمي بكامل ثقلها علي وما دمت لم أكن احد الجنتلمانية أو احد عشاقها فقد استأت من ذلك ٠

وصاحت « أقول لك مرة أخرى انني بطلبي منك الامساك بذراعيك هو التغطية على ملابسك ومظهرك العام وعنيت بـه مجاملتك » فقلت لهـا هل هذا صحيح ؟ أردت أن تعبري عن أنـك لا تستحـــين من أن يروك في الشارع معي ؟ قد تكون السيدة كولموندیلي جالسة في النافذة وفي حضنهـا كلبها او الكولونيل دي هامال يخلل أسنانه وينظفها بعود في الشرفة يقـع نظره علينا ألن تخجلي من أن يشاهدوك معي ؟ » فقالت « نعـم » بتلك

الصراحة الخالصة التي تضفيها علي باكاذيبها التي كانت القوام الاوحد لشخصيتها •

وقابلت كلمة « نعم » التي قالتها برزانتي تلك الرزانة التي تعبر كما عبرت احاسيسي في النظرة التي صوبتها اليها وقالت لي ونحن نعبر الساحة الكبرى وندخل المتنزه الهادىء الجميل وهو أقرب طريق لنا الى « كريسي » أيتها المخلوقة الساخرة الهازئة لا احد في العالم عاملني معاملة فظة كالتي تعاملينني أنت بها » وقلت لها « أنت السبب دعيني وحدي • هدئي الجو فساتركك وحدك الآن • »

وقالت لي « وكيف لا ؟ وأنت غريبة الاطوار وغامضة الى هذا الحد؟» وقلت لها « ان الغموض وغرابة الاطوار من خصائصك أنت ومن مفهوم دماغك لا اكثر ولا أقل • تظاهري بالصلاح لكي أقوى على ابعار ذلك عن ناظري » وواصلت تقول وهي تزج بيدها عنوة وبالرغم مني تحت ضبني وهذا الضبن ضغط بقوة شديدة على جانبي غير مرحب بالمتطفلة عنوة « ولكن هل تعتبرين نفسك شيئا ما ؟ » وقلت لها « نعم •• أنا شخصية صاعدة • كنت في زمن ما وصيفة احدى العجائز ثم مربية اطفال والآن مدرسة » وقالت لي بلهجة الحاح « قولي لي من أنت ؟ لن أكرر هذا القول مرة أخرى » وراحت تهتصر الذراع الذي تمكنت منه الآن كل التمكن وتتملقني وتلاطفني وتدغدغني الى أن اضطررت للتوقف في المتنزه لاضحك •

واثناء مواصلة سيرنا تعمدت تغيير الموضوع بشكل بارع مبرهنة بسذاجتها العنيدة أو بمكرها على عجزها عن أن تستطيع تحويل أي شخص عن وضعية سلامته واعتداله وتكامله العقلي اذا كان غير مدعوم بولادته أو بثروته او باسم مدو شهير أو بصلاته الخاصة ابرموقة • وبالنسبة لي كان يكفي لعقلي المطمئن أن أكون معروفة حيث العرفان واجب ومطلوب والباقون دوني شانا سواء أكانوا من اصل ومحتد ونسب رفيع او ذوي مراكز اجتماعية أو ذوي تحصيل ثقافي عميق فهم في نفس المكانة التي تضعهم فيها مصالحي وافكاري فهم في الدرجة الثالثة من مصافي ومقامي •

لقد علمني زماني أن للعالم تقديره الخاص المغاير للتقديرات

الاخرى وليس من ريب عندي ان العالم محق تمـــام الاحقية في رأيه وفي اعتقادي أن آرائي ليست خاطئة . هنـــاك أشخاص يتـــدنى وضعهـم الاجتماعي اخلاقيـا ويفقدهـم قلة الانتماء او قـــلة الاتصال احترامهم لانفسهم أليس لمثل هؤلاء ما يبرر لهم وضع أعلى قيمهم على مراكزهم أو على اتصالاتهم التي هي الضمانة لهـــم من أن ينحط قدرهم أو يتـدنى مقامهـم ؟

اذا كان هنالك رجل يشعر بأنه سيصبح خسيســا ووضيعا وموضـع ازدراء في رأيه واعتقاده لمجرد ان أسلافه كانوا بسطاء او فقراء بدلا من أن يكونوا أغنياء وعمالا لا رأسماليين فهل يلومه احد اذا ما حـــاول أن يطمس هذه الحقائق ويحجبها عن العيون واذا ما ارتعدت فرائصه خـوفا من ان تعمل أية فرصة عـلى فضـح حقيقته ؟ كلما عشنا طويـلا وزادت تجاريبنا واتسعت قلت نزعتنا للحكم عـــلى أوضاع جيراننا وسلوكياتهم ومحاولة استطلاع حكمة العالم . وحيثما يوجـد تجمع أو تحشد مراكز دفاعية جديدة سواء كانت تحيط بفضيلة المحتشم او بالرجل الذي يحظى باحترام العالم فهناك تكون مطلوبة بالتاكيد .

لقد وصلنا الى فندي كريسي وكانت بولينا حاضرة ومستعدة ومعها السيدة بريتون وبحراستها وبحراسة المسيو دي باسومبيير اخذنا الى مكان التجمع واجلسنا في مقاعد مريحة لا تبعد عن منصة الخطابة كثيرا وأمامنا مقاعد المثقفين الاثينيين واعضاء المجلس البلدي وعمدة المدينـــة الذين خصصت لهم مقاعدالشرف واحتل الامراءالشباب ومدرسوهم الخصوصيون مواقع بارزة وازدحم الجـــزء المركزي الاساسي مـــن البنـاية واكتظ بالارستقراطيين وبوجهاء المدينة .

وفيما يتعلق بهوية البروفيسور الذي قد يلقي محاضرة فأنا لم أهتم بالموضوع ولم أحاول الاستفسار عنه وانطبع في ذهني توقـع غامض بأن عالما من هؤلاء العلماء سيقف على المنصة ويلقي خطابا رسميا نصفه ايمان جامد بالاثينيين ونصفه الآخر تملق للامراء . وعندما دخلنا كانت المنصة فارغة ولكن بعد عشر دقائق امتلأت . وبعـد لحظات ظهر رأس وصـدر وذراعان فوق الرحلة القرمزية .

ذلك الرأس لم أكن أجهله فلونه وشكله وتعبيره مالوفة لدي ومالوفة

لدى فانشاوي أيضا وأن اسوداد جمجمتــــه وســـعة حاجبيه وشحوبهما وازرقاق ناظريه واتقادهما كانت تفاصيل مستقرة في الذاكرة وهكــــذا منطبعة بزمالة غريبة الاطوار بحيث استثارت الضحك وفي الحقيقة ظللت اضحك الى آن حميت الدماء في عروقي ثــم حنيت رأسي ووضعت منديلي وانزلت خماري للتستر على ضحكي ·

وفي ظني أنني كنت مسرورة لرؤية المسيو بول فمن دواعي السرور آن يرى المسيو بول في مثل ذلك المكان بوجهه المقطب المسود البادية مخايل صراحته وجرأته وهيمنته وغلبته لاسيما عندما يكون واقفا على منصتــه في الصف · لقد كان ظهوره مفاجاة لم اكن أتوقعها رغم علمي بأنه يحمل كرسي الرئاسة في الادب والبلاغة في الكلية · ووجه كلامه للامراء والنبلاء والحكام والمواطنين بنفس السهولة والجدية والنبرة الشديدة وبدا لي آن المسيو بول كان يتحلى بروحية جديدة غير معروفة لدي ولا اريد الآن آن أتطرق الى المشاعر الوطنية التي عبر عنها بقوة وانفعال ·

ولا أظن أن الجمهور تأثر على وجه التعميم بحرارة مشاعره ونقاوتها ولكن بعض الشباب انفعلوا عند تطرقه بفصاحته الى مـــا ينبغي أن يكون طريقهم ومساعيهم لخدمة بلادهــم ولمستقبل اوربا وراحوا يصفقون لــه بحرارة ولمدة طويلة وبهدير من الهتافات فقد اعتبروه ـ رغم شراسته ـ بروفيسورهم المفضل وعندما همت جماعتنا بالانصراف ومغادرة القاعــة كان هو واقفا عندالمدخل فشاهدني وعرفني ورفع قبعته احتراما ومد يده عند العبور وقال لي « ما رأيك في هذا ؟ » وهو سؤال اعتبرته ذا خصوصية بـــارزة ·

وذكرني هذا السؤال حتى في هذه اللحظة ، لحظة ابتهاجه بالنصــر بقلقه المتسم بحب البحث وبالفضول وبانعدام مـــا أسميه بضبط النفس المرغوب فيه وهو من بين ما ينقصه ويعيبه · وما كان ينبغي عليه أن يهتم في ذلك الوقت عما فكر الآخرون به ·

حسنا !! لو أنني لمته في اندفاعه لمعرفة انطباعات الناس عنه فانني ينبغي أن أمدحه لبساطته وفي قلبي مديح جم كثير ولكن ـ مع الاسف ـ لم تصل الى شفتي ومن ذا الذي تأتيه الكلمات في اللحظة المطلوبة ؟ وتمتمت

ببعض التعابير الضعيفة العرجاء ولكنه استبشر كل الاستبشار عندما جاءه الناس يهنئونه بالتهاني الوفيرة وغطوا بذلك عجزي عن الاكثار .

جاء أحد الجنتلمانية ليقدمه للمسيو دي باسومبيير وللكونت الذي كان شاعرا بالامتنان الشديد منه لخطابه ودعاه الى تناول الغداء مع أصدقائه فيفندق كريسي واعتذر عن الحضور لانه كان يخجل من الاجتماع مع ذوي الثراء وكانت فيه القوة الاستقلالية في جملته العصبية ويشعر بالبهجة عندما يرى شخصا يقدر ما فيه من السجايا والمزايا واخيرا فضل الذهاب مع صديقه الاكاديمي الفرنسي (ايم . اي) عند حلول المساء .

وفي وقت عشاء ذلك اليوم بدت جنيفرا وبولينا - كلا بطريقتها الخاصة - جميلتين جدا فجنيفرا تتبجح بسحرها الجسماني أما بولينا فقد كانت تتألق بشكل بارز وبجاذبيتها الروحية وبنورانية عينيها وجمال ولطافة محياها الملأى بمختلف التعابير والمعاني . ان جنيفرا بردائها القرمزي أطلقت ضفائرها الخفيفة التي كانت تنسجم مع ازهارها ونضارتها الشبيهة بنضارة الزهرة .

ان ملابس بولينا البيضاء رغم نظافتها وأناقتها تحدو بالعين الى أن ترى بهجة الحياة في مظهرها وفي حيوية سيمائها ومحياها وبعمق عينيها الحنونتين اللطيفتين والظل الاسمر لشعرها الكث الوافر المتموج ، شعرها الادكن من شعر ابنة عمها السكسونية وكذلك حاجباها وأهدابها وقزحية عينيها واذا كانت الطبيعة قد رسمت كل هذه االتفاصيل بشكل مخفف وبيد عديمة العناية والاكتراث في فانشاوي فانها رسمتها في الآنسة دي باسومبيير بيد بارعة وأنهتها نهاية رائعة أيضا .

ولم تكن بولينا بالصامتة انما كانت تتحدث ببساطة وتواضع واستحياء وبحلاوة حقة تدخل في صميم مشاعر السامعين بحيث أن اباها كان يقطع حديثه اكثر من مرة ليصغي اليها وليركز عليها نظرة بمنتهى الفخر عندما كانت تكلم فرنسيا مثقفا ومؤدبا يجرها الى الحديث معه . وسحرني لغتها الفرنسية التي كانت تنطق بها دونما خطأ فالتركيب صحيح والاصطلاحات صحيحة واللهجة صحيحة وان جنيفرا التي امضت نصف حياتها على القارة لم تكن تقوى على التكلم بمثلها لا لان الكلمات

كانت تستعصي عليها بل لانها لم تكن تملك الدقة الحقيقية والنقاوة علما بأن الذي كان يسر الاب من لغة ابنته هو أنه كان دقيقا في معرفته باللغة ٠

وكان من بين الحاضرين المصغين الذين جاؤوا متأخرين لتناول العشاء بسبب مهنتهم هو الدكتور بريتون الذي راحت كلتـــا السيدتين تمعنان النظر به بهدوء حالما أخذ مقعده على المائدة وراحتا تختلسان النظر مرة اثر مرة وأن وصـــوله أثار الآنســـة فانشاوي التي كانـــت الى ذلك الوقت كسولة فاترة الهمة وما ان دخل الدكتور حتى اخذت تبتسم وبدا عليهـــا الرضى وراحت تتكلم ولكن اتسم كلامها بجرح المشاعر نوعا ما وبكونه لم يناسب الحالة السائدة آنذاك ٠

ان ثرثرتها التافهة المفككة غير المترابطة ربما كـــان غراهام يصغي اليها بارتياح وربما لا يزال يرتاح اليها حتى الآن وربما كان الخيال أو التخيل هو الذي جاءنا بالفكرة التالية وهي أنه بينما كانت عين الدكتور بريتون ملآى وأذنه مغذاة بالصوت فان ذوقه وتلذذه أو استمتاعه الشديد وعقله الناشط لم تكن قد استثيرت وان أخلاقه لم يبـــد عليها أي أثر للاستياء أو الغضب أو البرود وكانت جنيفرا بجواره ولم يركز انتباهـــه لسواها وبدا الارتياح عليها بحيث ذهبت الى غرفـــة الاستقبال بمعنوية قوية جدا ٠

وما ان بلغنا ذلك المكان الا وعادت الى فتورها فرمت بنفسها عـــلى المقعد ونددت بالمحادثات والمحاضرات والعشـــاء واعتبرتها أشيـــاء سخيفة وسألت ابنة عمها كيف تتحمل تلك المجموعة العادية المملة التي جمعهـــا أبوها حوله وما ان سمعت خطوات الجنتلمانية حتى كفت عن شكواهـــا واحتجاجها ويممت صوب البيانو وراحت تعزف عليه٠ وكان أول الداخلين الدكتور بريتون وأخذ موقعه بجانبها وظننت انه لن يبقى في مكانه طويلا وان هناك مقعدا بجانب الموقد سيلجأ اليه وكان يكتفي بأمعان النظر اليه وفي ذلك الوقت جاء آخرون ٠

ان جمال بولينا ومزاجها وعقلها سحر اولئـــك المفكرين الفرنسيين وأن روعة جمالها ولطف شمائلها ولباقتها الفطرية الحقيقية ــ رغم عدم نضوجها ــ واءمت أذواقهم القوميـــة فتجمهروا حواليهـــا لا لكي يتحدثوا بالعلوم وهو ما يجعلها بكماء خرساء فيها وانما ليتكلموا في مواضيع أخرى

كالآداب والفنون والحياة الواقعية وهو ما لها فيها ذخيرة مما قرأته ومما تتذكره واصغيت وكنت موقنة بأن سمعه ونظره كانتا جيدين وسريعين جدا وقادرين على التمييز وعرفت بأنه جمع ما دار من الاحاديث وشعرت بأن الطريقة التي اتبعها ناسبته كثيرا وسرته الى حد الاثارة ٠

وكان في بولينا قوى مزيجة من الاحاسيس والاخلاق اكثر مما كان يتصور معظم الناس واكثر مما كان غراهام يتصور واكثر مما كانت تظهره هي لاولئك الذين لا يودون مشاهدتها واذا توخينا الصدق أيها الشعراء لا يوجد جمال بديع أو حسن رائع مكتمل ولا صفاء ودماثة موثوق بها بدون قوة رائعة مكتملة موثوق بها ٠ ان نشدانك فاكهة جيدة وزهرات الشجرة المثمرة في شجرة لا جذع فيها وفي شجرة فاقدة الحيوية هو كنشدانك سحرا في طبيعة واهنة وقد يزدهر المظهر الخارجي للجمال حول الضعف ولكنه لا يتحمل التصويح او الاصابة بآفة وسرعان ما يذوى حتى وسط أشعة الشمس السنية وبينما كان الدكتور بريتون يصغي وينتظر انفتاح الدائرة السحرية كانت نظراته تلف ـ بقلق ـ أرجاء الغرفة في بعض الفترات وبالصدفة وقعت علي وأنا جالسة في زاوية منعزلة غير بعيدة عن عرابتي وعن المسيو دي باسومبيير اللذين كانا يتحدثان محادثة الند للند وابتسم غراهام بعد أن عرفني وعبر الغرفة وسألني كيف حالك ؟ وقال لي انني أبدو شاحبة الوجه وانا ايضا ظهرت الابتسامة على وجهي علما بأن الدكتور جون لم يكلمني منذ ثلاثة أشهر تقريبا وهي مدة حتى أنه لم يشعر بها كما ظهر وجلس ولازم الصمت وكانت رغبته الظاهرة هي النظر دون المحاورة وكانت جنيفرا وبولينا مقابلتين له الآن وكان ينظر بملء رغبته واستعرض كلا الشكلين ودرس كلا الوجهين ٠

ودخل الغرفة عدة ضيوف جدد من نساء ورجال منذ تناول العشاء واخذوا وأخذنا في تبادل الحديث وشاهدت سيدا سبق أن عرفته وهو يحوم في المجاز الضيق من الصالون الداخلي هو المسيو عمانوئيل الذي كان قد عرف الكثيرين من السادة الحضور ولكنه ـ على ما أعلم كان لا يعرف السيدات فبعضهن غريبات عنه باستثنائي وعندما كان ينظر صوب المقعد وقع نظره علي وبدرت منه بادرة من يهم بالدنو مني ولكن عندما شاهد الدكتور بريتون عدل عن رغبته وتراجع ٠

ولو كان هذا فحسب لهان الامر ولما كان هنالك موجب للشجار فهو لم يقنع بالرجوع الى الخلف وانما جعد وغض حاجبيه وزم ما بين شفتيه ونظر الي بقرف وقبح بحيث لم أجد بدا من أن اشيح بوجهي عن هذا المزعج ووصل المسيو جوزيف عمانوئيل شقيق الصارم المتزمت فابعد جنيفرا عن البيانو فيالتلك اللمسة الاستاذية التي استخلفت عزف التلميذة ويا لتلك الاداة التي عبرت بالامتنان الكبير عن شكرها لانامل الفنان الحقيقي ٠

وبادرني الدكتور جون بريتون بالكلام وهو يبتسم عندما مرت من امامه جنيفرا تتهادى في مشيتها بعد ان القت نظرة الينا اثر مرورها « يا لوسي ٠٠ في الحقيقة ان الآنسة فانشاوي فتاة بديعة » وقلت له بشكل مصدق ومؤيد « طبعا !! » وقال « هل يوجد في الغرفة من يضاهيها جمالا؟ » وقلت له « لا أظن أن هنا من يضاهيها جمالا » وقال لي « أوافقك يا لوسي فانت وأنا غالبا ما نتفق في الرأي أو في الذوق أو في الحكم في أقل تقدير » وقلت له بلهجة الشك نوعا ما « أصحيح هذا ؟ » وقال لي أراني معتقدا يا لوسي بأنك لو كنت ولدا بدلا من فتاة وابنا بالمعمودية لامي بدلا من ابنة بالمعمودية لاصبحنا صديقين رائعين ولذابت واندمجت آراؤنا بعضها ببعض » ٠

لقد انتحل أو اتخذ له جوا مازحا والتمعت ومضة منحرفة بمزيج من اللطافة والسخرية ٠٠ أواه ٠٠ يا غراهام ٠٠ لقد خصصت اكثر من لحظات وحدانية انعزالية للافكار وللحسبانات ذات العلاقة بتقديرك لوسي سناو فهل كانت كلها دائما لطفا أم عدلا ؟ ولو كانت لوسي في جوهرها الشيء ذاته ولو كان لها منافع اضافية من الثروة او المركز الاجتماعي فهل كان موقفك منها وتقييمك اياها فعلا كموقفك وتقييمك الحالي ؟

ومع ذلك لست بهذه الاسئلة ألوم نفسي بشكل جدي ٠٠ كلا ٠٠ انت قد تحزنني أو تقلقني أو تبعث في نفسي الاضطراب احيانا ولكن أعلم أن حزني سريع الزوال ومزاجي سريع التمرد وسهل التشويش لقد حدث كما لو أن غيمة عبرت الشمس وربما أمام عين عدالة قاسية وفظة وعلي أنا يقع اللوم اكثر مما يقع عليك وقلت وأنا أحاول أن أخمد وقع الالم الذي

يكرس حبه وولاءه للآخرين بشكل جدي أكثر وباهتمام رجولي أكثر فانه لا يكن للوسي سوى المزحة الخفيفة وقلت له متسائلة بهدوء :

« بأية نقاط نشترك أنا وأنت بالاتفاق عليها ؟ » وقال لي « نكلينا قوة ملاحظة ولكنك ربما لا تقرين لي بأنني أملك هـــذه القــوة ولكنني أملكها فعلا » وقلت له « ولكنك تحدثت عن الاذواق المتقاربة المتشابهة في حين أننا عندما نرى نفس الاشياء نقدرها تقديرا مغـايرا ومختلفا !! » وقال لي « لنأت ونوصل الموضوع الى التجربة ‥ طبعا ٠ لا يسعك سوى أن تنظري الى فضائل الآنسة فانشاوي بعينالتقدير والثناء والآن ما رأيك في الآخرين الموجودين في هذه الغرفة ؟ أمي مثلا أو السيدين « اي»و« ز » او لنقل هذه السيدة الصغيرة الشاحبة الوجـــه الآنسة دي باسومبيير ؟ » وقلت له « أنت تعرف رأيي بوالدتك أما السيدان « ز » و « اي » فــلا اعرف عنهما شيئا » وقال لي « وما رأيك بالاخرى ؟ » فقلت له « أظن أن الاخرى تعني بها السيدة الصغيرة الشاحبة الوجه ٠ طبعا انها شاحبـــة ولكن شحوبها مؤقت لانها مجهدة من فرط الاهتياج والانفعال » ٠

وقال لي « ألا تذكرينها عندما كانت طفـــلة ؟ » فقلت له « احيانا يعتريني العجب مما اذا كنت أنت لا تتذكرها ؟ » ‥ وقال لي « لقـــد نسيتها ولكن الملحوظ أن الظروف والاشخاص وحتى الكلمات والنظرات التي انسلت من ذاكرتك قد تحيا وتنبعث وفـــق بعض ظروف وأوجـه ذاكرتك ووفق ظروف وواجهة ذاكرة شخص آخر » وقلت له « هذا ممكن تماما » وواصل كلامه قائلا « نعم ‥ الانبعاث ناقص يحتاج الى توكيـد يقاسمك الكثير من خصوصية الحلم الغامض المعتم أو الصورة الذهنيـــة المرحة بحيث أن شهادة شاهد تصبح ضرورية للتأييد ألم تكوني أنت ضيفة قبل عشرة أعوام عندما جاء المستر هوم بطفلته الصغيرة التي كنــا نسميها « بولي الصغيرة لتسكن مع ماما ؟ » وقلت له « كنت هنــاك عشية جاءوا بها وصبيحة مغادرتها » ٠

وقال لي « كانت طفلة متميزة وغريبة الاطوار ألم تكن كذلك ؟ ولا أدري كيف كنت أعاملها ٠ هل كنت مولعا بالاطفال في تلك الايام ؟ هـــل كانت بي سمات لطف وكياسة أنا الـــذي كنـــت تلميذا طائشا ؟ انك لا تتذكرينني طبعا ؟ » وقلت له « لقد شاهدت صورتك في بيت « الشرفة»

فهي تشبهك تماما أما في الاخلاق والتصرفات فقد كنت في الامس صورة مشابهة لليوم » وقال لي « ولكن يا لوسي كيف ؟ أن جوابك هذا يشير فضولي حقا فكيف كنت في امسي قبل عشرة أعوام ؟ » .

وأجبته قائلة « كنت كريما ولطيفا مع اي شيء يسرك وغير لطيف أو قاسيا بلا مبرر وللاشيء » وقال لي « أظنك على خطأ .. ربما كنت قاسيا أو غير مهذب معك مثلا » وقلت له « قاسيا أو غير مهذب نحوي ؟ كلا يا غراهام .. ما كنت لاتحمل ذلك من احد »وقال لي « هذا ما اتذكره.. لوسي سناو الهادئة لم تذق شيئا من لطفي » وقلت له « ولا القليل من قسوتك » وقال لي « لماذا ؟ هل كنت كنيرون الظالم ما كنت أظن أنني عذبت شخصا مسالما مسالمة الظل مثلك مثلا » .

وابتسمت وكبحت تنهدة أيضا وقلت لنفسي .. أواه .. لو انه تركني لوحدي وكف عن التحدث عني والتلميح عن هذه النعوت وهذه الخصوصيات مثل .. لوسي سناو الهادئة ـ .. الظل المسالم ورددت عليه بلا استخفاف ولا استهزاء ولكن بمنتهى التبرم والسأم . وكان هو بموقف نفسي بارد يتسم بضغط المبادرة الكلامية وكنت أنا ارجو مع نفسي الا يرهقني بثقل حديثه ولحسن الحظ انتقل الى موضوع آخر وسألني :

« كيف كانت علاقاتنا أنا وبولي الصغيرة ؟ وان لم تخني ذاكرتي فاننا لم نكن اعداء » فقلت له « أنت تحدثني بمنتهى الغموض .. هل تظن ان ذاكرة بولي الصغيرة ليست اكثر وضوحا وتحديدا ؟ » وقال لي « اننا لا نتكلم عن « بولي الصغيرة » الآن . أنا أعني الآنسة دي باسومبيير الا ترين أن هذه الشخصية الجليلة لا تتذكر شيئا عن بريتون ؟ انظري الى عينيها الواسعتين يالوسي !! هل تقرئين كلمة من كلمات صفحة الذكريات ؟ هل هما نفس العينين اللتين كنت أريهما صور كتاب القراءة الابتدائي ؟ انها لا تعرف أنني علمتها القراءة نوعا ما ! » وقلت له « كتاب الانجيل ليالي الآحاد ؟ » .

وقال لي « انها الآن تملك وجها هادئا جميلا ورائعا في حين كان وجهها في طفولتها قلقا نوعا ما .. هل تصدقين ؟ هذه السيدة كانت في طفولتها متولعة بي ! » وقلت له بتواضع ولهجة معتدلة « كانت نوعا ما

متولعة بك » وقال لي « انت اذن لا تتذكرين جيـــدا ٠٠ كنت في بادىء الامر قد نسيت والآن اراني أتذكر ٠٠ كانت تحبني وتفضلني على كـــل ما كان موجودا في بريتون » وقلت له « أترى ذلك ؟ » ٠

وقال لي انني اتذكر ذلك كل التذكر وبودي لو فاتحتها بكل مايتراءى لي من الذكريات أو أفضل أن يقوم شخص آخر مثلك أنت مثلا بالذهاب واعلامها بذلك همسا وسافرح بذلك وانا جالس هنا اراقب نظرتها سرا ٠٠ هل تستطيعين أن تفعلي ذلك ؟ اشكرك يا لوسي وسأكون ممتنا جدا منك ٠٠ » وقلت له « هل أستطيع أن أعمل شيئا يجعلك ممتنا دائما مني؟ كلا ٠٠ لا استطيع ذلك » ٠

وشعرت بأن اصابعي تتململ وتتحرك وبيدي تتشابكان كما شعرت أيضا بشجاعة داخلية واتقاد ومقاومة ففي هذا الموضوع لم أكن أقوى على ارضاء الدكتور جون وادخال السرور الى قلبه ٠٠ أبدا !! وبقوى ترحابية آنية أدركت أنه لا يفهم ابدا خليقتي وطبيعتي فهو يريد دائما أن ينيط بي دورا هو ليس دوري ، والطبيعة وأنا نقاومه في ذلك ٠ انه لم يكـن يتحسس ابدا بما أنا شاعرة به ولم يقرأ ما في عيني أو وجهي أو ملامحي في حين أنني لا اشك قط أن كل هذه تتكلم عما هو موجود في سريرتي وما كان منه سوى أن يميل برأسه الي ويقـــول لي بلطـف « الا تطمنيني وتريحين بالي يا لوسي ؟ » ٠

وكان بودي ان اطمنه أو في الاقل أن انوره واعلمه بوضوح الا يتوقع مني الدور الرسمي للخادمة « سوبريه » التي كانت تقوم بدور الوساطة بين عشيقين وعندما سمعت تخفيض نبرة شـــكواه المقاربـة للالتماس والتوسل ٠٠ « ألا تطمنيني وتريحين بالي يا لوسي ؟ » أحسست بهسهسة مستهجنة تشق سمعي من الجهة الاخرى » وعلى حين غرة فح في وجهي فحيح كفحيح الافعى العاصرة قائلا لي « أيتها القطة العابثة المتغنجـة ان لديك نفسية خنوعة حزينة وحالمة ولكنك لست كذلك أقول لك انك متوحشـة بهذا القلب المتوقد وبعينيك الحادتين دلائل البرق الراعد » هذا ما قالـه لي المسيو عما نوئيل في السابق ٠

وقلت له « نعم أن قلبي يتوقد وانا غاضبة ولي ما يحدوني الى ذلك» غير أن البروفيسور عما نوئيل فح عبارته المهينة هذه بوجهي وولى والانكى

من ذلك أن الدكتور جون صرخ قائلا بعد ان سمع كل كلمة قالها وبعدأن وضع المنديل على وجهه ليضحك ملء شدقيه « أحسنت صنعا يا لوسي أيتها القطة الصغيرة المتغنجة سأخبر أمي بذلك هل ما لاحظته عليك يا لوسي صحيح أم نصف صحيح ‥ لقد اصبح لونك احمر من الغضب كلون فانشاوي عندما تغضب ٠ لقد شاهدته الآن وبشرفي أنه ذلك الرجل المتوحش الذي أبدى وحشيته حيالك عندما كنت معي في المرقص ‥ لقد اشتد جنونه الآن بعد ان شاهدني أضحك وسأستثيره وازعجه » وظل غراهام مصرا على ميلانه لالحاق الاذى به يضحك ويضحك ويسخر ويتهامس معي الى أن لم أعد أطيق الاحتمال فطفرت الدموع من عيني ٠

وفي الحال ارعوى وصحا على نفسه وهنا حصل فراغ في المكان الذي كانت تجلس فيه الآنسة دي باسومبيير بعد أن شارفت الدائرة التي كانت حواليها على الانحلال وهذه الحركة أحس بها غراهام ولقفتهاعينه في الحال حتى في الوقت الذي كان يضحك فيه فنهض وتشجع تماما وعبر الغرفة وأخذ مقعده هناك ٠ لقد كان الدكتور جون محظوظا طيلة حياته يحظى بالنجاح دائما فلماذا؟! كان ذا عين تلتقط فرصتها التقاطا وتغتنمها وذا قلب متأهب للعمل في الوقت المناسب وذا أعصاب تكفي لانجاز العمل انجازا تاما ولا قوة تدفعه للخلف مهما كانت ٠ ولا نقاط ضعف تعترض طريقه ٠

ما اجمل ذلك المنظر الذي بدا عليه في تلك اللحظة عندما نظرت بولينا لتجده الى جانبها ولتلتقي نظرتها في الحال بنظرته المقابلة المفعمة بالحيوية واصبح لون وجهه وهو يكلمها ، مزيجا بين الاحمرار من الخجل وبين التوهج من الانفعال وجلس الى جانبها بشجاعة وخجل خانعا وبلا فضول ولكنه عازم في مقصده وموال لحماسته ٠ لقد جمعت كل هذه المعلومات بلحظة واحدة ولم أطل ملاحظتي لان الوقت خذلني فقدتأخرت وينبغي ان أكون أنا وجنيفرا في شارع فوسيت فنهضت وودعت عرابتي والمسيو دي باسومبيير ٠

ولا أدري ما اذا كان البروفيسور عما نوئيل قد لاحظ عدمموافقتي على ما بدر من الدكتور جون أو لاحظ تألمي من ذلك او لاحظ أن تلك الامسية لم تكن متعة عارمة للآنسة لوسي كما كان يتهمني به ولكنعندما

كنت على وشك مغادرة الغرفة تقدم نحوي البروفيسور وسالني ماذا كان هنالك أحد يريد ان يوصلني آلى « فوسيت » ولكن في هـــذه المرة سالني بتأدب وحتى باحترام وبان على وجهه الندم وكمن يهم بالاعتذار ٠

ولم اعترف بأدبه اذا كان مجرد كلمات كما أنني من الناحيةالاخرى لم اقابل ندمه بنسيان فظاظته السابقة واكتفيت بالاجابة على سؤاله بهذه الكلمات « معي من سيرافقني » وهو ما صدقت به لانني وجنيفرا ذاهبتان في عربة أرسلت الينا لاخذنا الى المدرسة وانحنيت له بالشكل الذييناسبه كما لو كنا في المدرسة ٠ وكما يفضلها هو عندما يكون في منصته وتمـر به التلميذات محييات ٠ وبعدما جئت بشالي عدت الى مجــاز الردهة ٠ وكان المسيو عما نوئيل واقفا هناك ينتظر ولاحظ بأن الليلة رائقـــة وتفوه بذلك وهو ينظر اليوآجبته بلهجة هادئة حذرة « هل هي كذلك ؟» وقلما كان شاني أن اتظاهر بالبرود والتحفظ حين يصيبني أذى أو يحل بي آسى ولم يكن المسيو بول بالذي يهضم فعل هـــذا البرود والجفاف في اللهجة الا انه تجرع الجرعة ساكتا ونظر الى شالي واعترض على لونـــه الخفيف الشفاف وقلت له بتعمد انه غامق بالشكل الذي أريده وملت بكل اباء الى درابزين السلم وطويت شالي علي ٠

وتباطات جنيفرا في المجيء وعندما جاءت بدا عليها التعب وكـــان المسيو بول لا يزال هناك وتوقعت أذني من شفتيه نبرة غضب وتقرب منا اكثر وقلت لنفسي هل جاء لهسهسة ازدرائية وتحقيرية آخـرى يا ترى ؟ ولم يحدث ما توقعته بل تحدث المسيو بول بوداعة قائلا « أيتها الصديقتان لا تتشاجرا من اجل كلمة أخبراني هـــل أنا أم ذلك الغندور الانكليزي المتانق (ويقصد به الدكتور بريتون) هو الذي جعل الدموع تنحدر مـــن عيونكما وجعل خدودكما حارة متقدة كما هي عليه الآن ؟» وكان جوابي له « لست مرتبكة ولا خجلة منك أيها السيد ولا من أي واحد اثار مثـــل هذه المشاعر التي تتحدث عنها وفي غضي النظر عن كل ما حدث أكون قـــد تخطيت ما جبلت نفسي عليه اعتياديا وارتكبت خطأ صريحا » ٠

وقال لي « ولكنني ماذا فعلت ؟ قولي لي ٠٠ كنت غاضبة ولا ادري ما يدر مني من اخطاء فما هي أخطائي ؟ » وقلت له وأنا ملازمة هـــدوئي

التام « أخطاء كالتي أرى أن من الأفضل نسيانها » وقال لي « اذن كانت كلماتي هي التي آذتك وجرحتك اعتبريها غير مقولة واقبلي تراجعي واعتذاري » وقلت له « لست غاضبة أيها السيد » وقال لي « اذن انت حزينة وآسفة فسامحيني أيتها الآنسة لوسي » .

وقلت له « اسامحك أيها السيد عمانوئيل » وقال لي « لنسمع منك هذا بصوتك الطبيعي وليس بهذه النبرة الغريبة » وحملني بجوابه هذا على الضحك ومن ذا لا يضحك بسبب ظرافته وبساطته وجديته ؟ وابتسم المسيو بول ولو شاهدته أيها القارىء العزيز وهو يبتسم لعرفت الفارق الملحوظ بين محياه الآن وبين محياه قبل نصف ساعة ومن المؤكد أنني لم أشاهده يبتسم مثل هذه الابتسامة المعبرة عن المرح والرضى واللطف لا بين شفتيه ولا في عينيه فابتساماته السابقة كانت دائما تخفي السخرية والهزء والازدراء وأخذني المسيو بول الى العربة وبنفس اللحظة جاء المسيو دي باسومبيير بابنة أخيه .

وكانت فانشاوي في حالة نفسية ليست على ما يرام علما بأن فشلا ذريعا لحق بها في تلك الليلة أودى بها الى حالة ـ لم يكن لها به من عهد ـ من الكآبة هاجمتها حالما جلست داخل العربة وأغلق بابها أن طعنها بالدكتور بريتون وذمها له كان مليئا بالسموم فبعد أن عجزت عن اغوائه وايذائه بسحرها لم يبق لها سوى أن تكرهه وعبرت عن كراهيتها بعبارات وابعاد لا يمكن أن تقاس ولا حد لها اتصفت بالفظاعة بحيث أنني بعد أصغائي لاقوالها بروح رواقية أخذ احساسي بالاستقامة والانصاف ينتقد انتقادا في الحال وحرقت الارم غضبا وبدأ الانفجار .. انفجاري .

ذلك أن بوسعي أن انفعل أنا أيضا ولا سيما مع زميلتي الجميلة الحالية ذات النقائص والعيوب التي لم تأل جهدا في الصاق اسوأ الوصمات بي ، وكان حسنا أن عجلات العربة كانت تحدث قعقعة صاخبة على رصيف « جوسفيل » الصواني وقررت مهاجمة جنيفرا بعد أن استفحل ثورانها وهيجانها منذ دخولنا العربة وكان من الضروري ترويضها قبل أن نصل الى شارع فوسيت .

والى هنا اقتضاني الامر ـ ولم أر غنى عن ـ ابراز قيمتها الحقيقية وفحولتها واجدابها في تعنيفي لها ومهاجمتي اياها وذلك كان بمثابـــة التأديب الحقيقي الذي تستأهله وأنا متأكدة تماما أنها ذهبت الى فراشهـا ونامت نوما أروح من نومها السابق بسبب استقرار ذهنها وهدوء مزاجها بعد الذي تلقته مني من هزيمة معنوية منكرة ٠

الفصـــل الثـــامن والعشــرون

ـ سـلسلة سـاعة الجيـب ـ

للمسيو بول عما نوئيل حس حاد من جراء أي انقطاع يحدث نتيجة أي سبب من الاسباب أثناء تقديم دروسه ويكون لدخول شخص ما الصف تحت مثل هذه الظروف سواء من المدرسين أو التلميذات فرادى وجماعات قيمة وأهمية كأهمية وقيمة حياة المرأة أو حياة الفتاة • وحتى المدام بيك اذا كان عليها ان تدخل الصف تلتزم جانب الحذر الزائد عند مرورها من منصة غرفة الصف الكبيرة الحجم كالباخرة التي تخشى طريق الصخور الذي يفجرها •

وبالنسبة لروزين الخادمة والبوابة التي تقوم في كل نصف ساعة بمهمة التجسس المخيفة على التلميذات اللواتي يذهبن خلسة الى فرع آخر لتلقي دروس الموسيقى أو فن الخطابة في صالون الخطابة الكبير أو الصغير أو حيث موضع البيانو تصبح هذه الخادمة عند المحاولة الثالثة معقودة اللسان أحيانا من الرعب الزائد وهو شعور توجيه نظرات لا يمكن وصفها توجه اليها بمنتهى الغضب من قبل المسيو بول •

وفي صباح أحد الايام كنت جالسة في أريكة مربعة أقوم بعمل تطريزي لاحدى التلميذات التي لم تستطع تكميله فتأخرت عن التلميذات الآخريات واذا باذني تستمعان بالسماع الى صوت ايقاعي يرن في الصف المجاور ويتزايد رنينه وتزداد قوته شموليا وتنوعيا وكان هنالك حائط قوي فاصل بيني وبين الزوبعة المتجمعة ووسيلة هينة للفرار من الباب الزجاجي الى الساحة اذا كانت ستهب من هذا الطريق •

واخشى أن أكون قد استمديت من البهجة اكثر مما استمديت من

التحذير من تلك الدلائل الكثيرة ولم تأمن روزين المسكينة على نفسها فقد اجتازت في ذلك الصباح المبارك الممر الخطر . والان للمـرة الخامسـة أضحت وظيفتها الخطيرة هي الامساك بتلميذة تحت سـمع الميـيو بول وبصره وصاحت روزين ... « يا الهي .. يا الهي .. ما الذي سيحل بي سيقتلني المسيو .. أنا متأكدة من ذلك لانه سستشيط غيظـا وحنقا وفتحت الباب مدفوعة بشجاعة قانطة وقالت لي قبل أن تتراجع :ـ

اعتبارا من هذه اللحظة ممنوع دخول الصف واول من يفتح هـــذا الباب أو يمر من هذا القاطع سيشنق حتى وان كانت المدام بيك نفسها ، ولم تمر عشر دقائق على الغاء هذا المرسوم حتى سمع صوت الخف الفرنسي لروزين في الممر وقالت لي « أيتها الآنسة لن أدخل الآن من أجل خمســة قطع من الفرنكات هذا الصف . ان نظارتي المسيو ترعبني حقا وهنـا ممثل قادم من كلية « أثينية » وبيده رسالة وقلت للمدام بيك انني لـم أسلمها خوفا فقالت لي سلميها للانسة لوسي » .

وقلت لها متسائلة « لي أنا؟!هذا شيء لا يطاق وليس ضمن اختصاص وظيفتي .. تعالي .. تعالي .. ياروزين وتحملي عبئك وكوني شجاعة . حاولي مرة اخرى .. » وقالت لي « هذا مستحيل يا آنسة . لقـــد عبرت الصف اليــــه خمس مرات في هذا اليــوم وعـلى المدام أن تستأجر دركيا أو شرطيا ليقوم بخدمته آه يا عزيزتي ليس بوسعي أن افعل هـــــذا مرة أخـرى » .

وقلت لها بلهجة تبرم وانزعاج « انك لجبانة ماهي الرسالة ؟ »وقالت لي أنها من النوع الذي لا يريد المسيو بول أن يزعج نفسه بها وهي دعـوة للذهاب مباشرة الى كلية « أثينيه » حيث جاء زائر رسمي .. ربما هـــو المفتش على آن يستقبله المسيو بول وأنت تعرفين كم يكره مثل هذه المهمة».

وقلت لها أعرف هذا جيدا فهذا الرجل القميء المتضجر المتبرم يتملص ويتبرم بكل شيء آني أو الزامي ومن المؤكـد ستثور ثائرته ومع ذلك قبلت القيام بهذه المسؤولية وان كنت اتوقع مالا يرضيني منـــه وتمازج خوفي مع المشاعر الاخرى ومـن جملتهـــا الفضول ففتحت الباب ودخلت وأوصدته بمنتهى السرعة والهدوء الذي تسمح به اليد المقلقة غير الثابتة

اذ ان اي تباطؤ أو استعجال صاخب أو رنين المزلاج أو ترك الباب مفتوحا تعتبر بمثابة جريمة غالبا ما تكون أسوأ من ارتكاب الجريمة ذاتها ٠

ووقفت هناك ثم جلست ولاحظت أن مزاجه سيء للغاية فقد كان يعطي درسا بالرياضيات لانه كان يعطي دروسا باي موضوع كان ما عدا الرياضيات الذي كان جافا وغالبا ما يكرهه ولا يريد اعطاء الدرس به وما كانت هنالك تلميذة الا ويعتريها الخوف عندما يتحدث عن الارقام فقد جلس ووجهه مائل على الرحلة ليلتفت الى مصدر صوت الداخل في وقت حصول ثغرة مباشرة في ارادته وفي القانون ٠

وغنمت مزيدا من الوقت للمشي داخل الصف الطويل ولائم ذلك خصوصيتي وحساسيتي كل الملاءمة لمقاومة الانفجار الغاضب الثاني مثل هذا وهو أقل وطأة من انفجار غضبه وأنا بعيدة عنه وتوقفت عند منصته أمامه تماما ولم أكن أستحق منه الاهتمام بي وبما جئت من أجله فاستمر في اعطاء دروسه ٠ ان الازدراء لم يكن يجدي أو يفيده بشيء لانه ينبغي أن يسمع مني ويجيبني على ما جئت به اليه ٠

ولانني لم أكن طويلة بالقدر الكافي الذي يؤهلني الى أن أرفع رأسي فوق رحلته أو أصل الى منصته جازت في النظر الى ما حولي لكي يتسنى لي أولا أن ألقي نظرة أفضل على وجهه وهو ما فاجأني ببلوى محتملة عندما دخلت وانا شبيهة تمام الشبه بنمر اسود وتمتعت مرتين بهذا المنظر الجانبي وأخذت أتقدم الى أمام وارجع الى خلف دون أن يشاهدني ٠

وفي المرة الثالثة تلتفتني وصعقتني نظارتاه وحق ما قالته روزين اذ يبان في نظارتيه رعب مربك كما لو انه ثابت لايزول دون مستوى الرعب الصادر عن آخر ليس له نظارتان ٠ واهتديت آنذاك الى فائدة التقاربية وجعلت نظارتي المفتش عقيمة بلا جدوى فنزعمها عن عينيه ووقفت أمامه وقفة الند للند وشعرت بالسرور لانني لم أخشاه كثيرا ولم أشعر بأي فزع منه وبادرني بالسؤال التالي « ٠٠٠ ماذا تريدين مني ؟ » ٠٠ وهو يهدر ويتذمر واسنانه مصطكة بحيث يوحي للسامع بان لا شيء في الارض يستطيع ان ينتزع منه ابتسامة واجبته بلهجة لا يتسنى مصالحتها « أريد الاشياء المستحيلة غير المسموع بها من قبل » ٠

وكان في نيتي الا أتصنع أو اتكلف في هـــذه المواضيع بل أن أدير المفاجأة بروحية عازمة وبصوت واطيء وسريع أبلغت المسيو بول بالنبـأ الوارد من معهد « أثينيه » وبالغت في أهميته وعجالته القصوى . وبالطبع لم يسمع آية كلمة عن النبأ وقال انه لن يذهب ولن يترك صفه ولو طالبه بذلك كل موظفي « فيليت » الرسميين ولن يخطو قاب انج واحد ولو بطلب من الملك والوزارة والهيئة التشريعية والقضائية .

وعرفت ـ مع كل ذلك ـ أن عليه أن يذهب وان محادثته التي هـي واجب من واجباته ومصلحة من مصالحه لابد أن ينجم عنها اتفاق ومطاوعة مع المستدعين ووقفت صامتة انتظر ما سيقوله لانـــه حتى ذلك الوقت لم يحر جوابا ثم سألني ماذا تريدين مني أكثر ؟ وقلت له « لا أنتظر ســوى جواب المسيو لكي نعطيه الى المبعوث » ولوح سلبا وبنفاذ الصبر .

وتجرأت فمددت يدي ملوحة للسيدة المتكئة على عتبة النافذة وتابع حركتي الجريئة بعينيه بعطف ممزوج بالدهشة لوقاحته وتمتم قائلا « اذا وصل الامر لهذا الحد .. اذا كانت الآنسة لوسي تتوسط عن الخادمـــة فعليها أن تضع الامر على عاتقها وتتولاه بنفسهـا وتتكـرم بالذهاب الى معهد « أثينييه » عوضا عنه » وقال « سأكتب ملاحظة اعتذارية وهـــذا يكفي » وبدا عليه أنه يراوغ للتملص . وبينما كنت اسلمـــه القلنسوة علقت شرابتها باطار عويناته الفولاذي الخفيـــف فسقطت من عينيـــه واصبحت مزقا ونثارة على أرض المنصة وكنت عشرات المرات أشاهـــد سقوطها من عينيه دون أن يحدث لها مكروه أما الآن فلسوء حظي لم يبـق من بلورها الصغري سوى أنجم دقيقة لا شكل لها .

وسيطر علي الخوف حقا .. خوف ممزوج بالاسف لانني كنت أدرى بعظيم قيمتها لديه فقد كان نظره لاتفيده الا نظارة كالتي انكسرت وتلك الزجاجات كانت توائم عينيه وعندما لمتها بيـــدي وهي كسر وشظايا صغيرة اخذت أرتجف واستحوذ الخوف على كل اعصابي لسوء ما حصـــل بسببي وكنت أعلم ان أسفي كان أبلغ من خوفي ولبعض اللحظات لم أجرأ على النظر الى وجه البروفيسور المحروم من نظارتيه وكان هـــو البادىء بالكلام حين قال :

الآن اصبحت أرملا من نظارتي ورفعت عيني وبدلا من ان اشاهد على وجهه مظاهر الغضب والتقطيب والتغضين العسيق شاهدت الابتسامة تطفو عليه وآثار الانشراح بادية كالتي بدت عليه في فندق كريسي ولم يغضب ولم يحزن وعن الضرر الخطير الذي لحق به واظهر محيا مليئا بالرأفة والاعتدال ووقفت حياله كمسيئة منسحقة الفؤاد وهاجمني هجوما خفيفا بقوله « امرأة قوية وانكليزية مخيفة كسارة كل شيء » ٠

وصرح قائلا بانه لا معدى له سوى ان يخضع لواحدة ابدت مثل هذه الشجاعة الخطرة ويطيعها فيما جاءت من أجله ثم أخذ مني كسور عويناته وصافحني مصافحة الغامز لي بكل لطف وتطمين وانحنى لي باحترام‌وذهب الى المعهد وهو عامر القلب بأحسن مزاج واحسن روحية ٠ وبعد كل‌مظاهر الود هذه ربما عطف القاريء علي اذا عرف انني تشاجرت معه مرة اخرى قبل حلول الليل بالشكل الذي ما كان بوسعي تحاشيه ٠

كانت عادته بل الاحرى عادته المقبولة الجديرة بالثناء ان يصل الى الصف في المساء دون توقع مجيئه في الساعة الصامتة من الدراسة ويفرض استبداديته علينا وعلى اعمالنا فيأمر باغلاق الكتب وتحضير الدفاتر المدرسية التي تدون فيها الملاحظات ويأتي لنا بدراما ندر ان أطلعت على ما فيها ليجعلها كوعاء للملء فيملؤها نشاطا وحيوية أصيلة وعواطف فياضة كالقدح الذي يحوي الشراب المخمر ٠

او يروح يسكب في عالمنا التقليدي المظلم انوار عالم براق او يرينا لمعة خاطفة عن ادبيات اليوم الراهن ويقرأ لنا مقاطع او فقرات من قصة فاتنة تسبي القلوب او مقطعا من فكاهات جريدة ادبية تثير الضحك في صالونات باريس ويهتم جدا بوجوب شطب كل ما يعتبره غير لائق امام الفتيات الصغيرات سواء كان ذلك من قصة ماساوية او عاطفية او من حكاية او من مقالة او عبارة أو فقرة ولاحظت اكثر من مرة انه اذا حذف هذه العبارات فانها تخلخل المعنى العام او تدخل الضعف في محتواها ومع ذلك كان لا يتردد في حذف الفقرات بكاملها مهما كلف الامر ٠

وفي تلك الامسية كنا جالسات بصمت كصمت الراهبات في رياضة روحية وكانت التلميذات منهمكات في دراساتهن والاساتذة يعملون‌واتذكر

مهمتي آنذاك ٠٠ كانت نوعا من التامل الذي راق لي لانه كان هادفا ولم اكن أفعل ذلك لقتل الوقت فقط واعتبرته عند الانتهاء موهبة أو عطاء وكانت مناسبة الظهور المسرحي قريبة فاستدعى الامر آن نعمل بسرعة وكانت اصابعي في شغل شاغل من الحركة ٠

وحين سمعنا رنين الجرس الحاد أدركنا كلنا ما سيحدث واذا بخطوات السيد السريعة المعروفة لدي تطرق اذن كل منا وكلمتا « هوذا السيد » تند عن كل شفة من شفاه التلميذات في آن واحد وانفتح البـــاب عـلى مصراعيه كما هو شأنه عند مجيئه وان كلمة « أفتــح » الهادئة النبرة لم تكن بالكافية لوصف حركاته وما هي الا لحظة حتى توسطنا جمعاء ٠

وكانت هنـــاك منضدتان طويلتان للدراسة تحيط بهما الرحلات ويتدلى مصباح فوق منتصف كل رحلة وتحت مثل هذا المفتاح وعلى جانب المنضدة جلس المدرس بين جمع من الطالبات المصفوفات على يمينه ويساره المجتهدات والكبيرات السن منهن جلسن أقـــرب الى المصابيح وكانت عادة بيير السيد أن يرفع كرسيا ليسلمه الى مدرسة ما وعلى العموم كانت زيلي سنت بيير المدرسة الاكبر سنا ٠

وكما كانت العادة كانت زيلي تنهض برشاقة ونشاط وتبتسم بملء شفتيها لتظهر جلية صفي أسنانها العليا والسفلى تلك الابتسامة الغريبــة التي كانت تمر من أذن الى أذن لا يميزها الا تقوس الحنك تقوسا حـــادا وعدم انتشاره على المحيا فلا تظهر الابتسامة نقرة الخد ولا تضفي الشعاع على العينين ٠ وأتصور أن السيد بول لم يشاهدها لانه كان في شغل شاغل عنها اذ انه كان يوصف بنزوة التقلب والتحول كنزوة النسوة الموصوفــة بهذا الوصف كما كانوا يقولون ٠

وخدمته نظارتاه الجديدتان في آن ينتحل عذرا عن كل سهو او خطأ غير مقصود أو تقصير يبدر منه ومهما كان عــذره من بزيلي سنت بيـــير ووصل الجانب الآخر من المنضدة وقبل ان انهض لافسح له مجـال المرور همس في أذني قائلا « لا تتحركي » ووقف بيني وبين الآنسة فانشاوي التي كانت دائما بجواري ومرفقها مدفوع بجانبي وغالبا ما كنت أقول لها ٠٠ « جنيفرا آلا تبتعدي عني قليلا ؟ » ٠

وكان من السهل أن يقول « لا تتحركي » ولكن كيف كنت أقوى على ذلك ؟ كان علي أن اقوده الى الغرفة واطلب من التلميذات أن يعدن لكي أعود أنا ايضا وكان حسنا من جنيفرا ان توسع الفجوة بيني وبينهـا وأن تدفيء نفسها خلال أمسيات الشتاء بالنار الموقدة غير أنها كانت تزعجني بكثرة تململاتها وتبرماتها وبفضولها وتدخلاتها فيما لايعنيها حتى انني كنت احتفظ بدبوسي في زناري اخزها به لانقذ نفسي من مرفقها

واظن ان المسيو عما نوئيل ما كـان ليتعرض لنفس المعاملة التي كنت أمارسها مع فانشاوي ولهذا سحبت كـل الاشياء العائدة الى شغلي وفسحت له مجال المرور لكتبه وان اتراجع الى الخلف لافسح له مجـال المرور ولم اترك له فسحة مرور تزيد على ياردة واحدة وهـو ما كان كافيا لكل انسان راشد ولكن المسيو عما نوئيل لم يكن بالراشد ولانـه كان سريع التوقد عثر ومسته االنار ربشكل مباشر ٠

وصرخ في وجهي قائلا « أنت تبقـين لنفسك فراغـا وتعاملينني كمعاملة المنبوذ ؟! حسنا !! سأسوي معك هذا الموضوع ٠٠ قيام أيتهـا الانسات » ونهضت الفتيات كلهن وصفهن الى جـانب المنضـدة الاخرى وأوقفني أنا في الممر البعيد عن الرحلة الطويلة بعد ان جاء لي بكل مافي سلة عملي وقطع الحرير ومقصي وكل أدواتي ووقف هو في الجانب الآخر ٠

ولم تجرأ أي فتاة على أن تضحك على تلك الاعمال السخيفة مـع انهن كن بحاجة الى القهقهة أما انا فقد تلقيت ذلك ببرود تام فجلست في مكاني منعزلة هادئة وكئيبة ٠ وقال لي « هل مكانـك بعيد بمـا فيـه الكفاية ؟ » فقلت له « السيد هو الذي يعرف ذلـك » وقال لي « انـت تعرفين جيدا ان الامر ليس كذلك فانك انت التي أوجدت هذا الفراغ الكبير ولا شأن لي به » وبعد ذلك واصل القراءة ٠ ولسوء طالعه اختار ترجمة فرنسية أسماها دراما لوليم شكسبير قائلا شكسبير الاله المزيف لاولئك الوثنيين الحمقى ٠٠ الانكليز !! الامر الذي يدل على مدى تأثره وانكسافه وثوران احاسيسه وطبائعه مما حدا بي الى عدم الرد عليه ٠

وبالطبع لان الترجمة كانت فرنسية كانت ركيكة جدا ولم يبـدر مني اي مسعى خاص لاخفاء الاحتقار الذي كانت بعض اخطائه البائسة جديرة بأن نثيره وتراءى لي أنني جديرة بأن أقول شيئا ولكن هناك من

ينظر الى فكرة تخطر له ويرى أن من المحرم ترجمتها بالكلمات • لقد كان السيد أبو النظارات محاذرا ويقظا وراح يجيل بنظراته في كل مكان دون أن يستثني جهة ما وفتاة ما •

وكانت النتيجة أنه نفى نفسه الى القطب الشمالي ليواصل غضبه العارم هناك بدلا من أن يظل يجول ببصره بأرجاء الغرفة ليقيس درجة حرارتها العامة وارتأى أن من الرشاد أن يبقى تحت شعاع سمت الرأس لبرج السرطان • وانتهت القراءة وظهر أن من قبيل الدخول في المشكلة أن هو خرج دون أن يسكب غضبه أو يصرفه علما بأن القمع أو الكبت لم يكن من عادته كثيرا أما أنافلم أنبس ببنت شفة ولم أر أن من الواجب اللجوء الى التأنيب أو الانتفاضة رغم كل ما حل بي ولم أر بدا من أن الوذ بصمتي •

وجيء بالعشاء المتكون من الخبز والحليب المنقع بالماء الفاتر واحتراما لوجود البروفيسور سمح لان تكون اقراص الخبز واقداح المياه مصففة بدلا من توزيعها بالايدي آنيا • وقال لنا « خذن آماكنكن أيتها السيدات » وبدا عليه أنه منهمك في تدوين ملاحظات هامشية على مؤلف ويليام شكسبير •واخذن مواقعهن وقبلت الرغيف وقدح الماء أيضا وكنت آنذاك اكثر انهماكا في عملي وظللت في موقعي الذي عوقبت فيه أمضغ خبزي المنقوع باستياء وغضب وأشرب العصير برباطة جاش وهو ما لا يتوافق وعاداتي الا في النوادر •

وبدا لي ان وجود طبيعة قلقة تافهة شائكة كطبيعة المسيو بول تمتص كل المؤثرات المحمومة المنفعلة غير المستقرة كحجر المغناطيس الجذاب ولا تخلف لي سوى الهدوء ورباطة الجاش والانسجام • ونهض من متعده وقلت لنفسي ترى !! هل سيذهب بدون أن يتفوه بكلمة أخرى ؟•• نعم •• انه عاد الى الباب •• كلا • انه توجه الى درجات السلم ولكن ربما ليأخذ مقلمته التي وضعها على المنضدة •

أخذ المقلمة وأخرج القلم وكسر حده بالخشب ثم اعاد تشذيبه لاخراج رصاص الكتابة وحفظه في جيبه ثم أسرع الخطى نحوي • وكانت

التلميذات والمدرسات المجتمعات حول المنضدة الاخرى يتكلمن بحرية تامة وكن دائما يكثرن من الكلام في مثل هذه الاوقات واطلقن العنان لعقائرهن.

وجاء المسيو بول ووقف خلفي وسالني ما الذي أعمله فقلت له انني اصنع سلسلة ساعة الجيب، وسالني «لمن؟..» فاجبته «لجنتلمان هو احد اصدقائي وطاطأ المسيو بول رأسه ثم تقدم وأسر في اذني ببعض الكلمات المثيرة للمشاعر كأن قال بأنني المرأة الوحيدة من بين الجميع التي تثير انزعاجي وانه ليس قادرا على العيش معي وفق شروط الصداقة وان لي خاصية عنادية وانني حمقاء وشريرة الى حد يثير العجب اما كيف أعالج ذلك واي شر تلبسني منها فهو لا يعرف عنها شيئا».

وقال «ان أي شخص يقصدني بنوايا سلمية وودية فانني أقابل وفاقه بالخلاف وحسن طويته بالعداء» ان المسيو بول يضمر لي - على وجه التاكيد - الخير فهو لم يلحق بي أي ضرر ويرى أن له الحق في التعارف بي ومصادقتي دون أن يضمر لي أية مشاعر عدوانية ولكن.. كيف كان سلوكي معه.. وبأية مزايا لاذعة وبأي زخم من التمرد وبأي وابل من الهجمات المتسمة بالاساءة قابلته بها وهناك لم أجد بدا من فتح عيني باوسع ما في امكاني تنمان عن الاعتراض والاحتجاج وقلت له «لا اعرف شيئا عن كل ما اتهمتني به وينبغي عليك أن تصمت في الحال ولا تنبس بكلمة وبسرعة كالطلقة» ولم ير بدا من أن يبدي لي أسفه وتألم لما بدر منه ومن خصوصيته العاثرة الحظ ورغم ذلك الطبع وتلك الحرارة والغضب وان كانت تتسم بالسماحة والشهامة رغم تطرفها الزائد فانه كان يخشى ايذائي او انزال أي حيف بي فهو رغم كل ما بدر منه نحوي كان يؤمن بأنني لست بلا خصائص طيبة وفي رأيه أنني لو اصغت لصوت المنطق والعقل ولو هو أبدى المزيد من جانب الرزانة والمزيد من جانب الاعتدال والجد لزالت الفظاظات وزال سوء التفاهم بيننا. وقال انذلك لو حصل لبرهنت على سجايا مميزة ولكن الحالة كما هي عليه الآن... (وهنا اختنق صوت الرجل لمدة دقيقة واحدة بالانفعال العاطفي).

وكان بامكاني أن ارفع بصري اليه أو امد له بيدي أو اتفوه بكلمة رقيقة مخففة عنه ولكنني خشيت أن افعل ذلك لئلا أكون بين أمرين هما اما ان اضحك واما ان ابكي اذ ان الغريب في هذا الامر كان مزيجا من

العطف والسخف . وظننت أن الذي بدر منه قد انتهى أمره بذلك ولكن كلا .. فقد جلس ليتحدث على هواه .

بينما كان المسيو بول في خضم هذه المواضيع المؤلمة احسست انه يروم استثارة غضبي من أجل صالحي وانه قد يومىء الى تبدل لاحظه في ملابسي التي ارتديها وحق له ان يقول أنه عندما شاهدني لاول مرة أو عندما كان يلمحني من وقت الى آخر كنت قد طمنته فيما يخص ملابسي وفيما يخص النقطة التالية .. الرزانة والبساطة المتقشفة الامر الذي أثار في نفسيته أعلى طمأنينة على صالحي فأي مؤثر مقدر وحاسم اضطرني في الآونة الاخيرة الى تعليق زهرة في حافة قلنسوتي وأن ارتدي ياقات مطرزة ومزخرفة وحتى ان أظهر في احدى المناسبات في ثوب قرمزي داعر أبقاه مضمورا في قلبه دون ان يفاتحني به في الوقت الحاضر .

ومرة أخرى قاطعته وفي هذه المرة دون لهجة صارمة تتسم بالاستياء والاشمئزاز وقلت له « أتقول .. ثوب قرمزي داعر أيها السيد بول؟.. انه لم يكن كذلك .كان ثوبا قرنفلي اللون وقرنفليا باهتا ايضا وملطفا ومخففا بشرائط سود زينية » وقال لي « قرنفلي أو قرمزي .. أصفر أو قرمزي .. أخضر فاتح أو ازرق سماوي .. انه شيء واحد .. تلك كلها كانت البسة ازدهاء ومباهاة وألوان طائشة ومستهترة أما عن التلطيف والتخفيف بالشرائط الزينية السود التي تحدثت عنها فلم تكن الا من قبيل الاناقة المتكلفة ثم تنهد أسفا لانحلال أخلاقي وتفسخها .

وقال انه يؤسفه أن يقول أنه لا يستطيع أن يكون استثنائيا ومدققا في هذا الموضوع كما يريد أن يكون ولانه لا يملك الاسماء الحقيقية لتلك الحلي الصغيرة ، فانه سيتناول الاخطاء الشفهية التي لن تخذله في أن يفسر سخريتي وتهكمي منه وليستثير مزاجي ونزعتي العاطفية الانية التعيسة وسيكتفي بالتحدث بتعابير عامة وبهذه التعابير العامة يعرفانه مصيب في أن أرديتي وثيابي اتخذت شكل الخصائص العلمية للازياء البهية وهو ما يؤلمه أن يشاهدها علي .

وسألته « أية خصائص عالمية للازياء البهية اكتشفها في مرينوسي الشتوي وهو نسيج صوفي قطني ناعم يشبه الكشمير وفي ياقتي البيضاء

البسيطة أنه لامر يحيرني ويصعب علي حزره وعندما سألته قال « انه صنع بعناية شديدة لكي يكون له تأثيره » وعلاوة على ذلك سألته « ألم يكن لي قوس شريطي على عنقي ؟ » ومضيت في كلامي قائلة « واذا نددت بقوس الشريط لسيدة ـ أيها السيد ـ أليس عليك ان تدين شيئا مشابها لذلك عند رجل ؟ » وكان جوابه الوحيد تأوهة ندت عن صدره حول طيشي على ما ظننت ·

وبعد أن جلس بضع دقائق لازم فيها الصمت سألت نفسي هل ان الذي قاله عني سيؤثر علي ويدفعني الى أن أمقته بشدة ؟ ولا اذكر بالضبط ماذا كان الجواب وما الذي أشعر عنه ولا أظن أنني تكلمت وقتئذ الا أن الذي أعلمه أننا ودعنا أحدنا الآخر على شكل ما يفعله صديقان » · وحتى عند وصول المسيو بول الى الباب التفت الي ليوضح بأن لا موجب لفهمه على أنه يدين ادانة تامة الثوب القرمزي (وقاطعته بغضب ! قرنفلي !! قرنفلي !) وان ليس في نيته أن ينكر أن منظره جميل وكل ما في الامر ان عما نوئيل له ذوقه الخاص في الالوان وان مقصده كان التشاور معي عندما ارتديه ليرى ما اذا كان من الفستيان النسيج القطني الذي شكله رمادي ـ ترابي » ·

وسألته « وما رأيك بالزهور المعلقة في اهداب قلنوستي وهي دقيقة جدا ؟ » فقال « ابقيها دقيقة كما هي ولا تحاولي تكبيرها جدا ؟ »وسألته ايضا « وما اقولك بقطعة الشريط ؟ » فقال بلهجة مسامح « بوسعك ابقاؤها » وبذلك سوينا القضية بيننا ·

وقلت لنفسي « أحسنت صنعا يا لوسي سناو لقد جئت لتلقي محاضرة بديعة فجلبت على نفسك التعنيف الفظ وكل هذا بسبب شغفك وولعك اللامبرر بتوافه الدنيا وباطلها وغرورها ومن ذا الذي كان يهفو لذلك أو يفكر بذلك ؟لقد اعتبرت نفسك رزينة ورصينة بشكل سوداوي حيث تعتبرك الانسة فانشاوي ديو جينوس الثاني الفيلسوف اليوناني الذي كان يفتش بمصباحه عن انسان صالح واغلق المسيو دي باسومبيو في ذلك اليوم بأدب الحديث معي عندما دار الحديث عن المواهب المذهلة للممثلة فاشتي لانه كما قال « ان الآنسة سناو تبدو غير راضية عنها »·

ولا يعرف الدكتور جون عنك سوى انك « لوسي الهادئة المخلوقة المسالمة الشبيهة بالظل وأنت سمعتيه يقول ذلك ويقول أيضا « مساوىء لوسي تنبع من التطرف الزائد في الذوق والاخلاق وحب الوان الاخلاق والعادات » هذه هي انطباعات اصدقائك عنك وهذه هي انطباعاتك الخاصة فتوقفي الان وانظري وشاهدي فهنا رجل قميء يختلف كل الاختلاف عن كل هؤلاء يتهمك بصراحة وبقسوة بأنك هوائية وخيالية ومنشرحة كليا وبأنك ملتهبة العواطف ونارية ٠

ان هذا الفظ التصرفات هذا الرقيب الذي لا يرحم يجمع عنك كل خطاياك التافهة البائسة المبعثرة وأشرطتك الشفافة ذوات الالوان الوردية واكاليل وهداب « أكليل الزهور وحافاته وقطعة المخرمات التافهة للملابس ويستدعيك لمحاسبتك عنها وعن كل شأن من شؤونك ٠ انك معتادة لان تسمعي أنك ظل بين أشعة شمس الحياة وانه لشيء جديد اذا ما شاهدت احدا يرفع يديه بشكاسة ليغطي بهما عينيه خوف أن تضايقيه وتزعجيه بالاشعة الفضولية الزائفة ٠

الفصـــل التاســـع والعشـــرون

ـ عيـد ميـلاد المسيو بـول ـ

استيقظت في صبيحة اليوم التالي قبل بزوغ الفجر وهممت بارتداء ملابسي ، وبقاعدة التناقضات عرفت أن ارضاء اذواق الآخرين أيضـا كان أمرا لا غنى عنه ولكي أنهي تزييني كنت بحاجة الى مشبك ذهبـي صغير ولحسن الحظ كنت أملكه في أبزيم قلادتي الوحيدة فحللته ثم ثبته، وربما تذكر القارىء وصف مهرجان المدام بيك وكيف أن هدية مناسبـة تهدى لها في آخر المهرجان من قبل المدرسة ، وشعائر مثل هذا اليوم كانت ميزة لا تخصص أو تضفى الا للمدام بيك وبشكـل مخفف لقريبها او نسيبها ومستشارها المسيو بول عما نوئيل وهو يحـدث اعتباطا دون مقدمات أو اعدادات وبهذه المناسبة تهنئة التلميذات رغم محاباتـه ومساوئه ومزعجاته ٠

وكان يصرح بأنه لا يقبل هدايا كصحون او جواهر ولا يريد سوى تكريم بسيط او هدايا بسيطة ولم تكن تسره حلقـة ماس او علبة السقوط مع مظاهر الابهة والتفخيم انما يفضل عليها الزهور أو الرسوم التي تقدم له ببساطة ولمشاعر خالصـة وتلك كانت طبيعته فقد كان رجلا لا يملك حكمة زمانه ٠ لقد صادف عيد ميلاد المسيو بول اليـوم الاول من شهر اذار وكان يوم الخميس بشمسه البديعة وفي صباحه كانت العادة المتبعة هي حضور القداس لان الخميس كان نصف عطلة يخرجون فيها للتنزه او التسوق أو الزيارات التي كانت تتم بعد الظهيرة ٠

وتلك المتجمعات كلها بما كان فيهـــا من اعتبارات تتطلب ارتداء الملابس الفاخرة كعادات دارجة ورائجة ولا سيما ارتداء الياقات النظيفة وكانت الملابس المدرسية القطنية الاعتيادية تستبدل بملابس أخف واكثر شفافية وصفاء حتى أن الآنسة زيلي سنت بيير ارتدت في ذلك الخميس ثوبا حريريا اعتبر في لاباسيكور رائعا وفخما ·· لقد تبين أنها استدعت احدى مرتبات الشعر في ذلك الصباح وهناك طالبات اكتشفن بأنها بللت منديلها برائحة عطرية جديدة بيدها ·

مسكينة ·· زيلي ·· لطالما صرحت أنها متعبة الى حـــد الموت في حياتها ، حياة العزلة والعمل الشاق وأنها بحاجة الى وسائل التسليـــة واللهو وتتوق اليها توقانا شديدا وبحاجة الى من يخدمها ويعمل لها والى زوج يدفع عنها ديونها التي أغرقت فيها ويدفع أثمان ملابسها ويتركها تعيش حرة لتتمتع نوعا ما بحياتها وقيل أنها كانت تطمح الى ان يتزوجها المسيو بول حسبما كانت تدور الاشاعات علما بأن المسيو بول نفسه كان قد ركز انتباهه عليها اذ كان يجلس معها ويرنو اليها مدى دقائق بشكـــل مثابر ويسمح لها بأن تخالسه النظر طيلة ربع ساعة في الصف في وقـــت لا يكون فيه منهمكا بواجبه الدراسي وهو يشعر بتلك النظرات المحرقة المصوبة اليه وهو ما بين مشبع غروره وكبرياءه وما بين مرتبك حائر ، يبادلها النظرات الحادة المتسمـــة بالاهتمام فهـــو في بعض الاحيـــان كان يخترق أعماق الغريزة اختراقا مرعبا وينفذ من مخبئه الى باطن آخـــر الفكر الكامن في القلب ليستشف الاحجيـــة وليتوصل الى مواقع الروح الجرداء القاحلة واتجاهاتها المنحرفة ومنعطفاتها الخفية الخادعة ـ وكل ما لم يعرفه الرجال والنساء ـ العمود الفقرى المحـــدودب والاضلاع الشوهاء المخلوقة معها والانكى من ذلك الوصمة التي جلبتها عليها ·

وعندما تلتقي عينـــاه الجوالتـــان المستفهمتان الرفض وتكتشف بحوثه العاتية كتمانا مخادعا ومضللا فانـــه ينقلب الى شخص فظ قاسي وشرير على ما في رأيي ويسوق هؤلاء التعساء المنكمشين الخجولين ويسارع بهم الى قمة جبل الفضيحة ويعرضهم جميعا عراة ظانا انه بذلك يقـــوم بعمل عادي وفي رأيي أنه لا يحق لاي رجل أن يقوم بمثل هذه العدالة !! برجل آخر ولطالما سكبت الدموع على حالة ضحاياه دون أن يدخر حنقـــا

وغيظا ولوما عميقا على نفسه وهذا ما كان يستأهله اذ كان من الصعوبة بمكان زعزعة اعتقاده الراسخ بأن الـــذي كـــان يعمله يتسم بالصحة والعــدل ٠

وانتهى تناول الفطور ودق جرس المدرسة وامتلأت الغرفة وســاد مشهد رائع جدا في الصف حيث جلس المعلمون والطالبات بترتيب ونظام جيدين ويترقب حاملين في ايديهم باقات الزهور الفاتنة المنظر وهي من اروع أيام الربيع الطرية التي كانت تملأ الاجواء باريجها وأنا الوحيدة التي كنت لا أحمل باقة ورد اذ أنني افضل الورود وهي تنمو على اغصانها ولكن عندما تقطف وتجمع لا تسر الناظرين وتكون بلا سيقانهاوجذورها عرضة للتلف وزوال الاريــج وأن تشبيهها بالحياة أمر يحزنني ويغمني فانا لا أهدي الاوراد الى من أحبه ولا أميل الى أخذها من أياد عزيزة علي ٠

ولاحظت الانسة سنت بيير أن يدي فارغتان من الزهور ولم تتصور انني مهملة واخذت عيناها تسلطان انظارها الي والى ما حولي متصورة ان لابد من آن احتفظ بباقة صغيرة من البنفسج أو ما اشبه ذلك لــكيما يحق للاخرين امتداح ذوقي وبراعتي ٠ وقالت الباريسية هني « ان هذه الانكليزية جلست هنا بلا وردة وبلا ورقة كشجرة الشتاء وتبسمت زيلي بارتياح تام قائلة لي « ما اكثر حكمتك يالوسي في احتفاظك بنقودك ٠٠ آيتها الغبية أنا ذهبت ورميت بفرنكين قيمــة باقـــة من زهور البيوت الزجاجية ٠٠ » وقالت ذلك ثم ابرزت بكل افتخار باقة ازهار صغـــيرة وسرعان ما قالت « ٠٠ اسكتوا٠٠ اسكتوا » واذا بنا نسمع صوتخطوات فورية كالمعتاد يقظة ومتأهبة للعمل وظننا ان في جعبـــــة البروفيسور ـ لو توخينا الرومانتيكية في التعبير ـ ما يبشر في ذلــك الصباح بكنــه الصداقة وكان ذلك بالفعل ٠

لقد دخل وهو في حالة نفسية جعلته مشرقا كأشعة الشمـــس الى داخل الصف الاول المضاء اضاءة جيدة فضوء الصبح الذي كان يتراقص بـين تجهيزاتنا المدرسية ويتضاحك مع حيطاننا استقى لمعانا اكثر من تحيـة المسيو بول اللطيفة لنا وككل فرنسي أصيل (وان كنت لا أدري لمــاذا اقول ذلك لانه كان لا فرنسيا ولا بيكوريا) فقد ارتدى وفق المناسبة ، مناسبة عيد ميلاده ٠

دخل مرتديا بزة جـديدة والقبعة في يده المقفزة وبان منظره جيدا ومرتبا بصورة جيدة جدا وفي عينيه الزرقاوين بريق الصداقة وفي محياه العام الاسمر مخائل المشاعر الحسنة وما كان المرء ليهتم بان أنفـه وان كان ليس صغيرا أو أقنى لم يكن له شكل خاص يذكر وكان خداه ناعمين وحاجباه مربعين يتسمان بمزية خاصة · ان فمه وان كان لا يشبه برعم الزهرة فانه كان مقبولا على ما كان عليه ·

ويمم صوب رحلته ووضع عليهـا قبعتـه وقفازيه قائلا « صبـاح الخير أيتها الصديقات » بلهجة للتخفيف نوعا ما عند البعض منا من الاثر السيء لحدة تصرفاته التي لا عداد لها وزمجراته الوحشية وليس دليـل مرح أو الشعور بالصداقة الحقيقية انما كانت مجرد كلمات كان يستخدمها متى ما نقلها فؤاده الى شفتيه متسمة بسرعة الغضب وتحجر العاطفة غـير أن نواة قلبه أو صميمه كانت تحوي حنانا أبعد أثرا من حنان المرء تضفي عليه تواضع صغار الاطفال وهذا يؤثره للفتيات وللنسوة اللواتي كـان يثور عليهن الا انه ما كان ليقوى على أن ينكر أنه كان معهن على توافـق افضل مما هو مع ابناء جنسه الرجال ·

وهنا انبرت الآنسة زيلي التي كانت تعتبر نفسها ناطقـــة باسـم الطالبات عند كل اجتماع وتقدمت بمزيد من الانعطافات الودية الرقيقة التي كانت ترى أن لا أفضل منها للتعبير عن مشاعر الود والاحترام قائلة « نحن جمعاء نحيي المسيو بيومه السعيد ونقدم له تهانينا بمناسبة عيـد ميلاده » ثم وضعت باقة وردها الثمينة أمامه وانحنى لها · وانهال قطار طويل من الهدايا عليه حتى أن الرحلة بدت كما لو أنها هرم مزدهر كسف وجه للبطل الذي وراءه وبعد انتهاء هذه التشريفات استأنفت التلميذات الجلوس عـلى مقاعدهن وسـاد سكون مطبـق كسكون الامـوات بانتظار خطاب منه ·

ومرت خمس دقائق تقريبا والسكون لم يزل مخيما عـــلى الصف ثم خمس دقائق أخرى ولا صوت منه ولا نأمة حتى أن الكثـيرات ممن كـن حاضرات استغربن ــ دونما ريب ــ وتساءلن عما ينتظره المسيو من طول هذا السكوت وظل المسيو غير المرئي بلا حركة وبلا صـوت وراء اكـوام باقات الزهور تلك ·

واخيرا ند عن شفتيه صوت أجش كما مو آنه آت من فراغ أواجوفاف قائلا ‥ هل تم كل شيء ؟ ونهضت الآنسة زيلي تنظـــر الى ما حواليها وتساءلت من التلميذات « هل كلكن قدم باقة زهـــور ؟! » وقالت الفتاة البارزة في الصف « نعم ‥ لقد قدم الجميع باقات زهورهن من الكبريات الى الصغريات ومن الطويلات الى القصيرات » ثم أردفت قائلة « هل هذا كل شيء » بلهجة متكررة أنهتها بنبرة منخفضة بعد أن كانت تتحدث بنبرة عالية ووقفت الآن وهي تقول بابتسامتها الحلوة :

أيها السيد !! لي الشرف ان اعلمكم ان كلا منا ـ باستثناء واحدة ـ قدم الى الصف باقته وهذه الواحدة هي الآنسة لوسي التي يرجى منها أن تلتمس عذرها فهي كأجنبية ربما لا تعـــرف عاداتنا او ربما لم تحسن تقدير هذه المناسبة واعتبرتها مناسبة تافهة جدا لا لزوم لان تأخذهـــا في الاعتبـــار ٠

وقلت لها وأنا أحرق الأرم « أنت خطيبة لا باس بك يا زيلي عندما تباشرين بالكلام » وان الجواب الذي تلقته الآنسة سنت بيير من المنصـــة جاءها على شكل ايماءة يدوية من وراء هرم الاوراد بدا كما لو انها تقلل من أهمية الكلمات وتأمر بملازمة السكوت وسرعان ما ظهرت هيئة أو حالة بعد الايماءة اليدوية فقد خرج المسيو من مكانه المكسوف وبزغ من منصته وراح ينظر طويلا الى امام وقبالته خارطة للعالم كبيرة الحجم تغطي الحائط المقابل وقال للمرة الثالثة وفي هذه المرة بلهجة مأساوية حقة « أهذا كـــل ما في الامر ‥ الم يبق شيء » ٠

وأحسنت عملا اذا تقدمت الى آمام ودسست في يده علبـــة صدفية صغيرة حمراء اللون كنت أحتفظ بها في يدي آنذاك وهو ما كنت أنوي أن افعله بالتمام لولا الموقف المضحك الاولي من سلوك المسيو الـــذي الجاني الى تأخير تسليمها اليه وبدا نزوع الآنسة زيلي سنت بيير للتدخل مضحكا ومثيرا للازدراء ولعل القاريء يستغرب اذا عرف أن لوسي سناو التـــي لا تدعي لنفسها الكمال في تصرفاتها وجدت أن من الخطأ ان تدافع عـــن نفسها حيال الباريسية زيلي التي وصمتها بما وصمتها ولو تلميحا ٠

وقد ظهرت على وجه المسيو بول دلائل الالم العميق وآخذ عدم تجاوبي مع الآخريات ماخذ الجد وتطلب الامر ان يكون في حالة انفعال وهياج أما أنا فقد احتفظت بالعلبة وبهدوئي وجلست بلا حراك كالحجارة . وندت على شفتيه عبارة « كل شيء على ما يرام ؟ » وسرى على حاجبيه ظل برحاء الالم الشديد ممزوجا بالسخرية والتصميم فزم ما بين شفتيه وغضن خديه . وبعد آن ازدرد أي تعليق آخر كان يمكن آن يصدر عنه شرع يحاضر كعادته .

ولا اتذكر تماما عم كانت محاضرته لانني لم أصغ اليها جيدا آنذاك فان عملية ازدراده التعليق المأمول واماتته عاره ومصدر غيظه الذيلحق به أثارتا لدي الاحساس الذي قاوم بنوع ما الاثر المضحك لعبارته التي كررها « هل هذا كل شيء !؟ » . وبعد انتهاء خطابه حصل تحول سار في المجرى المألوف آثار اهتمامي وسروري مرة أخرى وبناء لحركة عرضية غير مقصودة أسقطت كشتباني على الارض وعند انحنائي لالتقاطه اصطدمت مقدمة رأسي بالزاوية الحادة لرحلتي واحدث ذلك صوتا ضعيفا الامر الذي أغاظ المسيو بول وأفقده توازنه وألقى نظرة تهكمية عجلى حول الغرفة اتسمت بالفظاظة وشعرت بقسوتها أو في نيتها في آن تقسو عندما عبرتني وراح يسلق الانكليز بالسنة حداد .

ولم أسمع المسيو بول يتحدث ضد الانكليزيات كما سمعته في ذلك الصباح فهو لم يدخر شيئا في التهجم عليهن وعلى أدمغتهن وآدابهن وسجاياهن ومظاهرهن الشخصية ولا أزال اتذكر بشكل خاص كيف كان يعيب قاماتهن ورقباتهن الطويلة وأذرعهن النحيفة وأرديتهن القذرة وثقافتهن المتحذلقة وشكوكهن العاقة غير الورعة (!!) وكرامتهن التي لا تطاق وفضائلهن المزعومة وكل هذا وهو يحرق الارم من الغيظ والحنق .. آواه ما كان أحمقه وألذعه واوحشه وأقبحه كنتيجة طبيعية لما قاله .

وقلت في نفسي هل سازعج نفسي ايها الرجل القميء السام بمخاوف اثارة غضبك أو الاساءة الى مشاعرك ؟ كلا .. ابدا .. عليك ألا تكترث بي لانني كنت صاحبة أرخص هدية في هرمك . انه ليحزنني آن احقق

هذا العزم وانفذ هذا القرار فقد سبق أن تكلم ضد انكلترا وضدالانكليز ولم اكترث لذلك ٠

واستطعت أن أتحمله مدى ربع ساعة دون اكتراث ولكن فحيح هذا الأفعوان أو هسهسته دل على أنه على وشك ان يلدغ وقال مثل هذه الاشياء أخيرا ليس فقط لوصم نسائنا بل لوصم عظمائنا وأفضل رجالنا وتلطيخ الدرع البريطاني وتمريغ علمه بالوحل ٠ واحسست بأنني قد لسعت ٠ وباستمتاع شرير جاء بأكذب ما في جعبته من تلفيقات تاريخية بحيث لم يسبق أن فاقه أحد بمثل هذه الحملات العنيفة وابتهج قلب زيلي والصف كله وسرى الضحك الهازيء الشامت بينهن وأخيرا لم أر بدا من أن أضرب على رحلتي ضربة عنيفة وفتحت شفتي وتعالت من بينهما كلمات هذه الصرخة « ٠٠٠ تعيش انكلترا ذات التاريخ البطولي ٠٠ ولتسقط فرنسا ذات التاريخ المليء بالخرافات والحماقات » ٠

وصعق الصف كله وأظن أنهم احتسبوني مخبولة فوضع البروفيسور منديله على وجهه وراح يضحك ضحكا خبيثا بين ثناياه ٠ ياله من وحش خبيث تافه يظن أنه نال الانتصار ما دام قد أغاظني وما هي الا لحظات حتى تغير تصرفه تماما واضحى ودي المظهر وبمنتهى الرقة واستأنف موضوع الازهار وأخذ يتكلم بلهجة شعرية ورمزية عن حلاوة مظهرها واريجها ونقاوتها وما الى ذلك واخذ يقارن بين «الفتيات الصغيرات» وبين الازاهير الزاهية المطروحة أمامه وامتدح الآنسة زيلي لتفوق هديتها وأنهى كلامه بقوله انه بمناسبة مثل هذا الصباح الربيعي البديع المتأرج سيأخذ الصف كله لتناول الفطور في الضاحية الريفية ٠

وانبريت أقول « لن اكون أنا هناك » فقال وهو يجمع الاوراد بين ذراعيه ويهم بالخروج من الصف « فليكن ذلك » أما أنا فقد جمعت اشغالي ومقصي وكشتباني والعلبة الصغيرة المهملة ووضعتها على رحلتي وصعدت الى الطابق الاعلى ولا أدري ماذا كان قد غضب أو زعل أو استاء من حديثي الا انني كنت متأكدة من انني دفعته الى ذلك ٠

ورغم الاضمحلال الغريب للغيظ الذي كان بقلبي لم استطع الجلوس ساعة واحدة على جانب فراشي تارة أتصور نظرته وتصرفه وكلماته وتارة أطرد صورها من مخيلتي قبل أن أبتسم لما حصل في ذلك

المشهد وشعرت بوخزة آسى لعدم اعطائي العلبة له فقــد اردت ارضاءه وادخال السرور الى قلبه غير أن القدر أبى ذلك .. ومنذ الظهيرة تذكرت آن الذي يحفظ هناك قد لا يبقى سالما في مكانه دون أن تتلاعب به الايدي العابثة وقلت ان علي أن استرجع العلبة بسبب كتابتي الاحرف الاولى من أسمه ولقبه ب.ك.د.ع (بول كارل ديفيد عمانوئيل) ولهذا عدت الى الصف .

لقد استقرت العلبة في حافظة العطلة وذهبت التلميذات النهاريات الى دورهن والتلميذات الداخليات كن يمشين وكــان المعلمون ـ باستثناء المراقب الاسبوعي ـ في المدينة يزورون أو يتسوقون وكان طاقم الاقسام المدرسية فارغا وكذلك الصالون الاكبر الذي كانت تتدلى من منتصف سقفه الكرة الارضية الكبيرة الحجم مع ثريتين كبيرتين بفروعهما الكثيرة والبيانو الكبير الذي كان مغلقا وصامتا يتمتع بعطلته الاسبوعية .

واخذت أتجول لاجــد الصف الاول مفتوحا جزئيا علما بأن هذه الغرفة عادة ما تكون موصدة الباب في أيام العطل ولا يمكن لاحد أن يدخل اليها ما خلا المدام بيك وأنا اللتين تحتفظ كل منا بنسخة مطابقة للمفتاح وواصلت التجول واذا بي أسمع حركة غامضة كوجود حياة .. خطــوة وصوت يرفع وصوت كفتح جارورة الرحلة .

وبعد تأمل قصير الامد عرفت أن المدام بيك هي التي تفعل ذلك وأن الباب المفتوح فتحا جزئيا هو الدليــل عــلى ذلك وللاطمئنان بصدد هــذه النقطة نظرت فلم الحظ أن الفستان هو للمدام بيك لا شالها ولا قلنسوتها انما وجدت معطفا ورأس رجل أسمر اللون . لقد احتل هــذا الرجل كرسيي وفتح رحلتي واختفى أنفه لانه كان يتفحص محتوياتي واوراقي ولم أكن أشاهد سوى ظهره وان كنت متأكدة من هويته الآن لانه كــان يرتدي نفس بدلة الاحتفال ونفس السترة (البالطو) الملطخة بالحبر مرمية على الارض كما لو أن صاحبها القاها من يده لانشغاله في التحري .

والآن عرفت كما عرفت منذ مدة طويلة بأن يد عمانوعيل هي التي آمتدت على ما كان موجودا داخل رحلتي وانه هو الذي رفع أو انزل الغطاء وبعثر ما في الرحلة ثم اعاد تنظيمها ولم يكــن الموضوع موضوع تشكك فقد ترك علامات واضحة عن كل زيارة لا يرقى اليها الشك ومع ذلك لــم

استطع الامساك به ابدا عند قيامه بما قام به رغم كل مراقباتي وتحرياتي ولم اعرف ساعات أو لحظات مجيئه انما وجدت كما لو انها أعمال الجنيات السمراء الصغيرة التي تزعم الاساطير أنها تقوم بأعمال البيت سرا ووجدت أن الاخطار المرتبكة أثناء التفتش تصحح بعد الانتهاء ·

أما الان فقد امسكت به أخيرا · هناك هو نفس اللون الاسمر الداكن لوجهه يتدلى من بين شفتيه سيكاره الهندي الحبيب الى نفسه · كان يدخن على رحلتي · وسرني أن أفاجئه ومشيت على أطراف أصابعي نحوه ووقفت وراءه وحنيت رأسي بحذر تام على كتفيه ، وازدادت نبضات قلبي حين وجدت أنه بعد عداوة هذا الصباح وبعد تصديع مشاعره وتخديش طبعه بدا عليه أنه يريد النسيان ويريد أن يصفح عني فجاء لي بكتابين ضخمين جيدين يستهويان من يقرأهما لعنوانيهما وشهرة مؤلفيهما ·

والان أراه منحنيا على الكتابين يقلب صفحاتهما الواحدة بعد الاخرى بلطف وعناية · كان مشوش الذهن دون ريب ولكن بلا استعداد لايقاع الاذى بأحد وعندما اطللت على ما بين يديه زاد وجيب قلبي وكان ساهما تائه التفكير ولاده جاء ليصلح ذات البين بيني وبينه ليقدم الخدمة التى يستطيع أن يسديها لي عالمة ، أنه لا يحمل لي أية ضغينة لهذا ذاب كل غضبي تمام الذوبان وشعرت بأنني لا اكرهه ·

وأظن أنه أحس بتنفسي فالتفت فجاة وبدا كما لو أنه ذو مزاج عصبي ولم يبدأ حديثه معي ولم تتبدل الوانه بهذه المفاجأة واذا به يقول لي بنوع من ضبط النفس « ظننت أنك قصدت المدينة مع المعلمات والمعلمين الاخرين ·· هل تظنين أنك امسكت بي أو أنني أكترثت لذلك ؟ انني غالبا ما أزور رحلتك » فقلت له « أعرف ذلك أيها المسيو » وقال لي « أنت تجدين بين وقت وآخر كراسا أو مجلدا ولكنك لا تقرأينها لانها مرت تحت هذه » وأشار الى سيجاره الذى بين شفتيه » وقلت له « انها لكذلك ولكنها لا تصلح للمعالجة الا أنني أقرأها » ويسألني « هل تقرأينها دونما متعة ؟ » وقلت له « على المسيو ألا يناقض نفسه بنفسه وألا ينكر » وقال لي « هل تحبينها أو تحبين أية منها ؟ وهل انها مقبولة لديك ؟ » ·

قلت له « المسيو يعرف أنني اقرأها وشاهدني مئات المرات أقرأها ويعرف بأن ليس لي فراغات كثيرة لاقلل من قيمة ما يأتي به » وقال لي « انني أضمر لك مشاعر ودية واذا كنت تعرفين ذلك وتستمتعين نوعا ما من جهودي فلماذا لا يمكن أن نصبح صديقين ؟ وقلت له « من السخافة أن نقول ذلك فنحن لا نستطيع أن نكون صديقين » وواصل كلامه قائلا « نهضت في هذا الصباح بنفسية مرحة وجئت الى الصف مستبشرا وسعيدا فافسدت علي نهاري » ٠

وقلت له « كلا أيها السيد ٠٠ لم أفسد عليك نهارك كله باستثناء ساعة أو ساعتين وكان هذا بدون قصد مني » وقال لي متسائلا « بدون قصد ؟ ! لقد كان عيد ميلادي والكل تمنى لي السعادة الا انت ٠ أهدتني الصغيرات في الصف الثالث هدايا كل منهن قدمت باقة زهورها ولثغن بتمنياتهن لي أما انت فلم تقدمي شيئا لا برعم ورد ولا ورقة شجيرة حتى ولا نظرة منك وتقولين أن ذلك حصل بدون نية مقصودة » وقلت له « لم أقصد ايذاءك » ٠

وقال لي « اذن أنت لا تلمين بعاداتنا في الحقيقة ٠ كان يكفي أن تقدمي لي مساحة بضعة سنتيمات من الورد لتبهجيني ما دمت متوقعة انه عيد ميلادي اعترفي بذلك وكل شيء سيصبح منسيا والالم سيخف » وقلت له « كنت أعرف انه عيد ميلادك وكنت متهيئة لذلك ومع ذلك لم أضع على منضدتك بضعة سنتيمات من الزهور » وقال لي « هذا حسن منك ، تحسنين صنعا اذا كنت صريحة وصادقة وكان علي أن اكرهك لو انك تملقت وكذبت علي ٠ وأفضل أن تقولي في الحال « أنني أكرهك يا بول كارل عمانوئيل بدلا من أن تبتسمي لمنفعة ذاتية او بدلا من أن تتظاهري تظاهرا بالود في حين أن ما في قلبك بارد وودك ممحوض وفي رايي أنك لست كذلك ، غير انك أخطأت بشكل فادح في حياتك وفي رايي أن حكمك زائغ ومعوج لانك تظهرين بلا اكتراث عندما يتطلب الامر منك الامتنان وعدم انكار الجميل وتظهرين احيانا بمظهر الحب والامتنان حين ينبغي أن تكوني باردة كاسمك ٠ لا تتصوري أنني اريدك أن تتعاطفي معي أيتها الانسة فالله يقيك من ذلك » ٠ قلت « تعاطف ؟ » ٠ حسنا أقولها مرة أخرى فيوجد مثل هذه الكلمة ويوجد مثل هذا الامر

ولكن لا بين الجدران • لست طفلة بحيث لا ينبغي على المرء أن يتكلم معك عن أشياء موجودا • لم أفه ألا بكلمة •• تعاطف •• واطمئنك أن هذه الكلمة غريبة عن كل حياتي وآرائي •• لقد ماتت في الماضي وهي في الحاضر مقبورة في قبر عميق وعلى القبر أكوام من الاتربة طيلة فصول الشتاء العديدة المتواترة • أما في المستقبل فسيحدث انبعاث أو نشر لعزائي الروحي وقتئذ سيتبدل كل شيء شكلا وحسا والخالد سيرتدي ثياب الخلود • انه سينهض لا من أجل الارض بل من أجل السماء • وكل ما أرجوه منك أيتها الانسة لوسي سناو وهو ان عليك أن تعاملي البروفيسور بول عمانوئيل معاملة احترام » •

قلت له « لم أناقض هذا الشعور وما كان بوسعي أن افعل ذلك » وواصل كلامه معي قائلا « قولي لي متى سيكون عيد ميلادك ولن ابخل في بضع سنتيمترات من الهدية لك » وقلت له « ستقابلني بما قابلتك به أيها المسيو وهديتي هذه لك تكلف أكثر من بضعة سنتمترات وما استكثرت قيمتها او ضننت بها اليك » ثم أخرجت من الجارورة المفتوحة العلبة الصغيرة وسلمتها له وواصلت كلامي « لقد كانت الهدية في حضني في هذا الصباح ولو لم ينفذ صبر المسيو ولو لم تتدخل الانسة سنت بيير ذلك التدخل ولو لم أكن أهدأ واكثر حكمة لسلمتها لك » •

ونظر الى العلبة وعاينت شبه هالة لازوردية ومسحة دافئة صافية تسر ناظريه وطلبت منه أن يفتحها وقال لي « هذه هي الحروف الاولى لاسمي ومن أعلمك أن اسمي هو كارل ديفيد ؟ » قلت له طير صغير أعلمني بذلك أيها المسيو !! وقال لي « هل ان هذا الطائر طار من عندي متوجها اليك ؟ اذن يستطيع المرء ان يربط رسالة تحت جناحيه اذا مست الحاجة الى ذلك » •

وأخذ السلسلة من داخل العلبة ومع ان قيمتها لم تكن شيئا مذكورا الا انه بعد أن لاحظ انها تلتمع بحريرها وتتلألأ بالخرز راقت لديه كثيرا واعجب بها فنيا وقال لي كطفل « هل هذه لي ؟ » قلت له « نعم •• انها لك » • وقال لي هل هذا هو الشيء الذي كنت تشتغلين به في الليلة الماضية ؟ وقلت له « •• نعم ! » وسألني « هل أنهيتها في هذا الصباح ؟ »

فقلت له نعم ٠٠ وقال لي متسائلا : هل باشرت بها يقصد اهدائها لي ؟ دون ريب على أن تهديها لي في ذكرى يوم ميلادي ! فقلت له نعم ٠ فقال متسائلا أيضا « وهـــذه المنية لديك تواصلت وأنت تعملينهـا ؟ » ٠٠ فقلت له « نعم بالضبط » وقال « أليس اذن من الضـروري أن أقطـع أي جزء وأن أتخذ سبيلا آخر على أساس ان هذا الجزء كان مخصصا لفكرة أخرى وللاخـلاص الى شيء آخر ؟ » فقلت له « لا لزوم لان تفعل ذلك وليس من الانصاف أن تفعله » وقال لي « وهذا الشيء كله لي » فأجبته « كله لك تماما » ٠

وما كان منه سوى أن يفتح معطفه ويثبته بحاشيـة زينيـــة من صدره مبرزا أكثره ومخفيا أقله اذ لم يكن من عادته أن يخفي ما يثير اعجابه أو ما يعتبره زينة ٠ أما العلبة فقد اعتبرها كعلبة حلويات حيث كان مغرمابالحلويات ولانه كان يفضـل أن يشـارك الاخـرين ما كان يفضله من الاطعمة فقد كان يوزع الحلويات ويعير الكتب ومما تركه لي من حلويات كهدية في رحلتي فواكه مجففة من انواع مختلفة وكان نهما في هذه كنهم الاطفال ومعظم تشكيلة طعامه البسيطـة كانت من أمثـال هذه وكان يشارك فيها أطفال الصف الثالث ٠

وراح يعدل معطفه قائلا لي « هذه حقيقة ثابتة الان وليس لدينا آية كلمات حولها بعد كل هذا ، وبعد أن نظر الى المؤلفين اللذين اشتراهما واقتطع بعض الاوراق منها بسكين القلم ٠ وتلك كانت عادته عندما يعير الكتب لاسيما اذا كانت قصصا وروايات بحيث أنني كنت أحيانا أستاء من صرامة رقابته ـ نهض بمنتهى الادب وتمنى لي نهـارا طيبـا قائلا « اننا الان صديقان » واتممت في سريرة نفسي « الى أن تتخـاصم مرة أخرى » ٠ وربما تخاصمنا مرة أخرى بنفس الامسية ولكن الغريب أنه لم يفقد قط من الفرصة التي سنحت له ٠

وعلى خلاف توقعاتنا وصل المسيو بول في ساعة الدراسـة بعـد أن شاهدنا منه الكثير في صبيحة اليوم ذاته ولم نكن نتوقع مجيئـه مسـاء دائما وما أن جلسنا على مقاعدنا الدراسية حتى ظهر في الصف واقـر أنني كنت مسرورة لمشاهدته بحيث أنني أبتسمت له حين وصوله وعندما اتجه الى نفس المقعد الذي حدث سوء التفاهم فيه في السابق اهتممت بعدم

فسح مجال كثير لمروره ونظر بحذر وحرص نظرة جانبية ليرى ما اذا كنت سانتحي قليلا ولكنني لم أفعل ذلك • ورغم ازدحام الرحلة نوعا ما لم اكن أريد الارتداد أو الانسحاب أو الجلوس باختناق •

لقد كان المسيو بول بمعطفه وغطاء رأسه اليوناني برما بما كان يجاور تلك الاردية ومثقلا بها • ولم أعد اجلس مختنقة كما كان يطلب منا هو أن نقعد بجانبه فاتحرك حين أريد التحرك وأقح وأسعل حين تأتيني القحة أو السعال وحتى أتثاءب حين أكون تعبة وأفعل ما أريد فعله حيث أشاء ولم يقابل طيشي وتهوري في تلك الامسية بالعقاب الذي ربما يستحقه فقد بدا واسع الصدر ودمث الطبيعة ولم يحدجني كالسابق بنظرة شرسة ولم تند عن شفتيه كلمة فظة أو طائشة • ولم يكلمني قط الا عند انتهاء الامسية وكنت أحس بأنه في شعور صداقي وودي معي • ان للصمت معاني مختلفة تتنسم معاني متباينة ومختلفة أيضا وما من كلمات توحي من المسيو بول بالمسرة وبالمحتوى الطيب أكثر من وجوده الصامت وعندماجيء بالصينية وبدأ وقت العشاء وضجيجه لم يقل لي بعد أن ذهب الا انه يتمنى لي ليلة سعيدة واحلاما جميلة وفعلا كانت ليلتي تلك سعيدة وأحلامها جميلة •



الفصـــل الثـلاثون

ـ المسيـــو بـــول ـ

المطلوب من القاريء ألا يتعجل الحكم على هــذه النتائج المريحـة ويتصور ان المسيو بول منذ ذلك اليوم أصبح شخصية أخرى يسهل العيش معها وان لا خطورة أو ازعاج يصدر منه ‥ كلا ‥ انه بالطبع رجـل قميء ليست أمزجته على ما يرام عنــدما يثور غضبـه وما أكثر ما يثور غضبه فقد أصبح مزعجا للغاية ٠

وكنت دائبة التفكير عند جلوسي مع المسيو بـول أراقب حركاته وهو يعقــد حاجبيــه ويمط شفتيــه ويزمهــا عندما يسلط ناظريه على بعض التمارين التي كنت أنجزها والتى كانت تخلو من الاخطاء الكثيرة التى كان يهمه أن يرتكبها ولان مجموعة الاخطاء عنــده كانت طيبــة المذاق وانه كان ولا يزال يريد التشبه بنابليون بونابارت من حيث جنون العظمـــة ٠

لقد كان يريد التشبه بالامبراطور العظيم عن طريق معائب عدم الالتزام بالشهامة ولا يهمه أن يخاصم عشرين امرأة مثقفة ويخاصم بدون خجل جملة من المثقفين بتوجيه التهم ضدهم دون أن يهتم بخسارة الكرامة ، وكان على استعداد أن ينفي خمسين من أمثال المدام (دي ستولس) اذا كن يضايقنه ويهاجمنه وينافسنه ويعارضنه (المدام دي ستولس روائية فائدة لنفسها وفي اعتقادي ان الكثيرين من الناس أعجبوا بها واعتبروها الفرنسيين الذين كانوا يعارضون نابوليـون وقد نفاها نابوليــون من فرنسا ثلاث مرات) ٠

انني أتذكر فصلا ساخنا من فصوله مع المدام باناش التى عينتها

المدام بيك بصورة مؤقتة لاعطاء دروس في التاريخ فقد كانت ذكية تملك معلومات جمة وتستثمر ما تعرفـه أحسن استثمار دون أن تنشـد منـه فائدة لنفسها وفي اعتقادي ان الكثيرين ن الناس أعجبوا بها واعتبروها امرأة رائعة وكانت هنالك نقاط في فتنتها وجاذبيتها القـوية الواسعـة وفي طلعتها المعبرة التي ان تجلت فان أذواق المسيو بول لن تتحملهـا أو تطيقها فان صدى صوتها المدوي في القاعة يضعـــه في موقف حرج وان خطواتها الطـويلة في الممر غالبا ما تحـدو به الى أن يفـر ويتوارى عن الانظـــار ٠

وبنية خبيثة فكر ذات مرة في أن يتطفل على صفهـا وبسرعة البرق ألـم باسلوبها التدريسي وهو أسلوب يختلف عن أسلوبه ، وبكياسة ضئيلة وأدب ضئيل أشار الى أخطائها ولا ادري ما اذا كان قد توقع هو القبـول والاهتمام غير أنه قوبل بمعارضة عنيفة وتأنيب سافر لتدخله الذي ليس له ما يبرره اطلاقا وبدلا من أن ينسحب محافظا على كرامته أخذ يتحدى فما كان من المدام باناش الميالة للقتال كملكة الامازونيات الا أن تعامله بازدراء وتهكم وانهالت عليه بعاصفة من الكلمات العنيفة ٠

ولما كان المسيو بول معروفا بفصاحته والمدام باناش معروفة بذرابة اللسان فقد نشأ خصام عنيف ومشادة كلامية ضارية وبدلا من ان يعطي لها الحق ويرد لها احترامها لذاتها أخذ يعاملها بمنتهى الغضب والحقـد المتسمين بالعناد ولم يجلس على مقعده أو ينتزع السيجار من فمه الا بعد أخرجت المدام من الصف بالقوة ٠ صحيح انه انتصر ولكنني لا أستطيع ان أقول أن أكاليل ظفره قد ألقت بظلالها على هيكله بسلام ٠ وقد سبق أن عارضته ذات مرة ولشدة استغرابي نوه أمامي بأنني قد أكون محقـــة ولكنه عندما عرف أن المدام باناش نموذجيـــة في مهنتها لم يستطـــع أن يسيطر على أعصابه فشن عليها حرب ابادة ٠

وبعد ثلاثة أشهر عندما عرف ان عدوته المهزومة تعاني من الحظ العاثر وانها منكوبة بالبطالة لعدم عثورها على عمل نسي كراهيته وأقام الدنيا وأقعدها حتى عثر لها على عمل انقذها من غائلة البطالة وعندما قصدته لتسوية خلافاتهما ولتشكره على مسعاه الكريم من أجلها خرج من الغرفة بعد عشر دقائق باحساس من التبرم العصبي ٠

لقد كان المسيو بول يهوى السلطـة والتحكم ولكي يحقق ذلك كان شبيها بنابوليون في حبه للعظمة وكان من الصعوبة عليه أن يسلم لسواه دائما بل كان يجنح للمقاومة وكانت هنالك حاجة لاناس آخرين يعلمونه أن متطلباته ومستلزماته تترامى الى بعد المنطـق والرشاد وان حكمـه المطلق يوصله حتما الى حافة الاستبداد ·

وحدث أن المسيو بول لم يعد بروفيسورا لي ولم يعد يعلمني وذلك منذ تاريخ انتهاء الفصل الاخير وقد سمعتني بطريقة الصدفة ذات يوم وأنا اعترف بجهلي في فرع من فروع التعليم وأظنـه كان يدرس الرياضيات فاخذني من يدي وامتحنني أول مرة ثم أعطاني بعض الكتب ووجـدني قديرة جدا فعينني واناط بي بعض الواجبات · وفعـل ذلك في البدء بطيبة خاطر وبفرح ظاهر واعتقد بأنني مؤهلة كل التأهيل ولا ينقصني للتدريس شيء ·

ان بداية كل المجهودات تميزت بحماقة شـاذة وحتى عندما كنت اتوصل الى معرفة عامة ما كنت لاقـوى على أن أؤكد بأنني توصلت الى حد البراعة فقد صادفتني فترة صعبة موهنة للعزيمة في كل صفحـة من الصفحات التي كنت أقلبها وكان المسيو لطيفا جـدا في افهامي اياها بلا تبرم أو تشك لانه كان يدري بما يلحق بي من ألم حـاد وذلة يحلها بي شعوري الخاص بعجزي ولا تقـوى الكلمات على ايفـائه حقه بما كان يساعدني في هذا الصدد وبكل عطف وتحمـل · وعنـدما كانت الدموع تنهمر من عيوني نتيجة الجهد ونتيجة الخجـل الذى كان يساورني من جراء ذلك كانت الدموع تنهمر من عينيه أيضا · لقد ساعدني رغم عبء العمـل الذى يضطلع به ويسرق من وقته نصف ما خصص لراحتـه لكي يخصصه لي ·

وما أغرب ما عانيته من أسى عندما استسلم الفجر بغيومه الثقيلة الوطأة في آخر الامر الى ضوء النهار وعندما بدأت قواي ومقدرتي تناضل من اجل أن تتحرر من الضيق والانزعاج وعندما حل وقت المجهـود وانجاز العمل وعندما تطوعت مرتين وثلاثا وأربعـا لاتمام واجبـاتي المناطة بي لاريحه كما كنت أظن تحول عطفه الى صرامة وتحـول ضياء

عينيه الى شرر وأغتاظ واهتاج وراح يعارض ويسيء معاملتي وكنما امعن في ذلك زدت في بذل المجهود الشاق ٠

ان تهكماته اللاذعة أثارت دهشتي وارتباكي وملت سماعها أذناي وزادت غمزاته وتلميحاته المرة عن « غرور المثقف » وأخذت تتكرر بحيث شعرت شعورا غامضا بأنني مهددة بما لا أعرف أي مصير ساصادفه اذا انا تجاوزت الحدود المناسبة لجنسي وتمنيت لو ان لي رغبة غريبة في المعرفة غير الانثوية ٠٠ ولكن أواه ٠٠ لا رغبة لي في ذلك فالذي أحبه يسرني باي مجهود من القناعة ولكن الجوع النبيل من أجل العلم المثالي المجرد والعطش المقدس من أجل السعي الى الاكتشاف ان كل هذه المشاعر والاحاسيس كانت معروفة لدي ولكن على شكل ومضات سريعة الزوال ٠

ومع ذلك عندما راح المسيو بول يسخر مني ويهزأ بي أردت أن أمتلكها بشكل أكمل وأوسع وان تعسفه ومعاملته السيئة أثارت في رغبات طموعة وأمدتني بحافز قوي وزودتني بجناحين طموحين وفي البداية وقبل أن أتغلغل في عمق الحوافز كان تهكمه اللامفهوم قد أوجع راسي ولكن شيئا فشيئا أخذت تغلي دمائي في عروقي وزاد زخم نبضاتي ومهما كانت قواي أنثوية أو بالعكس فالله هو الذي يعطيها وشعرت بأن علي الا أخجل من أية قوى أو قدرات يحبوها الخالق لنا ٠

واشتد الخصام بيننا بحيث بدا لي أنني فقدت مودة المسيو بول وأخذ يعاملني معاملة غريبة وفي معظم لحظات لقائنا كان يقول لي أنني خدعته بتظاهري بالضعف وعدم الكفاءة كذبا ثم يعود على التو ويتهمني بالتقليد والانتحال وبانني استخرجت الجوهر من الكتب التي لم اسمع بها ويظهر أنني من فرط ما طالعت وقرأت رقدت رقودا عميقا ٠

وفي احدى المرات عندما عاود اتهامه لي استشطت غيظا وثرت عليه وجمعت من رحلتي بملء يدي من الكتب قدر ما يتسع لها صدري من الحمل وكومتها على المنضدة على مقربة من قدميه وقلت له « خذها أيها السيد ولا أريد أن تعلمني أكثر بعد الان فما أنا طلبت منك أن تعلمني وأنت تضطرني الان الى أن أشعر شعورا عميقا بأن التعلم لا يجلب السعادة ٠ وعدت الى رحلتي واسندت راسي على ذراعي وقاطمته

فما كلمته يومين وآلمني وأحزنني ذلك لقد كان رده لي حلوا جدا ومسرة جديدة لا مثيل لها والان بعد أن زال هذا لم أعد أهتم بدروسه ٠

ان الكتب التي كومتها لم تؤخذ فقد أعيدت باهتمام الى أماكنها وعاد لتدريسي وكان قد استعد لقطعته نوعا ما وربما كان علي أن أطيل وضعي الدراسي معه بعد أن أبدى مرة أخرى جانب العطف والصلاح ومد يده بالود ولهذا فان الذكرى لم تشأ تكرير واستعادة لحظاته العدائية الاستبدادية ثم ان المصالحة حلوة المذاق دائما ٠

وفي أحد الاصباح جاءني نبأ من عرابتي تدعوني الى الحضور لسماع محاضرة تلقى بنفس الغرف العامة التي ورد ذكرها سابقا وكان الدكتور جون هو الذي جاء بالنبأ وسلمه الى روزين الخادمة بصورة شفهية وجاء في مؤخرة النبأ « ما أحلى وأظرف هذا الشاب ٠٠ الدكتور جون وما أحلى عينيه وما أحلى نظراته على قلبي وعندما ذهبت روزين بعد تسلمها الرسالة سألني البروفيسور لماذا بدت الكآبة على وجهي وما الخبر ؟ وقلت في نفسي : صحيح ما قالته عن ولدها فغراهام جميل وظريف الشكل وله عينان رائعتا الجمال ونظراتهما مثيرة وتمتمت شفتاي بعبارة « انها لم تتكلمَ الا الصدق » ٠

وكان درس ذلك اليوم سارا جدا في نهايته واندفعت الطالبات بعد انتهاء الدرس شاعرات بالبرد وبالبهجة في آن واحد وأنا أيضا كنت على أهبة الذهاب واعتقلتني رغبة بوجوب البقاء وتمتمت بحزن بأنني بحاجة الى هواء منعش وكان الوجاق يتوهج وداخل الصف حار جدا ٠ وكان يعتمل ويفور في صدر المسيو بول عمانوئيل شك مزمن بأنني ألم باللغتين اليونانية واللاتينية ٠

وكما يقال ان للقرود طاقة التكلم لو أنها استخدمتها الا أنها لا تستخدمها خوف أن يتحول عليها ضرر التكلم هكذا عزيت الي قدرة جمع المعلومات التي أخفيها اجراما مني كما يقال ٠ وان امتيازات الثقافة الكلاسيكية هي لي كما تفيد التلميحات وبخصوص أوراد على شاكلة أوراد جبل هيميتوس في أتيكا اليونانية فانني انشأت مخزنا ذهبيا لا يزال عالقا في الذاكرات ٠

واستخدم المسيو بول مئات الذرائع والوسائل ليفاجيء سري ويكتشفه من تملقات ومداهنات تارة ومن تهديدات تارة أخرى للكشف عنه أو افشائه ففي بعض الاحيان كان يضع الكتب اليونانية واللاتينية في طريقي ويتجسس علي ويراقبني لمعرفة ما سافعله بها وغير ذلك وغير ذلك ٠ وبعد أن اسقط في يده ثار غضبه وأخذ يتشبث برأيه ٠ وفي بعض الاحيان كنت أود لو أن شكوكه حقيقية وهناك أوقات كنت أرغب في أن أمد يدي لاحظى بالكنوز المعزوة لي ٠٠٠

أواه ٠٠٠ لماذا لم يتعهدني أحد في صغري لان يوصلني الى مصاف الذكاء ويوحي الي بأنني قادرة بمفاجأة واحدة وبانتصار عنيف شامل أن اوجه ضربة لروحية المسيو بول الساخرة تكون الساحقة الماحقة ٠٠ أسفا ٠٠ لم يكن هذا في مقدوري ٠ واليوم بعد أن وجد المسيو أن مكائده ترتد الى نحره تخلى عن مساعيه في الحال ٠٠

ان موضوعه الثاني كان ما يسميه بالمرأة الذكية الالمعية « وهي نوعية من نوعيات الفلتة الطبيعية وهي حدث مشؤوم لامكان له ولا فائدة في الخلقية ولا تراد لا كزوجة ولا كعاملة وأول ما ينتظرها هو الجمال ويؤمن بقرارة نفسه أن مزيجا من الوسط الانثوي المحبوب الرائق الهاديءوالمستسلم المذعن هو الوسادة الوحيدة التي يمكن للفكر الرجولي والحس الرجولي أن يسند رأسه ايها ليجد الراحة بدلا من أوجاع الرأس وما دامت هذه الفلتة الطبيعية قادرة على تشغيل ذهنية الرجل فهي قادرة ولوحدها أن تحقق أية نتائج عملية ٠ أليس كذلك ؟ (!!) وعلامة التعجب هذه يقصد بها سحب اي تناقض أو معارضة لدي ٠

وقلت للمسيو بول بصدد ذلك « هذا ما لا شأن لي به ولا أعيره أية أهمية » ثم أضفت على ذلك العبارة التالية « هل تسمح لي بالذهاب أيها المسيو ؟ ان جرس الغداء قد رن » وقال لي وماذا في ذلك ؟ انك لست جائعة وقلت له « الصحيح أنني كنت جائعة فلم أتناول شيئا منذ الفطور الذي تناولته في الساعة السابعة واذا لم أستجب لهذا الجرس فمعنى ذلك أنني سأبقى الى عشاء الساعة الخامسة » ٠

وكان هو أيضا جائعا وذهبنا فكسر بريوشة واحدة الى نصفين

(البريوش خبز مخلى يهيــا مع قليل من الزبــدة والبيض ـ المترجم)
كانت مهيأة له خصيصا وأعطاني نصفها والصحيح الذى ينبغي أن يقال
عنه أن نباحه أسوأ من عضته وسيأتي خبر هجومه الحقيقي الكبــير ولا
أستطيع الامتناع عن التعبير عن رغبتي السرية وهي أنني أدرى بحقيقة
كل ما كان يتهمني به ٠ وسألني ذات مرة بلهجة ناعمـــة « ألا تشعرين
شعورا خالصا بأنك جاهلة ؟ » ولو أنني أجبته بحلم واعتدال وخنــوع
بالايجاب القاطع فانني كنت معتقدة بأنه يمــد بكلتا يديه الي ونعود
أصدقاء فورا ولكنني أجبته « لست جاهلة أيها المسيو جهلا تاما بالشكل
الذي تعزوه الي وانني في بعض الاحيان ـ لا في كلها ـ أشعر بأن لدي
معرفتي الخاصة » ٠

وقال لي بحدة « ماذا تعنين ؟ » ولما كنت عاجزة عن أن أجيب عـلى
هذا السؤال توا تحاشيته بتبديل الموضــوع وكان الان قـد أنهى نصف
بريوشته ولما كنت متأكدة من انه لا يمكن أن يشبع بتلك القطعة الصغيرة
وبعد أن شممت رائحة التفاح المحمض بعيدا عن منضدة الطعام تجرأت
على أن اســـأله ألا تشـــاركني طيب رائحة ما نشمه من التفــاح المحمض
فقال « بلى أشاركك » وقلت له « اذن ألا تسمــح لي بالخــروج من باب
الحديقة لعبور الساحة حتى آتي لك بصحن مليء منه لانني معتقدة بأن
الطباخ « فوتون » له طريقته الخاصة المفضلة جدا في صنع الثمار المسخنة
بعد أن يملأها بقليل من التوابل والسكر وبقدح أو قدحين من النبيــذ
الجيد فهل أذهب ؟ » ٠

« وقال لي مبتسما « أيتها الشرهة الصغيرة ! أتذكر جيــدا كيف
استطبت أكل هذا النوع عندما أعطيتك أياه وأنت تعرفين الان انك ان
أتيت لي بمثل هذا التفاح فمعناه انك تأتين به لنفسك أيضــا ٠٠ اذن
ما عليك الا الذهاب على أن تعودي بسرعة » ٠

وأخــيرا اعتقني على أن أعــود وكانت خطتي تقضي بأن أذهب
وأعود بسرعة وبايمان محض وأضع الصحن له عند البـــاب وأتوارى بلا
توان وبلا ضبط نفسي تاركة كل النتائج على أمل تسويتها في المستقبل ٠
ويظهر أن مقدرته الحادة التي لا تطــاق توقعت ما كنت أروم أن أفعــله
فقد التقاني عند عتبة الباب وأدخلني بسرعة الى الغرفة وبدقيقة واحدة

أجلسني في مقعدي الاول وبعد أن أخذ صحن الفاكهة من يدي قسم القطعة التي كان المفروض أن تكون كلها له فقط وأمرني أن آكل حصتي . وامتثلت بدون رضى مني وأحس بالحيرة ـ على ما اتصور ـ من احجامي وعدم رغبتي وأخذ يهاجمني بعنف بسيل من الكلمات الغاضبة وبين أن قيمتي لا تعني شيئاً .

واقترح من أجل رفع هذه القيمة أن أشترك ـ بوصفي مربية ـ في الامتحانات التالية وآخذ مكاني في الصف الاول من تلميذات الدرجة الاولى ثم أحفظ انشاء باللغة الفرنسية في أي موضوع يملى علي دون الاستعانة بالقواعد أو القاموس . وكنت اعرف ما ستسفر عنه هذه التجربة المخصصة لمن لا موهبة له أو استعداد طبيعي لها ونتيجتها تكون صفرا أو نتيجة تافهة . وحول هذا الموضوع ما أكثر ما اشتد الجدل بيني وبين المسيو بول واحتدمت المعركة بصخب الطلب والرفض وبمحاولات الابتزاز ومردودات الصد والمقاومة .

في ذلك اليوم بالذات تعرضت لتوبيخ شديد فعناد كل بنات جنسي تركز على ما كان يبدو ـ في أنا وكان بي كبرياء الشيطان وغروره الجم . وساءلت نفسي هل حقا أنني أخشى الرسوب ؟ وما الذي يهم لو رسبت أو نجحت ؟ ومن أنا لكي لا أرسب اسوة باللواتي يرسبن وهن أحسن مني ؟ ولو رسبت لكان هذا أفضل لي . أنه يريدني أن أرسب يريدني أسوأ من أن أرسب وبعد دقيقة توقف وجر نفسا وقال لي « هل اتكلم الان وانت تصغين الى ؟ » .

فقلت له « لن أصغي اليك في مثل هذا الموضوع قط وحتى القانون نفسه لن يثنيني عن عزمي فانا مستعدة لدفع الغرامة أو الدخول الى السجن بدلا من أن انتقص من قدري في الامتثال لنظام ووعوظ تاتيني من منصة » وقال لي « ألا ترضخين من أجل الصداقة ؟ ألا يمكن أن تؤثرين بي بحوافز أنعم وأرق ؟ » فقلت له « أبدا ولو بمقدار ذرة ولو بحد الشعرة فما من صداقة تحت الشمس يحق لها أن تحدوني الى الرضوخ والامتثال وما من صداقة بمستطيعة أن ترغمني على قبول هذا الازعاج » .

ورد علي بسخرية ـ وتتجلى سخرية المسيو بول بزم شفتيه وفتح منخريه وتقليص جفنيه ـ وقال أن لا يوجد الا نوعية التماس واحد

يمكن أن اصغي اليه وهو لا يريد أن يسخدم تلك النوعيــــة وهي بعض الاقناعات من بعض الدوائر المسلحة عاطفيا لمثل هذه المحاولة ٠ وهنــا نفذ صبري فانفجرت بصرخة صاخبة معلنة انني أريد التخلص والخروج الى الهواء الطلق فأنا على وشك الاصابة بحمى ٠

وأجابني الظالم الذي لا يرحم ولا يلين ٠٠ « اسكتي !! هذا مجرد ذريعة للفرار » وقلت « الى كم أعاني من فضولك ومراقباتك ؟ في الواقع أنني لم أفهم قانونك ولم أفهم التاريخ الطبيعي للقضايا الخرافيــة فانا واحدة من سكان الجزيرة البــاردة والجلوس بجنب الوجــاق لا يلائمني وعلي أن أتوجه الى المشرب وأشرب قدحا من الماء لان كل الحلوى ومربى التفاح جعلتني أعطش » فقال « اذا كان هذا كل ما تريدينــــه الان فأنا أقوم لك بهذه المهمة » ٠

وذهب ليأتي لي بالماء وبالطبع عنــدما وجــدت الباب على المزلاج ورائي لم اضيع الفرصة وقبل رجوع المسيو بول وجــــد أن فريستــه القلقة قد ولت الادبار وتخلصت من مزعجاته ٠



الفصل الواحد والثلاثون

ـ شجرة البلوط وحورية الغابة ـ

كان الربيع على وشك الظهور فقد تحول الجو دافئا على حين غرة وهذا التبدل في درجات الحرارة جاء لي معه ـ ضمن العديد مما جاء به ـ بانخفاض في قواي الجسمانية وان اجهادا في هذا الوقت أعياني واتعبني وليالي السهاد جعلت أيامي مضنية • وفي احدى الظهائر (جمع ظهيرة) المصادفة يوم الاحد كنت أتمشى فقطعت في مشيي قرابة فرسخ باتجاه الكنيسة وعدت منها تعبة منهكة القوى ولذت بصدفي الاول وهو ملاذي عندما أكون وحيدة وفرحت اذ جلست وجعلت من رحلتي وسادة لذراعي ورأسي •

واصغيت هنيهة بضجيج دندنة النحل في الحديقة وشاهدت عبر الباب الزجاجية أوراق النبات الربيعية مبعثرة وشاهدت المدام بيك وجمعا زاهيا من الصديقات والاصدقاء كانت قد أولمت لهم وليمة عشاء بعد قداس الصباح وكن يمشين في ممشى الحديقة تحت أغصان أشجار الفاكهة التي أوردت في ذلك الفصل وارتدت لونا نقيا لطيفا « كثلج الجبال عند شروق الشمس » •

وتركز انتباهي الاساسي على شخص واحد من بين مجموعة الضيوف ـ على ما أتذكر ـ تركز على فتاة جميلة شابة سبق أن شاهدتها تزور المدام بيك وقيل لي في وقتها بشكل غامض انها كانت ابنة بالمعمودية للمسيو بول عمانوئيل وأن بين والدتها أو عمتها أو أية قريبة أخرى لها وبين البروفيسور صداقة قديمة خاصة ولكن المسيو بول لم يكن ضمن فريق العطلة في ذلك اليوم غير أنني كنت قد شاهدت هذه الفتاة

الصغيرة معه قبل الان وبقدر ما يتاح للمرء أن يحكم على الامور من بعيد يبدو أنه كان يستمتع بوجودها لقد شاهدتها تجـــري نحوه وتمسـك بذراعه وتتعلق به وذات مرة عندما فعلت ذلك شعرت باحســاس غريب يتمشى في كياني احساس مترقع غير مريح كاحســاس عائلي سبقني عــلى ما أظن الا أنني لم أشأ أن أحل أسباب ذلك وعنــدما كنت أراقب تلك الفتاة التي اسمها الانسة سوفير وألاحظ بريق ردائها الحريري ـ علما بانها كانت ترتدي دائما الالبسة الغالية مما يستدل على أنها كانت من عائلة غنية ـ والاحظ ما على جسمها من أوراد زينة وزمرد ، عندما فعلت ذلك انبهرت عيني منأضوائها وأغمضتا• ومن جراء التعب الذي أحسست به ودفؤ النهار ودندنة النحل وغناء الطيور شعرت أن كل ذلك هدهدني وأخيرا دفع بي الى النوم •

وبعد مرور ساعتين وقبل أن انهض كانت الشمس قد توارت وراء البيوت العالية وكان لون كل من الحديقة والغرفة رماديا وآوت النحـل الى خلاياها وظهرت أكمام الزهور وذهب الضيوف أيضا وخلت الازقــة من المارة والسابلة • وعند استيقاظي شعرت بالراحة والغريب أنني لم أشعر بالبرد ولم يسر الخدر في خدي وذراعي بعد أن عانيت الضغط فوق خشب الرحلة الصلب ولا غرابة في ذلك فبدلا من الخشب الاجرد الذي وضعتها عليها وجدت شالا ثخينا مطويا بعناية وشالا آخر ـ كلاهما أخذ من المشى الذي تعلق عليــه مثل هـــذه الشالات والملابس وغطيت به تغطية أدفأتني •

من عمل ذلك يا ترى ؟ وأية صديقة ؟ من من المدرســات ؟ من من التلميذات ؟ ومن كانت معادية لي سوى سنت بيير ؟ والسؤال الذي دار في خاطري هو ••• من ذا الذي تحلى بفكر كهذا الفكر وبفن كهذا الفن وبعادة كهذه العادة ومن أفاد افادة عاطفية كهذه الافادة ؟ ومن ذا الذي كانت لديه مثل هذه الخطوة الهادئة الخافتة ؟ ومثل هذه اليد الناعمــة اللطيفة ؟ ولكن لابد انني كنت اسمع خطواتها أو أشعر بها لو انها دنت مني أو لمستني •

قلت لنفسي لا أظن أن جنيفر فانشاوي هذه المخلوقة الشابة الجميلة لها مثل هذا اللطف وهذه الكياسة الجميلة في التصرف اذ لو كانت هي

لما فعلت ذلك وانما كانت تسعى لجري جرا من كرسي وقلت أخيرا ...
ربما كانت المدام بيك هي التي فعلت ذلك بعد أن جاءت ووجدتني نائمة فخشيت أن أبترد اذ أنها تعتبرني كماكينة مفيدة اخدم الاهداف التي أجرتني من أجلها ولهذا لم تردني القى الاذى بلا مبرر والان قلت لنفسي .. ساتمشى فالمساء رائق وليس باردا جدا ولهذا فتحت الباب الزجاجيه ودخلت الى المحل المخصص لجلوس المعلمات على المقاعد المصفوفة للاستجمام .

ودخلت الممشى المشجر الضيق ولو كان مظلما أو حتى وقت الغسق لما جازفت في دخوله لانني لم أنس الوهم الغريب لظهور الخيال أمامي (اذا كان هنالك وهم) بنفس المكان الذى وجدته قبل بضعة أشهر وكانت بقايا أشعة الشمس تضيء التاج الرمادي ليوحنا المعمدان ولم تكن الطيور الموجودة في الحديقة قد آوت بعد الى أعشاشها الكائنة بين الشجيرات وبين النباتات المعترشة الكثيفة الاغصان .

ورحت أتخطى في تلك الارجاء جيئة وذهوبا وأومضت في رأسي نفس الافكار في تلك الليلة التى دفنت فيها جرتى الزجاجية وكيف أننى فكرت أنه أذا أردت أن أسجل تقدما ما في الحياة فعلي أن أتخذ خطوة آخرى باتجاه الموقف المستقل . ان ذلك السيل المترادف من التأملات والانعكاسات التى لم أتابعها مؤخرا لا تعني أنني هجرتها وتخليت عنها كليا واذا ما عين من الاعين حولت بصرها عني ووجه من الوجوه تجهم بوجهي ظلما وجورا فقد صوبت الى تلك التأملات المتلاحقة ضربة في الحال بحيث أنني شيئا فشيئا آكون قد أكملت نصف خطتي الموضوعة .

وقلت لنفسي « العيش لا يكلف الا القليل هنا ففي هذه البلدة الاقتصادية « فيليت » نرى الناس أكثر تحسسا بالقناعة مما هم عليه في بلدي انكلترا وأقل اهتماما بالمظاهر وبالتنافس حول الظهور حيث لا يخجل احدهم من أن يكون رضي البال في بيته وقانعا بما يستطيع ادخاره فايجار الدار في مكان مختار بتعقل ليس غاليا . واذا كنت قد وفرت ألف فرانك فبوسعي أن اقتني بها مبنى يشتمل على غرفة كبيرة وغرفتين أو ثلاث أصغر منها أوثث الكبيرة ببضعة مقاعد وبضع رحلات وبلوحة سوداء ومنصة عالية لي عليها كرسي ومنضدة واسفنجة وبعض

الطباشير وأبــدأ بتدريس طــلاب نهاريين وبهـــذا أشق لنفسي طريق التقدم الى أمام ٠

وغالبا ما سممت من المدام بيك أن بدايتهـــا لم تكن من نقطـة عالية ٠ واين هي الان مما بدأت به ؟ ان كل هذه المباني والاثاث وهذه الحديقة ملك لها اشترتها بمالها الخــاص ولديها دخــــل كاف لتأمـين حياتها الى النهاية ولها مؤسسة ناجحة ومزدهرة تؤمن النجــاح لبناتها ٠ وقلت لنفسي « تشجعي يا لوسي سنــاو ٠٠ بنكران ذات وباقتصــاد في الوقت الحاضر وسعيا مطردا شيئا فشيئا ان أى شيء أو غرض في الحياة لا ينبغي أن يخذلك » ٠

« غامري يا لوسي واعملي على أن لا تتشكي من أن هذا الشي أناني جدا أو محدود جدا ويحتاج الى اهتمام ٠ أقنعي لتعمــلي من أجــل أن تكوني حرة مستقلة الى ان تقوي على البرهنة ـ بنيلك الجــائزة ـ على أن لك الحــق في أن تنظري أعــلى فأعــلى وبعد ذاك لــن يكون أي شيء أكثر من حياتي ولن يكون البيت الحقيقي أغلى من حيــاتي ولن يكون هنالك ما هو اعز من حياتي أو نفسي وبقيمتها الســامية أستطيع أن استنبط أشياء افضل حتى أن أكتفي بتثقيف نفسي فقط ٠

وليس هناك في العالم من يحدوني الى أن أضع على قدميه ـ برضى نفسي محض ـ عبء الغرور الانساني كله انما سأتولى بشــرف واعتزاز المهمة النبيلة « مهمة العمل النبيل من أجــل الاخرين والعيش من أجــل الاخـــرين » ٠

ان مدار حياتك يا لوسي لا ينبغي أن يدور أو تكفيــك مرحلة الهلال ٠ حسنا جدا ٠٠ اذا كنت أرى عددا هائلا من أبناء الخليقة ومن أبناء جلدتي في وضع ليس أفضل من وضعي واذا كنت أرى ان عـــددا كبيرا من الرجال وعددا أكبر منهم من النساء دائبون على حياة الشظف والعوز فعلام ينبغي أن أكون من بين الفئــة المفضلة المميزة ؟! ٠ انني اؤمن ببعض التمازج بين الامل وبين شعاع الشمس الذي يحسن أســوأ قسمة واعتقد بأن هذه الحيــاة ليست كل شيء فلا هي البــداية ولا هي النهاية وانني اؤمن وأنا أرتعد وأثق وأنا انتحب ٠

وعلى هذا فان هذا الموضوع انهي أمره ومن الصواب أن ننظر نظرة صميمية في أمور حياتنا بشجاعة بين الفينة والفينة لتسويتها وحلها باخلاص وانه لخادع لنفسه ويائس من يكذب على نفسه اثناء احصائه المفردات والمواضيع ويدون تحت العنوان « سعادة » هي في اصلها بؤس . أصرخ بأعلى صوتك ... عذاب ... عذاب .. قنوط .. قنوط أكتب كلتا هاتين الكلمتين بحروف صارخة وبقلم عازم .. فمن الافضل لك أن تدفع ديونك للقدر . زور وزيف وغش وأدخل كلمة « امتياز » بدلا من من كلمة « ألم » وانظر اذا ما كان دائنك الجبار يسمح بمرور الخدعة أو يقبل منك العملة النقدية التي تريد بها أن تخدعه . هب للاقوى ماء بدلا من مطالبته اياك بالدم فهل سيأخذه ؟! لن يقبل بحرا كاملا بدلا من قطرة الدم الحمراء وهنا سويت حسابا آخر » .

ومررت بشجرة « متوصالح » جبارة الحديقة واملت وجهي على جذعها المعقد واستقرت قدمي على سداشها الحجري وقبرها الصغير الكائن في جذعها وتذكرت العبارة الشعرية المقبورة معها وتذكرت الدكتور جون وودي الساخن له وايماني بمميزاته الفاضلة وفرحي بتناسقه ورشاقته وسالت نفسي عما بقى من صداقتنا الغريبة الوحيدة الجانب التى كانت نصف رخامية وبمثابة نصف الحياة من جانبها الواحد صدق ومن الجانب الاخر هزء وسخرية .

ولا أعلم اذا كان هذا الشعور قد مات انما الذي أدريه أنه دفن وفي بعض الاحيان أتصور أن القبر غير صامت وغير هادىء . وحلمت حلما غريبا عن الارض المقلقة للراحة وعن الشعر الذي لا يزال ذهبيا وحيا يتلاعب داخل الكفن ، هل أنا يا ترى متسرعة ؟! ان هذا السؤال الذي وجهته لنفسي سبق أن وجهته بحدة قاسية بعد مقابلة قصيرة جرت بالصدفة مع الدكتور جون فنظراته لا تزال عطوفة ولطيفة وكذلك يده الدافئة وصوته لا يزال بهيج النبرات اذا ما ردد اسمي . قال مرة « لم أحب لوسي مطلقا » ولكنه قالها بلهجة تحنان .

وعرفت فيما بعد أن ذلك اللطف وذلك الود وتلك اللهجة الموسيقية ليست خاصة بي فقد كانت جزءا من نفسه ومن عسلية مزاجه ولطافته ومن المرهم العطري لنزعته الدمثة يهبها مثلما تهب الفواكه الطرية

حلاوتها للنحلة ومثلما تنشر النباتات روائحها المعطرة حولها ، وهل ان الخوخ يحب النحلة التي يغذيها أو الطير الذي يغذيه ؟ وهل أن النسرين يعطر الارجاء ؟ « ليلتلك سعيدة أيها الدكتور جون · أنت انسان طيب وانت جميـل ولطيف ولكنك لست لي · ليلتك سعيدة وليحفظك الله » وبهذا انهيت تأملاتي واستغراقاتي في التفكير التي جعلت شفتي ترددان كلمتي « ليلتك سعيدة » ·

وسمعت ترديد الكلمتين ثم سمعت صداهما بالقـــرب مني تقول « ليلتك سعيدة أيتها الانسة أو بالاحرى مساء الخير لان الشمس لم تغرب بعد وآمل أنك نمت نوما هادئا » وجفلت وكانت لحظـــة مقلقة فقـد عرفت الصوت وعرفت المتكلم وقلت له « تقول نمت أيها السيد ؟ متى ؟ واين ؟ » وقال لي « متى ؟ وأين ؟ يظهـــر انك حولت يومك الى ليـل واخترت رحلة جعلت منها وسادة لك وهي مأوى صعب الاحتمال » ·

وقلت له « نعم ولين لي أيها السيد عندما كنت نائمة فقد تذكرني الشخص الواهب غير المنظور الذي لازم موقع نومي وبصرف النظر عـن كيفية نومي نهضت موسدة ومغطاة » وسألني « هـل دفأك الشـال ؟ » فقلت له « تمام التدفئة فهل تريد تشكرات على ذلك ؟ » فقال « كلا ·· لا أريد تشكرات لكنك كنت شاحبة الوجه أثناء النوم فهل أنت مصابـة بمرض الحنين الى الوطن ؟ » وقلت له « لكي يصـاب المرء بالحنـين الى الوطن ينبغي أن يكون له منزل » ·

وقال لي « اذن أنت بحاجة الى صـديق يهتم بك ولا أرى ايتهـــا الانسة لوسي ان هنالك من يحتاج الى صديق أكثر منك فأخطاؤك الكثيرة بحاجة الى ذلك فأنت بحاجة الى مزيد من المراقبـة والخضوع للنظـــام والاستقرار » وهذه الفكرة فكرة الاستقرار لم تبرح رأس المسيو بول وان كل مظاهر الخضوع الاعتيادية له فشلت في استبعادها عن ذهنيته ومـع ذلك سألته ماذا يعني بها ؟ » ·

قال لي « انت بحاجة الى مراقبة وحراسة ومن صالحك أن أكون أنا الذي أقوم بذلك وان أبذل جهدي للقيام بكلتا المهمتين · وبالفعـل أنا أراقبك وأراقب الاخريات أيضا عن كثب وبصورة متواصلة أكثر ممـا

تتصورين أنت ويتصورون هن ، هل ترين تلك النافذة التي تضيء ؟ »
وأشار الى شبكية احدى غرف المدرسة الداخلية المخصصة للدراسة وقال انها مخصصة لملاحظاتي ومراقباتي فهناك أجلس وأقرأ ساعات ·· انها طريقتي وانه ذوقي ، وكتابي هو هذه الحديقة التي محتوياتها ذات طبيعة بشرية · طبيعة بشرية أنثوية وأنا أعرفكن جمعاء · أعرفكن جيدا ·· الانسة سنت بيير الباريسية وابنة عمي صاحبة البناية المدام بيك ذاتها » ·

وقلت له « هذا ليس بالامر الصحيح أيها المسيو ! » فقال لي « ماذا ؟! ليس هذا بالامر الصحيح ؟ بأية عقيدة ؟ وهل أن مباديء كالفين أو لوثر تدينان ذلك ؟ وماذا يهمني في ذلك فأنا لست بروتستانتيا · ان أبي كان غنيا وأنا عرفت الفقر وشعرت بأوضار الجوع عاما واحدا في احدى عليات روما (غرفة تحت السقف الاعلى) وأنا وان كنت قد تضورت جوعا وعشت تعيسا على وجبة طعام واحدة في اليوم فقد ولدت لاكون غنيا » ·

وقلت له « ان الاكتشافات التي تتم بطريقة التلصص والمراقبة ، ليست اكتشافات مشرفة » وقال لي « هذا هو التزمت بعينه · تتصورين أنني متزمت ؟ أشك في ذلك ·· هل تعلمين كيف يسير نظامي الجزويتي ؟ هل تعرفين الانسة سنت بيير ؟ » فقلت له معرفة بسيطة وجزئية » وضحك قائلا « هذا صحيح ·· تعرفينها معرفة بسيطة وجزئية في حين أنني عرفتها شابة وتجيد الظهور بمظهر الشابة ككل بنات جنسها · انها مذواقة أعرفها معرفة تامة ودقيقة وهنا وجه الاختلاف » ·

واستطرد يقول « انها تظهر لي جانب الود وقد أهدت لي قفازين مخمليين ولاطفتني ، وتطري علي وتتملقني وتتودد لي وأنا بدوري أبدي الجانب السهل المشجع لمن تريد ان تتودد لي من الفتيات والنساء رغم وضعية ذهني وهي وان كانت غير جميلة فقد كانت حين عرفتها شابة وتجيد الظهور بمظهر الشابة ككل بنات جنسها · انها مذواقة في ارتداء الالبسة ولها كل ما يجعلني في غنى عن أن أتألم أو أصاب بالحيرة والارتباك » ·

وقلت له « ليس ضروريا أن تقول ذلك فأنا لم أشاهدك في حياتي مرتبكا أو حائرا قط » وقال لي « يا آنسة ! ·· أنت لا تعرفين عني الا القليل ففي سريرتي فيض من الاعتدال والتواضع والحياء » وقلت لـه « أيها المسيو لم ألحظ ذلك فيك قط » وقال لي « ايتها الانسة « انهـا موجودة وكان عليك أن تلحظيها في » وقلت له « أيها المسيو ·· « شاهدتك وسط المحافل وعلى المنصات العالية وفي منابر الخطابة أمـام أصحـاب الفخامات والمعالي وكنت هناك كما أنت مدرسا للصف الثالث » ·

وقال لي « أيتها الانسة ·· لا تستطيع الالقاب أو أصحاب الفخامات والمعالي أن تؤثر على تواضعي وان كلا من الشهرة والشعبية رائدي فانا أنشدها واستنشق الهواء فيها بحرية ولكن ··! ولكن ··! أقولها باجتزاء ·· هو ذا احساسي وشعوري أمامك في هذه اللحظة بالذات واخشى أن الام على ذلك ·· لو كنت ··! أيتها الانسة ·· متزوجا ــ في حين انني لست كذلك ــ ولو أنك تحاشيت التهكم علي لابدائي أمامك هذه الفكرة ووجدت أن من الضروري أن تفتشي لي عن سيدة تنظر الي على أساس ان أكون زوجهـا مستقبلا فحينئذ يتراءى لديك أنني مثل ما قلت لك الان ·· متواضع » ·

وصدقته الان تماما وبتصديقي ما قاله امتدحته بخـالص من الاحترام وتألمت له ومضى في كلامه قائلا « بالنسبة للآنسـة سنت بيير أرادت ذلك مرة أن تصبح زوجة لي وهنا احترت ولم أدر أين سيقودني ضوء تلك الشبكية ·· ياللشبكية الساحرة !! أية اكتشافات عجيبة قدرت أن تكتشفيها ؟ » · وتابع قائلا « وبعد أن شاهدت حقـدها وغرورها وتوافهها وطيشها وتقلبها لا هنـا فقط ، بل في أماكـن اخرى أيضـا عرفت الذي ينهيني عنها وعن كل فنون مكرها وحيلـها وانا الان آمن بعيدا عنها » ·

وتابع كلامه حالا « أما تلميـذاتي تلكم الشقراوات اللطيفـات فالغريب فيهن أن أعظمهن تحفظا يمزحن مزحا صاخبـا كالاولاد وان أكثرهن احتشاما ورزانة لا يتحرجن عن أن يستلبن عناقيـد العنب ويقطفنها عنوة من حيطان الحديقة أو يهززن الاشجار لاسقاط اثمارها · ولكن عندما جاءت المعلمة الانكليزية ولفتت نظري ولمحت تفضيلها هذا المشى

الشجر المخضوضر وحبها للانفراد والوحدة قبل أن يحدث بيننا كلام لمدة طويلة ، أتذكرين آنذاك أنني جئتك بصمت وهدوء وقدمت لك باقة صغيرة من ورد البنفسج عندما كنا غرباء عن بعضنا بعضا ؟!» ٠

وقلت له « أتذكر ذلك وأتذكر كيف أنني جففتها واحتفظت بها ولا تزال محفوظة لدي حتى الان » وقال لي « كم سرني أنك أخذتيها بلطف وبسرعة دون احتشام مصطنع بل بكل بساطة ولطافة ٠ وهذا الشعور حين اتذكره بخوف وحين تستعرضه عيناي أو يخطر ببالي تلميحا أمقته وأنفر منه » ٠ ولنعد الان الى موضوعنا ٠ أنني لست الوحيد الذي راقبتك بل في الامسيات غالبا ما كان يراقبك ملاك حارس آخر بصمت ودونما ضجيج يحوم حولك عن كثب ٠ كانت ابنة عمي المدام بيك تتسلل اليك ليلة بعد ليلة الى الدرجات هنا وهناك لتراقب حركاتك وأنت لا تعلمين ذلك ٠

وقلت له « ولكن أيها المسيو هل تستطيع عن بعد ـ بعد ذلك الشباك ـ أن تشاهد ما يجري في هذه الحديقة ليلا ؟ » فقال لي « تحت ضوء القمر أستطيع أن أشاهد بالنظارات ولكن الحديقة مفتوحة أمامي ٠ وعند السقيفة وداخلها يوجد باب يؤدي الى ساحة توصل بالكلية ومفتاح هذا الباب هو عندي أغدو وأروح به وفق ما أشاء ٠ وفي هذه الظهيرة أفدت من دخول المدخل ذاته » ٠

ولم يكن لي معدى من أن أقول له « اذا كنت رجلا شريرا تحوك الخطط والتصاميم بهذه الصورة فأنت اذن انسان مرعب » ويبدو ان موقفه المجامل لم يتأثر بهذا الرأى فأشعل سيجاره وبعد أن نفخ الدخان اتكأ على الشجرة وأمال رأسه اليها ونظر الي نظرة باردة ممتعة اعتاد عليها عندما يكون مزاجه مطمئنا ورأيت أن من الصواب أن أمضي في توبيخه بمواعظ على الطريقة التي دأب على استخدامها معي ولم أدر لماذا لا ينبغي علي أن أكشف له ما في ذهني على نحو حاسم ولهذا أبرزت أمامه انطباعاتي فيما يخص نظامه فقلت له « ان المعلومات التي تحصل عليها بهذه الطريقة وهذا الاسلوب الذي المعت اليه آنفا يكلفك الكثير أيها المسيو فهذا الغدو والرواح وهذه المراقبات والتلصصات تنتقص من كرامتك ومن عزة نفسك » ٠

وصاح ضاحكا ٠٠ « كرامتي ؟!! » متى شاهدتيني أدوخ رأسي من أجل كرامتي ؟ » انك أنت الجديرة بذلك يالوسي ٠ كم من مرة وانت في عزلتك تمتعت في الدوس على ما تسمينــه « كرامتك » وفي الاستعــلاء عليها وفي تمزيقها اربا اربا وذرايتها في الهواء » وقلت له « أيها المسيــو أقول لك ان كل نظرة تلقيها من الشبكية هي خطيئة ترتكب ضد أفضل ما لديك من سجية أو طبيعة ٠ ان دراسة القلب الانساني بهذه الصورة هي بمثابة الاستمتاع بتفاحة حواء سرا وتدنيس المقدسات وكنت أريدك أن تدين بما أدين به نفسيا » وأجابني « لا أكترث لما تدينيني به وراح يدخن السيجار وبعد هنيهة من الابتسام والسكوت التأملي قال فجــأة « لقد شاهدت أشياء أخرى » ٠ وبعد أن رمي السيجار من بين شفتيــه بين الشجيرات وظلت تومض هنيهــة وسط الظلمــــة قال « انظري الى بقية السيجار هذه أليست هــذه الشرارة كعين تراقبك وتراقبني ؟ » ثم تحول نحو الحائط وأعاد اللفتة ومضى يقول « يا آنسة لوسي ٠٠ وجدت أشياء لا يمكن تفسيرها جعلتني أراقب طيلة الليل للحصول على حل والى الان لم اتوصل اليه » ٠

وكانت لهجته غريبة فثارت دمائي في عــروقي ورآني أرتجف من الغيظ والغضب فسالني « هل أنت خائفة ؟ وسواء كان جوابي التــالي له من معين كلماتي أو من معين عينيه الحاقدتين فقد قلت له « الجو بارد، وقد جن الليل وتأخرنا وتبدل الهــواء وينبغي العودة الى النوم » فقال لي « لم تتجاوز الساعة الثامنة ليلا وقبل أن تذهبي أجيبي على سؤالي هذا فقط » ومع ذلك تريث قبل أن يطرح السؤال وأسود ظلام الحديقة وتزامنت ظلمة الليل مع تراكم الغيوم وبدأت قطرات المطــر ترذ وراح رذاذا يتساقط على ما بين الاشجار وودت لو انه شعر بكل ذلك غير أنه كان أكثر انغمــارا وانهمـــاكا من أن يتحسس بذلك وطــرح ســؤاله التالي علي » :

« أيتها الانسة هل في طريقتك المذهبية الايمان بخوارق الطبيعة ؟ »

وأجبته « يوجد فارق بين النظرية وبين الايمان حول هذه النقطــة بين من هم مثلي مذهبا أو بين ذوي المذاهب الاخرى ٠ ولماذا أيها المسيو تطرح علي مثل هذا السؤال ؟ » وقال لي بلهجة التساؤل « لماذا تنكمشين

وتتكلمين بصوت خافت ضعيف ؟ فهل أنت من المؤمنـات بالخرافات ؟ » فأجبته « أنا عصبية بطبيعتي ولا أريد الخوض في مثل هذه المواضيع وأكره ذلك أكثر بسبب ... » وهنـا قاطعني قائلا « بسبب كونك تعتقـدين وتؤمنين ؟ » فأجبته « كلا .. بسبب تعرضي للانطباعات .. » وقال لي « منذ أن جئت الى هنا ؟ » فقلت له « نعم .. قبل أشهر غير عـديدة » وسألني « هنا ؟ في هذه الدار ؟ » فقلت له « نعم » .

وقال لي « .. حسنا جدا !! أنا مسرور بذلك . وقد عرفت ذلك نوعاما . وقبـل أن تخبريني كنت شـاعرا بوجـود صـلة والفة بيني وبينك . أنت صبورة وأنا سريع الغضب .. أنت هادئة وشاحبـة وأنا اسمر ومتوقد الطبع ومع ذلك نحن متشابهان . وتوجد بيننا صلة روحية وودية ، الا تلاحظين أن لجبينينا نفس التركيب وان عينيك كثيرة الشبه بعيني ؟ أتسمعـين أن بعضا من نبرات صـوتك هي على شاكلة نبرات صوتي ؟ أتعرفين أن لديك الكثير من نظراتي والتفاتاتي ، انني أحس بكل ذلك واعتقـد أنك ولدت تحت برجي ونجمي . نعم تحت برجي ونجمي !! ارتجفي ما شئت اذ أنه ما دامت القضية مع كلينا هي كذلك فان خيوط مصيرنا يصعب انحلالها . ان المشكلة قد تحدث والقطيعة قد تحدث على حين غرة تاركة بعض الضـرر في هـذا النسيج ولكن هـذه « الانطباعات » كما قلت بلهجتك الانكليزية المحترمة لدي مثلها .. لدي انطباعاتي أنا أيضا » وقلت له « أيها المسيو ألا تقول لي ما هي ؟ » فقال لي « لا أريد أكثر من ذلك ولا انتوي أكثر من ذلك .. أتعرفين لغز هذا البيت ، ولغز هذه الحديقة ؟ » فقلت لـه « نعم أعرف ذلك يقـولون ان راهبة دفنت حية منذ مئات الاعوام تحت هذه الشجرة بالذات وتحت هذه الارض التي تحملنا وأن شبح هذه الراهبة اعتاد في سابق الايام أن يظهر ويذهب ويغدو ويروح هنا » وقلت له « أيها المسيو .. وماذا اذا كانت لا تزال تغدو وتروح هنـا ؟ » وقال لي « ان شيئا يغدو ويروح هنـا ويوجد شبح يتردد الى هذه الدار ليلا يختلف عن كل الاشباح الاخرى التي تبدو أثناء النهار . وبالضبط وجدت أن شيئا من هذا القبيل أكثر من مرة وفي رأيي أن رداءهـا الرهبني أو الديري غريب كأنه يقـول لاي كائن حي آخر : انه رداء راهبة » .

وقلت له « أيها السيد أنا أيضا شاهدته » وقال لي « توقعت ذلك وسواء كانت هذه الراهبة من لحم ودم أو كشيء يبقى بعد أن تجف الدماء ويضمحل اللحم فان مهمتها ربما كانت ساعية ضدك أو ضدي . وأروم أن أسعى لمعرفة ما وراء هـذه الاحداث التي حيرتني وأربكتني وأتعبتني وأقول أنني أروم السعي لمعرفة ما وراء هذا اللغز » .

وبدلا من أن يقول ماذا يعني وماذا يريد أن يفعل رفع رأسه فجأة ورفعت رأسي بمثله بنفس اللحظة وركز كلانا على نقطة واحدة .. الشجرة العالية التي تظلل مناطق مقاعد النبتات المعروشة وتتدلى بعض أغصانها على سقف الصف الاول للطالبات فقد سمع من هناك صوت لا يعرف كنهه ولم يهتد الى تفسيره كا لو أن اغصان الشجرة تتحرك بغير اتجاهها الطبيعي وأن وزن أوراق الشجرة ذاتها يندفع ويصطدم بجذعها العظيم . نعم هنالك لا تهب النسمات وأن الشجرة الضخمة تهتز بعنف كما لو أنها تزلزل في حين أن الشجيرات وأوراقها تحافظ على وضعها ساكنة .

ولبضع دقائق تسمع اهتزازات وجيشانات بين أوراق الشجرة أو صوت مستمر كصوت التنهد ولان الجو كان مظلما بدا لي أن شيئا أقوى وأصلب من ظل الليل أو ظل الغصن يخرج من الجذع وأخيرا توقف صوت الصراع أو شق الطريق بالقوة . ترى .. أية ولادة أعقبت ذلك المخاض ؟ وأية شجرة بلوط ولدت من جراء ذلك المخاض ؟ أخذنا نراقب مراقبة شديدة ودقيقة واذا بالجرس يدق في الدار ، هو جرس المصلين وعلى حين غرة خرج من بين النبتات المعرشة شبح مجلل بالسواد والبياض وبنوع من الاندفاع الغاضب مرت سراعا الراهبة ذاتها ولكنني لم أدقق النظر في ملامحها بصورة جيدة واضحة فقد بدت طويلة القامة صارمة الملامح وبمرورها هبت الرياح وتناوحت وانهر المطر عنيفا باردا كما لو أن الليل كله أحس بذلك .

الفصل الثاني والثلاثون

ـ الرسالة الاولى ـ

كان هناك بعض الوقت أتساءل فيه عن بولينا ماري التي كان ذكرى اتصالي بها في فندق كريسي الفخم بهيجا وانقطع ذلك الاتصال معها لفترة ما بسبب غيابها فهي ووالدها دي باسومبيير سافرا وأمضيا بعض الاسابيع بين الاقاليم وبين العاصمة الفرنسية والصدفة وحدها أعلمتني بعد رجوعهما بمدة قصيرة ٠

وكنت يومئذ أتمشى فيما بعد ظهيرة ساكنة على شارع عريض هادىء تكتنفه الاشجار ، أتهادى في مشيتي البطيئة متمتعة بشمس شهر نيسان البهية ومستذكرة في الوقت عينه بعض الافكار غير السارة ، واذا بي أجد أمامي جمعا راكبا توقف كما لو أن أفراده التقوا بطريق الصدفة وأخذوا يتبادلون التحايا وسط طريق عريض ذي امتداد أملس تقع على حافاته أشجار الزيزفون ٠

وكان في الجانب الواحد جنتلمان متوسط العمر وشابة وفي الجانب الاخر شاب ظريف جميل ٠ وكان وجه السيدة الشابة جميلا جدا وما عليها منتقى ومختار وسيماؤها ومظهرها العام رائعا يتصف بالفخامة والابهة ولم أزل أشعر منذ نظرت اليهم أنهم معروفون لدي وبعد أن تقربت منهم أكثر عرفتهم تمام المعرفة ٠٠٠ الكونت هوم دي باسومبيير وابنته والدكتور غراهام بريتون ٠

ولكم كان وجه غراهام مفعما بالحيوية والدفء وقد انكفأ الانشراح الذي كان يعكسه ٠ تلك كانت الحالة وذاك تراكم الظروف الذي أثر في الدكتور جون وفيما طرأ على محياه ٠

ان اللؤلؤة التي أعجب بها كانت ذات ثمن غال وذات نقاوة عالية ولكنه لم يكن بالرجل الذي اذ قيم الجوهرة الثمينة يستطيع أن يتناسى اطار فصها في الخاتم وخلفيتها وحدث أنه شاهد بولينا بنفس الروح الشبابية وبنفس الجمال وبنفس الروعة .

ولكنها بوحدانيتها وعدم وجود من يرعاها ويحرسها وبزتها البسيطة وبكونها شبه عاملة ومجدة ظنها مخلوقة صغيرة جميلة واحب بعينيه حركاتها ومحياها ولكنه كان بحاجة الى شيء أكثر من ذلك لقهره واخضاعه بعد هزيمته لكي يعاد سالما الى دومنيونه دون خسارة وحتى بربح لشرف رجولته . فالشخص اكتشف انسحاقه ووهنه ولا يكفي أن يتأسى ويطمئن ذاته فعلى المجتمع والعالم أن يعترف ويقر ويعجب بما فعله والا فانه سيتصور أن الذي فعله من أعمال البر كان خاطئا وعقيما وعديم الجدوى.

عندما قهرته تلك الشابة كان بحاجة الى كل ما هو منظور هنا .. بصمة الرعاية العالية ورسامة الحماية والاهتمام الموثوق به والعون الذي يقرره العرف والثروة المشتراة ومكيفات الذوق فهذه كانت الشروط التي كان يتوجب على روحيته أن يأخذ بها قبل أن يستسلم وكانت متواجدة هنا كل التواجد والان يكن لبولينا الثناء والتقدير كسيدة مهيمنة وبالنسبة لها كانت ابتسامة التحسس ـ وليس القوة الواعية ـ تنام قريرة في عينيها .

وافترقا ومر من أمامي بسرعة كأنه لا يكاد يشعر بالارض التي تحت قدميه ولا يلمح شيئا قريبا منه وبدا ظريفا جدا تعلو وجهه الهمة والنشاط والقصد بكل وضوح واذا بصوت موسيقي صديق يتعالى قائلا « أبي !! هذه لوسي .. لوسي .. عزيزتي لوسي !! تعالي هنا » وأسرعت اليها وردت حجابها الى الخلف ونزلت من سرج حصانها وهرعت الي لتقبلني قائلة لي « كنت أهم بالذهاب اليك غدا لمشاهدتك أما الان فقد غيرت رأيي واستبدلته بالرجاء منك أن تأتي الي أنت فما قولك ؟ تأتين في الساعة الفلانية وامتثلت لرجائها .

وفي مساء اليوم التالي وجدتني عندها فدخلنا الى غرفتها الخاصة ولم أكن قد شاهدتها منذ تلك المناسبة حين قارنت بين طلباتها وبين طلبات جنيفرا فانشاوي وكان لديها الكثير مما تريد أن ترويه لي عن

سفراتها خلال تلك المدة التي لم تر احـــدانا الاخرى وكانت تتكـلم بحيوية ونشاط وجها لوجه وتصف سفراتها وصفا رائعا جدا بأسلوبهـا البسيط غير المزخرف وصوتها الصافي النـاعم ولم تكن تتكلم بسرعـة متناهية أو ثرثرة وكان انتباهي اليها شديدا لم يعتوره أي فتور ولكنها هي بالذات بدا عليها التحول الى موضوع آخر بدلا من موضوع السفر ٠

وسارعت في انهاء الحديث ولا أدري لماذا اختصرته فقد أعقب ذلك الصمت ٠٠ الصمت القلق الذي لم يخل من دلائل الذهول ثم التفتت الي وقالت بصوت يتخلله مزيد من الخجل والمناشدة ٠ يا لوسي ! » وقلت لها « نعم ٠ تفضلي فأنا سامعة ! » وسألتني « هل أن ابنـــة عمي جنيفرا لا تزال عند المدام بيك ؟ » فقلت لها « ابنـــة عمك لا تزال هناك ! ٠ يظهر أنك في شوق اليها » فقالت لي « لا ليس الى هذا الحد » ٠

وسألتها « أتريدين استدعاءها لتمضي معـــك أمسية أخرى ؟! » فقالت لي « كلا ٠٠ أظن أنها لا تزال تتحدث عن كونها تريد الزواج » وسألتها « هل تريد الزواج بشخص يهمك أمره ؟ » فقـالت لي « ولكنها بالطبع لا تزال تفكر بالدكتور بريتون ولم تبدل فكرها حول هذه القضية وكانت قد عقدت العزم على ذلك قبل شهرين » وقلت لهـــا « لماذا ؟ وما أهمية ذلك وهل عرفت الشروط ؟ » فقالت « حصل سـوء تفاهم بسيط بينهما في ذلك المساء » وهل تبدو منزعجة أو تعبة ؟ قلت لها « كلا ٠٠ لا يبدو عليها ذلك » وأردت تبديل الموضوع فسألتها « هل سمعت شيئا عن غراهام أم شاهدتيه خلال غيابك ؟ » فأجابتني « تلقى والدي رسالة منه مرة أو مرتين بصدد الشغل على ما أظن وتعهد بأن يتولى ادارة مشروع يتطلب الاهتمـام ويبدو أن الدكتور جون يحترم بابا ويسره أن يقـدم لـه خـدمة » ٠

وقلت لها « نعم » ٠٠ أنت التقيت به أمس في الشارع وبوسعك أن تعرفي من وجهه أن صديقاته لا يتحسسن بأي ألم بصدد صحته » وقالت لي « والدي يفكر بك » وابتسمت لذلك « ولكنـــه ليس متمسكا دائمـا بالعادات والتقاليد والاعراف كما تعرفين لانه في تفـكير دائب بأشيـاء أخرى أكثر مما يفكر بما يمر أمام عينيه » ٠ وقال عن الدكتور جون حين غادرنا « حقيقة ان هـــذا الولد يستلفت النظر فيمـا يبدو من قوتـه

وروحيته » ويسمي بريتون بالولـد وفي ظني أنه لا يزال يعتبره ولـدا كما يعتبرني أنا أيضا حتى الان فتـاة صغيرة وحين قال ذلك لـم يكن يكلمني وانما كان يكلم نفسه بهذه العبارة يا لوسي » ٠

ومرة أخرى عادت الى لهجة المناشدة وبنفس اللحظة جاءت بمقعدها الصغير عند قدمي وجلست عليه على مقربة مني ٠ كنت ولا أزال أحبهـا فالصلات الودية بيننا وما لاحظت فيها مما هو فاخر وفي اتقـاد الذهن والاخلاص عمق من احترامي لهـا وسألتهـا « مـاذا لديك لتسـألي من لوسي ٠٠ كوني شجاعة وتكلمي » ولم ألحظ أثر الشجـاعة في عينيها عندما التقتا بعيني ، وبدا عليها الاحراج ولم يبد على خديها أثر رباطة الجأش ولا حمرة خجل عابرة انما انفعـال خفي متجمع زاد من مسحتها التظليلية ومن درجـة حرارتهـا وقالت لي « يا لوسي أريـد أن أعرف ما يدور في ذهنك عن الدكتور بريتون ٠ وهلا أعلمتني عن حقيقة رأيك بأخلاقه وتصرفاته ونزعاته ؟ » ٠

وأجبتها « ان أخلاقه عاليـة ٠٠ عاليـة بشكل تجدر به » وقالت متسائلة « وماذا عن تصرفاته ونزعاته ؟ » وتساءلت بالحـاح « هـلا أعلمتيني عن تصرفاته ونزعـاته فانت على عـلم تام بذلك » وقلت له « نعم أعرفه جيدا » وسألتني « أنت تعرفين جـوانب سـيرته المنزليـة ووجدتيه مع والدته فحدثيني عن بنوته » فأجبتها « انه ولد طيب القلب وهو أمل والدته وراحتها وفخرها وانشراحها » ٠

وأمسكت بيدي بين يديها وقالت لي معطية لكل كلمـة من كلمات عباراتها التالية مسحة لطف خفيفة « بأية طريقة أخرى تتلمسين طيبتـه يا لوسي ؟ » فقلت لها « الدكتور بريتون انساني كريم ميال لكل ابنـاء الانسان ميلا انسانيا وهو لطيف مع أسـوأ المجرمين وأسـوأ المتوحشين » وقالت لي « سمعت بعض السادة وبعض أصـدقاء الوالد يتحدثون عنـه ويقولون نفس ما قلت الان عنه ويقولون أيضا أن الكثيرين من المرضى المساكين في المستشفيات الذين يرتجفـون خوفا أمـام بعض الجراحين الانانيين الخالين من العواطف الانسانية يرحبون به ويهللون له » ٠

فقلت لها « انهم على حق فقد شاهدت عنه أكثر مما شاهدوا هم ٠ ذات يوم أخذني معه الى المستشفى ووجدت كيف كان استقبال الناس له ٠

اقول مرة اخرى ان اصدقاء والدك تكلموا عنه ما هو الصحيح » وظهر الارتياح في عينيها عندما رفعتهما ولاحظت آن كان لها الشيء الاكثر مما تريد آن تقوله ولكنها كانت مترددة بسبب الوقت والمكان فقد اطبق ظلام الغسق وتوهج نار الصالة بحمرة الشفق وبعد ساعة لاحظت أنها كانت تريد أن تصبح الغرفة أكثر ظلاما مما كانت لتحدثني بالمزيد » ٠

وقلت لها لاطمئنها « ما أهدأ عزلتنا هنا » وقالت لي « نعم ٠ ان الوقت لا يزال مساء ولن أنزل لتناول الشاي لان والدي سيتناول عشاءه في الخارج » وكانت لاتزال تمسك بيدي وتلعب بأصابعها الاخرى بلا وعي بجدائل شعرها الجميل وتربت براحة يدها على خدها الساخن وأخيرا ند عن شفتيها صوت نقي صاف كصوت القبرة يقول « ربما استغربت ان اتكلم كثيرا عن الدكتور بريتون وأسال أسئلة كثيرة عنه وأهتم مثل هذا الاهتمام به ٠٠٠ ولكن ٠٠٠ » ٠

فاجبتها مقاطعة « ليس هذا بالامر الغريب قط ٠ انه أمر طبيعي لانك تحبينه » وقالت لي بسرعة « واذا كنت أحبه فهل هذا هو السبب الموجب لان أتحدث عنه ؟ أظن انك تتصوريتني ضعيفة كابنة عمي جنيفرا » وقلت لها « لو ظننتك مثلها ولو بمقدار ذرة لما جلست هنا منتظرة وصالك ولنهضت ومشيت في الغرفة جيئة وذهابا وأتوقع أن تقولي كل الذي قلتيه بملاحظة دراسية فامضي في حديثك واسترسلي » ٠

وردت علي « بودي أن أواصل وماذا تتصورين انني سأفعل ؟ » ان تلك الصغيرة بولي التي كانت معك في منزل بريتون تلك الطفلة الصغيرة الشريرة في أعمالها الحساسة في مشاعرها اذا أرادت أن تقول الان وبلهجة قاطعة « اذا ٠٠٠ اذا ٠٠٠ أحببت ادكتور جون الى حد الموت في سبيل حبه فهل هذا كان يتوجب علي أن أتصرف تصرف الصامتة صمت القبور البكماء مثلك أنت يا لوسي سناو أنت تعرفين ٠٠ تعرفين بانك مستعدة لتستقبليني بالاحتقار لو انني عجزت عن السيطرة على نفسي » ٠

وقلت لها « صحيح أنني لا احترم كثيراً من النساء أو الفتيات الثرثارات سواء عندما يتبجحن بانتصاراتهن الحبية أو عندما ينحن ويتشكين مما يلقينه من فشل في حياتهن أو أحاسيسهن الغرامية أما

بالنسبة اليك يا بولينا فأنا أريد أن تتكلمي فأنا جـــادة في رغبتي في السماع • أخبريني عن كل ما يجلب لك السعادة أو يريحك أن تقوليـه ولا أريد منك أكثر » •

وقالت لي « اتهتمين بي كثـــيرا يا لوسي ؟ » فقلت لهـا « أي !! يا لوسي » وقالت لي « وأنا بدوري أحبك وما أشـــد ما كنت راضيـة ومرتاحة بوجودي معك في دار بريتون ، أنا تلك الطفلة المشاكسة المثيرة للقلاقل وكنت أشعر بالفرح الشديد لاتمسك بمشاكساتي ونزواتي • أما الان فأنت مقبول بك لدي جدا ومرضي عنك جـــدا، وأحب أن أكلمك وأحس بأنني شديدة الثقة بك ولهذا أرجو أن تصغي الي يا لوسي » •

وراحت تعدل وضعها متكئة عـلى ذراعي وشاعرة بالراحـة دون أن تلقي بوزنها على شاكلة ما كانت تفعله فانشاوي معي وقالت لي « قبـل بضع دقائق أي منذ أن سألتيني عما اذا كنت قد سمعت شيئا عن غراهام أثناء غيابنا وقلت أنه بعث برسالتين الى والدي حول الشغل • ذلك كان أمرا صحيحا ولكنني لم أتحدث لك عن الاشياء الاخرى كلها » فقلت لها « اذن أنت راوغت ! » •

وقالت لي « لخبطت وراوغت كما تعلمين أما الان فسأتحدث لك عن الحقيقة فقد خيم الليل وبوسع المرء أن يتحدث على هواه في مثل هـــذا الوقت • أبي اعتاد على أن يسمح لي بفتح حقيبـــة رسائله وتسليمـه محتوياتها ، ففي ذات صباح وقبل حوالى ثلاثة أســـابيع لا تدرين كيف فوجئت واستغربت حين وجدت بين عشرات الرسائل المعنونة الى والدي رســالة موجزة الى الانسة دي باسومبير وفتحتهـــا في الحـــال للاطـلاع عــلى ما فيهـــا » •

واستطردت تقول « كان الخط اليدوي غير غريب عني ولذلك لفت نظري مباشرة وهممت ان اقول « يا أبي هذه رسالة أخرى لك من الدكتور بريتون ولكن كلمـــة « الانسة » اسكتتني وفي الواقع أنني لـم أكن قــد استلمت رسالة من أي جنتلمان قبل هـــذه الرسالة • هـل كان علي أن أريها لوالدي ليفتحها ويقرأهــــا قبلي ؟ • أبدا، لم أقــو عــلى أن أقوم بذلك يا لوسي » •

ومضت في كلامها قائلة « أنا اعرف تمام المعرفة أراء والـدي بي .
فهو ينسى عمري ويظن أنني لا أزال فتاة مدرسة وحسب . ولم يدر ان
الناس الاخرين على دراية بانني ترعرعب وكبرت ووصلت الى الطـول
الذي أنا عليه الان ولهذا ـ بمزيج من المشاعر الغريبة بعضهـا تتصف
بلوم النفس وبعضها مربكة وقوية لا أقوى على وصفها ـ سلمت لوالدي
الاثنى عشرة رسالة العائدة اليه واحتفظت برسالتي عند تناول الفطور
ثم حملتها الى فوق وبعد أن ضمنت بأنني وحدي بعد اقفال الباب بدأت
أقرأ كتابته اليدوية الشبيهة بوجهه هل سبق لك أن شاهدت خط يده ؟
« وقلت لها لقد شاهدته .. واصلي ! » .

وقالت « كان ختم الرسالة اجمل من أن يفتح بكثير ولهذا قطعتـه
بمقصي ولدى شـروعي بقراءته اخيرا تراجعت عن مقصدي اذ كان من
سبق الاوان أن اتجرع تلك الجرعة ، فتـألق الذرب كان بهيا ينبغي
أن أملي نظري به هنيهة ثم تذكرت في الحال انني لم اتل صلواتي في ذلك
الصباح ولانني سمعت والدي يتزل لتناول الفطور قبل الميعاد المقرر
بقليل خشيت من أن أبقيه ينتظرني ونزلت اليـه حال ارتدائي ملابسي
واجلت الصلاة الى ما بعد الفطور » واستطردت قائلة :

« بعض الناس يقولون أن علي أن أخدم الانسـان ولكنني لا أظن
أن السماء تغار مما افعله لوالـدي وفي اعتقـادي انني أؤمن بالخرافات
ويبدو انني سمعت صوتا يدفعني الى ان أصلي قبل أن اقرأ ما في الرسالة
وان انكر ذاتي لحظة وأتذكر الواجب الاعظم قبـل كل شيء . وأنجزت
ذلك وتلوت صلواتي وأضفت عليها أنه مما حدث لا ينبغي علي أن اكدر
والدي او أسبب له اي حزن ولا اهمله قط من اجل الاخرين وهذه الفكرة
ذاتها مزقت فؤادي ألما فشرعت ابكي ويا لوسي رحت أشعر بوجوب اخبار
والدي بكل شي لكيما يتسنى لي أن استمع الى نصائحه » .

« قرأت الرسالة يا لوسي . يقال أن الحياة مخيبة للامـال أما أنا
فلم اكن كذلك وقبل أن أقرأ الرسالة وأثناء قراءتها كنت أسمع وجيب
قلبي وخفقانه باضطراب وارتجفت وكل رجفة بدت كما لو أنها لهثة
حيوان عطشان أوصل الى بئر ليشرب منها في حـالة امتلائها ويقـال أن
الحياة ملأى بالآلام عند البعض ولقد قرأت سير حياة الناس حيث ينتقل

عابر السبيل من معاناة الى معاناة أخرى وحيث يطير الامل أمامه سريعا ولا يحط بالقرب منه ويتباطا كثيرا في مسك يده لانهاضه من كبوته » .

« لقد قرأت عن الكثيرين ممن زرعوا والدموع تنهمر من عيونهم وبدلا من أن يحصدوا ما زرعوه بهذه الحالة يتعرض زرعهم لتلف مبكر أو يتعرض لزوبعة فجائية وريح دوامة تفتك به . وواحسرتاه ان بعض هؤلاء قابلوا الشتاء بهري فارغ فماتوا من العوز في أبرد عـــام مكتنف بالظـــلام » .

وسألتها « هل كان سبب موت من ذكرتيهم من جراء خطأ ارتكبوه ؟ » فقالت لا يكون الخطأ خطأهم على الدوام فبعضهم من أكثر الناس عمـــلا ودؤوبا وأفضلهم . انك ترين انني لم اجد ولم اسع في حياتي ولم انشط ومع ذلك جعلني الله اترعرع تحت الشمس والظل الظليل والحماية الآمنة في مأوى جيد وغذاء جيد من فضـــل والدي العزيز والان يظهر لي شيء جديد فهاك غراهام يبدي لي جانب الود والحب » وظللنا بضـــع دقائق صامتتين بعد أن وصلنا الى هذا الحد من الحديث ثم بادرتها السؤال التالي بصوت منخفض ... « هل يعرف أبوك بذلك ؟ » فقالت لي « ان غراهام يتحـــدث مع ابي بمنتهى الاحترام غير انه لمح بانه لن يقتـــرب من هـــذا الحنان ما لم يبرهن على أهليته وأنه لن يجازف بالتقـــدم خطوة في هذا المجال ما لم يتأكد من مشاعري الحقيقية نحوه » .
وقلت لها « وماذا كان جوابك له ؟ » فقـــالت « كتبت له باختصـــار ولم أرفضه أو أخيب ظنه لانني أكاد أرتجف ان أنا وسمت الجواب بسمة الود الزائد فهو شديد الحساسية ويصعب ارضـــاؤه . كتبت الرســـالة ثلاث مرات بعبارات بسيطة لازخرف فيها ومسيطر عليهـــا من قبلي في كل مرة وخمرتها عندي الى أن أشبهت قطعة من الثلج مطيبة بنكهة خفيفة من الفاكهة أو السكر ثم غامرت في ختمها وارسالها » .

وقلت لها « بوركت يا بولينا . نعم ما فعلت . ان موهبتك الغريزية جيدة ورائعة فأنت تفهمين الدكتور بريتون » وقالت لي « كيف بي وأبي لا يعرف .. كيف أعالج هذه النقطة ؟ هذا هو الذي يثير شجني » وقلت لها « لا تهتمي بذلك قط .. انتظري الان . ولا تراسلينـــه مرة أخرى ما لم يعرف والدك بالامر كله ليعطيك موافقة » وسألتني « هل تتصورين

بأنه سيوافق ؟ » فاجبتها « الوقت هو الذي سيوضح لك فانتظريه ! » .

واستأنفت الحديث معي قائلة لي « الدكتور بريتون عاود مراسلتي مرة أخرى مقدما امتنانه وتقديره العميقين لرسالتي الموجزة الرزينة والان انني منتظرة منك نصيحة فأنا في الوقت الذي لا تزال مشاعري نحوه هي هي لست بالقادرة على استئناف مراسلته دون علم من أبي لا أستطيع ان أفعل ذلك مرة أخرى » وقلت لها « أنت تصرفت التصرف الحسن وهذا ما سيشعر به الدكتور بريتون ويزداد اعتزازا بك وحبا لك اذا كانت به حاجة للزيادة ويا بولينا ان هذا الصقيع صقيعك اللطيف الذي يحيط بالشرارات النقية هو امتياز وهبته لك الطبيعة » .

وقالت لي « أتدرين أنني أشعر بنزعة غراهام وميوله وارى ان ليس هناك رفة او تهذيب او تصرف تكمي لمعاملته » وقلت لها « الشيء الواضح تماما أنك تفهمينه واذا كان الامر كذلك فمهما كانت نزعات غراهام وميوله وتصرفاته فان عليك ان تعملي باخلاص وصراحة ولطف مع والدك » وقالت لي « يا لوسي انني واثقه بانني سأتصرف كما تقولين دائما ومن المؤلم أن اوقظ والدي واحرمه لذة أحلامه لمجرد أنني أريد ان أوضح له أنني لست الان طفلة » .

وقلت لها « لا تتعجلي الامور يا بولينا ودعي البوح للوقت ولمصيرك الطيب الذي لاحظت عطفه عليك ولا تشكي في أنه سيأمر الظروف ويعين الساعة باتقان ودقة . نعم سبق لي أن فكرت بحياتك كما تفكرين بها أنت وأجريت مقارنات ومفاضلات تلفت الانتباه ونحن نجهل المستقبل علما بأن الماضي بشرنا بالخير » .

ومضيت أقول لها « عندما كنت طفلة خفت عليك اذ لم يكن في الحياة من حساسية أكثر من حساسية طبيعتك في طفولتك ، وفي ظروف الصرامة أو الاهمال ما كان بوسع نفسك الظاهرية أو الداخلية ان تنضج النضوج الذي بلغته الان ولو صادفك المزيد من الالم والمزيد من الخوف والمزيد من النضال لأثر ذلك تأثيرا بالغا في أخاديد محياك ذاتها ولهدم نظامها وأزعج أعصابك وأوصلك الى حمى الاثارة الاعتيادية ولخسرت من مرحك وصحتك الشيء الكثير ولخسرت أيضا في مضمار الرشاقة والحلاوة » .

« ان العناية الالهية وقتك وحمتك لا من أجلك فقط ولكن من أجل غراهام أيضا فنجمه هو أيضا صاعد ولكي يقوى على تطوير افضل ما في سريرته وطبيعته لابد له من رفيقة مثلك فينبغي أن تكوني على استعداد وينبغي اتحادكما • وعرفت ذلك منذ اليوم الاول الذي شاهدتك فيه في البيت المسمى « بالشرفة » وفي كل ما يتعلق بكما مبادلة أنت وغراهـام يظهر بوضوح أن ما يلفكما سوية هو البشرى والتخطيط والانسجام » •

ولا أظن أن الشباب المشمس البهي لكل منكما سيكون نذيرا بعصر زوبعي • ومن الصلاح أن تعيشا بسلام وسعادة لا كالملائكة ولكن كالقلائل السعداء بين الخالدين • ان بعض الارواح تلفهـآ البركات والنعم عـلى هذه الشاكلة ، انها ارادة الخالق • انها الطريق المشهود الخالد المؤدي الى جنة عدن في حين ان أرواح الاخرين تسلك منذ البداية طريقا آخر •

الفصـــــل الثـالث والثــلاثون

« المسيــــو بـول يحــافظ عـلى وعـــوده »

في اليوم الاول من شهر آيار دونت ملاحظة في المدرســة الداخليــة تلزمنا نحن العشرين طالبة داخلية والاربع معلمات بالنهوض في الساعة الخامسة صباحا وارتداء ملابسنا لنكون جاهزات في الساعة السادسة لكي يقودنا البروفيسور بول عمانوئيل ويأخذنا من « فيليت » في ذلك اليوم ليفي بوعده لنا بان ياخذنا الى الريف لتناول الفطور هناك · وفي الحقيقة انني لم اكن راغبة في الذهاب معهن لانني لم اتلق دعوة خاصة عند ظهور الفكرة لاول مرة واذا بي أحس بجرة اذن من المسيو بول يدعوني فيهــا الى الذهاب معهن ولم آشا أن أثير المزيد من المصاعب وهددني بجر الاذن ان لم ألب الدعوة ولذلك عدلت عن رأيي الاول وقررت الذهاب ·

وكان الصباح الصيفي جميلا بهدوئه ·· الطيور تغرد في الحديقة والضباب المشوب بالندى الخفيف كان يبشر بالدفؤ وكلنا استشففنا من ذلك أن الجو سيكون دافئا ورائعا وشعرنا بالفرح عندما جمعنا ألبستنا وأجهزتنا النزهوية لاستقبال الفصل المشمس وجرت العــادة أن نرتدي ألبسة موحدة جديدة ونظيفة وقلنسوات مصنوعـــة من القش اسوة بالعاملات الفرنسيات اللواتي هن فقط المختصات بصنعها ·

وما كان مسموحا بلبس الحـرير الباهت أو ارتدآء ألبسة غـير جديدة · وفي الساعة السادسة صباحا دق جرس المدرسة دقا بهيجا مؤذنا بوجوب تهيئنا للخروج وتلبية دعوة المسيو بول وتجمعنا في بيت السلـم على محاذاة الممر باتجاه مدخل الردهة حيث كان البروفيسور واقفا لـم يرتد معطفــه ذا الشكل المنفور منـــه وقبعته المجتواة انما كان يرتـدي صدرية (بلوز) يرتديها الشاب عادة وقبعة بهيجة من صنع القش وكان يحيي صباحنا بمنتهى اللطف وكنا نقابله بابتسامات الشـــكر ونحـن

مصطفات اصطفافا منظما ثم باشرنا بنزهتنا وكانت الشوارع لا تزال هادئة والجادات العريضة التي تقوم على جانبي كل منها الاشجار رائعة المنظر ومسالمة كالحقول •

وفي اعتقادي أننا كنا سعيدات جدا عندما كنا نتهادى في مشياتنا ولم يكن بول يقودنا أو يتعقبنا انما كان يتمشى على محاذاة الطريق يزودنا بأوامره ويتكلم مع المفضلات لديه ولم يكن يهمل أية واحدة حتى التي كان يكرهها وكنت اتحاشى أن أعمل أي شيء يستوجب الملاحظة وكنت مع جنيفرا فانشاوي أتحمل اكتاف ذلك الملاك الذي كان في حالة نفسية ممتازة •

وحاولت أن أجعلها ذات فائدة بأن أبقيها تتوسط بيني وبين المسيو بول وكنت ألاحظ أنه ان جاء من جانب لا يروقني وأتشكك منه كنت أتجه الى جهة أخرى حتى لا ألتقي معه لانني كنت أرتدي ثوبا جديدا قرنفلي اللون • وقد أدرك المسيو بول أنه مهما اتجه الى جهة لا يجد نفسه سوى قريب من جنيفرا فانشاوي التي كانت تمتعض منه ولا ترتاح اليه وتحسبه مكروها متدخلا في شؤوننا •

وأخيرا عندما بدل مكانه للمرة السادسة ولاقى النتيجة ذاتها أخذ يرفع رأسه وينظر الى أمام وما ان استقرت عيناه على عيني حتى سألني قائلا « ما معنى كل هذا ؟ هل أنتما تسخران مني وتحتالان علي ؟ » وما ان وقع نظره على ثوبي القرنفلي حتى قال « آه •• الفستان القرنفلي أيضا ! » •

وقلت له بلهجة سريعة « ليس الا ثوب قطني رخيص وغسله أسهل من غسل الثياب الملونة الاخرى » وقال لي « يبدو ان الانسة لوسي تعبث وتتغنج بعظمة أكثر من تغنج الباريسيات بعشر مرات • هل رأيتن انكليزية كهذه ؟ أنظروا الى قلنسوتها وقفازها وحذائها » وقلت له « هذه الملابس التي أرتديها هي كالملابس التي ترتديها الاخريات معنا » ولاحظت محياه فشبهته بزوبعة تهب أحيانا في الفصل ولا تحدث ضررا اذ وجدته يبتسم ويقول « في الحقيقة أنني غير غاضب وربما أنا مبتهج من كيفية تجميل نفسك واظهار جمالك في هذه النزهة المتواضعة » وقلت

له « ولكن ثوبي ليس جميلا انه نظيف لا أكثر ولا أقـل » وقال لي « انا شخصيا أحب النظافة » •

ووجدنا أنفسنا الان في الريف المتميز بالخمائل والأيك والازقـة الضيقة وهذه المناطق ستصبح بعد شهر متربة ومنعزلة أمـــا الان فان خضرتها في شهر آيار وغفوتها الصباحية تجعل منها مكانا مريحـا رائع الجمال • وبلغنا منطقة ارض مدورة الشكل مزروعة زراعه جيدة تحيط بها دائريا اشجار الزيزفون فامرنا بالتوقف للجلوس واخذ الراحة واخذ المسيو بول مكانه في الوسط وعمل جهده لكي نحيط به دائريا بتنظيمه ، تاركا اللواتي يحببنه اكثر مما يخشينــه أماكن قريبة منــه وتلك كانت قليلات العدد اما اللواتي يخشينه أكثر مما يردنه فقد أبعدهن اكثر •

وبدأ يروى لنا قصة رواها بشكل مشوق بالشـــكل الذي يستهوي الاطفال وبأسلوب بسيط في قوته بحيث يروق لبعض المتعلمين ان يحذوا حذوه وكان في القصة القصيرة لمسات رائعة وومضات حـلوة ووصف جميل بحيث سرحت في خيالي عند سماعها فقد رسم فيها منظرا من مناظر الشفق ظل ملازما خاطري ولم اجد في اقـلام الفنانين وصفا لمثل ذلك المنظـــر •

وقلت لنفسي أن ليس لي مؤهلات مرتجلة أو قدرة مرتجلة ومثـل هذا النقص أو العجز جعلني اندهش ممن يملكهـــا كاملة • ان المسيو بول لم يكن بالشخص الذي يؤلف الكتب ولكنه كان يسرف أيما اسراف في اقتناء الكتب بحيث جمع ثروة عقلية لا يستهان بها قلما جمع أحـد غيره مثلها • لقد كانت ذهنيته بمثابة مكتبة لي وحيثـــما كانت تفتح أمامي كنت أحسبني أمام جنة من الجنان ولان ثقـــافتي العلمية لم تكن فياضة فلم أكن أقرأ الا النزر اليسير منها •

وكانت لديه مجلدات مطبوعة ومغلقة لم تكن تضجرني أو تزعجني والتمعن فيها ما كان يرهق أو يغشي البصر والافكار المدونة فيها كانت بمثابة مرهم لعيني الروح وكان لمحتوياتها الاثر الكبير في تقوية الحس البصري الداخلي وفي زيارته صفاء وقوة ورحت أفكر بالسرور الذي كان من الممكن أن يملأ فؤاد المرء الذي يحبه أكثر مما يحب هو نفسه ويجمع ويخزن تلك الكتب الذهبية المطروحة حمقا وطيشا تحت رياح السماء •

وانتهت قصته ونهض يمشي حتى بلغ الهضبـــة الصغيرة المدورة .. ث كنا أنا وجنيفرا منعزلتين فيها وجريا على عادته عنـــدما يريد أن يعرف ما هو في فكر الاخرين عنه لم يكن ينتظر حتى يقـــولوه طوعـا فبادرنا السؤال التالي « أنا أكره العمل الآلي واكره الانحناء فالجلوس ·· بوسعي املاؤها وانا مسرور لمن يناسبني كامينة سر فهل بوسع الانسة نوسي أن تكتب لي اذا رجوتها ؟ » فقلت له « المسيو سريع جدا في الاملاء وسيستحثني في الكتابة بشكل سريع وسيغضب اذا وجد أن قلمي لا يحافظ على سرعته الاملائية من فيه » وقال لي « حاولي مرة ودعيني اشاهـــد الوحش الذي اصنعه بنفسي في مثل هذه الاحوال ولكن الان لا توجـــد قضية املاء · وفي نيتي أن اعهد اليك بعمـــل نافع في مكتب آخر فهـــل تشاهدين ذلك المنزل الزراعي الواقع هنـــاك ؟ » فاجبتـــه « ذلك المنزل المحاط بالاشجار ؟ نعم اشاهده ! » ·

قال هناك سنتناول فطورنا وفي الوقت الذي ستعد لنا امرأة الفلاح القهـــوة تقومين أنت وخمس من الفتيات اللـــواتي ساسطفيهن بنفسي برش خمسين رغيفا من الخبز بالزبد » وبعد ان شكل جندياته اصطفافا مرة أخرى قادنا سيرا الى المزرعة وما ان شاهدنا الفـــلاحون هكذا حتى رضخوا لمشيئتنا بدون أن يستسلموا ·

وهيأت السكاكين والصحون النظيفة وجيء بالزبد الطازج وانطلقت ست من فتياتنا اللواتي اختارهن بروفيسورنا للعمـــل بتوجيهاته وهيأت للفطور سلة ملآى بالارغفة جاء بها الخباز الى المزرعة توقعـــا لقدومنا وسبق أن سخنت القهوة والشكولاته وأضيف الى الوليمة القشدة وكميات البيض الطازج المأخوذ من الدجاج البيوض ·

وكان المسيو المعروف بسخائه دائما قد أمر بجلب كمية كبيرة من لحم الخنزير المجفف المملح والمربيات والفواكه المجففـــة وقال البعض منا أن تلك الكميات الكبيرة من الاطعمة تبـــذير طائش لا مبرر لـــه وصرحن بذلك أمامه فانهال عليهن باللـــوم واتهمهن بأنهن ربات بيـــوت بخيلات وتركناه يؤنبنا ونحن نتناول الطعام وفق ما نشتهي ·

ووقف الى جانب موقد مطبخ المزرعـــة وهو ينظر الينـــا بمنتهى

البهجة والسرور وفي الحقيقة انه كان من النوع الذي يشعر بسرور اذا شاهد الاخرين مسرورين فهو محب للحركة والحيوية والنشاط ويريد ان تحيطه من كل جانب الوفرة والمتعة وسألناه أين يريد الجلوس فقال لنا انتن تعلمن الان جيدا أنني عبدكن وخادمكن وأنتن سيداتي المطلقات وأنني لن أتجرأ على أخذ كرسي الا باذنكن وسماحكن ولهذا جئنا له بكرسي الفلاح الكبير الموجود عند مؤخرة المائدة الطويلة واجلسناه عليه ٠

وأظن أن الذي كان يدور في أذهاننا هو ٠٠ هل يتوجب علينا أن نحبه مع كل ما عرفناه فيه من انفعالات وعربدات وهو بهذه الشاكلة من السخاء والمرونة في بعض الاحيان ؟ ٠ ان أعصابه هي التي كانت مثار الغضب والازعاج والا فانه كان كالحمل لا يؤذي ذبابة ورغم حماقته الشديدة وشكاسته وسوء طبعه أو انعدام تعاطفه لم يكن خطرا قط ٠ ان معظم اخوان المسيو عمانوئيل البروفيسورية كانوا أحرارا في تفكيرهم أو ملحدين وكان هو كالفارس القديم لا شهرة له يتسم بطفولة بريئة وبوسامة الشباب وله عواطف جياشة وانفعالات حادة وأحاسيس مرهفة ومريرة بسيطة ٠

كان الفطور وجبة شهية ممتعة ولم يقتصر المرح على مجرد كلام لان المسيو بول كان المبادر في تطوير الاحاديث والاشراف عليها واعلائها ولعبت طبيعته الصامتة غير المقيدة دورا حيا ولانه كان محاطا بالنساء والاطفال فقط فلم يكن هناك من يعترضه أو يخذله أو يثير انفعاله انطلق على سجيته الخاصة التي كانت مبعث السرور ٠

وانتهينا من تناول طعامنا وتحرر الجميع وأخذت الطالبات يركضن ويلتقين في المرج وساعد بعضهن زوجة الفلاح في رفع الاواني الخاصة بها ودعاني المسيو بول للجلوس بجواره تحت شجرة وهو يتفرج على الفتيات اللواتي كن يطفرن ويركضن على الامتداد العشبي وطلب مني ان اقرأ له بينما هو كان يدخن سيجارة وجلس على منضدة مصنوعة من الاغصان اقرأ له من كلاسيكيات « كورنيل » التي لم تثر اهتمامي وأثارت اهتمامه هو بحيث وجد فيها جماليات لم تثر انتباهي (كورنيل هو بيير كورنيل ١٦٠٦ ـ ١٦٨٤ روائي فرنسي عظيم موجد المأساة الكلاسيكية الفرنسية ـ من شرح المؤلفة في آخر صفحات كتابها) ٠

وأصغى بحلاوة الصمت وبتأثير من زخم اندفاع طبيعته العامة ولاحظت عمق السعادة التي كان يستشعرها والتي ملأت ظلالها عينيه الزرقاوين ولطفت وملست جبينه العريض واستشعرت أنا أيضا السعادة ... السعادة مع اليوم الرائق البهي ومع وجوده هو كنت أسعد الناس بلطفه ذاك . وراح يسألني أسئلة جانبية ما اذا كنت أفضل الذهاب الى رفيقاتي بدلا من الجلوس معه فقلت له لا أريد الذهاب اليهن .

وسألني لو انني أخته أكنت أفضل البقاء مع أخ مثله ؟ فقلت له « نعم .. كنت أفضل ذلك !! » وسألني أنه لو ترك مدينة « فيليت » هل سيحزنها هذا ؟ » وأغلقت صفحات الكتاب ولم أجبه على هذا السؤال وسألني « أيتها الاخت الصغيرة لو أنني ارتحلت فهل سيطول تذكرك اياي ؟ » فقلت له « لا أعرف أيها المسيو لانني لا أعرف طول المدة التي تسبق انقطاعي عن تذكر كل شيء أرضي » وسألني لو انه سافر الى ما وراء البحار لمدة سنتين أو ثلاث أو خمس وعدت بعد ذلك فهل سأرحب به ؟ فأجبته « كيف لي أن أظل على قيد الحياة خلال هذه المدة ؟ » .

وقال لي « لقد كنت قاسيا وصارما معك مع كل ذلك » وأخفيت وجهي داخل صفحتي الكتاب لان عيني أغرورقتا بالدموع وسألته لماذا يتكلم على هذه الشاكلة فأجاب « لن أتكلم على هذه الشاكلة بعد الان » وأخذ يمعن في الترحيب بي وفي التحادث معي برقة واحترام زائدين وأثرت بي طريقة محادثته طيلة ذلك النهار بنوع ما فقد ظهر عطوفا ورقيقا جدا وغريب الاطوار مع مزيج من الانفعالية .

وعند حلول وقت الظهر وتوهج الحرارة في أيام حزيران أخذ الراعي يجمع خرافه من المرجة وانطلقنا عائدات الى البيت بقيادته وكان أمامنا فرسخ واحد من المسافة ينبغي أن نقطعه والطالبات تعبات بعد طول اللعب فقد فترت هممهن بعد مشية الظهيرة وبان عليهن التبرم وهن متربات الوجوه والملابس من قطع الطرق والتقينا في الطريق بعد ابتعادنا عن حدود المزرعة بعربتين كبيرتين واسعتين جاءتا للتفتيش عنا وهي عادة درجت عليها المدرسة في العناية براحة التلميذات وسلامتهن وهاتان العربتان استؤجرتا لهذا الغرض .

واتسعت العربتان لكل منا حتى وصلنا المدرسة • وعند الغروب شاهدت المسيو بول عمانوئيل يخرج من الباب الامامي ترافقه المدام بيك وأخذا يتشيان مدة نصف ساعة تقريبا ويتكلمان على ما كان يظهر في شؤون جدية مهمة وكان منظره رزينا تبدو عليه سيماء القلق • ولا أدري عما كانا يتحدثان • وعندما دخلت المدام بيك غرفتها بعد أن حل الظلام تاركة ابن عمها يتسكع بطيئا جيئة وذهوبا في الحديقة قلت لنفسي :

« لقد سماني •• أختي الصغيرة •• في الصباح واذا كان حقيقة بمثابة أخي فهل أذهب اليه الان وأسأله عما يدور في ذهنه •• أنظر اليه كيف أمال رأسه الى الشجرة بذراعين متشابكتين وجبين مائل أنه على ما يبدو بحاجة الى من يسليه وأنا على علم من أن المدام بيك لا تستطيع أن تفعل ذلك لانها تكتفي بالاحتجاج عليه ولومه كأن تسأله •• وماذا الان ؟ » •

وبعد السكون تحول الى العمل وأخذ يمشي بخطوات سريعة منتصب القامة في أرجاء الحديقة وكنت أتصور بأنه ربما كان يهم بسقي أشجار البرتقال من الحوض المجاور وكما هي عادته تحول ـ عند وصوله الى الساحة ـ واتجه الى مكان الارجوحة ومنها دخل الباب الزجاجي المؤدي الى الصف الاول وكنت أراقبه وهناك لم أجد في نفسي الشجاعة لانتظار دنوه مني فقد استدار فجأة وجاء يخطو بخطوات سريعة مخيفة وبدت عليه امارات غريبة وازداد خوفي من حركاته هذه وبدون أن أصغي الى صوت الرشد والمنطق وسماع تكسر أغصان الشجيرات وصوت الحصباء التي يدوس عليها في طريق عودته تواريت عن الانظار مذعورة •

ولم أنتظر حتى أستطيع اللجوء الى المصلى الذي كان فارغا الان من المصلين وأخذت أصغي من مكاني ونبضات قلبي متصارعة من خوف لا أعرف كنهه كنت أتوقعه وسمعته يمر عبر الصفوف كلها وسمعت صوت ارتجاج الابواب التي كان يفتحها بقوة وبانعدام الصبر وهو ماض في طريق هياجه لا يلوي على شيء ثم غزا غرفة الطعام وسمعته يقول « اين الانسة لوسي ؟ » •

وبعد أن استعدت رباطة جاشي تهيأت للنزول ولان أفعل ـ بعد كل

هذا ـ كل ما أريد أن أفعله في العالم أي الملاقاة معـــه وسمعت صوت الانسة سنت بيير تجيبه ارتجالا وكذبا « هي في فراشها » ودخل المـــر غضوبا مستشطا وهنا التقته المدام بيك فوبخته وأوصلته الى باب الشارع وطردته • وبايصاد باب الشارع داهمني تفكير مفـــاجيء مدهش عن تصرفاتي المشاكسة له ونزل ذلك التفكير علي كضربة قوية •

وكنت قد شعرت منذ البداية بأنني أنا المطلوبة وبأنه لا يفتش الا عني ولو أنني قابلته ـ وهذا ما كان يدور بخاطري ـ فمـا الـذي كان سيحل بي ؟ وما الذي استبقاني بعيدة عن متناول يده ؟ كان في سريرته ما يريد أن يقوله ••• ويقوله لي أنا وكنت قد أصخت السمع وركزته لسماعه منه ودار في خلدي أن الثقة بيننا انعدمت واستحالت •

وكنت أتوق للاصغاء اليه وتسليته والتخفيف عن عذابه حين ظننت أن حرية الكلام والسلوان بعيدتان عن متنـــاول الامـــل وما أن حانت الفرصة على حين غرة وفق ما كنت أهوى الا ووجدتني أراوغهـــا كما يراوغ المرء شبح الموت والفناء • حسنا •• لقد نلت جزاء عدم استقراري وتقلبي وتنافري المخوضة بالجنون وبدلا من الراحة التي كان بامكاني الحظو بها لو أنني أخمدت أنفاس مخاوفي وقفت وقفـــة شجاعـة مدى دقيقتين ولكنني جابهت موقفا فارغا وارتيابـــا أسود مظلما وقلقـــا موحشا • وأخيرا استلمت أجوري وأخذتها معي الى وســادتي وأمضيت ليلتي في عـــدها •

الفصل الرابع والثلاثون

ـ روح الشر والضغينة ـ

استدعتني المدام بيك بعد ظهيرة يوم الخميس وسألتني ما اذا كان لدي اي مانع أو عائق يعوقني عن الذهاب الى المدينة واقتناء بعض الحاجيات لها من حوانيتها ولما كنت غير مشغولة وضعت نفسي في خدمتها واستلمت منها قائمة بالاصواف والحرائر وخيوط التطريز وما اليها التي تمس الحاجة اليها لاعمال التلميذات وذلك بعد أن جهزت نفسي بطريقة تقيني من احتمالات خطورة الجو الغائم الغاضب المهدد ٠

وما أن شرعت في سحب رتاج باب الشارع النابض للخروج في الحال والذهاب الى السوق الا وسمعت صوت المدام يستدعيني الى الصالون الكبير وعندما ذهبت اليها قالت لي بسرعة تفكير مرتجل « لقد تذكرت مهمة أخرى تنجزينها لي مع ما أوصيتك به ان لم تتكلفي » وقلت لها « لا بأس ولا كلوفة فيما توصيني به » ٠

وهرعت المدام الى الصالون الصغير وجاءت معها بسلة جميلة ملأى بفواكه المستنبتات الزجاجية الدافئة وهي فواكه رائعة وردية الالوان وناضجة مشهية الى جانب ذوات الالوان الخضر الداكنة والاوراق الشبيهة بالصمغ والتفاح النجمي الاصفر اللون الذي لا أعرف من أية شجرة ينمو ٠

وقالت انها ليست ثقيلة ولن تخجل هندامك وزينتك ورجاء أودعي هذه السلة الصغيرة في بيت المدام والرافينس وأدعي لها عني بالتوفيق بمناسبة عيد ميلادها فهي تسكن في المدينة القديمة في شارع « دي ماج » المرقم (٣) ٠ ربما وجدت المسافة طويلة ولكن لديك فترة الظهيرة كلها أمامك ولا تتعجلي وان لم يتسن لك أن تعودي وقت تناول عشائك فسآمر لك باعداد طعامك وهنا الطباخ فوتون الذي تعرفينه فسيهيء

لك كل ما تريدين من المآكل ولن ينساك أحد يا عزيزتي الانسة وعند عودتك حبذا لو جئت الي للتأكد من أنك شاهدت المدام والرافينس نفسها وسلمت لها السلة يدا بيد حيث أنها حريصة على الشكليات • اذهبي بسلام • وداعا !! •

وأخيرا خرجت واستغرق قيام وكلاء الحوانيت باختيار وجمع الجوائز والاصواف وقتا طويلا لان مهمتها شاقة دائما واكتملت القائمة علما بأن الخف وحبال الاجراس والقفف والمنزلقات والشرابات الخاصة بالجزادين وغيرها توارت عن فكري فترة ما ولم يبق في فكري سوى الفواكه ونقل التمنيات للمدام والرافينس •

وكنت أحب المشي الطويل فمشيت في شارع بيسيفيل القديم لان الجو المسائي فوق المدينة أضحى ككتلة معدنية ذات لون أزرق – أسود مسخنة الحافية الى أن تصبح ملتهبة كالجمر الاحمر ، غير أنني أخشى الريح العاتية الزوبعية فالزوبعة تتطلب استنفاد القوى واستنزافها ثم الاستسلام الدائم للالم • ان سقوط الثلوج الكثيفة أو انهمار المطر بغزارة يعمل على كنس شوارع العاصمة الكبيرة كنسا نظيفا ويمهد لك طريقا هادئا تمر منه الى الشوارع العريضة ويحجر مدينة حية بالسحر الشرقي بأن يحول مدينة فيليت الى تدمر فلتسقط الامطار اذن ولتنزل الفيضانات بمجرد أن أتخلص من هذه السلة والفواكه باعطائها الى السيدة •

وسمعت عن بعد دقات الساعة من أعالي برج مجهول تعلن عن الخامسة والعشرين دقيقة عند وصولي الى الشارع الموصوف لي والدار المرقم بنفس الرقم ولم يكن ذلك شارعا بالمعنى المعروف انما كان جزءا من ساحة هادئة ينمو الحشيش بين صفائحها العريضة الرمادية اللون ، ودورها واسعة تبدو قديمة الشكل ووراءها تتعالى الاشجار- وتترامى الحدائق وكل شيء فيها موسوم بميسم القدم •

ولم يكن فيها أثر الحوانيت أو مؤسسات مصالح ذلك أن الاغنياء سبق أن اقتنوا تلك المنطقة التي تشرف أبراج كنيستها السوداء الآيلة للخراب عليها وبعبوري ذلك المكان المهجور خيم الظلام ولم أجد في كل

امتداداته أثرا للحياة ما عدا قسيسا مسنا خرج من نفس البيت الـذي دون عنوانه عندي · وعندما توقفت أمام البـاب الذي أوصد بعـده وضغطت على جرس الباب التفت وصوب نظراته الي ·

وفتح لي الباب وكان الفاتح عجوز شمطاء ترتدي ألبسة الفلاحين القديمة جدا وقلنسوة قديمة واشرطة جيوب زينيـة ومعطفـا قصيرا وسترة من قماش وحذاء خشبيا هو أشبه بزورق صغير ، ولم تكن تعابير وجهها مريحة ونادرا ما كانت تجيب على استفساري عن المدام والرافينس وأظن أنها اختطفت السلة من يدي اختطافا لولا أن القسيس المسن تدخل وصدها وأخذ يصغي الى ما أريده ·

وكان هذا القسيس ثقيل السمع وصعب علي نوعـاما افهامه أن علي أن أجد المدام والرافينس لاسلم سلة الفاكهة بيديها ولم أتكلم معه باللغة الفرنسية وانما بلغة أهالي لاباسيكور المحليـة وأقنع القسيس العجوز الشمطاء بوجوب السماح لي بالدخول الى عتبة الدار وجاء معي وأصعدني الى الطابق الاعلى واوصلني الى صالون وتركني هناك ·

كانت الغرفة كبيرة ذات سقف قديم جميل ونوافذ أشبه بنوافـذ الكنيسة ذات الزجاج الملون ولكنها كانت مهجورة ، وعند هبوب العاصفة تصبح عابسة بشكل غريب وفي داخلها غرفة أصغر وكانت ستارة النافذة مسدلة على النافذة البابية الوحيـدة وفي الداخـل بعض الاثاث ولفت نظري وجود صورة كفافية على الحائط تفسح مجـالا لانفتاح الخيـال ونهايتها المتلاشية تؤدي الى ممر مقوس وسلم · وكلا الممر والسلم من الحجارة الصماء الباردة لا طنافس عليها ولا مفروشات ولا صور ·

وتحت ذلك السلم حنفية وعلى السلم ظل وفي آخر الامر علمت أن المنطقة كانت تحوي على ممتلكات فهل كانت ممتلكات فعلية في ذلك المكان الذي كان بجواري وفي تلك العقبة التي كانت تسدل الظلام على القنطرة وتقربت منه وشاهدته بصورة أفضل وبدأت أفهم أين أنا فهل هي تلك الساحة المربعة التي أسميت بساحة « ماجي » ؟ وهل أن الابراج الثلاثة التي تشرف عليها الحكم الصوفية الثلاثة لفن مظلم ميت يحـوم حولـه السحر وفتحت رقيته أمامي أشباح مدينة الاقزام وهل ان تلك الغرفـة الشبيهة بالنيهب أو بغرفة السجن وتلك الصورة المتلاشـية الحـواشي

وتلك القنطرة وذلك الممر كلها أجزاء من قصة الجن الحاوية روح الشر والضغينة (مالفولا) فكيف كان شكلها ؟

ربما كان طولها ثلاثة أقدام ولكن لم يكن لمالفولا شكل (مالفولا روحية الشر هي كونيغولد امرأة من طبقة النبلاء ورد الحديث عنها في قصة مسرحية لبيرد هنريخ ويلهالم فون كليست (۱۷۷۷ – ۱۸۱۱) في هذه المسرحية كان المفروض أن تتزوج هذه النبيلة الفارس ويترفون ستراهل وكانت قبيحة ولكنها كانت تغطي قبحها بكل أنواع الحيل الاصطناعية . وكان من المفروض أن يتزوج الفارس كاتجين التي تحبه والتي اتهمها أبوها بصناعة السحر . وفي نهاية المسرحية تفتضح كونيغوند وتتزوج فون ستراهل محبوبته كاتجين – من شرح المؤلفة في نهاية الكتاب) وكانت يداها الهزيلتان ملتصقتين وكأن وجهها ضخم جداً لا يستقيم على كتفيها ولكن أمام صدرها . ويبدو أن لم تكن لها رقبة وعلى وجهها معالم مائة عام وأكثر من هذه المدة في عينيها الخبيثتين المعاديتين وفوقهما حاجبان كثيفان رماديا اللون وجفنتان شلحتان أزرقان من التورم وكم كان منخارها فظيعاً ومقبضاً للنفس !

كانت ترتدي ثوباً مقصباً ومطرزاً مصبوغاً باللون الأزرق المخفف كرهوة الجنطيانا الزرقاء مغطى بزخارف النسيج الجنيزي الأطلسي بقطع تفصيلية نموذجية وفوق الثوب شال غالي الثمن وفضفاض عريض غليها بحيث أن هدلباتها العديدة الالوان تكنس الأرض وأن النقاط الاسلمية فيها كانت جواهرها فقد كان لها أقراط طويلة لامعة لا يمكن أن تكون زائفة أو مستعارة وحلقات في يديها الحيليتين وخواتم من ذهب وأحجار كريمة أرجوانية خضراء وحمراء بلون الدم وكانت حدباء وقزمة كملكة البرابرة المبيودة .

قالت لي : « ماذا تريدين مني » وذلك بصوت أجش هو صوت الرجال أكثر مما هو صوت امرأة عجوز وفي الحقيقة كانت لها لحية فضية شعراتها كشعرات الخنزير تلتمع على ذقنها فأجبتها « لقد سلمت سلتي لرسالتي البنفوية » وسألتني « هل هذا كل شيء » فأجبتها « هذا كل شيء » وقالت « حقاً انه لمجهود منها » . عوداي الى الدوليه بيك والواقع لها انني أستطيع أن أشتري الدواكه عندما أريد وليست يخص لها نيهما وتمنياتها لي فلادداعي لها » ثم أولتني ظهرها وانصرفت

وحالما أدارت لي ظهرها لتنصرف دوت في الجو جلجلة الرعد وهديره وأومض البرق بوهجه العريض على الصالون وعلى مخدعها • ويبدو أن حكاية السحر سرت مع العوامل الطبيعية والقوى الجوية ، وأنا التائهة الهائمة على وجهها في القصر المسحور الواقعة في شركه سمعت صوت الرعد الذي استثاره السحر في الخارج • وما الذي سأقوله عن المدام بيك بعد هذا كله ؟ ان لها صداقة غريبة مع هذه الشمطاء وأوصلت اليها التحايا والرسالة الشفوية الى هذا الموقع التاريخي الغريب الشكل •

وولت تلك الشمطاء الشبيهة بالساحرة « سيدونيا » تترنح وترتعش كالمتجسدة جسدا بشريا تتوكأ على عكازها العاجي الذي كانت تنقر به الارضية الفسيفسائية وهي تدمدم دمدمة حاقدة في سيرها المرتعش • وغسلت مياه الامطار الشوارع وكان الجو قد تدنى وانخفض عميقا مع غيومه التي بعد أن كانت بلون أحمر استحالت الان بكل اسودادها الى لون أصفر شاحب كما لو انها أصيبت بفزع شديد •

ورغم أنني كنت قبل الان اتبجح بكوني لا أخشى قطرات الامطار صعب علي الخروج والتعرض لمثل ذلك الميزاب ثم اشتد هطولها وتكاثفت ومضات البرق بشكل فظيع وسقطت شظايا البرق بالقرب من ذلك المكان وتجمعت نذر الزوبعة فوق « فيليت » في الحال باقصى ما فيها من قوة على ما كان يظهر واندفعت الى تحت اندفاعا جنونيا واحدثت الصواعق المنحدرة المتشعبة المتجهة الى كل الجوانب سيولا وتكاثفت وتشابكت خطوط متعرجة حمراوات اللون في هجوم ملتمعة كالمعدن الابيض وكل هذه تهاوت من السماء بلونها المدلهم السواد وبوفرتها الثقيلة الوطأة •

وتركت صالون المدام والراقينس غير المضيافة ولجأت الى بيت سلمها البارد حيث يوجد متعد في منبسط الدرج وهناك انتظرت وشاهدت القس المسن يتقدم على محاذاة البهو صوبي قائلا لي « من المؤكد أن الانسة لن تجلس هنا فليس من الصواب أن نعامل الغرباء الذين يحلون عندنا مثل هذه المعاملة » ورجاني أن أذهب الى الصالون بحمية واخلاص ولم يكن لي بد من أن أرفض رجاءه •

كانت الغرفة الصغيرة مؤثثة بشكل أفضل والاقامة فيها خير من الاقامة في الغرف الكبرى وقادني الى مكان هو أقرب الى مصلى منه الى (بدوار) أي مخدع السيدة وحجرة لبسها أو جلوسها التي كانت غرفة

مهيبة رغم صغرها وكان شكلها يدل على أنها مكرسة للتقاليد والشعائر الدينية وغير مصممة للاستخدام الفعلي او لاخذ قسط من الراحة فيها ٠

وجلس الاب الصالح كمرافق لي ولكنه بدلا من أن يحادثني أخذ كتابا يقلب صفحاته دون أن ينظر الي ويحرك شفتيه همسا كما لو انه كان يصلي أو يبتهل الى الله وأضاء مصباح كهربائي أصفر من فوق صلعته واصبح هيكله في الظل وظل جالسا كالتمثال وبـــدا كما لو أنـــه نسي وجودي وهو يصلي ولم يكن يرفع رأسه عن الكتاب الا عند ما كان يسمع صوت الساعقة الاعنف أو صوت القعقعة المؤذنة يدنو الخطر ٠

وحتى في ذلك الوقت وفي تلك الحالة لم يبد الخوف على محياه ولكن عندما كان يشتد الرعب كان يرفع عينيه الى السماء وانا ايضا اصبت بخوف شديد وبما انني لم اكن تحت ضغط الرعب الصاغر فان أفكاري وملاحظاتي ظلت ضعيفة ٠ واذا أردنا نشدان الحقيقة بدات اتخيـــل بان النفس المسن يشبه الاب سيلاس الذي كنت قد ركعت أمامه في كنيسة دير المترهبات وكانت الذكرة غامضة لانني لم اشاهد كاهن الاعتراف الا في الـظلمة وعلى شكل جانبي من وجهه ومع كل ذلك ترسب في ذهني انـــه يشبهه ان لم يكن هو والذي زاد في قناعتي صوته وأنا اراقبـــه ، وعرف بنظرة واحدة أنني أتفحصه وأمعن النظر فيـــه والتفت لألاحظ الغرفـــة وكان له هو أيضا اهتمامه شبه الغامض بذلك ٠

والى جانب صليب معقوف عقفا عجيبا بالعاج القديم مصفر الشكل بفعل الزمن منحدر صوب كرسي الصلاة وجدت صورة معلقـــة سبق أن لمحت خطوطها المحيطية عيناي وقد سقطت الصورة بعد تحركها بجانب الحائط ولانني لم أشاهدها بوضوح تام ظننت أنها صورة مريم العذراء وبعد أن شخصت اليها تماما شاهدت بوضوح أنها صورة سيدة بملابس راهبـــة ٠

ومع أن الوجه لم يكن جميلا فانه كان مبهجا ٠ كانت صورة شابة شاحبة الوجه مظللة بظلال الحزن واعتدال الصحـــة وظللت أمعن النظر في الصورة حتى كأنني ما كنت أريد رفع بصري عنها ٠ ويظهر أن الكاهن الطاعن في السن الذي ظننته أطرش وشيخا عاجزا استعاد قوته وقدراته بتحفظ ووقاية ، لقد كان منهمكا في كتابه كما كان يظهر دون أن يرفـــع رأسه وفي رأيي أنه عندما حول عينيه لاحظني منهمكـــة في التمعن بتلك

الصورة وبصوت متميز واضح وبطيء شرح حقيقة تلك الصورة بالملاحظات الاربعة التالية .. كانت محبوبة جدا .. وماتت وهي شابة .. ولا يزال الاخرون يتذكرونها ويبكون عليها .

وقلت للكاهن المسن .. « من يبكي عليها ؟ هذه المدام المسنة والرافينس ؟ » سالته هذا السؤال وأنا متصورة بأنني اكتشفت حزن هذه الشكلى وألمها الذي لا يشفى وهو ما يوضح شكاسة هذه السيدة المسنة وسوء طباعها وقنوطها . وهز الكاهن رأسه بنصف ابتسامة قائلا « كلا ! كلا ! ان عواطف الجدة حيال أحفادها شيء يعظمهم وحزنها لخسارتهم هو أمر مفعم بالحيوية والنشاط ولكنها العاشقة المخطوبة التي حال القدر والمعتقد والموت دون زواجها بخطيبها والخطيب حزين على موت جوستين ماري صاحبة هذه الصورة .

ووجدت ان علي أن أستنطق الكاهن أكثر فسألته « أبي !! من الذي خسر وفقد ومن الذي لا يزال حزينا على جوستين ماري ؟ » وكان الجواب قصة رومانتيكية قصيرة رواها بتأثر في ذلك الجو الزوبعي الذي لم يزل يعصف وكدت أقول انه لولا أفكار كأفكار جان جاك روسو لكانت الوطأة أكثر تأثيرا ويظهر أن الاب المحترم مولود بفرنسا ومن أصل فرنسي وزدت اعتقادا بأنه كاهن الاعتراف نفسه لانه كان ابن روما البار . وعندما رفع رأسه قدرت عمره بالسبعينات بهمومها واثقالها وفي اعتقادي أنه أب بار وصالح .

ان بطل قصته كان تلميذا له أحب هذه الشابة الشاحبة اللون جوستين ماري ابنة أبوين ثريين ووالد الفتى الذي كان مصرفيا غنيا أفلس وتوفى ولم يخلف وراءه سوى الديون والفقر المدقع ومنع الولد وقتئذ من التفكير في أمر الفتاة المتوفاة ومنعته بصورة خاصة جدته الجيزبون القبيحة الشكل المسماة « مدام والرفيدي » بكل ما كان في روحيتها من مس شيطاني وسرعة غضب وسوء الطبع وشكاسته . وظلت ماري الطيبة مخلصة لحبيبها الذي أجبروه على الغاء خطوبته منها ورفضت قبول خطيب آخر رغم ما كان يملكه من أموال ودخلت الدير الى أن توفيت في رهبنتها ولازم الخطيب المحب المبتئس عذاب مستديم لازم قلبه المخلص الذي كان يعبدها به ورويت لي حقيقة ذلك الحب والحزن بطريقة أثارت شجوني مذ أصغيت اليها .

وبعد أعوام من موت الفتاة المسكينة حل الخراب أيضا ببيت أبيها الذي كان تاجر جواهر وأحجار كريمة وحدث أنه تلقى ضربة قاضية في البورصة لها علاقة بمضاربات وصفقات مالية فضحته وفرضت عليه غرامات مدمرة فمات حزينا على ماخسره وجراء العار الذي لحقه. وتركت والدته الحدباء وزوجته المفجوعة في حالة افلاس تام وكان الموت مترصدا لهما لولا أن خطيب ابنتها المتوفاة سارع الى انقاذهما كليهما فآواهما واهتم بهما وأحسن معاملتهما بحيث ما كان لاي ولد ـ لو كان لهما ولد ـ أن يفعل ما فعل هو لهما بذلك الحنان والاهتمام » .

« وتوفيت الوالدة ـ وكانت صالحة عموما ـ وهي تباركه أما الجدة الغريبة الاطوار التي لم تؤمن بالاله ولا بالانسانية فقد ظلت على قيد الحياة يسندها ويدعمها ذلك الولد المضحي الناكر لذاته تماما ورغم أنها كانت سبب بليته وفاجعته وسبب القضاء على أمله جاء بها الى داره » وواصل الكاهن الحديث فقال والدموع الساخنة تنهمر من عينيه « هنا أيضا في هذا البيت جاء بي أنا معلمه الخصوصي الاسبق وآواني مع « أغنس » خادمة عائلة أبيه » .

واستطرد يقول « من أجل معيشتنا وأعمال الخير التي يقوم بها أنا على علم تام من أنه ينفق ثلاثة أرباع ايراداته مبقيا الربع فقط لخبزه ولوجبات طعامه السرية وبذلك لم يبق له أي شيء يساعده على الزواج اطلاقا وكرس نفسه لعبادة الله ولذكرى عروسه الملاك تماما كما لو أنه كاهن مثلي » .

ومسح الكاهن دموعه قبل أن يتفوه بالكلمات الاخيرة هذه وهنا رفع ناظريه ونظر الي نظرة واحدة والتقيت نظرته رغم شخصيته المحببة وهذه اللحظة من الرؤية أحدثت لدي انطباعا آثر بي كل التأثير . أن هؤلاء القدس مخلوقات غريبة ومنهم هذا الشيخ المسن الشبيه بآخر من تبقى من قومية « الأنكا » في بيرو أو بأول امبراطور صيني (الأنكا : كان قوم أنكا من الشعب الهندي القاطن بلاد بيرو القديمة وغيرها من ارجاء أمريكا الجنوبية قد كون امبراطورية عظيمة بلغت شأوا عظيما في التمدن واسم امبراطورهم الاخير « اتهوالبا » أعدمه الاسبانيون الفاتحون تحت حكم فرانسيسكو بيزارو في عام ١٥٣٣ ـ شرح المؤلفة في آخر صفحات كتابها هذا) .

ان هذا الكاهن يعرفك ويعرف كل ما يهمـــك ويعنيك ويقـــدم خدماته لك متى ما طلبت منه ذلك وحالما وجد أنني أبرزت قصة ارسالي الى « قصر ماجي » نزل من درجات السلم وعبر الساحة وتوسط لي عند الخادمة التي كادت تصرفني لولا مجيئه ثم ظهوره مرة اخرى عـــند بيت السلم وكيفية اخذي الى هذه الغرفة ثم الصورة ثم حكايتها المأسوية وكل أعماله التطوعية • ان كل هذه الاحداث الصغيرة تدل دلالة واضحة على حسن طويته واعمال البر التي جبلت نفسه عليها •

ولكي يخدمني أكثر قال لي « يا انســه انا موقن بان المكان الذي تودين الرجوع اليه لا يبعد كثيرا عن هذه الشوارع الغرقى بالميـــاه » فقلت له « يبـــدو ان المسافة لا تزيد عـــلى نصف فرســـخ » وقال لي « وسكناك ؟ » فاجبته « في شارع فوسيت » فسألني « هـــل تقصـــدين بناية المدام بيك للتلميذات ؟ » فاجبته « هي بعينها » وضرب كفا بكف قائلا « اذن لابد أن تعـــرفي تلميـــذي النجيب بول » فقلت له « اتقصـــد البروفيسور بول عمانوئيل بروفيسور الاداب ؟ » فقـــال لي « هو ذاتـــه وليس سواه ! » •

وساد سكوت قصير الامد • وتوضحت الامور وشعرت بأنه أذعـــن للضغط فسألته توا « هل كنت تتكلم عن المسيو بول ؟! وهل كان تلميذك وهو الذي يتبرع للمدام والرافينس ؟ » فقال « نعم ويتبرع أيضا لاغنس الخادمة العجوز وأكد ـ أكثر من ذلك ـ عـــلى أنه العاشـــق الامين المخلص دائما وأبدا لتلك القديسة الموجـــودة الان في نعيم الجنـــة •• جـــوستين ماري وواصلت كلامي وشـــددت على السؤال التالي : « وأنت ؟ من أنت يا أبي ؟ » •

واجابني « أنا ؟ ـ أنا يا ابنتي ؟ أنا الاب سيلاس الابن المطيـــع للكنيسة التي سبق أن كنت فيها وبكل ثقة اعترفت عندي بما يســـاور قلبك وبصدق واخلاص • أنا لم أنسك يوما واحدا ولا قل اهتمـــامي بمصيرك يوما واحدا • والذي قاله الكاهن أثر في تأثيرا خاصا واستأنفت التحدث عن المسيو بول فقلت له متسائلة هـــل أن المسيو بول يســـكن هنا ؟ » فقال لي كلا ! انما يأتي أحيانا ليصلي ولكي يعترف عنـــدي وليقدم عظيم احترامه لمن هي في قلبه ويناجي أمه وله غرفتان هنا وليس له خادم ولا يطالب المدام والرافينس بالجواهـــر التي تستعملها والتي كان قد أعطاها اياها وهي تفخر بها وتقول أنها تعود الى أيام شبابهـــا ومن مخلفات ولدها الجواهري وثروته » •

وقلت أدمـــدم لنفسي « ما أكثر ما يفتقر هــذا الانسان المسيــو عمانوئيل الى شهامة وما أعظمه في الاشياء الاخرى » وســـألت الكاهــن « منذ متى توفيت هـــذه السيدة ؟ » وأومات الى صــورة جوستين ماري فاجابتني « توفيت منذ عشرين عاما فقد كانت تكبر المسيو بــول فتيــلا وكان هو شابا والان لا يزيد عمره على الاربعين عاما » .

وقلت للكاهن « الا يزال يبكي عليــها ؟ » فقـــال لي « ان فؤاده سيظل يندبها على الدوام ومن مميزات المسيو بول وطبيعتـــه الثبات والولاء » وهذه العبارة قالها تشديدا . وفي تلك اللحظه اشرقت الشمس شاحبة وهزيلة رغم ان المطر استمر نزوله ولكن العاصفه تلاشت وتلك القبه الزرقاء الحارة شقت طريقها وصبت وسكبت ما في بروقهـــا ولو تاخرت العاصفة اكثر لما بقي من النهار شيء يتيح لي ان اعود .

ولهذا نهضت وشكرت الاب لحسن ضيافته وقصصه وودعني ودعـــا لي بالسلام وهو ما رحبت به ثم عدت ووصلت الدار في الوقت المحـــدد وقت الغروب وكان غوتون قد ابقى لي طعاما شهيا لعشائي واستدعتني المدام بيك الى الغرفة الصغيرة لاقاسمها الطعام والشراب وطهرت وبيدها كاس من الشراب وهي تضحك ضحكة خافتة وبادأتني السؤال « كيف كان استقبال المدام والرافينس لك ؟ » فقلت لها « انها مخلوقة غريبة شاذة » ثم أخبرتها بالذي حصل حرفيا فقالت « يا لها من حدباء قصيرة شاذة . تصوري انها تكرهني لانها تظن انني أحب ابن عمي.بول وان بينــنـــا علاقة غرامية . انه اذا أراد أن يتزوج فلا طاقة له على ذلك لان عائلته كبيرة العدد كوالرافينس والاب سيـــلاس والسيدة اغنس ومجموعة من العائلة غير المعروفة أسماؤهم » .

وقالت لي « لا يوجد رجل مثله يضع على عاتقه أعباء أثقل ممـــا يقوى على الاضطلاع بها ويتطوع لتحمل مسؤوليات لا موجب لتحملهـــا علما بأنه يحمل فكرة رومانتيكية عن فتاة شاحبـــة الوجه اسمها ماري جوستن يتصور انها ملاك سماوي ومر على هذا الحادث عشرون عاما وفي رأيي أنها لم تكن سوى مخلوقة غبية (وهذه كانت ملاحظات لا لزوم لها للمدام بيك) . ويريـــد هو أن يلتحق بهـــا ويتخلص من كل الروابط الارضية ويقول انها زهرة نقية . انك ستضحكين لو عرفت جماعة المسيو بول هؤلاء من المنحرفين والشاذين . أمنعك الان من تنـــاول المرطبـــات وعليك بدلا من ذلك أن تتناولي عشاءك وتشربي شـــرابك وانسي كل شيء عن الملائكة والحدباوات والبروفيسورية ووداعا .

الفصل الخامس والثلاثون

ـ التآخي ـ

المدام بيك امرأة عاقلة وما كان عليها أن تتفوه بتلك الكلمات فذلك خطأ وكان عليها أن تبقيني هادئة في تلك الليلة لا ان تهيج أعصابي . لقد كان ذوو الارؤس الحكيمة يظهرون كم كان المسيو بول شخصية جيدة وخلقوا من ذلك الرجل القميء بطلا صغيرا لا لطخة عليه ثم أخذوا يثرثرون عن سلوكه في الحب واي برهان لي مثل ذلك اليوم يثبت ما اذا كان في الواقع يستطيع أن يحب أولا .

لقد عرفته غيورا شكوكا كما عرفته عاطفيا ورقيقا كالهواء الدافيء ورحوما كقطرة الندى المبكرة وجافا متيبسا بحرارة شذوذياته وهذا كان كل ما شاهدته عنه وعرفته به وقد فتح كل من الاب سيلاس والمحتشمة المدام بيك قلبه وأروني حبا عظيما له وتشبثا منه بالروح الخالدة وبكل فوز ومعتقد بدليل أنه وقف الى جانب القبر يحرسه عشرين عاما .

وهذه فعلة لا عجز أو تكاسل أو مضيعة للوقت أو عن انغماس حي أو من أجل اطلاق العنان لاهوائه فقد برهن على ولائه بتكريس أفضل طاقاته لغاية تتسم بنكران الذات وأكد عليها بتضحيات شخصية غير محدودة وتخلى عن الانتقام وحمل صليب السلام وشعاره . والان أعرف حقيقة ما كانت عليه جوستين ماري كما لو أنني سبق آن شاهدتها ففي مدرسة المدام بيك شبيهات بها .

انها هادئة رابطة الجاش بطيئة في حركاتها شاحبة الوجه نوعا ما ولو انها حملت أجنحة الملائكة فانني على علم ممن يناجيها من الشعراء واذا كان جبينها يلتمع بازدهاء نير وبانعكاس الهالة فانني أعرف في نيران اي قوس قزح تكونت دائرة الشعلة المقدسة . وهل علي أن أخاف وأجزع من جوستين ماري ؟ وهل أن صورة راهبة شاحبة ميتة تستطيع أن تقيم حاجزا أبديا ؟ وماذا عن أعمال البر والاحسان التي استحوذت على

اهتماماته الخيرية في العالم ؟ وماذا عن قلبه الذي آل على أن يصبح أعزب الى الابـــد ؟ •

يظهر أيتها المدام بيك وأيها الاب سيلاس انكما لم تفكـرا بهـذين السـؤالين اللذين يحـيران المرء أيما حـيرة فهما أقوى عائقين واعظـم حافزين أحسست بهما في حياتي فقـد ظللت أسابيع عـديدة بنهاراتهـا ولياليها أنام وأحلم وأستيقظ بسببهما وليس في العالم كله جواب لهما الا اذا استثنينا أن هنالك رجلا قميئـا داكن الاسمرار سـبق أن وقف وجلس وتمشى وألقى المحاضرات مرتديا سترة (بالطوية) تافهة الشكل مبقعة بالحبر علاوة على بعض الاغبرة والاتربة عليها •

وبعد زيارتي تلك لشارع « دي ماجي » أردت ملاقاته مرة أخرى وشعرت أنه لو درى بما أعرف عنه الان فان محياه سيتخذ اشراقة جديدة أكثر اثارة للاهتمام من سابقها كما شعرت برغبة في أن اكتشف فيـــه سمة ذلك الاخلاص الفطري ودلائل الفروسية وشهامة انصاف الفرسان وعدالة القديسين وهو ما اضفاه عليه القسيس بما رواه عنه فقد أصبح في نظري « بطلي المسيحي » وعلى هـــذا الاساس وهـــذه الميزة أحببت أن أشاهده •

ولم تبطيء الفرصة فقد منحت موافقة مقابلته ، مقابلة •• البطل المسيحي •• ولم تكن المقابلة بطولية جدا ولا حساسة أو دينية جدا وانما كانت مقابلة حية الى حد ما بالطريقة التي حصلت فيهـا عنـد حـوالي الثالثة بعد الظهر وسط سيادة هدوء الصف الاول بعيـــدا عن حضـــور المدام بيك التي كانت منشغلة في تقديم واحد من دروسها المفيدة • ولم يعكر ذلك السلام الا انفجار غضوب مفاجيء لصاحب (البالطو) •

وفي تلك اللحظة لم يكن هنالك من هو أهـــدأ مني ومن هو أقـل تعرضا للمسؤولية من جراء غياب المدام بيـك فجلست مسـرورة وأنا منكبة على رحلتي التي كنت استخدمها لرسومي وكنت أرسم حفرا ما هو تكملة لموضوعي الاصلي وتلك كانت طبيعتي العملية في الفن ومن الغريب أن أقول أنني كنت جد متلذذة بعملي حتى أنني أخذت أنتج صورة طبق الاصل لالواح وحفريات فولاذية صينية عظيمة القيمة وغزل صوفية طويلة الالياف وكنت شديدة الاهتمام بصنعها في تلك الايام •

وماذا كان سبب الهياج ؟ لقـد جمع صـاحب « البالطو » رسومي

ونحوتي وأقلامي ونسختي التي صنعتها حفرا بيدي وألقاها بعيدا عن ناظري ويدا علي الارتعاش وهياج الخاطر وأبعدت عن كرسيي كجوزة الطيب المهشمة التي يرمي بها الطباخ المنفعل وخسرت الكرسي والرحلة وفي لحظة تابعت أثاثي وأشيائي التي رمى بها بعيدا بكل همجية وفي غضون دقيقتين كنت أنا واياها في وسط الصالون الكبير وهي غرفة واسعة مجاورة كبيرة الحجم قلما تستخدم الا في حالات أخذ دروس الرقص والغناء الكورسي ٠

وبعد أن استجمعت ـ بنوع ما ـ أحاسيس الفزعة وجدت نفسي بحضرة شخصين نبيلين أحدهما أسمر اللون والاخر نير الوجه ، وللواحد منهما سيماء العسكري الصارم يرتدي معطفا ضيقا مزركشا بشريط زيني وللاخر سمات التلميذ غير المكترث أو سمات الفنان ولكلاهما شاربان كثان كبيران ولحيتان امبراطوريتان تمتد شعراتهما من الوجه الى الذقن وقد وقف المسيو عمانوئيل بعيدا عنهما بنوع ما وشرر الغضب يتطاير من عينيه والتفت الي من منبره قائلا :

أيتها الانسة ٠٠ واجبك أن تبرهني لهذين السيدين النبيلين (الجنتلمانين) على أنني غير كاذب وعليك أن تتجاوبي بأفضل ما في وسعك على الاسئلة التي يوجهانها اليك وعليك أن تكتبي عن أي موضوع ينتقيانه لك وفي رأيهما أنني أحتل مركز دجال مجرد من المثل الاخلاقية ويقولان عني أنني أكتب مقالات وأضع أسماء التلميذات عمدا تحتها على أنها لهن وأفخر بهن كتلميذات نجيبات فاهمات وبوسعك أن تدحظي مثل هذه التهم ٠

يا للسموات السامية !! ههنا محنتي التي طالما حاولت التملص منها ومن مجابهتها منذ مدة طويلة نزلت علي الان كقصف الرعد ٠ ان تينك الشخصيتين المهندمتين الساخرتين بشاربيهما الرائعين لم تكونا سوى اثنين من البروفيسورية البارزين (الغندورين) المتأنقين من الكنية هما المسيو بواساك والمسيو روشمورت المتأنقان المتحذلقان والشكوكيان الساخران ٠

ويبدو أن المسيو بول قد أعطاهما بشكل متسرع شيئا كنت قد

كتبته تأليفا ولم يمدحه بوقته ولم ينوه عنه قط أمامي وكنت قد نسيت أمره بمرور الايام ولم يكن المقال مما يلفت النظر أبدا واذا كان قد لفت النظر فبالنسبة لمعدل الكتابات التي كانت التلميذات الاجنبيات يكتبنها فمثلا قلما كان من الممكن في مدرسة انكليزية أن يثير انتباه أحد أو اهتمام أحد ووجد ذانك البروفيسوران أن من الاصوب أن يستجوبا كاتبته ليجدا ما اذا كان في الامر حيلة أو خدعة وعلي الان ان أدلي بشهادتي وبينتي عن الموضوع وعن أحقية ما جاء فيه ، أي أنني سأخضع الى عذاب امتحانهما ·

وساد مشهد جديد بالذكر عندما شرعا معي بالقضايا الكلاسيكية ثم بالتاريخ الفرنسي ولم أكن أميز الا بمشقة بين ميروفييه وبين فاراموند وامتحناني في أحد الفروع العلمية فهززت رأسي قائلة « لا اعرف عنه شيئا » وبعد برهة تعبيرية شرعا معي في قضايا المعرفة العامة واختارا موضوعين كنت على المام تام بهما وتحدثت بهما باسهاب ·

ان المسيو بول الذي كان آنذاك واقفا مكسوفا كالانقلاب الشمسي الصيفي أو الشتائي استنار وجهه الان نوعاما وفكر في نفسه بأنني لن أظهر بعد الان أمامهما حمقاء أو غبية وأدرك خطأه ومع أن أجوبتي على الاسئلة التي كانا يطرحانها علي كانت سريعة وكان ذهني كالبئر المليئة وكانت الافكار زاخرة فيه ولكن كانت الكلمات تخذلني فأحيانا لم أقو على الكلام وأحيانا ما كنت أريد أن أجيب وفي ظني أن أعصابي كانت تزوغ عن الصواب لتوترها ، هذا من الجهة الواحدة ، ومن الجهة الاخرى كان مزاجي منغلقا وعلى غير ما يرام ·

وسمعت أحد الممتحنين - صاحب المعطف الضيق - يقول همسا « الست تراها غبية ؟ » فأجابه الاخر « نعم ·· هي كذلك وستكون دائما غبية مثلك تماما » وآلمني ذلك كل الايلام وشعرت بقسوة كلماتهما ووجدت جبين المسيو بول يتندى وعينيه تتحدثان عن تقريع عاطفي حزين ومع انه لم يكن يؤمن بافتقاري الكلي الى الذكاء العام الا أنه كان يظن أن في قدرتي التأهب والقيام بالعمل اذا قررت ذلك · وأخيرا لكي أنقذه وأنقذ البروفيسورين وأنقذ نفسي تمتمت لهما بقولي « أيها

السيدان ٠٠ أرى أن من الافضل أن تخليا سبيلي ولن تفيدا منى شيئا فكما قلتما أنني غبية » ٠

وكان بودي لو أنني تكلمت بهدوء وبعزة نفس وكان بودي أيضا لو أسعفتني مشاعري لكيما اضبط لساني وأمسك به غير أن ذياك اللسان الغادر عجز عن أن يفي بما كنت أريده منه فتلعثم وتخاذل ٠ وبعد ان شاهدت القاضيين يرمقان المسيو بول بنظرة انتصار عنيفة وسمعت اضطراب صوتي الوجيع انبجست الدموع من مقلتي وشرقت بها ٠ وكانت هذه عاطفة غضب لا عاطفة أسى ولو كنت بقوة الرجل لعلمت ذينك الشخصين درسا ولتحديتهما في المكان ذاته ولكنها كانت عاطفة حبذا لو أنني استطعت معاقبتها بدلا من ابرازها » ٠

ذانك العاجزان ٠٠ ألم يشاهدا في الحال يد المبتدئة الخام في ذلك الانشاء الذي أسمياه تزويرا وتسويفا ؟! لقد كان الموضوع كلاسيكيا وعندما أملى على المسيو بول ما ينبغي أن أفعله للبدء بموضوعي سمعت ذلك لاول مرة لان الموضوع كان جديدا علي ولم تكن لي المادة الكافية لمعالجته ، بيد أن الكتب كانت جاهزة لدي وقرأت عن الحقائق وأوجدت مخطط بحث عن العظام اليابسة للواقع ثم كسوتها بالاقمشة والملابس وحاولت أن أنفخ فيها الحياة وما كان أعظم فرحي بعد أن بلغت هدفي ومقصودي ٠ وكانت المهمة بالنسبة لي شاقة أنفقت فيها الوقت الى أن عثرت على حقائقي وانتقيتها وأوجدت صلة بينها ولم أدخر وسعا أو جهدا أو وقتا في بحثي حتى اقتنعت بالهيكل الذي صنعته وبتحليله ٠

ان قوة مقتي الداخلي لاي عيب أو خطأ يطرأ على عملي مكنتني أحيانا من أن أتحاشى الاخطاء الفاضحة ولكن العلم لم يكن في رأسي مهيئا وجاهزا ولم يزرع في الربيع وينبع في الصيف ويجنى في الخريف ويخزن في الاهراء شتاء حتى اذا أردت الذهاب حيثما أشاء جمعت منها امطري ملء أحضاني واودعتها الجرار والقدور خضراء طرية غير أن المسيوين باساك وروشمورت لم يفهما ذلك ولم يتحسسا به اذ اعتبرا عملي من أعمال احدى المثقفات الناضجات ٠

غير انهما لم يسمحا لي بالذهاب مع كل ذلك وعلي أن أجلس وأكتب أمامهما وعندما غمست ريشتي في الحبر بيد مرتعشة ورسمت على

ابيضاض الورقة عينين نصف مغمضتين وفائضتين بدأ أحد ذينك القاضيين يعتذر لي برقة عما سببه لي من ألم قائلا لي « اننا نعمل لمصلحة الصدق وليس في نيتنا ايذاؤك وأعطاني ذلك التحقير والسخرية عزما وقوة ومتانة شدت أعصابي ولم أقل له سوى «أمل علي أيها السيد !».

وسمى روشمورت العبارة التالية ... « العدالة الانسانية » كموضوع فقلت له « وما شأني بذلك ؟ انها عبارة ذات مدلول وفكرة تجريدية باردة لا توحي لي بأية فكرة ذات مغزى » وكان المسيو بول واقفا وعلى وجهه امارات الحزن والصرامة حيث انتصر عليه هذان اللذان وجها اليه التهم ونظرت الى كليهما وكنت أجمع شتات شجاعتي لاعلمهما بأنني لن أكتب أية كلمة ولن أتفوه بأية كلمة من أجل ارضائهما وأن موضوعهما لا يناسبني ولا يروق لي ولا يوحي وجودهما لي بأي شيء وأن كل من يحاول أن يسدل ظلال الشك حول المسيو عمانوئيل وشرفه يفسد الحقيقة التي يتشدق بأنه بطلها وهممت أن أتفوه بكل ذلك لولا ما أومض في ذاكرتي من وميض فجائي .

هذان الوجهان الناظرة عيونهما من بين غابة من الشعر الطويل ومن الشاربين واللحيتين ، هاتان الصورتان الباردتان الوقحتان اللتان ليستا موضوع ثقة احد هنا ، نفس الصورتين اللتين شعتا أمامي بكل اشراقة من وراء أعمدة مدخل المبنى الموصل الى « فيليت » وارعبتاني وأنا وحيدة ليلة وصولي اليها عندما سمعت منهما تعليقات وقحة ونابية ضدي والان يسوقان أمامهما أجنبية لا حول ولا قوة ولا معين ولا صديق بعد أن تصيداها مبهورة الانفاس في ساحة من سوح المدينة .

وقلت في نفسي « أيها المرشدان المسكينان !! أيها الدليلان الكبيران للشبيبة !! لو كانت العدالة الانسانية « هي كما ينبغي أن تكون لما استطعتما المحافظة على منصبيكما الحاليين أو تمتعتما بامتيازاتكما الحالية » وعندما سيطرت هذه الفكرة على خاطري رحت أمضي في عملي وسرعان ما مثلت أمام بصري عبارة « العدالة الانسانية » في زي روائي جديد .

تمثلت أمامي بزي عجوز شمطاء خبيثة شكسة الطباع تضع يديها

على خاصرتيها . وجدتها في دارها والخدم ينادونها طالبين أوامر منها لمساعدتهم وهو ما لم تفعله والمتسولون يقفون عند بابها ينتظرون لما قد ينجيهم من التضور جوعا وهي لا تعير لهم التفاتا أو اهتماما وحول قدميها حشد من الاطفال والمرضى والمرهقين يتصايحون بعبارات استغاثة طلبا للعطف والشفاء والخلاص على يديها دون جدوى . ان تلك المرأة « المخلصة !! » لم تكن تعبأ بأي من هؤلاء ولماذا ؟ لان لها مقعدها الدافيء الخاص بها بجانب الموقد وتسليتها غليون قصير أسود اللون وقنينة من ويسكي « سويتي سوثينك سيروب » .

فمن هنا تدخن الغليون ومن هنا تشرب المسكر وهي متمتعة في فردوسها وحيثما تسمع صراخ الارواح المعذبة تصم آذانها بقوة واذا كان المسيء ضعيفا لا حول له ولا قوة فانها تقبض على جهاز اذكاء النار او فرشاة تنظيف الموقد وتخمد صوته واذا كان قويا عنيفا مليئا بالحيوية فانها تشرع بتهديده وتخويفه ثم تدس يدها في جيبها العميق لتنثر عليه بعض ما تريد أن تعطيه من الفضلات .

ذلك كان الهيكل التصميمي « للعدالة الانسانية » ان هو الا قصاصة من ورق قدمت بسرعة لخدمة السيدين « النبيلين » بوساك وروشمورت . لقد قرأها المسيو عمانوئيل من فوق كتفي دون أن ينتظر شرحا أو تعليقا مني ثم انحنيت للاستاذين وانسحبت . وفي نفس ذلك اليوم وبعد الدراسة التقيت مرة أخرى بالمسيو بول وبالطبع لم يتم التلاقي بشكل سهل فقد رافقه عظم ناخس . قال لي أثناء التلاقي ان الامتحان الاجباري لا يمكن القبول به بشكل آني ودارت بيني وبينه مناقشة حادة انتهت بأن وصمني بالعبارة التالية « المخلوقة الساخرة العديمة القلب » اعقبه رحيل المسيو الوقتي عني .

ولم أكن أريد ابعاده نهائيا ولم أكن أشعر بالاسف لو أنني التقيت به مرة أخرى وهذا ما حدث بعد تنزهي في المنطقة المعرشة الكثيرة الاشجار القريبة من الصف فقد لاحظته يدنو من الباب الزجاجي ودنوت منه أنا أيضا أكثر ورحنا نتحادث عن بعض الازهار النابتة حول الباب وشيئا فشيئا أخذ يلقي بسلاحه وبدأ الحوار معي وانتقل الى مواضيع أخرى وأخيرا مس النقطة المثيرة للاهتمام .

ولما كان داريا بأن محادثته معي في ذلك اليوم شابها التهور بشكل بارز فقد اعتذر بنوع ما وأعلن عن أسفه بشكل ما بيد أنه لمح الى وجوب تقديمي بعض التسامحات له وعلق على ذلك قائلا « وان كنت أدرى بأنني غير متوقع هذا منك أيتها الانسة لوسي فأنت لا تعرفيني جيــدا وليس لك تصور لمركزي ولا لسيرتي الشخصية أو لتاريخي الشخصي » ·

وما أن قال « تاريخي الشخصي » حتى تابعت فكــرته قائلة لــه « كلا ·· أيها المسيو ·· وبالطبع ـ وكما قلت ـ لا أعرف شيئا عــن تاريخك ولا عن مركزك ولا عن تضحياتك ولا عن أي حزن من أحزانك أو أية محنة من محنك أو ميل من ميولك أو نزعة ن نزعاتك أو اخلاص من اخلاصاتك · نعم ـ· لا أعرف شيئا عنــك فأنت بالنسبة لي غريب تمــــاما » ·

وقال متمتما بلهجة مشوبة بالتعب والاستغراب وهو يقوس حاجبيه «هل هذا صحيح ؟ » وقلت له « أنت تدري أيها المسيو أنني لا أشاهدك الا في الصف مقطب الجبين صارما بعقيدتك المعروفة متسرعا ومتعاليا ولــم اسمع عنك في المدينة أكثر من أنك كثير الاشغال والحيـوية والنشــاط عنيد ومتصلب في آرائك ، وسريع في اتخاذ القرارات ومتسرع في القيادة ولكن بطيء في الاقناع لا تلين لك قناة » ·

ومضيت في كلامي قائلة له « ان رجــلا مثلك لا رابطة تربطـه الاخرين لا يمكن أن تكون له صلات أو تبعيات أو مهمات أو واجبات · اننا نحن اللواتي لنا معك صلة لسن سوى آلات تسخرها وترمي بهــا هنا وهناك دون أن تأخذ في اعتبارك مشاعرهن وأحاسيسهن · أنت تنشد استجماماتك في الاماكن العامة تحت أضواء الثريات وما هــذه المدرسـة وتلك الكلية الا ورشتا عمل لك حيث تضع فيهما بضاعتك وسلعتك من التلميــذات · وليس لي أي عــلم عن المكان الذي تعيش فيه كسكنى ، ومعنى هذا أنه قد لا يكون لك دار سكنى وانك لست بحاجة اليها » ·

وقال لي « ها أنا محكوم عليه · ان رأيك في كان ولا يزال كما هو ففي رأيك أنني لست رجــلا ولا عقائديا وانني مجــرد من كل أسباب العطف لا تربطني رابطــة بصــديق أو بعــائلة ولا تسيرني عقيــدة أو مبدأ · حسنا أيتها الانسة هذا هو جزائي في هذه الحياة » وقلت له

وأنا أنظر الى مسترته البالطوية التي أخذ يعبث بها خروجا على قواعد الانسانية « انك فيلسوف أيها المسيو ... فيلسوف ساخر » .

وقال لي « وأنت طاهرة الذيل كيسة ورقيقة .. ايتها الانسة انك قاسية القلب في التعامل الى درجة بعيدة » وقلت له « والان باختصار أيها المسيو انك لابد عائش في مكان ما فقل لي أين تعيش ؟ وما هو عدد الخدم الذين تستخدمهم في دارك ؟ » وبتصور فكري منيف جدا من تحت شفته يدل على الاحتقار والسخرية باجلى معانيها قال لي منفجرا من الغيظ « انني أعيش في حفرة أيتها الانسة .. في تجويفة كهف لا تستطيعين أن تزجي فيها بانفك ولقد تحدثت مرة حديثا تخلله عار عدم ذكر الحقيقة كلها . تحدثت عن « دراستي » في تلك الكلية وأدري الان أن تلك الدراسة هي مقري كله فغرفتي فيها وقاعة استقبالي أما عن عدد خدمي (وراح يقلد صوتي) فانهم عشرة ، قال ذلك وقرب أصابعه العشرة من تحت عيني مباشرة » ثم قال بغضب « انني أنظف حذائي وأصبغه والمعه وأفرش بالفرشاة معطفي » وكانت جملتي المعترضة « كلا أيها المسيو انك لا تفعل ذلك وهذا واضح جدا » .

واستأنف قائلا انني أرتب شؤون فراشي وأقوم بأعمالي المنزلية بنفسي واتعشى في مطعم على هواي وذوقي وأقضي أيامي بأعمال شاقة خالية من حب أحد وحيدا طيلة الليل وأنا ضار بالاخرين وأعيش وحدي كالناسكين ولا أحد يعيش في هذا العالم يكن لي الحب باستثناء بعض القلوب المسحوقة انسحاق قلبي وبعض الادميين البائسين المعدمين المعانين مالا وروحا الذين لا تمتلكهم ممالك هذا العالم » وقلت له « آه ... أيها المسيو .. أنني أعرف » .. وقاطعني قائلا « ماذا تعرفين ؟؟ هل تعرفين أشياء كثيرة ؟ يقينا انني أعرف أنك لا تعرفيني يا لوسي » .

وقلت له « أنا أعرف أن لك دارا قديمة جميلة في شارع قديم بهيج من شوارع منطقة « البيس ـ فيل » فلماذا لا تذهب وتسكن فيه ؟ » وتمتم بلهجة المستغرب وقال « حقا ؟ ! » وقلت له « أنني أحب تلك الدار كثيرا أيها المسيو .. احبها بدرجات سلمها المنخفضة صوب الباب وباشجار السوسن الرمادية الكائنة في مقدمتها وباشجارها المتمايلة ذات

اليمين وذات الشمال في مؤخرتها . انها أشجار حقيقية وليست شجيرات أشجار داكنة الاخضرار متعالية صوب السماء ومن النبت القديم وباستطاعتك أن تجعل من تلك الغرفة موقع دراستك فهي غرفة هادئة ورزينة » .

ورنا الي عن كثب وسألني بابتسامة ممزوجة بتورد بشرة وجهه « من أين عرفت ذلك كله ؟ ومن أخبرك بذلك ؟ » فأجبته لا أحد أخبرني بذلك .. فهل تتصور أيها المسيو أنني حلمت بذلك حلما ؟ » فقال لي « هل لي أن أدخل في خيالاتك ورؤاك ؟ هل لي أن أحزر أفكار امرأة يقظة غير نائمة ناهيك عن خيالها وأحلام يقظتها ؟ » فقلت له « اذا كنت تتصور أن هذا حلم فلأروه لك !! وجدت في حلمي كائنات بشرية ودارا وشاهدت كاهنا شيخا محدودب الظهر أشيب الشعر ونزيلة مسنة أيضا وصورة رائعة وسيدة فاخرة الملبس ولكنها غريبة يصعب أن يصل رأسها الى مرفقي وجمالها الرفيع يستطيع أن ينقذ دوقا ويفتديه من ذنوبه » .

لقد كانت ترتدي بدلة وضاءة كالسليكات المحتوي كبريتا ذات لون أزرق باهتا وشالا يسوى ألف فرانك تزينها حلي وزخارف يا لبهائها وسنائها ولم أشهد مثيلا لتلك اللآليء الجميلة غير أن صورتها بدت كما لو أنها قد انكسرت كسرتين وانحنت قامتها ضعفين وكما لو أنها عسرت أكثر من سني البشرية العامة حتى بلغت الاعوام التي هي كلها مشاق وأحزان فقط ، فقد اصبحت نكدة المزاج حقودة ولكن هنالك ــ مع كل ذلك ــ من يبدو إنه يهتم بها في عجزها وسقمها ، من يبدو أنه غفر لها خطاياها وآثامها على أمل أن تغفر له خطاياه وآثامه هو أيضا وعاش هؤلاء الثلاثة السيدة والكاهن والخادمة وثلاثتهم مسنون وعاجزون يأوون تحت سقف واحد وجنح حنون واحد » .

وغطى بيده القسم الاعلى من وجهه دون أن يخفي فمه الذي لاحظت أنه يتحرى عن تعبير يعجبني وقال لي « لقد تغلغلت في عمق أسراري فكيف تم لك ذلك ؟! » وأخبرته عن المهمة التي أرسلت لانجازها والزوبعة التي احتجزتني في الدار وفظاظة طبع السيدة ورقة الكاهن وعطفه وعندما جلست أنتظر انقطاع انهمار المطر أمضى الاب سيلاس الوقت بقصة رواها لي » وقال لي قصة ؟ » « أية قصة ؟! .. الاب سيلاس

ليس روائيا أو قصصيا أو رومانسيا » وقلت له « هل يسمح لي المسيو بسرد القصة ؟ » .

وأجابني قائلا .. « نعم .. اشرعي من الاول ودعيني أسمع لغة الانسة لوسي الفرنسية الجيدة أو غير الجيدة دون أن أهتم بالتمييز بينهما ودعينا نسمع عن نكهة البربرية والبرابرة لنبرة الجزيرة ». وقلت له « لن يكون المسيو راضيا عن حكاية ذات أبعاد طموحة مشرقة يتوقف الراوي في منتصفها عن التحدث ولكنني سأقول له العنوان « تلميذ القس » وأجابني بلهجة ازدراء وعدم رضى « ما أسوأ ما أختاره الكاهن المسن الصالح من موضوع . انها نقطته الضعيفة ولكن ماذا عن تلميذ القس ؟ » فقلت له « أشياء كثيرة عنه ! » .

وقال لي « عليك أن تعرفي تعريفا جيدا هذه الاشياء فأنا أروم معرفتها » فقلت له « هناك شباب التلميذ ثم رجولته ثم جشعه للمال ونكرانه للجميل وجحوده وعناده وعدم استقراره ومثل هذا التلميذ المسيء أيها المسيو كان عديم الاعتراف بالجميل خلوا من الشعور والعطف عديم الشهامة وعديم التسامح » .وقال متسائلا بعد أن وضع سيجاره بين شفتيه .. « ثم ماذا ؟ ! » .

وقلت له « ثم عانى من مصائب وكوارث لم يرحمه فيها أحد وحمل عبئها بروحية لم يعجب بها أحد وتحمل مساوىء لم يعطف عليه أحد من جرائها وأخيرا لجأ الى الانتقام الذي لاتقره الاديان السماوية بحيث أخذ يلقي بكميات الفحم الخارقة على رؤوس خصومه» وقال لي «لم تخبريني عن كل شيء» فقلت له « في ظني أنني أخبرتك عن كل شيء » وأشرت الى عناوين فصول الاب سيلاس فقال لي « نسيت واحدا له علاقة بافتقار الطالب الى الود والمحبة ، واحدا من قلبه البارد القاسي وقلت له « صحيح .. أتذكر الان أن الاب سيلاس قال أن مهمته هي مهمة الكاهن تقريبا وهي وقف حياته وتكريسها » وسألني « موقوفة على أية واجبات أو مواثيق ؟ » فقلت له « على روابط الماضي وأعمال البر المستقبلية » وقال لي « اذن أنت الان ملمة بكل شيء وبالحالة كلها » وقلت له « أخبرت المسيو بكل ما لدي من معلومات عنه رويت لي » .

ومرت بضع دقائق قال لي في آخرهـا « والان أيتهـا الانسة لوسي ·· انظري الي وآجيبيني عن سؤال واحد أطرحه عليك عن هذه الحقيقة التي في اعتقادي أنك لن تحيدي عنهـا ·· ارفعي عينيـك وصوبيها الي ولا تترددي ولا تخشي من أنني غير موضـوع ثقتـك ، فأنا رجـل يمكن الوثوق به » ورفعت ناظري وصوبتها الى ناظريه فقال متسائلا « والان بعد أن عرفتني تمام المعرفة وألمت بكل سوابقي ومسؤولياتي وبعد أن ظللت تعرفين عني وعن أخطائي الشيء الكثير منذ مدة طويلة هل من الممكن أن نصبح أنا وأنت صـديقين ؟ » فقلت لـه « اذا أراد المسيو أن يتخذني صديقة له يسرني أن أقابله بالمثل فاتخذه صديقا لي » ·

وقال لي « ولكني أريدك صديقـة حميمـة ودودة قريبة مني بكل شيء عدا وشائج الدم فهل للآنسة لوسي أن تصبح أختـا لرجـل بائس جـدا مقيد بالاغلال مرهق بالاعباء ؟ » ولم اقو على الاجابة على سؤاله بالكلمات ومع ذلك أتصور أنني أحببته فأخذ يدي التي استشعرت الامان والراحة في ملجأ يده ، اذ أن صداقته لم تكن منفعة تتسم بالتردد والشك وبالامل البارد البعيد أو بالتحسس السريع الزوال الذي لا يقوى عـلى تحمل ثقل اصبع ، أما أنا فقد شعرت أو تصـورت أنني شعرت بتأييـده ويدعم قوي منه كقوة الصخرة ·

وكرر كلماته التالية بشكل قاطع ·· « عندما أتحدث عن الصداقة أعني بها الصداقة الحقة غير انه صعب علي أن أصدق أن الكلمات مهما كانت وقورة ورزينة تبارك أذني وعلي أن أثمن وأقيم هذا النوع والنظرة القلقة التي بدرت منه ولو أنه كان ينشد حقـا ثقتي واحترامي وينشد منحي ثقته واحترامه فلماذا تبدى لي بأن الحيـاة لا تستطيع أن تقـدم وتوفر أكثر وأفضل من هذا ولو كان الامر كذلك لاصبحت قوية وثرية وفي لحظة استشعرت قـوة السعادة ولكي أؤكد هـذه الحقيقة سـألته :

« اذا كان المسيو جادا تماما فهل يظن أن حاجتـه الي ماسـة وأنه مهتم بي كأخت له ؟ » وأجابني على سؤالي قائلا « هذا مؤكد ·· مؤكد ·· ان شخصا وحيدا مثلي ليس له أخت ينبغي أن يسره كل السرور أن يجد في قلب امرأة ما ود الشقيقة الخالص » وسألته « وهـل يسمني التجرؤ بالاعتماد على احترام المسيو ووده ؟ وهل يسمني التحدث معـه عنـدما

أريد ذلك ؟ » وقال لي « على الشقيقة الصغرى أن تجرب ولن أعطي وعودا وبوسعها أن تجرب تجاريبها الخاصة مع شقيقتها الصعب المراس الى أن تحوله وفق ما يروق لها وبعد كل هذا أقول انه ليس صعب المراس وعنيدا في بعض الايدي » ·

وعندما كان يتكلم منحتني نبرة صوته وضوء عينيه الودودتين لذة لم أشعر بها من قبل بحيث قلت لنفسي انني لن احسد عاشقة ولا عروسة على عريسها ولا زوجة على زوجها واقتنعت بهذا الصديق الذي وهبني نفسه طوعا واذا استطاع فقط أن يكون موضع ثقة ــ وبدا كما لو انه كذلك ــ فما الذي يطمعني بأكثر من هذه الصداقة ؟ ولكن اذا ذاب كل هذا وتوارى كما يتوارى الحلم بعد اليقظة ، كما حدث هذا من قبل فماذا يا ترى ؟! » ·

وقال لي « ما بك ؟ » اذ أن هذه الفكرة ألقت بثقلها على فؤادي وبظلها على محياي وأخبرته بما داخلني من شعور · وبعد لحظة توقف وبعد ابتسامة سبقتها تفكير بين لي كيف أن خوفا من هذا القبيل داخله اكثر من يوم ذات مرة واستمر شهرا بطوله · وبعد سماعي هذا منه داخلتني جرأة مشوبة بالفرح وتجرأت بكلمة من أجل الاطمئنان لم يتحملها فقط بل حبذ تكرارها فازدادت بذلك سعادتي ·

وشعرت بسعادة غريبة في أن أجعله يستقر ويرضى ويطمئن وأيقنت بأن الارض لا تحوي أو أن الحياة لا تحوي مثل هذه اللحظات التي مرت بي الان ففي مرات عديدة كان من نصيبي أن أتحسس بالحزن المخيف يحيط بظلماته بي أما أن أجد ــ بلا سابق توقع ــ أن سعادة تتبلور في فؤادي وتجد مأوى فيه ويتعمق وقعها كعمق الثواني التي أمضيتها فان ذلك لم يكن ــ لعمري ــ الا تجربة جديدة مررت بها فعلا ·

وسألني المسيو بول بصوت خفيض واطيء وهو لا يزال ممسكا بيدي « هل شاهدت صورة في « بدوار » السيدة (حجرة نومها) صورة معلقة في ذلك المنزل القديم ؟ » فاجبته « نعم وجدتها وهي مصورة على لوحة » · هي صورة راهبة ؟ » فقلت له « نعم ·· صورة راهبة وماذا عنها ؟ » فقال لي « هل سمعت أنباءها ؟ » فقلت له « نعم » وقال لي « هل

تتذكرين ماذا وجدنا في المنطقة المعرشة ذات الاشجار الكثيفة ؟ » فأجبته « نعم ولن أنسى ذلك قط » .

وقال لي « أنت لا تربطين بين الفكرتين لان ذلك من الحمق والسخافة بمكان » وقلت له « فكرت بالمظهر الغريب عندما وجدت الصورة وكان ذلك أمرا صحيحا » وقال لي « انك لا تتخيلين ولن تتخيلي بأن قديسة في السماء تشغل وتقلق نفسها بأمور الدنيا ومنافساتها ومثل هذه الامور الخيالية المرضة تزعجك وتقلقك » فقلت له « لا أعرف ماذا أقول عن هذه القضية بيد أنني أؤمن بأن حلا طبيعيا تاما لهذا اللغز سيتم التوصل اليه في يوم ما » وقال لي « طبعا .. طبعا . ثم أنه ليس هنالك من امرأة حية صالحة ناهيك عن روح سعيدة سعادة حقيقية تعكر ودنا .. اليس هذا صحيحا ؟ » .

وقبل أن أقوى على الاجابة صاحت علي « فيفين بيك » بأنني مطلوبة . ان والدتها كانت تروم الذهاب الى المدينة لدعوة عائلة انكليزية وان وجودي في مثل هذه الحالة أمر ضروري لتقديم خدماتي كمترجمة ولم يكن التوقف عن الحديث خطأ وطيشا ولابد أن يظهر خلال اليوم ظل من ظلال الشر ، غير أن تلك الساعة كانت ملأى بالخير ولولا ذلك لكنت راغبة في أن أطرح على المسيو بول السؤال الذي يعرفني في اجابته عليه على ما اذا كانت الخيالات المرضية أي الناشئة عن مرضي التي حذرني منها موجودة في ذهنه فعلا أم لا » .

الفصـــل الســـادس والثـــلاثون

ـ الشـــقاق والحســـد ـ

علاوة على والدة فيفين بيك تحـدث شخص آخر عن المسيو بـول وعني قبل أن يتعزز ميثاق الصداقة بيننا وقد يسألني القاريء « لماذا كنت مبتهجة بصداقتك مع المسيو بول ؟ ألم يكن منذ مدة طويلة صديقا لك ؟ ألم يقدم البرهان تلو البرهان على تحيزه ومحاباته في مشاعره ؟ » أما أنا فاقول له « نعم ٠٠ هذا صحيح ولكني لا أزال راغبة في أن يؤكد لي بأنه صديقي الحميم ٠ أنني أحب شكوكه المعتدلة البسيطة واحترامه واذعانه اللطيف الرقيق وتلك الثقة المشتاقة للراحة التي يمتن من كل من يعلمه كيف تكون » ٠

لقد أسماني شقيقته وهذا أمر حسن ٠ نعم ٠٠ يستطيع أن يسميني ما يشاء طالما أنه وثق بي وأفضى لي بدخيلة نفسه وبيلواه وكنت أود لو أنني أخته شريطة ألا يدعوني لاملأ تلك العلاقة لزوجته المستقبلية وال على نفسه ضمنا أن يمتنع عن الزواج فمن حيث هذه المعضلة أو هذا المأزق لا يوجد خطر كبير منه كما يبدو ٠

وخلال معظم ساعات الليلة المتعاقبة فكرت مليا في لقاء تلك الامسية واشتقت لطلوع الفجر وانبثاقه بسرعة لاسمع صـــوت الجرس المدرسي وبعد أن نهضت من فراشي وارتديت ملابسي أديت الصلوات وتناولت فطوري ببطء وتخلفت الساعات وتباطأت حتى جـــاءت ساعة تدريس الادب للصف وكانت رغبتي في أن أتوسع أكثر في التفكير بذلك التحالف الودي الاخوي لادرك كم من قدر الاخوة سيحط علينا عند لقائنا القادم ولا أدرك كم من القدر الاختوي سيظل في مشاعري الخاصة حينذاك، ولاكتشف كم سأستبقي من شجاعتها وكم هو سيستبقي من اخلاصه الاخوي ٠

رجاء ٠٠ ان الحياة هي من الترتيب والنظام بحيث ان الحـــديث

لا يمكن أن يضارع التوقع ولا يستطيع فالنهار بطوله لم يدن مني ولم يكلمني وأعطى درسه بهدوء يزيد على ما اعتاد عليه وبلطف أكثر ورزانة ووقار أكثر كما لو أنه أب للتلميذات الا أنه لم يكن أخا لي فقبل مغادرته المدرسة توقعت منه ابتسامة ان لم يكن كلمة ولكن لا هـذه ولا هـذه فما كان مني سوى أن أنكس راسي فابت عائدة الى مأواي خجلة من نفسي ٠

وقلت لنفسي ربما كان هـــذا من قبيل الصدفة وقـد يكون أمرا لا طوعيا ومن قبيل الصبر وطول الاناة وسيمضي ذلك دون رجعة ولكنه لم يمض واستمر أياما بطولها وتزايد فكبحت استغرابي وقمعته وازداد كل ما بدا لي من الاحساسات الجائشة ، والان هل لي أن أســـال عندما عرض علي أخوته هل أنه قال متسائلا ما اذا كان يروم الاعتمـــاد علي وهل أن بوسعه أن ينقض عهده وهو عارف نفسه حق المعرفة ؟ ٠

صحيح أنه وافق على أن أختبره بنفسي واضعـــه تحت تجـاربي الخاصة كما يحلو لي ٠٠ أنها لوضعية عابثة وانـذار عابث وامتيـاز لا وجود له ٠ ان بعض النساء قد يلجـــأن الى ذلك ولا شيء في قدراتي الغريزية يضعني في مصاف هذا الفريق النسوي الشجاع ٠ لقـد تركت وحيدة لا أقوى على عـمل شيء ، وتركت مدحـورة خائبة ثم انسحبت وحاولت نسيان أو تجاهل كل شيء بيد أن شفتي لم تنطقا بكلمة وعيناي كانتا بحاجة الى ما يذكرها بشيء ٠ يبدو أن هناك خطأ ما في تقديراتي وانتظرت مجيء الوقت ليكشف عن هذا الخطأ ٠

وجاء النهار وكان عليه ـ كالمعتاد ـ أن يعطيني درســا ففي ذات أمسية عندما كانت الساعة تدق السابعـة تعب معي ووهبني من جهـده بسخاء ما كرسه للامتحان الذي كان يجري بدراسات مختلفة خلال الاسبوع الماضي واستعدادا لاعمال الاسبوع الذي يعقبه وفي حالات كتلك كان صفي في كل مكان حيث الطالبات والمعلمات والمعلمون الاخرون حيثمـا يكونون وبجوارهم وفي الاغلب في الفرع الثاني الكبيـر حيث من السـهل اختيار زاوية هادئة أو منعزل هادىء وذلك يحدث عندما تغيب الطالبات النهاريات الكثيرات العدد وحيث تتجمع بعض الطالبات الداخليات حول منصة المشرف ٠

وعند الامسية المعتادة سمعت دقة الساعة المألوفة فجمعت كتبي وأوراقي وريشتي وحبري وقصدت الفرع الثاني من الصف ولم أجد أحدا هناك سوى الظل البارد العميق ولكنني وجدت من خلال الابواب الثنائية المفتوحة قطعة الارض المربعة الزوايا وهي ملأى بالطالبات وتعج بالاضواء حيث ضوء الشمس المتورد ملقى على القاعة وعلى الاشخاص الموجودين فيها بسنائه الرائع الزاهي حيث ألوان الحيطان وظلال ألوان الملابس المرقشة المزركشة تبدو كلها موصولة بتوهج واحد ودفؤ واحد ٠

كانت الفتيات جالسات يعملن أو يدرسن وفي وسط دائرتهن يقف المسيو عمانوعيل يتحدث بمودة ورحابة صدر مع احدى المعلمات وسترته البالطوية السوداء وشعره المعجعج مشوبة بالكثير من انعكاسات اللون القرمزي ووجهه الاسباني يجيب - عند تحويله في لحظة خاطفة - على قبلة الشمس الحارة المفعمة بالحيوية بابتسامة ملؤها الحيوية وأخذت مكاني بينهن على احدى الرحلات ٠

وكانت أشجار البرتقال والعديد من النباتات الاخرى المزدهرة تستدفيء أشعة الشمس الوفيرة الضاحكة طيلة النهار والان تبدو بحاجة الى مياه وكانت للسيد بول هواية العمل في الحديقة فهو يحب أن يعنى بالنباتات ويرعاها وكنت أرى في عمله ذاك بالمجراف أو بجرة السقي هدهدة لاعصابه التعبة واراحة لها وهو ما غالبا كان يفعله والان أخذ يعنى بأشجار البرتقال والنباتات الغرنوفية وأورادها وأوراقها ونباتات الصبير الهائلة بغية اصلاحها وانعاشها كلها ٠

وكان يعمل ذلك وسيجاره الغالي الثمن بين شفتيه وهو يعتبره من أولى الضرورات ومن دلائل نعم الحياة وفخفختها ٠ وكانت دوائرها الزرقاء تتلوى بشكل جميل بين الازهار وفي ضوء المساء وكف عن التحدث مع الطالبات ومع المعلمات الا أنه كان يعلق بكلمات محببة حول بعض الاشياء الخاصة بالدار من التي تخصه بالذات بوصفه استاذا وكانت هنالك كلبة صغيرة جميلة الشكل باللون الحريري تتعقبه في تنقله بين الاشجار وتنظر الى وجهه بعينين معبرتين وأنزل نظارتيه من عينيه ودلف اليها وانحنى الى جانبها كما لو أنه صورة مصغرة لاسد يحمي مملكته ٠

وكانت هنالك نباتات كثيرة وبما أن الحدائقي الهاوي ظل يأتي بالمياه من البئر الموجودة في الساحة وينقلها بيديه فقد استغرق عمله

بعض الوقت ودقت ساعة المدرسة الكبرى مؤذنة بمرور ساعة أخرى ولم تعد تنطلي على المحاضرات والمحاضرين الشباب أخدوعة غروب الشمس فقد ولى النهار وعرفت أن درسي لتلك الامسية ينبغي أن يصبح قصيرا جدا والان انتهى العمل بأشجار البرتقال والنباتات الغرنوفية وأشجار الكاميليا فهل يا ترى سياتي دوري آنا ؟ ٠

ولكن ٠٠ وا أسفاه ٠٠ توجد في الحديقة نباتات اخرى تستوجب عنايته فهناك شجيرات الورد الجميلة وآجامها وهناك زهور أخرى منتقاة وأخذت الكلبة الصغيرة تتبع صاحب السترة البالطوية بنباحها وعوائها عبر مماشي الاشجار وخليت بعض كتبي ولم أحملها لعدم وجود الحاجة اليها كلها وجلست أفكر وأنتظر دون أن أعي غزو النسق الزاحف ٠

وكان مرح الكلبة الصغيرة « سيلفي » عند ظهورها مرة أخرى يؤذن بعودة صاحب السترة الشبيهة بالبالطو وأودعت قارورة السقي بجانب البئر بعد أن أنجزت مهمتها وكنت مسرورة جدا في تلك اللحظة حين شاهدت المسيو يغسل يديه في حوض حجري صغير ولم يكن قد بقي أي وقت للتدريس حينذاك ولابد أن يدق في الحال جرس الصلاة ولكن علينا أن نتلاقى قبل أن يدق وأن نتكلم وستظهر في عينيه سانحة قراءة أحجية استحيائه وخجله ٠

وبعد انتهاء وضوئه وقف وهو يرتب ببطء أطراف أردانه ويشخص ببصره الى الهالة الشاحبة في جوز الفضاء المتلألىء ونورها يتوهج خافتا على النافذة الناتئة لكنيسة يوحنا المعمدان وراقبت الكلبة الصغيرة « سيلفي » تلك الحالة بتامل ، فسكوته وبروده ضايقها وأزعجها وراحت تعوي وتقفز نحوه لوضع نهاية لبروده ذاك واستلفت وضعها هذا انتباه المسيو بول الذي قال عنها « أيتها المخلوقة الصغيرة ، يبدو أن علي ألا أنساك لحظة واحدة » ٠

ووقف عن السير ورفعها الى ذراعيه ومشى الهوينا في الساحة التي تقرب باردة واحدة من خط النوافذ الذي كنت أجلس بالقرب من احداها وتمشى الهوينا بطيئا واضعا كلبة السبانيلي القصيرة القوائم على صدره وهو يوصفها بأوصاف جميلة محببة وبصوت عاطفي رقيق ٠ وعند درجات الباب الامامي التفت الى الخلف وحدج القبة الزرقاء بنظرة أخرى مركزا اياها على الهلال المتعالي فوق الكاتدرائية الرمادية اللون وفوق الابراج القصبية وسقوف الدور البعيدة التي يبهت لونها

لتضمحل في بحر أزرق من الضباب الليلي متنسما هــواء الغسق العليل وملاحظا اشعاعة الحديقة الموشكة على الخفوت ·

وعلى حين غرة نظر حوله واذا ببارقة لماعة من عينيه تمحو الواجهة البيضاء للصفوف وتكنس الخط الطويل لملتقى النوافذ · أظن أنه انحنى مسلما ولو أنه فعلها بسرعة بحيث لم يدع لي مجــالا للرد على تحيتــه العاجلة وبلحظة توارى عن ناظري وظهرت حدود الهلال النيرة شاحبــة في السماء لا ظل لها أمام الباب الامامي المغــلق · ولملمت كل ما كان عندي فوق الرحلة وحملتها بين ذراعي كومة غير مستخدمة وأعدتها الى مكانها الخاص في الصف الثالث ودق جرس الصلاة فلبيت واجبه ·
ان يوم غد ليس يوم وجوده في شارع فوسيت فهو اليــوم المكرس كله لارتياده الكلية وراجعت الساعات المتخللة بين التدريس فوجــدت المساء قريبا وسلحت نفسي لمقاومة ساعاته المملة ولم أفكر فيما لو أن علي أن أبقي مع زملائي وزميلاتي أم أظل وحيدة منعزلة عنهن واستقر رأيي على فكرة الانعزال عنهن ·

واذا كان هنالك أمل للعزاء في أية لحظــة فما من قلب بشــري في الدار أو رأس يذعن له ما لم يكن مستقره تحت غطاء رحلتي وبعد أن هدأت بين أوراق بعض الكتب أخذت أقط القــلم الرصاص أو أبري الطرف المستدق لقلم الحبر أو أضع السائل الاســود في المحبرة ، وبقلب مثقل بالهموم فتحت غطاء رحلتي وبيد متعبة قلبت محتــوياتها فماذا وجــدت ؟ !

وجدت الكتب المعروفة واحدا فواحدا والمجلدات المغلفة بأغلفــة ملفوفة قد رفعت وأعيدت الى مكانها بشكل قانط ميئوس منه ولم يكن للكتب سحر خاص ولم تكن من الكتب المسلية · ووجــدت فيها شيئــا جديدا ·· وجدت كراسا ذا لون ارجواني فاتح لم أشاهده سابقا وأعدت تنظيم رحلتي بنفس اليوم ·· ويظهر أن الكراس أدخل في الساعة الاخيرة عندما كنا نتناول عشاءنا ففتحته وماذا تراني وجدت فيــه ؟ وبماذا حدثني الكراس ؟ » ·

انه لم يكن حكاية ولا شعرا ولا مقــالا ولا تاريخا ولم يغن أو يرو أو يبحث ، انما كان موضوعا لاهوتيا للوعظ والاقنــاع بقــلم الاب سيلاس وبــول عمانوئيل · في تلك الامسية لم يتوضح الغروب فالشرق

والغرب كلاهما أضحيا غيمة واحدة وما من ضباب الصيف الليلي ليخفف لون المدى الوردي ـ الازرق الا أن ضباباأكثف زحف من منطقة الاراضي سبخة فلف منطقة فيليت الرمادية اللون ، وفي هذه الليلة لابد أن تكون قارورة السقي بجانب المشكاة قرب البئر ٠

وكان المطر يرذ طيلة ما بعد الظهيرة ويسمع صوت سقوطه السريع بهدوء ولم يكن الجو يساعد على الخروج الى الازقة المبللة تحت الاشجار التي تتساقط من أوراقها قطرات المطر ورحت اتسمع الى نباح الكلبة سيلي في الحديقة وكان مباحها من نوع النباح الترحيبي ومن المؤكد أن لم يكن أحد معها ولكن تلك النبحة السريعة المرحة لم تكن تصدر الا تكريما لحضور أحد ٠

وكنت أشرف من الباب الزجاجي والعريشة المقوسة على المجاز الضيق للمنطقة الضيقة المحرمة حيث كانت الكلبة سيلفي تندفع متلألئة في ذلك الطريق المظلم كالزهرة البيضاء غدوا ورواحا وهي تعوي وتقفز وتشاكس الطيور الصغيرة بين الشجيرات وعاينت لمدة خمس دقائق فلم ينجم عن النذير شيء فعدت الى كتبي وفي الحال انقطع نباح الكلبة فعاودت النظر فوجدتها موجودة على مبعدة ياردات عديدة وهي تهز بذيلها بالسرعة التي تستطيعها العضلة المحركة لها وترامت عملية استخدام المجراف بيد لا تكل من العمل ولا تمل ٠

وكان المشتغل هو المسيو بول عمانوئيل الذي كان منحنيا فوق التربة يحفر في قالب التربة الرطبة بين الشجيرات الكثيرة الحاملة لقطرات المطر ويعمل بمشقة كما لو أن عليه أن يقدم مايوازي أجرته اليومية بعرق جبينه الملتزم ٠ وفي تلك الحالة قرأت مزاجه المنغص فهو يحفر هكذا في الجليد الصلب في أبرد أيام الشتاء عندما تستحثه عاطفة داخلية مؤلمة سواء أكانت عن انفعال عاطفي أم عن أفكار حزينة لها صلة بتقريع الذات فهو يحفر في الوقت الذي يعينه بجبين مقطب وعزم ثابت دون أن يرفع رأسه أو يفتح شفتيه ٠

وراقبت الكلبة ذلك حتى تعبت وبعد فراغ مراوغة كانت تمرح فيه هنا وتندفع هنالك وتتشمشم هنا وهناك وجدتني في آخر الامر في الصف وراحت في الحال تركض نابحة كما لو انها تحثني على مشاركتها مرحها أو مجهود سيدها فقد سبق لها أن شاهدتني أتمشى معه أحيانا في

ذلك الزقاق ولا أشك في أن واجبي الان هو أن أنضم اليه بصرف النظر عن رطوبة الجو ٠

واتخذ نباحها شكلا حدا بالمسيو بول الى أن يرفع بصره الى الاعلى وبالطبع أدرك سبب نباحها وعلى من تنبح وصفر لها ليستدعيها فما كان منها سوى أن زادت من نباحها أقوى فأقوى ويبدو أنها كانت تريد مني أن أفتح لها الباب الزجاجي ولما أعيا المسيو بول ما ابتغاه رمى بمجرافه ودنا مني وفتح الباب فتحا جزئيا ٠

واندفعت الكلبيــة بكل قوتها وقفــزت الى حضني وراح كفاها يداعبان عنقي وكان خيشومها ولسانها الصغيران منهمكين بجهد لا مثيل له في مناطق من وجهي وحلقي وعيني أما ذيلها الكث فقـد كان يتلوى بحركاته حول الرحلة يبعثر الكتب والاوراق هنا وهناك ٠ وتقدم المسيو بول ليهديء حركاتها الصاخبة وليصلح ما أفسده ذيلها المتحرك باستمرار وبعد أن جمع الكتب وأمسك بها وضعها تحت سترته البالطــوية حيث استكانت استكانة الجرذي ولكن رأسها ظل ينظر فقد كانت صغيرة الحجم جدا ولها أكثر الاوجه براءة وجمالا وأطول الاذنين نعومة وأروع العينين سوادا في العالم

وأخذ المسيو بول يداعبها ويربت عـلى ظهـرها وتلك التربيتـة التحبيبية لم تثر الدهشة لان تلك الحيـوانة كانت تستثير الود بجمالهـا وحيوية حياتها وبينما كان يربت ظهر الكلبة ويلاطفها وقع بصـره على الاوراق والكتب المعادة الى محلها واستقر على الكراس الديني وتحركت شفتاه وهم في أن يكبت ما يريد أن يقوله ٠٠ مـاذا ؟! ٠٠ هل عاهـد نفسه على ألا يكلمني بعد ذلك ؟ واذا كان الامر كذلك وربما وجـدت طبيعته الافضل أن التعبير عما عاهد نفسه به يكون مشرفا أكثر لو أنه خرقه بدلا من أن يرعاه ويحترمه لانه بالمجهود الثاني الذي بذلـه تكلم معي متسائلا اياي « ألم تقرئي الكراس بعد ؟ ! يظهر انك لم تقرئيـه واذا كنت قد قرأتيه ألم تجديه مشجعا ومغريا بما فيه الكفاية ؟ » واكتفيت بالجواب التالي ٠٠٠ « لقد قرأته ! » ٠

وانتظر متوقعا تعليقي عليه ورايي بـه دون أن يسألني الا أنني كنت في وضع نفساني لم يسمح لي بأن أقول أكثر من ذلك « واذا كان هنالك مسلمات وحقوق ممنوعة فانها تقع على التلميذ المطـواع جدا للاب سيلاس وليس علي » ٠ واستقرت عينـــاه علي برقـة ووداعـة

واستشفقت الحنان في شعاع عينيه الزرقاوين مشوبا بآثار القلق وظل يثير الشفقة ووجدت معاني مركبة ومتناقضة ونوعا من الملامة يذوب فيستحيل ندما ٠

وربما كان يسره في تلك اللحظة أن يكتشف حسا عاطفيا في بيد أنني لم استطع ابرازه وفي لحظة أخرى كان علي أن أتخلى عن الارتباك لولا أنني اعتزمت أخذ بعض البراعات وأقلام الريشة من رحلتي لكي أشرع بتصليحها بهدوء ٠ وكنت على علم من أن أي عمل سيحدث تأثيرا على مزاجه فيحركه لانه لم يكن يريدني المضي في تصليح أقلامي اطلاقا وكانت سكيني القاطعة مفلولة وكليلة دائما ولم تكن يدي بارعة في مثل هذه الشؤون وأخذت أقط وأشظي على شكل رقاقات وحدث أنني جرحت اصبعي شبه متعمدة متوخية اعادته الى حالته الطبيعية ليأخذ راحته في توجيه اللوم والتوبيخ الي ٠

وصاح أخيرا « هذه الخرقاء ستفرم يدها فرما » ووضع الكلبة أرضا وأخذ مني أقلام الحبر والمقطاطات وأخذ هو يقط ويقرض ويحدد ويبروس الاقلام بدقة الالة وبسرعتها وخفتها ووجه الي السؤال التالي وهو منهمك في عمله « هل راق لك الكراس ؟ » وقلت وأنا أكتم تثاؤبه « من الصعب أن أقول ! » وأظن أن سنة من النوم تملكتني نوعاما وكرر السؤال « ألم يؤثر فيك الكراس ؟ » وبعد توقف قليل ان ادركت أن لا فائدة ترجى من محادثته بهذه اللهجة ولان حالتي كانت سيئة أجبته « أنظر الي الان ٠٠ ان الله سبحانه والطبيعة ذاتها منحاني ما يكفيني من الرشد والعاطفة بحيث لا مجال لان أتأثر عميقا باية دعوة أو مناشدة مهما كانت مؤثرة وفي الحقيقة أنني لم أتأثر به قلامة ظفر » ٠

وبعد هذا مباشرة أصبحت هدفا لنقدات قاسية مثيرة أكثر مما هي مؤدبة واصغيت باستمتاع لكل تلك النقدات وبعد ذينك اليومين اللذين انصرما بصمت غير طبيعي أضحى كوقع الموسيقى أن أسمع كلمات المسيو بول بطريقته القديمة وظللت أصغي مسلية نفسي والكلبة سيلفي بعلبة ملبس كان المسيو بول قد أعطانيها هدية مزودة بالفاكهة المجففة والشوكولاتة اسرني أن أجد حتى شيء بسيط أقدره من يد المسيو في الوقت المناسب وكان هو ينظر الى كلينا ونحن ناكل من هديته والقى السكين القاطعة للاقلام من يده وسلمني حزمة الاقلام المقطوعة قائلا لي :

« حدثيني بصراحة كيف كنت تفكرين بي خلال اليومين الماضيين ؟ »
ولم أعبأ بسؤاله هذا ولم أجبه عليه اذ أن فحواه أدمع عيني ومضيت في ملاطفة الكلبة أما هو فقد أمال رأسه فوق رحلتي وانحنى صوبي قائلا « سميت نفسي أخاك ويصعب أن أقول ما أنا بخصوصك هل أنا أخ ؟ هل أنا صديق ؟ لا أقوى على القول ولكن شيئا واحدا اتضح لي هو انني دائب التفكير بك وأشعر بأنني أميل اليك تماما ولكن علي أن أراجع نفسي فأنا موضع خشية وخوف وأفضل ما لدي من الاصدقاء حذروني من الخطر وأسروا في أذني أن التزم جانب الاحتراس » . وقلت له « يحسن بك أن تصغي الى نصائح أصدقائك وليس عليك سوى أن تبدي جانب الاحتراس » (وحصل جدل بينهما حول بعض الخلافات المذهبية فلوسي بروتستانتية المذهب والمسيو بول كاثوليكي ولم نشأ ترجمة بعض فقراتها اذ أنها لا تقدم ولا تؤخر في المسلسل الروائي لهذه القصة ـ المترجم) وانتهى الجدل بأن دعا بول للوسي أن يباركها الله ويبارك الجميع .

الفصـــل السـابع والثـــلاثون

ـ شـــروق الشمس ـ

كان عملا حسنا تمد بولينـا أن تقطع مراسلاتها مع غراهـام الى أن يوافق أبوها على اجراء الاتصال وما كان بمقدور غراهام الذي يعيش على مبعدة فرسخ واحد من فندق كريسي الا أن يزورها لماما أو في أغلب الاحيان وكلا العاشقين أرادا ـ في باديء الامر وباعتقادي ـ أن يبقيـا بعيدين الواحد عن الاخر وأبقيا نيتيهما سرا بقدر ما تتطلبــــه المغازلة والتوادد ولكنهما في المشاعر كانا قريبين جدا من بعضهما بعضا ٠

وكل الذي كان بين غراهام وبولينا كان حسنا اذ أيقظ في غراهام كل ما هو نبيل وأنماه فيما يخص اعجابه الماضي بالانســة فانشـاوي ففي تصوري أن عقله كان عاجزا تقريبا عن تحقيق شيء بيد أن مجمـل عقلياته وأذواقه السامية أضحت الان مثار اسفهام فهذه ـ ككل قدراته وقواه الاخرى ـ كانت ناشطة وفاعلة وتواقة الى غذاء ومستعدة لقبول الترضية اذا ما جاءت مثل هذه الترضية ٠

لا أستطيع أن أقـول أن بولينا حدت بغراهـام ـ تصميما ـ عـلى التحدث عن الكتب أو أنها تولت لنفسها مهـمة شكلية ، مهـمة كسبه أو وضعت خطة تحسين ذهنيته لانها كانت تعتبره كاملا بل أن غراهام نفسه هو الذي نوه ـ بطريق الصدفة النادرة جـدا ـ عن بعض الكتب التي كان قد قرأها وأنها عندما رحبت بها بتجاوب عاطفي ـ وهو ما ارتاح اليه ـ أخذ يتحدث باستفاضة وارتياح عن تلك الكتب وغيرها من المواضيع واضفت اليه بارتياح وأجابته بحيوية ونشاط ٠

وفي كل جواب متلاحق كانت تشنف سمع غراهام انغـــام موسيقى أروع وأبدع وقعا على أعصابه وفي كل منها كان يجد نبرة موحية مقنعة وساحرة تفتح أمامه دارا ملأى بالكنوز قلما يعرفها أحد تبرز له قـوى،

لا شائبة فيها في ذهنيته والطيبة المستترة ــ على أفضلها ــ في قلبــه وكل منها تهوى الطريقة التي تؤديها الاخرى كلاما من صوت وأداء غنــائي وتعبير ســار ، وكل منها تستمتع كل الاستمتاع بنكهة الاخرى وتتحسس بمزاياها وتدرك معانيها وفحواها بسرعة غريبة وتتلاقى أفكارهما غالبا وتتناظران وتتساويان كجوهرتين مختارتين ٠

فغراهام يمتلك ثروة من المرح بطبيعته ولا تمتلك بولينــا معينــا زاخرا من حيوية الشباب ولانها هــادئة لا حــافز يحفزهـــا فهي ميالة للاسترسال في التفكير أما الان فتبدو مرحــــة كالقبرة بحضور حبيبهــا اللطيف وتصوب اليه ناظرين كضوء المســـرة الرائق المريح أما مــدى جمالها في حالة شعورها بسعادتها فلا أستطيع تقديره أو سبره ، ورحت أنشد مشاهدتها والتلاقي معها أما بالنسبة لبرود تحفظهـــا والتزامها اللطيف وهو الرصيد الذي تعتمد عليه فما الذي بقى منـــه حتى الان يا تــرى ؟ ! ٠

ان غراهام لا حول له فمعه مؤشر الكرم والوفرة الذي سرعان ما يذيب التقييد المفروض ذاتيــا والان هل سويت أيام بريتــون الاول ؟ ربمــا انقطعت وشائجها في أول الامر بنوع من الحيــاء المبتسم ثم بصراحـــة لا تشوبها شائبة وثقة متزايدة فقد حقق غراهام لنفسه فرصة أفضــل ممــا أرادني أن أوفرها له وحقق له التحرر من المساعدة التي تلزمــه بالخضوع وهو ما رفضته لوسي التي لا ترغب في النزول عنــد رغبــات الاخرين ٠ وما كان يتذكره عن بولي الصغيرة وجد الوسيلة الصحيحــة للتعبير عنه في نبرات صوته وفي شفتيه اللطيفتين الرائعتين وبأفضل ممــا لو أوحيتها أنا بكثير ٠

لقد كانت بولينا تقول لي أكثر من مرة عنــدما نكون وحيــدتين ما أروع وأدهش وأغرب لو أنني اكتشفت فيه ثروة ودقـــة تذكره في هذا الصدد وروت لي كيف أنه عندما كان يرنو اليهــا كانت تعــاوده الذكريات بسرعة مفاجئة وكيف أنها ذات مرة وضعت رأسها بين ذراعيه تداعب بعض مناطق جسمه وتصيح ٠٠٠ غراهام ٠٠٠ أهواك يا غراهام وأخبرها كيف أنها تاتي بكرسي صغير تصعد عليه لكيما تصل الى ركبتـــه وقال لها في ذلك اليوم تذكرت كيف أن يديك الصغيرتين كانتا تداعبان خدي أو تطمرانها بين خصل شعري الكث ويتذكر لمسة سبابتها على نقرة ذقنــه ولثغة كلماتها الطفولية وكيف كانت تتســاءل عن سبب فتحــه

عينيه وتتول أن له وجها بديعا غريبا أبدع من وجه أمه أو وجه أبيها او وجه لوسي سنار .

وكانت تعلق بولينا على ذلك فتستغرب من جرأة طفولتها أما الان فتقول ان كل ما فيه هو من السحر الحلال ومن القدسية فخصلات شعره لا يمكن الوصول الى أعماقها وتقول لي يا لوسي انني أشعر بخوف كلما رنوت الى ذقنه المرمري الرصين ومنمحه اليونانية الجميلة . يقال للمرأة أنها جميلة ولكن يا لوسي ليس هو كالمرأة ولذلك أرى أنه غير جميل ويا عجبا بم اذن أنعته وهل أن الناس الاخرين يعاينونه كمثل معاينتي اياه ؟ وهل أنت معجبة به يا لوسي ؟ .

وكان جوابي لها على مثل هذه الاسئلة الكثيرة ذات مرة ... « سأخبرك بحقيقة الامر يا بولينا . انني لم أره انما نظرت اليه مرتين او ثلاث مرات قبل حوالى عام واحد قبل أن يحس بوجودي ثم أغمضت عيني عنه ولو أنه أغمض مقلتيه اثنتي عشرة مرة بين كل شروق شمس اليوم وغروبها ـ فلولا الذكرى ـ لصعب علي أن أقول أي شكل لهما » .

وقالت لي بصوت مهموس « ماذا تعنين بذلك يا لوسي ؟ » فقلت لها « أعني بذلك أنني أقيم الرؤيا وأرفض أن أضرب بحجارة عمياء » ووجدت ان من الافضل أن يكون جوابي لها قويا عنيفا على التو وان اسكت الى الابد مظاهر ثقتها العاطفية الرقيقة التي حولت شفتيها عسلية الحلاوة تلكما الشفتين اللتين كانتا تقذفان في اذني أحيانا ما هو أثقل من الرصاص المذاب . ومنذ ذلك الوقت لم تعد تتحدث أمامي عن جمال حبيبها الا في بعض الاحايين حينما كانت تتفوه عنه بهدوء واستحياء ببعض العبارات التي كانت تتخذ شكل الايقاع النغمي والصوت الموسيقي المختار بعناية وكانت مثل هذه العبارات تثير غضبي أحيانا كل الاثارة وعرفت أنني بعد ذلك أخذت أكيل لها الكلمات الصارمة والنظرات الشزرة ومع ذلك كانت السعادة التي لا تشوبها شائبة تطفح على محياها وتبان في عينيها واعتبرتني فقط لوسي العصبية وقالت لي ذات مرة وهي تبتسم « أيتها الفتاة الاسبارطية الشجاعة المتكبرة الفخورة بذاتها ان غراهام يقول أنك أكثر النساء السريعات التقلب الغريبات الاطوار ولكن مع ذلك نراك كلانا رائعة وممتازة » .

وقلت لها « ان كليكما تجهلان حقيقتي ولا وجوب لان تكون

خصوصيتي الصالحة موضوع محادثاتكما وآرائكما المتبادلة ٠٠ ان حياتي نوعية تختلف عن نوعية حياتكما » وقالت لي « لكن حياتنا يا لوسي حياة جميلة أو أنها ستكون جميلة وأنت ستقاسميننا جمالها » وقلت لها « لن أقاسم حياة رجل أو حياة امرأة في هذا العالم بمقياس المقاسمة الذي تفهمينه ٠ ان لي صديقا واحدا خاصا بي وان لم يتأكد وجوده بعد وما لم يتأكد وجوده فانني صديقة الوحدة وسأعيش حياة الوحدة » وقالت لي « ولكن الوحدة ان هي الا حزن » وقلت لها « نعم انها الحزن بذاته وفي الحياة أسوأ من ذلك وأسوأ وأعمق من الانقباضية أو السوداوية ٠٠٠ يوجد « انسحاق القلب أسى وحسرة » وقالت لي « استغرب ما اذا كان هنالك من يفهمك حق الفهم ٠

يوجد في العاشقين مشاعر الافتتان بالانانية والغرور فتبدو عليهم علامات السعادة التي تكلفهم ما تكلفهم فبولينا مثلا اوقفت مراسلاتها ومع ذلك ظل الدكتور برينرن يراسلها وهي محجمة عن المراسلة ولكنها عادت فأجابته من أجل أن توبخه وتعنفه على مراسلاته فقط وأبرزت لي تلك الرسائل بنوع من التعمد الطفولي والغطرسة الموروثة وحماتني على قراءتها وعندما قرأت رسائل غراهام احترت في كيفية تفهم تعاليها وكبريائها فقد كانت رسائل بديعة تمازجها قوة الرجولة والتوقان من جهة والبساطة والشهامة من الجهة الاخرى ٠

ربما بدت رسائلها سارة له غير أنها لم تكتب لتبيان مواهبها أو للتعبير عن حبها انما على المعكوس فقد كتبتها كما لو أنها تخفي عنه ودها وأحاسيسها العاطفية واطلاق عنان غيرة عشيقها ولكن كيف تستطيع مثل هذه الرسائل أن تخدم مثل هذا الغرض ؟ لقد أضحى غراهام عزيزا عليها كحياتها تجتذبها كاجتذابه المغناطيس القوي وبالنسبة اليها يوجد تأثير في نفسها لا يمكن وصفه لكل ما يتفوه به ويكتبه ويفكر به ولكل نظرة من نظراته فبهذا الاعتراف السري في قرارة نفسها توهجت رسائلها بدءا بالتحية وانتهاء بالوداع ٠

وبدأ تململها وقلقها حين قالت لي « لو أن أبي يعرف ٠٠ أريد أن يعرف أبي بالموضوع وأخشى ذلك في الوقت عينه اذ لا يسعني الا أعلم غراهام بذلك ولا أتوق الى أكثر من أن تسوى هذه القضية وبصراحة انني أخشى هذه الازمة ٠ انني أعرف ــ وأنا متأكدة من ذلك ــ ان أبي سيثور غضبه في أول الامر وأخشى أن يكرهني لذلك ٠ وربما تبدو

القضية له أمرا يتسم بالشؤم وسيكون الامر مفاجأة وصـــدمة لي ومن الصعب أن أتصور مقدما تأثير الامر كله علي » ٠

وحقيقة الامر أن والدها الهادىء أبدا بدأ يثور ويتململ بنوع ما فقد كان في جهل وعمى من حيث النقطة الواحدة ولكن ضوءا مزعجا بدا يراود عينه وينتهك حرمتها ولم يقل لها شيئا ولكنه أحس بأنها لم تعــد تنظر اليه أو تهتم به أو تفكر فيه فوجدته يطيل النظر اليهـــا ويعتزم أمرا ٠ وفي الامسيات كانت بولينا في غرفة تغيير ملابسها وأعتقد بأنهـا كانت تكتب رسالة لغراهام فقد تركتني في المكتبة أطالع كتابا فدخـــل المسيو باسومبيير وجلس وهممت بالخروج لكنه رجاني بالمكوث بوداعـة ورقة ولمست رغبته في أن اذعن له واختار مقعده قريبا من النافذة علـى مبعدة نسبية مني وفتح رحلة أخرج منها ما يبـــدو كما لو أنه دفتـر مذكرات وأخذ يقرأ منه فقرة لبضع دقــــائق ثم قال لي « هل تعـرفين يا آنسة سناو عمر ابنتي الصغيرة ؟ » فقلت له « حوالي ثمانية عشر عاما أليس كذلك يا سيدي ؟ ٠ وقال لي « يبدو أن هذا صحيح فهذه المذكرة الجيبية الصغيرة تقول لي أنها ولدت في الخامس من شهر آيار أي قبـل ١٨ عاما ، انه لامر غريب فقد أضعت عمـــرها الحقيقـي ، ذلك أنني كنت أتصوره متراوحا بين ١٢ و ١٤ سنة وهو تاريخ غير محدد بالضبط ولكنها لا تزال تبدو كطفلة رغم أنها في حوالي الثامنة عشر من عمرها » وكررت القول « انها ترعرعت وطالت قامتها بحيث لا مجال لقامة لهـا أطول بعد الان » ٠

وقال المسيو دي باسومبيير بلهجة نافذة في الحواس كما تنفذ نبرات صوت ابنته « الله ٠٠ يا جوهرتي الصغيرة ! » وقلت له « لماذا تتنهـــد وتتحسر يا سيدي ؟ » وأنا عالمة بحقيقة شاعره وان كان لا يتكلم عنهـا قط ، وقال لي « انها الجوهرة الوحيدة التي أملكها وسيرى الاخرون أنها نقية وسيشترونها لانفسهم » ولم أحر جوابا لما قاله وكان غراهام يتغدى معنا في ذلك اليوم باشراقته سواء في حديثه أو نظـــراته ولا أدري مـر الزهو المزدهر الذي كان يونق ويزخرف محياه ويونع الاتصال به ٠

وتحت ضغط الامل الاسمى ظهـر شيء في حالته النفسية كلـــها استرعى الانتباه وأظن أنه كان قد تقدم في ذلك اليوم ليبين ما يستهدفه وما يطمع في تحقيقه ووجـد المسيو دي باسومبيير نفســـه مضطرا الى التوصل الى جلية الامر فانه وان كان بطيئا في الملاحظة الا انه كان منطقيا في الاستنتاج ولما كان قد أمسك بالخيط قبل هذا فقد قاده الى المتاهـة

الطويلة أو الى المشكلة واذا به يسأل « أين هي ؟ » فأجبته « انها في الطابق الاعلى » وسألني « ماذا تفعل هناك ؟ » فأجبته « انها تكتب » وقال لي متسائلا « تكتب ؟ هل انها تكتب ؟ هل تتلقى رسائل ؟! » .

فقلت له « كلا .. سوى التي تريها لي .. وياسيدي .. هي وهو يرومان استشارتك منذ مدة طويلة » فأجابني « أف وتعسا !! انهم يستغفلونني أنا الاب المسن .. انني في طريقي الى القبر » وقلت له « آه .. يا مسيو دي باسومبيير ليس الامر كذلك وهذا لا يمكن أن يكون انما بولينا تريد أن تعبر عما تريد والدكتور بريتون أيضا سيساعدها فيما تريد أن تقوله لك » فقال لي « فات الاوان تقريبا الان والامور تقدمت عن ميعادها كما يبدو لي » وقلت له « يا سيدي .. لن يتحقق شيء ما لم توافق عليه أنت بالذات . لا شيء بينهما انهما يحبان بعضهما بعضا فقط » وقال لي « فقط ؟ فقط ؟ ؟ » .

ولما كان القدر قد أوكلني القيام بمهمة الائتمان على الاسرار وبمهمة الوساطة أضطررت الى أن أواصل الحديث معه فقلت له « في مئات المرات حاول الدكتور بريتون أن يناشدكم حول الموضوع يا سيدي ولكنه رغم شجاعته خانته قواه فهو يخشاك بشكل يفوق الوصف » فقال لي « لا معدى له من أن يخشاني فهو يمس أفضل ما أملك في هذه الدنيا ولو أنه تركها وشأنها لبقيت طفلة عندي أعواما طوالا ثم أسألك .. هل انهما مخطوبان ؟ ! » فقلت له « لا يمكن أن يفعلا ذلك دون استحصال اذن منك » .

وقال لي « حسنا منك يا آنسة لوسي أن تتحدثي وتفكري بهذا الاحتشام الذي يميزك الا أن هذا الامر يغمني ويحزنني فهذه الطفلة الصغيرة هي جل ما أملك وليست لدي فتيات أخريات أو ولد وكان على بريتون أن يتوجه وجهات أخرى فهناك نسوة جميلات وغنيات لا أظن أنهن يرفضنه لو أنه تقدم اليهن فله نظراته وبحوثه وصلاته ألم يجد بديلا من ابنتي بولي بينهن جمعاء ؟ » .

وقلت له « لو لم يجد بولي لوجدته الاخريات ولسرهن كالانسة فانشاوي ابنة أخيك مثلا » وقال لي « لو طلب مني جنيفرا لاعطيتها له عن طيبة خاطر أما « بولي » فلن أدعه يحصل عليها .. كلا .. لن أدعه فهو ليس كفؤا لها » وأكد بخشونة « بأي شيء هو ند لها ؟ انهم يتحدثون عن الثروة .. انني لست بالجشع أو البخيل ولست بالرجل المصلحي رغم أن العالم يتحدث عن هذه الاشياء ثم أن بولي ستصبح غنية » .

وقلت له » نعم ٠٠ ان هذا أمر معروف وكل مدينة فيليت تعرف انها وارثة » وسألني « هل انهم يتحدثون عن ابنتي الصغيرة في هذا الضوء ؟ » فقلت له « نعم ٠٠ يا سيدي أنهم يتحدثون في هذا الضوء » ثم بدت عليه علائم التفكير العميق اما أنا فقد شعرت بالجرأة لان أسأله « هل ترى يا سيدي أن هنالك من هو ند لبولينا ؟ هل يفضل أي شخص على الدكتور بريتون ؟ وهل ترى ان مركزا ارفع أو ثروة أعظم يغير الوضع حيال صهرك المستقبلي ؟ » فقال لي « انك أثرتيني بهذا » وقلت له « انظر الى رجال فيليت الارستقراطيين فأنت لن ترضى بهم يا سيدي » ٠

وقال لي « لن أرضى بذلك حتى لو كان أحدهم دوقا أو بارونا أو فيكونتا أو ما شابه ذلك » وبعد أن تشجعت بكوني جوبهت منه بالاهتمام وليس بالرفض والصد قلت له « قيل لي أن الكثيرين من هؤلاء يفكرون بها يا سيدي وهناك خاطبون آخرون سيأتون وعلى هذا رفضت الدكتور بريتون فأين تولي وجهك وبمن ستهتم علما بأن الطموحين لن يرضوا بديلا عن الوراثة ويبدو لي أن بولينا تسحر كل من يشاهدها » وقال لي « أحقا ما تقولين ؟ وكيف ؟ ان فتاتي الصغيرة لا أظن أنها جميلة » وقلت له « سيدي ٠٠ ان الانسة دي باسومبيير جميلة جدا » ٠

وقال لي « أمر سخيف ! أستميحك عذرا أيتها الانسة سناو أظن أنك متحيزة جدا ٠ أنا أحب بولي وكل أساليبها في الحياة وكل نظراتها ثم أنني والدها ولم أفكر يوما ما بجمالها ٠ انها تريحني فهي رقيقة تشبه الحورية وهي عزيزة على قلبي وأنت مخطئة في التحدث عن جمالها » وقلت له « انها فاتنة يا سيدي ٠ انها تفتن الناس دون أن يكون لمركزك وأموالك شأن بذلك » ٠

وقال لي « ثروتي ؟ مركزي ؟ هل هذه هي ما يغري غراهام على ما أظن ؟ » فقلت له « الدكتور بريتون يعرف هذه الامور جيدا فتأكد من ذلك يا مسيو دي باسومبيير وقدرها كما يقدرها جنتلمان في مثل هذه الظروف فالدكتور بريتون ليس له مطمع بذلك فهو يحب ابنتك حبا جما ويشعر بخصائصها الرائعة التي تؤثر فيه تمام التأثير » وقال لي « ماذا تقولين ؟ هل لابنتي الصغيرة المدللة خصائص رائعة ؟ » فقلت له « آه ٠٠ يا سيدي لو كنت شاهدتها في تلك الامسية حيث دعاها الى العشاء الكثيرون من الشخصيات البارزة المثقفة ! »

واستطردت في وصفها فقلت له « لقد سحرت تماما بسلوكها الحسن في ذلك اليوم وأن وضعيتها النسوية جعلتني ابتسم لها » وسألني « هل شاهدتيها بنفسك وشاهدت آلشخصيات الفرنسية تحيق بها في قاعة الاستقبال ؟ » فقلت له « نعم » • وكانت في وضع مريح وكان الناظر اليها يتصورها طفلة رائعة الجمال • ويا سيدي سمعت اولئك الفرنسيين يقولون عنها انها « تركيب من الظرف والذكاء والجمال » والدكتور بريتون قال عنها نفس ما قالوا •

وقال لي « انها طفلة عزيزة وصالحة ليس في ذلك من ريب وأعتقد بأن لها بعض الخصائص وكنت أفكر فيها على الدوام ولازمني المرض في ذات مرة فظلت ترعاني وتهتم بي • وظن الناس أني ميت لا محالة من جراء ذلك المرض وأتذكر كيف أنها زادت قوة وعطفا علي كلما كانت حالتي المرضية تسوء وعندما شفيت كانت في غرفة نومي كالشمس الزاهية بأشعتها وكانت تلعب حول كرسيي بهدوء ولا تحدث جلبة أو ضوضاء من أجل راحتي والان يطلبون يدها للزواج منها وأنا لا أريد الافتراق عنها » •

وقلت له وهو يتأوه « أنت تعرف الدكتور بريتون والسيدة بريتون والدته وأنه سيكون أقل فراقا لها من أن تزوجها لشخص آخر » وبانت على سحنته الكآبة وتمتم قائلا « أعرف لويزا بريتون منذ مدة طويلة فهي وأنا صديقان قديمان جدا فقد كانت حلوة رائعة الجمال عندما كانت فتاة صغيرة • انك تتكلمين ـ أيتها الانسة سناو ـ عن الجمال فهي كانت جميلة طويلة القامة زاهرة متوردة الخدين تفوق ابنتي جمالا عندما كانت في الثامنة عشرة وكانت لها عربة ومنزلة رفيعة لا تجدينها الا عند الاميرات وهي الان امرأة وسيمة وصالحة والولد شبيه بها وهذا كان رأيي دائما وأنا أفضله على سواه وأتمنى له التوفيق والآن يجازيني بهذه السرقة ، ذلك أن ابنتي الصغير تحب والدها المسن حبا جما وحقيقيا وانتهى كل شيء الان دونما ريب وسأصبح بعد الان عائقا وعبئا ثقيلا •

وانفتح الباب ودخل الكنز الصغير مرتديا ثياب المساء الجميلة وان حيويتها التي تأتي أحيانا مع انتهاء النهار أدفأت خديها وعينيها وان مسحة اللون القرمزي أضفت سموا وجلالا على بنيتها فقد أنزلت عقص شعرها وضفائرها طويلة بكاملها على عنقها السوسني وناسب ثوبها الابيض حرارة شهر حزيران ولما كانت تتصور أنني وحدي جاءت

برسالتها التي كتبتها الان لكي أقرأها نوعا ما واضطربت وتوقفت برهة عن السير وتصاعد اللون الوردي على وجهها وفاض على خديها وعلى كل سحنتها ٠

وقال لها المسيو دي باسومبيير بصوت واطيء وابتسامة وقورة « هل تخجلين من رؤية والدك ؟ ان هذا شيء جديد لم آلفه من قبل » وقالت بلهجة التأكيد « لست خجلة ٠٠ أبدا ٠٠ لست خجلة ٠٠ وأرسلت دوامة أخرى من قلبها مزيدا من اللون القرمزي وقالت « ظننتك موجودا في قاعة الاستقبال وأنا لي شغل مع لوسي » ٠

وقال لها أبوها « ظننت أنني جالس مع غراهام بريتون على ما أظن ؟ ولكنه على وشك أن يصل الي في الحال بعد أن استدعيته يا بولي وبوسعه أن يبرد رسائلك لك » واجابته بلهجة نكدة مشوبة بالانفعال والحراجة « أنا لا أروم ابراد رسائل » وقال لها « اذن ما الذي تفعلين بها ؟ تعالي الي وقولي لي » وبان على محياها وذهنها أنها تريد التردد لحظة ما قائلة له « هل آتي ؟ » ثم أخذت تدنو منه ٠

وقال لها « منذ متى أصبحت كاتبة رسائل يا بولي ؟ يظهر انك شرعت منذ البارحة عندما وجدتك جالسة قرب أقلامك الريشية وحبرك وأنت منشغلة بمسكها بكلتا يديك » وقالت له « كلا يا والدي ليست رسائل للابراد من حقيبة رسائل ٠ انها مجرد ملاحظات أقدمها بين الحين والحين وباليد لصاحبها من أجل أن يطمئن » وقال لها أبوها « تقصدين الانسة لوسي ٠٠ أليس كذلك ؟ » فقالت « كلا يا أبي ليست المقصودة لوسي ! » وقال لها « اذن هو المسيو بريتون والا فمن يكون ؟ » وقالت له « كلا يا أبي ٠٠ ليس المسيو بريتون » وقال لها « اذن من يا ابنتي الصغيرة ٠٠ قولي الصدق أمام والدك » ٠

وهنا قالت له وهي تجهش بالبكاء « سأقول لك الصدق يا أبي ٠٠ الصدق كله ٠ يسرني أن أبوح لك بالصدق ٠ يسرني ذلك وان كنت أشعر بالخوف » ولوحظ عيها الارتعاش والانفعال والشعور المضطرم وهزها هزا تجميعها لشجاعتها وقالت له « أكره اخفاء أعمالي عنك يا أبي فأنا أخشاك وأهواك ٠٠ خذ الرسالة واقرأها وانظر الى عنوانها » ٠

ووضعت الرسالة على ركبته فالتقطها وقرأها من البداية الى النهاية بيد مرتجفة وعينين بارقتين وطواها وعاين كاتبتها بنظرة ملؤها الغرابة والتحنان والدهشة المؤلمة قائلا « أحقا تستطيع هذه أن تكتب

هكذا » هذه الصغيرة التي كانت بالامس القريب تجلس على ركبتي هل تستطيع أن تشمر هكذا ؟ وقالت له « يا والدي •• هل أنا مخطئة ؟ هل آلمتك هذه الرسالة ؟ » •

وقال لها « لا يوجد خطأ في الامر يا ماري الصغيرة البريئة ولكنها آلمتني » وقالت له « اصغ يا أبي •• لا ينبغي أن تتألم مني •• أنا مستعدة لبذل أي شيء من أجل الا أؤلمك • أفضل الموت على أن أجعلك غاضبا أو تعيسا فانا جد شريرة ان لم أفعل ذلك من أجلك » وأخذت أوصالها ترتجف ثم قالت له « هل أساءت اليك الرسالة ؟ • هل يجب ألا ترسل ؟ هل أمزقها يا أبي ؟ سأفعل ذلك من أجلك بمجرد أن تامرني » وقال لها « لا آمرك بشيء » •

وقالت له ابنته « مرني بشيء يا أبي • عبر لي عما تريده •• أناشدك ألا تستاء وتتألم مما فعلت ولكن لا تحزن غراهام فأنا لا أقوى على تحمل ذلك فانا أحبك يا أبي وأحب غراهام ايضا لان •• لان •• من المستحيل علي أن أتخلى عن حبه » وقال لها أبوها « ان هذا الذي تسمينه غراهام يا بولي ليس سوى شاب نذل • وهذا رأيي الحالي فيه وربما استغربت اذا سمعتيني أقول أنني لا أحبه اطلاقا ولو بقدر ذرة • لقد شاهدت قبل أعوام في عين هذا الفتى شيئا لم استطع سبر غوره أو ادراك معناه شيئا لم يكن لامه العمق الذي تستطيع أن تنهي رجلا عن خوض جدول مائي الى ذلك العمق والان وعلى حين غرة أجد نفسي مضروبا على أم رأسي » •

وقالت له « يا والدي • لم يحل بك ما تصورته فأنت سالم وأمين على الضفة وبوسعك أن تفعل ما تشاء وتتصرف بما تشاء فسلطتك مطلقة لا يوجد ما هو فوقها • وبوسعك أن تزجني في دير للراهبات فتسحق بذلك قلب غراهام اذا فضلت أن تكون بهذه القسوة أوتوقراطيا مرة وقيصرا مرة أخرى فهل تريد أن تفعل ذلك ؟ » • وقال لها « الى الشيطان به•• الى نفيه الى سيبيريا هو وكل أصحاب الشوارب الحمراء•• أقول لك انني أكرهه يا بولي وأعجب من كونك تحبينه » •

وقالت له « أتعلم يا أبي أنك ضالع في الشر فأنا لم يسبق لي أن شاهدتك بهذه الحالة الانتقامية الظالمة فعلى وجهك تعبير لم آلفه فيك ولا يمت اليك بصلة » وقال والدها وهو بحالة تبرم وانزعاج زائدين « ليول عن وجهي ! ! » وكنت على اعتقاد بأن والدها لو ظل على هذا الرفض فانها ستحترم أمرها وتركض وراءه لان قلبها مسلوب •• مسلوب

ومنفصم عن والدها الشيخ المسن تماما » .

وقالت له « يا أبي ان هذا لظلم واثم وليس من الصواب أن تتكلم بهذه اللهجة فأنا لم أبتعد عنك وليس من كائن بشري بقادر على أن يؤثر على فيقطع صلتي بك » وقال لها بغضب شديد « اذهبي وتزوجي يا بولي . تزوجي من أصحاب الشوارب الحمر ولا تكوني ابنتي وكوني زوجة » وقالت « أصحاب الشوارب الحمر ؟ ! لست أدري ما تعنيه يا والدي . لا داعي للتحامل وأنت تقول لي دائما أن كل الاسكوتلنديين أبناء بلدك هم ضحايا الظلم والجور والآن لم تبرهن على ما كنت تقول على ما أظن ما دمت لا تميز بين الحمر وبين السمر » وقال لها « اتركي جانبا الاسكتلنديين المظلومين واليك عني يا بنية » .

وظلت واقفة تنظر اليه مدى دقيقة واحدة وأرادت أن تبدي جانب الحزم الذي يتعالى على جانب التوبيخ ولما كانت تدري بطبيعة والدها وبجوانب ضعفه فقد توقعت مجيء المشهد الذي أخذ يتبلور دون أن يفاجئها مفاجأة ورغبت في أن يمر مر الكرام بعزة تعتمد على مردود الفعل فان كرامتها لم تجدها نفعا وعلى حين غرة ذابت روحها في وسط عينيها وهرعت نحوه باكية تعانقه وتقول له « لن أتخلى عنك يا والدي .. لن أتركك وحيدا ولن أغمك أو أكون سببا في ايلامك قط » وتمتم والدها قائلا « يا حملي الوديع يا حبيبتي يا كنزي الثمين » قال هذه الكلمات بوجه متجهم وبصوت أجش ولم يزد عليها .

وزاد ظلام الغرفة الان وسمعت حركة خطوة في الخارج ظننت أنه الخادم يأتي لنا بالشموع وفتحت الباب بهدوء لمنع الدخول بعنف ولم يكن في حجرة الانتظار أي خادم انما وجدت جنتلمانا طويل القامة واضعا قبعته على المنضدة ونازعا قفازيه ببطء ومتريثا في مكانه في الانتظار كما بدا لي آنذاك ولم يدعني بالايماءة أو بالكلمات وانما عينه قالت لي « تعالي يا لوسي » وذهبت اليه .

وكانت الابتسامة تفيض على وجهه حين كان ينظر الي ولم يطرأ أي أثر للانفعال على وجهه الا انعكس بابتسامة على نوعية الهياج الذي كان يعتمل في قلبه وسألني وهو يومىء الى المكتبة « هل المسيو دي باسومبيير هناك ؟! » فأجبته « انه هناك ! » وقال لي « شاهدني عند العشاء وفهمني ! » فقلت له « نعم يا غراهام » وقال لي « جيئي به الان للمحاكمة اذن وجيئي بها هي أيضا ! » وقلت له «ان المسيو هوم يكلم ابنته» وقال بلهجة العجب والحزن « هذه اللحظات هي لحظات حادة وصارمة

يا لوسي اليس كذلك ؟ » ٠

وكانت مظاهر الاثارة بادية عليه ولاحظت احدى يديه ترجف وساد ترقب قلق وتصاعدت أنفاسه وانبهرت وفي كل هذه الحالات لم تفارق الابتسامة شفتيه وسالني قائلا « هل هو غاضب جدا، يا لوسي ؟ » وقلت له « انها مخلصة لك جدا يا غراهام » وقال لي « ما الذي سيحل بي » وقلت له « يا غراهام ينبغي أن يكون نجمك محظوظا وسعيدا » ٠

وهتف قائلا « هل ينبغي أن يكون كذلك ٠٠ يالالانبياء اللطفاء ! أنا كالقلب الضعيف الآيل للهمود ٠٠ في رأيي أن كل النساء مخلصات يا لوسي وعلي أن أحبهن فعلا ٠ ان والدتي صالحة ٠ ورائعة جدا، وأنت صادقة الولاء وبقوة الفولاذ ألست كذلك ؟ » فقلت له « نعم يا غراهام » وقال لي « اذن مدي لي يديك يا أختي بالمعمودية فهي يد صديقة كانت كذلك وستبقى على الدوام والان وأنا في هذه المحنة وفي هذه المغامرة العظيمة ليكن الله مع الحق ٠٠ قولي ٠٠ آمين ٠٠ يا لوسي ٠

وتحول بانظاره الي وانتظرني لكي أقول ٠٠ آمين !٠٠ وقلت ذلك لمجرد أن أدخل السرور الى قلبه لقد جاء السحر القديم وأتمنى له النجاح وأدري أنه سيلاقيه فقد ولد لينتصر في حين أن هناك من يولدون لكي يلاقوا الهزيمة والخذلان وقال لي « اتبعيني » وتبعته حيث المسيو هوم موجود وساله جون غراهام « سيدي ماذا كان حكمك علي ؟ » ونظر اليه الوالد اما البنت فقد غطت وجهها ٠

وقال المستر هوم « حسنا يا بريتون لقد منحتني حسن ضيافتك الاعتيادية وأنا أيضا استضفتك وأكرمت وفادتك وأخذت مني أفضل ما لدي ٠ وكان يسرني دائما أن أراك مسرورا، برؤية أفضل ما لدي وأثمنه وكنت تكلمني بلطف وفي غضون ذلك لا أقول أنك سرقتني وسلبت ما لدي ولكنني في الواقع مسلوب والذي سلبته يبدو أنك حظوت به وحصلت عليه فالغلبة لك » وقال له غراهام « ليس من طبعي الاستلاب » فقال له « الاستلاب ؟ لا ٠٠ أنت انتصرت وغلبت يا جون غراهام فأنت منحدر من سكان نجاد اسكتلندة ومن الرؤساء وتوجد أروعة السلتيين في كل نظراتك وأحاديثك وأفكارك ولك مكرهم وسحرهم » ٠

وقال غراهام وقد غطى احمرار الخجل الخالص وجهه بما مازجه من دفء الصدق والاخلاص « سيدي انني مخلص بما فيه الكفاية ولكنني لا أنكر أنك في بعض الاحيان تتهمني بحق ففي حضورك لم أقو على أن أتجرأ للبوح بما أكنه فؤادي فأنا أعتبرك بحق مالك أثمن شيء خصه

العالم لي فكم تمنيته وكم حاولت الحصول عليه والان جئت أطلبه منك يا سيدي » .

وقال له المسيو هوم « انك تطلب الكثير يا جون » وقال له « صحيح أنني أطلب الكثير جدا وهذا الكثير هو من معين سخائك واعتبره هدية من ينبوع عدالتكم اذ ليس بمقدوري الحصول عليه كمكافأة اطلاقا » وقال المسيو هوم موجها الكلام لابنته « هل سمعت لسان النجدي . انظري يا بولي .. أجيبي هذا الاسكتلندي الشجاع الخاطب وابعديه » .

ونظرت بولي بحياء الى خاطبها الظريف وبحنان الى والدها المتغضن وقالت « أبي !! انني أحب كليكما وبوسعي الاهتمام بكما ولا لزوم لابعاد غراهام فهو يستطيع العيش معنا فليس بذي الظل الثقيل » وتحدثت بتلك البساطة اللغوية التي هي ضرورية أحيانا في مثل هذه الاوقات لحمل الوالد والخطيب على الابتسام وبالفعل ابتسما وقال المستر هوم باصرار « سيظل ثقيل الظل علي فأنا لا أريده يا بولي فهو طويل القامة جدا وأنه واقف في طريقي فأرسليه بعيدا عني » .

وقالت له ابنته « ستألفه وتعتاد على وجوده يا أبي . انه يبدو طويل القامة بافراط وعندما أنظر اليه أعتبر نفسي ناظرة الى برج من الابراج وانا بالتعميم لا أريد طوله على شاكلة أخرى » وأجابها والدها « اعترض عليه بكل معنى الكلمة يا بولي وبوسعي العمل بلا صهر ولا أريد أفضل انسان في العالم يقف بوجهي في هذا الشأن فاطردي هذا الجنتلمان » وقالت له ابنته « انه يعرفك منذ زمن طويل يا والدي ويناسبك مناسبة لا شائبة فيها » .

وأجابها والدها « يناسبني ؟ أحقا يناسبني ؟ لقد تظاهر لي بتأييد آرائي لكي يتوصل الى ما يريد ولالطفني لمنفعته الخاصة وأظن يا بولي أن علي وعليك أن نقول له وداعا » وقالت له « أجل ذلك الى يوم غد فقط وصافح غراهام يا والدي » فقال لها « كلا .. لن افعل ذلك فلست صديقا له ولا تحشريني بينكما تمليقا » .

وقالت له ابنته « أنتما صديقان حقا . مد يدك اليمنى لوالدي يا غراهام ويا والدي مد يدك أنت أيضا ودعهما يتلامسان ولا تكن فظا يا والدي . شد أصابعك وكن مرنا . ليس هذا تشابكا يا والدي انك تمسك يده كشد الملزمة وتكاد تسحق عظام يد غراهام . انك تؤذيه » وربما آذاه فعلا لوجود محبس كبير الحجم في أصبعه وعملت نتوآته على جرح يد غراهام بقوة وسال الدم من جرحها ولكن هذا الجرح جعل غراهام يضحك مثلما أن القلق جعله يبتسم قبل الان .

وقال المستر هوم للدكتور غراهام أخيرا « هــل لك أن تأتي الى مكتبي وذهبا الى المكتب ولم يبق لقاؤهما طويلا وأظن أنه كان حاسما فقد واجه الخاطب استجوابات من المسيو هوم حول أمور كثيرة وفي آخر الامر استطاع أن يبرهن له بأنه أهل لزواجه من ابنته ومرة أخرى ظهر الوالد والعاشق في المكتبة وأغلق المسيو دي باسومبيير الباب وأشار الى ابنتـــه قائلا للدكتور بريتون « خذها • خــذها ، ياجون وليرعك الله كلمـا رعيتها أنت » •

وبعد مدة غير طويلة ربما قاربت الاسبوعين وجدت ثلاثة أشخاص هم الكونت دي باسومبيير وابنته والدكتور غراهام بريتون جالسين على مقعد واحد كائن تحت شجرة ظليلة أغصانها منتشرة انتشارا واطئا في الارض الكائنة في قصر « بواليتانغ » فقد جاءوا الى هناك للتمتع بالامسية الصيفية ، وخارج الهوايات الرئيسة كانت عربتهم تنتظر لاخـذهم الى البيت وقد ترامت امتدادات الحشيش الاخضر للمرجـة حولهم تراميـا هادئا ومعتما نوعا ما •

وكان القصر يتعالى على مبعدة من ذلك المكان أبيض كمرمر جبـل أتيكا اليوناني الرائع وعلى رؤوسهم تومض نجمة السمــاء وزخرفت المكانامتدادة صحراوية من شجيرات الورد وكان الجو رائعا وحلوا والمنظر موحشا ووحدانيا خــلا لهؤلاء الثلاثة وقد جلست بولينا بين الرجــلين الجنتلمانيين وعندما كانوا يتحـادثون كانت يداها الصغيرتان منشغلتين في عمل ما وظننت لاول وهلة أنها كانت تعبث بباقة زهر صغيرة ولكـن كان في حضنها مقص صغـير قصت به من شـــعر الرجلين وربطتهمــا بعقصتها وقالت لهما « الان صنعت لكما تعويذة تحفظ صداقتكما انتما الاثنين الى الابد ولن تتشاحنا طالما أنا احتفظ بهذه التعويذة •

لقد صنعت التعويذة حقا وأطرت الرقيـــة التي جعلت العــداء مستحيلا والمفروض في بولينا أن تصبح سببا في اتحــادهما وتوافقهما ومؤثرا فيهما وسببا في توافق ووئام متبادل بينهما وحصلت على سعادتها من ذلك • والذي كانت تستعيره كانت تعيده مع الفائدة وسـألت نفسي هل هنالك سعادة كهذه السعادة على الارض كلهـــا ؟ سالت نفسي هـذا السؤال وأنا أراقب الوالد والفتاة والزوج المقبل والثلاثة موحــدون تحل عليهم النعمة والبركة •

نعم ••• ان الامر كذلك فبدون التلوين الرومانتيكي أو المبالغـة الخيالية أقول ان الامر كذلك • ان بعض الارواح الحقيقية تتوقع فملا

طيلة أيام أو طيلة أعوام سعادة تحل عليها من السماء وفي اعتقادي اذا كانت مثل هذه السعادة التامة محسوسا بها من قبل أناس طيبين (لانها لا تحل على الاشرار) فان أثرها الحلو لا يمكن أن يضيع كليا ومهما تتالت المحن والتجارب ومهما توالت الآلام والامراض وظلال الموت فان الاسبقية المجيدة تظل تنير باشراقتها وتبهج ارجاء العذاب الشديد وتبدد الغيوم الكثيفة • سأستطرد أكثر وأقول انني مرقنة بأن هنالك بعض الكائنات البشرية ولدت هكذا وترعرعت هكذا واقتيدت هكذا من المهد الى اللحد بحيث لا معاناة مفرطة غزت قدرهم وقسمتهم ولا اسوداد عاصف أعتم حل بهم وغالبا ما لا يكون هؤلاء قد اشبعوا رغبتهم وانما هم أناس اصطفتهم الطبيعة رجالا كانوا أم نساء أو وكلاء لعطايا الله ونعمه •

ولكي لا أؤخر الحقيقة السعيدة أقول أن غراهام بريتون وبولينا دي باسومبيير تزوجا وبرهن بريتون على أنه واحد من أمثال هؤلاء الوكلاء ولم يتفسخ مع الزمن انما اضمحلت أخطاؤه ونضجت فضائله وشع واستنار مستقبله وكذلك شع واستنار مستقبل زوجته الجميلة وحافظت على زوجها واعانته ليتقدم وكانت بمثابة حجر الزاوية لتكوين سعادته •

هذان الزوجان مباركان فعلا لان الاعوام جاءت بهما بازدهار عظيم وصلاح عظيم ومرت الاعوام الطوال وتوفى دي باسومبيير في آخر الامر وبعده لويزا بريتون بعد شيخوخة وخلف الزوجان بنات وأولادا مات قسم منهم وبقى القسم الاخر وكان لبريتون ولد أيضا ورث عنه كتبه ومركزه الاجتماعي وربى طفلاته تربية دمثة تخللتها اليد القوية وهذان الزوجان أقول مرة أخرى أنهما بوركا لان الله سبحانه وجد انهما زوجان صالحان للبركة •



الفصـــل الثـامـــن والثـلاثون

ـ الغيـــــوم تتـــراكـم ـ

في صباح الخميس تجمعنـا في الصف منتظرين تلقي درس الاداب وجاءت الساعة التي نتوقع فيها دخول استاذ الاداب البروفيسور بـول عمانوئيل • وكانت طالبات الصف الاول جالسات بهـــدوء تام وقطع الانشاءات المكتوبة في دفاترهن المهيأة منذ الدرس الاخير موضوعة عـلى رحلاتهن ومربوطة بأشرطة ربطا نظيفا مرتبا بيد البروفيسور عندما كان يدور حول رحلات الطالبات جريا على عادته •

وكان الشهر تموزا وصباحه جميلا رائقا والباب الزجاجي مفتوحا فتحا جزئيا يدخل منه نسيم عليل وأوراق النباتات المتنامية على النافذة العليا تتمايل وتنحني ويبدو كما لو أنها تتهـامس فيما بينها ولـم يكن المسيو عمانوعيل حريصا على الشكليات دائمـــا ولم نكن نعجب لمجيئـه متأخرا، ولكننا استغربنا عندما فتح الباب في آخر الامـر وبـدلا من أن يدخل هو بحركته الاندفاعية السريعة دخلت علينا المدام بيـك دخـولا رزينـــا •

ودنت من رحة المسيو بول ووقفت حيالها ولفت عليها الشال الخفيف الذي كان على ذراعيها وبدأت تتحدث بصوت واطيء ونغمة رصينـــة ونظرة ثابتة قائلة « في هذا الصباح لا يوجـــد درس للاداب وجـاءت الفقرة الثانية من كلامها بعد توقف دقيقتين فقالت : من المحتمــــل أن دروس الاداب تؤجل الى اسبوع واحد وخلال هذه المدة سأحاول ايجــاد بديل كفء عن المسيو عمانوئيل وسنملأ الفراغ الحاصل بشكل مفيد •

ومضت المدام بيك في كلامها قائلة : ان بروفيسوركم ـ أيتهـــا السيدات ـ ينوي الان أخذ اجازة ويهييء نفسه لسفرة طويلة وواجبـه الفجائي يتطلب منه أن يقطع مسافة طويلة وينوي مغادرة أوربا لمـــدة غير محدودة وربما يخبركم عن ذلك بنفسه وبصـــورة مفصلة أكثر • أيتها السيدات ستقرأن في هذا الصباح درسكن الذي اعتدتن أن تأخذوه من المسيو عمانوئيل مع الانسة لوسي • قالت هذا وانحنت بأدب وجرت

شالها جرا قويا وخرجت من الصف • وساد سكون شامل ثم دارت تمتمات حول الغرفة واعتقد أن بعض الطالبات بكين تأثرا •

ومضى بعض الوقت واذا بالضوضاء والتهامس والعويل يتزايد وشعرت بالفوضى تدب بشكل عام كما لو أن بناتنا شعرن بأن الحذر والتقيد بالنظام لم يبق له وجود وان الرقابة قد توارت كليا عن الصف واستطعت ـ بالعادة المتبعة والشعور بالواجب ـ ن أعيد النظام الى الصف وجعلت القراءة الانكليزية طويلة المدى استدامت حتى الصباح كله •

وأتذكر أنني شعرت بنفاذ صبري ازاء التلميذات النائحات وفي الحقيقة أن عواطفهن لم تكن ذات أهمية كبرى أي أنها لم تكن أصيلة انما كانت من قبيل الهياج الهستيري وصارحتهن بذلك وانحيت باللائمة عليهن بتسوة ظاهرة وفي الحقيقة انني ما كنت أقوى على تدريسهن وسط تعالي بكائهن وانهمار دموعهن ونشيجهن ولم أقو على تحمل ذلك وانقطع بكاؤهن الا واحدة الجاتني الضرورة اللازمة وأعانتني على الدنو منها ومبادرتها الكلام طالبة منها أن تكف عن هذا التظاهر وأنها ملزمة بأن تقهر تشنجها •

وحق لتلك الفتاة أن تكرهني شر أنني طلبت منها المكوث بعد انتهاء وقت الدراسة وانصراف زميلاتها من الصف وعندما ذهب الجميع فعلت ما لم أفعله مع أية منهن قبل ذلك فقد احتضنتها وقبلت خدها ثم خرجت من الصف معها سريعا ولكنها انفعلت من تصرفي وسالت عواطفها وبكت بكاءا مرا فاق بكاءها في داخل الصف • وانهمكت في واجبي كل دقيقة من دقائق النهار وكنت أروم الجلوس ساهرة طيلة الليل لو أن الشمعة اسعفتني وأعانتني على ذلك باشتعالها •

ولم يجد انشغالي بواجبي وظهر أنني جنيت من ذلك السوء وكاد يمرضني بعد الاشاعات التي سرت في اليوم التالي وبالطبع أخذت الالسن تتحدث عن غياب المسيو بول في كل مكان بعد تكتم عن الموضوع لم يدم طويلا وانفتحت الافواه بعده وفي كل مكان ما كان يسمع الا اسم المسيو بول عمانوئيل والا الاستغراب عن سر هذا الحدث •

ودار الحديث بكثرة في كل مكان وسمعت في اليوم الثالث أنه يروم السفر بحرا أسبوعا ثم قيل أنه ينوي الذهاب الى جزائر الهند الغربية ورنوت الى وجه المدام بيك والى عينيها لكي تقول شيئا تنفي فيه أو

تؤيد الشائعات الدائرة وتابعتها ومضيت في أثرها لاستجلي حقيقة الامر ولكن لم يبد منها ما يزيد على ما قالته عنه رسميا في الصف ٠

وقالت ان هذا الانفصال هو خسارة جسيمة لهـــا ولا تدري كيف تملأ الفراغ الذي سيحدثه غيابه لانه كان يدهـــا اليمنى وما الـذي تستطيع أن تفعله بدونه ؟ وكانت قد عارضت فكرته ولكن المسيو بون أقنعها بأن ذلك واجبه الذي ينبغي ان يحققه وتحدثت في كل هذا عندنا في الصف أو على منضدة العشاء وكانت توجه حديثها بصوت تسمعه الانسة « زيلي سنت بيير » ٠

وقلت لها لماذا ينبغي أن يعتبر سفره واجبا له يقوم به ؟ واستطعت أن أسالها هذا السؤال وان أمسك بيدها فجأة لانها كانت تجتـازني في الصف أو على منضدة العشاء وكانت توجه حديثها بصوت تسمعه الانسة بها ٠ قفي ! لنسمع القضية كلها منك لماذا يعتبر واجبـــه مغادرة البلد والسفر الى الخارج ولكن المدام كانت تخاطب دائما بعض المعلمـــات وتتجنب النظر الي كما لو أنني عديمة الاكتراث بالموضوع ٠

وانتهى الاسبوع دون أن يقال أي شيء عن المسيو عمانوئيل وعن توديعه ايانا وبدا كما لو أن لا أحد مهتم بأمر مجيئه ولم تســـأل أية واحدة عما اذا كان سيأتي أم لا وكم تكلمن عنـــه دون أن يركزن عـلى هذه النطقة الاساسية أما بالنسبة للمدام بيك فكانت تراه وتتحـــدث معه كما يحلو لها فلماذا لا تهتم في موضوع التساؤل عما اذا كان سيأتي الى الصف أم لا ؟ وانتهى الاسبوع وقيل لنا أنه سيسافر في اليوم الثلاثي وأن وجهته هي مدينة « باسيتير » البلدة الرئيســة في مجموعـة جـزر غواديلوب التي هي مجموعة واحدة من مجموعات جزر ليوارد في البحر الكاريبي وتعود المصلحة التي يروم تحقيقها الى صديق له وليس لمصلحته هو وغرقت في التفكير فيه واستحوذ علي السهاد ٠

وعندما كنت أحس بعدم وجوده لم يكن لي من معـين وكيف أكف عن التفكير به والمسيو عمانوئيل كان لطيفا جدا معي في آخـــر الايام ونمت عواطفه تجاهي أكثر فأكثر وزاد اهتمامه بي بشكل ألطف وأرق ومر علينا شهر واحد منذ أن سوينا خلافاتنا الذهبيــة دون أن نتخاصم ولم نكن قد تشارقنا بل عشنا على مقربة من أحدنا الاخر نتحادث الساعات

الطوال مع بعضنا بعضا يلفنا الانسجام والصفاء والود المتبـادل كما لو كنا قد تربينا في بيت واحد واطلع على مشاريعي وخططي في الحياة وسره مشروعي المدرسي وكان يطلب مني تكـراره على مسامعه حتى اعتبره حلما من الاحلام الواردة في الف ليلة وليلة وكنا نتحسس بالوئام وبالامل تحسسا عميقا وبالود والاحترام العميق والثقة المتعززة ٠

كانت دروسي التي أقدمها في الصف سهلة في تلك الايام فما من احد يوبخني توبيخا عنيفا بصدد « عقليتي » ولا من مضايقات وازعاجات لقد كانت هنالك أوقات كنا نجلس فيها كلينا صامتين دقائق عديدة ولا نتكلم خلالها قط وعندما كنا نفترق عند الغسق أو عند تلبية نداء الواجب كان يدعوني بمسل الكلمات التالية « ما أحـلى الاستقرار والراحة ٠ ما اثمن السعادة الهادئة » ٠

في احدى الامسيات منذ أقل من عشـرة أيام كان قد انضـم الي مماشيا اياي في الممشى المشجر بالقرب من محل سكناي وأمسك بيـدي فرفعت نظري الى وجهه وظننت أنه يريد اثارة اهتمامي وقال لي بلهجة ناعمة « ايتها الصديقة العزيزة الحلوة المسلية المؤاسية » وأحسست من لمسته وثنايا كلماته باحساس جديد وفكر غريب وسـألت نفسـي ٠٠ « ترى ؟ هل انه اضحى اكثر من صديق وأكثر من أخ ؟ وهل أن نظرته تتحدث عن لطف يكمن وراء الاخوة والصداقة والتفاهم ؟ » لقـد كان نظرته النصيحة البينة ما تريد أن تقوله وقادتني يده الى أيام مضت واختلجت شفتاه المفسرتان ٠ وفي ممشى الشفق حدث انقطـاع في الكلام شابه النحس فقد واجهنا هيكلين بشريين هما هيـكل امرأة وهيـكل قس واذا بهما المدام بيك والاب سيلاس ٠

وان انسى سحنة الاب سيلاس فقـد تكلم معي بحماسته واستماع شديد ونظر الى تلميذه نظرة صارمة أمام المدام بيك فقد تظاهرت طبعا بأنها لم تلحظ شيئا ورغم أن ابن عمهـا ممسكا بيدي أنا الاجنبيـة المتهـطقة ولم يخلها قط بل ظل متشبثا بها ٠ وبعد هذه الحوادث فاجأني الاعلان عن سفره واعتبرت هذا الاعلان أمرا لا يمكن تصديقـه في أول الامر ولم يكن هذا سوى تكرار مماثل صادقت عليه ١٥٠ تلميذة أجبرت ازاء ذلك على القبول به أما الاسبوع المعلق بأيامه الفارغة ولكن الملتهبة ،

الاسبوع الذي لم ترد منه أية كلمة عن تبيان السبب ، فانني أتذكره ولا أستطيع ان أصف مرور أيامه علي ٠

وبدأ اليوم الاخير وقلنا انه سيزورنا ليودعنا أو لن يأتي ولن تراه أية منا أبدا ، وهذا البديل بدأ كما لو انه غير حاضر في ذهنية أية مخلوقة أو مخلوق حي في هذه المدرسة فقد نهضت كل منا في الساعة المعهودة وتناولت فطورها دون اشارة ودون فكرة واضحة عن البروفيسور ولجأن بالعادة المتبعة الى واجباتهن الاعتيادية ٠ لقد كانت الدار كثيرة النسيان أليفة مروضة باجراءاتها التي تدربت عليها وبدت ذات وجه غير متوقع وبالصعوبة كنت أتنفس في ذلك الجو الراكد الخانق وسالت نفسي أما من أحد يعيرني صوتا ؟ أما لاحد من رغبة أو من كلمة ينطق بها ؟ أما من أحد يصلي لكي أرن عليه بكلمة ٠٠ آمين ؟٠

لقد وجدت كل التلميذات مجتمعات على طلب وقت يمضينه بالعبث أو طلب عطلة أو التعثر بدرس محذوف ولم يقوين على محاصرة المدام بيك بالاسئلة وعلى الاصرار على مقابلة الاستاذ مقابلة أخيرة ، الاستاذ الذي أحبه البعض في الاقل وبلا ريب ولكن ٠٠٠ أواه ٠٠٠ ما معنى محبة الاكثرية ؟ انني أعرف أين كان يعيش وأعرف أين أقوى على سماع أخباره أو على الاتصال به فالمسافة لم تكن أكثر من مرمى حجر ٠

وسالت نفسي ٠٠ هل يمكن أن يكون في الغرفة الاخرى لا يستدعيه منها أحد ؟ لم أستطع الانتفاع بمعلوماتي أو القيام بمتابعة أو بالتحري أو بالتذكر لان هذه الاشياء لم تكن لي القوة الكافية لمعالجتها وربما كان المسيو عمانوئيل قد مر بالقرب مني أو مر بصمت دون أن يلحظه أحد ٠ وضاع الصباح كله وجاءت الظهيرة وما بعد الظهيرة وظننت أن كل شيء قد انتهى وخفق قلبي وهاجت دمائي وكأنما تغيرت مسالكها ومجاريها وشعرت بانني محمومة بنوع ما وصعب علي بقائي في عملي أو القيام باي عمل كان علما بأن العالم الصغير من حولي لم يتأثر بشيء ما كالذي تأثرت به بل كان مرحا كعادته لا يهمه شيء ولا يخشى شيئا ولا يفكر بشيء ٠

ان اولئك الفتيات اللواتي انتحبن أنفسهن قبل سبعة أيام للنبأ المفزع بدا عليهن أنهن نسين كل شيء ، نسين النبأ وأهميته ونسين

عواطفهن وقبل أن تدق الساعة الخامسة بقليل وهي ساعة الانصراف أرسلت المدام بيك بطلبي وهي في غرفتها لاقرأ لهـا رسالة انكليزية تلقتها ولاترجمها لها واكتب لها جوابها وقبل أن أذهب لاحظت أنها اوصدت بلطف بابي غرفتها واوصدت حتى النافذة البابية بقوة رغم أن اليوم كان حارا وان دوران الهواء كان أمرا ضروريا ولاسيما بالنسبة لها فلماذا احتراسها ذاك ؟ أنها لريبة تثير التساؤل وانعدام ثقة ورغبة في تحاشي صوت وأي صوت يا ترى ؟

وأصغيت بكل جوارحي وبصورة لـم يبـدر مثيلها في حياتي . أصغيت كالمساء وكذئب الشتاء وهو يتشمشم في الثلج لكي يشتم رائحة فريسته ويسمع خطوات المسافر عن بعد وكان بوسعي أن أكتب وأصغي في آن واحـد . وسمعت وأنا في منتصف الرسـالة ما أوقف قلمي عن الكتابة ، سمعت صوت خطى في المجاز ولم يقرع جرس الباب وروزينو التي لم تكن تقوم بأي عمل الا بعد أن تصـدر اليهـا الاوامر بذلك ترقبت مثل ذلك الجرس التنبيهي ، وشاهدت المدام توقفي عن الكتابة فأخذت تقح وتحدث ضجيجا وتتحدث بصوت عال وانتقل صوت الخطوات الى الصفوف .

وقالت المدام لي « واصلي ! » ولكن يدي كانتا مقيـدتين وكان في أذني وقرا وأفكاري في أسر . وكانت الصفوف في بناية أخرى تفصلها عن دار السكنى قاعة ورغم أن القاعة كانت الفاصلة كنت أسمع جلبة الاعداد المفاجئة من التلميذات وصوت نهوض الصف كله في آن واحد . وقالت المدام « انهن يتخلين عن العمل » وكانت الساعة تؤذن بالتخلي عن العمل فعلا ولكن لماذا ذلك السكوت المفاجي ؟ وذلك القمع المفاجيء للجلبة والضجيج ؟ وقلت لها « يا مدام لأرى مابهن ! » .

وتركت القلم وغادرت غرفتها أما هي فلم تقبل بالبقاء في مكانها ولانها كانت عاجزة عن رفض طلبي فقد نهضت ولحقتني وكانها ظلي وانعطفت صوب الدرجة الاخيرة من السلم وسالتهـا « هل تاتين أنت أيضا ؟ » وأجابتني بنعم وهي تقابل نظرتي مقابلة خاصة بنظرة منها مكفهرة وعازمة في آن واحد وانطلقنا ولكن ليس سوية انما كانت تتابع خطواتي . لقد جاء !! ودخل الصف الاول وشاهدته ولم أشك أبدا في أنهم حاولوا ابعاده ولكنه جاء .

ووقفت الفتيات على شكل شبه دائرة وكان يمر بينهن ويودعهن ضاغطا على كل يد من ايديهن ويلامس شفتيه خد كل منهن وهذه العادة الاجنبية الاخيرة المتمسكة بالشكليات القديمه يسمح بها عند العراق الطويل وصعب علي ان اتصور ان المدام بيك تطاردني على هذه الساحه وتتابع خطاي وترافبني عن كثب بحيث ان عنقي وكتفي استشعرت الحمى من حر انفاسها وكانما اهمز بمهمازها بشكل فظيع .

وكان يدنو وأصبح الشكل شبه الدائري دائرة تامة ووصل الى اخر تلميذة ثم التفت الى خلف ولكن المدام كانت امامي بعد حركه مفاجئة منها وبدا كما لو انها توسع ابعاد خطاها وتوسع نطاق ملابسها بحيث أصبحت انا في كسوف لا يشاهدني أحد وكانت ادرى الناس بضعفي واستطاعته تقدير درجة عجزي المعنوي وتخلفي العام عن التوكيد الذاتي وهو أمر يسهل فيه ضربي عند حدوث أزمة ما .

وهرعت الى قريبها وأغرقته بسيل من الكلمات لتسيطر على انتباهه وأسرعت به الى الباب ثم الى الباب الزجاجي المشرف على الحديقة واظن أنه كان يجيل ببصره على ما حواليه ولكن الغرفة كلها كانت تعج بالضجيج والارتباك وانقسمت المجموعة الشبيهة بالدائرة الى مجموعات صغيرة بحيث وضعت بين ثلاثين فتاة بشكل مزري وتم للمدام بيك ما كانت تريد أن تفعله وأخذته بعيدا عني حتى لا يشاهدني بحيث يظن انني غائبة ودقت الساعة الخامسة وقرع جرس الانصراف القوي وأصبحت الغرف والمدرسة بلا تلميذات .

ولاح أمام ذاكرتي ظلام دامس وذهول عميق فأضحيت في غضون بضع دقائق وحيدة يلفني حزن لا يوصف على خسارة لا يمكن تحملها فما عساني أن أفعل أزاء ذلك ؟ أواه !! ماذا عساني أن أفعل بعد أن تبدد نظام حياتي ؟ ماذا عساي أن أفعل ؟ لم أدر . وفي تلك اللحظة جاءتني طفلة هي أصغر طفلة في المدرسة وقالت لي ببساطتها وبراءتها وبصوت مضطرب لاثغ « يا آنسة ! طلب مني أن أسلمك هذا من المسيو بول الذي أوصاني أن أتحرى عنك في كل أنحاء المدرسة من العلية حتى القبو وعندما أعثر عليك أسلمك هذا » .

وسلمت لي الطفلة رسالة موجزة ألقتها حمامة على ركبتي لا عنوان فيها ولا اسم باستثناء الكلمات التالية .. « لم يكن في نيتي أن أتركك

عندما قلت وداعا للجميع ولكنني أملت أن أشاهدك في الصف فصعب علي ذلك وكان الفشل من نصيبي ولم يبق مجال للمقابلة • استعدي لملاقاتي قبل أن أسافر أو ينبغي علي أن أشاهدك عند فراغي وعنـــد ما تتاح الفرصة لي للتحدث اليك حديثا مستفيضا طـــويلا استعدي لذلك لان وقتي محدود والان محتكر تماما ثم ان لي شغلا خاصا لا أبوح به لاحـد حتى ولو كان هذا الاحد أنت » وتحت هذه العبارات اسم (بول) •

وقلت لنفسي ماذا يقصد بعبارة « كوني حاضرة ؟ » اذن ربمـــا يريدني في هذا المساء وهل يعني هذا أنه لن يسافر غـدا ؟ نعم •• انا متاكدة من ذلك فقد سمعت الاعـــلان عن ميعاد سفر باخرته •• ينبغي ـ والحالة هذه ـ أن اكون مستعدة وهل أن هذا اللقاء المنتظر منذ مدة طويلة سيتم ؟ ان الوقت قصير جـــدا والمخططون يبـدو عليهم التيقظ والنشاط والرغبة في العدوان • ان طريق الدخول يبدو عسيرا وشاقـا كاخدود هوة عميقة : لقد تفرشخ (أبوليون) ملاك الهاوية او الجحيـم من فوقه وهو ينفث اللهب في الكتاب المعنون « تقـدم الرحالة لبونيان » كان أبوليون او ملاك الهوة التي لا مقر لها يشبـــه التنين او العفريت وينفث اللهب وتمكنه قدماه الطويلتان المحرشفتان من أن يفرشخ منعرج الساقين على ضحاياه فيطرحهم أرضا (من شرح المؤلفة المتسلسل في أخر الكتاب) وسألت نفسي « هل يقـــدر لقلبي العظيم الغلبة والانتصار ؟ وهل لمرشدي ودليلي أن يصلني ؟ » •

من يدري ؟ وبدأت أستعيد بعض شجاعتي وراحتي وسلواي وظهر لي أنني استشعر خفقان قلبه بصدق واخـــلاص مع كل خفقـــات قلبي وانتظرت مجيء بطلي • لقد جاء أبوليون يقود جحيمه وراءه وفي رأيي انه اذا كان من شأن الابدية صد العذاب والحيلولة دونه فان شكلها لـــن يكون شكل عذاب النيران وحدث في تلك الامسية أنني انتظرت واثقـــة من غصن الزيتون الذي جـاءت به الحمامة المبعوثة ومع الثقـــة التي راودتني كنت أحس بخوف شـــديد للغاية وضـــاغط على النفس للغـايـة ببرودته المهلكة •

وبدت أولى الساعات طويلة وبطيئة الحركة ومن الناحية الروحيـة تشبثت بأهداب الابدية الطائرة التي كانت تمر في طيرانهـــا كالغيمـة المنقشعة بفعل الرياح الهابة وكالسحابة العالية التي تفرقها الزوبعـة • لقد مرت الساعات وانقضى كل نهار الصيف الحار الطويل وبقيت أنا بين

الظلال الزرق الباردة وانتهت الصلوات وحان موعد النوم ولكنني ظللت باقية في الصف الاول الكئيب ناسية أو متناسية الانظمة وهي الانظمة التي لم انسها أو آتناساها سابقا ·

أما كم مرة خطوت أرضية الصف جيئة وذهوبا فهو أمر لم يبق في فكري ويبدو لي أنني ظللت أمشي طوال ساعات بين الرحلات وبجانبها ثم بكيت في آخر الامر ثم سيطرت على دموعي وأنا أناجي الليل في وحدتي وسيطرت على نشيجي أيضا وظلت الاحزان تعتصر قلبي وتشق طريقها اليه في تلك الدار ويا لها من أشجان قدسية ·

وبعيد الساعة الحادية عشرة ـ وهي ساعة تعتبر متأخرة جدا في شارع فوسيت ـ فتح الباب فتحا هادئا لا متلصصا وغزا ضوء الصباح ضوء القمر واذا بفاتحة الباب هي المدام بيك دخلت كما لو أنها تدخل في مناسبة نظامية في فصل نظامي وبدلا من أن تخاطبني في الحال اتجهت الى رحلتها وأخذت مفاتيحها كما لو أنها تريد التفتيش عن شيء ما وراحت تتوانى وتتلكأ في تفتيشها طويلا بهدوء تام ولم يحتمل مزاجي ذلك فقد تركت ورائي الاحترامات التي تعودت على تقديمها والمخاوف التي كنت أستشعرها منها وبعد الان لن أتحمل أي نير من الانيار ولن أتحمل أي زجر أو كبح ·

وقالت المدام « لقد فات كثيرا أوان اللجوء الى الفراش فنظام الدار يداس عليه منذ مدة طويلة جدا » ولم تلق المدام مني تعليقا أو جوابا ولم اكن قد دققت ممشاي وعليه عندما جاءت في طريقي أزحتها منه · وقالت لي « دعيني أقنعك لكي تلازمي الهدوء أيتها الانسة ودعيني آخذك الى غرفة نومك » وأعطت لعباراتها هذه نبرة لطيفة وقلت لها « كلا ! لا أنت ولا سواك يستطيع أن يقنعني أو يقودني » وقالت لي « ينبغي أن يكون فراشك دافئا والطباخ غوتون جالس حتى هذه الساعة · وفراشك سيريحك ويهدىء أعصابك » ·

وقلت لها وانا أتفجر غضبا « أنت من صاحبات المذهب الحسي فتحت أغطية صفائك وهدوئك وسلامك ولياقتك وذوقك ولانك تعتبرين من ذوات المذهب الحسي فاجعلي فراشك دافئا وناعما وخذي المسكنات واللحوم والمشروبات مطيبة ومتبلة وحلوة قدر ما تشائين واذا كان لديك حزن ما أو قنوط ما فانشدي الملطفات والاطايب من مصادرك المختارة واتركيني وشأني » ·

وقالت لي « علي أن أرسل شخصا آخر لمراقبتك أيتهـــا الانسة . سأرسل لذلك غوتون » وقلت لها « ارفض ذلك !! دعيني وشاني وارفعي يدك عني وعن حياتي ومقلقاتها وأوجاعها . أيتها المدام .. اقول لك بصراحة أن لا يوجد في يدك ســوى القشعريرة والسـم . أنت تسمين وتشلين المقابل بسمك » وقالت لي « ماذا فعلت لك أيتها الانسة ؟ عليك الا تتزوجي بول لانه لا يستطيع الزواج » وقلت لها « ان الذي لا يتزوج لا يدع سواه يتزوج » قلت لها ذلك وأنا أعرف سرا أنها تهواه وكانت دائما تريده لنفسها وكانت تقول عنه أنه لا يمكن احتماله وأنه منصرف لشؤون الورع والتقوى ولم تكن تحبه حقيقة بل كانت تريـد الزواج منه حفاظا على مصالحها .

ولا أدري كيف تغلغلت في عمق أسرار المدام بيك هل حـدث ذلك بطرق المصادفات أم بفعل الوحي أو الالهـام ؟ لا ادري متى وكيف ففي خلال عيشي معها ايضا أدركت شيئا فشيئا أنها لم تصادق من هو شاعر بالنقص حيالها فينبغي عليها أن تكون في حالة منافسة معه وكانت الان منافسة لي قلبا وقالبا وبالروح والقلب وان كانت تفعل ذلك سرا ولا يعلم بذلك أحد سواي وسواها .

ووقفت دقيقتين حيال المدام شاعرة بأن المـرأة ضمن سيطرتي لان قناعها المعتاد وتنكرها في بعض الحالات المشابهة لهذه الحالة وفي بعض حالات الادراك الحسي المشابهة لهذه الحالة ـ تصبح بالنسبة لي مجـرد شبكة ملآى بالثقوب وأمامي مجرد امرأة لا قلب لها مطلقة عنان أهوائها تتسم بالخسة والحقارة فقد أخذت تنحسر عني وتتراجع بخنوع وهدوء مشوبة بقلق شديد .

وقالت لي أنني ان كنت غـير مقتنعة بوجوب أخذي الراحة فانها لا معدى لها عن أن تتركني وشأني على مضض وهو ما فعلته بعـــد أن عجزت عن ضبط نفسها . وهذه كانت أول مناوشة تحـدث بيني وبين المدام بيك ولم يحدث بعد ذلك شيء مماثل بيننا أبدا ولم تبدل وضعهـا مني قلامة ظفر اطلاقا ولا يخطر ببالي أنها انتقمت أو حاولت الانتقام مني ولا أدري أنها أبغضتني لتلك الصراحة التي بدت مني بفظاعة ازاءها وأظن أنها حمت نفسها مني بفلسفة خفية من قـوة عقليتها وذهنيتهـا وعولت على نسيان ما يزعجها تذكره ولم تتكرر بيني وبينها أية حادثة .

وانقضت تلك الليلة وكل الليالي الاخرى وانقضت حتى الليلة الغائمة لما قبل الحادثة وفي حوالى الساعة السادسة وهي الساعة التي تنادي أهل المنزل خرجت الى الساحة وغسلت وجهي بماء البئر البارد النقي ودخلت عن طريق المربعات الارضية الى مكان فيه مرآة وضعت في حجرة خصوصية سنديانية صغيرة ونظرت الى وجهي فاستبان لي أن تغيرات حصلت فيه فقد ابيض خداي وشفتاي وأصبحت عيناي كالزجاج وبان الانتفاخ والاحمرار في جفنيهما ٠

وعند التقائي بزميلاتي في الصف علمت انهن جميعا كن ينظرن الي وعرفن ما في سريرتي وما في دخيلة قلبي وتأكد لي أن حتى أصغر التلميذات كن يضربن أخماسا بأسداس عما حدث لي ومن أجل من أتعذب ومن أجل من كل هذا المصير القانط وشرعت ايزابيل الطفلة التي خدمتها ورعيتها أثناء مرضها توجه الي اللوم ٠ ترى هل كانت تسخر مني عندما قالت لي ما أكثر شحوب وجهك فهل أنت مريضة جدا أيتها الانسة ؟ » قالت ذلك لي بعد أن وضعت اصبعها في فمها وراحت ترنو الي بنظرات حمقاء ووجدتها في ذلك الوقت أجمل من أية محققة ذكية ٠

وقبل أن ينتهي النهار استطعت أن أعرف سبب عرفاني بجميل أهل الدار كلهم هؤلاء الذين كان يشغلهم هذا الشاغل أو ذاك عن أن يقرأوا ما في القلوب والسرائر وعن أن يفسروا الكلمات الغامضة والذي يزمع أمرا عليه أن يحافظ على كتمانه وفي ذلك اليوم أدركت بالبرهان تلو البرهان لا فقط عدم اهتدائهم تكهنا الى سبب حزني الحالي وانما أدركت أيضا أن سريرة حياتي الخاصة كلها طيلة الاشهر الستة الماضية كانت ولا تزال حياتي الخاصة فقط ولم يعرف أحد ولم يلاحظ أحد أنني محتفظة ـ كأثمن ما عندي ـ بحياة واحدة من بين حيوات الاخرين ومرت الاشاعات من أمامي تنظر الي نظرات فضولية ملؤها المكر والتحايل تحوم حولي دائما دون أن تقوى على التركيز على ما أكنه في دخيلة نفسي ٠

ان المسيو بول عمانوئيل قد جاء وذهب وأعلمت بذلك وسميت من أجل ذلك ودارت الاشاعات عن أنه كان يستدعيني بالمناسبة أو بدون مناسبة وكنت ألبي ذلك طائعة راضية وأنه يحب الانسة لوسي وان

الانسة لوسي معه وتلك كانت « البيانات الرسمية » الصادرة عني وعنه ولم يعلق أحد على ذلك فضلا عن أن يدينه ولم يومىء اليه أحد أو يسخر منه أحـد ٠

وأي ألم جسماني يضارع مثل هــذا الالم ؟ الالـم الذي لازمني بالتأكيد بسبب ذهابه دون أن يودعني وبسبب هـذا الاعتقــاد الفظيع بقسوته ، اعتقادي بحسد امرأة وتعصب الكاهن مذهبيا وهما ما جعلاني أخسره ولا تراه عيوني وهل من عجب اذا وجدت نفسي في المساء القادم كالمساء الذي سبقه متهيجة الاعصاب معذبة النفس أخطـــو في الغرفـة خطوات الوحدة في حالة لم تتبدل من البؤس والكآبة الصامتة ٠

ولم ترسل المدام بيك في طلبي في تلك الليلة لتبعث بي الى فراش النوم ولم تتقرب أو تدن مني انما أرسـلت جنيفرا فانشاوي وكيلتهـا المقتدرة لتحقق لها الغرض الذي لم تستطع بنفسها تحقيقه وأول سؤال بادرتني به جنيفرا هو « هل أن ألم الرأس عنـدك شديد جـدا في هذه الليلة ؟ » وكانت تظن كسواها أنني أشكو ن ألم في الرأس ، ألم لا يمكن احتماله بدا في اصفــرار وجهي اصفــرارا فظيعـا وفي ألم لا يوصف في قدمي ، وأولى كلماتها هذه أوحت لي بأن أفر من وجههـــا الى أي مكان يبعدني عنها وبعد أن شكت لي هي أيضا عن أوجاع في رأسهـــا انتهت المهمة فصعدت الى فوق وفي الحال استلقيت على فراشي وكأنما في فراشي البائس عقارب لاسعة في لحمي ولم يطـــل الامر بي في فراشي أكثر من خمس دقائق واذا بوكيل آخر للمدام بيك يأتيني ويدخـــل وكان الطباخ غوتون الذي جــاء لي بشيء أشـربه وكنت عطشى الى حد التلف فشربت برغبة شديدة ومع أن العصير كان حلوا وجدت مذاقـــه مرا في حلقي كالـــدواء ٠

وقل لي غوتون بعد أن سلم لي العصير « انه سيجعلك تنامين نومـا مريحا يا عزيزتي » ثم استعاد القدح الفارغ من يدي وشعرت حقا بأن للعصير مفعوله فقد خدرني تخديرا قويا وسكن آلامي وشعرت بالهدوء في تلك الليلة وآوى أفراد الدار الى أفرشتهم وأضيئت أنوار الليل وساد سكون على المهجع ونام الجميع نوما هادئا وهم خلو من آلام الرأس والقلب باستثنائي أنا المسهدة واذا بمفعـول الدواء يـدب في عروقي ولا أدري ما اذا كانت المدام قد زادت من نسبة الجرعة أو أنقصتها وظهرت النتيجة بشكل لم تكن تتوقعها وبدلا من الخدر جاء الهياج ٠

وراودني فكر جديد ، حلم يقظة ودقت أبواب التجمع في الكليات على غير وقتها المعهود وانبرى من بينها الخيال بجموحه ومغامراته وعاينت المدام تنظر بازدراء وتقول « انهضي أيتها الكسلى في هذه الليلة ستكون ارادتي هي السائدة لا ارادتك وصاحت بي « انظري أمامك لتري الليل » وعندما رفعت الستارة عن النافذة البابية أظهرت لي بايماءتها الملوكية الخاصة بدر الليل في مجال عميق رائع ٠

وبالنسبة لحواسي اللاهثة تحول النور ظلاما والحدود الضيقة وحرارة المهج المزهقة بشكل لا يمكن احتماله وأغرتني بالخروج ومغادرة هذا الوكر واقتفاء أثرها حيث الندى والبرودة والبهاء ومكنتني من القاء نظرة غريبة على مدينة «فيلييت» في منتصف الليل وأظهرت لي بشكل خاص المتنزه ولا سيما الصيفي منه بمماشيه وممراته الطويلة المشجرة يسودها الصمت والوحدة والامان ٠

وبين كل هذه حوض من الحجارة الضخمة أعرفه حق المعرفة حيث كنت غالبا ما أجلس الى جانبه بين ظلال الاشجار ومياهها الباردة وحشياتها ذوات الاوراق الخضراء وماذا عن كل ذلك ؟ كانت بوابات المتنزه موصدة يحرسها الحرس بحيث لا يمكن أن يدخل اليها أحد اهي مخفورة وسألت نفسي « هل يمكن أن أفعلها ؟ انها نقطة جديرة بالاعتبار وبدلا من من أن أمعن بها التفكير شرعت في ارتداء ملابسي ميكانيكيا لا أقوى على النوم أو حتى التمدد على الفراش ، منفعلة من رأسي الى أخمص قدمي وما الذي يمكن أن أفعله أفضل من أن أرتدي ملابسي ؟

كانت البوابات موصدة والجنود تخفرها وهل معنى ذلك أن لا أحد يقوى على دخول المتنزه ؟ وفي اليوم التالي عندما كنت أتمشى وجدت ثغرة في السياج الخشبي ووتدا مكسورا ، وجدت ذلك كله بصورة واضحة جدا ، وجدت الفتحة الضيقة بين سيقان أشجار الزيزفون وبين صفوف الاشجار ولم يكن بوسع الرجل أن يمر منها ولا امرأة بدينة كالمدام بيك ولكنني تصورت أن بامكاني النفوذ من الفتحة وقلت لأجرب حظي وعندما نفذت منها أصبح المتنزه ملكا لي بضوئه القمري ومتنزهه في منتصف الليلة تلك ٠

ما أعمق نومة من ناموا في المهجع وما أهدأ تنفسهم في كل أرجاء الدار الواسعة وسألت نفسي عن الوقت وكنت من القلق بحيث لم أستطع التقدير ٠ هناك ساعة كبيرة تحت الصف فما الذي أعاقني عن أن أغامر

في النزول لاعرف الوقت وفي مثل هذا البدر ينبغي أن يكون وجهها الابيض العظيم وأرقامها السوداء النفاثة واضحة وضوحا رائعا وبالنسبة لما يعيق هذه الدرجة من السلم لم يكن العائق هو صرير المفصل أو قرقعة المزلاج ففي مثل تلك الليالي الصيفية الحارة ، ليالي شهر تموز يكون الهواء المحبوس مزعجا لا يمكن تحمله وكان باب الغرفة مفتوحا على مصراعيه فهل أن ألواح بناية المهجع الخشبية تتحمل دوسات القدم دون أن تخون ؟ نعم .. أنني أدري بأن علي أن أتجنب لوحة الخشب المخلخلة وأدري بأن بيت السلم الذي هو من خشب البلوط يسقسق نوعاما عندما أنزل منه ولكنه لا يسقسق بقوة فأنا الان في أرضية المربعات .

لقد وجدت أبواب الصفوف الكبرى موصدة ومصومولة ومثبتة بالرتاجات ومن الجهة الاخرى كان مدخل المشى مفتوحا ، وبدت الصفوف أمام ناظري وفكري كما لو أنها سجون كبرى مزعجة مدفونة وراء الشوارع العامة وبالنسبة لي ملأى بذكريات أشباح لا تحتمل ومرمية بشكل بائس بين قيودها وتوافهها ويوفر الممر منظرا عاما مبهجا مؤديا الى ردهة علية تشرف اشرافا مباشرا على الشوارع .

صه !! .. الساعة تدق بعمق كعمق هدوء هذا الدير القديم ، تدق الساعة الحادية عشرة وأذني تصيخ السمع لطنين الدقة الاخيرة ورنينها وتناهى اليها صوت كصوت الاجراس أو الغرفة الموسيقية ، صوت تمازجت فيه قوة الحلاوة والانتصار والتفجع . آه .. لأقترب من هذه الموسيقى أكثر ولأصغ اليها وحدي بجانب الحوض الذي يحيط بموقعه الحشيش والنباتات لاذهب ... لاذهب فمن ذا يعيقني عن ذلك ومن لا يعين الحرية ويأخذ بيدها ؟.

هنالك في الممر أو في ممشى الحديقة المشجر علقت سترتي وتنورتي وقبعتي الكبيرة وشالي ولا يوجد قفل في باب رواق العربات الهائل الثقيل ولا يوجد قفل أتحرى عنه فهو ينغلق بنوع من الرتاج الزنبركي ولا يمكن فتحه من الخارج وانما يفتح من الداخل فقط عن طريق سحبه سحبا هادئا فهل بوسعي أن أقوم بذلك ؟ انه سهل الانقياد بيدي وينفتح بسهولة ومن رصيف شارع فوسيت الهادىء أخذت أهيم بتلك الليلة الصيفية واستغرقت في تفكيري مطلقة عنان خيالي فالقمر من فوق رأسي وأشعر برطوبة الندى في جوه .

الا أنني لست أريد البقاء هنا اذ هي موقع الاشباح المسحورة

تحت الزنزانة التي أكاد أسمع تأوهات مساجينها • ان هـــذا السلام الوقور المهيب ليس بالذي أنشده وبالذي أقوى على تحمله فعندي أن وجه ذلك الجو يحمل وجه العالم الميت • ان المتنزه هادىء أيضــا وأدري أن صفاء مملا يسوده في كل مكان ومع ذلك لأذهب الى المتنزه •

واخذت طريقا معروفا ومشيت صوب القصر الملكي « هوتفيل » حيث تصدر عنها نغمات الموسيقى التي أسكتت الان وربمــا ستنبعث ومضيت في طريقي دون أن تصل الى سمعي موسيقى الغرفة ولا موسيقى الاجراس حيث حل محلها صوت آخر ، صوت كصوت التيــار القـوي والمجرى المائي وخريره القوي متعقبا كلما تقدمت وانبعثت الاضـوية وتعاظمت حركة الناس وجلجلت الاجراس فمـــا الخبر ؟ والى اين أنا واصلة ؟ ووجدت نفسي وأنا أدخل مستوى الارض المؤدية الى القصــر الكبير « وكأنني في خضم ســحر مرمية وســط جـمع بهي بهيج مليء بالحيوية والنشاط » •

ان مدينة فيليت في وهج واحد ونور واحد وسيع الامتداد ويبدو كما لو أن العالم كله خارج نطاق ما وجدته والسماء لا وجود لها فالمدينة بمشاغلها الخاصة تشهد بهاءها وملابسهـــا الزاهية وأطقم عرباتها وجيادها الجميلة وفرسانها الشهـام محتشدين في شوارعها ، وشاهدت حتى عشرات من الاقنعة •• انه لمنظر غريب ، أغرب من الاحلام ولكن أين هو المتنزه يا ترى ؟ ! ينبغي أن أكون على مقربة منه ، ففي منتصف هذا السطوع ينبغي أن يكون ظليلا وهــادئا فهناك لا توجــد مشاعل ولا مصابيح ولا جموع من الناس •• هل توجد ؟

وكنت أسأل هذا السؤال حين مرت بي عربة مفتوحة ملأى بأوجـه أعرفها فالمكان كان يعج بالناس ولا يمكن لعربة أن تمشي في حـــالات كهذه الا بطيئا وتضطرب الخيول النشيطة عندما يلجم نشــاطها ولهذا وجدت راكبي تلك العربة مشاهدة جيدة ولم يشاهــدوني هم وكادوا يلامسون شالي عند وقفتهم وكذلك قبعتي علما بانه في مثل ذلك الزحام البشري المتعدد الالوان لم يكن من السهـولة بمكان ملاحظــة الالبسة •

وجدت الكونت دي باسومبيير وعرابتي بلباسيهما الجميلين في حالة مرح ووجدت أيضا بولينا ماري تحيط بها الهالة الثلاثية جمالها وشبابها وسعادتها وعندما ينظر المرء الى محياها الجميل وعينيها اللتين تشعـان بالنور البهيج قلما يقوى على ملاحظة اناقتها في ذلك المهرجان ولم أعرف

سوى أن ألوان ملابسها كانت بيضاء خفيفة عروسية والى جانبها وجدت غراهام بريتون •

وسرني كثيرا جـــدا أن ألحق بهؤلاء الاصـدقاء دون أن يروني وبالفعل مشيت في أثرهم الى المتنزه على ما كنت أظن وراقبتهم راجلة لان العربات ممنوع دخولها الى هناك وعلى البوابة الحـــديدية الكائنـــة بين الاعمدة الحجرية امتدت قنطرة متوهجة بنيت على شكل أنجم متراصـــة وتبعتهم بحذر من تحت القنطرة نأين هم الان وأين أنا ؟! •

انهم في أرض ساحرة وحديقة فاتنة رائعة الجمال والبهـاء وسهل تلمعه شهب ذات ألوان وغابة تعج بالالـــوان الارجوانية والياقوتيـة ونيران ذهبية مرصعة بالنباتات التي تزرع من أجل استخدام أوراقهـا للزينة •• انها منطقة لا كمنطقة الاشجـــار والظلال وانما منطقـــة أغرب ، ثروة هندسية من معابد وهياكل وأهرام ومســلات وسفينكسات (الكائنات الخرافية في الميثولوجيا الاغريقية) وربما لا يصـــدق المرء اذا قلت أن عجائب القصر ورموزهـا ظهرت كلهـا في ذلك المتنزه المسمى بمتنزه فيليت •

ومع ان السر كان سري طيلة خمس دقائق فان مفتاح السر اكتشف وأزيل ما كان يحيطه من وهم ورغم أنني أدركت بسرعـــة مواد هـذه الاجزاء المهيبة وهي الخشب والصبغ والكرتون أو المقـــوى فان هـذه الاكتشافات عجزت عن أن تقضي على الجو الساحر وعلى روعـــة تلك الليلة وتوصلت الى معرفتي وتفسيري المهرجـان النخـــلوي العظيم كله وهو مهرجان لم تشهد له مدينة فيليت مثيـــلا أو تتذوق ما يماثلــه ، افتتح عند فجر ذلك اليوم واستمر على عظمتــه وزهـــوه حتى منتصف الليـــل تقريبـــا •

وسر هذا المهرجان حسبما يرويه تاريخ مدينة فيليت أن أزمـــة مخيفة حلت وهددت مصير « لاباسيكور » وأحدقت أخطار لا أدري مداهـا بحقوق وحريات المواطنين الشهام وراجت آنذاك شائعـــات عن وقوع الحروب الفعلية ذاتها وحدث نوع من النضـــال والقتال في الشـوارع وضجيج وركض هنا وهناك بسبب القلق والاضطراب •

وهوجمت التحصينات وتمرد المواطنون واستدعيت الجيوش وساد الهرج والمرج والتقريع وبعض الاطلاقات النارية هنا وهناك • وتقول التقاليد التاريخية للمدينة أن بعض المواطنين سقطـــوا قتـــلى وأبرز

للمواطنين سياج بني بمهابة ليحوي عظام الشهداء ومهما كان الامر عين يوم واحد من أيام العام يجري به مهرجان تكريمي لاولئك المواطنين والشهداء ولذكراهم وتقام في صبيحة ذلك اليوم شعائر دينية في كنيسة يوحنا المعمدان ويخصص مساؤه للمشاهدين والزينات والانارات التي هي كالتي أشاهدها الان ٠

وبينما كنت أنظر الى بعض الطيور الجميلة المشابهة للقالق التي توجد بكثرة في المستنقعات وعلى أطراف البحيرات عندما يكون الجو دافئا وقع نظري على طريق مشجر واسع يعج بأضواء المشاعل في نهايته صورة للسفينكس ـ أضعت مكان جماعتي الذين تتبعت أثرهم واختفوا عن ناظري كما يختفي الاشباح بين ذلك المشهد الذي كان كالحلم يتحرك فيه كل شيء ويشعر كل فرد فيه بالانطلاق وكل صوت يشبه الصدى وقد توارت بولينا وجماعتها مع أنني بالكاد أصدق أنني شاهدتهم فعلا ولم أخسرهم كأدلاء في تلك الفوضى بقدر ما خسرتهم كحماة لي في وسط تلك الليلة ٠

لقد حضر نصف الفلاحين مع أطفالهم من الضواحي القريبة من المدينة لحضور المهرجان البهيج والمواطنون المحترمون كانوا كلهم في خارج المدينة وحواليها مرتدين أحسن ما لديهم من الملابس ومررت في الطرق بسلام واختلطت مع ذلك الجمهور الكبير الغفير العدد ولم يكن بوسعي ملازمة الهدوء أو ملاحظة كل شيء بسهولة وتمتعت بالمشاهد وأنا أكتشف هواء الليل العليل والضوء الساري الذي ما ان يومض ههنا حتى يبهت ويتلاشى هناك وبالنسبة للسعادة أو الامل فقد تصافحت معهما وأصبحت صديقة لهما أما الان فقد أخذت أسخر من القنوط وأبدي تبرمي به ٠

وكان هدفي المهم وأنا أمضي في طريقي أن أجد الحوض الحجري المائي بعمقه الصافي وبطانته الخضراء وفكرت بنباته المخضوضر وببرودته وبالعطش الذي يستشعره المحموم بين سطوع الاضوية وسرعة حركة الجمهور والحشد المزدحم من الناس وضجيجهم المتواصل وظللت أشتاق في الخفاء الى الوصول الى تلك المرآة الصقيلة وأفاجيء القمر وهو يلقي بنوره على جبهتها اللؤلؤية ٠ واهتديت في آخر الامر الى طريقي وان تراءى لي بأن من الصعب علي المضي فيه بشكل مباشر حيث

يدعوني هذا المنظر وذلك الصوت بسلوك هذا الزقاق أو ذاك وهـــذا المشى المشجر أو ذاك ٠

وفجأة شاهدت الاشجار المتكاثفة وتناهت الى سمعي من بعيد أصوات الاغاني والموسيقى الجميلة المريحة وظننت أنني انحـدرت وتهت فجـأة فالاصوات كانت هناك وبدا لي أن لا عداد لها ولا عداد لأدوات العزف والابواق على أنواعها وتراءى لي كما لو أن البحر أضحى كله يغني مـع كل ما فيه من أمواج ٠

لقد اجتاح تياره المندفع هذا الطريق ثم انحسر وتراجع فتابعت أثر تراجعه وانحساره فقادتني قدماي الى بناية بيزنطية (أشـارت المؤلفـة في شرحها المدون تسلسلا في آخر قصتها الى النمط الهندسي الذي سـار عليه البيزنطيون القـدماء في القسطنطينية عنـدما كانت عاصمـة الامبراطورية الرومانية الشرقية من القرن السادس الى القرن الخامس عشر حين غزاها الاتراك) ثم وصلت الى كشـك في الحديقـة بالقرب من منتصف المتنزه الذي وقف حوله الالوف من الناس تقـاطروا لحضور حفلة موسيقية في الهواء الطلق الذي سمعته كان غناء مجموعة للجنود أو للصيادين ، غناء ممتعا للجميع ٠

وشوهدت السيدات مجتمعات ومنظرهن تحت تلك الاضـواء كان أجمل وأبهى وبعض ملابسهن كانت شفافة جدا تظهر مفاتن أعضائهن وابدانهن وكان لبعضها بريق الساتان الاطلسي وقد احتـل معظم تلكم السيدات كراسي المتنزه الخفيفة الصغيرة ووراءهن وبجـانبهن حراسهن من الجنتلمانية أما الصفوف الخارجية لذلك المجتمـع فقـد تالفت من المواطنين والعوام والشرطة وأخذت مكاني بينهم وراق لي أن أكون وحيدة وسط المظاهر ، مظاهر الحيوية والمرح ولم تكن بي أية رغبة في أن أزاحم سواي وأشق طريقي بين صفوفهم وكان مكاني بعيـدا أسمع الموسيقى ولا أرى الا الشيء القليل ٠

وسمعت صوتا عند الكرسي ذي الذراعين يتجرأ بمبـادرته الكلام معي قائلا « ليس هذا مكانا مناسبا للأوانس » وقالها بصوت غير مهذب والتفت لاردعه بدلا من أن أجيبه على عبارته فوجدت شخصـا مواطنـا وغريبا تماما كما اعتقدت لاول لحظة ولكن بنظرتي اليه ثانية عرفته ٠ انه صاحب مكتبة حرفية يبيع فيها الكتب والادوات الحرفية ويجهز شارع

فرسيت بكتبه وقرطاسياته وهو سيء الصيت في مدرستنا الداخلية بسرعة انفعاله حتى معنا نحن زبائنه الرئيسيين أما بالنسبة لي فقد كان عطوفا معي يساعدني على ازالة مشاكلي في بعض الاحيـــان بصدد التحـــويل الخارجي ويقدم لي بعض الخدمات ٠

لقد كان رجلا ذكيا ورغم حدة طباعه كان رجلا طيب القلب وخطرت لي فكرة أحيانا بأن بعض طباعه يحاكي طبـــاع المسيو بول عمانوئيل الذي له به معرفة جيدة وسبق أن شاهدته واقفـــا على طاولته الطويلة يقلب صفحات بعض الموضوعات الشهرية الدورية والغريب أن هـــذا الرجل عرفني من قبعتي القشية وشالي المطوي طيا محكما ٠

وقد أصر على أن يفسح لي مجال المرور من بين الجمهور فافلح في ذلك وأوصلني الى مكان أفضل واكمل انسانيته فحصل لي على كرسي من مكان آخر وتاكد لي أن بعض من يقال عنهم بأنهم مزعجون ليسوا اسوا الناس وهذا الرجل بسلوكه المؤدب لم يجد غرابة في ان يجدني هنا وحيدة وبعد ان حصل على مكان مريح لي وكرسي اجلس عليه انسحب دون ان يطلب مني أي شيء أو يسألني اي سؤال او يبـــدي لي أية ملاحظـة ٠

ولم يمض على جلـــوسي خمس دقائق الا وادركت ان الفرصـة وصديقي المواطن جاءا بي مرة اخرى لكي أكون ضمن القدرة على مشاهدة جماعتي المألوفة فالى يميني جلس البريتونيون ومعهـــم دي باسومبيير وضمن نوش يدي اليمنى ـ لو أنني مددتها ـ جلست شخصية تشبه ملكة الجن بثيابها السوسنية الجميـلة ، والذي لم يكن أبيض ســوسنيا كان باخضرار النابة وجلست عرابتي أيضا جـد قريبـة مني بحيث لو أنني أملت وجهي الى أمام صوبها لكانت أنفاسي كافية لتحريك شريط قبعتها ٠ لقد كانوا قريبين مني كثيرا وشعرت بالحرج وعدم الارتياح من أكون على هذه المقربة من معارف محبين لدي ٠

وجفلت حراجة حين سمعت السيدة بريترن وهي تلتفت نحو المسيو هوم وتحدثت اليه بنوع من قوة الذكرى قائلة « لا أدري ما كانت تقوله صغيرتي لوسي الحبيبة الهادئة في كل هذا لو كانت معنا ؟ ٠٠ كنت أود احضارها معنا لكي تتمتع بكل هذا » وأجابها الشيخ الطيب « نعـم ٠٠ نعم ٠٠ كان ينبغي علينا ان نفعل ذلك وندعو هذه الفتـــاة الحساسـة الوقورة وانا شخصيا أريد لها السعادة التامة والطمأنينة » ٠

لقد كان هـذان الشخصـان عزيزين على قلبي ولا يزالان كذلك فهما لا يعرفان الا القليل عن مصدر الالم الذي أوصـل لوسي الى حمى جملتها تخرج طائشة بلا دليل وأوصلتهمـا الى حافة ما يشبه الجنـون المؤقت • وكانت لي بقية ذهنية لكي أميـل الى اكتافهمـا واجيب على طيبتهما بتشكرات عيني • ان المسيو دي باسومبيير لم يكن يعرفني أمـا انا فكنت أعرفه وأعجب بسريرته الطيبة التي كانت تروق لي وباخلاصه الواضح الصريح ووداده الدافيء وحميته الطبيعية •

وكان ينبغي علي أن أتكلم على ما أتصور ولكن غراهام التفت في ذلك الوقت باحدى حركاته الجميلة التي تختلف عن حركات الرجل الحاد الطبع القصير القامة ووراء ظهره حوالى مائة صف من النـاس وألوف يجتذبون نظره الناحص فلماذا اذن ركز كل نظراته الي فأثار اضطرابي بكل ما في تينك العينين الزرقاوين الواسعتين من قوة ؟ ولماذا عندما وقع نظره علي لم يكتف بنظرة واحدة ؟ ولماذا دار على كرسيه وأسند مرفقـه على ظهره وراح يتأملني بعمق ؟•

ولم يقو على رؤية وجهي لانني كنت قد أملتـه صـوب الارض وبالتأكيد لم يعرفني كل المعرفة وبعد أن انحنيت التفت دون أن يعرفني ونهض من مقعده وحاول أن يقترب وبعـد دقيقتين أكتشف أمري وكان امامي طريق واحد فقط لصده أو لمراوغته هو افهامه ضمنيا بنوع من الايماءة التوسلية أن يتركني ويدعني وشأني ولو أصر بعد ذلك ربمـا أثار سخط لوسي ذلك أن كل الذي لا يزال موجودا فيه من فخامـة أو طيبة أو عطف ــ ولوسي تشعر بها جميعا ــ لن يبقيها أليفة أو مسالمة •

ونظر ثم كف عن محاولته وهز رأسه الجميل ولم ينبس ببنت شفة وعاد الى مقعده ولم يعد يلتفت الي أو يزعجني بنظـرته الا في مـرة واحدة فقط حين حدجني بنظرة فيها من معاني الجزع والقـلق أكثر مما فيها من معاني الاستطـلاع والفضول وتكلم بكلمـات كادت توقف ــ بنوع ما ــ وجيب قلبي مثلمـا تسكت الريح الجنوبية الارض • ان آراء غراهام عني لم تكن أبدا من قبيل عدم الاكتراث السـافر وآراني مؤمنة بتقلبه الطيب فقد أبقى مكانا في دائرة تحت الاضواء لتاوي اليـه لوسي متى شاءت •

ولم يكن المكان الذي أبقاه خصيصا لي في منزله جميلا كالغرف التي

كان اصدقاؤه يقيمون أو يجلسون فيها أو كالقـاعة التي كان يحتفظ فيها لشؤونه الانسانية وشؤون البر والاحسان أو يحتفظ فيها لشؤونه العلمية ولم يكن يشبه الجناح الذي كان يستخدم لاقامة ولائم الزواج الفاخرة • ومع ذلك برهن لي بعطفه الطويل الامد على أنه احتفظ لي بحجرة صغيرة في الجـانب الاخر من الباب كتب عليهـا « غرفة لوسي » • وأنا أيضا احتفظت له بمكان لم أقسه بالمقياس ولا بالمسطرة ولا بالبوصلة أنه شبيه بخيمـة « بيري ـ بانو » (خيمـة بيري بانو ورد ذكرهـا في ألف ليلة وليلة وهي الخيمة التي كان أحمـد أصغر أولاد الملك يلاقي تحتها الجنية الجميلة بيري ـ بانو التي كان لها خيمة سحرية ـ من شرح المؤلفة في آخر المؤلف) ، ولما كنت قد توقعت الشؤم في تلك الليلة لـم أستطع المكوث في مكاني القريب منهم وكان علي أن أغـادر ذلك المكان الخطر والمقعد الخطر وانتهزت الفرصة الملائمة فنهضت موليـة الادبار وربما ظن أو ربما اعتقد بأن لوسي احتوت عواطفها ضمن ذلك الشال وانها احتمت بقبعتها ولم يتسن له التأكد من ذلك لانه لم ير وجهي وهل كان لنفسية القلق أن تتهدهد في ذلك الوقت لو لم أقـم بما يكفـي من المغامرة ؟ ألم أبدأ في التخاذل والشعور بالجبن والرغبـة في أن أكون آمنة تحت سقف ما ؟ •

لم يكن الامر كذلك فقد كنت لا أزال أشـعر بالترف من فراشي الكائن في مهجع المدرسة بصورة لا تقـوى العبارات عـلى تصويره حق التصوير وتشبثت بكل ما من شأنه أن أصرف النظر عن التفكير وشعرت أيضا ـ بنوع ما ـ ان دراما تلك الليلة بدأت آنذاك فقط وان متدمة الرواية لم تكد تبدأ ففي هذا المسرح الدغل الذي يحيطه العشب والنبت وجدت ظل اللغز الحقيقي وان الممثلين والاحداث كانوا ينتظرون وراء المشاهد دون أن ينتظرهم أحد ، هذا ما كنت أظنه وهذا ما اخبرني بـه النذير والحاسة التي تتوقع الشر والشؤم •

وهمت على وجهي دون تخطيط ودون قصد ، ومن وراء دفعـات المرافق التي تحدث في الاماكن المزدحمة وصلت الى مكان كثير الاشجار في بعض الاماكن ومنفرد الاشجار في بعض الاماكن الاخرى وهو ما أراحني من الاكتظاظ وزحام الناس وأعطى للمكان صفة الانفراد والتبعثر ،

وتلك المناطق كانت بعيدة عن الموسيقى وبنوع ما بعيدة عن المصابيح .

الا أن الاصوات كانت تصل لتريح بعض ما يعانيه المرء ولم تكن المصابيح ضرورية هنا لوجود مصابيح القمر المتلي في السماء وكانت السواس بمجموعاتها قد استقرت هنا ايضا لانها فكرت بأن أطفالها ـ في هذه الساعة المتأخرة من الليل ـ ينبغي أن يكونوا بعيدين عن ذلك الازدحام وهناك ثلاث شجرات جميلة وطويلة خلقت بالتفافهما ظلة مكثفة فوق هضبة صغيرة مخضوضرة عليها مقعد يتسع لعدة أشخاص وظهرت انها متروكة لشخص واحد فجلست عليها والاخرون من الناس واقفون حولها وشاهدت بين دائرتهم المحتشمة سيدة تمسك بيدها طفلة صغيرة .

وعندما نظرت الى الطفلة الصغيرة وجدتها تتلوى وتدور حول عقب قدمها وتهتز وتندفع من هذا الجانب الى الجانب الاخر بالتفافات حلزونية مرحة وغريبة الاندفاع وأثارت اهتمامي تلك الحركات السائبة فاثرت في وذكرتني بما يشابهها كل المشابهة وامعنت النظر فيما ترتديه من ستره الفرو الحريرية والبليكية الارجوانية الطويلة ولفاعها الطويل من فرو ونسيج رقيق وزغب الاوز وغطاء راسها الابيض بكل ما في زينة السيد . وباختصار كان زيا مهرجانيا لطفلة معروفة لدي تمام المعرفة هي ديزيريه بيك وكانت هي نفسها أو عفريته تشبهها تمام الشبه .

وكان ينبغي علي أن أعتبر تأثير هذا الاكتشاف كقصف الرعد ولكنه كان سابقا لاوانه اذ ينبغي أن يزيد على اكثر من درجة قبل أن يصل الذروة وعلى يد من تستطيع أن تهتز ديزيريه الانيسة اللطيفة بهذه الصورة الطليقة وقفاز من تستطيع أن تمزق بطيش وبلا اهتمام وذراع من تتحمل مثل هذا العنت دون عقاب وعلى أهداب البسة من تروح وتغدو دائسة بقدميها بوقاحة ان لم تكن يد أمها وقفازها وذراعها وردائها ؟ وهناك وجدت المدام بيك واقفة بشالها الهندي وقبعتها المصنوعة من الكريب .. القماش الرقيق الجعد ذي اللون الباهت الاخضرار .

يا للغرابة !! كنت متأكدة من أن المدام بيك لابد أن تكون في مثل هذا الوقت في فراشها وديزيريه في مهدها وسريرها ومن المؤكد أن

لا أحد لاحظ « الانسة لوسي » لان الجميـــع كانوا مشغولين وكنا نحن الثلاثة نمرح في متنزه المهرجـان النير في منتصف الليل ٠ والحقيقـــة أن المدام كانت تعمل وفق هواها الذي له ما يبرره ٠

لقد تذكرت الان كيف أنها قالت ذات مرة بين المعلمـات والمعلمين اننا عندما نتصور ـ في الاغلب ـ أنها نائمة في غرفتها تكون قد ارتدت ملابسها لتستمتع بوقتها في الاوبرات او المســـارح أو قاعات الرقص وليس للمدام رغبة في حياة الرهبنة وانما جل اهتمامها منصب للتمتـع بملذات الدنيا والاستمتاع بها ٠

هناك ستة جنتلمانية من اصدقائها يحيطون بها بينهم اثنـــان او ثلاثة عرفتهم كل المعرفة هناك ، أخوها المسيو فكتور كينت وشخص آخر ذو شاربين وشعر طويل يتميز بكونه هادئا قليل الكلام ويحمل طابعـــا ومظهرا خارجيا لا يقع نظري عليه الا ويثيرني فاتحول الى مكان آخر فهو مزيج من مظاهر عدم الاكتراث والتكتم ومتناقضات السلوك والخـلق والمحيا فوجهه يتخذ أشكالا قابلة للتبدل فهو من جهة متحمس ومن جهـة بارد الطبع والمشاعر وفي وقت ما يرى متجهما وفي آخر مشـــرقا ٠٠ انه جوزيف عمانوئيل شقيق المسيو بول عمانوئيل « فرجل السلام » هـــذا يذكرني بشقيقه المتقد المتوهج ٠

وعلاوة عـلى ذينـك الاثنين فكتور وجـوزيف أعرف ثالثا يقف في الظل ويشاهد مطاطيء الرأس فملابسه ورأســـه الاشيب الاصلع يجعله شخصا ممجوجا ومجتوى وهناك الاب سيلاس الذي لا يتصور أحـد أنه لا يكون موجودا في مثل هذه المهرجانات لان المناسبة تعتبر مناسبة تضحية وطنية تباركها الكنيسة بافتخار واعتزاز والجدير بالذكر أن جنودا من القسس كانوا موجودين في المتنزه في تلك الليلة حتى المدام والرافينس الشمطاء كانت موجودة وبدت كما لو أنها لا شبح ولا جثة هامدة وانمـا امرأة قاسية القلب لم تتورع تلك الحدباء في أن تضرب الطفلة ديزيرية ضربة قوية بعصاها ذات العروة الذهبية لمجرد أنها أرادت تناول قطعـة من اللحم وقطعة من الحـلوى ٠

الفصـــل التاســع والثـــلاثون

ـ معـــارف قـــدامى وجـــدد ـ

ولم أفضل مغادرة المكان القريب من الزمرة الثلاثيـــة حيث ظلة الاشجار الملتفة بعضها على بعض والليل يهمس ضامنا الحماية وأومض الصباح ايماضة واحدة لكيما أعثر فيه على مقعد مظـــلم آمن ثم زال • ولأرو الان باختصار للقراء حقيقة ما حـــدث خلال الاسبوعـــين الماضيين الغامضين فقد كنت أجمع سرا من الاشاعـــات الدائرة وكل ما يتصـــل بأسباب رحلة عمانوئيل والغاية منها والقصة قصيرة وليست بالجـــديدة حرفها الاول الثروة وحرفها الاخير الفائدة •

واذا كانت المدام والرافينس القبيحة الوجه كمعبود الهنود قـــد ظهر انها أصبحت غنية وغنية جدا ومع أنها الان لا تملك المال فانها لابد أن تصبح في يوم ما غنيـــة ففي « باسيتيير » في غواديلوب كانت تمتلك عقارا شاسعا من الاراضي كبائنة أو مهر عن زواجهـــا قبل ستين عامـــا وصودرت بعد اشهار افلاسه والان لم يعد أحد يطالب بها واذا قيض لها وكيل مقتدر لمتابعة هذه القضية فلابد أن تثمر خـــلال بضعـــة أعوام بنطـــاق واســـع •

فالاب سيلاس اهتم في ذلك من أجل الكنيسة وماغلوار والرافينس هي الابنة المتعبدة والمدام بيك نسيبتها من بعيد وتعرف أن الحـــدباء ليس لها عائلة خاصة بها وراحت تهتم وتعنى بها من أجل هذه الغـــاية ولذلك فان المدام بيك والاب سيلاس أخذا يهتمان بالموضوع للحصول على المال ويهتمان برعاية أمر العقار الموجود في جـــزائر الهند الغربيـــة ولان المسافة بعيدة والجو محفوف بالمخاطر فينبغي أن يختارا رجلا مؤهلا مستقيما يكرس نفسه لهذا الغرض •

وقد سعت المدام والرافينس الى الاحتفاظ بمثل هذا الرجل لخدمتها

طوال عشرين عاما فافسدت حياته واعتاشت على مجهـــوده كالفطريات القديمة ومثل هـذا الرجل دربه وعلمه الاب سيلاس، وقربت بينهما أواصر الاقرار بالفضل والعرفان بالجميل والمعتقد والعـــادة والسلوك ويقول الاب سيلاس إن مثل هذا الرجل تعرفه المدام بيك وتستطيع أن تؤثر عليه بوصفه تلميذي اذ بقي في وربا وغامر بالارتداد لانه أضحى ذا صلة بمهرطقة خرجت عن عقيدتها المذهبية وأبدت المـــدام بيك عن رأيها الخاص في وجوب التغرب للحصـــول على المـــال واقترحت قيـــام المسيو بول بذلك .

أما المدام والرافينس فكانت تريد الحصول على مالهـــا وارضهـــا وكانت أدرى ببول لان يكون أفضل وكيل أمين لها وعلى هذا الاساس التم شمل الثلاثة الانانيين ليلقوا بالعبء على الشخص غير الاناني وراحـــوا يناقشونه ويقنعونه ويلتمسونه ووضعـــوا أنفسهم تحت رحمتـــه ورموا بانفسهم بيديه ـ ائتمانا ـ لمصالحهم ولم يطلبوا منـــه سوى عامين أو ثلاثة أعوام من التكريس لهذا الغرض وبعـــد ذلك يستطيع أن يفعـــل ما يشاء واحدهم ربما يتمنى له الموت خلال هذه المدة ولم يسائل أحـــد منهم نفسه ما قد يداخله من آلام عند مغـــادرته أوربا ومـــاذا ستكون تقديرات ومتوقعات مستقبله . لم يسأل أحـــد عن ذلك وكل شيء من هذا القبيل كان غامضـــا لدي وكل ما أدريه أنه ذهب ولم يترك أثرا وهنا تنتهي معلوماتي منه .

وجلست وراسي مائل وجبهتي مستندة على يدي بين سيقان الاشجار المتجمعة المتكاثفة وفروع الاغصان المقطوعة وأي حـديث صـــادر عن جيراني أستطيع أن أسمعه لو أردت لانني كنت قريبة منهم كثيرا وكانوا يتكلمون عن الملابس والموسيقى والاضوية وبداعـــة الليل وروعتهـــا وسمعتهم يقولون « ان الجـــو رائق ومناسب لسفرته وستمخر الباخـــرة « انتيكا » بشكل جيد » ولم يذكروا عن مســـارها أو ركابها شـــيئا .

وربما لم تهتم المدام والرافينس العجوز بذلك الحديث كثيرا وأنا كذلك وقد رأيتها قلقة تحرك رأسها ذات اليمين وذات الشمال وتعاين ما بين الاشجار وبين الجمهور كما لو أنها تتوقع وصول أحد وتأخـــر وصوله فعيل صبرها وسمعتها تتحدث مع نفسها بصوت متـــذمر غـــير مسموع بوضوح وأخيرا بدا عليها كما لو انها معولة على أن تحصل على جواب لسؤالها وصاحب بصوت عال قائلة بالكلمات الموجـــزة البسيطة التالية التي صدمتني وأدهشتني .. أيتها اسيدات والسادة أين ظلت

حتى الان جوستين مـــاري ؟ ٠٠ تلك هي ٠٠ تلك هي جوستين مـاري قادمة أما أنا فقلت في نفسي ٠٠ ما هذا ؟ جوستين ماري الراهبة الميتـة منذ زمن طويل ؟ أين هي ؟ انها في قبرها يا مـــدام والرافينس ٠ ماذا تريدين منها ؟ أنت التي ينبغي أن تذهبي اليها لانهـــا لا يمكن أن تأتي هي اليــك » ٠

كان ينبغي أن أجيبها بنفس هذا الجـــواب لو كان لي علاقـة في الموضوع ولكن يظهر أن لا أحـد كان كتفكيري ولم يستغرب أو يجفـل أحد كما استغربت وجفلت أنا من كلامها ولم يتحير أحـد مثلما تحيرت أنا الا أن جوابا عاما هادئا وصل الى أذن تلك الحدباء الساحرة المزعجة للموتى قائلا لها « ان جوستين ماري قادمة انها في كشك الحديقة وستكون هنا في الحـــال ٠

وبين ذلك السؤال وهذا الجواب حصل تبدل في الحـــديث المتصف بالسهولة والتفكك والانقطاع المشوب بالقيل والقال ودارت حول دائرة المجموعة الايماءات والاشارات الضمنية والتعليقات بصدد أشخاص لـم تذكر اسماؤهم أو ظروفهم وأخذت أصغي الان باهتمـام محتوم فرض القضاء والقدر ولم أفهم منه أكثر من وجود خطــة مهيئة بصدد شبح جوستين ماري حية أم ميتة ، ويظهر ان المجلس العائلي كان يتكلم عنهـا بنوع ما ولسبب ما ويبدو أن هناك قضية زواج وثروة لا أدري كنههـــا أو تفصيلاتها ربما تتعلق بفكتور كينت أو بجوزيف عمانوئيل الاعزبين ٠

وفي احدى المرات تراءى لي بأن الايماءات والتلميحات تدور بصدد شاب غريب عن المجموعة جميل الشعر يدعى هنريخ موهلر ٠ وبين كل ذلك الهزل والمزاح ظلت المدام والرافينس تتفوه من وقت الى آخر بصوت أجش وعيلت صبرا باستمرار مراقبتها الحقـــودة للطفلة ديزيريه التي كانت سبب اهاجة العجوز التي كانت تهـــددها بعصاها وصاح أحـــد الجنتلمانية « انظري ٠٠ هوذا جوستين ماري قادمة » ٠ وكانت هـــذه اللحظة مميزة لدي ذكرتني بالراهبة المصورة على اللوحـــة وفي ذاكرتي قصة الحب المحزنة وشبح الراهبة في العلية وشبح الممشى المشجر وولادة التعريشة الغريبة وعانيت من الحس الداخلي أو شـــعور القلب يقرب حـدوث شيء مفاجيء بعد اكتشافاتي تلك وباعتقـــاد قـــوي بـدنو وقت الفضيحة ٠

وعندما تشط بنا الذكرى مرة أخرى فأين سنبقى وأين سنقف وأية شجرة شتوية ساقطة الاوراق والغصون وأي حيوان في الطريق الجانبي

يمضغ بصوت طاحن وأية غنيمة عابرة وحـزم نور القمر التي تشـق طريقها الى الارض لن يكسوها الخيال كساء روحيا ويجعل منها صورة وهمية أمام عيوننا • وبقوة مهيبة ضغط على قلبي توقع اكتشاف لغـز فقد سبق أن شاهدت مثل هذا اللغز ومثل هذا الوهم في كأس فهل سيقدر لي أن أواجه مثل هذا الكأس وملت بجيدي الى أمام ورحت أنظـــر واذا بجوزيف عمانوئيل يصيح « انها آتية » •

وانفتحت دائرة التجمع لكي تقبل عضوا جديدا مرحبا به وفي تلك اللحظة حدث أن مشعلا حمله أحدهم ساعد توهجه نور القمر الباهت على تسوية الازمة ومن المؤكد أن المجاورين لي أحسوا بنوع من القلق الذي أحسست به لم أعرف قدر درجته وبالنسبة للجمهور الحاضر هناك ربمـا حبس أبردهم شعورا أنفاسه لمدة • أما بالنسبة لي فان حيـاتي قـد أصابها الانجماد • وانتهى كل شيء فاللحظـــة جاءت والراهبـة جاءت وانتهت الازمة واجتيزت المفاجأة •

وأصبحت أنوار المشعل على مبعدة باردة واحدة وكان يحمله حارس المتنزه وكاد لسانه اللاهب يمس وجه الفتاة المتوقعـــة ــ هناك ــ حيث وقف بهيكلها الواضح أمامي وماذا كانت تشبه ؟ وماذا كانت ترتدي ؟ وكيف كانت تنظر ؟ ومن أين ؟ توجد أقنعة عديدة في المتنزه هذه الليلة وعندما نتوغل في ساعات الليل الاخيرة تسود مظـاهر الصخب والعربدة وأعراف الطقوس والشعائر الاجتماعية في الخارج بحيث ــ لن تنتقدني أيها القارىء ــ ان قلت لك أنها كانت كراهبة العليـــة ترتدي الاردية السوداء وأردية الرأس البيضاء وانها تشبه الانبعـــاث الجسماني وأنها كشبح ناهض •

أنها زيف وكذب •• انها ملفقات وتزويرات •• ولن نتحدث عن هذا الهراء ولنكن مخلصين وصريحين في التحدث عن الحقيقة • ان الشيء المألوف أو العادي أو الطبيعي هي الكلمة التي لم نحسن اختيارها فهنـا فتاة من « فيليت » من المدرسة الداخلية وسيمة الطلعة وجميلة جدا جمالها جمال أهل المدينة ويبدو أنها تتغذى جيدا فهي عبـــلة وسمينة بخـدين مدورين وعينين جميلتين وشعر كث وارتدت أفخر الملابس الجميلة ولـم تكن وحدها اذ تكون حرسها من ثلاثة أشخـاص اثنين منهم كبار السن تسمى أحدهما « عمي » والاخرى « عمتي » وتضحـــك وتتحـادث بود ولهجة بهيجة وهي ممتلئة الجسم عامرة الصدر وفي ريعان الشباب ويبدو أن عليها امارات فاتنات الطبقة البورجوازية •

وقلت أن شكلها لا يشبه جوستين ماري ولا الاشباح ولا الالغاز ولم يتم التوصل الى تسوية أخيرة فهذه الفتاة لم تكن كالراهبة التي عاينتها ولا كالتي، شاهدتها في العلية أو في الحديقة لان راهبتي أطول منها بشبر • لقد شاهدنا حسناء المدينة وألقينا نظرة خاطفة على العم المسن الوقور وعلى العمة المسنة الوقورة فهل لنا أن نلقي نظرة على العضو الثالث من تلك المجموعة ونخصص له ملاحظة من الملاحظات ؟ علينا أن نعرف من هو •

لقد تبين لنا أننا لم نلقه لاول مرة وأخذت أضرب كفا بكف بقوة عنيفة وآخذت نفسا عميقا جدا وأوقفت صراخا كاد يفلت من فمي، وابتلعت صيحة ومنعت انبجاسة وتحدثت مع نفسي ولم أحرك به سوى الحجارة ولكنني تاكدت مما شاهدت ومن بين العتمة التي استقرت في عيني من جراء بكائي طوال العديد من الليالي عرفته !!• قالوا انه سيسافر في الباخرة المسماة « أنتيكا » المدام بيك قالت ذلك •• لقد كذبت أو قالت ما كان ذات مرة أمرا صحيحا ولم تنقضه عندما أصبح كذبا • لقد ابحرت « الانتيكا » وبقي هنا بول عمانوئيل الذي شاهدته واقفا على مقربة مني •

ترى ! هل كنت فرحة ؟ شعرت أن حملا هائلا انزاح عني !! هل كان أمرا حقيقيا أن أضمن لي السرور ؟ لست أدري •• علي أن أسأل أولا ماذا كانت الظروف التي رافقت فترة الراحة ؟ والى أي مدى كان هذا الارجاء ذا علاقة بي ؟ ألم يكن هؤلاء الذين تمسهم القضية قريبين أكثر مني ؟ وبعد كل ذلك •• من تكون تلك الفتاة الشابة جوستين ماري ؟! لم تكن الفتاة غريبة ابدا •• فهي معروفة لدي اذ سبق أن شاهدتها عندما كانت تزور شارع فوسيت ومن المحتمل انها من الجماعة التي تلتقي بها المدام بيك أيام الاحاد •

انها قريبة عائلتي المدام بيك والمدام والرافيتس ، أخذت اسمها في المعمودية من الراهبة القديسة التي تكون عمتها لو أنها عائشة حتى الان واسمها النسبي « سوفير » وهي وارثة ويتيمة والمسيو عمانوئيل حارسها ووصي عليها وبعضهم يقول أنه عرابها ويريد مجلس العائلة من هذه الوارثة أن تتزوج على واحد من زمرتها فمن هو يا ترى ؟ انه لسؤال حيوي هام من هو ؟!

وشعرت بفرح شديد الان بعد ان وضع الدواء في الجرعة الحلوة التي جعلتني في حالة أكره بها الفراش والغرفة وكنت أعلم على الدوام

ان حياتي كلها تريد التوصل الى الحقيقة المحضة وبودي أن أشاهد الالهة في هيكلها بالذات وأرفع عن وجهها الحجاب وأتجرأ على أن القي عليها النظرة المروعة .

وقد أصبحت زمرة والرافينس المتزايد عددهم الان سعيدة جدا وقصد الرجال أكشاك الحديقة لاخذ قسطهم من الراحة وجلسوا على الاعشاب الكائنة تحت الاشجار وأخذوا يشربون الانخاب ويبادلون المشاعر الودية ويضحكون ويداعبون المسيو بول ويمازحونه وعلمت من ممازحة المدام بياك اياه ومقابلته اياها بمحيا غير طلق جدا انه هو الذي طلب ارجاء سفرته بصورة مؤقتة دون أن يعبأ حتى بنصائح أصدقائه وخلى الباخرة « أنتيكا » تذهب وحجز في الباخرة « بول أي فرجيني » التي تسافر بعدها بأسبوعين لينجز كما يقول مهمة مصلحية صغيرة .

وماذا كانت مصلحته يا ترى ؟ لا أحد يدري .. ومع ذلك كان هنالك شخص يبدو أنه موضع ثقته وائتمانه فقد تبادل هو وجوستين ماري نظرة ذات معنى وسألها ما اذا كانت الصغيرة ستساعدني أم لا وكان جوابها سريعا « الله يدري » ثم استدركت فقالت « ساساعدك بكل جوارحي وبوسعك أن تفعل بي ما تشاء يا عرابي » .

وهذه « العرابة » العزيزة رفعت يدها ووضعتها على شفتيه الشاكرتين ولاحظت أن هذه الحركة أقلقت التيتوني الشاب هنريخ موهلر ولم يرتح اليها حتى انه عبر عن تذمره ببعض الكلمات أما المسيو بول فقد ابتسم في وجهه وبانتصار الفاتح المضمون وقساوته جر صاحبه الى جانبه اكثر . وكان في تلك الليلة فرحا جدا لم يبد عليه أنه استكان لتبدل المشهد والعمل فقد كان حياة الزمرة الحقيقية لانه مجبول على التحكم والاستبداد وقرر أن يكون المتسيد في المرح وفي العمل وفي التزعم وكان له القدح المعلى في كل شيء في الكلام وفي الضحك وفي العمل النشيط .

وظل المرح والمزاح على قدم وساق بينهم وترسب لدي من أخبار المسيو بول أنه في الوقت الذي تغيب فيه لكي يعمل من أجل الاخرين فان هؤلاء الاخرين الذين لم يعترفوا بجميله سيحرسون له الثروة التي تركها في أوربا . وليأت لهم بكنز هندي فانهم لن يعطوه عوضا عنه سوى عروس شابة ووارثة غنية وبالنسبة لرسامته الورعة ونذر الولاء والاخلاص فقد تنوسي أمره ، ذلك أن الحاضر الساحر المزدهر تغلب على الماضي وفي آخر الامر كانت راهبته في قبرها حقا .

لابد ان يكون الامر كذلك وقد تكشف الوضع حقيقــة فالشعـور السبقي لم يخطيء قط فأنا وحدي الذي أسأت التقدير لفترة ما ولـم اعر اهتماما للوحي الذي ظننت أنه كان يتحدث عن الخيال أو الرؤيا في حين أن تنبوءه لامس الواقع ٠

وكان علي أن أتوقف مدة أكثر في التأمل بعد الذي شاهدته وربما انتويت وقصدت قبل أن أستنبط النتائج وربما وجد البعض المقـدمات المنطقية مشكوكا فيها والبراهين غير كافية وكان ينبغي امكان النظر في بعض الامور المشكوك فيها قبل القبول بفكرة للزواج بين فقـير ورجـل مضح في الاربعين من عمره وبين فتاة قاصرة غنية في الثامنة عشرة من عمرها ولكن كنت بعيدة عن مثل هذه التحولات والمسكنات ، عن مثل هذا الاشتطاط والزوغان عن الواقع وعن هذا التهرب الجبان من الرهبــة والفزع ومن الواقع المستحوذ السريع الخطى وعن المقـــاومة العابثـة المترنحة المتداعية للقوة التي لا شأن لها الا الزحف المظفر واحراز الغلبة وكنت بعيدة أيضا عن التهرب الخؤون من الحقيقة ٠

وسارعت لقبول الخطة كلها والمشروع كله ووسعت مفهومي وقاومت كل شيء وجمعت كل شيء بنوع من حمق الاستعجال والتسرع وطويتهـا حولي كما يفعل الجندي حين يضرب في ميـدان القتال ويلف علـم بلاده على صدره وناشدت الايمان وتضرعت اليه ليسمرني بالحقيقة والثقـة حتى اذا ما دخلت المسامير روحي وعيت على حقيقتي ٠ وكنت قد صرحت ابان افتتاني قائلة « أيتها الحقيقة أنت السيدة الصالحـة لكل خدمك المخلصين وحين اهتصرتني اهتصارا اكذوبة واحدة شعرت بالمعاناة وحتى عندما كانت الاكذوبة لا تزال حلوة المذاق تضفي الجمال على الخيال والدفؤ على الاحاسيس كان عذابها يذهب بي كل مذهب وأن شعور القنـــاعة بأن المحبة قد تم الحظو بها ما كان في الامكان فصلها عن الفزع أو الرهبـة التي كانت تتصور امكان فقدانها بمجرد حركة واحـدة من دولاب القوة الموجهة فالحقيقة عرت الاكذوبة وأبعدتها كما عرت وأبعدت التمـــلق والمداهنة وها أنا امامكم ٠٠٠ حرة ٠

ولم يبق لي شيء الان سوى أن آخذ حريتي معي الى غرفتي واحملها معي الى فراشي لارى ما عساي أن افعل بها ولم تكن اللعبة قد تمت بعـد اذ كان علي أن انتظر وأراقب بصورة مطولة أكثر ذلك المشهد الغرامي تحت الاشجار وتلك المغازلة بين الشجيرات والآجـــام وما دام الحب لم يكن موجودا في تلك التظاهرات فمعنى ذلك أن خيالي كان سخيا وابداعيا

يمكن أن تمنح له أعمق حياة وأسمى ألوان التعاطف ٠

غير أنني ما كنت اقدر نظرتي حق قدرها فتعاميت عن الحقيقة عندما رصنت عزمي دون أن أدنس طبيعتي ٠٠ وبعدها ٠٠ شعرت بشيء يمزقني من تحت شالي وشيئا كأنما ينهش في جنبي كنسر حاد البراثن قوي المنقار ولكي أصارعه ينبغي أن أكون وحيدة وأظن أنني لم أشعر بالحسد قط حتى الان ٠ ولم يكن هذا شبيها بالترتيبات الحبيبة للدكتور جون وبولينا التي ـ عندما كنت أغمض عيني وأغلق أذني وأنا أجرجر الى الخلف افكاري ـ كان حسي المتناغم يستشعر السحر ويعترف بالجميل ٠٠٠

أما هذا فقد كان نظيفا ذلك أن الحب وليد الجمال ليس حبي ولا علاقة لي به ولا يمت الي بصلة ولا أجرأ على التدخل في أمره والتطفل عليه ولكن الحب الاخر الذي يقتحم الحياة بعد المعرفة الطويلة ويتمرس بالآلام ويتقدس بالنار ويمهر بالاخلاص ويتعزز بالاشابة المتينة والود المحض غير الممحوض يهبه الفكر الالمعي المتوقد لفحصه بمقاييسه وتجاريبه ومصقولا ومزخرفا الى حد الاكتمال ٠٠ ان مثل هذا الحب الذي يزدري العاطفة الرعناء هو شغلي الشاغل وهو الذي أركز فيه جل اهتمامي ٠

ابتعدت عن المجموع الواقف بجانب الاشجار وعن ذلك الصخب المرح وقد ولى منتصف الليل بساعات طويلة وانتهى عزف الفرقة الموسيقية وبدأت الجموع تعود ورقت صفوفها المتماوجة قبل هذا وتابعت الجمع المنحسر تاركة المتنزه المتلألىء « هوت ـ فيل » المضاء اضاءة نيرة حتى ذلك الوقت المتأخر من منتصف الليل وبدأت انشد الظلماء بعد النور ٠

ولا يجدر بي أن اقول ٠٠ الظلماء ٠٠ لان نور القمر البهي الجمال ـ الذي تنوسي أمره في المتنزه كان لا يزال يتموج على الارض بشكل يفوق التصور ، كان في أعالي السماء ينير بهدوء رائق ٠ لقد كانت الموسيقى ومرح المهرجان والمظاهر البراقة لتلك المصابيح قد غطت عليه مدة ما ولكنه الان عاد بدرا بأبهته منتصرا بسكوته وأخذت المصابيح المتنافسة معه تخفت وتخبو أما هو فقد بقي مكانه كالمصير الابيض أو القدر الابيض ٠

لقد سكتب الابواق عن النفير وتنوسي أمرهـــا أما قلم البـــدر الشعاعي فقد ظل يكتب في سجلات السماء والارض لآرشيفات خالـــدة وبدا لي البدر وتلك الانجم كنماذج وشهود على الحيقة المهيمنة · وان تلك الشوارع المضاءة بالزيوت سادها سكوت مطبق وأخذ الناس يمرون بي عائدين الى دورهم هنـــا وهنـــاك بلا حـــديث ولا ضجيج ويتوارون بسرعـــة ·

انني أحب « فيليت » حبا جما وهي على هذه الشاكلة وأنا مزمـــمة على متابعة مغامرتي الى النهاية الناجحة والوصول الى فراشي في المهجـــع الكبير قبل أن تعود المدام بيك ولم يبق بيني وبين « فوسيت » ســـوى شارع واحد وما أن دخلته لاول مرة حتى سمعت صـــوت العربة يشـــق السكون العميق لذلك الحي ولاحظتها تتقدم بسرعة متناهية ، ووقـــع الحوافز يجلجل على الطريق الممهد وكان الشارع ضيقا وأنا ماضية في سيري على الرصيف الممهد ومرت العربة بي ·

وماذا وجدت أو أتخيل أنني وجدت وهي تمر بسرعة على مقربـــة مني ؟ من المؤكد أنني شاهدت يدا تلوح لي بمنديلها فهل ذلك التلويح كان موجها لي ؟ ومن ذا يعرفني هنا ؟ · لا يمكن أن تكون العربة عربة المسيو دي باسومبيير ولا عربة المستر بريتون ، وفندق كريسي والبيت الريفي (الشرفة) ليسا في هذه الناحية ووجدت ألا وقت متـــاح لي للحزر والحدس لأن علي أن أسرع للوصول الى البيت ·

وبعد وصولي الى شارع فوسيت ثم المدرسة الداخلية وجـــدت كل شيء ساكنا وهادئا ولم تصل العربة الصغيرة مقلة المدام بيك وطفلتهـــا ديزيريه وكنه قد تركت الباب الكبير مفتوحا فتحا جزئيا فهل سأجـــده كذلك ؟ ربما أن الريح أو حادثة ما خلخلت الرتاج الزنبركي عن مكانه قليلا وفي مثل هذه الحالة يصبح القنـــوط من شيء تسليما واعترافـــا بصحته وربما ستسفر مغامرتي عن كارثة فقد دفعت دفعا خفيفا مصراع الباب فهل سأسلم من النتيجة ؟

نعم دخلت على رؤوس أصابعي دون أن أحدث صـــوتا كما لو أن عفريتا سمحا ينتظر في داخل المجـــاز ليفتح عنـــدما يقـــال له « افتح يا سمسم ! » ودخلت بانفاس محبوسة ومكبوتة وصعدت حافية الى بيت السلم قاصدة المهجع ووصلت مضجعي · نعم ·· وصلته وتنفست الصعداء وفي اللحظة الاخرى كدت أصرخ ولكن شكرا للسماء لم يحدث شيء من هذا القبيل وفي تلك الساعة كان صمت كصمت القبور سائدا في المهجع

في الدار كلها فالكل نائمات ، وسكون كهذا يعني أن لا أحـــد يحلم من مجموع ١٩ سريرا طويلا للاحراك ولا نأمة وفي الفراش العشرين لا أجد من ينام فيه فقد تركته خاويا فما الذي هو موجود ـ اذن ـ بين الستائر نصف المسحوبة ؟

ما هو ذلك الشبح الغريب المظلم الطويل القامة المتسلل المستلقي على ظهره ؟ هل هو لص تسلل من باب الشارع المفتوحة وهو يكمن هناك متربصا ؟ • انه يبدو شديد السواد وبدا لي أنه ليس بانسان • هـــل يكون كلبا ودخل في الشارع منسلا خلسـة واستقر هنـا ؟ هل سينهض وينقض علي لو دنوت منه ؟ علي أن أدنو باي حال من الاحوال وتشجعت فخطوت خطوة الى أمام • وأصبت بدوار بعد أن وجدت في ضوء المصباح الخافت الشبح القديم ممددا على فراشي • شبح الراهبة •

وفكرت وأنا خائفـــة لو أنني صرخت لكان ذلك وبالا علي وليكن الشبح من يكون فليس من الصواب أن أصاب بالذعر أو أن أصرخ أو أن يغمى علي • وعلاوة على ذلك شعرت بأني لست مغلوبة على أمري فبعـد أن اعتدت على مثل هذه الاشياء أصبحت أعصـــابي لا تريد أن تصـاب بالهستريا • لقد كانت دمائي ســـاخنة من الانوار ونغمـات الموسيقى والالوف المؤلفة من الناس المتزاحمين في المهرجـــان وكنت كمن أصيبت بسوط كارثة جديدة فتحديت الشبح •

وبلحظة وبدون صراخ هجمت على الفراش المسحور فلم يثب بوجهي أحد أو يندفع أو يثور وكانت الحركة كلها لي وكذلك الحياة والواقـع والجوهر والقوة كما شعرت غريزتي • لقد مزقتها تمزيقا •• مزقت تلك الروح الشـريرة !• ورفعت الى أعلى تلك العفريتـة !• وهززت بيدي جسم تلك الفاجرة •• اللغـز !• فسقطت عـلى الارض ورحت أدوس عليها بقدمي • واخذت أنظر هنا أيضا الى الاشجـار الصاويـة غصونها الممنوحة أوراقها والى حصان دون كيشوت الاعجف « روزينانت » والى طبقة الغيوم الخفيفة ورفيف أنوار القمر فقد ظهر أن الراهبـة الطويلة القامة لم تكن سوى حشية طويلة ألبست ثوبا طويلا فضفاضـا يلفها بشكل فني حجاب أبيض وفي الحقيقة أن ملابسهـا ـ على غرابة ما كاد يبدو منها ـ كانت ملابس راهبة حقيقية رتبتها أيد لتثير بهـا الاوهام فمن أين جاءت تلك الثياب الرهبنية ؟ ومن ذا الـذي دبر تلك الحيلة وذلك المكر والخداع يا ترى ؟ •

هذه الاسئلة لا تزال باقية ففي ضمادة الرأس ألصقت قصاصة من ورق كتب عليها بالقلم الرصاص ما يلي من الكلمات الساخرة « راهبة العلية تعطي للوسي سناو رداءها ولن يراها أحد في شارع فوسيت بعد الان » ويا ترى من هو الذي فعل ذلك ولماذا ؟ لقد شاهدتها ثلاث مرات وليس لامرأة من معارفي هيكل هذا الشبح ولم يكن طولها مضارعا لطول أنثى ولا يمكن أن أعزو هذه الدسيسة الى أي رجل أعرفه البتة ولو للحظة واحدة ٠

وكنت لا أزال مرتبكة وحيرى بشكل لا يمكن وصفه ولكنني مع ذلك استطعت في الحال ـ وبصورة سليمة ـ أن أريح نفسي من كل ما كان قد أشغلني من أمر هذا الشبح ورحت أسخر من نفسي كيف أنني أشغلت ذهني بتوافه كهذه وان كانت لها ميزة الاحجية التي لا يتسنى حلها ٠

وشرعت في حزم أجزاء الحشية والحجاب والضمادات وأخبأتها تحت وسادتي ثم تمددت على فراشي وأصخت السمع حتى سمعت صوت دواليب عربة المدام بيك الصغيرة وهي تعود الى البيت ، ولما كنت مجهدة وتعبة للغاية مما شاهدته في ليلة المهرجان وقبلها من مزعجات الليالي الاخرى المسهدة استطعت بواسطة مادة مخدرة فقط أن أنام نوما عميقا ٠

الفصـــــل الاربعـــون

ـ الزوجـــان السعيـــدان ـ

ظهر ان اليوم الذي أعقب الليـلة المشهودة لمنتصف الصيف لم يكن يوما اعتياديا ولا أعني أنه جاء بعلامات من السماء العليا أو بأعاجيب من الارض الدنيا ولا اعزوه الى ظواهر الارصاد الجـوية أو الطبيعيـة كالزوابع والفيضانات أو الرياح الدوامية فقد أشرقت الشمس مرحـة جذلة بوجهها التموزي وزخرف الصبح جمالها وأينقه باللون اليانزتي وملأ حضنها بالزهور التي سقطت منها بوابل القـطرات وحمر سيلهـا واستيقظت الساعات طلقة نشطة كالحواري وافرغت على التلال المبذرة قوارير نداها وانسكبت باهتة بلا بخار ، لاوزوردية اللون بهيـــة المنظر وقادت جياد الشمس في طريق حارق خال من الغيوم ٠

وبالايجاز كان يوما بديعا رائعا كأبدع يوم يتباهى به الصيف بيد انني أشك فيما اذا كنت القاطنة الوحيدة في شارع فوسيت التي اهتمت بهذه الحقيقة وبتدوين مثل هـذه الملاحظات عنها ، فهنـاك فكرة أخـرى شغلت رؤوسا أخرى ، فكرة لهـا حصة في تأملاتي وافكاري ٠ وبينمـــا كنت اتمشى في الحديقة شاعرة بأشعة الشمس وملاحظـــة نضارة الغرس والزرع أخذت أفكر مليا بنفس الموضوع الذي شغل المدرسة كلها وأي موضوع ؟! الموضوع التالي فقط ٠

عند تلاوة صلوات الصبح وجدت مكانا خاليا في الصف الاول من أعضاء المدرسة الداخلية وعند وقت تناول الفطور لاحظت وجود فنجان من القهوة لا وجود لصاحبه وعندما كانت الخادمة تهيىء الافرشة وجدت فنجانا آخر ووسادة موضوعة على شكل طولاني مغطـــاة بثوب نســائي يرتدى في الليل وعندما جاءت مدرســـة الموسيقى التي تدرس جنيفـرا فانشاوي مبكرة في الصباح لتعطيها الدرس الصباحي لم تجد تلميذتهـا في البيت ٠

واستمر البحث في كل مكان عنها ولم تبق زاوية من زوايا الدور دون تفتيش ولم يعثر حتى على قصاصة ورق تبين حقيقة غيابها فقد توارت الحورية وغمرتها الليلة الماضية واختفت كما يختفي النيزك في الليلة الظلماء • وارتعبت المراقبات وكان رعب المديرة المهملة أعمق ولم يسبق لي أن شاهدت المدام بيك بذلك الاصفرار وذلك الرعب المرتسمين على وجهها اذ اعتبرت ذلك ضربة عليها لسوء حذرها وهو أضعف جانب فيها وكذلك على مصلحتها اذ لابد أن تسأل كيف حدث ذلك ؟ ومن أي منفذ خرجت ؟

لم نجد نافذة بابية غير موصدة ولم نجد أي زجاج مكسور وكل الابواب موصدة ايصادا محكما اثارت ارتياح المدام بيك جدا من هذه الناحية وتذكرت مرور العربة التي كانت نقل شخصين وتلك التلويحة المحيرة من المنديل الذي لم الحظ من كان يحمله ويلوح به الي • ومن هذه المقدمة المنطقية ومن مقدمة أو مقدمتين أخريين لا يمكن أن ينفذ اليها سواي استطعت التوصل الى دلالة واحدة او استنتاج واحد هو الهروب مع عشيق أو الزواج من غير رضى الاهل •

وأخيرا أخبرت المدام بيك بظنوني هذه وعزوت الامر الى خطوبة المسيو دي هامال للانسة جنيفرا فانشاوي وصح ما توقعته وهو اتصال المدام بيك ــ بعد عرفانها الموضوع ــ بالسيدة كولمونديلي التي كانت قد بعثت منذ مدة طويلة هذا الامر معها محملة اياها المسؤولية كما اتصلت بالمسيو دي باسومبيير أيضا •

ووجدنا ان فندق كريسي يعج بالحركة لما قد حصل وظهر أن جنيفرا قد كتبت رسالة لابنة عمها بولينا تخبرها بنيتها الزواج من المسيو دي هامال بشكل غامض ووصلت أخبار من عائلة دي هامال هذا وكان المسيو دي باسومبيير يتابع أثر الهاربين وأخيرا فاجأهما ولكن بعد فوات الاوان • وخلال يوم من أيام الاسبوع جاءني البريد بالملاحظة التالية التي تحتوي على تفسير وتوضيح لاكثر من نقطة واحدة من الموضوع :

عزيزتي القديمة تيم (اختصارا لتيمون)

انني الان طليقة ومنطلقة كطلقة • أنا والفريد انتوينا الزواج منذ الاول على هذه الشاكلة ولا نريد الزواج بالطريقة الروتينية المعروفة لدى الناس الاخرين والفريد راغب أشد الرغبة في ذلك وأنا كذلك •• حمدا لله • هل تعرفين الفريد الذي اعتاد أن يلقبك « بالتنين »

انه بعد أن شاهد منك الكثير خلال الاشهر القـــلائل الماضية أخذ يشعر بانه صديق خالص لك ويامل ألا تبعدي عنا بعد الان ويروم الاعتذار لك عن أي ازعاج ربما سببه لك ويخشى أن يكون قد سبب لك انزعاجـا عندما داهمك في العلية وانت تقرئين رسالة يبدو أنها كانت ذات اهمية خاصة لك ، الا أنه لم يكن له بد من أن يفاجئك ولكنك فوجئت بذلك مفاجاة مدهشة وأنت منشغلة بالرسالة ٠

ومقابل ذلك يقول أنك حبا بالانتقـــام منه اخفتيه وأفزعتيـــه باندفاعك لاخذ شال او رداء أو اي غطاء آخر عندما فتح نارا مضيئـة لاشعال سيجارة وهو ينتظرني ٠ هل كنت في ذلك الوقت تتصورين ان المسيو لي كومت دي هامال هو الراهبة التي شاهدتيها في العلية ؟ لقـد كان وجوده من أجل أن يقابل خادمتك المطيعة جنيفرا ٠٠

وسأخبرك كيف حدث ذلك ٠٠ تعرفين أن له الحق في الدخـول الى المدرسة الثانوية التي فيها اثنان أو ثلاثة من أولاد أخته الكبرى المـدام دي ميلكي وتعرفين أن ساحة المدرسة تقع في الجانب الاخر من الحـائط العالي الواقع على حدود الممر الممنوع ٠

وأن الفريد يستطيع أن يتسلق مثلما يستطيع أن يرقص أو يبارز بالسيف وكانت متعته في أن يتسلق حيطـــان مدرستنا الداخليـة بأن يتسلق في أول الامر الحائط ثم بمساعدة الشجرة العاليـــة المفروشة أغصانها فوق العريشة الكبرى والمرمية بعض أغصانها على سقف البنايات الواطئة للاراضي التابعة لمدرستنا حاول أن يتسلق بنـاية الصف الاول والصالون الاكبر ٠

وفي احدى الليالي وقع من على الشجرة الانفة الذكر وكسر بعض غصونها وكادت تدق عنقه وبعد ذلك استحوذ عليـــه فزع فظيع وهـو يركض وكاد أن يمسك به شخصان هما المدام بيك والمسيو بول عمانوئيل وظل يسير في المشى ومن الصالون الكبير ليس الصعود والتسلق صعبـا باتجاه أعلى قالب بنـــائي ينتهي في العليـــة أي الحجرة الواقعـة تحت السقف الاعـلى ٠

وانت تعرفين أن الكوة تترك نصف مفتوحة ليل نهار لدخول الهواء وبواسطة هذه الكوة استطاع الدخول وقبل عام واحـــد تقريبا سنحت فرصة أمامي لاحدثه عن أسطورة الراهبة التي حدث به الى أن يتزيا بزيها كفكرة رومانتيكية وأفلح في التزيي بزي هذا الشبح بنباهة وذكاء تامين أما اتخاذه زي الراهبة الاسود والابيض فقد كاد يقع في الفخ مرة بعـد

مرة ، مرة كاد يقع بيديك والمرة الاخرى بيـــد ذلك النمر الجزويتي المسيو بول ويعتبركما أنت وهو جريئين جدا ٠

والذي أثار عجبي ودهشتي هو احتفـــاظك بهذا السـر أكثر من كونك اتصفت بالشجاعة بعد كل زيارات ذلك الشبـح دون أن تصرخي ودون أن تخبري أحدا وتثيري الدار كله وما يجاوره ثم ماذا كان رايت في الراهبة التي نامت في فراشك ؟ لقد ألبستها أردية الراهبـة الم يكن تلبيسي حاذقا الم تزعقي وتصرخي عنـدما شاهدتيها ؟ لو كنت مكانك لجننت من الخوف أما انت فأية اعصـاب لك ؟ هل هي من حديد حقيقي ملفوف بجـلد ؟

أعتقـــد أنك لا تشعرين بأي شيء فليست لديك نفس الحساسية التي أملكها انا ويبدو أنك باردة التحسس بالالم أو بالخوف او بالحزن ٠ انك كذلك الفيلسوف اليوناني القديم ديوجينس ٠ حسنـــا يا جدتي العزيزة هل أنت غاضبة جدا من هروبي في الليـلة المقمرة كما لو أنني في مسابقة ركض ؟ أطمنك بأن ذلك لم يكن الا مزاحا وتفكهـة رائعـه وفعلت ذلك نكاية بتلك الفتاة الوقحة بولينا وذلك الدب الدكتور جـون لاريهما أنني أستطيع رغم كل استعلائهما أن أتزوج كما تزوجا ٠

لقد كان المسيو دي باسومبيير غاضبـــا على الفريد في أول الامـر بشكل غريب وهدد باقامة دعوى اختطاف فتاة قاصرة بشكل جدي ممـا ألجاني مضطرة الى أن أقوم بدور تمثيلي عاطفي فركضت أمامه وبكيت بصوت عال وبللت ثلاثة مناديل جيبية متضـــرعة أمامـــه وأنا أنادى « يا عمي ! » حتى تخاذل ولانت عواطفه وما فائدة احداث الضجـة في الزواج ٠٠ لقد تزوجت الان وانتهى كل شيء ولا يزالون يقـولون ان زواجنا ميس شرعيا لانني لست في العمر الحقيقي للزواج كما لو أن هذا امر خطير ٠

وعلى كل فاننا سنتزوج ثانية وسيكون لي جهاز عرس وستشرف السيدة كولموندیلي على سيره وهناك بعض الامال في أن يعطينا عمي المسيو دي باسيومبيير هبة أو دوطة محترمة تكون مريحة جدا لنا لان الفريد ليس له شيء سوى لقب النبل والوراثة والاصالة وكل ما أريده هو أن أرى عمي يقوم بذلك دون قيد أو شرط بنفسية سخية جنتلمانية ٠

انه في نفسية غير راضية بحيث جعل المهر أو الدوطة رهنا بوجوب تقديم الفريد وعدا خطيا تحريريا بانه ينقطع عن لعب النرد أو لعب الورق

منذ اليوم الذي يسلم المبلغ الينا • انهم يتهمون ملاكي بأنه مقامر وأنا لا أعرف أي شيء عن هذا الامر بيد أنني أعرف بأنه مخلوق عزيز ومعبودي ويعجز اطرائي وتمجيدي للعبقرية التي نظم بها دي هامال هروبنا وما أذكاه حين اصطفى ليلة المهرجان لذلك لان المدام التي يعرف طباعها ستكون غائبة في وجه التأكيد بذهابها الى الحفلة الموسيقية المقامة في المتنزه ••

وكنت أفكر أنك ذهبت معها لانني وجدتك تنهضين وتتركين المهجع في الساعة الحادية عشرة ولا استطيع أن اتصور كيف عدت وحيدة على قدميك فقد شاهدناك حقا في شارع القديسة جين القديم •• ألم تشاهديني وأنا الوح لك بمنديلي من نافذة العربة ؟• وداعا وافرحي من أجل حظي السعيد وهنئيني لسعادتي الكبرى وصدقيني فيما أقوله يا عزيزتي الساهرة المتهكمة المبغضة للبشر وأدعو لك الصحة التامة والنفسية الوادعة والبهجة والحيوية •

المخلصة لك جنيفرا لورا دي هامال
فانشاوي سابقا

ملاحظة : تذكري انني الان كونتيسة وسيسر أبي وأمي والبنات في الدار أن يسمعوا ذلك وستكون ابنتي كونتيسة واختي كذلك • مرحى هذا افضل مما لو أخذت لقب السيدة جون بريتون •

ان القارىء لابد ان يتوقع ـ بعد انتهاء مذكرات السيدة فانشاوي ـ سماع كونها كفرت تكفيرا مريرا في اخر الامر عن طيش شبابها وبالطبع فأن قسما كبيرا من معاناتها يكمن في تحفظها لمستقبلها والكلمات القلائل التالية ستجد المزيد من معرفتي بها • لقد وجدتها عند نهاية شهر العسل عندما زارت المدام بيك وبعثت في طلبي عندما كانت في الصالون وكيف أنها اندفعت نحوي لتحضنني وهي تضحك وبدت جميلة وزاهية جدا فقد كانت عقائص شعرها أطول وخداها أكثر احمرارا من السابق وغطاؤها الرأسي ونقابها وأورادها البرتقالية وملابس عرسها أروع بكثير عن ذي قبل •

وصاحت جنيفرا في الحال : لقد حصلت على دوطتي •• وكنت دائما أحس أن في كيانها عنصرا تجاريا رغم استخفافها بالبورجوازية

والبرجوازيين وقد صالحت عمها دي باسومبيير تماما ·· مع العلم انــه كان يسمى الفريد ·· بالمغفل ·· فتلك هي طريقته الاسكتلاندية ·· وقالت لي : انني اعتقد أن بولينا تحسدني ، والدكتور جون يقتله الحسد ويكاد دماغه يتمزق وأنا سعيدة جدا وأدري أن لا شيء يعوزني قط ·· الا اذا كانت عربة أو فندقا ، والان ساقدمك الى زوجي الفريد ·· فتعالي !

وظهر الفريد من الصالون الداخلي حيث كان يكلم المدام بيك ويتلقى تهانيها وتقريعاتها المازحة ·· وقدمت له بأسماء ثلاثة ·· تيمون ·· التنين ·· ديوجينوس ·· وكان الكولونيل الشاب مؤدبا جدا واعتذر لي بكل لطف وكياسة ·· عن زيارات الشبح ، وما الى ذلك منهيا كلامه وهو يومىء الى عروسه ·· افضل الاعتذار لكل ما ارتكبته من خطايا ··

ثم أرسلته العروس الى المدام بيك وجرتني قريبة منها وشرعــت تخنقني بترهاتها وسخافاتها ومزاجها السائب غير المتحفظ ونزقها وطيشها ·· وابرزت لي خلقتها بافتخار وزهو وأسمت نفسها مدام لاكونتيس دي هامال وطلبت مني رأيي فيما قالته قرابة عشر مرات ·· وتكلمت القليل كما هي عادتي ، وكما توحي لي طبيعتي ·· ولم تتوقع مني شيئا أفضل وهي أدرى الناس بأنني مقلة في مدح الناس ·· وسرها استهزائي الجاف بها وكلما كانت سحنتي كذلك كانت تكثر من الضحك المرح ·

وأقنع دي هامال بعد زواجه مباشرة بوجوب تخليه عن سلك الجيش لتخليصه من اتصالات وعادات لا جدوى منها ولا ربح فيها وأوجد لــه منصب ملحق ثقافي في سفارة ·· وسافر هو وزوجته الى الخارج وظلــت تراسلني أعواما عديدة ، وخلال عام أو عامين اقتصرت مراسلاتها عــلى شؤونها الخاصة ، وعلى الفريد فقط ، ثم كفت عن ذكر زوجها وركزت بدلا منه على وليدها الفريد فانشاوي دي باسومبيير دي هامال مبتهجة كل التبجح بخصيته ومزاياه ممزوجة بالتذمر من زواجها ومن كونها اصبحت أما ، ثم جاءت الرسائل ملأى بالشكوى من الفريد الاول ، أي زوجها ، وأخذ المسيو دي باسومبيير يطالبهم بديونه ·· وأصبحت حياتها محفوفــة بالصعوبات ، وحالها مدعاة للشفقة ·· وبعد أن حصلت على وصيتها أخذت تكافح في معركة الحياة بالتوكيل والتفويض ·· وعلى العموم كانت تعاني ولكن معاناتها كانت أقل من معاناة سواها ممن عرفتهم في حياتي ··

الفصــــل الواحــد والاربعـــون

ـ منــزل في حــي « فــوبــورغ » ـ

هل يتوجب علي قبل أن أنتهي أن أقــدم كشفــا عن تلك الحرية وذلك التجديد اللذين حصلت عليهما في ليلة المهرجان ؟ وهل علي أن أبين كيف أن هذين الرفيقين القويين « التجديد والحرية » اللذين جئت بهمــا معي من المتنزه النير كانا يتحملان عبء تجربة أحــد معارفي الصميمين ؟

لقد جربتهما في اليوم التالي بالذات وتفاخرا بقوتهما صراحــة وعلانية عندما نبهاني عن الحب وقيــوده ولكن بموجب حقائقي وليس كلماتي وبموجب بعض شواهــد الارتياح الافضــل أو العزاء الافضــل وبعض تجارب الحياة المريحة اعتذرت الحرية وأعلنت أنهــا في الوقت الحاضر عاجزة عن تقديم العون لي أما التجديد فلم يتكلم قط لانه مــات فجأة في الليل ٠

ولم يبق لي شيء أفعله سوى أن أثق بأن الحدس قد أسرع بي كثيرا واشتط بي كثيرا جدا ولم يدعني أخفف من عبء الساعة الجــائرة عن طريق من يذكرني بسحر الحسد المشوه للسحنة ٠ وبعــد نزاع قصير عابث وجدت نفسي مرة أخرى أسيرة الحيرة وفي خضم القـــلق ومكبلة الايدي وفي حالة عنت مجهد ٠

وسألت نفسي ٠٠ ترى ٠٠ هل يقدر لي أن أراه قبل أن يســافر ؟ هل أخطر أنا بباله ؟ هل ينوي العــــودة ؟ هل يأتي به هذا اليوم الي ؟ أو هذه الساعة ؟ هل علي أن أتفحص هذا الالم المقيم الطويل الامــد ؟ وهذا العذاب العنيف في آخر الامر وهذا الملوى الذي بليه ونزعه الامــل والشك من أساسيهما يهز الحياة هزا ثم أن اليــــد التي تضــرب بعنف لا يمكن أن تربت بلطف لان الغياب يعترض حاجزها وحدودها ٠

لقد كان ذلك اليوم في نظري عيد الافتراض ولم تكن الساعة ساعة

الدراسة فطالبات المدرسة الداخلية ومعلموها ومعلماتها بعد حضورهم مدارس الصباح خرجوا في نزهة طويلة في الريف لتناول وجبة خفيفة من الطعام أو وجبة ما بعد الظهيرة في مزرعة من المزارع ولم أذهب معهم اذ لم يبق على ابحار المسيو بول سوى يومين وكنت في حالة التشبث بآخر فرصة تبقت لدي مثلما يتشبث المشرف على الغرق بعد تحطم الباخرة بآخر طوف أو رمث.

كانت لي بعض اعمال النجارة لأنجزها في الصف الاول وبعض أعمال التصليح أجريها على بعض الرحلات والمقاعد الطويلة فالعطل ساعدت على انجاز مثل هذه العمليات التي لا يمكن انجازها عندما تكون الصفوف ملأى بالطالبات وجلست وحيدة معولة على أن أتحول فيما بعد الى الحديقة وأترك المكان آمنا ولكن عندما شعرت بفتور همتي في أن أنجز هذه الاعمال سمعت صوت العمال قادمين .

ان الفنانين والخدم الاجانب يصنعون وينجزون كل شيء أزواجا وفي رأيي أن نجارين اثنين من مواطني لاباسيكورين قادران على خلع مسمار وفي الوقت الذي كنت أشد غطاء رأسي الذي علق باشرطته بحركة من يدي خرجت لارى خطوة أي عامل تلك التي سمعتها قادمة ولاحظت أن ذلك الرجل كان يرتدي حذائين بدلا من قبقابين وقلت ربما كان هذا رئيس النجارين جاء ليفتش قبل أن يرسل عماله ولففت وشاحي وهو يتقدم نحوي ثم فتح الباب وكان ظهري موجها اليه وشعرت برعشة خفيفة واحساس خفيف أسرع زوالا من أن يحللا .

والتفت فوقفت لانظر الى المدخل فوجدته مليئا بشخص طبعت عيناي في دماغي أنه المسيو بول وكان يرتدي الملابس التي أعدها ليسافر بها .. معطف رجالي ضيق محفوظة حافته بحاشية قرنفلية زينية وظننت أنه مسافر توا مع علمي بأن باخرته لن تمخر قبل مرور يومين آخرين وبدا مرحا ولطيفا وكان كله صداقة وتفاهما ودخل وبداخله الشوق وربما كانت عروسه جوستين هي التي نورته على هذه الشاكلة .

ومهما كان سبب فرحه فليس علي أن ألقي شروق شمعة بغيمة واذا كانت هذه آخر لحظتي معه فلا ينبغي أن أبددها ببرود مني فضلا عن أنني لا أزال أحبه حبا لا يجوز أن أفسده حتى بالغيرة ذاتها وكل

كلمة تند عن شفتيه أو نظرة وديعة لطيفة من عينيه تفيدني وتريحني طيلة حياتي لانها ستكون عزاء لي في آخر طريق لوحدتي وساقبلها واتذوق أكسيرها ولا يجوز لي أن أفسد قدحها بكبريائي .

وطبعا ستكون المقابلة قصيرة وسيقول لي ما قاله لكل من التلميذات المجتمعات وسيأخذ يدي مدى دقيقتين ويلمس خدي بشفتيه لاول مرة وآخرها ولن يبقى بعد ذلك شيء بيني وبينه لأن الوداع سيكون حاسما والانفصال نهائيا وتتسع الفجوة بيننا بحيث لا أقوى على قطعها والذهاب اليه وفعلا أخذ يدي باحدى يديه وبالاخرى سوى غطاء رأسي وعدله وحدق في وجهي .

وتوارت ابتسامته النيرة وشفتاه عبرتا عن لغة بلا كلام تشبه لغة الأم التي تجد وليدها متغيرا كل التغيير بدون أن تتوقع ذلك كحمى داهمته أو كحاجة أزرت به . واذا بتقريع يوجه اليه دون أن يتوقعه وبامرأة تقول له بلهجة سريعة « بول .. بول .. بول .. تعالى الى الصالون فلدي أشياء كثيرة هامة أريد أن أسرها اليك . لدي حديث معك بطول النهار كله وكذلك يريدك فكتور وجوزيف لنفس الغرض .. تعالى يا بول .. تعالى الينا ! » .

لقد جاءت المدام بيك الى المكان بفعل الحذر والاحتراس أو بغريزة غامضة وأصبحت قريبة بحيث زجت بنفسها زجا بيني وبين المسيو بول وهي تردد الكلمات التالية ... « تعالى يا بول .. تعالى يا بول .. » وعيناها تحدجاني شزرا واندفعت نحو نسيبها وظننت انه تقهقر وتراجع أمامها وانه سيخرج ولم أعد اتحمل أكثر وصرخت بما يتحدى الكبح قائلة « فؤادي سيتمزق » .

والذي شعرت به آنذاك كان كانسحاق القلب ولكن همسة من المسيو بول أزالت كل عنت لازمني حيث قال لي هامسا « ثقي بي » وكأنما انزاح عن صدري عبء ثقيل وفتح لي متنفسا سرى عني وبغصص عديدة وارتجاف ثلجي وبارتعاش قوي يشوبها الارتياح رحت أبكي وقالت المدام بيك للمسيو بول « دعها لي .. انها مجرد أزمة نفسية وساقابلها بالود وتزال » .

وبدا لي أن تركي لها ولودها يشبه ترك شخص أمام المسمم وكاس سمه وعندما أجابها المسيو بول بعمق وفظاظة واجتراء « اتركيني .. اتركيني » شعرت كما لو أن موسيقى غريبة منعشة للروح تعطيني

الحياة وكرر كلمة « اتركيني » بمنخرين مفتوحين من الغضب وبعضلات وجه مرتجفة وهو يردد هذه الكلمة وقالت المدام له بعنف « ولكن هذا لن يجدي نفعا » وفي هذه المرة فح في وجهها فحا قائلا لها « اخرجي ! » . وهددته الان بالاب سيلاس وبانها ستستدعيه الى هذا المكان ، هددته باصرار والحاح وكان جوابه الان صيحات أعلى وأكثر هياجا « أيتها المرأة أخرجي من هنا في الحال ! » وكان في أعلى درجات الثوران وأحببته في حنقه وغيظه الشديد ذاك أحببته بكل عواطفي وجوارحي في تلك اللحظة وقالت له المدام « ان الذي تفعله هو خطأ يختص به رجال لا يوثق بهم ولا يؤتمنون وذوو أمزجة خيالية لا يركن اليها وخطوتك هذه هي خطوة متهورة وطائشة ومتقلبة واجراء يثير الاغاظة وعديمة الاحترام في رأي أشخاص أكثر رسوخا وثباتا وأكثر عزما وتصميما » .

وقال لها بلهجة أهدأ « أنت تجهلين ما في من خصائص الرسوخ والعزم والتصميم ولكنك سترين .. وهذه الحادثة ستعلمك كيف تكونين متواضعة وغير مغرورة بذاتك فكوني لطيفة وكوني امرأة .. أنظري الى هذا الوجه الوادع المسكين أنت تعرفين أنني صديقك وصديق أصدقائك وبالرغم من كبريائك وتعاليك تعرفين جيدا أنني أهل للثقة وللتضحية بنفسي ولكن قلبي موجع بما أشاهده الان وينبغي أن أعزى وأن أعزي سواي فاتركيني يا هذه ! » .

وحملت عبارة « اتركيني يا هذه ! » في هذه المرة من معاني المرارة وصيغة الامر الالزامي ما جعل من الصعب حتى على المدام بيك نفسها ألا تخضع وتمتثل الا أنها مع كل ذلك وقفت وقفة ثابتة ونظرت اليه دونما رهبة أو فزع فالتفت بعين ناهية صارمة وثابتة كالحجارة وكانت تهم بفتح شفتيها لترد عليه ردا سريعا حاسما .

غير أنني وجدت في وجه بول نورا ونارا سريعة الثوران ومن الصعب علي أن أصف حركته ففي الظاهر لم تكن عنيفة . وانما أبقت شكلا تأدبيا ومد يدا آمرة اليها فكادت تلمسها وعلى ما ظننت فرت وانطلقت مسرعة من الغرفة وكان الباب مغلقا بثانية واحدة وتبدد من وجهه الان انفجار الغضب وبسرعة متناهية طلب مني مبتسما أن أمسح دموعي وانتظر عودة الهدوء الى وجهي ، وبين الفينة والفينة كانت تند من شفتيه كلمة من كلمات تطمين الخاطر وتلطيفه .

وسرعان ما وجدت نفسي جالسة بجانبه مرة أخرى بعد أن عادت الطمأنينة الى روحي وانقشع عني القنوط وتوارت كآبتي وانبعث في

قرارة قلبي الامل والشعور بالصداقة وما عـدت أشعر بأنني مريضة وبأنني أفضل الموت على الحياة وبادرني الكلام قائلا « اذن كنت حزينة جدا لفقدان صديقك ؟ » وقلت له « أيها السيد ٠٠ قتلني التفكير بأنني متنسية اذ لم أسمع منك في كل تلك الايام المملة المرهقة كلمة واحدة وسحقني احتمال تطور الى تأكيد بأنك ستفارقني دون توديع » ٠

وقال لي « هل أعلمك الان بأنني قلت للمدام بيك أنك لا تعرفينني ؟ هل علي الان أن أبرز لك خصائصي وخلائقي ؟ حتى يكون ذلك برهانا على أنني صديق صدوق ؟ حسنا ٠٠ ان البرهان حاضر وجئت لابرر نفسي وأبرئها » وقلت له « قل ما شئت وأعلمني بما تشاء أيها السيد فانا مصغية اليك الان » وقال لي « اذن عليك قبل كل شيء أن تخرجي معي الى مسافة ما من المدينة فقد جئت لمشاهدتك ولهذا الغرض » ٠

وبدون أن أستفهم منه ما يعني بذمك أو أسبر خطته أو أبدي أية معارضة أعدت شد غطاء رأسي وكنت مستعدة للخروج معه وأخذني الى الجادة العريضة ٠٠ وهي الشارع المكتظ بالاشجار الذي دأبنا عدة مرات على الجلوس على مقاعده الكائنة تحت أشجار الليمون ولم يسألني ما اذا كنت تعبة انما رنا الي بناظريه وقال لي وهو يكرر كلماتي ويقلد بلطف ودماثة ورقة ـ صوتي ونبرتي الاجنبية وهو ما كان دائما يفعله أثناء تبادل الحديث بيننا يمازجه مزاح غير مؤذ ودعابة لا تجرح ٠

قال لي بطريقته هذه مكررا كلماتي « في كل تلك الايام المملة المرهقة لم آنسك حتى ساعة واحدة والنسوة المخلصات يخطئن حين يفكرن بأنهن المخلصات الوحيدات من بين المخلوقات وسرت لطافة ورقة على كل أرجاء محياه واستنارت عيناه البنفسجيتان من تحت أهدابهما الاسبانية وقال لي « لنعش الهوينا الآن » وسألته بجرأة ملحة لمقصد اعتبرته مهما جدا « هل يسؤوك النظر الي ؟ » وهنا توقف وأعطاني جوابا مقتضبا وقويا ، جوابا أسكتني وأخضعني وطمنني عميقا وبعد هذا عرفت ما أنا بالنسبة اليه وما ينبغي أن أكونه لبقية العالم ولم أعد أهتم أو أقلق وسألت نفسي أهي دلالة ضعف مني حين أحاول التأكد من رأيي حول المظهر ؟ أخشى أن يكون ذلك ضعفا مني ٠ ولكنني في هذه القضية ينبغي الا أكون كذلك وبدلا من ذلك ينبغي أن أثيل على نفسي أن أدخل السرور الى قلب المسيو بول برغبة قوية تنبعث من أعماقي ٠

ولا أدري بالضبط أين تنزهنا وأين هممنا على أوجهنا فمشيتنا كانت في الواقع طويلة وان بدت في الظاهر قصيرة والطريق كان مبهجا واليوم جميلا وتحدث المسيو بول عن سفرته المقبلة التي قال انها قد

تستغرق ثلاثة أعوام وعند رجوعه من غواد يلوب سيتطلع الى التخلص من مسؤولياته وينتهج طريقا واضحا وسألني عما أنوي فعله أثناء فترة غيابه وذكرني بأنني قلت له ذات يوم أنني سأدير مدرسة خاصة بي وسألني ماذا كنت قد تخليت عن تلك الفكرة فقلت له « كلا ·· لم أتخل عنها وسأبذل قصارى جهدي لاحتفظ بالذي يمكنني من أن أحقق تلك الفكرة » ·

وفهمت منه أنه لا يريد بقائي في شارع فوسيت مخافة أن أفتقده هناك كثيرا وأشعر بالوحشة والانفراد ويزداد حزني وهذا أمر مؤكد الا أنني وعدته بان أبذل قصارى جهدي لتحمل وطأة سفره وقال لي بصوت واطيء « ولا يزال عندي اعتراض آخر حول اقامتك الحالية فمثلا حين أكتب لك الرسائل في بعض الاحيان أخشى ألا تصل اليك بسلام فهناك في بعض الظروف من يسعى من جماعتنا الى التلاعب بها وربما الى عدم توصيلها ·

وقال لي « اذا كتبت الي رسائل فينبغي أن أحظى بها ولابد لي من ذلك فهناك عشرة مدراء وعشرين مديرة ولن يستطيعوا حجبها عني ولن أتحمل مثل هذا النوع من الانضباط أو القاعدة أيها السيد ·· ولن أتحمل ذلك أبدا ·· » وأجابني « مهلا سنرسم خطة لذلك فلدينا وسائلنا ثم توقف عن الكلام وكنا في ذلك الوقت عائدين من مشيتنا الطويلة فوصلنا وسط الضاحية النظيفة حيث البيوت صغيرة وان كانت جميلة كما يظهر ثم توقف المسيو بول أمام عتبة باب بيضاء لدار نظيفة وأنيقة ·

وقال لي « سأدخل هنا ولم يطرق على الباب انما أخرج من جيبه مفتاحا وفتح الباب ودخل في الحال واستدعاني للدخول ثم أغلق الباب وراءنا ولم يكن في الدار خادم وكان مجازه صغيرا والدار صغيرة أيضا وان كانت مصبوغة حديثا وفق الذوق السليم وتغلق منظر مجازه المشجر نافذة فرنسية وكرمات عنب منظمة عند الالواح الزجاجية القريبة من النوافذ والنبات المعترش ، والاوارق الخضر تقبل الحشيش وكان السكوت مخيما في ذلك الدار ·

وفتح المسيو بول بابا داخلية كشفت عن ردهة وصالون أنيقين جدا ووجدتهما رائعين جدا أيضا فحيطانهما الجميلة ملونة باللون الاحمر وأرضيتهما مصقولة تغطي وسطها قطع من السجاد وتلتمع المنضدة المدورة الصغيرة كالمرآة فوق المقعد وهناك سرير صغير وخزانة ضيقة

عالية ذات أدراج وهي نصف مفتوحة وحاجب شفاف من الحرير الاحمر وراء الخزفيات الصينية منضدة على الرفوف وساعـــة حائطية فرنسية ومصباح وقطع من الحلوى والبسكويت ٠

وهناك تجويفـة في شباك واسع ملآى بالمشـــاجب والمحـامل التي رصفت فوقها مزهريات فوق كل منها نبتة خضراء بديعة متوهجة الازهار وفي احدى الزوايا منضدة صغيرة ذات قائمة واحدة مرمرية الرأس وعليها صندوق أعمال وكانت شبكية الغرفة مفتوحة يتماوج من فتحتها الهواء الخارجي الذي يدخل معه أريج البنفسج وقلت « يا لجمال هذا المكان » وضحك المسيو بول عندما شاهدني مرتاحة ٠

وسألته همسا وأنا شبه خائفة من السكون العميق المخيم في الدار « هل نجلس وتنتظر هنا ؟ » وقال لي « هـــل نلقي نظرة الى زاويـــة أو زاويتين من هذه الدا رالصغيرة أولا ؟ » وقلت له « هل تريد أن تأخذ حريتك في التجوال بكل أرجاء الدار ؟ » أجابني « نعم أريـــد ذلك » وقادني الى الطريق وأراني مطبخا صغيرا فيه وجاق صغير وفرنا صغيرا وبعض القطع النحاسية وكرسيين ومنضدة وخزانة صغيرة تحوي طقمـــا من الآنيـــة الخزفية ٠

وقال المسيو بول « توجد في الصالون أدوات صنع القهوة » وعاينت في ضوء قوله هذا ستة صحون للعشاء خضراء وبيضاء وأربعة صحون في بيت السلم النظيف الضيق سمح لي بأن القي نظرة على غرفتين جميلتين للنوم ثم قادني الى تحت مرة أخرى ووقفنا حيال باب أكبر موصد وأخرج مفتاحا ثانيا وأدخله في قفل الباب وفتحه وسمح لي بالدخول قبله وقال لي انظري لنفسك ٠

ووجدت نفسي في شقة جيدة الحجم أنيقة ونظيفة وان كانت اقـل امتلاء بالاثاث والموجودات من ســواها ولم تكن مفروشـــة بالسجاد بل كان فيها صفان من الرحلات والمقاعد الطويلة باللون الاخضر وممشى في الوسط ينتهي بمنصة وكرسي التعليم ومنضدته ووراءها سبورة وعـلى الحيطان علقت خريطتان ومن الشبابيك تبدو بعض النباتات والاغراس وباختصار كانت الغرفة تحتوي على كل ما هو موجود في الصف ٠

وقلت له « اذن هذه مدرسة صغيرة فلمن هي ؟ لم أسمع قط بوجود مؤسسة في هذا الحي » فأجابني متسائلا « هل تتلطفين بقبـــول بضـــع نشرات تمهيدية كهذه لتوزيعها لمصلحة صديقة لي ؟ » وأخرج من جيب معطفه بعض الرزم من هذه الوثائق وسلمها لي فنظرت اليهـــا وقرأت

ما فيها مما طبع بحروف كبيرة « مدرسة خارجية للبنات ضاحية كلوتيلد المرقمة (٧) مديرة المدرسة الانسة لوسي سناو » وماذا قلت للمسيو بول عمانوئيل بعد ذلك ؟ قلت له « هل أنت الذي فعلت ذلك ؟ هل هذه دارك ؟ هل أنت الذي أثثتها ؟ هل أنت الذي طبع هذه النشرات التمهيدية ؟ هل تعنيني أنا بالذات ؟ هل أنا المديرة ؟ هل توجد لوسي سناو أخرى ؟ قل لي ٠٠ قل شيئا لأسمعه ! » ٠

ولأنه لم يتكلم غير أنني مع ذلك فهمت سبب سكوته السار ونظرته المطاطئة الضاحكة وموقفه ، فهمت ذلك كله الان وقلت له بصوت عال « أخبرني الحقيقة ٠٠ ينبغي أن أفهم كل شيء ٠٠ كل شيء !! » وسقطت رزمة الاوراق من يده على الارض ومد يده لالتقاطها وكنت أسرع منه لمساعدته وقال لي « آه ٠٠ أنت قلت أنني نسيتك كل تلك الايام المرهقة » ٠

وقدمت له التشكرات عن الاسابيع الثلاثة المجهدة التي عمل خلالها من صباغ دور الى منجد أثاث ومن مصمم غرف الى أعمال أخرى ولم يكن في فكره خلال تلك الاسابيع الا لوسي سناو ٠ ولم أدر بالضبط ماذا علي أن أفعل فأحيانا كنت مثلا أداعب طرف ردنه وقد أخذت فعلا بطيبة خلقه التي غمرني بها غمرا وان تطمينه اياي كان بمثابة نور يهبط الي من السماء وكانت نظرته الحنونة العطوفة المولعة هي التي هزتني بشكل لا يمكن تصوره وفي وسط كل ذلك أضطررت الى التطرق الى الاشياء العملية فسألته « ما موضوع ما سينشأ من القلاقل في طريق عملنا ومن التكاليف مثلا وهل لديك المال اللازم لذلك ؟ » ٠

وأجابني بفؤاد منشرح « عندي منه الكثير فقد جمعته من مجهوداتي التدريسية وهو مبلغ يعتد به وفكرت منذ زمن بوجوب جمعه منتظرا مثل هذه الساعة ليل نهار ولاسيما في الاونة الاخيرة ولكنني لم أجمع المال من أجل الجمع فقط فليس هذا من شأني ولا من طبعي والان جوابا لأسئلتك الاخيرة « ٠٠ أين كنت يا مسيو بول ؟ وماذا كنت تفعل ؟ وما دهاك وما سرك ؟ » وأراني أقول لك الان « ستعيشين هنا في مدرستك وتخدمين نفسك وتعنين بها وأنا بعيد عنك وستفكرين بي أحيانا وتهتمين بصحتك وسعادتك من أجلي وعندما أعود ٠٠ (وهنا توقف وترك فراغا) ٠

ووعدت أن أفعل كل ماطلبه مني قائلة له «ساكون المديرة المشرفة لكل ما هو ملكك وأخدمك بكل اخلاص وأثق بأنك ستعود الي ويكون الكشف

الحسابي جاهزا • أيها السيد !! أنت فاضل ومخلص جدا » وفي مثل هذه اللغة غير المسعفة ولا المناسبة ناضلت مع مشاعري واحاسيسي من أجل ان أعبر تعبيرا صحيحا فعجزت عن ذلك •

كانت مخاطبتي اياه مشوبة بالانفعال والضعف والانفلات وببرودة كبرودة الجليد منحنه في مجهودها أو يتخللها الارتعاش والاضطراب واخذ يتاملني في حالتي تلك رافعا يده ممسدا بها شعري بلطف وأمرها على شفتي امرارا اما أنا فقد تشبثت بها بكل احترام وتبجيل فقد أصبح مليكي ويده السخية ملكية ومفخمة وكان اجلالي واحترامي له مسرة لقلبي وواجبا من أسمى واجباتي •

وانتهت ساعات ما بعد الظهيرة وألقت ساعات المساء الأهدأ بظلالها على حي فوبورغ الساكن وضيفني المسيو بول وانشغل بضيافتي منذ الصباح واحتاج الى بعض المرطبات والمنعشات من الشراب وطلب مني ان أقدم له الشوكولاتة في انيته الصينية الذهبية الجميلة وخرج واوصى ما مست اليه الحاجة من المطعم ووضع المنضدة ومعها كرسيان في الشرفة الكائنة خارج النافذة الفرنسية وتحت الكروم المستورة المحجبة وقبلت ان أكون المضيفة بفرح مازجه الخجل فهيأت صينية الطعام والشراب وخدمت المضيف الكريم !! •

وهذه الشرفة كانت وراء الدار وأحاطت بنا حدائق حي فوبورغ والحقول المترامية أمام نواظرنا وكان الهواء عليلا هادئا ومن فوقنا ترنو أشجار الحور والغار والسرو والورد الى القمر الذي ما كان ابهاه وأروقه فقد كان القلب يختلج لابتسامته وأومضت نجمة بجانبه باشعتها التي لا ينافسها منافس في حبها النقي وفي حديقة كبيرة مجاورة كانت المياه تنبثق من النافورة التي كان يعلوها تمثال ماثل برأسه صوب انبجاسات مياهها •

وحادثني المسيو بول بصوت هو من اللطف بحيث يمازج ممازجة متناغمة مع الهمس الفضي وتدفق المياه واللهفة الموسيقية حيث يرتل النسيم العليل وينبوع المياه وأوراق النبتة الزينية صلاة المساء المهدهدة •• يا أيتها الساعة السعيدة تريثي لحظة وانشري مجموعة رياشك الزينية واوقفي جناحيك عن التصفيق وأميلي الى جبين السماء ويا أيها الملاك الابيض دع نورك يتباطأ ووجه انعكاساته الى الغيوم المتتالية وسلم

ابتهاجك وتهليلك الى ذلك الزمن الذي هو بحاجـــة الى التأمـلات والى استعادة الاحداث الماضية ·

وكانت وجبة طعامنا بسيطـة مكونة من شوكولاتة وقرص رغيف وصحن من ثمار الصيف الطازجة وكرز وثمار القطرب بأوراقها الخضراء وكانت جلسة مؤنسة فضلناها على كل الاكلات وسررت بلا وصف للخدمة التي كنت أسديها له وسألته ما اذا كان صديقاه الاب سيلاس والمـــدم بيك يعرفان بما قد فعل وما اذا كانا قد شاهدا داري هذه ·

فقال لي كلا يا صديقتي لا أحد يدري بالذي صنعته الاك أنت وأنا فهو موقوف ومخصص لكلينا دون أن يشاركنا فيه أحد أو يعكر صفــوه عنينا أحد وازدف مبتسما « زيدي على ذلك أنني أريد ان أبرهن للآنسة لوسي انني احفظ السر لانها كثيرا ما كانت توبخني بطريقة ساخرة على استــــاري للاحتراس والحذر الضروري وكم لمحت لي بأن كل شؤوني هي على غرار مــر ··· « بوليجينيلي » (شخصية مضحكة كان يتبجح بأنه يحتفظ الاسرار في حين أن أسراره يعرفها الجميع) · وكان هــــذا صحيحا تماما فانا لم أستثنه من ذلك ولا من أي شيء آخــــر يستوجب النقد أما الآن فان صاحب هذه الذهنية الرائعة والقلب الكبير والقامـة القصيرة المتصف بالعيـوب يستحق مني التقـدير والاخـلاص وسيكون تقديري واخلاصي له مطردا على الدوام ·

ومضيت في توجيه أسئلتي اليه فسألته لمن هذه الدار ومن هو صاحب الملك وكم يبلغ ايجاره وأعطاني تحريريا المواصفات والمفرادت كما يلي بعد أن هيأ كل الاشياء ·· لقد صدق حـدسي أن البيت لم يكن بيتـــه فمن الصعوبة بمكان أن يصبح المسيو بول مالك دار طالمـــا أنني أدري بتبذيره فهو يحصـــل على مـــال لا بأس به ولكنه اعتاد على انفـاقه فهـو بحاجة الى من يحافظ على ماله ولذلك فالمشتمل يعــود الى مواطن ثري في « بيسفيل » كما يقول عنه المسيو بول ·

وقال لي « ان هذا المالك صديق لي يا لوسي ويحترمك كل الاحترام ولشدة عجبي علمت منه أنه لم يكن سوى المسيو « ميريت » صاحب المكتبة الطيب القلب العصبي المزاج الذي شق لي بين الصفوف مكانا وهيأ لي مقعدا ليلة المهرجان المقام في المتنزه وعلمت أن المالك محترم يملك ثروة

كبيرة وعدة دور في حي فوبورغ وكان أيجار الدار « المشتمل » معتـــدلا يعادل نصف قيمته عند الاخرين وهو قريب من وسط « نيـبت » ٠

وقال المسيو بول لي « واذا جاء الحظ على غـير ما تترقعين ـ وان كنت عتقد بانه سيجيء رغن ما تشائين ـ فان دفعني تقـــول لي انت ستكونين في ايد آمينه فالمسيو ميريت لن يسعى لابتزازك فاجـرة اسـام الواحد موجودة لديك ادخارا وبعـدها على الانسـة لرسي أن تتـق بانه وبنفسها والان ما هو موقفك من التلميذات ؟ فاجبته « ساوزع عليهن نشرتي التمهيدية » وقال لي « صح ما ستفعلينه ولكني لا تضيعي الوقت أقول لك انني أعطيت واحدة للمسيو ميريت بالامس » وقلت له « ايهـا السيد أنت لم تنس شيئا ٠٠ أنت مدهش ٠٠ وأقول لك انني لا اتوقع أن يرسل البورجوازيون بناتهم الى مدرستي النهـــارية الصغيرة ولـن يهمني شيء ان لم يأتوا وسأفتخر ان جاءت بنات أمثال بنات المسيو ميريت ٠

وتابع المسيو بول كلامه قائلا « زيدي على ذلك أن هنالك تلميذة وعدت بارتياد مدرستك لتعلم اللغة الانكليزية ولانهـــا غنية فستدفع لك أجورا عالية وهي عرابتي جوستين ماري وقلت له « ما هو الاســم ؟ هذا الاسم الثلاثي ما شأنه ؟ والى تلك اللحظة كنت أصغي بسرور عارم وأجيبه بسرعة مرحة ولكن هذا الاسم جمد دمي في عروقي وكففت عن الكلام ولم أنبس ببنت شفة ولم يخف تأثير ذلك على سيـمـاء وجهي وفي الحقيقة أنني لم أقو على اخفائه فقال لي المسيو بول « ما دهاك ؟ » فقلت له « لا شيء » وقال لي متسائلا « تقولين لا شيء ؟ ! » لقد تغيرت ملامح وجهك وبهت لونك ولون عينيك أتقولين لا شيء ؟ أنت مريضـــة اذن وربما مجهدة أو تعانين من أمر ما فقـــولي لي ما هو ؟ » وقلت لـه « ليس لدي ما أقوله » ٠

وقرب كرسيه مني ولم تبد عليه الحيرة أو الغيظ رغم أنني ظللت صامتة وباردة وحاول أن يدفعني الى الكلام وراح يستعطفني ويتوسـل الي دون أن يكل وانتظرني بفارغ الصبر ٠ وقال لي « جوستين ماري فتاة فاضلة مطواعة وودودة وليست سريعة الغضب فلو تعرفت عليهـــا لاحببتها » وقلت له « لا أظن ذلك ولا أريدها أن تأتي هنـــا » وقال لي « أتريدين أن تربكيني وتحرجيني ؟ في الحقيقة لابد أن في الامر شيئا

•• ها أنت شاحبة الوجه كهذا التمثال •• اعتمدي على بول كارلوس واعلميه بالذي يغمك » •

ولامس كرسيه كرسيي ومد يده الي وأمالني صوبه وقال لي مرة اخرى متسائلا «هل تعرفين جوستين ماري؟» فقلت له «ان الاسم الذي تلفظه انهكني وشل قواي بلا حدود ، لم ينهكني فحسب بل أثارني وأهاجني وسخن دماء عروقي » • وتذكرت ساعة الالم المفاجيء وأيام مرض القلب ولياليها ومهما كان من امر دنوه مني كما هو الان ومهما كان من أمر التحام حياته بحياتي التحاما قويا ومهما كان من أمر ابتعاده عني ثم تقربه مني والتحام عواطفه بعواطفي فان فكرة التدخل فيما بيننا وانفصال قلبينا لا يمكن الاصغاء اليها الا وسط هياج عارم وانفعال عنيف طائش وغضب ومقاومة ولا يمكن لاية عين بشرية أو وجنة بشرية ازاءها أن تخفي شرارة غضبها ولا يمكن لاي لسان بشري اعتاد على قول الصدق أن يكبح صراخ الغضب وقلت له « أريد أن أقول لك شيئا •• اريد أن أبوح لك بكل شيء » •

قال لي « تكلمي يا لوسي ! تقربي وتكلمي •• من ذا الذي ثمنك الم أكن أنا ؟ من هو صديقك ان لم يكن بول عمانوئيل ؟ تكلمي يا لوسي •• تكلمي » ورحت أتكلم وأفلتت شفتاي كل شيء مما هو موجود في خاطري وذاكرتي كالسيل الجارف وعدت القهقرى الى ليلة المتنزه وتحدثت عن جرعة الدواء المطيبة الممزوجة بمادة طبية •• لماذا قدمت لي ؟ وتحدثت عن تأثيرها المدوخ وكيف أبعدتني عن مهجعي وحملتني خارجا بفعل جاذبية خيال زاه ومغرياته •

وتحدثت عن وحدتي في تلك الليلة على المرجة وتحت الاشجار وبالقرب من الصهريج العميق الباردة مياهه وتحدثت عن المشهد والجمهور والمسرحيات القصيرة والموسيقى والمصابيح والاشياء الرائعة ودوي المدافع المسموع من بعيد وقرع الاجراس العالي وكل ما واجهته تفصيلا وكل ما أدركته وعرفته وسمعته ورأيته وراقبته بنفسي وكيف أصغيت وما سمعته كله وما جاء الى فكري حدسا والتاريخ كله اجتزاء •

وبدلا من أن يحقق ويراجع ما سردته حثني على الاسترسال سواء بايماءة منه أو بابتسامة أو بنصف كلمة تبدر منه وقبل أن أنتهي من

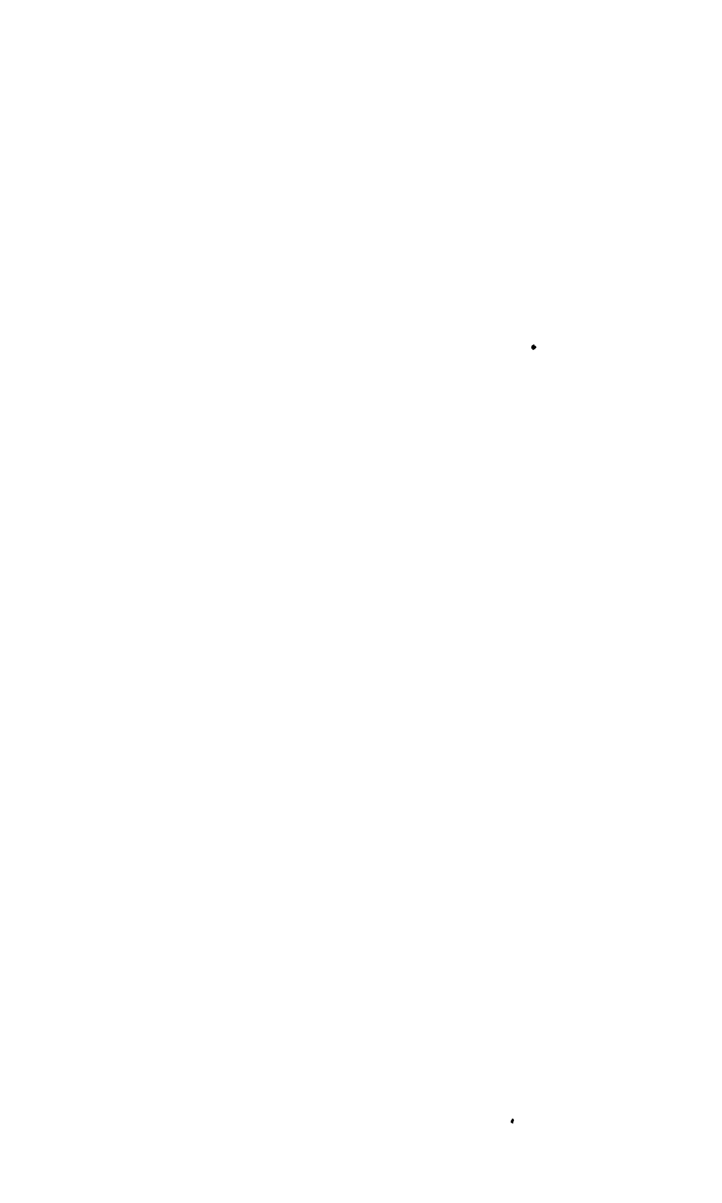
حديثي وسردي امسك بكلتا يدي واستشار عيني بنظرة فاحصة وبدا على وجهه شيء لم يكن المقصود منه هدهدتي أو اسكاتي ونسي مبدأه وتخلى عن عادته في قمع المقابل واخماد صوته .

واظن أنني استحققت منه ملامة وتوبيخا وأنني كنت في حالة عجرفة وحمق عندما منعت جوستين ماري من أن تدخل داري او تبقى تحت سقفي غير أنه ابتسم لي وأظهر جانبه المرح ولم ادر ان كان في مزاجي مثل هذا الغضب والغيرة والخيلاء حتى يومنا هذا وضمني الى صدره وشعرت بأنني خجلة من أخطائي وأخذني وأخذ كل شيء بدر مني الى الدار وفي تلك الحالة التي استبد فيها الغضب بي احتفظ هو بتعابير السلام المرسومة على وجهه وشنف سمعي بكلماته التالية .. « يا لوسي اليك حبي . قاسميني حياتي وكوني أعز ما لدي على الارض » .

وعدنا القهقرى مشيا على أقدامنا الى شارع فوسيت تحت ضوء القمر الذي ألقى بأنواره على الحديقة الكبرى وأثناء السير أخبرني المسيو أن الفتاة جوستين ماري سوفير مخطوبة - برضاه - منذ أشهر لشاب الماني تاجر اسمه هنريخ موهلر على أن يتم الزواج خلال عام واحد وان بعض أقربائه (أقرباء بوّل) يبدو انهم يريدون تزويجها منه لضمان ثروة للعائلة أما هو أي بول فانه يرى أن المشروع غير مرغوب فيه وان الفكرة غير مقبول بها كليا .

ووصلنا دار المدام بيك حين كانت تدق الساعة التاسعة في كنيسة يوحنا المعمدان ففي مثل هذه الساعة - وفي هذه الدار - قبل ١٨ شهرا كان بول يمعن النظر في وجهي وفي عيني ويتحدث عن مصيري وفي هذا المساء بالذات أراه ينظر الي ويتحدث عن رسم مستقبلي فكم تختلف مثل هذه النظرة عن تلك وما أبعد مصيري ذاك عن مصيري هذا ..

واعتبرني آنذاك مولودة تحت نجمته التي تنشر نورها علي كنشر البيرق وفي ذلك الوقت الذي كنت لا أعرفه معرفة صحيحة ولم اكن أحبه واعتبرته فظا واعتبرت كلامه غريبا وأغاظني القوام القصير والتكوين النحيل واللون الاسمر والسلوك والاخلاق أما الان فاراني تحت كنفه عائشة بعطفه وحبه وأفضله الآن على كل الانام . وافترقنا وأعطاني كلمة عهد بعودته وودعني وافترقنا وفي اليوم التالي أبحر .



الفصــــل الثــــاني والاربعـــــون

ـ النهـــــــايـة ـ

الانسان لا قدرة له على التنبؤ وليس الحب مهبط الوحي فالخوف يتصور في بعض الاحيان أشياء تافهة ٠٠ تلك الاعوام اعوام الغياب كم امرضتني توقعاتها وويلاتها التي ابتليت بها وقربتني من حافـــة الموت المؤكد فقد أدركت طبيعة حرياتها ولم أتشكك بعذاباتها ٠ لقـــد غاب المسيو عمانوئيل عني ثلاثة أعوام وهذه الاعوام كانت أسعد أعوام حياتي واذا كنت أيها القاريء تستغرب من هذا التناقض فاصغ لما سأقوله ٠

باشرت في مدرستي واشتغلت ٠٠ اشتغلت بشكل مجهد واعتبرت نفسي وصية على ملكه ويعرف الباري أنني صممت على أن أقدم عنـــد عودته كشف حساباته وارتادت الطالبات مدرستي ، المواطنون العاديون في أول الامر ثم سرعان ما انهالت عليها فتيات الطبقة الراقية ٠

وعند منتصف العام الثاني دخلت يدي بالصدفة مئات اضافية من الباونات وتلقيت من انكلترا رسالة بهذا المبلغ الذي أرسله الي المستر مارشمونت وريث وابن عم سيدتي العزيزة التي توفيت بعد أن خدمتهـا في دارها أرسلها لي بعد أن شفي من مرض خطير ألـم بـه وكان المبلغ هدية من سيدتي الي بعد أن عثر على وصيتها هذه بطريقة الصدفة وفيها اسمي لوسي سناو وأعطت السيدة باريت عنواني اليه ولم أدر اذا كان ارساله المبلغ الي نتيجة تقريع الضمير أم لا ولم احـاول أن أعرف شيئا من هذا القبيل انما اكتفيت باستلام المبلغ والاستفادة منه ٠

واستفدت من المبلغ بأن جازفت فاشتريت الدار المجـاور لداري وأصبحت مدرستي الخارجية داخليـــة وأفلحت في مشروعي ولم يكمـن

سبب النجاح الذي لاقيته في نفسي بدرجة كبيرة ولا في موهبتي ولا في قوتي واقتداري بقدر ما كمن في حالة جديدة من الظروف الطارئة وفي حياة تبدلت تبدلا مدهشا وفي قلب مفرج عنه يشعر بالارتياح ٠

ان الربيع الذي حرك طاقاتي كان يكمن بعيدا وراء البحـــار في جزيرة هندية وعند الوداع حصلت على ميراث من تفكير في الحاضر وأمل في المستقبل وحافز للمثابرة على طريقة السير في مشروعي المجهد وعلى منهجي المتسم بالصبر والجرأة ولم أهن ولم أنكس الرايـــة ولم تهزني أحداث قليلة أما معظم الاشياء فقد كانت تبهجني وتنير دربي ٠

ولا تتصور ان هذا الشعور الكريم بقي أو عـــاش كليا على أمـل موروث أو وعد من وعود الفـــراق فهناك ممون سخي مونني بوقـــود وفيرة وقتني من كل قشعريرة برد ومن كل ضيق وما كنت لاعاني من مرارة الفقر المدقع ولم أكن لاتوقع القلق أو أترقبه ففي كل بريد كانت لي رسالة منه ملأى بالعطاء الثر وبالحب الصميمي ٠

كان يكتب لي لأنه كان بحاجـــة الى أن يكتب ولم يكن ليختصـــر لانه لم يكن يريد الاختصار فقد كان يجلس ويتناول ريشة الكتابة والورق لانه كان يحب لوسي وفي قلبه الكثير مما يريد أن يفضي به لهـــا كتابة ولانه كان مخلصا كثير الاهتمام زاخر المشاعر ولانه كان حنونا وصادق الولاء بعيدا عن الخداع والاحتيال ولا كذب في دخيلته ٠

ان الاعتذار لم يقطر زيته الزلق على شفتيه ولم يعرض أحاديثـه الجبانة بريشتة ولا أباطيله الخسيسة ولم يكن يلسع أو يثبط العزيمـة في رسائله فقد كانت رسائله قوتا حقيقيا يغذيني وماء قراحا يسقيني ويبل عطشي به ٠ وهل كنت أنا ممتنة منه ؟ الله يعـــلم فما من بشري لا يكون ممتنا لكائن بشري يتعامل بمثل هذا العطف وبشكل متواصـــل ونبيل ولم يكن يريدني أن أبدل طريقتي الذهبية انما أعطاني الحرية في أن أكون كما أشاء لانه من شاكلتي ولانه ولد صادقا ومخلصا بلا تزوير ولا مكر ولا احتيال حرا وليس عبدا ٠

والآن انصرمت الاعوام الثلاثة وتأكدت من عودة المسيو عمانوئيل في الخريف وسيكـــون معي قبـــل ضباب تشرين الثاني ٠ ان مدرستي ازدهرت وبيتي جاهز وبيات له مكتبة صغيرة ملئت رفوفها بالكتب التي

كان قد أودعها عندي وبالكتب التي كان يفضلها على سواها وفي فكري أنني أحببته عندما سافر وأحبه الان بدرجة أخرى فهو لي أكثر من السابق ·

الشمس عبرت الاعتدال الربيعي أو الخريفي أي عبرت خط الاستواء وقصرت ساعات اليوم وذوت أوراق الاشجار وصوحت وانه قادم الي · كان البرد القارس يظهر في الليالي وأخذ شهر تشرين الثاني يبعث ضبابه مقدما والريح تنقل عويل الخريف ولكنه قادم الي · السماء مدلاة بكمالها وظلامها والسحب العالية المفرقة تأتي من الغرب وتتخذ الغيوم أشكالا غريبة من قناطر الى طاقة من الاشعة ·

وتتوالى الأصباح بعد الامسيات متالقة وبهية وذات سلطة كسلطة الملك في الدولة والسماوات شعلة واحدة مضيئة ومقفرة · أنني عليمة ببعض علائم الاجواء فقد دأبت منذ طفولتي على مراقبتها وملاحظتها ويا الهي عاين ذلك الشراع برحمتك واحرسه ! · كانت الرياح تتحول صوب الغرب وهي تعول وتنادي بالويل والثبور عند كل نافذة · انها ترتفع وتنتفخ ثم تتقلص ثم تهيم عبر الدار في هذه الليلة ولست أقوى على هدهدة عصفاتها والساعات المتقدمة تزيدها قوة وعند منتصف الليل يسمع كل المسهدين ويخشى الزوبعة العاتية القادمة من الجنوب الغربي ·

وتلك الزوبعة زارت وهدرت مدى سبعة أيام ولم تتوقف الا بعد أن امتلأ المحيط الاطلسي بحطام السفن الغارقة في مياهه ولم تتوقف الا بعد ان ابتلعت أعماقه كل شيء ، ولم تتوقف الا بعد أن أنجز ملاك العاصفة مهمته الكاملة وطوى جناحيه اللذين يعتبر كل حفيف منهما رعدا قاصفا وكل خفقة ريش من رياشهما زوبعة هابة ·

أيها السلام حل في تلك المناطق حيث ألوف النائحين أو المصلين ينتظرون عذابهم عند السواحل يصغون لصوت لم ينطق أو يتلفظ به أحد · وعندما حل السكون لم يحس البعض به وعندما عادت الشمس كان ضوؤها بمثابة ليل عند البعض ·

قف هنا • قف توا ويكفي ما قيل ودع آمال التصورات والخيالات المشمسة وخلها واسمح لهم أن يتحسسوا بالمرح وبالفــــرح مــرة أخرى بعيدين عن الرعب الاكبر وان ينعموا بأعمال الانقاذ ممن حلت بهـــم الاخطار والاهوال وبالارتياح المدهش العجيب من الرهبـــة والفــزع وبالاستمتاع بعودتهم • دعهم يتصورون ويتأملون زيجــاتهم وحيواتهم المستقبلية السعيدة •

لقد كانت المدام بيك في حالة ازدهار طيلة أيام حيـــاتها وكذلك الاب سيلاس أما المــدام والرافينس فقد بلغت التسعين من عمرها قبل أن تتوفى •• وداعــــا ••

فيليت

آخر واعظم ما ألفته الشاعرة والكاتبة الروائية المشهورة شارلوت برونتي بعد روايتها الشهيرة « جين اير » .

- سياق روائي مليء بالمفاجآت ، تحليل دقيق ، مظاهر الحب العنيف .
- وصف شاعري لأروع منه .

رواية « فيليت » قطعة خالدة من الأدب الكلاسيكي العالمي .

- قلوب منسحقة جوى في مدرستها الداخلية للبنات .

الروعة في رواية « فيليت »

عندما فرغت جورج ايليوت من قراءة رواية « فيليت » لدى أول ظهورها في عام ١٨٥٣ جلست في حالة انفعال شديد وكتبت لصديقة لها « انني الآن فقط أعود الى التحسس بالعالم الحقيقي الذي يكتنفني بعد أن قرأت رواية « فيليت » وهو مؤلف مدهش آخر لـ شارلوت برونتي ظهر بعد « جين اير » فيه ما هو خارق للطبيعة تقريبا في تأثيره وسلطانه .

السعر ٥٠٠ر٢ دينار

فيليت